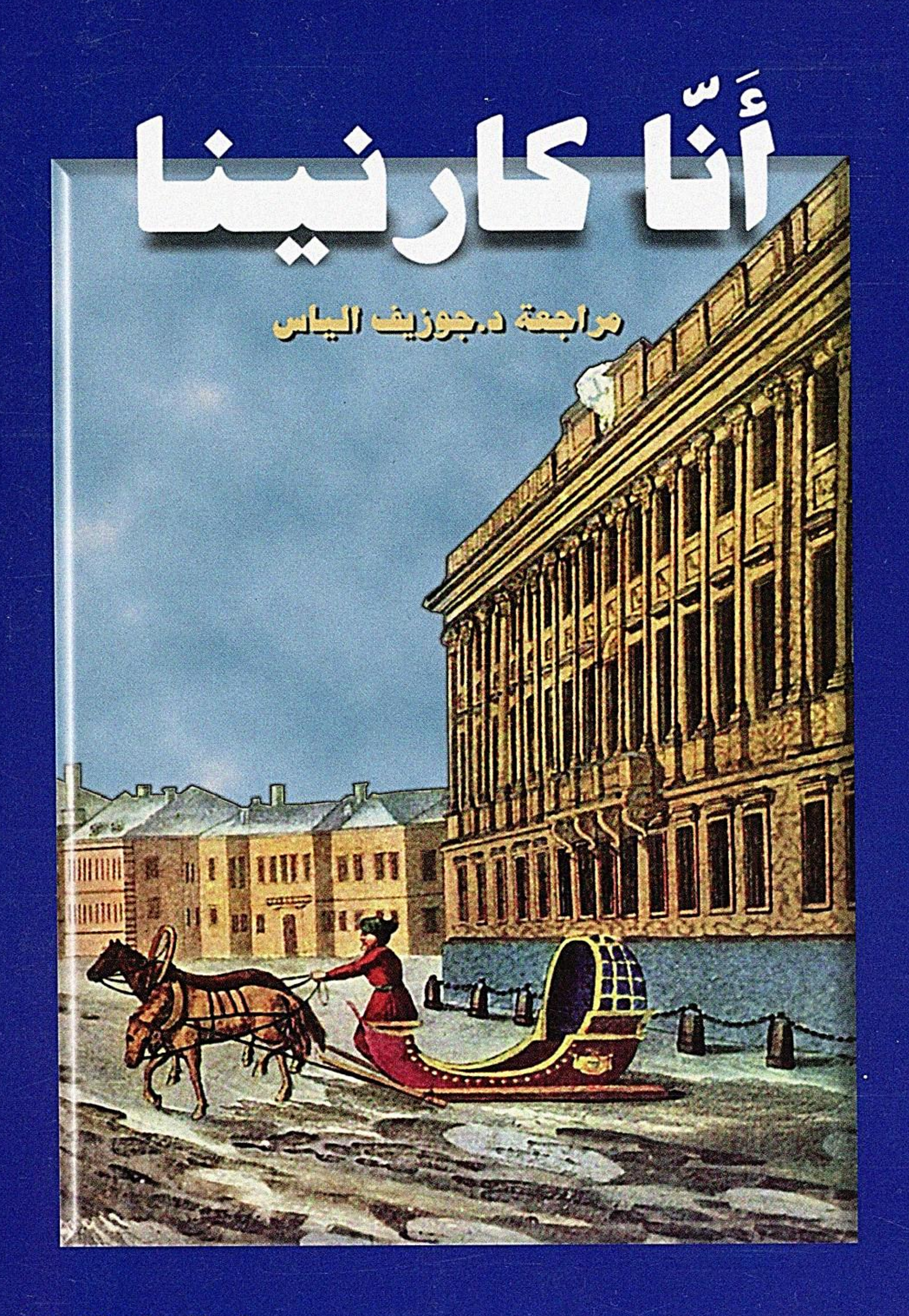
ليون تولستوي

ترجمة إميل بيدس

أَنّا كارنينا

مراجعة د. جوزيف الياس



دار العلم للملايين

أَنّا كارنينا



ليون تولستوي

ترجمة إميل بيدس

أَنّا كارنينا

ضبطَ لغتَها و وضعَ أسئلتَها و قدَّم لها

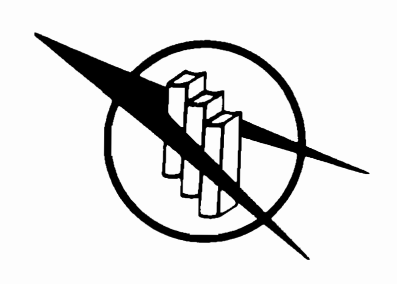
د. جوزيف الياس

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
بيروت ٢٠٤٥ ٨٤٠٢
لبنان
www.malayin.com



الطبعة التاسعة

٢٠٠٩

«إنّ هذا الكتاب مطابق للأنظمة والقوانين النافذة ومشتمل على مضامين المناهج الصادرة بالمرسوم رقم ١٠٢٢٧ تاريخ ١٩٩٧/٥/٨، وقد جرى تقييمه والموافقة عليه من قبل المركز التربوي للبحوث والانماء لهذه الجهة فقط بالمستند رقم ٣٦٤/ت ك/ ٩٨ تاريخ ١٩٩٨/١٠/٨ وأن المركز غير مسؤول عن الأخطاء التي قد ترد في هذا الكتاب من أي نوع كانت».

مقدِّمة

حين صدرت المناهج التربويّة الجديدة في لبنان سنة ١٩٩٧، جاء في منهج «اللّغة العربيّة وآدابها» بند خاصّ بـ«الثّقافة الأدبيّة العالميّة». وعُلِّل، في الأهداف الخاصّة للمنهج، اختيارُ الآثار الأدبيّة العالميّة للمطالعة الموجّهة في المرحلة الثانويّة، فجاء في التّعليل أنّها اختيرَتْ «لتنمية ثقافة المتعلِّم الأدبيّة بالتّعرُّف إلى نماذجَ من روائع الأدب العالميّ ذات النزعة الإنسانيّة». وهكذا اختيرَتْ رواية أنّا كارنينا (أو: آنا كارنين) للسّنة الأولى الثّانويّة، وخصّص لها نصاب تدريس قدره عشر ساعات من مئة وخمسين ساعةً وهي مجموع نصاب تدريس اللّغة العربيّة وآدابها في السّنة الأولى من المرحلة الثّانويّة.

لقد فكّرنا طويلًا قبل اختيار هذه الترجمة، وتردّدنا بين الشّروع في ترجمة جديدة، واللّجوء إلى إحدى التّرجمات القديمة الموجزة، أو اللّجوء إلى ترجمة مطوّلة، فكانت الخيارات أمامنا جدُّ محدودة. فالتّرجمة الأمينة قد تتعدّى الألف من الصّفحات، وبين يدينا نسخة من هذا النّموذج المطوّل، هي تلك الّتي وضعها الأستاذ صيّاح الجَهيم، ونشرتها وزارة الثّقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة سنة ١٩٨٤، فجاءت في ثلاثة أجزاء، وفي ما يربو على ألف وأربع مئة صفحة. أمّا التّرجمات الأخرى والأكثر شيوعًا في العالم العربيّ، فمعظمها من النّوع البالغ الإيجاز، حتّى لَتَراهُ أقرب إلى أُنموذج «كتاب الجَيب».

وبعد جهد وتفكير، وأخذ وردّ، وقع اختيارنا على ترجمة معتدلة القطع أو الحجم، وفي موقع وسط، فرأيناها تلائم المستوى التربويّ المطلوب. وهي تلك الّتي وضعها الأستاذ إميل خليل بيدس. والمترجم كاتب وأديب معروف نقل عن الإنكليزيّة عددًا غير قليل من الكتب الأدبيّة. ونحن إذ نذكر المترجم الآن، فالواجب يقتضينا أن نترحّم عليه، بعد أن جاءنا نعيه ونحن نخطّ السّطور الأولى من مسوَّدة هذه المقدّمة، إذ توفّاه الله يوم ١٦ أيلول ١٩٩٨. أمّا التّرجمة الّتي ندرس، أي ترجمة الأستاذ بيدس، فتتألّف من أربعة أقسام رئيسة، فيها تسعة وثلاثون فصلًا وخاتمة.

منهجنا في إخراج هذه التّرجمة إخراجًا تربويًّا ناجحًا، هو الأمانة في الحفاظ على النّصّ، ما دام النّصّ سليم اللّغة منزّهًا عن الرّكاكة واللّحن والعجمة، معبّرًا عن فكر المؤلِّف بيسر وسهولة. فنحن قد عمدنا إلى النّصّ المترجَم، فراجعناه مراجعة لغويّة صرفًا، وتداركنا ما فيه من خلل، وضبطناه بالشّكل ضبطًا تامًّا، وشرحنا من مفرداته ما وجدناه جديرًا بالشّرح، عسيرًا على فهم التّلميذ، ثمّ ذيَّلنا كلّ فصل بطائفة من الأسئلة، فبلغ مجموع الأسئلة في ذيل الفصول والخاتمة ثلاث مئة وأربعة وعشرين سؤالًا.

وحين انتهينا من الفصول والخاتمة تصحيحًا وضبطًا واستثمارًا، وضعنا حول الرّواية طائفة من الأسئلة التّحليليّة العامّة، الّتي بوّبناها تحت خمسة عناوين رئيسة، وبلغ عددها واحدًا وأربعين سؤالًا. وبذلك يكون مجموع ما طُرِح من أسئلة حول الرّواية كلّها ثلاث مئة وخمسةً وستّين سؤالًا.

ولربّما خال الدّارس أو قارئ الرّواية أنّنا توقّفنا هنا واكتفينا بهذا القدر؛ وإذ ذاك يكون من حقّه أن يسألنا المزيد، وأن يتساءل: أين الدّراسة والتّحليل والنّقد وما إلى ذلك؟ والتّساؤل هنا طبيعيّ ومشروع. لذا نقول لزملائنا وإخواننا الأساتذة وأبنائنا الطّلبة إنّ العملَ لم ينتهِ بعدُ، والرّسالة لم تُؤَدَّ على وجهها الأكمل. فإليكم الآن الرّواية بوضعها الحاضر وبالشّكل الّذي انتهت إليه. نقول هذا لمَن شاء أن يكتفي بهذا القدر من العمل، ولمَن اكتفى بما طُرِح حول العمل الرّوائيّ من أسئلة وأخذ ما تبقّى من درس وتحليل على عاتقه. أمّا مَن شاء الاستزادة وطلب إلينا الدّرس والتّحليل، فسيأتيه ما يشاء فور صدور هذه الرّواية، وهو دراسة تحليليّة نقديّة شاملة تصدر في كتيِّب مستقلّ كيلا تؤثّر سلبًا في الرّواية، فتُضعِفَ دور الأسئلة التّحليليّة، أو تفقدها مسوّغ وجودها إن هي أُلحِقت بها.

هذه هي رواية «أنّا كارنينا» أو «آنا كارنين» في لغة بعضهم، فعسى أن يجد فيها أبناؤنا التّلامذة المتعة والفائدة، وأن يجد فيها زملاؤنا الأساتذة ضالّتهم المنشودة وكتابهم الأفضل.

والله من وراء القصد

بيروت في ٢٠ أيلول ١٩٩٨ **جوزيف الياس**

الأهداف التّعلُّميّة*

جاء في الأهداف التّعلُّميَّة لمادّة الثقافة العالميّة أنّ تعليم هذه المادّة يهدف إلى جعل المتعلّم قادرًا على:

أ - التّعرّف بنماذج من روائع الأدب العالميّ ذات النّزعة الإنسانيّة المنقولة إلى اللّغة العربيّة.

ب - التّزوّد بقراءة هادفة تعزّز فيه الميل إلى حبّ المطالعة، فيتدرَّب عليها تفسيرًا وتلخيصًا ومناقشةً، إسهامًا في بناء شخصيّته فكريًّا واجتماعيًّا وجماليًّا.

ج - التّمكّن المتدرّج من مقارنة هذه الآثار بما يعرفه من الأدب العربيّ.

د - تنمية خياله وذوقه بنماذج متنوّعة من التّصوير الأدبيّ والمعالجة الفنّيّة.

الوسائل والأنشطة

- إعداد بحث تحضيريّ موجز يتناول سيرة المؤلِّف وأعماله.
- تلخيص الأثر المدروس أو جزء منه.
- توزيع المتعلّمين مجموعات يتولّى كلّ منها دراسة عنصر من عناصر الأثر أو جزء منه ثمّ عرضه ومناقشته.
- إستضافة كاتب أو ناقد وإجراء حوار معه حول الأثر وما يطرحه من قضايا.
- قراءة الأثر ثمّ مشاهدته فيلمًا سينمائيًّا في حال توافره والمقارنة بينهما.
- نقل جزء من الأثر المدروس إلى عمل إذاعيّ أو مسرحيّ في إطار المدرسة.
- إعداد جداول مقارنة بين شخصيّات الأثر المدروس.

(*) «تفاصيل محتوى منهج مادّة اللّغة العربيّة وآدابها»، التّعميم ٢٩/م/٩٧، ١ آب ١٩٩٧، ص ٥٢.

تولستوي (Tolstoï)

أوّلًا - حياته

ولد ليون نيكولايڤيتش تولستوي يوم ٢٨ آب ١٨٢٨ في «ياسنايا پوليانا» من أعمال مقاطعة «تولا» في روسيا القيصريّة، وفي بيت عريق النّسَب، إذا كان أبوه يحمل لقب «الكونت» وأمّه تحمل لقب «الأميرة». بيد أنّ أمّه تُوُفِّيت وهو في الثّالثة، فأُسندت تربيته إلى إحدى عمّاته. وبعد سنوات قليلة تُوُفِّي الأب، فوُضِع أولاده تحت وصاية عمّتهم، ثمّ أقاموا سنة ١٨٤١ عند عمّة أخرى.

إلتحق تولستوي سنة ١٨٤٤ بكلّيّة اللّغات الشّرقيّة، لكنّه ما لبث أن عدل عنها في العام التّالي إلى كلّيّة الحقوق. ثمّ ترك الجامعة قبل أن ينهي دراسة الحقوق، وعاد إلى «ياسنايا پوليانا» ليدير أملاكه الشّاسعة ويعيش حياة الملاّكين الكبار.

إلتحق سنة ١٨٥١ بجيش القوقاز، وتدرّج في الرّتب حتّى بات مؤهّلًا لرتبة ضابط، وشارك في العمليّات الحربيّة ضدّ المتمرّدين القوقاز.

شرع يكتب سنة ١٨٥١، وفي العام التّالي بدأ ينشر في مجلّة «المُعاصِر» الجزء الأوّل من سيرته الذّاتيّة تحت عنوان «طفولة».

وفي سنة ١٨٥٤، انتقل تولستوي إلى «جيش الدانوب» حيث رُقّي إلى رتبة ملازم، ثمّ أُلحِق - بناء على طلبه - بجيش القرم، وشهد حصار سيباستبول. وفي سنة ١٨٥٥ شرعت مجلّة «المعاصر» تنشر الجزء الثّاني من سيرته تحت عنوان «مراهَقة»، كما نشرت له بعض أقاصيص الحرب. وفي السّنة التّالية (١٨٥٦)، استقال من الجيش وعاد إلى «ياسنايا پوليانا»، وهناك تابع كتابة القصص ونشرها.

وفي العام ١٨٥٧، كانت بداية أسفار تولستوي إلى الخارج، حيث جال في بضعِ دول

أوروبّيّة. ولمّا عاد إلى روسيا كتب ينتقد الغرب متّهمًا إيّاه بالمادّيّة والبعد عن الرّحمة والإنسانيّة. وفي أواخر هذا العام، نُشِر الجزء الثّالث من سيرته تحت عنوان «شباب». وتابع الكتابة الأدبيّة في العامَيْنِ التّاليَيْنِ، فنشر بعض أقاصيصه، وأبرزها «ألبير» (١٨٥٩).

غادر تولستوي روسيا سنة ١٨٦٠ في سفرة ثانية إلى الخارج، فزار معظم بلدان أوروبّا الغربيّة، واطّلع على مناهج التّعليم الابتدائيّ في الغرب، فرفض النُّظُم التربويّة الأوروبيّة لاعتمادها على الإكراه.

عاد تولستوي إلى بلاده ليُعيَّن عضوًا في لجنة الوساطة، وحَكَمًا في الخلافات الّتي نجمت عن مرسوم إعتاق «القِنّ»[١]؛ لكنّه ما لبث أن استعفى في العام التّالي (١٨٦٢) من عضويّة اللّجنة، وانصرف إلى التّعليم في مدرسته؛ ثمّ أنشأ مجلّة تربويّة حملت اسم «أيا سنايا پوليانا» لنشر مبادئ نظامه التربويّ.

تزوّج تولستوي سنة ١٨٦٢، وانصرف في السّنوات التّالية إلى إدارة أملاكه، فاشترى أراضيَ جديدة، واهتمّ بتربية الماشية. بيد أنّه تابع، في الوقت نفسه، نشاطه الأدبيّ، فنشر عددًا من القصص أهمّها «القوزاق». ثمّ يمّم وجهه شطر العمل الرّوائيّ المطوّل، فشرع في كتابة روايته «الحرب والسّلم»، الّتي بدأت تُنشَر فصولًا في مجلّة «المُراسل الرّوسي» سنة ١٨٦٥، ثمّ نشرت كاملة سنة ١٨٦٨.

إنقطع تولستوي بعد «الحرب والسّلم» عن التّأليف القصصيّ زمنًا انصرف فيه إلى تعلّم اليونانيّة وقراءة آثار أعلامها، ثمّ إلى الهمّ التربويّ ووَضْعِ كتابٍ جديدٍ فيه لتعليم الفلاّحين. وفي عام ١٨٧٣، عاد تولستوي إلى العمل الأدبيّ، وعكف على كتابة «أنّا كارنينا» الّتي صدرت فصولًا على صفحات «المُراسل الرّوسي» قبل أن تنشر كاملة في كتاب سنة ١٨٧٨، وتولستوي يومئذ في الخمسين من العمر، وتلاها في العام التالي (١٨٧٩) كتاب «اعتراف» الّذي صوّر أزمته النفّسيّة والدينيّة والأخلاقيّة.

وفي السّنوات اللّاحقة، توالى صدور مؤلّفات تولستوي الّتي حمل في معظمها على الظّلم الاجتماعيّ، والجور، واستبداد الطّبقة الحاكمة، والإكليروس الأرثوذكسيّ. ونذكر من تلك المؤلّفات: الكنيسة والدّولة (١٨٨١)، مختصر الإنجيل (١٨٨٣)، الجيفة الحيّة

---

(١) القِنّ (جَمعُهُ أَقْنان): العَبدُ المَملوكُ الّذي يُباعُ ويُشرى معَ الأرضِ الّتي يعمل فيها.

(١٨٩٠)، **القيامة** (١٩٠٠). وفي العام ١٩٠١ حرمت الكنيسة الأرثوذكسيّة تولستوي بقرار صارد عن المجمع المقدّس؛ فما كان من هذا إلاّ أن أذاع في العام التّالي «نداء إلى رجال الدّين»، حمل فيه بعنف على الإكليروس الأرثوذكسيّ. ثمّ صدر له سنة ١٩٠٣ كتاب في نقد شكسبير والمسرح. واستمرّ ينشر في السّنوات التّالية، أو سنوات الشيخوخة، مقالاته الثّائرة، فشجب الحرب الرّوسيّة اليابانيّة، وعارض ثورة العام ١٩٠٥ لأنّها قائمة على العنف، وانتقد أحكام الإعدام الجماعيّة.

وفي أواخر شهر تشرين الأوّل ١٩١٠، هرب تولستوي من منزله في أياسنايا پوليانا ليعيش وفق مبادئه، لكنّه أصيب بالتهاب رئويّ حادّ، وتُوُفّي بعد أيّام (يوم ٧ تشرين الثاني)، فأُعيد جثمانه إلى مسقط رأسه حيث دُفِن هناك.

ثانيًا - شخصيَّتُه وتفكيره

تولستوي أديب إنسانيّ النّزعة، ورائد من روّاد الفكر الاشتراكيّ العالميّ. وقد تباينت الآراء والأقوال فيه، فجعله بعضهم في مصافّ الاشتراكيّين المصلحين، وجعله بعض آخر في مصافّ الثّائرين المهدّمين. ارتقى فيه بعضهم إلى مصافّ الفلاسفة والأنبياء، وأنزله بعضهم مصافّ زعماء الفوضويّة[١]، مع أنّه يخالف في مناحي تفكيره ما يذهب إليه الفوضويّون. إنّه يختلف عن هؤلاء في وجوه عديدة، ومع ذلك أمكن اعتباره من بعض الوجوه فوضويًّا، لأنّه كان يحلم بتنظيم المجتمع بلا ملكيّة ولا دولة، لكنّه خالف الفوضويّين في سعيه إلى هذا الهدف من غير عنف. فقد وجد تولستوي خلاص روحه في جوهر الدّين وليس في القشور أو الطّقوس والمظاهر. وما يدهشك في موقف تولستوي هذا أنّ الرَّجل من طبقة النّبلاء في روسيا، وأنّ الرَّجل إقطاعيّ وأرستقراطيّ يحمل لقب كونت. فقد ورث ثلاث مئة فدّان من الأرض يعمل فيها ثلاث مئة وثلاثون فلاّحًا. وإذا به يصل إلى وقت يتنازل فيه عن أملاكه ولقبه وعاداته الموروثة، ويأكل كالفلاّحين، ويرتدي زيًّا كأزيائهم، ويرتق ثوبه بيده.

---

(١) L'Anarchisme. مذهب سياسيّ يدعو إلى إلغاء سلطة الدولة والملكيّة الفرديّة، فهو مذهب «الفوضى الكُلِّيَّة في غياب السلطة المنظِّمة»، وزعيمه ميخائيل باكونين (Bakounine).

ما من شكّ في أنّ «الحرب والسّلم» و«أنّا كارنينا» وضعتا تولستوي في مصافّ مُبدعي العالم وعظماء الفكر. بيد أنّ الدّويّ الذي أحدثه اسم الرَّجل، وما زال يحدثه، ليس نتيجة أدبه وفنّه فحسب، وإنّما هو نتيجة تلك الحياة الفريدة الملأى بالفواجع الإنسانيّة، الممثِّلة أعمقَ ما يخالج القلب الإنسانيّ من شكّ قاتم وقلق معذِّب، ونزوات نحو الإيمان لا تعرف لظمئها ريًّا. فما وصل تولستوي إلى منتصف العمر حتّى وجد أنّه أفرغ مجهوده الفكريّ وبلغ أبعد مدى لعبقريّته الفنّيّة، فإذا به ينقلب بين عشيّة وضحايا من مغرم بالفنّ مفتون به إلى حانقٍ عليه مزدرٍ له.

لقد صار همّ تولستوي أن يبحث عن طريق للخلاص غير طريق الفنّ والإبداع، فحمل على شكسبير ومسرحه، وكتب رسالة يتهكّم فيها بالشِّعر والموسيقى، ويسأل: بم يعود الشِّعر والموسيقى على الشّعب الجائع الرّازح تحت نير الجهل والذّلّ والفاقة؟ ولماذا تُنفق الأموال الطّائلة على مسرحيّة موسيقيّة في دار الأوبرا؟ أمن أجل أن يأتي بعد العشاء أولئك الأثرياء المترفون المتخمون ليصفّقوا مدّة ساعتين، ويعودوا بعد ذلك إلى جحورهم. إنّها لحياة حقيرة حقًّا.

لقد استخلص تولستوي أخيرًا أنّ على الأغنياء والمثقّفين التّخلّي عن هذا البذخ لأنّه كماليّ بالنّسبة إليهم، ولا ينالونه إلاّ بحرمان الشّعب قوتَه الضّروري. لذا نراه يقترح أن يعمل الأغنياء والمثقّفون لسدّ حاجاتهم الضّروريّة، كي يتسنّى للشّعب أن ينصرف إلى تحصيل ما يسدّ رمقه. وهكذا قرّر تولستوي أن يكون القدوة لغيره، فترك المدينة، وشمّر عن ساعديه ليربّيَ مواشيه ويزرع أرضه كفلّاح بسيط. بيد أنّ الرَّجل لم يكتفِ بذلك، فنزل إلى أرض الواقع، ودخل صميم حياة الشّعب، وراح يجوس ليلًا أحياء موسكو القذرة، كي يتعرّف بالآلاف من ضحايا الحياة الّذين ينامون على الأرصفة وفي منعطفات الأزقّة. وعاد تولستوي من جولاته اللّيليّة، فإذا هو رجل جديد مختلف، وإذا بنَفَس جديد يلفحه ويخفق في صدره؛ إنّه نَفَس النّبوّة. وهكذا هجر الفنّ والإبداع، ولم يعد يبالي بأن يصف الحياة بمهارة الفنّان وصدق نظرته، بل أصبح همّه أن يغيّر الحياة بسطوة النّبي وعنف لهجته، وما عاد هذا الرَّجل العظيم يفتح فاه إلاّ ليشاجر ويخاصم، لِيُنْذر ويتوعّد، ليصبّ حمم سخطه على كلّ مَن خالفه في الرّأي ونمط الحياة.

ولطالما تساءل بعض الدّارسين والنّقّاد: فيم أفاد غضب تولستوي ووعده ووعيده؟ فقد رأى كثيرون منهم أنّ مواعظه ضاعت في الهواء، وأنّ صرخاته الّتي تشبه صرخات أنبياء التّوراة قد ذهبت سدًى. فقد أحسّ بالدّاء ولم يهتد إلى الدّواء، وشعر بفساد الحياة، لكنّه إذ أخذ يحارب هذا الفساد، وجد نفسه يحارب غريزة الحياة. وفي آراء بعض المفكّرين الاشتراكيّين أنّ تولستوي لم يقترح للقضاء على الشّرّ غير الخير السّلبيّ، والخير السّلبيّ لا ينزع الشّرّ ولا يقضي عليه. فقد رأى هؤلاء أنّه اقترح الاستسلام وعدم المقاومة، وقبّح العنف والثّورة، بيد أنّ غريزة الحياة كانت أقوى من مواعظه، وهي الّتي انتصرت آخر الأمر أيًّا تكن الآراء في صحّتها ومدى صوابها. ومع ذلك يرى معظم دارسي شخصيّة تولستوي أنّ الشّطر الأخير من حياة الرّجل كان وما يزال أروع مثال لحيرة النّفس الكبيرة وقلقها.

إنصرف تولستوي، في طور الشّيخوخة، انصرافًا كلّيًّا إلى الشّعب الرّوسيّ، ولا سيّما الفلّاح، فهمُّه إشباعُه، وتعليمه، وتحريره. وهكذا بات الشّعب مثاله الأرضيّ، مثلما كان المسيح مثاله الأعلى، وباتت محبّته الشّاملة مستمدّة من رسالة المسيح وتعاليمه، وركناها الأساسيّان محبّة الله ومحبّة القريب.

كثرتِ الأقوال في تولستوي، وتباينتِ الآراء فيه، فمن يكون الرجل؟ أهو أديب، أم فنّان مبدِع، أم ثائر، أم لاهوتيّ، أم فيلسوف، أم حكيم، أم تُراه يجمع بين هؤلاء جميعًا؟ ثمّة شبه إجماع على أنّ تولستوي ثائر، وفوضويّ، ومسيحيّ مؤمن، وفيلسوف، إنّما على طريقته الخاصّة.

لقد ترك تولستوي بصمات واضحة على صفحة الفكر الرّوسيّ، والمجتمع الرّوسيّ، في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان من أبرز المفكّرين (غير العقائديّين) الذين مهّدوا بأطروحاتهم الفكريّة للثّورة البلشفيّة.

أنّا كارنينا (Anna Karénine)

حين أُخطر تولستوي، في كانون الثّاني ١٨٧٢، بوقوع حادث مفجع في محطّة للقطار قرب «أياسنايا پوليانا»، لم يكن يخطر في باله أنّه سيرى عشيقة أحد ملّاكي الجوار السّيّدة آنا بيروغوف جثّة هامدة مقطّعة الأوصال، بعد أن ألقت بنفسها تحت عجلات القطار منتحرة. وفي تلك اللّحظة ومضت في رأس تولستوي فكرة خاطفة، لعلّها كانت الشّرارة الّتي قدحت زناد فكره وقلمه، وألهمته موضوع روايته.

بدأ تولستوي كتابة أنّا كارنينا سنة ١٨٧٣، واستغرق تأليفها نحوًا من أربع سنوات. فقد بدأت مجلّة «المُراسل الرّوسي» نشرَ فصولها الأولى سنة ١٨٧٥، واكتمل نشر هذه الفصول سنة ١٨٧٧، بيد أنّ القسم الأخير من الرّواية لم يظهر على صفحات «المُراسل الرّوسي» لأنّ محرّر المجلّة رفض نشره بسبب آراء تولستوي، فاضطُرَّ هذا إلى طبعه على نفقته. ثمّ نُشِرت الرّواية كاملة في كتاب سنة ١٨٧٨، وتولستوي يومئذ في الخمسين من عمره. وقد جاء نشر أنّا كارنينا بعد مضيّ نحو عشرين عامًا على ظهور رواية فرنسيّة مماثلة، هي «مدام بوڤاري» (Madame Bovary) الّتي نشرها الأديب الفرنسيّ غوستاڤ فلوبير (G. Flaubert, 1821-1880) سنة ١٨٥٧، وروى فيها قصّة امرأةٍ خلعتِ العِذار، ثمّ أنهت حياتها بالانتحار.

أنّا كارنينا أثر أدبيّ عالميّ وإنسانيّ خالد، تُرجِم إلى معظم لغات العالم، وأُعيد طبعه مئات المرّات. وقد تباينت آراء النّقّاد في هذه الرّواية، فوُضِعت فيها دراسات كثيرة راوحت بين الإعجاب التامّ والرّفض النسبيّ، إن لم نقل التّامّ. فمَن أُعجب بها قد أُعجب لأنّه رأى فيها عصارة فنّ تولستوي وخاتمة أعماله الكبرى، ومَن انتقدها فحملَ عليها قد حملَ لأنّه رأى فيها خللًا فنّيًا، ورأى أحداثًا ثانويّة كثيرة تواكب الحدث الرئيسيّ وتكاد تطغى عليه. وهذه حال النّاقد راتشنسكي[١] الّذي لام المؤلّف على تخلخل البناء باعتباره العيب

(١) من مقدّمة «ألكسندر سولوفييف» للتّرجمة التي نشرتها وزارة الثّقافة بدمشق سنة ١٩٨٤، ص ٢٢.

الأساسيّ في الرّواية. بيد أنّ النّقّاد كافّةً أجمعوا على أنّ هذه الرّواية هي عصارة جهد تولستوي، ورأوا فيها الكثير من نفس تولستوي، ومن آرائه ومُثُله وتجاربه الشخصيّة التي يجسِّدها غالبًا البطل الريفيّ ليفين، ويجسِّد بعضها ألكسيس كارنين. كما رأوا فيها لوحة رائعة تصوّر المجتمع الرّوسيّ في أدقّ مرحلة من مراحل تاريخه، فتكشف علله وتناقضاته وطبقيّته وتقليده للغرب، واكتشفوا فيها نفحة إنسانيّة لا مثيل لها في الأعمال الرّوائيّة الأخرى، وجهاد نفس لا مثيل له في البحث عن الحقيقة.

تأتي «أنّا كارنينا» بعد رواية «الحرب والسِّلم» شهرةً وأهمّيّةً وحجمًا، لكنّها أكثر إثارة للجدل من تلك. فإذا كانت «الحرب والسِّلم» قد أرَّختِ البطولة الرّوسيّة في وجه الغزو الأمبراطوريّ الفرنسيّ، فإنّ «أنّا كارنينا» أرَّختِ الحياة الاجتماعيّة الرّوسيّة، ولا سيّما حياة النّخبة. فأحداث الرّواية ساحة تتحرّك في رحابها طبقة من النّبلاء الرّوس الّذين ودّعوا نظام القَنانة (سنة ١٨٦١)، وانتقلوا من الإقطاع القديم إلى أرستقراطيّة جديدة، جمعت بين إرث الإقطاع وقِيَم المجتمع الرأسماليّ. وهي أرستقراطيّة ترعرت على يد الأرستقراطيّة الأوروبيّة الغربيّة، فترسّمت خطى النّخبتَيْن الفرنسيّة والبريطانيّة، وبات النّبلاء الرّوس «يرطنون» في مجالسهم بالفرنسيّة، وإذا قرأوا كانت قراءتهم بالفرنسيّة والإنكليزيّة.

تطفو على سطح الحدث في أنّا كارنينا نماذج بشريّة متنوّعة، معظمها مريض مرض الطّبقيّة، مرض النّبل، مرض الإرث الثّقيل، والنّماذج البشريّة هذه هي غالبًا نماذج مهتزَّة غير سويَّةٍ، تتفاعل في داخلها صراعات كثيرة، أبرزها ما بين القلب والعقل أو بين الحبّ والواجب، وما بين القديم والجديد، وما بين العبوديّة والعدالة أو المساواة، وما بين القشور واللّباب، وما بين تخلُّف الإكليروس وحركة التّنوير في أوساط المثقّفين الرّوس.

وفي رواية «أنّا كارنينا»، ثمّة مجال رحب أمام تولستوي كي يسخر، وينتقد، ويتهدَّد، ويتوعّد، ويهاجم، ويعظ، ويبشّر. ولا عجبَ إذا ما انتهى القارئ إلى أنّ تولستوي في هذه الرّواية مؤمن في العمق، ولاهوتيّ كبير، إنّما على طريقته. فهو ما فَتِئَ يبشّر بالمحبّة، ويذوب رحمةً، ويغفر لمن أساء إليه، ويرفض أن يكون أوّل مَن يرمي الزّانية بحجر. بيد أنّه بقي في مسألة الزّواج مقيَّدًا بحدود الشريعة والقانون.

القسم الأوَّل

الفصل الأوَّل

مَنشأُ السَّعادةِ نِعمةٌ، والشَّقاءُ مَنشَؤُهُ نِقمةٌ.

السَّعادةُ وليدةُ أُمٍّ، والشَّقاءُ لَهُ ألفُ أُمٍّ.

العائلاتُ السَّعيدةُ تَرتَعُ في جَنَّةٍ، والعائلاتُ الشَّقيَّةُ تَتمَرَّغُ في ألفِ جَحيمٍ.

أسبابُ السَّعادةِ تَتشابَهُ، وأسبابُ الشَّقاءِ تَتفرَّعُ إلى أغصانٍ وأفنانٍ.

كانَتْ عائلةُ «أوبلنسكي» مُضطرِبَةً غاضَتْ سَعادتُها، وتَلاشى اسْتِقرارُها، وحَفَّ بها الشَّقاءُ مِن كُلِّ جانبٍ.

فالزَّوجُ حادَ عن الصِّراطِ، والزَّوجَةُ اكْتَشَفَتْ ما نَزَعَ إليهِ قَلبُ قَرينِها، فقد كَلِفَ[1] بالمُرَبِّيَةِ الفَرَنْسيَّةِ الحَسْناءِ الَّتي كانَتْ ترعى أولادَ الأُسرةِ كَلَفًا شَديدًا، وهامَ بها حُبًّا، وعاشَرَها مُعاشَرَةَ الأَزْواجِ.

وشاعَ الحُزْنُ في قَلْبِ المَرأَةِ المَخْدوعَةِ، فشَعَرَتْ بالمَهانَةِ، وأَحسَّتْ بتقوُّضِ الآمالِ[2]، وجهَرَتْ بعزمِها على صَدِّ زَوجِها عنها، والانْفِرادِ بَعيْشِها، وكأنَّها لم تُبْعِلْ[3] ولم تُنْجِبْ أَوْلادًا!

وانْقَضَتْ أَيَّامٌ ثلاثةٌ عَمَّتْ خِلاَلَها الفَوضى، وسادَ الارْتِباكُ، وانحلَّتِ الأَواصِرُ[4]، وانفكَّتِ الصِّلاتُ، وثَبَتَ أَنْ لا مَنْدوحةَ للزَّوْجَيْنِ مِنَ الانْفِصالِ.

واغتَنَمَ الأطفالُ فُرصةَ الجَفاءِ المُسْتَحكِمِ، فَعَبثوا ما شاء لَهُمُ العَبَثُ، وسَبَّبوا للخَدَمِ مِنَ المَتاعِبِ ما اضْطَرَّهُمْ إلى التَّفْكيرِ بِتَرْكِ الخِدْمةِ، والبَحْثِ عن بَيْتٍ آخَرَ يُظَلِّلُهُ الوِئامُ ويَسودُهُ

---

(١) كَلِفَ بالمُرَبِّيَةِ: أَحَبَّها وتَعَلَّقَ بها.

(٢) تَقَوُّضُ الآمالِ: انْهِدامُها وضَياعُها.

(٣) لم تُبْعِل: لم تَكُنْ ذاتَ بَعْلٍ (زَوجٍ) أي لم تَتَزَوَّجْ.

(٤) الأَواصِر: مُفْرَدُها آصِرَةٌ وهي صِلَةُ القَرابَةِ.

الاتِّفاقُ والسَّلامُ.

ولاذَتِ[1] الزَّوجةُ بغُرفَتِها فلم تَبْرَحْها، وهامَ الزَّوْجُ على وَجْهِهِ وَجَعَلَ يَقْضي سَحابةَ نَهارِهِ مُتَنَقِّلًا مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ. فإذا ما قَفَلَ راجِعًا، قَضى لَيْلَهُ في غُرْفةٍ أُخرى غيرِ مَخْدَعِهِ.

وفي صَباحِ اليَوْمِ الثَّالِثِ لِنُشوبِ النِّزاعِ استَيْقَظَ الأَميرُ «ستيفانُ أوبلنسكي» مِن نَومِهِ كما اعْتادَ أَنْ يَسْتَيقِظَ كُلَّ صَباحٍ، فتثاءَبَ وتَمَطَّى، واسْتَعادَ إلى الذَّاكرةِ صُوَرًا مِن الحُلْمِ الَّذي أَلَمَّ بهِ، والأَشباحِ الَّتي طَوَّفَتْ بمُخَيِّلَتِهِ، ثُمَّ تَذكَّرَ فَجْأَةً أَنَّهُ لا يَنامُ إلى جانِبِ زَوْجِهِ، بل على الأَريكةِ الجِلْدِيَّةِ في مَكْتَبِهِ. فَتَمَلْمَلَ في مَكانِهِ مُتَضوِّرًا[2]، إلَّا أَنَّهُ عادَ فانْطَرَحَ على وَجْهِهِ، وما عَتَّمَ بَعْدَ قَليلٍ أَن دَفَنَ رَأْسَهُ في الوِسادةِ، وغاصَ في لُجَّةِ الفِكْرِ...

فَتَذَكَّرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ السَّوْداءَ الَّتي حَوَّلَتْ حَياتَهُ إلى جَحيمٍ... وصَاحَ وَهْوَ يَرى ما جَرى، بصَوْتِ اليائسِ الوَلْهانِ: «إنَّها أَصْعَبُ مِراسًا مِنْ كُلِّ امْرأةٍ سِواها، ولن تَغْفِرَ لي، لن تُغْضِيَ[3]، لن تَنْسى».

لقد عادَ في تِلكَ اللَّيْلةِ التَّعِسَةِ مِن مَلْعَبِ التَّمثيلِ وَهْوَ يَمْشي بزَهْوٍ وخُيَلاءَ، ولا يكادُ يَطَأُ الأَرْضَ عُجْبًا وسَعادةً، ودَلَفَ إلى البَيْتِ بخُطاهُ الثَّابتةِ وفي يَدِهِ إجّاصَةٌ كبيرةٌ ناضِجةٌ.

وبَحَثَ عن زَوْجِهِ فلم يَجِدْها في الرَّدْهةِ الَّتي اعتادَ أَنْ يَجِدَها فيها كُلَّ لَيْلةٍ؛ فوَلَجَ غُرفةَ المائدةِ، فلم يَلْقَها هُناكَ أيضًا. وَهَجَسَتْ نَفْسُهُ وَحَدَّثَتْهُ بالشَّرِّ، أَلَيْسَ مُذنِبًا هُوَ؟ أَلا يُحِسُّ المُذْنِبُ بما يَنْتَظِرُهُ؟ أَلا يَلْمُسُ مَوْطِنَ الخَطَرِ قَبْلَ أَنْ يَفْطَنَ إلى الخَطَرِ الماثِلِ[4] أَحَدٌ؟

حَدَسَ هُوَ ما جَرى، ولمّا دَخَلَ مَخْدَعَها، أَيْقَنَ أَنَّ تَكَهُّنَهُ قد أَصابَ كَبِدَ الحَقيقةِ، وها هِيَ زَوْجَتُهُ تَحْمِلُ في يَدِها ذٰلِكَ الكِتابَ الملعونَ الَّذي أَماطَ لها اللِّثامَ عن قِصَّةِ الخِيانةِ.

ووَجَبَ[5] قَلبُهُ وَجيبَ الذُّعْرِ والهَلَعِ، فَتَمَعَّنَ في وَجْهِها، ولٰكِنَّهُ لم يَجِدْ فيه إلَّا اصْفِرارًا

---

(١) لاذَتْ بغُرْفَتِها: لجَأَتْ إليها.
(٢) مُتَضَوِّرًا: مُتَوَجِّعًا.
(٣) لن تُغْضيَ: لن تَسْكُتَ عن زَلَّتي، لن تَغُضَّ الطَّرْفَ.
(٤) الخَطَرُ الماثِلُ: الخَطَرُ القائِمُ أَمامَهُ.
(٥) وَجَبَ قَلْبُهُ: خفَقَ.

وكَمَدًا وحُزْنًا يَكادُ يَنْفَجِرُ مِن كَثْرتِهِ. ولكِنَّهُ كانَ مَرِحًا بطَبيعتِهِ، لا يَحْمِلُ الهَمَّ إِلَّا فَيْنَةً، ولا يحزنُ إِلَّا هُنَيْهةً، ويَضْحَكُ إذا أَلَمَّتِ المَصائِبُ، ويُقَهْقِهُ إذا حَلَّتِ الخُطوبُ.

وقَالَتِ امرأَتُهُ بصَوْتٍ أَجَشَّ صارِمٍ: «أَنْتَ هُنا؟ أَنْتَ أَيُّها الإنسانُ الغادِرُ! قُلْ، أَجِبْ... ما هٰذا الكِتابُ؟»

فَفَغَرَ فاهُ[1]، وحَمْلَقَ إِلَيْها مِن دونِ أَن يُجيبَ... ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسامةً بَلْهاءَ، ونَقَّلَ طَرْفَهُ بَينَ زَوجِهِ والكِتابِ الَّذي كَشَفَ لها انْحرافَهُ وارتماءَهُ في أَحْضانِ المُتْعةِ المُحرَّمةِ، وجُنوحَهُ إلى الفُجورِ يَخْتَلِسُهُ اخْتِلاسًا وَيَنْتَهِبُهُ انتِهابًا في غَفْلةٍ مِن زَوْجِهِ، ومِن دونِ أَنْ يَزَعَهُ وازِعٌ[2] مِن ضَميرٍ، أو يَصرِفَهُ حافِزٌ مِن شَرَفٍ.

وابتَسَمَ ابتِسامةً بَلْهاءَ، فكانَتْ ابتِسامَتُهُ كَلِمةَ القَضاءِ... لقد حَكَمَ بها على نَفْسِهِ فدانَها وخَطَّأَها، واكْتَفَتْ زَوجُهُ واقْتَنَعَتْ.

وتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ وهْوَ يُفَكِّرُ الآنَ في مُصيبَتِهِ، ويُنْحي على ابتسامتِهِ تِلكَ باللّائمةِ، ويَتَساءَلُ والحَيرةُ مُسْتَحِوذةٌ على مَشاعِرِهِ، عَن أَنجَعِ الطُّرُقِ الَّتي تُذَلِّلُ هٰذِهِ العَقَبَةَ فتُلاشي الخِصامَ وتُزيلُ القَطيعةَ.

تساءَلَ مَليًّا، ثُمَّ فَكَّرَ، وقَدَحَ زِنَادَ الفِكْرِ، ولٰكِنَّهُ لم يَهْتَدِ إلى حَلٍّ لمُشْكِلتِهِ، وقالَ يُحَدِّثُ نفسَهُ بلَهْجَةٍ تَشِفُّ عن طيبَتِهِ وصَراحتِهِ: «لقد هَدَمْتُ صُروحَ أَحْلامي، وكَدَّرْتُ لَذَّةَ الحياةِ لي ولأَولادي، ولن يُجدِيَ مَعَها الكَلامُ... لن تُذْعِنَ... ومَهْما جَهَدْتُ في حَلِّ هٰذِهِ العُقْدةِ فلن أَجِدَ لها انْحِلالًا، وسَتَرى زَوْجي كُلَّ قَوْلٍ أَقولُهُ إِفْكًا[3] وضَلالًا».

---

(١) فَغَرَ فاهُ: فَتَحَ فَمَهُ.

(٢) يَزَعُهُ وازِعٌ: يمنَعُهُ مانِعٌ.

(٣) إِفْكًا: كَذِبًا.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ما الحَدَثُ الَّذي افْتَتَحَ بِهِ تولستوي روايتَه؟

٣ - ما الَّذي فكَّكَ أَواصرَ أُسرَةَ الأَميرِ أوبلنسكي؟

٤ - لمَ فكَّرَ الخدمُ في تَرْكِ الخِدمةِ لَدى أُسرةِ أوبلنسكي؟

٥ - بمَ امتازتْ شخصيّةُ ستيفان أوبلنسكي؟

٦ - ماذا في الكتابِ الَّذي رآه ستيفان في يَدِ زوجهِ؟

٧ - علامَ دَلَّتِ ابْتِسامتُه البَلْهاءُ؟

٨ - ما العُقْدَةُ في هذا الفصلِ مِنَ الرّواية؟ وما الحلُّ الَّذي تَتَوقَّعُهُ لها؟

٩ - أَوْجِزْ مَضْمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّاني

كانَ ستيفانُ رَجُلًا صَادِقًا في ما بينَهُ وبينَ نفسِهِ، ولهٰذا لم يَكُنْ في وُسْعِهِ التَّغْريرُ بهٰذِهِ النَّفْسِ وخَدْعُها، وإقْناعُها بأَنَّهُ نَادِمٌ على زَوَغانِ ضَميرِهِ عَنِ المَحَجَّةِ[1].

وكانَ في الرّابعةِ والثّلاثينَ مِن عُمُرِهِ، وكانَتْ زَوْجَتُهُ في الثّانيةِ والثّلاثينَ، وقد رُزِقَ منها سَبْعَةَ أَطْفالٍ ماتَ مِنْهُمُ اثْنانِ.

وغَشِيَهُ مِنَ الهَمِّ، وهْوَ يَضْرِبُ مِنَ الحَيْرةِ أَخْماسًا لِأَسْداسٍ[2]، ما لم يَبْلُ[3] مِثْلَهُ مِن قَبْلُ، فقد فَكَّرَ في أَوْلادِهِ، وفَكَّرَ في امْرَأَتِهِ، وفَكَّرَ في نفسِهِ! ولم يَكُنْ مَبْعَثُ هَمِّهِ عَدَمَ مَيْلِهِ إلى زَوْجتِهِ، بل كانَ مَثارُهُ نَدَمَهُ على الاقتِرانِ بها!

ولو تَكَهَّنَ أَنَّ خِيانَتَهُ ستُحْشى بَشرٍّ وغَدْرٍ، لو داخَلَ حِسَّهُ أَنَّ عَلاقَتَهُ الأَثيمةَ ستُنْسيهِ طَعْمَ الرّاحةِ، لفَكَّرَ مِرارًا قَبْلَ أَنْ يَقْتَحِمَ الصِّعابَ، ولحَرَصَ كَثيرًا حتّى لا يَنْكَشِفَ السِّتْرُ، فيُجَشِّمَ هٰذِهِ العَواقِبَ، ويَبْلُوَ هٰذا العِقَابَ.

بَيْدَ أَنَّهُ لم يَتَّبِعْ طَرِيقَ العَقْلِ، ولَعَلَّهُ كانَ يَظُنُّ في زَوْجتِهِ مِنَ القَناعةِ ببَيْتِها ووُلْدِها ما يَصْرِفُها عنهُ وعن مَباذِلِهِ. وما يَجْعَلُها لا تَحْفِلُهُ أو تكْتَرِثُ لفُسْقِهِ. وذَهَبَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ كُلَّ مَذْهَبٍ، فكانَ يَثِقُ أَنَّها تَتَغاضى عَنْهُ حتّى يَنْقَعَ غَليلَهُ، وأَنَّها تُغْمِضُ عَيْنَيْها كي يَنْجَحَ أَرَبُهُ مَعَ امْرَأَةٍ سِواها، فيَظَلَّ الرَّجُلَ المُسْتَسْلِمَ لها بصِفَتِها رَبَّةَ الدّارِ، المُنْصَرِفَ عنها بصِفَتِهِ يَهْوى الحُسْنَ والدَّلالَ!

واستوى جالِسًا، وأَخَذَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ويَقولُ: «هٰذا مُريعٌ! وإِنّي أُحِسُّ بالخَبالِ والوَبالِ،

---

(١) المَحَجَّةُ: الطَّريقُ المُسْتَقيم.

(٢) يَضْرِبُ أَخْماسًا لأسداسٍ: يُفَكِّر محاوِلًا الخروجَ من مَأْزِقٍ، وهو مَثَلٌ شائع.

(٣) لم يَبْلُ مِثلَهُ: لم يُجرِّبْ مِثلَهُ، لم يُعانِ مِثْلَهُ.

وبضَيْعةِ الآمالِ. . . أَلَيْسَ مِنَ السُّخفِ والأَفَن[1] أَنْ يَعْشَقَ الإِنْسانُ مُرَبِّيَةً أو خادِمةً؟ ولَكِنْ. . . ولٰكِنْ. . . أَيُّ مُربِّيَةٍ هِيَ؟! أَيُّ مُربِّيَةٍ؟!».

وافتَرَّ ثَغرُهُ عن ابْتِسامةٍ رَضِيَّةٍ، وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وحَلَّقَ في عالَمِ الأَحْلامِ، وكأَنَّهُ يَرى جَسَدَ المُرَبِّيَةِ الغَضَّ، ووَجْهَها النّاصِعَ النَّاعِمَ، وعَيْنَيْها المُشْرِقَتَيْنِ الصَّافِيَتَيْنِ. . .

وهَتَفَ على حِينِ غِرَّةٍ: «أَينَ المَفَرُّ؟ وما العَمَلُ حتّى أَصونَ نَفسي مِنَ الانْهِيارِ؟».

وتَحَيَّرَ يَتَلَفَّتُ يَمْنةً ويَسْرةً، ثُمَّ دَقَّ الجَرَسَ، فهُرِعَ إِلَيْهِ خادِمُهُ «ماتفي»، ذٰلِكَ الشَّيْخُ المُخْلِصُ الوَدودُ، يَحْمِل إِليهِ بِزَّتَهُ وحِذَاءَهُ. ويَحْمِلُ أيضًا إِليهِ بَرْقِيَّةً. وتَبِعَهُ الحَلّاقُ داخِلًا وهْوَ «يَشيلُ» عُدَّةَ الحِلاقةِ، كما لو كانَ طَبيبًا يَحْمِلُ أَوائلَهُ ومُعَدّاتِهِ!

ورَنا أوبلنسكي إِلى خادِمِهِ مُسْتَطْلِعًا، وقالَ: «ما وَرَاءَكَ يا ماتفي؟ أَلَدَيْكَ أَوْراقٌ يَجْدُرُ بي قِراءَتُها؟»

فبادَلَهُ الخادِمُ نِظْرَةَ العَطْفِ والتَّفاهُمِ والحَيْرةِ، وأَجابَ: «هُناكَ على المِنْضَدةِ بَعْضُ الأَوْراقِ يا سَيِّدي. . . أَمَّا الآنَ، فاقْرَإِ البَرْقِيّةَ أَوَّلًا».

وفَضَّ أوبلنسكي البَرقِيَّةَ، وما كادَ يَطَّلِعُ على مُحْتَوَياتِها، حتّى هَتَفَ بارْتِياحٍ: «أَيْ ماتفي، شُكْرًا للهِ! إِنَّ أُخْتِي قادِمةٌ في الغَداةِ، إِنَّ أُخْتي «أَنّا كارنينا» قادمةٌ لتَمْكُثَ مَعَنا رَدَحًا مِنَ الزّمانِ». ورَدَّدَ الخادِمُ قَوْلَ سَيِّدِهِ: «شُكْرًا للهِ».

وكأَنَّهُ يَوَدُّ لَو يُؤَيِّدُ سَيِّدَهُ في استِبشارِهِ بقُدومِ شَقيقتِهِ وتَفاؤُلِهِ بحُلولها بَيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ.

وعادَ الخادِمُ يقولُ مُتَسائِلًا: «أَآتِيةٌ وَحْدَها؟»

فلم يَتَسَنَّ لِسْتيفانَ أَنْ يَرُدَّ، فقد كانَ الحَلّاقُ حينئذٍ يُمَرِّرُ الموسى على ذَقْنِهِ. ولٰكِنَّهُ رَفَعَ إِصْبَعَهُ، ففَهِمَ الخادِمُ أَنَّها قادِمةٌ مِنْ دونِ زَوْجِها.

ولم يَلْبَثْ أَنْ قالَ: «وهل أُجَهِّزُ لها الغُرفةَ العُليا؟»

فأَجابَهُ ستيفانُ: «سَلْ زَوْجتي (داريا أَلِكْسندروفنا)».

فقالَ الخادِمُ في تَعَجُّبٍ واضطِرابٍ: «أَسْأَلُها!؟»

---

(١) الأَفَن: نَقْصٌ في العَقْلِ والرَّأْيِ.

- «أَجَلْ، وخُذْ لَها البَرْقِيّةَ».

ومَضى الخادِمُ يُقَدِّمُ رِجْلًا ويُؤَخِّر أُخْرى إِلى حُجْرةِ المَرْأَةِ المَهيضةِ الجَناحِ. وعَكَفَ ستيفانُ على ارتِداءِ مَلابِسِهِ.

ولمّا قَفَلَ[1] الخادِمُ راجِعًا، بَدا مِنْ تَقْطيبتِهِ وعُبوسِهِ أَنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا لم يُحْكِمْهُ. ولمّا نَطَقَ قالَ بلِسانٍ مُتَلَعْثِمٍ يَنِمُّ عن أَسَفِهِ وحُزْنِهِ: «لَقد أَعْطَيْتُها البَرْقِيَّةَ، فلم تُعْنَ بِقِراءتِها، بل قالَتْ إِنَّها مُرْتَحِلَةٌ وإِنَّ الحياةَ في المَنْزِلِ لن تَروقَ لها بَعْدَ اليَومِ».

وكأَنَّ الخادِمَ رَماهُ بثالثةِ الأَثافيِّ[2] بكلماتِهِ تِلْكَ، فأَسِيَ وحَزِنَ، ثُمَّ ابْتَسَمَ كما يَبْتَسِمُ دائمًا في وَجْهِ الخُطوبِ، وقالَ مُحتَارًا: «لقد أَخْفَقَ المَسْعى، فما العَمَلُ؟»

فصَعَّدَ فيهِ الرَّجُلُ بَصَرَهُ وأَجابَ: «أَوْلى بكَ أَنْ تُسَلِّمَ المَسْأَلَةَ لِلقَدَرِ، فالزَّمانُ كَفيلٌ بحَلِّ أَعْقَدِ المُشْكِلاتِ».

وصَمَتَ، وذَهَبَتْ بِهِ أَفْكَارُهُ كُلَّ مَذْهَبٍ. ولمّا انفَثَأَ[3] حُزْنُهُ، وسَكَنَ قَلَقُهُ، الْتَفَتَ إِلى خادِمِهِ الواجِمِ المُتَرَقِّبِ. وإِذ هُوَ يَهِمُّ بالكَلامِ وَلَجَتْ عليهِ المَكانَ الحاضنةُ «ماترينا فليمونوفنا» وعليها ثَوْبٌ واسِعٌ فَضْفاضٌ.

ومَعَ أَنَّ ستيفانَ أَطاعَ دَواعيَ الحُبِّ وخَفَرَ عَهْدَ زَوْجِهِ، كانَ أَهْلُ البَيْتِ وَخَدَمُهُ جميعًا يَعْطِفونَ عليهِ ويَشْعُرونَ مَعَهُ ويَوَدُّونَ لو يَجتازُ هٰذِهِ العَقَبَةَ الكَأْداءَ مُنْتَصِرًا مُظَفَّرًا.

دَخَلَتِ الحاضنةُ وفي أَمائِرِها ما يَنِمُّ عن هَمٍّ بَرَّحَ بها استِعارُهُ. وأَنْشَأَتْ تَقولُ وَهْيَ تَكادُ تَنْشِجُ: «سَيِّدي! أَرى أَنْ تُحاوِلَ... حاوِلْ كَرَّةً أُخرى... إِنّي أَعوذُ بِكَ، فافْعَلْ ما يُخمِدُ نارَ كَرْبِها، ويَفْثَأُ لَهيبَ حُزْنِها... اِفْعَلْ ذٰلِكَ - ناشَدْتُكَ اللهَ - مِن أَجْلِ بَيْتِكَ وأَطفالِكَ... اِفعَلْ ذٰلِكَ حتّى يَنْسَريَ[4] هَمُّنا جميعًا ويَرْفَضَّ غَمُّنا!».

فاهتَزَّ الرّجُلُ مِن شِدّةِ الانفِعالِ، وأَجابَ وهْوَ يُنَكِّسُ رَأْسَهُ: «إِنَّها تَأْبى مُخاطَبَتي فَضْلًا عن مُقابَلَتي، فما العَمَلُ؟ ماذا أَصْنَعُ؟»

---

(1) قَفَلَ راجِعًا: عادَ راجِعًا.
(2) رماهُ بثالِثَةِ الأَثافيّ: أي رماهُ بمُصيبَةٍ تُكَمِّلُ ما قبلَها من مَصائِبَ.
(3) انفَثَأَ حُزْنُهُ: خفَتْ حِدَّتُهُ.
(4) يَنْسَري هَمُّنا: يَنكَشِفُ ويَزولُ.

قالَتْ: «ما يُحتِّمُهُ عليكَ الواجِبُ؛ فاتَّبِعْ مَشورةَ ذِهْنِكَ، لأَنَّ الاستِسلامَ للأمرِ الواقعِ لا يُجدي، ولأَنَّ التَّحَرُّقَ على نارِ الحُزْنِ والنَّدامةِ لا يَنفَعُ في مِثلِ هٰذِهِ الحالةِ».

قَالَ: «أَنْتِ ذَلِقةُ اللِّسانِ يا عَزيزتي، ماهِرةٌ في الأَداءِ. فاذْهَبي الآنَ، وسأَفْعَلُ اللّازِمَ!»

وما لَبِثَ بَعْدَ ذَهابِها أَنْ ضَمَّخَ نَفْسَهُ بالطِّيبِ، وسَرَّحَ لَحْظَهُ مِنَ النّافذةِ هُنَيهَةً كالْمفكِّرِ، ثُمَّ دَلَفَ إِلى حُجرةِ المائدةِ بخُطُواتٍ ثابتةٍ مَرِحةٍ، ووَجْهٍ مُتَأَلِّقٍ يَنْضَحُ بالبِشرِ والاطْمئنانِ!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - هل فكّرَ أوبلنسكي في عَواقِبِ خيانتِهِ لزوجِهِ؟ وماذا كانَ يصنَعُ لو فَكَّرَ؟

٣ - هل تَراهُ في هذا الفصلِ نادمًا على ما فعلَ؟

٤ - كيفَ كانَتْ مواقفُ الخَدَمِ من أَزمَةِ أَسيادِهِم؟ أكانوا شامتينَ، أَم كانوا آسفينَ راغبينَ في رأبِ الصَّدعِ؟ كيفَ تُعلِّل رأيَكَ؟ وما نَظرتُكَ إلى مواقِفِهِمْ؟

٥ - أَتستطيعُ أن تُضيفَ صفاتٍ أخرى إلى شخصيّة ستيفان أوبلنسكي؟ وما هي؟

٦ - لِمَ استبشر أوبلنسكي بمَقْدَم أُختِهِ أنّا؟

٧ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّالث

ما كانَ ستيفانُ أوبلنسكي رَجُلًا ذا وَجْهَيْنِ، وما كانَ مُنافِقًا مُخادِعًا؛ ولٰكِنَّهُ كانَ يَتْبَعُ بغريزَتِهِ مَنْ تَرْجَحُ كِفَّتُهُ وَيشْتَدُّ ساعِدُهُ. فَهُوَ مُواظِبٌ على قِراءةِ صَحيفةِ حِزْبِ الأَحْرَارِ، حَريصٌ على تَتَبُّعِ أَنْبائِها في كُلِّ صَباحٍ... ولا يَرْجِعُ ذٰلِكَ إِلى مُشَايَعتِهِ لمبادىءِ حِزْبٍ دونَ حِزْبٍ، أو لمُظاهَرتِهِ لما يُنادي بِهِ فَريقٌ دونَ فَريقٍ، بل لأَنَّ كِفَّةَ هٰذا الحِزْبِ كانَتْ هِيَ الكِفَّةَ الراجحةَ وصَحيفتُهُ كانَتِ الصَّحيفةَ المُنْتَشِرةَ على أَوْسَعِ نِطاقٍ.

وما كانَ لِسْتيفانَ أوبلنسكي نظرةٌ بارعةٌ في عالَمِ الفَنِّ والأَدَبِ، ولا رأْيٌ سَديدٌ في مَجال السِّياسةِ، لهٰذا اكتفى بأَن يَكونَ تابعًا لتِلْكَ الأَغْلَبيَّةِ القَويّةِ، يَتَلَوَّنُ بَحَسَبِ لَوْنِهَا، ويَتَقَلَّبُ وَفْقًا لِتَقَلُّبِها، تَمامًا كما كانَ مَوْقِفُهُ إزاءَ قُبَّعتِهِ كُلَّما قَدُمَتْ وحالَ لَوْنُها...

ومَنْ يَعْلَمُ؟ لَعَلَّ حالتَهُ الخاصّةَ في بَيتِهِ، جَعَلَتْهُ أَيْضًا يَميلُ إِلى الأَحرارِ، ويُشايِعُهُمْ، ويُؤَيِّدُهُمْ، ويُصَفِّقُ لَهُمْ.

مَنْ يَدْرِي؟ لَعَلَّ مَعيشتَهُ الخاصّةَ ولَهْفَتَهُ إِلى نَيْلِ الحُرِّيّةِ والانطِلاقِ مِنْ قُيودِ الزَّوْجِيّةِ، هِيَ الحافِزُ له على المُناداةِ بمبادىءِ الأَحْرارِ والتَّغَنّي بِفَلْسفَتِهِمْ!

مَنْ يَدْري؟ لَعَلَّ أَعْبَاءَ الدُّيونِ الكثيرةِ الَّتي رَزَحَ تَحتَ ثِقْلِها جَعَلَتْهُ يَعُوجُ[1] بقَلْبِهِ ولُبِّهِ إِلى ناحيةِ الأَحْرارِ!

أَلَمْ يُنادِ هٰذا الحِزْبُ بضرورةِ تجديدِ النِّظامِ، والعُرْفِ، والقانونِ، والسِّياسةِ، والحياةِ بِرُمّتِها؟

أَلَمْ يُنادِ بضرورةِ إِزالةِ شَوائِبِ الماضي؟ ودُيونُهُ، أَلَيْسَتْ مِنْ أَقْذَرِ الشّوائِبِ؟!

أَلَمْ يَجْهَرْ حِزبُ الأَحْرارِ بضَرورةِ تَعديلِ قانون الزَّواجِ؟ فلِمَ لا يَنْبُذُ هٰذا المَبْدَأُ عَينَهُ

(١) يَعوجُ: يَميلُ.

قُرَّةً(١)، وهْوَ مِن أَشْقى الأَزْوَاجِ؟

أَلَمْ يَسْخَرْ حِزْبُ الأَحْرارِ مِنَ الدِّيْنِ، ويَسْتَهْجِنِ الصّلاةَ والعِبادةَ؟ وهْوَ قد طالما تَبرَّمَ(٢) مِن اضْطِرارِه للمَكْثِ فترةً طَويلةً يَسْتَمِعُ فيها إلى مَوْعِظَةٍ حَسَنةٍ، ويُصْغي إلى كلامٍ مُنَمَّقٍ عَنِ الدُّنْيا والآخرةِ... وما جَدْوى ذٰلِكَ؟ أَلا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْسى الآخِرَةَ لِيَسْعَدَ في العاجلةِ؟ فلِمَ يُذَكِّرُهُ رَجُلُ الدِّينِ إذًا بهٰذِهِ النِّهايةِ وهٰذِهِ الخاتمةِ؟

ثُمَّ، أَلَيْسَ لِحِزْبِ الأَحْرَارِ تِلْكَ الرُّوحُ المَرِحةُ الطَّيِّبَةُ الفَكِهةُ الَّتي تَدَعُ رِجالَهُ البارزينَ يُطْلِقونَ النُّكْتَةَ مِنْ دونِ خَوْفٍ أو مُبالاةٍ؟ لقد كتَبَ أَحَدُ قادَةِ الحِزْبِ في جَريدةِ الحِزْبِ، فقال: «أُنْظُروا إلى رَسْمِ الأَميرِ «رورك»، ثُمَّ احْكُمُوا على داروينَ. أَلَيْسَ هُوَ على حَقٍّ في نَظَرِيّتِهِ!».

وأَلْقى أوبلنسكي الجَريدة مِنْ يَدِهِ ووَضَعَ قُبَّعتَهُ على رأسِهِ وتَأَهَّبَ لِيُغادِرَ بَيْتَهُ.

ولٰكِنَّهُ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ مُحْتارًا، وتَرَيَّثَ مُتَمَلْمِلًا وتَساءَلَ: «أَثَمَّةَ أَمْرٌ نَسِيتُهُ؟ أَهُناكَ ما يَخْلُقُ بي تَنْفيذُهُ؟».

وجَاءَهُ الجوابُ في إهابِ وجهٍ أَطَلَّ عليهِ- وَجْهٍ مُقَطَّبٍ تَسُحُّ(٣) مِنْ عَيْنَيْهِ الدُّموعُ.

فضَرَبَ على جَبْهتِهِ بيَدِهِ وعَلِمَ أَنَّهُ لم يَنْسَ إلَّا زَوجَهُ. لم يَنْسَ إلَّا أَهَمَّ ما كانَ عليهِ أَنْ يَذْكُرَ.

فَهَل يَسعى إِلَيْها؟ هل يَتَقَرَّبُ مِنها؟ وشَعَر باشْمِئْزَازٍ. هَلِ اشْمَأَزَّ مِنها أو مِنْ نفسِهِ أو مِنْ هٰذِهِ المُقابَلَةِ؟

إِنَّهُ واثِقٌ مِنْ أَنَّ شَيئًا لن يُعيدَ المِياهَ إلى مَجاريها، أو يَرْأَبَ الصَّدْعَ(٤) أو يُلاشيَ غَضَبَ زَوْجِهِ ويَأْسِها.

وتَناهى إِليهِ في تِلكَ اللّحْظةِ أَصواتُ صَخَبٍ وضَجيجٍ، فأَدرَكَ أَنَّ أولادَهُ يَلْعَبونَ في

---

(١) قُرَّةُ العَينِ: سُكونُها وراحَتُها.
(٢) تَبَرَّمَ: مَلَّ وضَجِرَ.
(٣) تَسُحُّ الدُّموعُ أو نحوُها: تَنْصَبُّ وتَنْسَكِبُ.
(٤) يَرْأَبُ الصَّدعَ: يُصْلِحُهُ.

الحَديقةِ، وأَيْقَنَ أَنْ لا بُدَّ ممّا ليسَ مِنْهُ بُدٌّ. ونَقَّبَ في دِماغِهِ المُضْطَرِبِ عن مَخْرَجٍ لِهٰذِهِ المُشكلةِ فسُدَّتْ في وَجْهِهِ المَنافذُ والأَبْوابُ، ولٰكِنْ ما ذَنْبُ الأَوْلادِ؟ ما ذَنْبُ أَطْفالِهِ الأَبْرِياءِ؟

وهَزَّ رَأْسَهُ ولَوَّحَ بيَدِهِ، ثُمَّ مشى إِلى مَخْدَعِ زَوْجِهِ بَعْدَ أَنْ أَشْعَلَ سيجارتَهُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - حدِّدِ الشَّخصيَّةَ السِّياسيَّةَ لِأوبلنسكي.

٣ - ما العواملُ الَّتي جَعَلَتْهُ يميلُ إلى حزبِ الأَحرارِ؟

٤ - ما معنى قولِ أَحَدِ قادةِ حزبِ الأَحرارِ: «انظُروا إلى رسمِ الأَميرِ ثُمَّ احكُموا على داروين. أَلَيْسَ هو على حقٍّ في نَظَرِيَّتِهِ؟»

٥ - ما الصِّفةُ الجَسَديَّةُ الَّتي تراها في شَخصيَّةِ الأَميرِ «رورك»؟

٦ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسْطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الرَّابع

وَقَفَتْ داريا أَلِكْسَنْدروفنا بينَ أكوامٍ مِنَ الأَمْتِعةِ والمَلابِسِ وهْيَ مُتَلَفِّعةٌ بثِيابِ السَّفَرِ. وكانَتِ الأَفْكارُ قد هاجَتْ هَمَّها وبَرَتْ[1] وَجْهَها، وكانَ شَعْرُها المُدَبَّسُ[2] يَنْطِقُ بذاتِ نفسِهِ عن ماضٍ لهُ مَجيدٍ، وكان وَجْهُها الشّاحِبُ النَّحيلُ يُنْبِئُ بما عانَتْهُ صاحِبَتُهُ مِنْ مَضَضٍ.

فلمّا وَلَجَ زَوْجُها عليها الغُرفةَ، حاوَلَتْ أَنْ تَرمُقَهُ بنَظرةِ احتِقارٍ واستِهْجانٍ، ولٰكِنَّها أَخْفَقَتْ في جُهودِها، واغْرَوْرَقَتْ عَيْناها بالدُّموعِ. فكَرِهَتْ أَنْ تَسْتَوْكِفَها[3]، فأَشاحَتْ عَنْ زَوْجِها، وهْيَ تَشْعُرُ بالخَوْفِ والوَجَلِ والإِشْفاقِ.

كانتَ تَخافُهُ، وكانَتْ تَرْتَجِفُ فَرَقًا[4] كُلَّما فَكَّرَتْ في هٰذِهِ المُقابلةِ المحتومةِ بَعْدَ انْكِشافِ أَمْرِهِ.

ولَطالما وَطَّنَتِ النَّفسَ في الأَيّامِ الثّلاثةِ المُنصَرِمةِ أَنْ تُغادِرَ البيتَ، ولَطالما رَتَّبَتْ أَمرَها وحَزَمَتْ رَأْيَها وجَمَعَتْ مَلابِسَها وملابِسَ أَوْلادِها وهْيَ تُزْمِعُ على الانفِلاتِ إِلى مَنْزِلِ أُمِّها والإِقامةِ فيهِ، ولٰكِنَّها كانَتْ تَنْهارُ وتَتَهافَتُ، ويَغْشاها مِنَ الشَّجَنِ ما يَفُتُّ في عَضُدِها[5] ويُوهِنُ عَزيمتَها. وما أَكْثَرَ ما اسْتَلْقَتْ على الأَريكةِ في كُلِّ مَرّةٍ انتابَ إِرادَتَها التّخاذُلُ، وتأَوَّهَتْ وزَفَرَتْ، ثُمَّ قالَتْ تُحدِّثُ نفسَها: «مِنَ المُحالِ استمرارُ الحالِ على هٰذا المِنْوالِ، ولا مَندوحةَ لي عَن إِتيانِ ما يُظْفِرُني بأَرَبي ويُنيلُني طَلَبي. يَجِبُ أَنْ أُذِلَّهُ وأَقْهَرَهُ؛ يَجِبُ أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُ!»

---

(١) بَرَتْ وَجْهَها: أَضْعَفَتْها، أَهْزَلَتْها.

(٢) شَعْرُها المُدبَّسُ: الّذي له لَونُ الدِّبْسِ.

(٣) تَسْتَوْكِفُ الدُّموعَ: تَسْكُبُها.

(٤) الفَرَق: الخَوْف.

(٥) يَفُتُّ في عَضُدِها: يُضْعِفُها.

وقد أَتْعَبَها فِكْرُها، فعَوَّلَتْ على وَضْعِ حَدٍّ لهٰذِهِ العَلاقةِ، ولٰكِنْ، كيفَ؟ كيفَ تَصِلُ إلى هَدَفِها، وهَدَفُها كَريهٌ مَمْجوجٌ؟ كيفَ يُطاوِعُها قَلْبُها، وقَلْبُها رَقيقٌ مُرْهَفُ الإحْساسِ؟

وفَوْقَ ذٰلِكَ، ماذا تَفْعَلُ بالعادةِ؟ لقد مَضَتْ سِنونَ عليهِما وهُما زَوْجانِ سَعيدانِ، يَعيشانِ تحتَ سَقْفٍ واحِدٍ، وتَنْقُلُهُما الأَيَّامُ تارةً مِنَ التَّفاؤُلِ إلى التَّشاؤُمِ، ومِنَ الفَوْزِ إلى اليَأْسِ، وتارةً أُخْرى تَقْفِزُ بِهِما مِنْ حُرقةِ الكُرَبِ وشِدَّتِها إلى راحةِ الطَّرَبِ والسُّرورِ والبَهْجَةِ.

إنَّه زَوْجُها على رَغْمِ الحَوائِلِ كافّةً، إنَّهُ زَوْجُها على رَغْمِ ما خامَرَ خاطِرَها مِنْ خِيانتِهِ وغَدْرِهِ، وهْوَ والِدُ أَطْفالِها الخَمسةِ، ولو شاءَتْ أَنْ تَقْطُنَ في بَيْتِ أُمِّها، فهل يَتَسَنّى لَها اصطِحابُ أَوْلاَدِها جَميعًا؟

ومَعَ ذٰلِكَ فما انفَكَّتْ طيلةَ الوَقْتِ تَسْتَعِدُّ وتَسْتَعِدُّ، وتُعِدُّ الثِّيابَ وتُجَهِّزُ الأَمْتِعةَ، وتُعيدُ التَّرتيبَ مِنْ أَوَّلِهِ، وتُعيدُ التَّنْفيذَ مِنْ بَدْئِهِ. فهل كانَتْ تَخْدَعُ مَشاعِرَها؟ هل كانَتْ تُغَرِّرُ بنَفْسِها؟ وهل كانَتْ تُزْمِعُ البَقاءَ وتَنْوي الرَّحيلَ في آنٍ واحِدٍ؟

وأَحَسَّتْ بزَوْجِها يَدْخُلُ، فغَيَّبَتْ يَدَها في خِزانَةٍ لِلثِّيابِ، وكأَنَّها تُريدُ مِنْها شيئًا لاسْتِكمالِ الأُهْبةِ.

ووَقَفَ الرَّجُلُ، والْتَفَتَتْ هِيَ إلَيْهِ، وعَبَّرَتْ نَظْرتُها عن دَهْشةٍ وتَعَجُّبٍ وحَيْرةٍ، مَعَ أَنَّها كانَتْ تَوَدُّ لَو تُطالِعُهُ بوَجْهٍ مُرْبَدٍّ وعَيْنينِ صارِمتَيْنِ قاسِيتَيْنِ، يَفيضُ مِنْهُما الاحْتِقارُ والازْدِراءُ.

وقالَ بصَوتٍ خَفيضٍ لَطيفٍ أَمَلَ هُوَ أَنْ يُوصِلَهُ إلى نَيْلِ المُرادِ: «داريا...».

وغَضَّ مِن طَرْفِهِ مُحاولةً مِنهُ للظُّهورِ بمَظْهَرِ النّادِمِ المُسْتَغْفِرِ؛ وتَأَوَّهَ وكأَنَّهُ يَتحسَّرُ على سَعْدٍ فاتَ، ورَغَدٍ غَبَّ[1]، ونَعيمٍ وَلّى!

على أَنَّ حَيَوِيّتَهُ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يُبَدِّدَ مِن مَظْهَرِها، ونَشاطَهُ عَجزَ عَن إخْفائِهِ، والعَبيرُ... العَبيرُ الَّذي كان يَفوحُ مِن مَلابِسِهِ وشَعْرِهِ! أَلا يَدْحَضُ هٰذا ما حاوَلَ إظْهارَهُ؟ أَلا يَنِمُّ عن حَقيقةِ خَلَجاتِهِ؟

وتَفَحَّصَتْهُ زَوْجُهُ، وصَعَّدَتْ فيهِ نَظَرَها، فأَحْفَظَتْها[2] قُوَّتُهُ وفُتُوَّتُهُ، وكَدَّرَتْها مَلامِحُهُ

---

(١) رَغَدٌ غَبَّ: صارَ في نِهايَتِهِ.

(٢) أَحْفَظَتْها قُوَّتُه: أَغْضبَتْها قُوَّتُهُ.

المَرحةُ الَّتي تَخْلُقُ لَهُ الأَصْدِقاءَ والمُحِبّينَ. وعَجِبَتْ في ما بَيْنَها وبينَ نَفْسِها مِن هٰذا الإِشْراقِ الَّذي لا يَخْبو، وهٰذا البَهاءِ الَّذي لا يَأْفُلُ.

أَحْنَتْ عَلَيْهِ؛ ولَعَلَّ سُخْطَها كانَ الحافِزَ إِليهِ غَيرتُها، ولَعَلَّهُ كانَ نِتاجَ الفارقِ بينَ نُضْرتِها الذّابلةِ، وشَبابِهِ المُتَأَلِّقِ الزّاهِرِ!

وقالَتْ لَهُ بصَوْتٍ سَريعٍ عَميقٍ، غيرِ طَبيعِيٍّ: «أَلَكَ حاجةٌ؟ أَتُريدُ شيئًا؟»

فأَجابَ مُتَلَعْثِمًا مُرْتَعِشًا: «أَنّا قادمةٌ، يا عَزيزتي، قادِمةٌ غدًا».

فهَتَفَتْ مُحْتَدِمةً: «وهل يَعْنيني الأَمْرُ؟ دَعْها تَأْتي، فهْيَ أُخْتُكَ!»

- «ولٰكِنْ حَرِيٌّ بِكِ أَنْ تَمْكُثي، أَنْ تَرَيْها، أَنْ تُحدِّثيها...».

فصَرَخَتْ مِن دونِ أَنْ تَنْظُرَ إِليهِ، وكأَنَّ صَرْخَتَها كانَتْ عن أَلَمٍ جَسَديٍّ حادٍّ: «اِذْهَبْ... اِذْهَبْ... اِذْهَبْ...».

كانَ في وُسْعِ ستيفانَ أَنْ يَحْتَفِظَ بهُدوئِهِ حينَ يُفَكِّرُ في امْرَأَتِهِ، وكانَ يَأْمُلُ أَنْ يُصَدِّقَ حَدْسَ ماتفي خادِمِهِ فتَرْجِعَ إِليهِ راضيةً غافِرةً، ويَرْجِعَ هُوَ إِلى جَريدتِهِ هادِئًا مُطْمَئِنًّا، ويَسْتَأْنِفَ شُرْبَ قَهْوتِهِ في دَعةٍ وسُكونٍ، ويُنصِتَ إِلى ضَجَّةِ أَوْلادِهِ في حَنانٍ وابتِسامٍ.

ولٰكِنَّهُ لمّا رأَى وَجْهَها المُتَعَذِّبَ المُتَأَلِّمَ، واستَمَعَ إِلى نَبْرةِ صَوْتِها المُسْتَسْلِمِ لِلقَدَرِ، المُفْعَمِ[1] بالحُزْنِ واليأْسِ، شَعَرَ كأَنَّهُ يَخْتَنِقُ، وأَحسَّ بشَيْءٍ يَقِفُ في حَلْقِهِ حتّى ليَكادُ يَكْتُمُ نَفَسَهُ. كما أَنَّ العَبَراتِ لَمَعَتْ في مُقْلَتَيْهِ، وكأَنَّها تُوشِكُ أَنْ تَسيلَ مِن عَيْنَيْهِ.

وسَمِعَ نَفْسَهُ بَعْدَ قَليلٍ يَهتِفُ مُتَضَرِّعًا مُتَلَوِّعًا: «داريا! ناشَدْتُكِ اللهَ أَنْ تُشْفِقي! أُنْظُري، أُنظُري!»

فصَفَقَتْ داريا بابَ الخِزانةِ بعُنْفٍ وواجَهَتْهُ بنَظرةٍ صارمةٍ، ولم تَنْبِسْ بكلمةٍ[2].

وأَردَفَ هُوَ باللَّهجةِ نفسِها: «ماذا أَقولُ غيرَ شيءٍ واحِدٍ؟ ماذا أَقولُ سوى إِبداءِ النَّدَمِ واستِجْداءِ المَغْفِرةِ؟ أَيْ داريا أَصغي... اغْفِري...».

---

(١) المُفْعَم: المَلآن.

(٢) لم تَنْبِسْ بكَلِمَةٍ: لم تَنْطِقْ بكَلِمَةٍ.

وانْتَظَرَ هُنَيهةً، وعادَ يَقولُ: «تَذَكَّري... تِسْعَ سِنينَ قَضَيْناها مَعًا. أَلا تَسْتَطيعُ تِسْعُ سِنينَ أَنْ تَشْفَعَ لِزَلَّةٍ واحدةٍ؟»

وأَطْرَقَتِ المَرأةُ المُوَزَّعةُ الفِكْرِ إلى الأَرضِ، وهْيَ تَتَوَقَّعُ بل تَرجو مِن كُلِّ قَلْبِها أَنْ يَقولَ شيئًا يُثْبِتُ بِهِ بَراءَتَهُ.

ولٰكِنَّهُ عِوَضًا مِن أَنْ يَتَنَصَّلَ انْدَفَعَ يُثْبِتُ التُّهمةَ بطَريقةٍ دامِغة، فقالَ: «نَزْوةٌ طارِئةٌ... شَهوةُ ساعةٍ... مَسٌّ مِن جُنونٍ... أَلا... أَلا...».

«اغْرُبْ عن وَجْهي!»

«داريا...».

«إِذْهَبْ... غادِرِ الغُرفةَ، ولا تُحَدِّثْني عن نَزَواتِكَ وسَقَطاتِكَ... لا تُحَدِّثْني عن مُجونِكَ وفُسْقِكَ!»

وتَحَرَّكَتْ لِتَذْهَبَ، لِتَبْتَعِدَ... ولٰكِنَّها تَرَنَّحَتْ في مَكانِها، وكادَتْ تَسْقُطُ على الأَرْضِ، لولا إِسْراعُها إلى الإِمْساكِ بظَهْرِ الأَريكةِ.

وأَجْهَشَ هُوَ، وكَادَ أَنْ يَذْرِفَ الدَّمْعَ، وأَنْشَأَ يَقولُ مُسْتَعْطِفًا مُستَثيرًا حَنانَها وشَفَقَتَها: «داريا! أولادُكِ أَكْبادُكِ... داريا! فَكِّري فيهِمْ... ماذا اقتَرَفوا حتّى تُعاقِبيهِمْ؟ إِنَّهُمْ أَبرياءُ، يا عزيزتي، والمُذْنِبُ هُوَ أنا، فلا تُقَوِّضي مُسْتَقْبَلَهُمْ... وإِنِّي لَعلى أَتَمِّ استِعدادٍ لِلقِيامِ بِما تَفْرِضينَ... قولي أَفْعَلْ، مُري أُنَفِّذْ... فأَنا المُلامُ، ولَيْسَ غيري... فسامِحيني واصْفَحي عنّي!»

فقَعَدَتْ على الأَريكةِ وهْيَ تَلْهَثُ مِنَ الإِعيْاءِ، ولَهِفَتْ[1] نَفْسُهُ، وتَوَلَّتْهُ مَوجةٌ عارمةٌ مِنَ الحُزْنِ والإِشفاقِ...

وبَذَلَتِ الزَّوْجَةُ وُسْعَها لِتَتَكَلَّم، فلم تَجِدْ إلى الكَلامِ سَبيلًا، فتَمَلْمَلَتْ في مَكانِها وتَلَفَّتَتْ وتَأَلَّمَتْ.

وطَأْطَأَ أوبلنسكي رَأْسَهُ شَأْنَ المُجرِمِ المُعْتَرِفِ، ونَكَّسَ طَرْفَهُ كمَنْ يَنْتَظِرُ الحُكْمَ النِّهائِيَّ، وانْتَظَرَ..

---

(١) لَهِفَتْ نفسُه: حَزِنَتْ، أَسِفَتْ.

وتَناهى إليهِ أَخيرًا صَوْتُها العَميقُ المُتَهَدِّجُ تأثُّرًا وانْفِعالًا: «ستيف... ومتى فَكَّرْتَ في الأَطْفالِ إلَّا لِتُزْجِيَ وَقْتًا قَصيرًا مَعَهُمْ في العَبَثِ واللَّعِبِ؛ أَمَّا أنا، فأَنا أُفكِّرُ فيهم بُكْرَةً وعَشِيًّا. أنا أَبْغي خَيْرَهُمْ وسأَعْمَلُ على إنْقَاذِهِمْ... إنَّ هٰذا يَعْني خَرابَهُمْ، ولٰكِنْ...».

وتَذَكَّرَتْ أَنَّ فِكرةَ إيذاءِ الأَطْفالِ قد عاقَتْها عَنِ الذَّهابِ... واسْتَعْبَرَتْ عَيْناها.

لَقد ذَكَرَتِ اسْمَهُ مُصَغَّرًا -ستيف- ورَنا هُوَ إلَيْها في شُكْرٍ وعِرْفانٍ، وتَحَرَّكَ لِيَتَناوَلَ يَدَها، ولٰكِنَّها انْكَمَشَتْ على نَفْسِها نافِرةً مُشْمَئِزَّةً، واسْتَتْلَتْ: «لا أَنْقَطِعُ لَحْظَةً عنِ التَّفْكيرِ في أَطْفالي، وبِوُدِّي لو أَنْقَذْتُهُمْ.. بِوُدِّي لَوِ افْتَدَيْتُهُمْ بحَياتي.. بَيدَ أَنِّي لا أَدْري كيفَ السَّبيلُ إلى انتِشالِهِمْ مِنَ الوَهْدةِ الَّتي طَوَّحْتَ بِهِمْ فيها.. أَخَلاصُهُمْ هُوَ في انتِزاعِهِمْ مِن أَبيهِمْ، أَمْ في إبْقائِهِمْ مَعَ أَبٍ فاسِقٍ أَنانِيٍّ؟!- أَجَلْ أَبٍ فاسِقٍ مُبتَذَلٍ!- أَخْبِرني، هل بَعْدَ الَّذي جَرى أَمَلٌ في البَقاءِ مَعًا؟ أَتَظُنُّ أَنَّ استِئْنافَ تِلكَ الحياةِ أَمْرٌ مُحتَمَلٌ؟ هل يُمْكِنُ هٰذا؟ قُلْ، هل يُمْكِنُ، بَعْدَ كُلِّ ما بَدا مِن تَرَدّيكَ في حَمْأَةِ الرّذيلةِ[1]؟ بَعْدَ جُنوحِكَ إلى المُغامرةِ المُنْحطَّةِ؟ بَعْدَ إسْفافِكَ إلى هٰذا الدَّرْكِ؟»

وجَعَلَ الرَّجُلَ يَبْلَعُ ريقَهُ في حَيْرةٍ وارْتِباكٍ، وقد انْقَبَضَ انْقِباضَ اليائِسِ، وأَعْرَضَ عن زوجِهِ إعراضَ المُثْقَلِ بشُعورِ الخِزْيِ... وقالَ وهْوَ يَتَّجِهُ بنَظَرِهِ إلى الحائِطِ: «فما العَمَلُ؟ ماذا أَسْتَطيعُ الآنَ أن أَعْمَلَ؟»

وانْحَنَتْ صَعْدتُهُ[2]، وغَضَّ مِن نَظَرِه.

فزَمْجَرَتْ مُهْتاجةً: «يا للرَّجُلِ الكَريهِ! يا للزَّوْجِ المَقيتِ! ما عَبَراتُكَ إلَّا سِتارٌ للُؤْمِكَ وخِبِّكَ[3]! إنَّكَ لم تُحِبَّني قَطُّ، بل كُنْتَ مُنْصَرِفًا عَنّي إلى شؤونِكَ الخاصَّةِ، وما تَظاهُرُكَ بالحُبِّ، إلَّا ناحيةٌ أُخرى مِن نَواحي خِسَّتِكَ! لقد عَرَفْتُكَ الآنَ، وكَرِهَتْكَ نَفسي... أَنْتَ غَريبٌ عَنّي... غَريبٌ... غَريبٌ!»

وغَصَّتْ، واحْتَقَنَ الدَّمُ في وَجْهِها- ما أَصْعَبَ الكَلمةَ! ما أَصْعَبَ الكَلمةَ تَقولُها لرَجُلٍ عاشَرَتْهُ وعاشَتْ في كَنَفِهِ وأَنْجَبَتْ منهُ أَطْفالَها!

---

(١) حَمْأَةُ الرَّذيلَةِ: وَحْلُ الرَّذيلَةِ.

(٢) انْحَنَتْ صَعْدَتُهُ: انْحَنَتْ قامَتُه المُستَقيمةُ.

(٣) خِبُّكَ: خِداعُكَ.

ودَهِشَ ستيفانُ لهٰذِهِ الثّورةِ الجامِحةِ الَّتي واجَهَتْهُ بها. ولم يَفْهَمْ كيفَ أثارَ إشفاقُهُ غَضَبَها وحَنَقَها- لقد وَجَدَتْ فيهِ شَفَقَةً عليها لا حُبًّا... وَجَدَتْ رِثاءً لا عِشْقًا!

وناجى نفسَهُ والأَسى يَحُزُّ في صَدْرِهِ: «إنَّها تَزْدَريني، ويا ليتَها تَفْعَلُ، بل إنَّها تَمْقُتُني مَقْتًا عَظيمًا!»

وَطَفِقَ يُرَدِّدُ بصَوْتِ القانِطِ المُسْتَسْلِمِ: «هٰذا مُريعٌ! مُريعٌ!»

وبَكى في تِلكَ اللّحظةِ طِفْلٌ في الغُرفةِ المُجاورةِ، ورُبّما يَكونُ قد سَقَطَ على الأَرضِ. وأَصاخَتْ داريا، ولانَتْ نَظْرَتُها ورَقَّتْ أَساريرُها، وتَحَفَزَّتْ ثُمَّ نَهَضَتْ مُسْرِعَةً إلى البابِ.

وأَشْرَقَ وُجْهُ أوبلنسكي؛ ورَأَى في هٰذا التَّبَدُّلِ المُفاجِىءِ نَوْعًا مِنَ الأَمَلِ في عَودةِ المياهِ إلى مَجاريها، وقالَ يُحَدِّثُ نفسَهُ: «إنَّها أُمٌّ، وهْيَ تُحِبُّ الأَوْلادَ، أولادي أنا، فكيفَ تَقْلوني[1]؟»

وسارَعَ يَقولُ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ: «لي كَلِمةٌ يا داريا، كَلِمةٌ فحَسْبُ...».

فحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ صارِمةٍ مُتَوَعِّدةٍ، وصاحَتْ: «إيّاك... إيّاكَ... لا تَتْبَعْني وإلّا دَعْوتُ الخَدَمَ لأُعَرِّفَهُمْ حقيقةَ نَفسِكَ، وأُطْلِعَهُمْ على نَذالتِكَ! أنا ذاهبةٌ مِنْ هُنا، ذاهبةٌ إلى غيرِ رَجْعةٍ، فاغْتَبِطْ، ففي إمكانِكَ العَيْشُ مَعَ خَليلتِكَ... عِشْ مَعَها أَيُّها الوَغْدُ!»

وخَرَجَتْ، وصَفَقَتِ البابَ وَراءَها بعُنْفٍ.

وتَنَفَّسَ ستيفانُ الصُّعَداءَ، وجَمْجَمَ باسِمًا: «قالَ ماتفي خادمي الأَمينُ إنَّ الزّمانَ كفيلٌ بحَلِّ أَعْقَدِ المُشْكِلاتِ، فكيفَ؟ وقالَ إنَّها سَتَرْجِعُ مِن تِلقاءِ نَفْسِها، فكيفَ؟ لا أَمَلَ في ذٰلِكَ؛ بلى، لا أَمَلَ.. أُوّاهِ! كيفَ صاحَتْ؟ لا شَكَّ أَنَّ الخَدَمَ سَمِعُوها وهْيَ تَصْرُخُ بمِلْءِ فيها وتَقولُ- أَيُّها النَّذْلُ... وخَليلَتُكَ... وسوى ذٰلِكَ! هذا مُريعٌ، مُريعٌ جِدًّا!»

وما عَتَّمَ[2] أَنْ خَرَجَ مِنَ الحُجْرةِ، فاسْتَدْعى ماتفي وقالَ: «عليكَ يا ماتفي أَنْ تُعِدَّ غُرفةَ الضُّيوفِ لإقامةِ شَقيقتي أَنّا، فلا تَنْسَ ذٰلِك، إنَّها قادمةٌ اليومَ».

قالَ: «لا تَخْشَ يا سَيِّدي، فسأَحْسِبُ لكُلِّ شيءٍ حِسابَهُ» وأَلقى ستيفانُ مِعْطَفَهُ على

---

(١) تَقْلوني: تكرَهُني.
(٢) ما عَتَّمَ أَنْ: ما لَبِثَ أَن.

مَنْكِبَيْهِ، ودَلَفَ خارِجًا، وتَبِعَهُ الخادِمُ العَجوزُ، وسأَلَهُ وهْوَ يَهُمُّ بِرُكوبِ العَرَبَةِ: «وهَلْ تُزْمِعُ العَودةَ لتَناوُلِ الطَّعامِ؟»

- «قد أَفْعَلُ، فخُذْ هٰذا المَبْلَغَ (وأَعْطاهُ عَشَرَةَ روبلاتٍ) لنَفَقاتِ البَيْتِ، وكُنْ مُقْتَصِدًا!»

- «كعادتي دَوْمًا!»

وأَغْلَقَ الخادِمُ بابَ العَرَبَةِ ورَجَعَ أَدْراجَهُ.

وكانَتْ داريا في تِلْكَ الأَثْناءِ قد تَدَبَّرَتْ أَمْرَ الطِّفْلِ الباكي، وعَلِمَتْ مِن صَوْتِ العَرَبَةِ أَنَّ زَوْجَها غادَرَ البَيْتَ، فرَجَعَتْ إلى مَخْدَعِها. وكانَ المَخْدَعُ مَلْجَأَها الَّذي تَلوذُ بِهِ هَرَبًا مِنْ مَتاعِبِ البَيْتِ والأَولادِ.. حتّى الخَدَمُ كانوا يُسَبِّبونَ لها آلامًا كثيرةً.

وأَصابَها خَوْفٌ طاغٍ. لقد ذَهَبَ.. فهل ذَهَبَ على أَلّا يَعودَ؟ هل عَزَمَ بَعْدَ أَنْ يَئِسَ منها أَنْ يَفْصِمَ العُرى، ويَقْطَعَ الوَشائِجَ[1]؟ «ولٰكِنْ، لو سلَّمْتُ جَدَلًا بأَنَّهُ سيَرْجِعُ ويُقيمُ هُنا وأُقيمُ أنا أَيضًا، فهل يُمْكِنُ أَنْ نَنْسى الماضِيَ؟ أَوّاهِ! لَكَمْ تَوَلَّهْتُ بحُبِّهِ! لَكَمْ شُغِفْتُ بِهِ! يا إِلٰهي، يا إِلٰهي!»

وطَفَرَتِ الدُّموعُ مِن عَيْنَيْها ومَضَتْ في نَجواها: «لقد أَحْبَبْتُهُ ولا أَزالُ أُحِبُّهُ، بل إِنَّ حُبّي لهُ تَضاعَفَ الآنَ...».

وقَطَعَتْ عليها حَبْلَ فِكْرِها خادِمَتُها (ماترينا فليمونوفنا) وهْيَ تَفْتَحُ البابَ وتَقولُ: «ذَريني أُرْسِلْ في طَلَبِ أَخي، ففي اسْتِطاعتِهِ تَجهيزُ بَعْضِ الأَطعِمَةِ للأَوْلادِ، وبذٰلِكَ نُجَنِّبُهُمْ قَضاءَ النَّهارِ طاوينَ ساغِبينَ»[2].

فقالَتْ: «أَصَبْتِ يا ماترينا، فابْعَثي في طَلَبِهِ... ولٰكِنْ، هل جِئْتِ بالحَليبِ؟».

وغابَ عن بالِها أَنَّها غاضبةٌ، فانْهَمَكَتْ في أَعمالِها، وأَقْبَلَتْ على تَصْريفِ شُؤونِ بَيْتِها وأَوْلادِها.

والأُمُّ أُمٌّ... دائِمًا...

---

(١) الوَشائِج: الصِّلات، الرَّوابط.

(٢) طاوينَ ساغِبينَ: جائعينَ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ما الحالةُ الشعوريّةُ الَّتي عاشَتْها داريا بعدَ أنِ اكتشَفَتْ خيانَةَ زوجِها لها؟

٣ - أَكانَتْ داريا تُحِبُّ زوجَها، أَم كانَتْ تَكرَهُهُ؟

٤ - ماذا كانَتْ تُحِبُّ فيه؟ وماذا كانَتْ تَكرَهُ فيه؟

٥ - أَتَرى في داريا مُجرَّدَ امرأةٍ عنيدةٍ، أم سيِّدةً تحترمُ نفسَها وتحفَظُ عهدَها؟

٦ - ذكرَتْ داريا اسمَ زوجِها وهيَ تُخاطِبُهُ ساخِطَةً، فجاءَ الاسمُ مُصَغَّرًا. علامَ يدُلُّ ذلك؟

٧ - هل تُخمِّنُ أنَّ الأَزمةَ الَّتي عَصَفَتْ بأُسرةِ أوبلنسكي ستَهْدَأُ وتَنحَلُّ؟ وما الَّذي أَوْحى لك بذلك؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الخامس

كانَ ستيفانُ أوبلنسكي، بالرَّغْمِ مِنَ الكَسَلِ الَّذي عَراهُ في الصِّغَرِ، وبالرَّغْمِ مِنِ استِهتارِهِ بَعْدَ أَنَ شَبَّ واكتَمَلَ، قد شَغَلَ مَنْصِبًا سامِيًا في موسكو. وما كانَ تَوْفيقُهُ في حَياتِهِ تِلْكَ إِلَّا بِفَضْلِ زَوْجِ شَقيقَتِهِ أَنّا ويُدْعى أَليكسيس كارنين، وكانَ قُطْبًا مِن أَقطابِ الحُكومةِ في ذٰلِكَ الحينِ.

وما كانَ ستيفانُ لِيُقَصِّرَ عَنِ الظَّفَرِ بِمِثْلِ هٰذا المَنْصِبِ لو لم يُعِنْهُ أَليكسي في ذٰلِكَ، فثَمّةَ مِئاتٌ غيرُ أَليكسي كانوا على تَمامِ الأُهْبَةِ لِيُقَدِّموا لهُ المُساعَدَةَ اللّازِمةَ.. ثَمّةَ مِئاتٌ مِنَ الشّخْصِيّاتِ الرّفيعةِ الخطيرةِ الّتي تَشِجُها[1] بِسْتيفانَ صِلاتُ القُربى والصّداقةِ كانوا لا يَتَأَخّرونَ عن تَمهيدِ طَريقِ النّجاحِ للشّابِّ لو لم يَسْبِقْهُمْ كارنينُ إِلى ذٰلِكَ.

فنِصْفُ أَهالي موسكو وبطرسبرج كانوا مِن ذَوي قَرابَتِهِ. وأَعني بالنِّصْفِ، تلكَ الطَّبَقَةَ المُتْرَفَةَ الَّتي تَضَعُ يَدَها على مَقاليدِ الأُمورِ، وتُهَيْمِنُ على شُؤونِ الدَّولةِ. لهٰذا كانَ خليقًا بهِ أَنْ لا يَشْقى في الحُصولِ على ما يَبْتَغِي شَريطةَ أَنْ لا يَشْرَئِبَّ بعُنُقِهِ إِلى أَعْلى.. أَي عَلَيْهِ أَنْ يَقْنَعَ بالَّذي ظَفِرَ بِه، فلا يَلِجَ مَقاحِمَ مَنْ هُمْ أَعْظَمُ قَدْرًا وأَخْطَرُ مَكانةً.

وكانَ ستيفانُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ الجميعِ بهِ؛ فهْوَ مُسالِمٌ بطَبْعِهِ، يَنْفُرُ مِنَ المُشاحَناتِ، ويَحْرِصُ على تَجَنُّبِ ما يُريبُ، حتّى وُفِّقَ بحُسْنِ خِلالِهِ إِلى استِلالِ كُلِّ حَذَرٍ يَنوبُ رَئيسًا أو مَرْؤُوسًا.

كانَ يَصْدُفُ عَنِ المُجادلةِ، ويَبْتَعِدُ جُهْدَهُ عَنِ المُناقشةِ، ويَتَكَلَّمُ بلِسانٍ خاضِعٍ، وصَوْتٍ لَطيفٍ... ويَضْحَكُ في وَجْهِ كُلِّ إِنسانٍ، ويَعْفو ويَصْفَحُ مَهْما كانَتِ الإِساءةُ بالغةً.

ثُمَّ إِنَّهُ كانَ مجّانًا، مَرِحًا، يُوحي بَريقُ عَيْنَيْهِ بِبَياضِ قَلْبِه، وتُفْشي انطِلاقةُ أَساريرِهِ طيبَ

(١) تَشِجُها: تَرْبِطُها.

باطنِهِ وداخِلَتِهِ.

حتّى إنَّ كُلَّ صَديقٍ كان يُقابِلُهُ بتَحِيّةٍ حارّةٍ، فيَقولُ: «هٰذا أنتَ يا سْتيفا...» ويَبْتَسِمُ الصّديقُ ابتسامةً مُخلِصةً، ويُرَبِّتُ على ظَهْرِهِ مُتَوَدِّدًا مُتَحَبِّبًا.

واسْتطاعَ إبّانَ الأَعْوامِ الثّلاثةِ الَّتي قَضاها في الوَظيفةِ أَنْ يُوَطِّدَ مَرْكَزَهُ في قُلوبِ الجَميعِ، وأَنْ يَدْعَمَ مُسْتقبَلَهُ بطريقةٍ فعّالةٍ. فهْوَ يُغْضي حتّى لا يَجْلِبَ المَضرّةَ للغيرِ والكَدَرَ لنفسِهِ... وهْوَ يَتَواضَعُ حتّى لا يَتَضاعَفَ كُرْهُهُ الفِطْرِيُّ مِنَ التّعالي والعَجْرفَةِ... وهْوَ يُحِبُّ الجَميعَ ويُحِبُّ نفسَهُ... ثُمَّ هُوَ لا يَحمِلُ مَسْؤوليّةً، ويَعْمَلُ عَمَلًا هَيِّنًا، ويَرعى راحتَهُ ومَصْلَحَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَرعى مَطاليبَ الوَظيفةِ ومَصْلَحةَ العَمَلِ.

* * *

كانَ أوبلنسكي كما قُلْنا يَحْيا حياةً سَطْحيّةً؛ كانَ يَحْيا بجِسْمِهِ مَعَ زَوْجِهِ، وقَلْبُهُ فارِغٌ مِنَ الحياةِ. فلمّا وَقَعَتِ الواقِعَةُ، ومَضى في ذٰلكَ الصّباحِ المَشْؤومِ إلى مَقَرِّ عَمَلِهِ، كانَ شارِدَ اللُّبِّ، زائغَ البَصَرِ، يَضْرِبُ أَخْماسًا لأَسداسٍ، كمَنْ يُظْهِرُ شيئًا ويُريدُ غيرَهُ.

فلمّا دَخَلَ مَكْتَبَهُ حَيّاهُ الجميعُ ورَحَّبوا بهِ. ثُمَّ دَخَلَ عليهِ شابٌّ كانَ أَشَدَّهُمْ ظَرْفًا وأَكْثَرَهُمْ كِياسةً، فَمَثَلَ بينَ يَدَيْهِ وعَرَضَ عليهِ مُختلِفَ الأَوْراقِ.

وأَنْصَتَ أوبلنسكي أو تظاهَرَ بالإنصاتِ، ولٰكِنَّهُ لم يَفْقَهْ ما يَقولُهُ الشّابُّ، بل مَضى يَهْجُسُ في مُصيبتِهِ، ثُمَّ ناجى نفسَهُ باسمًا: «أَوَأَسْتَطيعُ أَنْ أَعْمَلَ؟ لَوِ اطَّلَعَ هَؤلاءِ الشُّبّانُ على جَريرةِ رَئيسِهِم، واسْتطاعوا أَنْ يَرَوهُ وهْوَ يَقِفُ في مَذَلَّةٍ أمامَ زَوجِهِ لكانَ مَوْقِفُهُمْ مِنّي غيرَ مَوْقِفِهِمْ، ونَظْرَتُهُمْ إليَّ غيرَ نَظْرَتِهِمْ».

ومَضَتِ السّاعاتُ؛ ثُمَّ دَخَلَ عليهِ في ساعةِ الظُّهْرِ شابٌّ مَديدٌ، مُنْتَصِبٌ، يَدُلُّ مَظْهَرُهُ على القُوَّةِ والعَزْمِ، وتُنْبِئُ سيماهُ بالصَّراحةِ والحَزْمِ.

وما كادَ ستيفانُ يَشْعُرُ بمَقْدَمِ الرَّجُلِ حتّى انْتَصَبَ واقِفًا ومَدَّ لهُ يَدَهُ مُصافِحًا، وقالَ: «على الرَّحْبِ، على الرَّحْبِ، متى قَدِمْتَ؟»

فأَجابَهُ الشّابُّ: «مُنْذُ يَسيرٍ، وها أَنَذا آتي إِلَيْكَ!»

وصَمَتَ فَيْنةً ثُمَّ أَتَمَّ: «ولي عِنْدَكَ مَأْرَبٌ، فهل لَدَيْكَ فُسْحةٌ مِنَ الوَقْتِ لتَسْمَعَ ما أَقولُ؟»

وكانَ هٰذا الشّابُّ يُدْعى ليفينَ، وهْوَ أَقْرَبُ أَصْدِقاءِ ستيفانَ إِلى قَلْبِهِ. فقد تَبادَلَ الشّابّانِ الحُبَّ وهُما طِفْلانِ، ولمّا تَرَعْرَعا وشَبّا عَنِ الطَّوْقِ مَحَضَ[1] الواحِدُ مِنْهُما الآخَرَ الوُدَّ والصَّفاءَ، وأَخْلَصَ لَهُ أَيَّما إِخْلاصٍ.

وعَمِلَ ستيفانُ في الحُكومةِ؛ أَمّا صَديقُهُ ليفينُ، وكان نَفورًا بطَبْعِهِ مِن المُجْتَمَعاتِ، فقد فرَّ هارِبًا مِن موسكو، وانتَجَعَ الرِّيفَ حيثُ عاشَ هانِئًا سَعيدًا مُرتاحًا مِن مَشاكِلِ المَدينةِ ومَتاعِبِها.

ولمّا استَتَبَّ بالشّابِّ المُقامُ عادَ ستيفانُ يَقولُ بلَهْجَةٍ تَشِفُّ عن طيبتِهِ وصَراحتِهِ: «إِنَّني سَعيدٌ برُؤيتِكَ يا صَديقي، فأَيْنَ كُنْتَ؟ وما الَّذي حَبَسَكَ عنّا؟»

فأَجابَ ليفينُ: «كُنْتُ في الرّيفِ كما تَعْلَمُ، أَمّا مشاعري فقد كانَتْ في موسكو!»

- «وسنَتَناوَلُ طَعامَ الغَداءِ مَعًا اليَوْمَ».

- «بوُدّي لو قَدَرْتُ؛ وما سوفَ أَقولُهُ لَكَ، لا يَسْتَغْرِقُ بَثُّهُ أَكْثَرَ مِن دَقائِقَ».

- «قُلْ ما تَشاءُ بإِيجازٍ، ثُمَّ بإِسهابٍ حَوْلَ مائِدةِ العَشاءِ».

فتَمْلَمَلَ ليفينُ مُتَحَرِّجًا، ثُمَّ تَضَرَّجَ وَجْهُهُ حَياءً، وأُلْجِمَ لِسانُهُ. ولٰكِنَّهُ استَجْمَعَ قُواهُ بَعْدَ لَأْيٍ[2]، وقالَ وهْوَ مُطْرِقٌ: «أَرَدْتُ أَنْ أَجْتَمِعَ إِليكَ لأُخْبِرَكَ أَنّي... أَنّي...!»

وصَمَتَ كأَنَّ القَوْلَ أُرْتِجَ[3] عَلَيْهِ، وما عَتَّمَ أَنْ أَرْدَفَ يَقولُ: «لن أُكْثِرَ القَوْلَ في ما لا مَنْفَعةَ فيهِ، فماذا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَزِفَّ إِليَّ مِن أَخْبارِ الأَميرِ شرباتسكي وعائِلتِهِ؟ قُلْ كُلَّ شَيْءٍ وسأَكونُ لكَ مِنَ الحامدينَ!»

فضَحِكَ أوبلنسكي ضِحكةَ المَرَحِ، وكأَنَّهُ نَسِيَ مُشكِلتَهُ المُسْتَعْصيةَ وقالَ: «إِنَّهُمْ على خيرِ ما يُرامُ».

واسْتَعْرَضَ في ذِهْنِهِ صورةَ كاترينَ ابنةِ الأَميرِ وشقيقةِ داريا زَوجتِهِ، وفَكَّرَ في تَعلُّقِ ليفينَ بها وتَدَلُّهِهِ بحُبِّها.

---

(١) مَحَضَهُ الوُدَّ: أَخْلَصَهُ له.

(٢) بعدَ لأْيٍ: بعدَ جَهدٍ ومَشَقَّةٍ.

(٣) أُرْتِجَ عليه القَوْلُ: أُغْلِقَ بابُه.

وصَعَّدَ في صَديقِهِ بَصَرَهُ، ثُمَّ بَشَّ ثانيةً وقالَ بوَجْهٍ طَلْقٍ: «وإِنْ شِئْتَ رُؤيتَها، فما عَليكَ إِلَّا أَنْ تَؤُمَّ حَلْبَةَ التَّزَلُّجِ في حَديقةِ الحَيواناتِ.. فهُناكَ تَجِدُها، هناكَ تَلْقى كاترينَ كُلَّ يومٍ قَبْلَ الأصيلِ، بينَ الثّالثةِ والخامسةِ!»

فاسْتَشْعَرَ ليفينُ الانْشِراحَ، وشَعَّتْ عَيْناهُ بنورِ الحُبورِ، ولٰكِنَّهُ تَنَبَّهَ إِلى عَيْنَي صَديقِهِ المُتَرَقِّبَتَيْنِ، فتَضَرَّجَ وَجْهُهُ، وأَيْقَنَ أَنَّ شَوقَهُ قد فَضَحَهُ. ولٰكِنَّه أَنْشَأَ يَقولُ وهْوَ يُغالِبُ حَياءَهُ: «وسأَلقاكَ هُناكَ إذًا في الحَلْبةِ... أَلَيْسَ كذٰلِكَ؟»

قالَ: «أَجَلْ، أَجَلْ... وسنَتَناوَلُ طَعامَ العَشاءِ مَعًا في ما بَعْدُ».

وانْسَرى هَمُّ ليفينَ، وتَلاشى اضْطِرابُهُ، وأَقْبَل على صَديقِهِ يُصافِحُهُ ويَشْكُرُ لَهُ صَنيعَهُ.

وما أَبْطَأَ أَنِ انْصَرَفَ لا يَلْوي على أَحَدٍ، وقد أَنْحى على نفسِهِ باللّائمةِ، وعَذَلَها على تردُّدِها وخَوَرِها وحَيائِها... وعَنَّفَ تلكَ النَّفسَ الخائِرةَ على فُقْدانِها مَعانيَ الشّجاعةِ، وإلّا لكانَ ابْتَدَرَ صَديقَهُ أوبلنسكي بالواقِعِ، وقال: «ما جِئْتُ إلى موسكو إِلّا لَها، ما تَجَشَّمْتُ مَشاقَّ السَّفَرِ إِلّا لأُكَحِّلَ عَينَيَّ بمَرآى كاترينَ، فما قولُكَ؟»

* * *

كانَتْ عائِلتا «شِرْباتسكي» و«ليفينَ» مِنَ العائِلاتِ القَديمةِ المَعْروفةِ في موسكو، وكانَ بينَهُما مِن أَواصِرِ القُربى والصَّداقةِ الوَشيجةِ ما جَرى مَجْرى المَثَلِ. وقد تَوَثَّقَتْ عُرى المَحَبَّةِ والأُلفةِ بينَ ليفينَ الشّابِّ ونيكولا شِرْباتسكي، شقيقِ داريا وشقيقِ الحسناءِ كاترينَ، الّتي افْتَتَنَ بها ليفينُ.

والعَجيبُ في الأَمْرِ أَنَّ ليفينَ تَعَثَّرَ قلبُهُ في هَوى داريا قَبْلَ زَواجِها ثُمَّ لم يَلْبَثْ أَنْ تَحوَّلَ إِلى شَقيقتِها، فكانَ حُبُّه حُبًّا شَديدًا مُضْطَرِمًا لا تَخْمَدُ لهُ وَقْدةٌ.

وطَفِقَ مِن بُعْدٍ يَتَرَدَّدُ على بَيْتِ العائلةِ العَريقةِ، وهْوَ يُحاوِلُ أَنْ يَحوزَ مَغْنَمًا، ويَفوزَ بضالّةٍ. ولم يَزَلْ أَلْزَمَ لها مِن ظِلِّها كُلّما أَمَّ موسكو، حتّى أَيْقَنَ الجَميعُ أَنَّهُ لا بُدَّ مُتَقَدِّمٌ إِلى أَوْلياءِ أَمْرِها لخِطْبَتِها، وأَنَّهُ لن يَلْبَثَ طَويلًا حتّى يَطْلُبَ يَدَها.

ولٰكِنَّهُ وقد لَزِمَها شَهْرَيْنِ، وراقَبَها عن كَثَبٍ، وسَبَرَ غَوْرَها وأَصغى لحديثِها، راعَهُ ما رآه مِن سُمُوِّ خُلُقِها، وحَصافةِ تَفْكيرِها، والْتِزامِها جادّةَ الشَّرَفِ والاسْتِقامةِ، وأَيْقَنَ أَنَّ تَصَدِّيَهُ

للظَّفَرِ بها حَليلةً، أَمْرٌ دونَهُ خَرْطُ القَتادِ[1]، ولم يَجِدْ مَندوحَةً في النِّهايةِ مِنَ الرُّجوعِ إلى قَريتِهِ والانْطِواءِ على نفسِهِ وعلى سَقَمِ قَلبِهِ ودَنَفِهِ[2]!

ولمّا مَنَّ اللهُ عَليهِ بتَقْويةِ نفسِهِ، أَفاقَ مِن غَيْبُوبتِهِ الَّتي رَماهُ فيها الحُبُّ المُبَرِّحُ، وعَجِبَ كيفَ داخَلَ حِسَّهُ وتَفكيرَهُ أَنَّ كاترينَ لن تُحِبَّهُ قَطُّ، ولن تَقْبَلَ بهِ بَعْلًا. كما أَنَّ أَفْرادَ عائلَتِها سيَرفِضونَ طَلَبَهُ ويَرُدّونَهُ خائِبًا خاسِئًا... أَلَيْسَ هُوَ شابًّا يَنتمي بعَمَلِهِ إلى طَبَقةِ الفلّاحينَ؟ أَلَيْسَ هُوَ شابًّا مَنْسِيًّا، لا تَعْتَرِفُ بِهِ أَنديةُ موسكو اللَّيليّةُ؟ أَلا يُعنَى بالسّائمةِ[3]، فيُرَبِّيها ويَتَعَهّدَها ويُتاجِرَ بِها؟ فأَينَ هُوَ إِذًا مِن كاترينَ؟ وأَينَ مَكانَتُهُ المَرْموقةُ في الحُكومةِ؟

فما إِن قَفَلَ راجِعًا إلى موسكو حتّى هاجَ الحَنينُ بقلبِهِ، وثارَتْ كَوامِنُ شَوْقِهِ وحَنينِهِ، وعَزَمَ وقد أَدْنَفَتْهُ هٰذِهِ التَّباريحُ أَنْ يَسْتَطْلِعَ طِلْعَ مَحبوبتِهِ، ويَكْتَنِهَ رَأْيَ أَهْلِها في شَخْصيَّتِهِ، ولْيَفْعَلِ اللهُ ما يراهُ أَمْرًا مَقْضيًّا، ولْيَقْضِ عليهِ بالَّذي يَراهُ...

وقرَّرَ أَنْ يَتَقَدَّمَ مِن أَبَوَيْها فيَطْلُبَ يَدَها، فَمَنْ يَعْلَمُ؟ قد يُكْرِمانِ وِفادَتَهُ، ويُبَدِّدانِ مَخاوِفَهُ، ويَسْتَجيبانِ إلى طَلَبِهِ، فيُحَقِّقانِ بِذٰلِكَ سَعادةَ قلبِهِ وروحِهِ!

فإِذا رَفَضا، وإِذا رَفَضَتْ؟

وَيْلاهُ! ماذا هو صانعٌ إن رَفَضُوا؟

وطَرَدَ مِن رأْسِهِ هٰذِهِ الأفكارَ، وفَوَّضَ أَمرَهُ إلى اللهِ مُسَهِّلِ الأَوْطارِ، وعالِمِ الأَسرارِ!

---

(١) خَرْطُ القَتَادِ: انْتِزاعُ شوكِ القَتادِ باليدِ وهو أَمرٌ بالغُ الصُّعوبَةِ.

(٢) دَنَفُه: مَرَضُهُ الثَّقيلُ الملازمُ له.

(٣) السّائِمةُ: الماشِيَةُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ما الخصالُ الَّتي جعلتْ ستيفان أويلنسكي محبوبًا لدى أقربائِهِ وأصدقائِهِ؟

٣ - أَتَرْضى أنتَ عن هذه الخِصالِ في المَرْءِ؟

٤ - حَدِّدْ خِصالَ شخصيّةِ ليفين كما بَدَتْ لك من خلالِ هذا الفصلِ.

٥ - أَتَقَعُ في ما قرأْتَ حتّى الآنَ، ولا سيَّما في هذا الفصلِ، على ملامحَ طبقيَّةٍ في المجتمعِ الروسيِّ؟ وما هيَ؟

٦ - أنتَ، في هذا الفصلِ، أمامَ ملامحِ عقدةٍ جديدةٍ، أتستطيعُ أن تُحدِّدَها؟ مَنْ بطلُها؟ وماذا تتوقَّعُ لها حلًّا؟

٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّادس

اِسْتَقَلَّ ليفينُ العَرَبَةَ في السّاعةِ الرّابعةِ، وتَرَجَّلَ مِنها في مَكانٍ بَعيدٍ عن حَلْبَةِ التَّزَلُّجِ، ثُمَّ مَشى إليها بخُطُواتٍ بَطيئَةٍ مُتَرَدِّدَةٍ، ونَفْسٍ هاجِسةٍ مُتَوَجِّسةٍ، وهْوَ يَوَدُّ لو عادَ أدراجَهُ حتّى يَسْلَمَ مِن هٰذا القَلَقِ الشّديدِ الَّذي طَفِقَ يَمْلأُ صَدْرَهُ. ولٰكِنَّهُ، على الرَّغْمِ مِن خَوفِهِ وذُعْرِهِ، مَشى مُتَّجِهًا إلى ذٰلِكَ المَكانِ حتّى لا يَهْدِمَ بحَيائِهِ وتَرَدُّدِهِ ما سَعى إليهِ للمَرَّةِ الأَخيرةِ، وحتّى لا يَلومَ في المُستقبَلِ نفسَهُ الَّتي أَضاعَتْ بجُبْنِها مُنْيَةَ قلبِهِ وهَناءَةَ روحِهِ. وقد يَقيهِ اللهُ، إن أَقْدَمَ، مَرارةَ الخَيبةِ، فيُنْجيهِ مِنَ العَثَراتِ، ويُوصِلُهُ إلى شاطِىءِ السّلامةِ مَوْفورَ القُوّةِ والكَرامةِ.

وقَالَ وهْوَ يُشْرِفُ على الحَلْبَةِ: «وَيْكِ يا نَفْسُ[1]! قَدِّمي لِصاحِبكِ صالِحًا! وَيْكِ يا نَفْسُ! لا تُراعي، وازْدَري الخَوفَ كما ازْدَرَيْتِ مِنْ قَبلُ زُخْرُفَ الحياةِ.

وضَعُفَتْ ثِقَتُهُ بنَفْسِهِ ساعةَ ظَهَرَ النّاسُ لبَصَرِهِ، وشَعَرَ بالسُّرورِ والغِبْطةِ، كما داخَلَهُ شيءٌ كَثيرٌ مِنَ الخَوْفِ والرَّهبةِ.

وأَيْقَنَ مِن لَمَحاتِ فِكْرِهِ واضطِراباتِ إحساسِهِ أَنَّ حَبيبَةَ قَلْبِهِ موجودةٌ لا مَحالةَ.

فمَنْ، مَنْ يوصِلُهُ إلى نَيْلِ المُرادِ؟ وحَرَّضَهُ الشَّوقُ على أَنْ يَخْطوَ إلى الأمامِ مُتَغَلِّبًا على حَيائِهِ وفَزَعِهِ.

وما هِيَ إلَّا دقيقةٌ حتّى بَدَتْ لَهُ كاترينُ، وتَراءَتْ كأَنَّها وَرْدَةٌ بينَ حَشائشَ، إنْ لم تَقُلْ بينَ أَشْواكٍ! وكُلُّ شيءٍ سَطَعَ حَوْلَها، فكانَتْ كالابتِسامةِ الَّتي أَضْفَتِ النُّورَ على مَنْ يُحيطُ بها.

«فهل يُمْكِنُني أَنْ أَسيرَ إليها؟ هل أَجْرُؤُ على الاقْتِرابِ منها؟» جَعَلَ ليفينُ يُناجي نفسَهُ.

---

(١) وَيْكِ: وَيْحَكِ.

وخُيِّلَ إِليهِ أَنَّ المكانَ الّذِي احْتَلَّتْهُ ما هُوَ إِلَّا مِحرابٌ مُقَدَّسٌ لا يَرقَى إِليهِ أَحَدٌ. واسْتَحْوَذَ عليهِ الهَلَعُ، وانْثَنى يُزْمِعُ الرُّجوعَ مِن حَيْثُ أَتى. لٰكِنَّهُ تَغَلَّبَ على خَوَرِهِ ووَهْنِ عَزيمتِهِ، وتَذَكَّر وهْوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسامةً فاتِرةً أَنَّ غيرَهُ يَحومُ حَوْلَها على الرَّغْمِ مِن ضِيائِها وبَهائِها ورُوائِها! ومَشى مِن بَعيدٍ، مَشى لِدقائِقَ عَديدةٍ يَرْنو ولا يَدْنو، ويَخْتَلِسُ النَّظَرَ ولا يَتَقَدَّمُ!

في مِثْلِ ذٰلِكَ اليَوْمِ مِن كُلِّ أُسبوعٍ كانَ يَؤُمُّ حَلْبَةَ التَّزَلُّجِ خَليطٌ مِنَ النَّاسِ. كانَ مِنْهُمْ أَبْطالُ اللَّعِبِ على الثَّلْجِ، وكانَ مِنْهُمْ المُبتَدِئونَ. كانَ مِنْهُمْ طُلّابُ المُتْعةِ، وكانَ مِنْهُمُ الباحثونَ عَنِ الشَّهْوةِ... ورَمَقَ ليفينُ حَبيبةَ قَلبِهِ، وتَفَرَّسَ في القَوْمِ الآخَرينَ، وأَيْقَنَ ساعَتذاكَ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ جَميعًا، لأَنَّهُمْ يُحيطونَ بها إحاطةَ الهالةِ بالقَمَرِ.

وبينا هُوَ مُنْصَرِفٌ إلى هَواجِسِهِ وأفْكارِهِ، لا تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ التَّقَدُّمَ، إلَّا ويَدْفَعُهُ خَوْفُهُ ويَدْرَؤُهُ، إذ بقائِلٍ يَهْتِفُ: «هٰذا هُوَ بَطَلُ روسيا الأَوَّلُ في التَّزَلُّجِ! فمتى قَدِمْتَ يا ليفينُ؟ وكيفَ لم نَسْمَعْ بمَقْدَمِكَ؟»

وكانَ المُتَكَلِّمُ يُدْعى «نيكولاي شِرْباتسكي»، وهُوَ ابنُ عَمِّ كاترينَ.

واقْتَرَبَتْ كاترينُ في حَذَرٍ كأَنَّها تَخافُ السُّقوطَ، ووَجَفَ قَلْبُ ليفينَ، وتَحَجَّرَتْ نَظْرَتُهُ، وطَفِقَ يَتَأَمَّلُ صامِتًا في هٰذا الحُسْنِ الرّائعِ. ثُمَّ صَعَّدَ طَرْفَهُ إلى عَيْنَيْها اللَّتَيْنِ تَنْطِقانِ دَوْمًا بالطِّيبةِ والإِباءِ والصِّدْقِ.

وقالَتْ بصَوْتِها الحَنونِ الهادئِ: «ومَتى قَدِمْتَ موسكو؟» وأَعْطَتْهُ يَدَها، واسْتَلَتْ وهُوَ يُقَدِّمُ لها مِنْديلَها الّذي سَقَطَ منها: «لكَ شُكري وامْتِناني».

وقالَ: «أنا؟ لم آتِ... إِلّا... البارحةَ... أَعْني اليَوْمَ... وكُنْتُ أَنْوي زِيارَتَكِ!» وكأَنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ عازِمًا على الاجتِماعِ إليها، فَتَضَرَّجَ وَجْهُهُ حَياءً!

وتَأَلَّقَتْ شَفَتاها بابتِسامةٍ ساحِرةٍ خالِبةٍ، فمادَتِ الأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وكادَ يَتَهاوى ممّا حَلَّ بهِ. ولٰكِنَّها أَنْقَذَتْهُ فقالَتْ: «أنا جِدُّ مَسْرورةٍ بمَجيئِكَ!»

فقالَ: «لم أَكُ أَعْلَمُ أَنَّكِ ماهرةٌ في التَّزَلُّجِ».

فتَمَعَّنَتْ في وَجْهِهِ، وكأَنَّها تَرومُ سَبْرَ غَوْرِهِ، واستِشفافَ ما يُرْبِكُهُ ويُقْلِقُهُ، وما لَبِثَتْ أَنْ أَجابَتْ: «ثَناؤُكَ عليَّ لهُ قيمتُهُ، فكُلُّ امرِئٍ يَعْرِفُ أَنَّكَ أَمْهَرُ مَنْ تَزَلَّجَ في موسكو».

ونَفَضَتْ بإصْبَعِها ما عَلِقَ بثِيابِها مِن ذَرّاتِ الثَّلْجِ.

قالَ: «لقد استَهْوَتْني هٰذِهِ الرِّياضةُ، ومَلَكَتْ لُبّي، لهٰذا عَزَمْتُ مُنذُ زَمَنٍ على التَّفَرُّغِ لَها والتَّمَرُّسِ فيها».

فأَجابَتْ ضاحكةً: «كُلُّ ما يَسْتَهْويكَ، تُصِرُّ على نَيْلِهِ كما أرى، فهَلُمَّ، ضَعْ في رِجْلَيْكَ عُدَّةَ التَزَلُّجِ ولْنَلْعَبْ مَعًا».

وفَكَّرَ ليفينُ: «نَتَزَلَّجُ مَعًا! أنا وهْيَ! هل أُصدِّقُ سَمْعي؟ أَغَدَوْتُ مِنَ السُّعَداءِ؟»

وما عَتَّمَ أَنْ ذَهَبَ إلى مَكانِ استِبدالِ المَلابسِ. فرَحَّبَ بهِ الخَدَمُ، وجاؤوا إِلَيْهِ بما أَرادَ، وساعَدوهُ على الاستِعدادِ. ثُمَّ خَرَجَ إلى الحَلْبةِ، فدَنا مِن كاترينَ بِخُضوعِ العَبْدِ ورِقّتِهِ. ولٰكِنَّ ابتِسامَتَها شَدَّدَتْ قَلْبَهُ وعَزيمتَهُ، فأَمْسَكَ يَدَها وانسابَ مَعَها على الثَّلْجِ ببُطْءٍ ثُمَّ بسُرعةٍ مُتزايدةٍ.

وبَرَقَتْ عَيْنا الحَسْناءِ وهْيَ تَشْعُرُ بالثِّقةِ والقُدْرةِ، وجَعَلَتْ تَضْغَطُ على يَدِهِ وتَقولُ: «مَعَكَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَبُذَّ غيري، فأَنْتَ حَقًّا مِن أَمْهَرِ مَنْ تَزَلَّجَ. أَما تَراني كيفَ أَنسابُ دونَ وَجَلٍ؟»

فأَجابَ: «وأنا أَشْعُرُ بالثِّقةِ وأنْتِ بجانِبي!»

وقَفَزَ قَلْبُهُ بينَ ضُلوعِهِ... ما هٰذا؟ ما هٰذِهِ الجُرأةُ الَّتي لم يَعْهَدْها مِن قَبْلُ؟

وقد أَثَّرَتْ هٰذِهِ الكَلماتُ في الصِّلةِ الَّتي تَرْبِطُ بَيْنَهُما، فهْيَ ما كادَتْ تَسْمَعُها وتَتَفَهَّمُها حتّى قَطَّبَتْ حاجِبَيْها، وفَقَدَ وَجْهُها تِلكَ المَسْحةَ الواضِحةَ مِنَ الصَّداقةِ، وكأَنَّهُ الشَّمْسُ تَحْتَجِبُ خَلْفَ غَيْمةٍ.

ورأى ليفينُ ذٰلِكَ، فأَيْقَنَ أَنَّها تُفَكِّرُ، فقالَ مُتَرَدِّدًا: «أَثَمَّةَ ما يُزْعِجُكِ؟ هل هُناكَ ما يُقْلِقُ بالَكِ؟»

فأَجابَتْ بشيءٍ مِنَ الجَفاءِ: «لا، لا شيءَ البَتَّةَ!»

وصَمَتَتْ ثُمَّ اسْتَتْلَتْ: «وهل تُزْمِعُ المَكْثَ في موسكو طَويلًا؟»

فأَجابَ مِنْ دونِ إِعمالِ الرَّوِيَّةِ: «لا أَدْري!».

- «وكيفَ لا تَدْري؟ بَيِّنْ لي ما تَقولُ!»

- «لا أَدْرِي متى أَرْحَلُ، لأَنَّ رَحيلي مَسْأَلةٌ لا يُبَتُّ فيها قَبْلَ التَّثَبُّتِ مِنْ أَمرِكِ!».

وأَجْفَلَ، وعَجِبَ لإقْدامِهِ على الإفْصاحِ عمّا يُخالِجُهُ مِنْ مآرِبَ وأَوْطارٍ.

فلمّا سَمِعَتِ الحَسناءُ ذٰلِكَ وَجَّهَتْ إِلَيهِ نَظْرةً مُتَأَمِّلَةً مُتَفَحِّصةً، وكأَنَّها أَجْمَعَتْ أَمْرَها على تغييرِ المَوضوعِ، فقالَتْ وهْيَ تُشيرُ بيَدِها: «هٰذِهِ أُمّي قادمةٌ، أَلَمْ تَرَها؟»

وذُعِرَ الفتى كمَنِ اسْتَفاقَ مِنْ حُلْمٍ، ومَدَّ يَدَهُ في شُرودٍ فصافَحَ المرأَةَ الكَهْلَةَ، وحَنى لها رَأْسَهُ، وهْوَ لا يَعْلَمُ إِنْ كانَ قد جَنى مِنْ تَهَوُّرِهِ خَيرًا، وإِنْ كانَ أَجْدَرَ بِهِ لو أَنْعَمَ النَّظَرَ قَبلَ أَنْ يَصْنَعَ ما صَنَعُهُ حتّى تَرضى مَحْبوبَتُهُ، فتَقَرَّ لِرضاها عَينُهُ.

وارْتَفَعَ صَوْتُ الأُمِّ يقولُ: «ما أَرى فيكَ إِلّا الاِجْتِهادَ في الاِبْتِعادِ والاِنزِواءِ، ولَيسَ لكَ في نُفوسِنا يا سَيّدي إِلّا الشَّوقُ والإِخْلاصُ!»

فأَحْنى رَأْسَهُ ثانِيَةً.

وأَرْدَفَتْ وهْيَ تَنْثَني إِلى ابْنَتِها: «هَلُمّي يا كاترينُ، فقد حانَ وَقْتُ الذَّهابِ».

ثُمَّ عادَتْ تُحَدِّثُ ليفينَ بلَهجَتِها الجافَّةِ: «وإِنَّنا يا عَزيزي نَسْتَقْبِلُ الضُّيوفَ في يومِ الخَميسِ مِنْ كُلِّ أُسبوعٍ».

فقالَ: «يَومَ الخميسِ! اليَومَ...».

قالَتْ: «أَجَلْ، اليَوْمَ، واعْلَمْ أَنَّنا نُسَرُّ بمَجيئِكَ، إِنْ طابَ لَكَ المَجيءُ!»

وفكَّرَتْ كاترينُ في أُمِّها وكَلامِها المُقْتَضَبِ الجافي، فأَشْفَقَتْ على الشّابِّ، ورَنَتْ إِليهِ باسِمةً، وقالتْ في دَعةٍ: «ولن تُسَوِّلَ لكَ نَفْسُكَ أَنْ تَمْتَنِعَ عنّا، فإِلى المُلْتَقى إِذًا في بَيْتِنا».

وهَمَّتْ بالمُضِيّ مَعَ أُمِّها، إِلّا أَنَّ ستيفانَ أوبلنسكي وَصَلَ في تِلكَ اللَّحظةِ، فتَرَيَّثَتِ الأُمُّ وطَلَبَتْ إِليهِ أَنْ يُحَدِّثَها عنِ ابْنَتِها زَوْجتِهِ.

فَلَمْ يَجِدِ الرَّجُلُ بُدًّا مِن كِتمانِ ما شَجَرَ بَينَهُ وبَينَها، وزَعَمَ لها أَنَّها على خَيرِ ما يُرامُ، وأَنْ لَيسَ لها حاجةٌ إِلى مَزيدٍ مِن سَعادةٍ وهَناءٍ.

وانبَسَطَتْ أَساريرُ المَرْأَةِ لمّا بَلَغَها هٰذا القَوْلُ، فرَمَقَتْ زَوْجَ ابْنَتِها بنِظْرَةِ الإِعْجَابِ والشُّكرِ، كأَنَّها تَجْعَلُ لهُ في نَفْسِها ميثاقَ الإِخلاصِ والمَحَبَّةِ، وذَهَبَتْ مَعَ ابْنَتِها مُوَلِّيَةً وَجْهَها شَطْرَ البيتِ.

وتَبِعَهُما ستيفانُ بعَيْنَيْهِ، فلمّا غابتَا عَنْ بَصَرِهِ تَأَبَّطَ ساعِدَ صَديقِهِ ليفينَ وقالَ: «لقد سَمِعْتُ كَلامًا لم أَصْدُقْ فيهِ كَثيرًا أو قليلًا...».

وضَحِكَ مُقَهْقِهًا وأَرْدَفَ: «هَيّا بِنا... هَيّا بِنا... فلَكَ عَلَيَّ حَقُّ الصَّديقِ، ولي عَلَيْكَ حَقُّ الاطِّلاعِ على ما جَرى وما سَوْفَ يَجري!»

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.
٢ - أَرأَيْتَ مِن كاترين وأُمِّها احتفاءً واضحًا بليفين؟
٣ - علامَ تَدلُّ قولةُ ليفين وهو يجيبُ عن سؤال كاترين: «أنا؟ لم آتِ إلّا... البارحةَ... أَعْني اليومَ»؟
٤ - إلامَ لَمّحَتْ كاترين إذ قالتْ له: «كلُّ ما يَسْتَهْويكَ تُصِرُّ على نيلِهِ كما أَرى»؟
٥ - أَتَرى أنَّ كاترين كانت تميلُ إلى ليفين كما يميلُ إليها؟ علِّلْ إجابتكَ ببعضِ ما قرأْتَهُ في هذا الفصلِ.
٦ - ما الَّذي جعلَ ليفين غيرَ مرغوبٍ فيه صِهرًا في الطَّبقةِ الرّفيعةِ من المجتمَعِ؟ وما رَأْيُكَ في ذلك؟
٧ - في هذا الفصلِ حِوارٌ وسَرْدٌ ونَجوى داخليَّةٌ. هاتِ مِثالًا لكلٍّ من هذه الأَساليبِ.
٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّابع

ومَشيا صامِتَيْنِ مُطْرِقَيْنِ، ثُمَّ استَقَلّا العَرَبَةَ إلى مَطْعَمٍ فَخْمٍ، وَلَجاهُ وانْتَبَذا رُكْنًا مُنْفَرِدًا مُنْعَزِلًا مِنْهُ.

ولاحَظَ ليفينُ وهُما يَدْلِفانِ إلى المَكانَ أَنَّ وَجْهَ صَديقِهِ يَنِمُّ عَن اضطِرابٍ يُحاوِلُ جاهِدًا أَنْ يُخْفِيَهُ، فحَدَّثَتْهُ نفسُهُ أَنْ يَسْتَفْسِرَ منهُ عمّا يَشْغَلُ لُبَّهُ، ولٰكِنَّهُ أَرجَأَ ذٰلِكَ، وجَلَسَ مَعَ صَديقِهِ وطَلَبا إلى النّادِلِ أَنْ يَأْتِيَهُما بكَأْسَيْنِ مِنَ الخَمْرِ، ثُمَّ ما لَبِثا أَنْ طَلَبا الطَّعامَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَكَلاَ وَشَرِبا طَفِقَا يَخوضانِ في مواضيعَ شَتّى إلى أَنْ سأَلَ أوبلنسكي صَديقَهُ أَخيرًا فقالَ: «هل تُزْمِعُ اللَّيلةَ الذَّهابَ إلى مَنزِلِ كاترينَ شِرْباتسكي؟»

فأَجابَ ليفينُ: «أَجَلْ، إنّي ذاهِبٌ، مَعَ أَنَّهُ تَراءى لي أَنَّ الأَميرةَ الأُمَّ قابَلَتْني بوَجْهٍ مُنْقَبِضٍ، ودَعَتْني إلى زِيارتِها بشَيْءٍ كثيرٍ مِنَ الفُتورِ».

– «لا تُعَجِّلْ في الحُكْمِ، فتِلْكَ عادَتُها، وهٰذا دَيْدَنُها[1]– تَقْطيبٌ مُزْمِنٌ، وعُبوسٌ راسِخٌ في أَمائِرِها! وأنا الآخَرُ أَنْوي زِيارةَ القَوْمِ إلّا أَنّي سآتي مُتَأَخِّرًا بَعْضَ الشَّيْءِ. والآنَ أَخْبِرْني، كيفَ تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ مُبارَحةَ موسكو في المَرّةِ الأَخيرةِ كالهارِب الفارِّ مِنْ وَجْهِ العَدالةِ؟ فما أَكْثَرَ ما سأَلَني عَنْكَ الأَصْدِقاءُ، وأَخُصُّ أُسرةَ شِرْباتسكي... وكُنْتُ أَتَهَرَّبُ مِنَ الجَوابِ لِحَيْرتي في ما يَكونُ الجَوابُ! فأَنتَ شاذٌّ عَجيبٌ... أَنتَ نَسيجُ وَحْدِكَ في أَطْوارِكَ وأَعمالِكَ وأَفْعالِكَ!»

– «لا أُنْكِرُ ما جُبِلْتُ عَليهِ يا صَديقي... وعَوْدَتي الفُجائِيَّةُ اليَوْمَ لأَبْلَغُ دَليلٍ على شُذوذي... لقد عُدْتُ، عُدْتُ مِنْ أَجْلِ...».

فقاطَعَهُ أوبلنسكي: «لَكَمْ أَغْبِطُكَ على حَظِّكَ المُشرِقِ أَيُّها الصَّديقُ!» وحَدَّقَ إلى عَيْنَيْهِ.

---

(١) دَيْدَنُها: عادَتُها.

- «لماذا؟»

فقالَ أوبلنسكي ضاحِكًا: «اِعْرِفِ الجَوادَ الأَصيلَ مِنْ خَطَرانِهِ... والعاشِقَ، اِعْرِفْهُ مِن عَيْنَيْهِ ولِسانِهِ!» واسْتَتْلى: «والفُرْصةُ مُتاحةٌ لكَ فأَقْدِمْ».

- «وأَنْتَ، أَوَلَّتْ فُرْصتُكَ في الحياةِ؟»

- «كلّا، بَيْدَ أَنَّ المُستَقْبَلَ لكَ، والحاضِرَ لي... الحاضِرُ... ماذا أَقولُ؟ قَد تَقَعُ أُعجوبةٌ».

- «ماذا تَعني؟ أَوْضِحْ!»

- «أحْيانًا تَنْعَكِسُ الرِّيحُ على حينِ غِرّةٍ... على أَنّي لا أَرْغَبُ في التَّحَدُّثِ عن نفسي، ولو أَرَدْتُ لما تَسَنَّى لي رسمُ صورةٍ صادقةٍ عن الحالةِ... والآنَ أَخْبِرني، ما جاءَ بكَ إلى موسكو؟»

فحَدَّدَ الفتى طَرْفَهُ في وَجْهِ أوبلنسكي وأَجابَ: «أَلم تَحْزُرْ مُنذُ دَقائقَ؟ لقد أَصابَ حَدْسُكَ!»

- «لا أُنْكِرُ أَنّي علِمْتُ مِنَ الوَهْلةِ الأُولى مَأْرَبَكَ هُنا، بَيْدَ أَنّي لم أَتكَلَّمْ، لأنَّكَ الفَريقُ الّذي يَخْلُقُ بهِ أَنْ يَسْتَهِلَّ الكَلامَ».

فاضْطَرَبَ ليفينُ، وصَعِدَ الدَّمُ إلى رَأْسِهِ وقالَ: «فما قَوْلُكَ إذًا؟ وكيفَ تَنْظُرُ إلى المَسألةِ؟»

فجَرَعَ ستيفانُ أوبلنسكي ما تَبَقّى في كأْسِهِ وأجابَ: «هٰذا جُلُّ ما أَتَمَنّاهُ، أَتَمَنّى أَنْ تَبْلُغَ وَطَرَكَ وتَفوزَ بضالَّتِكَ». فَنَظَرَ إليهِ ليفينُ نِظرَةَ مَنْ غَشِيَهُ الأَمَلُ والأَلَمُ وقالَ مُتَسائلًا: «أَتَمْحَضُني كاترينُ الصِّدْقَ؟ أَتُبادِلُني المَحبَّةَ؟ أَواثِقٌ أَنْتَ ممّا تَقولُ؟»

- «إِنّي لَكَ ماحِضٌ كُلَّ إخاءٍ يا صاحِ، فاطْمَئِنَّ إِلَيَّ، واعْلَمْ أَنّي بأَمْرِكَ عَليمٌ!»

- «وهل يَسْتوي لي الأَمْرُ؟ هل أَنالُ الجَمالَ؟»

- «لا تَتَطَيَّرْ ولا تَتَشاءَمْ، فكُلُّ شيءٍ جائزٌ في الدُّنيا».

- «لا تَتَعَلَّقْ بخيوطِ الأَوْهامِ، بل أَخْبِرْني صَراحةً، هل تَظُنُّ أَنّي لن أَرْجِعَ بخُفَّيْ حُنَينٍ؟ هل تُرَجِّحُ القَبولَ؟ لَشَدَّ ما أَخافُ الرَّفْضَ، لَشَدَّ ما أَرْتَعِشُ خَوْفًا مِنَ الإِخْفاقِ».

- «تُرَّهاتٌ... أَباطيلُ... أَوْهامٌ».

- «كلّا، كلّا... بل إِنَّ الرَّفْضَ يَضيرُني، وهْوَ كَذٰلِكَ يَحْمِلُ الأذى لَها».

- «ولِمَ ذاكَ؟ وهل تُضارُ فَتاةٌ متى كَثُرَ الرّاغبونَ في زَواجِها؟»

- «قد يَنْطَبِقُ ذٰلِكَ على سائِرِ الفَتَياتِ، أَمّا هِيَ فلا... لا...».

وابْتَسَمَ ستيفانُ... وقَرَأَ أَفكارَ ليفينَ، وأَيْقَنَ أَنَّ العَاشِقَ المُتَيَّمَ يَقْسِمُ فَتَياتِ العالَم إلى قِسْمَيْنِ: القِسْمُ الأَوَّلُ، الفَتَياتُ جَميعًا إِلّاها، وهُنَّ مُتَّصِفاتٌ بالضَّعْفِ البَشَرِيِّ، والخَوَرِ، والوَهَنِ... والقِسْمُ الثاني هِيَ وَحْدَها، الكاملةُ، القَوِيَّةُ، المُتَسَنِّمةُ الذُّرْوَةَ، فَوْقَ الجَميعِ، فَوْقَ الجَميعِ!

واسْتَتلى ليفينُ يقولُ: «واعْلَمْ أَنَّ المَسألَة هِيَ مَسْأَلَةُ حَياةٍ أَو مَوْتٍ بالنِّسبةِ إِليَّ. ولم يَسْبِقْ أَنْ بُحْتُ بسِريّ لأَحَدٍ قَبلَ اليَوْمِ، وليسَ في نِيّتي إماطةُ اللِّثامِ عن عاطِفتي إِلّا لَكَ وَحْدَكَ... نحنُ ضِدّانِ في المَشْرَبِ والطَّبْعِ والعادةِ إِلّا أَنّي مُوقِنٌ بأَنَّكَ تُحِبُّني وتَفْهَمُني؛ ولِهٰذا تَراني كَلِفًا بكَ إلى أَبْعَدِ حَدٍّ... وأُناشِدُكَ اللهَ أَنْ تَصْدُقَني القَولَ، كُنْ صَريحًا معي!»

فقالَ أوبلنسكي ضاحِكًا: «أَلَمْ أُكاشِفْكَ بما أَراهُ وأَعْتَقِدُهُ؟ وأَزيدُكَ الآنَ، فأُنْبِئُكَ أَنَّ زَوْجي امرأةٌ مُدْهِشَةٌ».

وتَنَهَّدَ ستيفانُ أوبلنسكي تَنَهُّدَةَ الكآبةِ، فقد تَذَكَّرَ الخِلافَ المُحْتَدِمَ بَيْنَهُ وبينَ زَوْجِهِ، ولٰكِنَّهُ أَرْدَفَ يَقولُ: «ولها القُدرةُ على التَّكَهُّنِ بما تأتي بِهِ الأَيّامُ، إِنَّها تَرْجُمُ بالغَيبِ[1]، وخُصوصًا في ما يَمُتُّ إلى أُمورِ الزَّواجِ... وهْيَ تُظاهِرُكَ الآنَ وتَتَحَمَّسُ لكَ».

- «أَوْضِحْ، أَوْضِحْ...».

- «إِنَّها تَميلُ إِليكَ، وتَزْعَمُ أَنَّ كاترينَ ستَكونُ لا محالةَ زَوْجَتَكَ».

فانْبَسَطَتْ أَساريرُ ليفينَ، وأَشرَقَ مُحيّاهُ، وكادَتْ دُموعُ التَّأَثُّرِ تَطْفُرُ مِن عَيْنَيْهِ، ولٰكِنَّهُ كَتَمَ ما داخَلَهُ، وصاحَ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مُنْفَعِلٍ: «هٰذا ما تَقولُهُ؟ إِنّني دائمًا جَهَرْتُ برَأيي فيها- في زَوْجتِكَ- إِنَّها امرأةٌ رائعةٌ مِثاليَّةٌ. ونِعْمَ الزَّوْجُ هِيَ!»

(١) تَرْجُمُ بالغَيبِ: تَتَنَبَّأُ بما يأتي بِهِ الغَيبُ.

ونَهَضَ واقِفًا، وجَعَلَ يَذْرَعُ ذٰلكَ الرُّكنِ جيئةً وذَهابًا ويَقولُ: «واعْلَمْ أَنَّ ما أَشْعُرُ بِهِ ليسَ حُبًّا، إِنَّهُ قُوّةٌ خارِقةٌ استَوْلَتْ على مَشاعري، وأَحاسيسي، وإرادتي... وقد اختَفَيْتُ مِن موسكو ظَنًّا منّي أَنَّ ما أَتطَلَّعُ إِلَيْهِ هُوَ الثُّرَيّا، هُوَ سَعادةٌ لا يَلْقاها المَرْءُ في الدُّنيا. وخَلَّفَتْني الذِّكْرى حَليفَ عِراكٍ مُمِضٍّ مُضْنٍ.. كُنْتُ أُفَكِّرُ لَيْلَ نَهارَ.. كُنْتُ أُفَكِّرُ، وأُفَكِّرُ... حتّى داخَلَ رَوْعي أَخيرًا أَنّي لن تَطْمَئِنَّ بي حَياةٌ ولن يَسْتَقيمَ أَمْرٌ إِلَّا بكاترينَ... أَجَلْ، إِنَّها كُلُّ شيءٍ لي... أَفَما تَرى أَنَّ مَشاعري الحَقيقيّةَ هِيَ قُوّةٌ تَبُذُّ الحُبَّ بمَراحِلَ؟!»

***

واغْرَوْرَقَتْ عينا ليفينَ بالدُّموعِ، فقَطَعَ حَديثَهُ كَيْما يُكَفْكِفَها ثُمَّ جَلَسَ ثانيةً إِزاءَ صَديقِهِ واسْتَغْرَقَ في الفِكْرِ.

وتَمَلْمَلَ أوبلنسكي في مَقْعَدِهِ، وقالَ بصَوْتٍ هادىءٍ رَصينٍ: «ولا بُدَّ مِنْ أَنْ تَطَّلِعَ على الأُمورِ كُلِّهَا يا ليفينُ، فهل لكَ سابِقُ مَعْرِفةٍ بالشّابِ «فرونَسْكي»؟»

- «لا، لا أَعْرِفُهُ، فمَنْ هُوَ؟ ولِمَ السُّؤالُ؟»

- «لأَنَّ في نفسِهِ حاجةً، لأَنَّهُ طالِبُ زَواجٍ، وبَصَرُهُ وقَلْبُهُ مَطْمَحُهُما كاترينُ...».

واسْتحالَ وَجْهُ ليفينَ في مِثْلِ لَمْحِ البَصَرِ مِنَ النُّضْرةِ والدَّعةِ، إِلى الامْتِقاعِ والاحْتِدامِ والتَّوَعُّدِ، حتّى إِنَّ ستيفانَ بُهِتَ ممّا رأى، ونَفَرَ قَلْبُهُ قليلًا، وسارَعَ يَقولُ: «وهْوَ نَجْلُ الكُونْتِ إيفانَ فرونسكي، فتًى غُرانِقٌ[1] يَشْدَهُ مَرآهُ النّاظرينَ، وتُلْقي إِليهِ الحِسانُ المَقادةَ والزِّمامَ. وهْوَ كأَبيهِ أَرْيَحِيٌّ جَوادٌ لا ضَهِيَّ[2] لَهُ في بطرسبرج، وقد تَقابَلْنا وتَعارَفْنا في «تفير»، يَوْمَ قَصَدْتُ المَدينةَ في عَمَلٍ لي... أَمّا ثَراؤُهُ فواسِعٌ، وأَمّا جاهُهُ فمُنْبَسِطٌ عَريضٌ... ونُفوذُهُ لا يُقارِنُهُ نُفوذٌ سَرِيٌّ[3] آخَرَ في البِلادِ... ولا جَرَمَ أَنَّ المُسْتَقْبَلَ مَفتوحٌ أَمامَهُ، وتَقَدُّمَهُ في مِضمارِ السِّياسةِ والمَراتِبِ العُليا أَمْرٌ لا يَشُكُّ فيهِ إِنْسانٌ!»

فخَفَقَ قَلْبُ ليفينَ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يُحِرْ جَوابًا، بل أَخْلَدَ إِلى الصَّمْتِ مُفَكِّرًا.

---

(١) غُرانِق: شابٌّ أَبيضُ جميلٌ.

(٢) لا ضَهِيَّ له: لا مُنافِسَ له.

(٣) سَرِيٌّ: شَريفٌ.

واسْتَمَرَّ ستيفانُ أوبلنسكي يَقولُ: «وجاءَ عَقِبَ رَحيلِكَ إلى موسكو، ففَتَنَتْهُ الغادةُ واسْتَوْلَتْ على لُبِّهِ، وهُوَ الآنَ غارِقٌ في حُبِّها، وأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ أُمَّها...».

فقاطَعَهُ ليفينُ: «كلّا، لا أَعرِفُ شَيئًا!»

- «لا تُسَلِّمْ أَمْرَكَ لليَأْسِ، فما كانَ لي مَحيصٌ عن كَشْفِ النِّقابِ عن كُلِّ ما أَعْرِفُ، حتّى تكونَ على بَيِّنَةٍ مِن أَمرِكِ، فتَتَصَرَّفَ تَصَرُّفَ العارِفِ المُلِمِّ. وأنا، إنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْمَعَ مِنّي رَأْيي، أَعْتَقِدُ يقينًا أَنَّ كِفَّتَكَ هِيَ الرّاجِحةُ...».

وتَهافَتَ[1] ليفينُ وأَطْرَقَ برَأْسِهِ.

وأَتَمَّ أوبلنسكي: «وأُزْجي إليكَ النُّصْحَ في المبادرةِ إلى إتمامِ الأَمرِ، اللَّيْلةَ.. اللَّيْلةَ...».

وأَتْرَعَ الكَأْسَيْنِ الخاوِيَتَيْنِ.

فقالَ ليفينُ: «شُكرًا... لا أُريدُ أَنْ أَزيدَ حتّى لا تَصْعَدَ سَوْرةُ الشَّرابِ[2] إلى رَأْسي. هَلاَّ خَبَّرْتَني عن نَفسِكَ شَيْئًا! تَكَلَّمْ أَيُّها الصَّديقُ، قُلْ لي أَخبارَكَ».

فلم يَكْتَرِثْ أوبلنسكي لكَلِماتِهِ الَّتي أَرادَ منها تَغْييرَ دَفّةِ الحَديثِ، بل أَنْشَأَ يَقولُ: «أَجَلْ، أَنْصَحُكَ بالتَّقدُّمِ إلى أُمِّها في طَلَبِ يَدِها مِن دونِ أَنْ تُؤَجِّلَ المَسألَةَ إلى الغَدِ!»

فقالَ: «أَلا تَأْتي إلينا في الرَّبيعِ للتَّمَتُّعِ بمَباهِجِ الرّيفِ ومُزاولةِ الصَّيدِ الَّذي حَبَسَتْكَ عنهُ شَواغِلُكَ؟».

ولا شَكَّ أَنَّهُ نَدِمَ كثيرًا على إطْلاعِ ستيفانَ أوبلنسكي على سِرِّهِ، وخَيَّلَ إليهِ الزَّهْوُ أَنَّ كَرامَتَهُ قد جَرَحَها وُجودُ مُنافِسٍ لهُ في حُبِّ كاترينَ.

وفَطِنَ ستيفانُ إلى ما دارَ في خَلَدِ صَديقِهِ مِن عَوامِلِ النَّدامةِ، فتَبَسَّمَ وقالَ: «سوفَ آتي في أَحَدِ الأَيّامِ؛ غيرَ أَنَّ النِّساءَ يا عَزيزي هُنَّ المِحْوَرُ الَّذي تَدورُ حَوْلَهُ الدُّنيا بأَسْرِها، وعُقَدي في الوَقتِ الحاضِرِ كَثيرةٌ، وليسَ لها حَلّالٌ، والسَّبَبُ في كارثتي هوَ المَرأةُ...».

وأَشْعَلَ ستيفانُ سيجارةً واسْتَطْرَدَ يقولُ: «هَبْ أَنَّكَ رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ، تُحِبُّ زَوْجَكَ، ولٰكِنَّ

---

(١) تَهافَتَ: ضَعُفَتْ نَفْسُه.

(٢) سَوْرَةُ الشَّراب: حِدَّتُه.

امرَأَةً أُخرى تَعْتَرِضُ طَرِيقَكَ وتَسْتولي على قَلبِكَ، وتَفْتِنُكَ...».

فعارَضَهُ ليفينُ قائلًا: «اِصْفَحْ عَنّي إنِ اعْتَرَضْتُ عليكَ- فأنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْتَوْعِبَ ما قُلْتَ الآنَ، كما لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْهَمَ كيفَ يَتَسَنّى لي، بَعْدَ أَنْ شَبِعْتُ هُنا، أَنْ أَسْتَرِقَ الخَطْوَ إلى دُكّانِ خَبّازٍ وأَسْرِقَ مِنْهُ رَغيفًا!»

فبَرَقَتْ عينا ستيفانَ أوبلنسكي أَكْثَرَ مِنَ المُعتادِ وقالَ: «وما المانِعُ؟ قد يَكونُ للرّغيفِ المَسْروقِ رائحةٌ لَذيذةٌ لا قِبَلَ لكَ على مُقاومةِ إغْرائِها... واعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ المرأةَ، مَخْلوقٌ أَنيسٌ جَميلٌ، ضَحَّتْ بكُلِّ شيءٍ في سَبيلِ حُبِّها ومِن أَجْلِ حَبيبِها المُتَزَوِّجِ، فكيفَ يُطاوِعُكَ قَلْبُكَ على إهمالِ أَمرِها بَعْدَ الَّذي ظَهَرَ مِنها؟ ولو سَلَّمْنا جَدَلًا أَنَّ الرَّجُلَ يُفارِقُها إبقاءً على حَياتِهِ العائليّةِ وصَوْنًا لمُسْتَقْبَلِ أَولادِهِ، فهل يَقْدِرُ على مَحوِها مِن ذاكرتِهِ؟ هل يَسْتطيعُ أَنْ يَطْمِسَ شَبَحَها في مُخيِّلتِهِ؟»

- «ولٰكِنَّ... ولٰكِنَّ...».

- «إنَّ زَوْجَكَ، تَتَقَدَّمُ في العُمْرِ، إنَّها تَفْقُدُ رَواءَها، وتُخَلِّفُ فِتْنَتَها وراءَها، بينما تَحْتَفِظُ أَنْتَ بحَيَوِيّتِكَ ورَغْبتِكَ وشَهوتِكَ... وقَبلَ أَنْ يَسْمَحَ لكَ الوَقْتُ بالالتِفاتِ إلى الخَلْفِ، تَشْعُرُ بأَنَّهُ يَتَعَذَّرُ عليكَ مُبادلةُ زَوجتِكَ الحُبَّ، مهما كانَ احترامُكَ وتَقْديرُكَ لها، وعلى حينِ بَغْتةٍ يَتَغَلْغَلُ الحُبُّ مِن جِهةٍ ما إلى قَلْبِكَ، يَخْتَرِقُ شَغافَ هٰذا القَلْبِ كالنَّصْلِ، ويَجْثُمُ في سُوَيْدائِهِ، في حَبَّتِهِ... وتَقَعُ حينذاكَ الطّامَّةُ الكُبرى، وتَحِلُّ النازلةُ، وتُلِمُّ المُصيبةُ!».

وتَنَفَّسَ ستيفانُ الصُّعَداءَ مِن شِدَّةِ الكَرْبِ واسْتَطْرَدَ: «لقد قُضِيَ عليكَ إذًا متى وَقَعْتَ، فما العَمَلُ؟»

فقالَ ليفينُ بابتِسامةٍ عابسةٍ: «لا تَسْرِقِ الخُبزَ!»

فاسْتَغْرَبَ ستيفانُ ضاحِكًا وكأَنَّهُ نَسِيَ مُصيبتَهُ، وكأَنَّهُ ما سَبَرَ البَلْوى الَّتي تُوشِكُ أَنْ تُطَوِّحَ بدَعائمِ بَيتِهِ، وقالَ بَعْدَ يَسيرٍ: «لا تُلْجِئْني، يا ليفينُ، إلى مُبادلتِكَ دُعابةً بدُعابةٍ، فالمَوْقِفُ يَسْتَوجِبُ الرَّوِيَّةَ وإعمالَ الفِكْرِ. هُناكَ امْرَأَتانِ، إحْداهما تُطالِبُ فقط بحُقوقِها، وهٰذِهِ الحُقوقُ هِيَ حُبُّكَ الَّذي لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَبَرَّعَ بِهِ لأَيٍّ كانَ، والأُخرى تُضَحِّي بكُلِّ شيءٍ مِن أَجْلِكَ، ولا تَطْلُبُ منكَ شَيئًا. فماذا يا تُرى تَفْعَلُ؟ وكيفَ تَتَصَرَّفُ؟ وفي أَيِّ طريقةٍ تَرْقَأُ دُموعَ هٰذهِ، وتُلاشي زَفَراتِ تِلْكَ؟ إنَّ في هٰذا الأَمرِ مأْساةً وأَيُّ مأْساةٍ، يَنْطوي عليها وُقوعُ

الرَّجُلِ بينَ مِطْرقةٍ وسِنْدانٍ!»

- «لو عَبِثْتَ برأيي، فإنّي أقولُ صَراحةً أَنْ لا وُجودَ لهٰذهِ المَأْساةِ، إنَّ الحُبَّ بحَسَبِ وُجْهَةِ نَظَري، الحُبَّ المُتَفَرِّعَ إلى فَرْعينِ، الّذي يَضَعُهُ أفلاطونُ كمِحَكٍّ للرِّجالِ، لا يَفْهَمُ فَرْعَيْهِ أَحَدٌ، بل هُناكَ فَريقٌ يَفْهَمُ هٰذا وفَريقٌ يَفْهَمُ ذاكَ. أَمّا أُولٰئِكَ الّذينَ لا يَعْتَرِفونَ بالحُبِّ الأفلاطونيِّ المُجَرَّدِ، فليسَ لَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّموا على المَأْساةِ ووجودِ المَأْساةِ، لأَنَّهُ لا يُعْوِزُهُمْ أَكْثَرُ مِن بِضْعِ كَلِماتٍ يَقولونَها في مَجالِ التَّرْضيةِ والاسْتِرضاءِ، كأَنْ يَقولوا للمَرْأَةِ المَنكودةِ: «لَكِ مِنّا أَبلغُ شُكرِنا، فقد يَسَّرْتِ لنا مُتْعَةً ولَذَّةً وشَهْوةً».

وكذٰلك لا ينطوي الحُبُّ الأفلاطونيُّ على المَأْساةِ، لأَنَّه حُبٌّ نَقِيٌّ، طاهِرٌ، خالٍ مِنَ الشَّوائِبِ، ومِثْلُ هٰذا الإِحْساسِ المُصَفّى لا يُمْكِنُ للمأْساةِ أَنْ تَتَغَلْغَلَ إِليهِ، أو تَتَرَعْرَعَ فيهِ!»

وتَنَهَّدَ أوبلنسكي وحَبَسَ لِسانَهُ فلم يَتَكَلَّمْ، وأَمْسَكَ عن زَفْرةٍ كادَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِن فيهِ.

واسْتَرْسَلَ الاثْنانِ في الفِكْرِ، واعْتَمَلَ في صَدْرَيْهِما خَليطٌ عَجيبٌ مِنَ الأَحاسيسِ والمَشاعرِ... ولا رَيْبَ أَنَّهُما، بالرَّغْمِ مِنَ الصَّداقةِ الوَثيقةِ العُرى الّتي تَربِطُ بَيْنَهُما، وبالرَّغْمِ مِن مَجالسِ الأُنسِ واللّهوِ الّتي جَمَعَتْ بَيْنَهُما، وبالرَّغمِ مَنِ الوُدِّ المَتينِ الوَشائِجِ الّذي كانَ الصِّفةَ المأْثورةَ عنهُما، شَعَرا في تلكَ اللَّحظَةِ بالابْتِعادِ والتَّنائي، بل خُيِّلَ إلى كُلٍّ مِنهُما أَنَّ الآخَرَ غريبٌ لم يَرَهُ مِن قَبْلُ، وأَنَّهُ ذو مَطامِحَ ومَطامِعَ ومُيولٍ.

ولم يَجِدا مَنْدوحةً في نِهايةِ الأَمرِ، وقد ضاقا ذَرْعًا بالصَّمْتِ، وبَرِما بِهٰذا الشُّعورِ، وتَرَمَّضَتْ نَفْساهُما بذٰلِكَ الإِحساسِ المُبْهَمِ الغامضِ الّذي طَفِقَ يوسِعُ الشُّقَّةَ بينَ قَلْبَيْهِما، لم يَجِدِ الاثْنانِ بعدَ هٰذا التَّنافُرِ الباطِنيِّ إلّا أَنْ يَبْرَحا المَكانَ إبْقاءً على ما رَبَطَ بَيْنَهُما مِن أُلفةٍ، وإِشفاقًا على تِلْكَ الصَّداقةِ الوَثيقةِ مِنَ التَّصَدُّعِ والزَّوالِ!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - بدأَتْ تتوضَّحُ في هذا الفصلِ خيوطُ العُقْدَةِ الثّانيةِ في الرِّوايةِ؛ فهَلّا حدَّدتَ مكانَ بَدْئِها!

٣ - لِمَ حاوَل ليفين أن يغيِّرَ الحديثَ فيحيدَ عن حديثِ حبِّه لكاترين؟

٤ - ما مَعنى قولِ ليفين: «لا أستطيعُ أن أَفْهَمَ كيف يَتَسَنّى لي، بعدَ أن شَبِعْتُ هنا، أن أَسترِقَ الخَطْوَ إلى دُكّانِ خَبّازٍ وأسرقَ منه رغيفًا.»؟

٥ - ما المعنى المَقْصودُ بالحُبِّ الأفلاطونيِّ؟

٦ - مَن هوَ مُنافِسُ ليفين على قلبِ كاترين؟

٧ - بمَ وصَفَ ستيفانُ هذا الشّابَّ؟

٨ - بمَ امتازَتْ شخصيَّةُ السيِّدةِ شرباتسكي كما بدتْ من خلالِ وصفِ صهرِها ستيفان؟

٩ - للحوارِ دورٌ في رَسْمِ الشَّخْصِيّاتِ. اذكرْ نقاطَ التّناقُضِ بين شَخْصِيَّتَي ليفين وستيفان كما بدَتْ لكَ من خلالِ الحوارِ بينهما في هذا الفصلِ.

١٠- أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّامن

لا يَخْتَلِفُ اثْنانِ في أَنَّ كاترينَ شرباتسكي زهرةٌ اكتَمَلَ طَلْعُها وسَطَعَ عَبيرُها. لا يَخْتَلِفُ اثْنانِ في أنَّها ما كادَتْ تَتَرَعْرَعُ وتَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ ثمانيةَ عَشَرَ عامًا حتّى زَها حُسْنُها بها، وكأَنَّ الحُسْنَ يَفْخَرُ بأَنْ يُنْسَبَ إِليها؛ وتألَّقَ الجمالُ بسَناها، وكأَنَّ الجَمالُ يُعْوِزُهُ نورٌ يَنْبَثِقُ مِن ثَناياها.

وما كانَتْ أُمُّها لِتُصَدِّقَ، لولا وُقوفُها مِنَ المُجتَمَعِ عن كَثَبٍ، ما لاقَتْهُ كَريمتُها مِن إِعْجَابٍ في الوَسَطِ الرّاقي، فما مِن شابٍّ في موسكو إِلَّا وزارَهُ طَيْفُها مِرارًا، وما مِن فتًى عَريقٍ عَريضِ الجاهِ إِلّا وأَدْرَكَهُ مِن عَرْفِها[1] شذًا.

وسُرعَانَ ما بَرَزَ إِلى الأمامِ شابّانِ مِن خيرةِ الشَّبابِ، هُما ليفينُ الشّابُّ القَويُّ الجادُّ، والكُونتُ فرونسكي المُتْرَفُ الأَنيقُ الَّذي تَعْنُو[2] لِسِحْرِهِ الجِباهُ.

ولم يَكُنْ ليفينُ مِن رَهْطِ اللَّهْوِ، بل كانَ طالِبَ مُصاهرةٍ.. فما كادَ يُظْهِرُ رَغْبَتَهُ في تردُّدِهِ على بَيْتِ كاترينَ، حتّى فَطِنَ أبواها إِلى اكتِمالِ أُنوثَتِها ونُضْجِ جَمالِها، وحتّى آلى كلٌّ مِنْهُما أَنْ يَبْحَثَ لها عن أَكْرَمِ صِهْرٍ، لتَدومَ بذٰلكَ سَعادتُها، وتَعيشَ أَيّامَها في نِظامٍ مِن الهَناءِ والصَّفاءِ بَديعٍ!

إِلَّا أَنَّ رَغْبَتَهُما تَشَعَّبَتْ، وأَمْرَ زَواجِها مِنَ الرَّجُلِ الأَفْضَلِ أَثارَ بينَهُما عاصِفَةً مِنَ الشِّجارِ والمُشاحَنةِ. فالأَبُ يَميلُ كُلَّ المَيْلِ إِلى ليفينَ، ويَرى فيهِ مِثالَ الرَّجُلِ الصّالحِ الكَريمِ، والأُمُّ هِيَ، الأُمُّ، وقَبْلَ أَنْ تكونَ كذلكَ، هي امرَأَةٌ. ومِنْ عادةِ المَرْأَةِ أَنْ لا تَستَقيمَ على أَمْرٍ، بل مِن شَأْنِها أَنْ تُماطِلَ وتُسَوِّفَ وتَتَرَدَّدَ. فكَرَّةً تقولُ إِنَّ كاترينَ طِفْلَةٌ لم تَبْلُغْ طَوْرَ الشَّبابِ، وأُخرى تَزْعُمُ أَنَّ ليفينَ مُحتارٌ في أَمْرِهِ، يُقْدِمُ ثُمَّ يُحْجِمُ، وأَنَّ كاترينَ لم تُظْهِرْ نحوَهُ أَيَّ حُبٍّ

(١) العَرْفُ: الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ.

(٢) عَنا (يَعْنو) لهُ: خَضَعَ لهُ.

أو رِضًا.

وقد جابَهَتْ زَوْجَها أخيرًا برَفْضِها، وأَخْبَرَتْهُ صَراحةً أَنَّ آخِرَ زَوْجٍ تَتَمنّاهُ لابْنَتِها هُوَ ليفينُ.

ودَرى ليفينُ بما شَجَرَ مِنْ خِلافٍ بينَ الزَّوْجَيْنِ بسَبَبِهِ، فارْتَحَلَ عن موسكو. وكانَ رَحيلُهُ البَشيرَ بزَوالِ الغَمامةِ الَّتي ظَلَّلَتْ سَماءَ البَيتِ السَّعيدِ رَدَحًا مِنَ الوَقْتِ. ولم تَكْتُمِ الأُمُّ فَرْحتَها، بل إِنَّها خاطَبَتْ زَوْجَها عَقِبَ ذَهابِهِ بقَوْلِها: «ها هوَ صاحِبُكَ يَتَصَرَّفُ كالأَخْرَقِ الّذي لا يَفْهَمُ مِنْ معاني الآدابِ إِلَّا اسْمَها مُجَرّدًا مِن كلِّ صِفةٍ! لقد ظَعَنَ[1] مِن دونِ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ يَرْمي إِلى البَتِّ في أَمْرٍ!»

ولمّا بَزَغَ نَجْمُ الشّابِّ فرونسكي في موسكو، وغَدا مَطْمَحَ أَنْظارِ الحِسانِ، تَضاعَفَ ارْتياحُ الأُمِّ لذَهابِ ليفينَ، وَجَعَلَتْ تَحْتَفي بفرونسكي وتُظهِرُ لَهُ الشَّيءَ الكثيرَ مِن ضُروبِ المَوَدَّةِ.

فمَنِ الَّذي يَجْرُؤُ على المُقارنةِ بينَهُ وبينَ ليفينَ؟ مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُقارِنَ بينَ المَحبوبِ والمَكْروهِ، أو بَيْنَ الزَّهْرِ والشَّوْكِ؟

كانَ ليفينُ خَشِنًا يَنْفُرُ مِنَ النَّاسِ، ويَبْتَعِدُ عَنِ المُجْتَمَعِ. كانَ يُعْنى بسائمتِهِ أَكْثَرَ مِن عِنايتِهِ بالنّاسِ، وكانَتْ حَظائرُ الخَنازيرِ أدعى لهَنائِهِ وراحَتِهِ مِن رُدُهاتِ الاسْتِقبالِ!

ثُمَّ، هل عَزَمَ على أَمْرٍ؟ هل تَقَدَّمَ طالبًا يَدَ كاترينَ؟ لا، لم يَفْعَلْ شيئًا مِن هٰذا القَبيلِ، مَعَ أَنَّهُ غَشِيَ مَنْزِلَها أَسابيعَ وأَسابيعَ. لقد تَرَدَّدَ كَثيرًا، كأَنَّهُ يَضِنُّ على أَهْلِها بهٰذا الشَّرَفِ، وكأَنَّهُ يَعْتَبِرُ نفسَهُ أَعْلى مَرْتبةً مِنْهُمْ، أو كأَنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يَفْهَمَ واجِبَهُ الَّذي يَفْرِضُهُ عليهِ العُرْفُ والعادةُ.

وعلى حينِ فَجْأَةٍ يَلوذُ بأَذْيالِ الهَرَبِ، فيَفِرُّ مِنَ المدَينةِ، كأَنَّ المُقامَ في موسكو نبا[2] بهِ، لخَوْفٍ غَشِيَهُ مِن كاترينَ وعائِلَتِها، ولمَكروهٍ خَشِيَ أَنْ يُصيبَهُ مِنْهُمْ!

وعلى نَقيضِهِ كانَ فرونسكي- فهْوَ في رَأْيِها الشّابُّ السَّعيدُ الَّذي رَزَقَهُ اللهُ مِنَ العَقْلِ

(١) ظَعَنَ: رَحَلَ.
(٢) نَبا بِهِ: جَفاهُ، لم يَطِبْ لهُ.

أَفْضَلَ الحَظِّ، ومِنَ الحَصافةِ[1] أَجْزَلَها، ومِنَ الغِنى أَكْثَرَهُ. وهْوَ الشَّابُّ الَّذي سَدَّدَ اللهُ خُطاهُ في أَنفعِ السُّبُلِ، وجَلَبَ لكُلِّ مَنْ أَلَمَّ بهِ الحَظَّ والسَّعْدَ، وبَلَغَ الرُّتبةَ القُصْوى بأَفعالِهِ وخِصالِهِ! وقد انْطَبَعَتْ في ذِهْنِها صورةٌ رائِعةٌ لهُ كزَوْجٍ لابنَتِها. وهْوَ فَوْقَ هٰذا ضابطٌ رَفيعٌ في البَلاطِ، ومُسْتَقْبَلُهُ في المَجالِ العَسْكَرِيِّ يُبَشِّرُ بكُلِّ تَقَدُّمٍ... وحَدِّثْ ولا حَرَجَ عن حُسْنِ طَلْعَتِهِ وأَناقةِ مَظْهَرِهِ... وهٰذا ما تَرْغَبُ فيهِ المَرأَةُ وتَتوقُ إِليهِ!

ولمّا فَرَغَتْ ممَّا أَرادَتْ مِن تَكْوينِ الرَّأْيِ، بَدَأَتْ تَنْظُرُ إِليهِ نَظَرَها إِلى صِهْرِها، وتُظْهِرُ كَثيرًا مِن ضُروبِ الحَفاوةِ والسُّرورِ، إذا ما جاء زائرًا، فتُحيطُهُ بعِنايتِها، وتُمَهِّدُ لهُ سَبيلَ الخَلْوةِ بابْنَتِها... وقد وَقَعَتْ كاترينُ في قَلْبِهِ مَوْقِعًا حَسَنًا فهْوَ لا يُفارِقُها كُلَّما اجْتَمَعا في حَفْلٍ، وهْوَ لا يُراقِصُ سِواها، وهْوَ يَنْظُرُ إِليها نَظَرَهُ إِلى سيِّدةٍ مُحتَرَمةٍ جَديرةٍ بالتَّقديرِ والتَّبجيلِ، خَليقةٍ أَنْ يَتَّخِذَها الإنسانُ لهُ حَليلةً.

واسْتَبْشَرَتِ الأُمُّ ساعةَ لَمَّحَ لها الشّابُّ برَغْبَتِهِ. لم يَقُلْ لها مُباشَرةً إِنَّهُ يَهْوى ابْنَتَها ويَوَدُّ لو تَزَوَّجَها، بل قالَ مِنَ الكَلامِ ما فَهِمَتْ مِن فَحْواهُ أَنَّهُ يَصْبو إِلى تَحقيقِ هٰذهِ الأُمْنيةِ.

فقد انْتَهَزَ فُرصةَ انْشِغالِهِ بالحَديثِ مَعَ الفتاةِ، فقالَ لها إِنَّهُ لا يَنْقُضُ رأْيَ والِدتِهِ، بل يَسْتَشيرُها في كلِّ صَغيرةٍ وكَبيرةٍ، وإِنَّ والِدتَهُ آتِيَةٌ عن قَريبٍ إِلى موسكو، وسيَأْخُذُ رَأْيَها في أَمْرٍ على جانِبٍ عَظيمٍ مِنَ الخُطورَةِ.

أَلَيْسَ هٰذا مِن قَبيلِ التَّلميحِ؟ أَلا يَعْني بكَلِماتِهِ أَنَّهُ تَوَّاقٌ إِلى مُباحثةِ أُمِّهِ في أَمْرِ زواجِهِ مِن كاترينَ؟!

ولـم تَحْدُسْ كاترينُ مَغْزى كَلماتِهِ، بل إِنَّها نَقَلَتْ عِبارتَهُ إِلى أُمِّها، فما كانَ مِنها إِلَّا أَنْ مَدَحَتْهُ وأَطْرَتْ شَمائِلَهُ وصفاتِهِ.

لهٰذا، فما رَجَعَ ليفينُ إِلى موسكو حتّى تَوَلّى الأُمَّ قَلَقٌ وانزِعاجٌ، وآلَتْ أَنْ تَحُولَ بينَهُ وبينَ كَريمتِها، حتّى ولو قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لها بينَ شَرَفِ الدُّنيا والآخِرةِ.

وقد جَرى الحَديثُ التّالي بينَ الأُمِّ والابْنةِ في أَثْناءِ أَوْبَتِهِما مِن حَلْبةِ التَّزَلُّجِ؛ قالَتِ الأُمُّ مُتسائلةً: «متى عادَ ليفينُ؟ هل تَثَبَّتِّ مِنْ أَمْرِهِ؟»

---

(١) الحَصافَةُ: الفِطْنَةُ وجودَةُ الرَّأْيِ.

- «إنَّه جاءَ موسكو اليَوْمَ يا أُمّاه».

- «ثمَّةَ شيءٌ أَوَدُّ أَنْ أُطْلِعَكِ عليهِ. . .».

فقاطَعَتْها الفتاةُ ووَجْهُها يَتَضَرَّجُ حَياءً: «أُمّاه، أَرْجوكِ، أَرْجوكِ أَنْ لا تَقولي شيئًا، فأنا أَعْرِفُ، أَعْرِفُ كُلَّ شيءٍ».

كانَتْ رَغْبَتُها مُتَّفِقةً مَعَ رَغْبةِ أُمِّها، إِلَّا أَنَّ العَوامِلَ الَّتي كَوَّنَتْ رَغْبةَ أُمِّها، آلَمْتها.

وقالَتِ الأُمُّ: «وَدِدْتُ أَنْ أَقولَ إِنْ بُعِثَ الأَمَلُ. . .».

- «أَرْجوكِ، ناشَدْتُكِ اللهَ أَنْ لا تَفْعَلي، فالتَّكَلُّمُ في هٰذا الأَمْرِ يُرْمِضُ نفسي ويُكْرِبُني!»

- «لا تُراعي يا حَبيبتي، لا تَبْكي، فلن أَتَكَلَّمَ، مَعَ أَنَّكِ طالما أَكَّدْتِ أَنْ لن يكونَ بَيْنَنا سِرٌّ مَكْتومٌ».

- «كلّا لن يَحولَ بَيْني وبينَ قَلْبِكِ أَمْرٌ يا أُمّاه، ولٰكِنّي لا أَعْلَمُ ماذا أَقولُ، ولو شِئْتُ الحَديثَ لجَهِلْتُ مِنْ أَينَ أَبْدَأُ، ولو خُيِّرْتُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لاخْتَرْتُ ولم أَخْتَرْ».

إِنَّها صادِقةٌ. . . صادِقةٌ. . . ولا يَتَسَنَّى لهاتَيْنِ العَيْنَيْنِ الصّافيتَيْنِ الصَّريحَتَيْنِ أَنْ تَأْفِكا[١] وتُنافِقا.

وابْتَسَمَتِ الأَميرةُ الأُمُّ وهي تَرْمُقُ ابنَتَها بنِظْرةِ المَحَبَّةِ والإِعْزازِ، وتُفَكِّرُ في ما هِيَ مُقْدِمةٌ عليهِ مِنْ زَواجٍ، داعيةً اللهَ في ما بَيْنَها وبينَ نفسِها أَنْ يُمَهِّدَ أَمامَها طريقَ السَّعادَةِ والسَّلامِ.

* * *

بَعْدَ العَشاءِ وفي الفَترةِ الَّتي سَبَقَتِ الحَفلةَ السّاهرةَ كانَ شُعورُ كاترينَ أَشْبَهَ بِشُعورِ الجُنْديِّ المُقبِلِ على مَعْركَةٍ.

ورَأَتْ نَفْسَها في مَفْرَقِ طُرُقٍ، وأَيْقَنَتْ أَنَّ مُسْتَقْبَلَها سُيَقرَّرُ في تلكَ اللَّيْلَةِ متى الْتَقى الشّابّانِ، فالْتِقاؤُهُما في صَعيدٍ واحِدٍ هُوَ، كما أَيْقَنَتْ، نُقْطَةُ التَّحوُّلِ في حَياتِها.

وارْتَعَشَتْ مِنَ الهَلَعِ، وأَنْشَأَتْ تُفَكِّرُ في كُلٍّ مِنْهُما على حِدةٍ وتُقابِلُ بينَ النِّدَّيْنِ، وتُفاضِلُ وتَخْتارُ، وتُعْجَبُ وتَسْتَهْجِنُ.

---

(١) أن تَأْفِكا: أن تكْذِبا.

وأثارَ ليفينُ حَنانَها وعَطْفَها، فهْوَ صَديقٌ قَديمٌ، صَديقٌ مُخلِصٌ حَمِيمٌ، وإنْ لم يَتَمادَ الشُّعورُ نحوَهُ مُخْتَرِقًا نِطاقَ الشَّفَقةِ والرِّثاءِ، والتَّأَسُّفِ على شَيْءٍ لا تَكْنُهُ[1] حقيقتَهُ.

أمّا فرونسكي فقد عَلِقَ قَلْبُها بغُموضِهِ، ولَعَلَّ رَواءَهُ وحُسْنَ ديباجتِهِ خَلَقا في مُخَيِّلَتِها البِكْرِ نَوْعًا مِنَ الاعْتِقاد الرّاسِخِ بأَنَّهُ قادِرٌ على إسْعادِها، مُتَمَكِّنٌ مِنْ إحاطَتِها بجَوٍّ مِنَ البُلَهْنِيَةِ[2] والدَّعَةِ. فهْوَ كما تَراءى لَها قد اجْتَمَعَتْ فيه خِلَّتانِ حَميدتانِ: الجمالُ والكَمالُ، وبهاتَيْنِ الخِلَّتَيْنِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْكُنَ إلى حياةٍ رَضِيَّةٍ رَغيدةٍ.

وصَعِدَتْ في السَّلالِمِ إلى الطَّبَقَةِ الثّانيَةِ لاسْتِبدالِ مَلابِسها اسْتِعدادًا للحَفْلَةِ. فلمّا نَظَرَتْ إلى نَفْسِها في المِرآةِ، رَأَتْ، والسُّرورُ مُسْتَحوذٌ عليها، أَنَّها في أَحْسَنِ حالاتِها، وأَنَّها مُتَمَلِّكَةٌ لشُعورِها، مُسيطرةٌ على أَعْصابِها، واثقةٌ مِن نَفسِها، مُطْمَئِنَّةٌ إلى قُوَّتِها وإرادَتِها، وهْيَ في مَسيسِ الحاجةِ إلى العَزيمةِ حتّى تَخْرُجَ سالمةَ القَلْبِ والإحساسِ مِنْ مَعْرَكةِ اللَّيْلَةِ، مَعْرَكةِ العَواطفِ والمَشاعِرِ، المَعْرَكةِ الفاصِلةِ بالنِّسبةِ إليها وإلى مُسْتَقْبَلِها!

وما كادَتْ تَهْبِطُ السَّلالِمَ في السّابعةِ والنِّصْفِ حتّى أَعْلَنَ الحاجِبُ قُدومَ ليفينَ. ولم يَكُنْ في القاعةِ أَحَدٌ سِواها، ولم يَكُنْ لها نُدْحَةٌ[3] مِن استِقبالِهِ.

وما كانَ لَها صَديقةٌ مَحَضَتْها ثِقَتَها، واسْتَأْمَنَتْها على سِرِّها، واصْطَفَتْها لمَشورتِها؛ لهٰذا اتَّجَهَتْ نَحْوَ الضَّيْفِ، ثُمَّ وَقَفَتْ مُتَرَدِّدةً في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ، وقد آلَمَها ما شَعَرَتْ بِهِ، آلَمَهَا أَنْ تُقَرِّرَ مَشاعِرُها الخَفِيَّةُ أَنَّ الشّابَّ المُقبلَ نَحْوَها لن يَفوزَ مِنها بطائِلٍ، وأَنَّها سَتُسَبِّبُ كَثيرًا مِنَ الأَلَمِ والعَذاب لرَجُلٍ يَكُنُّ لها أَسمى آياتِ الحُبِّ والإخْلاصِ.

ونَظَرَتْ إليهِ بعَينَيْنِ مُتَضَرِّعَتَيْنِ، وكأَنَّ ناظِرَيْها نَطَقا بخَبَرِها، وقَصّا عليهِ قِصَّتَها.

ولٰكِنَّهُ لم يَفْقَهْ لُغَةَ اللِّحاظِ بل مَدَّ لَها يَدَهُ مُصافِحًا، وضَغَطَ قليلًا على الأَنامِلِ الرَّخصةِ وقالَ: «المَعْذِرةَ إنْ بَكَرْتُ في الحُضورِ، ولٰكِنّي لم أَجِدْ ما يَشْغَلُني عَنِ الشَّوْقِ...».

وتَلَفَّتَ حَوْلَهُ في قَلَقٍ، ثُمَّ أَرْدَفَ: «وإنّي وَايْمُ الحَقِّ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَجِدَكِ وَحيدةً، ولَسْتُ في شَكٍّ مِن أَنَّكِ ستُصيخينَ إلى ما أَقولُ حتّى النِّهايةِ...».

---

(١) تَكْنُهُ حَقيقَتَه: تُدْرِكُها.

(٢) البُلَهْنِيَةُ: العَيْشُ الرَّخِيُّ.

(٣) نُدْحَةٌ: مَهْرَبٌ أَو مَفَرٌّ.

وتَمَلْمَلَ في مَكانِهِ قَلِقًا مُضْطَرِبًا. وقالَتْ كاترينُ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «لن تَلْبَثَ أُمِّي أَنْ تأْتيَ يا سيِّدي!»

وتَضَرَّجَ وَجْهُها، وأَطْرَقَ هُوَ برَأْسِهِ، وقالَ بَعْدَ لَأْيٍ[1]: «اعْلَمي أَنَّ مُقامي في موسكو يَطولُ أو يَقْصُرُ تَبَعًا لمَوْقِفِكِ». وسَرَتْ قُشَعْريرةٌ باردةٌ في جِسْمِهِ. كيفَ؟ كيفَ جَرُؤَ؟ كيفَ تَجاسَرَ على النُّطْقِ بهٰذِهِ الكَلِماتِ؟

وغَضَّتْ كاترينُ مِن طَرْفِها[2]، واخْتَلَجَتْ أَهْدابُها في انْفِعالٍ وحَيْرةٍ. وأَرْدَفَ بَعْدَ أَنِ استَعادَ رَباطَةَ جَأْشِهِ[3]: «أَجَلْ أَوَدُّ أَنْ أَقولَ... أَنْ أُخْبِرَكِ... أَنْ أُفْضِيَ إِليكِ بأَنّي... بأَنّي... أَنْ أَسْأَلَكِ عن رَأْيِكِ في شَخْصي لو تَقَدَّمْتُ إِليكِ بطَلَبِ الزَّواجِ! هل تَقْبَلينَ بي؟ هل تُوافِقينَ؟»

وظَهَرَ عَليهِ فَجْأَةً وُجومُ مَنِ اشْتَدَّ هَمُّهُ وعَظُمَ غَمُّهُ، ولٰكِنَّهُ ظَهَرَ عليهِ أيضًا الارْتِياحُ لما قامَ بهِ وأَدّاهُ، وما عليهِ الآنَ سوى انْتِظارِ الجَوابِ، فإمّا القَبولُ وإمّا الرَّفْضُ... فإِنْ أَجابَتْ بالقَبولِ طابَتْ نفسُهُ واغْتَبَطَتْ، وإِنْ رَدَّتْهُ خائِبًا داخَلَهُ مِنَ الشَّقاءِ ما يَنْتَزِعُهُ انتِزاعًا، ويَقْتَلِعُهُ اقتِلاعًا مِنْ موسكو!

وأُلْجِمَ لِسانُ كاترينَ، ووَجَبَ قلبُها، وداخَلَها مِنَ الذُّعْرِ ما شَلَّ حَرَكَتَها وكَبَّلَ إرادتَها.

وجَعَلَتْ تَتَلَدَّدُ[4] في مَكانِها مُتَمَلْمِلَةً.

وطَغى عليها على حينِ غِرَّةٍ شُعورٌ عَجيبٌ مِنَ الإعْجابِ والسُّرورِ والزَّهْوِ. ثُمَّ رَفَعَتْ إِليهِ طَرْفًا مُخْضَلًّا، فإذا بوَجْهِ فرونسكي يَحْجُبُ وَجْهَ ليفينَ عن ناظِرَيْها، وإذا بخَيالِهِ الجميلِ يَرنو إِلَيْها مُتَسائلًا، وإذا بها تُتَمْتِمُ بجَزَعٍ: «لا... لا...».

وجَمْجَمَ المِسْكينُ مِن دونِ أَنْ يَنْظُرَ نحوَها: «إِنَّ الفاشِلَ مَأْخوذٌ دائمًا بفَشَلِهِ، إِنَّ عاثِرَ الحَظِّ لا يُخطِئُهُ الإِخْفاقُ... وهٰذا كانَ مُنْتَظَرًا».

وأَحنى هامَتَهُ باحْترامٍ، وتَحَوَّلَ عنها، وهْوَ يُجَرِّرُ وَراءَ ساقَيْهِ المُرْتَعِشَتَيْنِ أَذيالَ الخَيبةِ،

---

(١) لَأْيٍ: مَشَقَّةٍ.

(٢) طَرْفِها: نَظَرِها.

(٣) رباطَةَ جَأْشِهِ: شجَاعَتَهُ.

(٤) تَتَلَدَّدُ في مكانِها: تَتَلَبَّثُ (تُقيمُ) فيهِ متَحَيِّرَةً.

حتّى لكَأَنَّهُ كانَ يَتحامَلُ على نفسِهِ حَذَرَ الانهيارِ! ولٰكِنَّ دُخولَ الأُمِّ في تلكَ الهُنَيْهةِ، واقْتِرابَها منهُ، جَعَلَهُ يَترَيَّثُ مُسْتَمِهلًا ويَتماسَكُ مُتَجَلِّدًا.

وصَعَّدَتِ الأُمُّ عَيْنَيْها في الشّابَّيْنِ مُتَوَجِّسةً[1] مُستريبةً، ولٰكِنَّها ما لَبِثَتْ أنِ انْبَسَطَتْ أساريرُها؛ فأَماثِرُ الفَتى تَدُلُّ على أَنَّهُ لَمْ يَحْظَ مِنِ ابنتِها بطائِلٍ، وتَقاطيعُ الفَتاةِ تُشيرُ إلى أَنَّها لم تَقْضِ لهُ مِن مَآرِبِهِ وَطَرًا.

لقدِ اسْتجابَتْ لها كَريمتُها، واتَّخَذَتْ مِن مِثاليّةِ فرونسكي نِبراسًا تَسْتَضيءُ بِهِ وتَسْتَرشِدُهُ! وها هِيَ تَضَعُ حَدًّا لأَحْلامِ ليفينَ، وتُفْهِمُهُ صَراحةً أَنَّها لن تكونَ لهُ.. فنِعْمَ الابْنَةُ ابْنَتُها!

وسُرعانَ ما بَشَّتْ لهُ حينَ حَيّاها، وطَلَبَتْ إليهِ بِلُطْفٍ أَنْ يَجْلِسَ، ثُمَّ أَقبَلَتْ عليهِ تَسْأَلُهُ عَن حالِهِ، وتَسْتَوْضِحُهُ أُمورَ القَريَةِ، وما يَفْعَلُهُ هُناك، وما يَقومُ بِهِ مِن نَشاطٍ.

واقْتَضَبَ ليفينُ أَجْوِبَتَهُ، وإِنْ حاوَلَ جاهِدًا أَنْ لا يكونَ جافًّا في مَقالَتِهِ.

وما مَضى مِنَ الزَّمَنِ ساعةٌ حتّى تَوافَدَ المَدْعُوّونَ والمَدْعُوّاتُ، وفي مُقَدِّمَتِهِمُ النَّبيلةُ الحَسيبةُ «الكونتس نوردسون».

وهٰذِهِ المرْأَةُ، نَصَفٌ بينَ النِّساءِ، فهْيَ نَحيلةٌ هَزيلةٌ، قَميئةٌ، حادَّةُ الطَّبْعِ، مُتَوَتِّرةُ الأَعْصابِ، كَلِفَتْ بكاترينَ وآثَرَتْها بحُبِّها، حتّى إِنَّ شوقَها إِلى ضَمانِ المُسْتَقبَلِ الزّاهرِ لها فاقَ شَوقَ أُمِّها. وكانَتْ تُشايِعُ فرونسكي وتَحْقِدُ على ليفينَ، لهٰذا كَرَّهَتْ كاترينَ بالأَخيرِ، حتّى نَفَرَ قَلْبُ الفتاةِ وخَشِيَتِ الاقْتِرابَ منهُ، ناهيكَ عَنِ الاقْترانِ بهِ.

ولولا ما حَظَّرَهُ الأَدَبُ عَلَيْها مِن مُعاملةِ النّاسِ بالقَسْوةِ والشِّدَّةِ لما تَوَرَّعَتْ كاترينُ عن مُجابهةِ ليفينَ بما لا يُحِبُّ في حَلْبةِ التَّزَلُّجِ!

لَقد أَثَّرَتْ فيها هٰذِهِ المَرأةُ تأْثيرًا كَبيرًا، ولا غَرْوَ، فالمَرأةُ متى مَقَتَتْ، كادَتْ[2] وأَوْقَعَتْ.. وقد مَقَتَتْ هٰذِهِ المَرأةُ ليفينَ، فآلَتْ أَنْ تَقْهَرَهُ وتَكيدَ لَهُ، وقد طالَما رَدَّدَتْ: «أَعْجِبْ بنا مِن نِدَّيْنِ لا نَجْتَمِعُ، هو يَكْرَهُني وأنا أُبادِلُهُ البُغْضَ، وأَجِدُ في ما يَعْتَمِلُ في صَدْرَيْنا مِن نَزعاتِ الكَراهِيَةِ والوَجْدِ كَثيرًا مِنَ المُتْعَةِ واللَّهْوِ».

---

(١) مُتَوَجِّسةً: مُصْغِيةً بخوفٍ.

(٢) كادَ (يَكيدُ) لشَخْصٍ: احْتالَ في إِلْحاقِ الضَّرَرِ به.

أَمّا ليفينُ، فلم يَكُنْ يَمْقُتُها، بل كانَ يَحْتَقِرُها، واحْتِقارُهُ لَها كانَ لغُرورٍ رَكِبَ رَأْسَها، فأَعْماها عن حَقيقَتِها وحَقيقَةِ سِواها مِنَ الخَلْقِ.

فما كادَتْ تُبْصِرُ بهِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ حتّى طابَتْ لها الشَّحْناءُ، فهاجَمَتْهُ مُتَهَجِّمةً وهي تُصافِحُهُ، وقالَتْ: «أَراكَ رَجَعْتَ إلى «بابلَ»، رَجَعْتَ بَعْدَ أَنْ هَجَرْتَها ونَأَيْتَ عنها، فماذا حَداك على الرُّجوعِ؟ ماذا حَفَّزَكَ إلى طَرْقِ أَبْوابِ «بابلَ الفاسِدَةِ»؟ (كانَ ليفينُ يُشَبِّهُ موسكو ومَباذِلَها ببابلَ وفُسْقِها) فهل تَغَيَّرَتْ بابِلُ؟ هل أَصْلَحَ مِن شأْنِها المُصْلِحونَ، أو تَدَنَّيْتَ أنتَ حتّى أَصْبَحْتَ في مُستوى أَهْلِها الفاسدينَ المارقينَ؟!»

وكانَ ليفينُ في ما مضى، قد فَنَّدَ آراءَ هٰذِهِ المَرأةِ الدَّعِيَّةِ، وظاهَرَ[1] أَهْلَ الرّيفِ، ونَصَرَهُمْ وأَيَّدَهُمْ. فلمّا جابَهَتْهُ الكونتس بهٰذِهِ الكَلماتِ عَلِمَ أَنَّها تُحاوِلُ النَّيْلَ منهُ على رُؤوسِ الأَشْهَادِ، فلم يَزِدْ على أَنْ قالَ: «لمِمّا يَمْلأُني زَهْوًا أَنَّ كَلامي راسِخٌ في مُخيِّلتِكِ يا سيِّدتي».

وأَعرَضَ عنها وأَشاحَ، كأَنَّهُ لا يَرْغَبُ في مُتابعةِ الكَلامِ. واسْتَرْعى انْتِباهَهُ في تلك اللَّحْظَةِ ضابطٌ وَسيمٌ أَنيقٌ يَدْلِفُ[2] إلى القاعةِ بخُطُواتٍ مُتَّزنةٍ قَوِيَّةٍ.

وأَنْبَأَهُ حِسُّهُ أَنَّ الشّابَّ هُوَ منافِسُهُ في قَلْبِ كاترينَ؛ وأَيْقَنَ مِنْ ذٰلِكَ عندما قابَلَتْهُ كاترينُ بوَجْهٍ طَلْقٍ، وأَقْبَلَتْ عليهِ تُحَيِّيهِ وتُرَحِّبُ بهِ. وقارَنَ بينَ مُقابَلَتِها لهُ ومُقابَلَتِها للضّابطِ، وأَدْرَكَ، والأَسى يَمْلأُ صَدْرَهُ، أَنَّ كاترينَ تُحِبُّ فرونسكي، وأَنَّ أَمَلَهُ قد انْطَفَأَتْ شُعلتُهُ إلى الأَبَدِ.

وتَأَهَّبَ لِيَذْهَبَ، وتَحَرَّكَ مِنْ مَكانِهِ حتّى يَهْرُبَ مِنَ الجَنَّةِ الَّتي انْقَلَبَتْ في مِثْلِ غَمْضةِ عَيْنٍ وفَتْحَتِها إلى سَعيرٍ مُتَلَظّي النّيرانِ. ولٰكِنَّهُ عادَ فكَتَمَ ما في نفسِهِ وعَزَمَ على إطالةِ مَكْثِهِ، ولو على مَضَضٍ، حتّى يُشاهِدَ ما يَجْري عن كَثَبٍ، وحتّى يُلِمَّ بأَحوالِ نِدِّهِ ويَعْرِفَ المَزِيدَ مِنْ أَمْرِهِ.

وإذا هاجَتِ الأَحْزانُ في قلبِ امْرِئٍ، وتأَلَّبَتْ عَلَيهِ المِحَنُ، أَضْحى أَحْيانًا خَسيسًا لا يَرى إلّا السَّيِّئاتِ والنَّقائِصَ، أَمّا الفَضائِلُ فتُصْبِحُ كالقَذى في عَينِهِ كُلَّما لَمَسها في غيرِهِ.

---

(١) ظاهَرَ القَومَ: نَصَرهُمْ على غَيرِهِمْ.
(٢) دَلَفَ ([illegible]). مَشى مُقا[illegible] الخَطْوِ، وهوَ هُنا بمَعْنى دَخَلَ.

بَيْدَ أَنَّ ليفينَ كانَ مِن طينَةٍ أَسْمى، فهْوَ لا يَرْغَبُ في تَعَرُّفِ مَواطِنِ الضَّعْفِ فحَسْبُ، بل يَوَدُّ مِن صَميمِ فُؤادِهِ أَنْ يَتَحَسَّسَ مَكامِنَ القُوّةِ في إِنْسانٍ غيرِهِ، مهما تَنافرا في المِزاجِ والطَّبْعِ والهَدَفِ.

وحارَ ليفينُ في أمرِهِ، فالإشفاقُ يُثَبِّطُ عَزيمَتَهُ، والشَّوْقُ إلى مَنْ خَيَّبَتْ رجاءَهُ يُنَشِّطُ ذِهْنَهُ، وهْوَ بَيْنَ هٰذِهِ الاِنْفِعالاتِ كَريشَةٍ تَهُزُّها الرِّيحُ وتَتَلاعَبُ بها.

وقد نَظَرَ بتَمَعُّنٍ وتَفَكُّرٍ إلى غَريمِهِ، فأَلْفاهُ شابًّا كامِلَ الرُّجولَةِ لا يَنْقُصُهُ منها مَنْظَرٌ ولا مَظْهَرٌ ولا إرادةٌ. وأُلْقِيَ في رَوْعِهِ أَنَّ هٰذا الفَتى لا يَميلُ كغيرِهِ مِنْ أبناءِ الطَّبَقَةِ المُتْرَفَةِ إلى تَكَلُّفِ ما ليسَ فيهِ، فهْوَ يَتَكَلَّمُ مَعَ الجَميعِ بِلَهْجَةٍ واحِدَةٍ وابْتِسامَةٍ واحِدَةٍ، وهْوَ يُصافِحُ الجَميعَ بطريقَةٍ واحِدَةٍ، وهْوَ يَتَحَرَّكُ مِن دونِ كُلْفَةٍ.

وتَوَغَّرَ صَدْرُ ليفينَ وهْوَ يَرى هاتيكَ الفَضائلَ، إلّا أَنَّهُ لم يَمْقُتْ غَريمَهُ بلِ اسْتَمَرَّ يُراقِبُهُ بانتِباهٍ. وقد رآهُ يُقْبِلُ على الأَميرَةِ المُضيفَةِ فيُصافِحُها بحَرارةٍ ثُمَّ يَعْطِفُ على كاترينَ ابْنَتِها فيُبادِلُها بَعْضَ الحَديثِ، ويَضْحَكُ هُوَ وتَضْحَكُ هِيَ، وتَخْثُرُ[1] نَفْسُ ليفينَ!

وجَلَسَ فرونسكي في مَقْعَدٍ خالٍ مِن دونِ أَنْ يَلْتَفِتَ إلى ليفينَ أو يَشْعُرَ بوُجودِهِ، إلّا أَنَّ المُضيفةَ تَنَبَّهَتْ فَجْأَةً إلى ما يَجِبُ عليها عَمَلُهُ، فأَسْرَعَتْ تَقولُ: «لقد سَها عن بالي تَقْديمُ كُلٍّ مِنْكُما إلى الآخَرِ. وأَوْمَأَتْ إلى ليفينَ، واستَتْلَتْ: «الكونتُ فرونسكي، الكونت ليفينُ!»

وانْتَصَبَ فرونسكي واقِفًا، وحَذا ليفينُ حَذْوَهُ، وتَصافَحَ الشّابّانِ، وأَحْنيا رَأْسَيْهِما قَليلًا؛ ثُمَّ قالَ فرونسكي ووَجْهُهُ يَطْفَحُ بِشْرًا: «كنّا سنجتَمِعُ في هٰذا المَنْزِلِ على مائدةِ الأَميرةِ، بَيْدَ أَنَّ رَحيلَكَ المُفاجِئَ، في ذٰلِكَ الحينِ حَبَسَ عنّا نَفحةَ رَيّاكَ».

فقالَ ليفينُ: «وهٰذا مِن بَواعِثِ أَسَفي، إلّا أَنّي اضْطُرِرْتُ يَوْمَذاكَ إلى السَّفَرِ».

قالَ: «ورُدْتَ -ولا شَكَّ- أَرْضَكَ في الرّيفِ يومَ ظَعَنْتَ[2] عن موسكو، وإِخالُ كُلَّ شَيءٍ في الحياةِ هُناكَ مُمِلًّا مُضْجِرًا، هٰذا إذا مَكَثَ الإنْسانُ وأَقامَ بصورَةٍ دائمةٍ، خُصوصًا في فَصْلِ الشِّتاءِ، يَوْمَ يَهْبِطُ القَرُّ وتَتَساقَطُ الثُّلوجُ».

---

(١) تَخْثُرُ النَّفْسُ: تَغْثو وتضْطَرِبُ.

(٢) ظَعَنْتَ: رَحَلْتَ.

قالَ: «إنَّ للسّعَادَةِ مَهابَّ مُخْتَلِفةً، وسَعادَةُ القريةِ في العَمَلِ والدَّأْبِ، ومَنْ يَعْمَلْ هُناكَ لا يُداخِلْهُ السَّأَمُ».

قالَ: «ولا أُخْفِيكَ أَنّي أُحِبُّ الحَياةَ الحُرَّةَ في القَريةِ السّاكِنةِ الهادِئَةِ المُتَحَرِّرةِ مِنَ القُيودِ».

وحانَتْ مِنَ الكونتس نوردسون لَفْتةٌ، وسَنَحَتْ لها فُرْصَةُ القولِ، فراحَتْ تُخاطِبُ فرونسكي وتَقولُ: «وهل تُسَوِّلُ لَكَ نفسُكَ المَكْثَ في الحَقْلِ؟ هل تَسْتَطيعُ أَنْ تَبْقى هُناكَ يا كونت فرونسكي لا تَبْرَحُ ولا تَريمُ؟»

فأَجابَها الشّابُّ وهْوَ يُهاجِمُها بَطَرْفٍ مُسْتَطْلِعٍ: «هٰذا سُؤالٌ يَسْتَعْصي الجَوابُ عنهُ، فما نَزَلْتُ في الرّيفِ إلّا لِمامًا، وكُلَّما قَصَدْتُهُ زائرًا، وأَلْمَمْتُ بِهِ عامِلًا، أَقَمْتُ رَدَحًا قَصيرًا... وأَصْدُقُكِ أَنّي لم أَعرِفْ مَذاقَ الرّيفِ في روسيا، ولم أَتَعَلَّقْ بِهِ إلّا بَعْدَ ما قَضَيْتُ في «نيسَ» شتاءَ العامِ الماضي. هُناكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُقارِنَ، وهُناكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى الحَقيقةَ وأَعْلَمَ أَنَّ ريفَنا جَنَّةُ نَعيمٍ!»

قالَتْ: «وماذا شاهَدْتَ في نيسَ؟»

قالَ: «نيسُ مَدينةٌ صَغيرةٌ مُوحِشَةٌ، ولا تَقَرُّ العَينُ بمُلازَمَتِها زَمَنًا طَويلًا. وأَصْدُقُكِ أَنَّ ريفَنا أَمْتَعُ مِنها وأَبْهَجُ مِنْ سِواها مِنَ المُدُنِ، كنابولي مثلًا».

وازْدَلَفَتْ[1] كاترينُ في تِلكَ الأثناءِ إلى المَكانِ الَّذي وَقَفَ فيهِ ليفينُ، ونَظَرَتْ إلى وَجْهِهِ المُنْقَبِضِ، والْتَقَتِ العُيونُ فَجْأَةً، فبَرَزَ مِن عَيْنَيْهِ أَسًى بالِغٌ، ونَطَقَ لِسانُ عَيْنَيْها فقالَ: «أَلا اصْفَحْ... اِغْفِرْ... لقد تَحَقَّقَتِ الآمالُ فلا تَزْجُرْ، ولا تَنْقُمْ...».

وأَجابَها ليفينُ، أَجابَها باللَّحْظِ أيضًا فقالَ: «أَلا تَبًّا لكِ! لقد جَرَّ عليَّ حُبُّكِ الغَصَصَ، وكَرَّهَني بالحياةِ. فأنا أَبْغُضُكِ، وأنا أَمْقُتُ نفسي، وأنا أَكْرَهُ الدُّنيا قاطبةً!»

وتَشَعَّبَتِ الأَحاديثُ وتَفَرَّعَتْ، وطَفِقَ القَوْمُ يَتَبادَلونَ الكَلامَ على الحَفَلاتِ الرّاقصةِ، والصَّيْدِ والقَنْصِ، ثُمَّ عَرَّجُوا على الحَفلَةِ السّاهرةِ الَّتي يُزْمِعُ أَنْ يُحْيِيَها آلُ شِرْباتسكي بَعْدَ أَيّامٍ قَليلةٍ لا تَتَجاوَزُ الأُسْبوعَ.

---

(١) ازْدَلَفَتْ: دَنَتْ واقْتَرَبَتْ.

واغْتَنَمَ ليفينُ انْشِغالَ الضَّيفِ[1] عنهُ بأَحاديثِهِم، وتَسَلَّلَ خارِجًا بَعْدَ أَنِ استَأْذَنَ رَبَّةَ الدّارِ بالذَّهابِ!»

* * *

ولمّا وَلّى قِطْعٌ[2] كبيرٌ مِنَ اللَّيْلِ، وخَلا البَيْتُ مِمَّن ازدَحَمَ فيهِ، انْفَرَدَتْ كاترينُ بأُمِّها فأَطْلَعَتْها على ما كانَ بينَها وبينَ ليفينَ. ولم تَكُنِ الحَسْنَاءُ مُغْتَبِطةً أو مُبْتَئِسةً، بل إنَّ إحساسَها كان يَضْطَرِمُ بنارِ الانْفِعالِ، فهيَ تَسْمَعُ لأَوَّلِ مَرّةٍ في حَياتها عَرْضًا للزَّواجِ، وممَّنْ؟ مِن شابٍّ تَتَمنّاهُ أَجْمَلُ الغيدِ، مِن ليفينَ النَّبيلِ الثَّرِيِّ.

ولمّا لاذَتْ بفِراشِها جَفاها الكَرى[3]، فجَعَلَتْ تَتَقَلَّبُ في مَضْجَعِها هَاجِسةً بما يَعْتَمِلُ في صَدْرِها، وقد لاحَقَها وَجْهُ ليفينَ، فهْيَ لا تُغْمِضُ عَيْنَيْها إلَّا لِتَراهُ ماثِلًا في مُخيِّلَتِها، وهْيَ لا تَفْتَحُ تَيْنِكَ العَيْنَيْنِ الجميلتَيْنِ إلَّا ليَظْهَرَ لها وَجْهُهُ الحَزينُ الكَسيفُ القانِطُ.

واجْتاحَتْها مَوْجَةٌ عارمةٌ مِنَ الحُزنِ، وانْهَمَرَتِ الدُّموعُ مِنْ مآقيها غَزيرةً تَهْتانةً. بَيْدَ أَنَّها فَكَّرَتْ بالشّابِّ الآخَرِ الَّذي ضَحَّتْ بليفينَ مِن أَجلِهِ، فأَشْرَقَ وَجْهُها فَجْأةً بنورِ السَّعادةِ، وجَفَّتْ مَدامِعُها، وطَفِقَتْ تَتَخَيَّلُهُ بقامتِهِ المَمْشوقةِ، ووَجْهِهِ الجَميلِ، ونَبْرتِهِ النّافِذةِ القَوِيَّةِ.

وطَغى عَلَيْها في هٰذِهِ الهَدْأَةِ سُرورٌ عَظيمٌ، ولٰكِنَّها شَعَرَتْ في قَرارتِها أَنَّ سُرورَها هٰذا يَشوبُهُ أَلَمٌ غامِضٌ، وكَأَنَّهُ السُّمُّ في الدَّسَمِ. فما هُوَ هٰذا الشَّيءُ يا تُرى؟ وما نَوْعُ هٰذا السُّمِّ؟ وهَتَفَتْ مُتَهَدِّجةً: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنا... اللَّهُمَّ ارْحَمْنا...».

وما فَتِئَتْ تُرَدِّدُ هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ حتّى اسْتَولى عليها سُلطانُ النَّوْمِ فأَغْفَتْ.

---

(١) الضَّيفُ: النَّزيلُ عندَ غيرِ أَهْلِهِ ويُسْتَعْمَلُ للمُفْرَدِ والجَمْعِ.
(٢) قِطْعٌ من اللَّيلِ: جُزْءٌ منه.
(٣) الكَرى: النُّعاسُ أو النَّوْمُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - بدأَ الفصلُ بوصفِ مزايا كاترينَ الجَماليَّةِ، فما دورُ هذا الوصفِ في الرّواية؟

٣ - ماذا عَنَتْ كاترينُ إذ قالَت لليفين حينَ أخذَ يُحَدِّثها: «لن تَلْبَثَ أُمّي أَن تأْتيَ، يا سيّدي»؟

٤ - مَن هو الشابُّ فرونسكي؟ وما مِهْنَتُهُ؟

٥ - ما الفكرة التي كَوَّنَتْها أُمّ كاترين عن كلٍّ من ليفين وفرونسكي؟

٦ - بَدأَتِ العُقْدةُ الثانيَةُ في حكايةِ ليفينَ تعرفُ طريقَها إلى الحَلِّ. فهل أَرْضاكَ أن تَكونَ كاترين لفرونسكي؟ ولماذا؟

٧ - لِمَ راوحَتْ مشاعرُ كاترينَ بين الحزنِ والفرحِ؟ وأيَّ الأساليبِ استخدمَ الكاتبُ لتصوير حالتِها هذه؟

٨ - بِمَ امتازتْ شَخصيَّةُ الكونتس نوردسون؟ وهل كانَ ليفينُ محِقًّا في كرهه إيّاها؟

٩ - أَرأيتَ في أقوالِ نبلاءِ موسكو طعنًا بحياةِ الرّيفِ؟ ولماذا؟

١٠- أيَّ أساليبِ القصِّ استخدمَ الكاتِبُ لتطويرِ الأحداثِ (السَّرد، الوصف، الحوار، المناجاة)؟ أَوضِحْ ذلكَ.

١١- أَوْجِزْ مَضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل التَّاسع

في السّاعةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِن صَباحِ اليَوْمِ التّالي، اسْتَقَلَّ فرونسكي عَرَبَتَهُ إلى مَحَطَّةِ القِطارِ ليَكونَ في استِقْبالِ والدتِهِ. وكانَ أوبلنسكي أوَّلَ رَجُلٍ صادَفَهُ هُناكَ. وكانَ الأخيرُ يَنْتَظِرُ مقْدَمَ شَقيقَتِهِ في القِطارِ نَفْسِهِ.

فلمّا رآهُ أوبلنسكي هَتَفَ قائِلًا: «مَنْ تُراكَ تَنْتَظِرُ يا كونتُ؟»

فأَجابَهُ فرونسكي والابتِسامةُ لا تُفارِقُ فمَهُ: «أُمّي... إنّها قادِمةٌ مِن بطرسبرج، وستَصِلُ اليَوْمَ في قِطارِ الصَّباحِ».

- «لقد بَحَثْتُ عنكَ البارحةَ، فإلى أينَ ذَهَبْتَ عقِبَ مُغادَرتِكَ مَنْزِلَ آل شرباتسكي؟»

- «تَوَجَّهْتُ إلى البَيْتِ، لأنّي لم أطْمَعْ في المَزيدِ... فقد لَقِيتُ هُناكَ ما مَلأَ قَلْبي وحِسّي قَناعةً ورِضًى، حتّى لم أشْعُرْ بالمَيْلِ إلى مُواصَلَةِ ما انْقَطَعَ مِن مُتْعةٍ في مَكانٍ آخَرَ».

- «هذا جميلٌ...». وابْتَسَمَ كما ابْتَسَمَ في وَجهِ ليفينَ ساعةَ أطْلَعَهُ على كَلَفِهِ بكاترينَ.

وما لَبِثَ أنْ صَعَّدَ فيهِ طَرْفَهُ، وابْتَدَرَهُ بالكَلِماتِ الَّتي قالَها لليفينَ قَبْلًا: «اِعْرِفِ الجَوادَ الأَصيلَ مِن خَطَرانِهِ... والعاشِقُ اعْرِفْهُ مِن عَيْنَيْهِ ولِسانِهِ!»

ولَمَعَتْ عَيْنا فرونسكي، وافتَرَّ ثَغْرُهُ، ونَطَقَتْ أمائِرُهُ وأساريرُ وَجْهِهِ بما فَهِمَهُ مِن كَلامِ أوبلنسكي، وما أَبْطَأَ أنْ قالَ بلَهجةٍ تَشِفُّ عن طَيبةِ قَلبِهِ وسَلامةِ طَوِيَّتِهِ: «أشْكُرُ لَكَ صَراحَتَكَ، فأَنْتَ كَريمٌ، أَنْتَ حَميمٌ قَريبٌ إلى القُلوبِ...».

واسْتَتْلَى كأَنَّهُ يَتَعَمَّدُ التَّحدُّثَ في أَمْرٍ آخَرَ: «ومَنْ مِنَ النّاسِ تَنْتَظِرُ في هٰذِهِ السّاعةِ؟».

- «إنّي في انتِظارِ مَليحةٍ بينَ النِّساءِ!»

فشُدِهَ فرونسكي وتَساءَلَ قائِلًا: «تَسْتَقْبِلُ امرَأَةً! ومَنْ هِيَ يا تُرى؟»

فضَحِكَ أوبلنسكي حتّى بانَتْ نَواجِذُهُ، وأجابَ: «الرَّيْثَ، الرَّيْثَ، يا صَديقي، فالمَرأَةُ

الَّتي أَنْتَظِرُ هِيَ شَقيقتي أَنّا».

- «أَنّا كارنينا؟»

- «أَجَلْ... أَلَكَ بها سابِقُ مَعْرِفةٍ؟»

فقالَ فرونسكي، وهو يُحاوِلُ أَنْ يَسْتَعيدَ إِلى الذّاكرةِ أَمْرًا غامِضًا يَتَعَلَّقُ بهٰذِهِ المَرأَةِ: «قد أَعْرِفُها، لا أَذْكُرُ، قد أَعْرِفُها».

- «على أَنَّكَ تَعْرِفُ، مِنْ غيرِ شَكٍّ، زَوْجَها «أَليكسيس كارنين». ومَنْ لا يَعْرِفُ الرَّجُلَ؟ إِنَّهُ أَشْهَرُ مِن أَنْ يُعَرَّفَ».

- «أَصَبْتَ، كُلُّنا يَعْرِفُهُ، وقد سَمِعْتُ بهِ، ورَأَيْتُ وَجْهَهُ، وهْوَ ولا غَرْوَ رَجُلٌ لهُ مَكانَتُهُ الرَّفيعَةُ، كما أَنَّهُ حائِزٌ على احتِرامِ النّاسِ وتَقْديرِهِم».

- «ما دُمْنا قد خُضْنا في حَديث النّاسِ، فهل قابَلْتَ اللَّيْلَةَ البارِحَةَ صَديقي ليفينَ؟»

- «قُدِّمْنا بَعْضُنا إِلى بَعْضٍ، بَيْدَ أَنَّهُ ما أَبْطَأَ أَنْ غادَرَ الحَفْلَةَ خِلْسةً في ساعةٍ مُبَكِّرةٍ».

- «إِنَّه نِعْمَ الصَّديقُ، وهْوَ فَوْقَ ذٰلِكَ أَديبٌ أَريبٌ[1]، وإِخالُكَ تُوافِقُني على نَظْرتي إِلَيْهِ، ورَأْيي فيهِ».

- «لَمْ أُكَوِّنْ عنهُ رَأْيًا بَعْدُ، غيرَ أَنَّهُ كما تَراءى لي، يَنْأَى بجانِبِهِ عَنِ المُجْتَمَعِ، ويَزْوَرُّ عَنِ النّاسِ، ولا يَكادُ يُخالِطُهُمْ حتّى يَمَلَّهُمْ! ثُمَّ إِنَّهُ عَصَبِيُّ المِزاجِ، يَحْتَدِمُ غَضَبُه سَريعًا، ويَنْزو بهِ الانْفِعالُ، أَلَيْسَ كذٰلِكَ؟»

فتَفَرَّسَ أوبلنسكي في الشّابِّ مُتَفحِّصًا، وما لَبِثَ أَنْ قالَ: «قد يَكونُ ذٰلِكَ، وقد تَكونُ مُخطِئًا فيما ذَهَبْتَ إِليهِ مِنْ رَأْيٍ؛ وفي ذِهْني عنهُ رَأْيٌ آخَرُ، ولا أَشُكُّ قَطُّ في أَنَّهُ كانَ البارحةَ على مُفْتَرَقِ طُرُقٍ، وأَنَّ سَعادَتَهُ وشَقاءَهُ كانَ كُلٌّ مِنْهُما في كِفَّةِ ميزانٍ... لقد لَعِبَ القَدَرُ لُعْبَتَهُ، ولَسْتُ أَدري حتّى الآنَ ماذا أَصابَ ليفينَ مِنْ خَيْرِ القَدَرِ أو مِن شَرِّهِ!»

فالْتَفَتَ إِليهِ فرونسكي، وحَدَجَهُ بنَظْرةٍ حادَّةٍ مُسْتَشِفَّةٍ وقال مِنْ دونِ تَحَرُّجٍ: «أَفْصِحْ عمّا يُخامِرُكَ. أَكانَ ليفينُ مِنَ الصّابينَ إِلى بُلوغِ وَطَرِ الزَّواجِ بكاترينَ؟ وهل عَوَّلَ البارحةَ على

---

(١) أريبٌ: ماهِرٌ.

طَلَبِ يَدِها؟»

قالَ: «قد تكونُ مُصيبًا، وانْصِرافُهُ قَبْلَ سِواهُ دَليلٌ دامِغٌ على إخفاقِ مَسْعاهُ... يا لَلْمِسكينِ! إنَّهُ مُتَيَّمٌ بها مُولَعٌ بحُبِّها، ولا جَرَمَ أَنَّ خَيْبَتَهُ كانَتْ طَعْنَةً نَجْلاءَ[1] اخْتَرَقَتْ سُوَيْداءَهُ... إنّي أَرْثي لَهُ!»[2]

فقالَ فرونسكي بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «إنَّهُ أَقْدَمَ على أَعْظَمِ خَطْبٍ، فكاترينُ تَسْتَأْهِلُ زَوْجًا خَيْرًا منهُ... ولٰكِنْ ما لي أَتَسَرَّعُ في الحُكْمِ، ومَعْرِفتي بهِ سَطْحِيَّةٌ لم تَزِدْ على التَّحِيَّةِ وتَبادُلِ بِضْعِ كَلِماتٍ؟ إنَّ القِطارَ مُقْبِلٌ مِنْ بَعيدٍ، ولن يَلْبَثَ حتّى يَلِجَ المَحطَّةَ».

ومَزَّقَ الفَضاءَ في تِلكَ الفَيْنَةِ صَفيرٌ شَديدٌ، وهَدَرَتِ الآلَةُ وزَمْجَرَتْ، واهْتَزَّتِ الأَرْضُ تحتَ عَجَلاتِها، ودَلَفَ القِطارُ إلى المَحطَّةِ مُسْتَأْنِيًا مُسْتَمْهِلًا وهْوَ يَنْفُخُ دُخانَهُ كالمُتْعَبِ، وقد علا القاطِرَةَ بَعْضُ الجَليدِ، كما كَلَّلَ رَأْسَ السّائِقِ ومُعاوِنِهِ.

وجَعَلَ المُسافِرونَ يَتَرَجَّلونَ زَرافاتٍ ووِحْدانًا، وطَفِقَ فرونسكي يَتَأَمَّلُ فيهِمْ وهْوَ مُوَزَّعُ الفِكْرِ، ساهِمُ الطَّرْفِ، يُفَكِّرُ... ولا شَكَّ أَنَّ فِكْرَهُ كانَ مُنْصَبًّا في تِلْكَ اللَّحظةِ على الحَسْناءِ الفاتِنةِ الَّتي سَلَبَتْ لُبَّهُ ومَلَكَتْ قَلْبَهُ.

وأُنْسِيَ أُمَّهُ، وغابَ عن بالِهِ أَنَّها قادِمَةٌ مِن بطرسبرج، وداخَلَهُ سُرورٌ طاغٍ غامِضٌ، هُوَ نِتاجُ شُعورِهِ بنَشوةِ الظَّفَرِ دون ليفينَ بفتاةِ أَحْلامِهِ. على أَنَّ هٰذا السُّرورَ قد يكونُ مَرَدُّهُ إلى أَمْرٍ آخَرَ، إلى سِرٍّ مَكْنونٍ لم يَتَمَخَّضْ عنهُ الغَيْبُ بَعْدُ!

ونَبَّهَهُ إلى نَفْسِهِ صَوْتُ ضابِطٍ مِن ضُبّاطِ الحَرَسِ يُخاطِبُهُ قائلًا: «كَلَّفَتْني والدتُكَ أَنْ أُنَبِّهَكَ إلى وُجودِها في تلكَ المَرْكَبَةِ يا سيِّدي، فاذْهَبْ إليها مِن دونِ إبْطاءٍ».

وأَرْجَعَتْهُ كَلِماتُ الضّابطِ إلى عالَمِ الحَقيقةِ، ففَكَّرَ في أُمِّهِ، لٰكِنَّهُ لم يَشْعُرْ بالشَّوْقِ إليها، فَهْوَ في قَرارتِهِ يَحْتَرِمُها! وهْوَ من دونِ أَنْ يَعْتَرِفَ بذٰلِكَ لم يَكُنْ يَمْحَضُها الحُبَّ، مَعَ أَنَّهُ في الظّاهِرِ، وبَيْنَ المَلإِ، وأَمامَ نفسِهِ، كانَ يَحْتَرِمُها أَعْظَمَ الاحْتِرامِ، ويُلَبِّي طَلَباتِها بسُرعةٍ، ويُصْدَعُ بأَمْرِها، ويُبْرِمُ ما تُشيرُ بهِ. على أَنَّهُ كُلَّما زادَ احْتِرامُهُ لها في تَصَرُّفاتِهِ وأعمالِهِ، قَلَّ

---

(١) نَجْلاء: واسِعَة.

(٢) أَرثي له: أُشْفِقُ عليه.

احْتِرامُهُ لها وحُبُّهُ لشَخْصِها كأُمِّهِ، في أعماقِ قَلْبِهِ!

***

وأَوْمَأَ الشّابُّ للضّابطِ شاكِرًا، واتَّجَهَ نحوَ المَرْكَبَةِ، ولٰكِنَّهُ تَرَيَّثَ لَدى البابِ، حتّى يُفْسِحَ في المَجالِ لسَيِّدةٍ كانَتْ تَهُمُّ بالهُبوطِ.

وأَدْرَكَ لِلوَهْلةِ الأُولى أَنَّ هٰذِهِ السَّيِّدةَ تَنْتَمي إِلى عَليَّةِ القَوْمِ، وأَنَّها مِنَ الصَّفْوةِ المُخْتارَةِ، فالنِّعمَةُ بادِيَةٌ على مَلامِحِها مُنْطَبِعَةٌ على قَسَماتِ وَجْهِها؛ ومَلابسُها تَنِمُّ عن رَخاءٍ وتَرَفٍ وذَوْقٍ سَليمٍ.

وأَحْنى لَها رَأْسَهُ وتَمْتَمَ بكَلِمةِ أَسَفٍ، ثُمَّ رَفَعَ ساقَهُ لِيَصْعَدَ، ولٰكِنَّ حافِزًا غامِضًا أَرْغَمَهُ على الِالْتِفاتِ، لا لأنَّها كانَتْ فاتِنةً جِدًّا، ولا لأنَّها كانَتْ ذاتَ بَهاءٍ ورَواءٍ، بل لأَنَّ شيئًا فيها كانَ يَذوبُ رِقَّةً ولُيونَةً وعاطِفَةً مَشبوبَةً!

ولمّا الْتَفَتَ، الْتَفَتَتْ... ورَسَتْ عَيْناها الدَّعْجاوانِ[1] المُتَّسِعتانِ اللَّتانِ تُظَلِّلُهُما أَهْدابٌ سودٌ طَويلةٌ، على وَجْهٍ بنَظْرةٍ ناعِمَةٍ دافِئَةٍ، ثُمَّ انْثَنَتْ إِلى ناحيةٍ أُخْرى بحَركَةٍ خَفيفَةٍ كأَنَّها تَبْحَثُ عن إِنسانٍ آخَرَ.

ووَلَجَ فرونسكي المَرْكَبَةَ، فَنظَرْت إِليه أُمُّهُ وزَوَتْ ما بَيْنَ عَيْنَيْها. وعادَتْ فتَأَمَّلَتْ فيهِ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ قليلًا بشَفَتَيْها الرَّقيقتَيْنِ.

وكانَتِ الأُمُّ امرَأَةً هَزيلةً ناضِبَةً، سَوداءَ العَيْنَيْنِ، يُزَيِّنُ أُذُنَيْها قُرْطانِ لامِعانِ، ويُحَلّي إِصْبَعَها خاتَمٌ كَبيرٌ.

فلمّا دَنا مِنْها مَدَّتْ لهُ يَدًا معروقةً فلَثَمَها، ثُمَّ رَفَعَتْ رأْسَهُ وقَبَّلَتْهُ في وَجْنَتِهِ وقالَتْ: «هل وَصَلَتْكَ بَرْقِيَّتي؟ أَهانِىءٌ أَنْتَ بمَعيشَتِكَ؟ شُكْرًا للهِ!»

فجَلَس الِابْنُ في جِوارِ والدتِهِ وقالَ: «عَسى أَنْ لا تكونَ وَعْثاءُ[2] السَّفَرِ قد نالَتْ مِنْكِ كَثيرًا يا أُمّاهُ!»

ولم يَحْفِلْ رَدَّها على كَلِماتِهِ، بل أَصاخَ إِلى صَوْتِ امْرَأَةٍ انْبَعَثَ مِنَ الخارِجِ، وتَراءى لَهُ

---

(١) الدَّعْجاوان: السَّوداوانِ الواسِعتان.

(٢) وَعْثاءُ السَّفَر: مَشَقَّتُهُ.

أَنَّ هٰذا الصَّوْتَ الفَتِيَّ المُتماوِجَ هُوَ صَوْتُ الغادَةِ الفاتِنةِ الَّتي قابَلَها مُنْذُ لَحَظاتٍ على مَدْخَلِ المَرْكَبَةِ.

وكانَتْ صاحِبَةُ الصَّوْتِ تَقولُ في شَيءٍ مِنَ الحِدَّةِ: «لا أُجاريكَ في ما ذَهَبْتَ إِليهِ مِنْ رَأْيٍ، يا عَزيزي، ولا أُقِرُّكَ على هٰذا المَبْدإِ الَّذي اتَّخَذْتَهُ مَذْهبًا!»

فأَجابَها صَوْتٌ آخَرُ، صَوْتُ رَجُلٍ: «هٰذِهِ وُجْهَةُ نَظَرِ امْرِئٍ مِنْ بطرسبرج».

قالَتْ: «لا، بل وُجْهَةُ نَظَرِ كُلِّ أُنْثى!»

– «ذَريني أَلْثُمْ يَدَكِ!»

– «اِذْهَبْ مَحفوظًا يا إيفان بتروفتش، وإِنِ التَقَيْتَ أَخي في طَريقِكَ فوَجِّهْهُ إِليَّ لأَنّي في انتِظارِهِ مُنْذُ حينٍ».

ورَجَعَتِ الغادةُ ثانيةً إِلى المَرْكَبةِ، فهَشَّتِ الكونتسُ الكَهْلةُ لها وبَشَّتْ، وقالَتْ مُتسائِلةً: «أَلَم تَجِدي أَخاكِ يا عَزيزتي؟»

في تِلكَ اللَّحظَةِ أَدْرَكَ فرونسكي أَنَّ السَّيِّدَةَ الجميلةَ هِيَ «أَنّا كارنينا».

فانْبرى يَقولُ وهْوَ يَنْتَصِبُ واقِفًا: «رأَيْتُ أَخاكِ، فهْوَ هُنا... على أَنّي مَدينٌ لَكِ باعتِذارٍ، فأنا لم أَعْرِفْكِ عندَما اعْتَرَضْتُ سَبيلَكِ اتِّفاقًا، ولا شَكَّ أَنَّكِ لم تَتَذَكَّريني أيضًا». وأَحْنى هامَتَهُ باحْتِرامٍ.

فقالَتْ وثَغْرُها يُضيءُ ببَسْمةٍ فاتِنةٍ: «كانَ عليَّ أَنْ أَعْرِفَكَ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَني أنْتَ، لأَنَّنا قَضَيْنا ساعاتٍ ونحنُ نَتَحَدَّثُ عنكَ، فوالدتُكَ مُتَعَلِّقَةٌ بكَ كثيرًا! ولٰكِنْ... أَيْنَ أَخي؟ أَيْنَ هُوَ؟»

وقالَتِ الأُمُّ العَجوزُ: «عَجِّل يا أَليكس... اِذْهَبْ وابْحَثْ عنهُ، ولا تَرْجِعْ مِن دونِهِ».

وقَفَزَ فرونسكي مُتَرَجِّلًا ورَفَعَ عَقيرتَهُ[1] يُنادي: «أوبلنسكي...! هنا... هنا...».

أَمّا أَنّا كارنينا فإِنَّها لم تَنْتَظِرْ مَجيءَ أَخيها، بل غادَرَتِ المَرْكَبَةَ، ومَشَتْ ثابِتَةَ الخَطْوِ، مُرتفِعةَ الرَّأْسِ. وما كادَتْ تُبْصِرُ أَخاها قادِمًا نَحْوَها، حتّى أَسْرَعَتْ إِليهِ فلفَّتْ يَدَها اليُسرى

(١) عَقيرَتَهُ: صَوْتَهُ.

حَولَ عُنُقِهِ بحَرَكَةٍ رَشيقةٍ أَذْهَلَتْ فرونسكي وقَبَّلَتْهُ في وَجْهِهِ.

ولم يَسْتَطِعْ فرونسكي أَنْ يُحوِّلَ ناظِرَيهِ عنها، بل شَخَصَ إِلى وَجْهِها في ذُهولٍ وإِعْجابٍ، وابْتَسَمَ ابْتِسامةً عَريضةً تَطْفَحُ بالبِشْرِ والسَّعادةِ. بَيْدَ أَنَّهُ تَذَكَّرَ أُمَّهُ، فانْثَنى راجِعًا إِليها.

وقالَتِ الأُمُّ: «إِنَّها رائِعةٌ أَليسَ كذٰلِكَ؟ لقد رَجاني زَوْجُها أَنْ أُلازِمَها، وكانَتْ مُزامَلتي لها في السَّفَرِ سَعادةً، وأَنا لم أَشْعُرْ بالمَلَلِ طيلةَ المَسافةِ الَّتي قَطَعْناها».

وانْقَطَعَتْ عَنِ الكلامِ وحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ ذاتِ مَعانٍ، واستَطْرَدَتْ باللِّسانِ الفَرَنْسِيِّ: «قيلَ عنكَ إِنَّكَ ظَفِرْتَ بفتاةٍ تَنْتمي إِلى فُضْلَياتِ العائلاتِ، فإِنْ صَحَّ هٰذا، فلْيَهْنِكَ الظَّفَرُ بأُمنيةٍ طالما طَلَبْتُها لَكَ».

فقاطَعَها بصَوْتٍ أَجَشَّ: «ماذا تَقْصِدينَ بكَلامِكِ يا أُمّاهُ؟ إِنّني لا أَفْهَمُ حَرْفًا مِمّا تَقولينَ!»

وعادَتْ أَنّا كارنينا في تِلكَ اللَّحظةِ لتُوَدِّعَ الكونتس، وما كادَتْ تَصِلُ وتَجْلِسُ حتّى ابْتَدَرَتِ المَرْأَةَ قائِلَةً: «لقدِ اجْتَمَعَ الشَّمْلُ أَخيرًا، فالتَقَيْتِ ابنَكِ، والتَقَيْتُ أَخي، وذٰلكَ بعدَ أَنْ فَرَغَتْ جَعْبَتانا مِنَ الحَديثِ».

فقالَتِ العَجوزُ بلَهْجةِ الصِّدْقِ والصَّراحَةِ: «كلّا . . . كلّا . . . فأنا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْطَعَ مَعَكِ الفَيافيَ والقِفارَ، وأَجوبَ الأَمْصارَ والأَقْطارَ مِن دونِ أَنْ يَطْرَأَ على مَشاعِري مِن قُربِكِ وحَديثِكِ سَأَمٌ. . . فأَنْتِ مِنَ النِّساءِ اللَّواتي يَفيضُ مِنْهُنَّ الحُبورُ، حتّى يُصْبِحَ الصَّمْتُ في صُحْبَتِهِنَّ لَذيذًا، والكَلامُ أَلذَّ! وأُوصيكِ يا عَزيزتي أَنْ تَتَجَمَّلي بالصَّبْر فلا يُرْمِضُك بُعْدُكِ عن وَلَدِكِ، فالفِراقُ سُنَّةٌ، ولا بُدَّ لَكِ مِن أَنْ تُرَوِّضي نفسَكِ ومَشاعِرَكِ عليهِ».

ورَفَعَتْ أَنّا كارنينا رأْسَها وهْيَ لا تَزالُ تَبْتَسِمُ.

وتَحوَّلَتِ الكونتسُ إِلى ابنِها، وقالَتْ مُوَضِّحةً: «إِنَّ أَنّا كارنينا أُمٌّ، ولها طِفْلٌ في الثامنةِ لم يَسْبِقْ لها أَنْ غادَرَتْهُ وَحيدًا في بطرسبرج، ولهٰذا تَجِدُها مُنْزَعِجَةً أَشَدَّ الِانْزِعاجِ».

وقالَتْ أَنّا كارنينا وهْيَ تَرْمُقُ فرونسكي بعَيْنَينِ ضاحِكَتَيْنِ وكأَنَّها تَخُصُّهُ بابْتِسامَتِها: «أَجَلْ، كُنْتُ أَنا والكونتس نَتجاذَبُ الحَديثَ طيلةَ الوَقْتِ الَّذي أَمْضَيْناهُ مَعًا. كُنّا نَتحدَّثُ، أَنا عَنِ ابْني، وهْيَ عَنِ ابْنِها. . .» ورَنَتْ إِليهِ مُداعِبةً.

وفَطِنَ هُوَ إلى مَوْطِنِ الدَّعابةِ مِن حَديثِها ونَظْرتِها فقالَ: «وأَخْشى ما أَخْشاهُ أَنْ تَكوني قد ضَجِرْتِ مِمّا طَرَقَ سَمْعَكِ».

ويَبدو أَنَّها لم تَشأْ أَنْ تَسْتَرسِلَ في مِثْلِ هٰذا الكَلامِ، فقد الْتَفَتَتْ إلى الكونتسِ وقالَتْ: «ذَريني أَشْكُرْكِ، فأَنْتِ مُرافقةٌ كَريمةٌ، ولا يَسَعُني إِلَّا الإعْرابُ عن أَسَفي لانتِهاءِ الرِّحْلَةِ بِمِثْلِ هٰذهِ السُّرعةِ، فإلى اللّقاءِ...».

فقالَتِ الكونتسُ: «رافَقَتْكِ السَّلامةُ يا عَزيزتي؛ دَعيني أُقَبِّلْ مُحيّاكِ الحَسَنَ... إِنّني هَرِمةٌ لا أَعْرِفُ المُوارَبَةُ، بل أَلِجُ البُيوتَ مِن أَبْوابِها... ولا أُغالي إِنْ جَهَرْتُ برَأْيي في سِحْرِكِ، فلِسِحْرِكِ سُلْطانٌ عَظيمٌ، وقد ذَهَلْتُ عَنْ نَفْسي طيلةَ اجْتماعي إِليكِ، وكانَ شَغَفي بكِ كبيرًا، وكَلَفي بمَحاسِنِكِ ومَناقبِكِ أَكْبَرَ وأَشَدَّ».

واعْتَقَدَتْ أَنّا كارنينا أَنَّ المَرأَةَ تُعَبِّرُ عن خَلَجاتِها الحَقّةِ، فتَضَرَّجَ وَجْهُها حَياءً وجَذَلًا، ثُمَّ انْحَنَتْ قَليلًا وأَدْنَتْ خَدَّها مِن فَمِ الكونتس، فقَبَّلتَهْا هٰذِهِ برِفْقٍ.

ثُمَّ انْتَصَبَتْ فمَدَّتْ يَدَها إلى فرونسكي، فلَثَمَها الفَتى، وشَعَرَ بالغِبْطَةِ، وداهَمَتْهُ فَرحةٌ.

وما عَتَّمَتْ أَنْ غادَرَتْ مَرْكبةَ القِطارِ بحَيَويّةٍ وقُوّةٍ فكانَتْ في مِشْيَتِها كأَنَّها لا تَكادُ تَطأُ الأَرْضَ تيهًا وزَهْوًا!

وجَمْجَمَتِ الأُمُّ بصَوْتٍ مَهْموسٍ: «رائعةٌ! إِنّها رائعةٌ!»

وكانَ هٰذا ما راوَدَ فِكْرَ ابْنِها أيضًا... وقد تَتَبَّعَ الحَسْناءَ بنَظَرِهِ، حتّى رآها تُقْبِلُ على شَقيقِها فتَضَعُ يَدَها في يَدِهِ، وتَنْهَمِكُ مَعَهُ في حَديثٍ خَطيرٍ، حَديثٍ لا يَتَعَلَّقُ بِهِ هُوَ، بل بشَخْصٍ آخَرَ، أو بشَيْءٍ آخَرَ. وشَعَرَ الشّابُّ بالقَلَقِ البالغِ. لِمَ لا تَتَحَدَّثُ عنهُ؟ يَجِبُ أَنْ تَتَحَدَّثَ عنهُ.

واسْتَدارَ إلى أُمِّهِ وابْتَدَرَها قائلًا: «كُلُّ شيءٍ على ما يُرامُ كما أَرى يا أُمّاهُ».

قالَتْ: «كُلُّ شَيءٍ، وأَنّا كَيّسةٌ ظَريفةٌ، والجَميعُ في خَيرٍ».

وعَلِقَتْ تُحَدِّثُهُ عَمّا يَعْنيها مِن أُمورِ دُنْياها، عن حَفيدِها الَّذي جَعَلَها تَمْكُثُ كُلّ هٰذا الزّمانِ في بطرسبرج، وعَنِ اللّفتةِ الكَريمةِ الّتي تَلَطَّفَ بها القَيْصَرُ على أَكْبَرِ أَبْنائِها.

ثُمَّ نَهَضَ الشّابُّ فتَأَبَّطَ ذِراعَ أُمِّه وقالَ: «هَلُميّ يا أُمّاهُ، لقد خَفَّتِ الزَّحمةُ وانْفَضَّ الجَمْعُ».

وحَمَلَتِ الخادِمَةُ حَقيبةً صَغيرةً، وحَمَلَ الخادِمُ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ بَقِيَّةَ الأَمْتِعةِ.

ولٰكِنَّهما ما ابْتَعَدا قَليلاً حتّى شاهَدا عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ يُهَرْوِلونَ في ذُعْرٍ واضطِرابٍ. وكانَ مِنْ جُملَتِهِمْ ناظِرُ المَحَطَّةِ الَّذي نَطَقَ وَجْهُهُ بالهَلَعِ الشَّديدِ.

ولا شَكَّ أَنَّ أَمْرًا غيرَ عادِيٍّ قد وَقَعَ. وبَدَأَتِ الجُموعُ الَّتي غادَرَتِ القِطارَ تَرْجِعُ أَدْراجَها.

وتَعالى اللَّغَطُ، وسُمِعَتْ هٰذِهِ الكَلِماتُ تَتَلَقَّفُها الآذانُ، وتَتَساءَلُ بها الأَلْسُنُ: «ماذا؟... ماذا؟... أَيْنَ؟... كَيفَ؟... لقد لاقى حَتْفَهُ، ماتَ!...».

ورَجَعَ ستيفانُ أوبلنسكي وشَقيقَتُهُ فيمَنْ رَجَعَ مِنَ النّاسِ، وقد بانَ الخَوْفُ على مَلامِحِهِما.

ولاذَتِ السَّيِّدتانِ بالمَركبةِ، بَيْنما لَحِقَ فرونسكي وستيفانُ بالجَمْعِ لاسْتِجلاءِ حَقيقةِ الأَمْرِ.

ولم يَلْبَثا أَنْ عَلِمَا أَنَّ حارِسًا أَعْماهُ السُّكْرُ، أو شَدَهَهُ البَرْدُ القارِسُ، فلم يَشْعُرْ باقتِرابِ القِطارِ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُ ويُمَزِّقَ جَسَدَهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ.

وقَبْلَ أَنْ يَرجِعَ الرَّجُلانِ اطَّلَعَتِ السَّيِّدتانِ على تَفاصيلِ الحادثةِ.

وكانَ الشّابّانِ قد شاهَدا الجُثَّةَ المُمَزَّقةَ، فلمّا انْضَمّا إلى السَّيِّدَتَيْنِ قالَ أوبلنسكي وهُوَ يَكادُ يَنْشِجُ بالبُكاءِ: «أُوّاهِ يا أَنّا! يا لَهُ مِن مَنْظَرٍ مُرْعِبٍ! إنَّهُ حادِثٌ مُريعٌ!»

أَمّا فرونسكي فقد لاذَ بالصَّمْتِ. وكانَ وَجْهُهُ الجَميلُ مُقَطِّبًا بَعْضَ الشَّيْءِ، إلّا أَنَّ الهُدوءَ لم يُفارِقْهُ لَحظةً.

وتابَعَ أوبلنسكي يَقولُ: «ويا لَمَنْظَرِ زَوْجَتِهِ وهْيَ تَنْحَطُّ على الأَشْلاءِ! لقد كانَتْ تُعْوِلُ، وما أَرْهَبَ صَوْتَها وهْيَ تَنْدُبُ زَوْجَها! ويُقالُ إنَّ عائلَتَهُ كَبيرةٌ... كَبيرةٌ...».

فانْبَرَتْ أَنّا كارنينا تَقولُ بصَوْتٍ يَخْتَلِجُ تَأَثُّرًا: «أَلا يَسْتَطيعُ المَرْءُ أَنْ يُسْدِيَ، خِدمةً ما لهٰذِهِ العائِلَةِ المَرْزوءَةِ؟»

ورَماها فرونسكي بنَظْرةٍ خاطفةٍ، ثُمَّ غادَرَ العَرَبةَ وهُوَ يَقولُ: «لن أَلْبَثَ أَنْ أَقْفِلَ راجعًا يا أُمّاه!»

فلمّا عادَ يَميسُ بقَوامِهِ البَديعِ، كانَ ستيفانُ أوبلنسكي قد نَسِيَ المأساةَ، وطَفِقَ يُجاذِبُ أُخْتَهُ أَنّا حَديثًا طَلِيًّا، ويَصِفُ لها المُتْعَةَ الَّتي يُلاقيها المَرْءُ في مَلاهي موسكو ومَسارِحِها وأَنْدِيتِها. ثُمَّ عَكَفَ يُشيدُ بمَهارةِ مُطْربةٍ حَديثةٍ ما بَرِحَ أَهْلُ موسكو يَنْتَظِرونَها مُنذُ حينٍ.

وقَطَعَ الرَّجُلُ حَديثَهُ بَعْد قَليلٍ، وتَحَرَّكَ القَوْمُ، ثُمَّ ساروا مُبْتَعِدينَ. وقد مَشى فرونسكي مَعَ أُمِّهِ في المُقَدِّمةِ، ووَراءَهُما مَشَتْ أَنّا كارنينا وشَقيقُها.

وما كادوا يَقْتَرِبونَ مِنَ البابِ الضَّخْمِ حتّى أَدْرَكَهُمْ ناظِرُ المَحَطَّةِ، وخاطَبَ فرونسكي قائلًا: «لقد مَنَحْتَ مُساعدي مِئَتي روبلٍ، فهلّا قُلْتَ لمَصلحةِ مَنْ هٰذا المالُ؟»

فهَزَّ فرونسكي مَنْكِبَيْهِ وأَجابَ: «للأَرْمَلةِ... وما حاجَتُك إِلى السُّؤالِ؟ لمن أَعْطَيْتُ المالَ؟ أَما تَعْرِفُ؟»

ونَظَرَ حَوْلَهُ، واسْتَطْرَد: «لم أَظُنَّ قَطُّ أَنَّهُمْ عَديمو الفَهْمِ والإدْراكِ!»

وهَتَفَ أوبلنسكي مُتَعَجِّبًا: «هل تَبَرَّعْتَ بهٰذا المَبْلَغِ؟»

وضَغَطَ على يدِ شَقيقتِهِ وأَضافَ: «جَميلٌ مِنْكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا... أَنْتَ رائعٌ...». ومَضى فرونسكي وأُمُّهُ في سَبيلِهِما. وتَرَيَّثَ أوبلنسكي وشَقيقتُهُ رَيثما تَلْحَقُ بهِما الخادمةُ.

وكانَ القادِمونَ والرَّائِحونَ لا يَزالونَ يَتَحَدَّثونَ عَنِ الكارثةِ الَّتي دَهَمَتِ الحارسَ.

وقد قالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ على مَسْمَعٍ مِنَ الآخَرينَ: «ما أَبْشَعَها مِنْ ميتةٍ! يَقولونَ إِنَّ القِطارَ شَطَرَهُ شَطْرَيْنِ».

فرَدَّ عَلَيْهِ آخَرُ: «بل إِنَّها، على ما أَظُنُّ، أَسْهَلُ ميتةٍ، فقد لَفَظَ أَنْفاسَهُ في لَمْحةٍ خاطِفةٍ».

وقالَ ثالثٌ مُتَسائِلًا: «وكيفَ لا يَتَّخِذونَ ما يَلْزَمُ مِنَ الاحتِياطاتِ؟»

ووَقَفَتْ عَرَبةٌ، واسَتَقَلَّتْها أَنّا كارنينا. ولمّا هَمَّ شَقيقُها ستيفانُ بالصُّعودِ إِلى جانِبِها تَعَجَّبَ ممّا رآهُ مُنْطَبِعًا على أَساريرِها، وأَفْزَعَتْهُ دَمْعةٌ تَرَقْرَقَتْ في مَآقيها، فسَأَلَها مُتَوَجِّسًا: «ماذا دَهاكِ؟ ماذا أَلَمَّ بِكِ يا أَنّا؟»

- «لا شَيْءَ البَتَّةَ؛ إِلَّا أَنّي تَشاءَمْتُ ممّا حَدَثَ!»

- «تَشاؤُمُكِ لا يُعَوَّلُ عليهِ... لقد وَصَلْتِ سالمةً، وهٰذا بَيْتُ القَصيدِ[1]. ولن تَحْدُسي الحَقيقةَ لو حاوَلْتِ الاطِّلاعَ على مِقدارِ ما أُعَلِّقُهُ على وُجودِكِ مِنْ آمالٍ جِسامٍ».

قالَتْ: «وهل تَعْرِفُ فرونسكي مُنذُ زَمَنٍ بعيدٍ؟»

- «أَجَلْ، ونَأْمُلُ أَنْ يَبْنِيَ في القَريبِ العاجِلِ على كاترينَ».

- «أَحَقًّا تَقولُ؟ هَلُمَّ حَدِّثْني عَنْكَ، عَن أُمورِكَ، عَن مَشاكِلِكِ... هاكَ رِسالتَكَ، وقد أَسْرَعْتُ بالمَجيءِ عَقِبَ اطّلاعي على مُحْتَوَياتِها... فما الخَطْبُ؟ ماذا جَرى بَيْنَك وبينَ زَوجِكَ؟»

وطَفِقَ ستيفانُ أوبلنسكي يَسْرُدُ على مَسامِعِ شَقِيقتِهِ ما جَرى لهُ مِن دونِ أَنْ يُخْفِيَ شيئًا. وكانَ يَتَكَلَّمُ بصرَاحةٍ وطَلاقةٍ وكأَنَّ الحَديثَ لا يَهُمُّهُ وكأَنَّهُ لا يَعْنيهِ!

ووَصَلا أَخيرًا، فتَرَجَّلَ مِنَ العَرَبةِ وأَعانَ أُخْتَهُ على الهُبوطِ، وما عَتَّمَ أَنْ ضَغَطَ على يَدِها مُتَوَدِّدًا ومَضى في سَبيلِهِ إِلى مِكانِ عَمَلِهِ.

---

(١) هذا بيتُ القَصيد: هذِه هي الغايَةُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - ظهرتْ في هذا الفصلِ شَخصيَّةٌ جديدةٌ، فهل تَرى أَنَّه سيكونُ لها دورٌ رئيسٌ في الرّواية؟

٣ - ماذا بدا لكَ من ملامحِ هذه الشّخصيَّةِ الجديدةِ؟

٤ - لِمَ قدِمَتْ أَنّا كارنينا إلى موسكو؟

٥ - ما المشهد الدّامي الَّذي رأَتْهُ أَنّا كارنينا في مَحطَّةِ القِطارِ؟

٦ - ما الَّذي جمعَ بين أَنّا كارنينا والضّابطِ فرونسكي في اللّقاء الأوّل؟

٧ - هل حَدَسْتَ أَمرًا ما في اللّقاءِ الَّذي جَمَعَ الاثنَيْنِ في محطّة القِطارِ؟ ما هو؟ وإلامَ استنَدَ حَدْسُك؟

٨ - أَوْجزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ؟

الفصل العاشر

عِنْدَما دَخَلَتْ أَنّا، كانَتْ داريا الزَّوْجةُ المَهيضةُ الجَناحِ المَكسورةُ الخاطِرِ، تَجْلِسُ في غُرفةِ الاسْتِقْبالِ الصّغيرةِ قَريبًا مِنْ طِفْلِها الَّذي كانَ صورةً صادقةً لأَبيهِ. وكانَتْ تُلَقِّنُهُ دَرْسًا في الفَرَنْسِيّةِ وتُحاوِلُ جاهِدةً أَنْ تَصْرِفَهُ عَنِ العَبَثِ بزِرٍّ واهٍ في سُتْرَتِهِ.

ولمّا عيلَ صَبْرُها قَطَعَتِ الزِّرَّ ووَضَعَتْهُ في جَيْبِها وهْيَ تَقولُ للغُلامِ مُحْتَدِمةً: «اِنْتَبِهْ... انْتَبِهْ... لا تَعْبَثْ بيَدِكَ».

وكانَتِ الأَحْزانُ قد سَحَقَتْها، ومَعَ ذٰلِكَ فإِنَّهُ لم يَغْرُبْ عن بالِها أَنَّ أَنّا كارنينا قادِمةٌ، وأَنَّها زَوْجةُ رَجُلٍ مَرْموقٍ تَحتَرِمُهُ بطرسبرجِ بأَسْرِها... ثُمَّ، ما ذَنْبُ أَنّا حتّى تَهْجُرَ الدّارَ في الوَقْتِ الَّذي تُلِمُّ هِيَ بها زائرةً؟ ما جَريرتُها وقد اقْتَرَفَ أَخوها، أي زَوْجُ داريا، تِلكَ الحَماقةَ الكُبْرى؟

وأَنْشَأَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها وتَقولُ: «إِنَّها خَيْرُ امْرَأَةٍ، ولا أَعْرِفُ عنها إِلّا كُلّ حَسَنٍ مِنَ الأَخْبارِ، ولم أَلْقَ مِنْها سِوى اللُّطْفِ والرِّقَّةِ والعَطْفِ السّابغِ».

لا شَكَّ أَنَّها لن تَرْتاحَ في أَثْناءِ إِقامتِها مَعَ أَنّا كارنينا في موسكو إِلى الوَتيرةِ الَّتي كانَتْ حَياةُ الزَّوْجينِ تَسيرُ عليها، فالتَّكَلُّفُ كانَ الظّاهِرَةَ البارِزَةَ الَّتي سادَتْ ذٰلِكَ البَيْتَ، بَيْدَ أَنَّ هٰذا لا يَعْنيها في كَثيرٍ أو قَليلٍ، ولا يُسَوِّغُ فِرارَها مِنْ وَجْهِها... وطَفِقَتْ تُناجي نَفْسَها: «سأَسْتَقْبِلُها أَحْسَنَ اسْتِقْبالٍ، وأَتَمَنَّى على اللهِ أَنْ لا تَسْعى إِلى تَسْرِيةِ هَمِّي. فكُلُّ عِباراتِ العَزاءِ وكُلُّ كَلِماتِ الإِقْناعِ، ممّا يَدْخُلُ في مَعاني الصَّفْحِ، والغُفْرانِ، والهَدْيِ المَسيحِيِّ، لَنْ تَشْفَعَ لهُ. لَقد فَكَّرْتُ في كُلِّ شَيْءٍ ولن يُجْدِيَ هٰذا، لن يُجْدِيَ!»

وسَمِعَتْ خَفْقَ نِعالٍ لدى البابِ، فالْتَفَتَتْ مُسْتَطْلِعةً، وعَبَّرَتْ تَقاطيعُها الذّابلةُ عن حُبورٍ مُباغِتٍ... وعَجَّلَتْ بالنُّهوضِ مِن مَكانِها وهُرِعَتْ إِلى شَقيقةِ زَوْجِها فاحْتَضَنَتْها وعانَقَتْها.

وتَبادَلَتِ المَرْأتانِ كَلِماتِ الشَّوْقِ، وعَبَّرَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا عن سُرورِها بلُقيا الأُخْرى بدَمْعةٍ تَدَحْرَجَتْ على خَدِّ كُلٍّ مِنْهُما.

واسْتَدَعَتِ الأُمُّ أَطْفالَها، فقَبَّلَتْهُمْ أَنّا ثَمُّ صَرَفَتْهُمْ. ولمّا انْفَرَدَتِ المَرْأَتانِ كُلٌّ مِنْهُما بالأُخْرى قالَتْ أَنّا: «داريا، لقد أَطْلَعَني أَخي على كُلِّ شَيْءٍ».

فنَظَرَتْ إليها داريا ببُرودٍ وتَرَقُّبٍ، وانْتَظَرَتْ أَنْ تَنْهالَ عَلَيها أَنّا بعِباراتِ التّعزِيةِ، إِلّا أَنَّ الزّائرةَ اكْتَفَتْ بأَنْ قَالَتْ: «عَزيزتي داريا، لا أَرْغَبُ في تخفيفِ الخَطْبِ بإثارةِ شَفَقَتِكِ عليهِ وعلى أَوْلادِكِ، فهٰذا مُسْتَحيلٌ. والّذي أَرْغَبُ في بَثِّهِ لَكِ، هُوَ أَنّي في غايةِ الأَسى، وأَنَّ حُزْني عَميقٌ يَمَسُّ حَبَّةَ الشَّغافِ».

ولَمَعَتِ الدُّموعُ مِن وَراءِ أَهْدابِها السُّودِ الكَثيفةِ، واقْتَرَبَتْ مِن زَوْجِ شَقيقِها وتَناوَلَتْ يَدَها...

ولم تَنْكَمِشْ داريا أو تَتَرَدَّدْ، إِلّا أَنَّ وَجْهَها لم يَفْقِدْ تِلْكَ النَّظْرَةَ الجامِدَةَ القاسِيَةَ. وما لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ: «إِنَّ مُؤاساتي على ما جَرى أَمْرٌ عَسيرٌ دونَهُ خَرْطُ القَتادِ، فقد ضاعَ كُلُّ شَيْءٍ، وخَبا الأَمَلُ، وغَبَّتِ[1] السّعادةُ!»

ورَقَّتْ تَقاطيعُها بَغْتةً، ورَفَعَتْ أَنّا يَدَ المَرْأَةِ الوالِهة إلى فَمِها فلَثَمَتْها وهْيَ تُتَمْتِمُ: «فما العَمَلُ إذًا، ما العَمَلُ؟ وكيفَ يَتَصَرَّفُ الإِنْسانُ في هٰذا المَوْقِفِ العَصيبِ؟ فَكِّري يا عَزيزتي، واشْحَذي بَصيرتَكِ».

قالَتْ: «لقدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ، وليسَ هُناكَ ما يَرْبَأُ الصَّدْعَ. وثالِثَةُ الأَثافيّ هِيَ أَنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُقصِيَهُ بسَبَبِ الأَطْفالِ، ومَعَ ذٰلِكَ فليسَ في وُسْعي العَيْشُ مَعَهُ تحتَ سَقْفٍ واحِدٍ، فهٰذا ضَرْبٌ مِنَ المُحالِ، ولن يُسَبِّبَ لي سِوى الأَلَمِ والعَذابِ ممّا يَهونُ إزاءَهُ كُلُّ مُصابٍ».

- «ولٰكِنَّهُ، كما أَيْقَنْتُ ممّا رَأَيْتُ، في مَقامِ مُجاذَبَةٍ بينَ الأَسى والنَّدَمِ».

- «وهَل هُوَ مِنْ أُولٰئِكَ الّذينَ يَسْتَشْعِرونَ الشَّجَنَ؟ هل يَنْدَمُ؟ هل يُبَكِّتُهُ الضَّميرُ؟»

- «أَجَل، إِنّي أَعْرِفُهُ. كِلْتانا تَعْرِفُهُ. إِنَّهُ طَيِّبُ القَلْبِ وإِنْ كانَ مُتَشامِخًا... إِلّا أَنَّ

---

(١) غَبَّتِ السَّعادَةُ: صارَتْ إلى نِهايَتِها.

تَشامُخَهُ انْقَلَبَ الآنَ إلى مَذَلّةٍ... وهٰذا ما أَثَّرَ فيَّ كَثيرًا... (وهنا حَدَسَتْ أَنّا ماذا يؤثِّرُ كَثيرًا في داريا). إِنَّهُ يتَعَذَّبُ لأَمْرَيْنِ- للأَوْلادِ، ولأنَّهُ، وهْوَ المُحِبُّ- أَجَلْ، المُحِبُّ الَّذي يَفْتَديكِ بروحِهِ، قد آلَمَكِ وطَعَنَكِ في الصَّميمِ، في مُهْجَتِكِ! ولا يَفْتَأُ المِسْكينُ يُرَدِّدُ: «كلّا، كلّا... إنَّها لن تَصْفَحَ، لن تَصْفَحَ..».

وأَلْقَتْ داريا نَظْرةً حالِمةً على شَقيقةِ زَوْجِها، وما أَبْطَأَتْ أَنْ قالَتْ: «إنَّ مَوْقِفَهُ فَظيعٌ، وهْوَ ولا غَرْوَ يَتَأَلَّمُ أَكْثَرَ مِنّي لأَنَّهُ مُذْنِبٌ. ولٰكِنْ، كيفَ يَتَسَنّى ليَ العَفْوُ؟ كيفَ أُصْبِحُ زَوْجَتَهُ مَرّةً أُخْرى بَعْدَها، بَعْدَ تِلْكَ المَرْأَةِ المَقبوحةِ؟!»

وخَنَقَتْها العَبَراتُ فكَفَّتْ عَنِ الكَلامِ، واحْتَوَتْها أَنّا بذِراعَيْها وهَدْهَدَتْ صَدْرَها وقالَتْ:

«كُنْتِ لَهُ دائمًا شَيْئًا مُقَدَّسًا، ولا زِلْتِ ذٰلِكَ الشَّيءَ المُقَدَّسَ، أَمّا قَريفتُهُ[1] الأَخيرَةُ فلم تَكُنْ خِيانةً ارتَكَبَها القَلْبُ...».

- «ولو أَعادَ الكَرّةَ؟»

- «لن يَعودَ إِلى ما ارْتَكَبَ ثانيةً، لن يَفْعَلَ ما فَعَلَهُ، ثِقي بما أَقولُ».

- «ولٰكِنْ، لو تَعَرَّضْتِ أَنْتِ لمِثْلِ ما تَعَرَّضْتُ أنا لَهُ، فهل كُنْتِ تَصْفَحينَ؟»

- «لا أَدْري... بل أَدْري، فأَنا أَعْفو».

ولا شَكَّ في أَنَّها قالَتْ ذٰلِكَ بحافزٍ مِن شُعورٍ باطِنيٍّ غامِضٍ، شُعورٍ غامضٍ بَدَأَ القَدَرُ يَتَمَخَّضُ عَنهُ مُذْ وَطِئَتْ قَدَماها أَرْضَ موسكو.

واسْتَتْلَتْ: «أَجَلْ، أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْفُوَ، أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْفُوَ، وأَسْتَطِيعُ أَنْ أُزاوِلَ حَياتي كأَنَّ شيئًا لم يَحْدُثْ قَطُّ».

وقالَتْ داريا: «أَجَلْ، أَجَلْ. إذا صَفَحَ الإنسانُ وَجَبَ عَليهِ أَنْ يَنْسى الإِساءةَ برُمَّتِها. هَلُمّي الآنَ إلى غُرْفَتِكِ». وقَبَّلَتْها ومَضَتْ تَقولُ: «لَشَدَّ ما أنا مُغْتَبِطَةٌ بمَجيئِكِ يا عَزيزتي أَنّا، فقدُومُكِ سَهَّلَ الأُمورَ، وهَوَّنَ وَقْعَ الكارثةِ على قَلبي وإِحْساسي، فشُكْرًا لَكِ!»

❊ ❊ ❊

---

(١) قَريفَتُهُ: الذَّنْبُ الَّذي اقْتَرَفَهُ.

اسْتَطْلَعَتْ أَنّا كارنينا طَلْعَ زَوجةِ أَخيها، وخَبِرَتْ حَقيقتَها، وكانَتْ أَنّا امْرَأَةً ماهِرَةً حَنَّكَها الدَّهْرُ قبلَ الأَوانِ، وعَلَّمَها مِنَ الدُّروسِ والعِبَرِ ما لم يُعَلِّمْهُ سِواها مِنَ النِّساءِ. فلمّا تَناهى إليها أَنَّ أَخاها أَطاعَ الهَوى وأَفْرَطَ في الخِيانةِ، بادَرَتْ إلى إعادَةِ المياهِ إلى مَجاريها بينَ الزَّوْجِ وزَوْجتِهِ في ساعةٍ واحدةٍ.

وقَدِ انْفَثَأَ[1] كَرْبُ زَوْجِ أَخيها، وانْسَرى هَمُّها، فسَرَتِ الابْتِسامَةُ الوادِعَةُ مَسْراها العادِيَّ في أَساريرِ وَجْهِها. واطْمَأَنَّتْ أَنّا لما فعَلَتْهُ، واهْتَزَّ قَلْبُها طَرَبًا لما أَدَّتْهُ لأَخيها، وقَضَتِ النَّهارَ بطُولِهِ مَعَ داريا والأَوْلادِ، ولم تَشَأْ أَنْ تُقابِلَ أَيَّ زائرٍ مُشتاقٍ جاءَ لمُقابَلتِها والتَّرحيبِ بقُدومِها.

وما وافى المَساءُ حتّى كَتَبَتْ لأَخيها رُقْعةً صَغيرةً، تَطْلُبُ إليهِ فيها أَلَّا يَتَأَخَّرَ في المَجيءِ، وتَقولُ: «لقد نَجَحَ المَسْعى والحَمدُ للهِ... عُجْ عَلينا حتّى نَتَناوَلَ طَعامَ العَشاءِ مَعًا».

وهٰذا ما جرى فقد جاءَ أوبلنسكي خَفيفًا مُبْتَهِجًا، وهْوَ لا يُصَدِّقُ ما قَرَأَهُ في رُقْعةِ شَقيقتِهِ. ولٰكِنَّهُ أَيْقَنَ مِن صِحَّتِها ساعَةَ رَأَى الهُدوءَ مُخيِّمًا على المَنْزِلِ، والسَّلامَ يُرَفْرِفُ بأَجْنحَتِهِ على مَنْ فيهِ جَميعًا.

وأَكَلَ الثّلاثةُ طَعامَهُمْ مَعًا، وتَجاذَبوا أَلْوانًا مُسْتَمْلَحَةً مِنَ الحديثِ، وتَبادَلَ أوبلنسكي وزَوجُهُ الابْتِسَامَ لأَوَّلِ مرّةٍ مُنذُ أيّامٍ، وإِنْ كانَ ابْتِسامُهُما لا يَنِمُّ عن راحَةِ الفِكْرِ وهُدوءِ البالِ؛ لٰكِنَّ فِكرةَ الانْفِصالِ استُبْعِدَتْ تمامًا. وهٰكَذا نَجَحَتْ أَنّا كارنينا في مَسْعاها، وأَبْقَتْ على البَيْتِ الَّذي كانَ يَتَداعى للسُّقوطِ والانهِيارِ.

وجاءَتْ كاترينُ بَعْدَ العَشاءِ مُباشَرَةً بداعي شَوْقِها لشَقيقَتِها، ولٰكِنَّها ما جاءَتْ في الحقيقةِ إِلَّا لِرُؤيةِ أَنّا كارنينا لما سَمِعَتْهُ عن جَمالِها وفِتْنَتِها، ولِما قيلَ عن ذَكائِها ولَباقَتِها.

ولم يَغِبْ عن كاترينَ التَّأْثيرُ الحَسَنُ الَّذي خَلَّفَتْهُ زِيارتُها في قَلْبِ الضَّيفَةِ الحَسْناءِ، فقد قَرَأَتْ في عَيْنَيْها عِباراتِ الإِعْجابِ والإِطْراءِ، كما أَنَّها -أَي كاترينَ- لم تُنْكِرْ أَنَّ أَنّا كارنينا آيةٌ بَيِّنَةٌ مِنْ إِبداعِ اللهِ في تَكْوينِهِ، وأَنَّها تَفوقُ بحُسْنِها ما سَمِعَتْهُ مِن أَقْوالِ النّاسِ.

---

(١) انْفَثَأَ الكَرْبُ: سَكَنَ وانْطَفَأَ.

وكانَتْ أَنّا كارنينا قد أَلانَتِ القَوْلَ لِكاترينَ، فبَدَتْ لها نَسيجَ وَحْدِها في دَماثتِها الّتي تُناقِضُ رِياءَ النِّساءِ، وفي رَوْنَقِ أُسْلوبِها، ثُمَّ في رَوائِها الَّذي أَظْهَرَها بمَظْهَرِ ابنَةِ العِشرينَ، لا بمَظْهَرِ امرَأَةٍ لها وَلَدٌ في الثّامِنَةِ!

وأَيْقَنَتْ كاترينُ ممّا رَأَتْهُ ولَحَظَتْهُ أَنَّ المَرْأَةَ السّاحِرَةَ هٰذِهِ صَريحةٌ صَراحةً مُتَناهيَةً لا تُخفي شَيْئًا، ولا تُبْطِنُ أَمْرًا وتُبينُ سِواهُ. غَيرَ أَنَّها تَعيشُ في دُنْيا خاصَّةٍ بِها، دُنْيا لا تُشْرِكُ فيها أَحَدًا، ولا تَسْتَقْبِلُ في رِحابِها إِنْسانًا آخَرَ. واعْتَرَفَتْ كاترينُ بعَجْزِها عَن سَبْرِ غَوْرِ هٰذِهِ النّفْسِ الصَّريحةِ كُلَّ الصَّراحَةِ، الغامضةِ كُلَّ الغُموضِ.

ولم تَرَ كاترينُ مِنَ الفِطْنَةِ أَنْ تُمْعِنَ في التَّأَمُّلِ والتَّفَكُّرِ، حتّى لا تَنْشُرَ ما تُضْمِرُهُ، وتُبْدِيَ ما تَحرِصُ على كِتْمانِهِ، خَشْيَةَ أَنْ تُكَوِّنَ أَنّا عنها فِكْرَةً سَيِّئَةً!

وذَهَبَتْ داريا إِلى حُجْرتِها بَعْدَ العَشاءِ، فنَهَضَتْ أَنّا إِلى أَخيها الَّذي كانَ يُشْعِلُ سيجارَهُ، وقالَتْ وهْيَ تُشيرُ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ إِلى مَخْدَعِ زَوْجِهِ: «اِذْهَبْ، أَسْرِعْ... ولْيَكُنِ اللهُ مَعَكَ».

فقَبِلَ ما قالَتْهُ، وأَلْقى بسيجارِهِ، ثُمَّ دَلَفَ مِنَ البابِ في طَريقِهِ إِلى مَخْدَعِ زوجِهِ.

وعادَتْ أَنّا إِلى الأَريكةِ الَّتي كانَتْ تَجْلِسُ عليها، فأَحاطَ بها الأَطفالُ، وكانوا قد تَعَلَّقُوا بها وأَحَبُّوها. ولا غَرابَةَ في ذٰلِكَ، فحُبُّ الطِّفْلِ مِنْ حُبِّ أُمِّهِ، وفَوْقَ ذٰلِكَ، كانَتْ أَنّا قَريبةً إِلى قُلوبِ الصِّغارِ لما تُضْفيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ لُطْفِها ورِقَّتِها وأُنْسِها، ولِما تُقابِلُهُمْ بهِ مِنْ صَبْرٍ وطولِ أَناةٍ. وخاطَبَتْ كاترينَ بَعْدَ قَليلٍ: «ومتى تُقيمونَ حَفْلَتَكُمُ الثّانيةَ يا عَزيزتي؟»

– «في الأُسْبوعِ المُقْبِلِ، وسَتَكونُ حَفْلَةً رائِعَةً مِنْ تِلْكَ الحَفَلاتِ الرّاقِصَةِ الَّتي يَجِدُ فيها المَرْءُ مُتْعَتَهُ».

فأَجابَتْها أَنّا بشَيءٍ كَثيرٍ مِنَ التَّهَكُّمِ: «وهَل هُناكَ حَفَلاتٌ لا يَجِدُ المَرْءُ فيها دائمًا ما يَرْغَبُ فيهِ مِن مُتْعَةٍ؟»

– «أَجَلْ، وهٰذا أَمْرٌ عَجيبٌ، فثَمَّةَ حَفَلاتٌ يَنْشَرِحُ لَها صَدْرُكِ في كُلِّ حينٍ، وثَمَّةَ حَفَلاتٌ أُخرى في بُيوتٍ مُعَيَّنَةٍ تَشْعُرينَ فيها بالضَّجَرِ والسَّأَمِ... أَفَلَمْ تُلاحظي هٰذِهِ الظّاهرةَ؟»

– «لا يا عَزيزتي، فبالنِّسبةِ إِلَيَّ الآنَ لَيسَ ثَمَّةَ حَفْلَةٌ يَسْتَطيعُ الإِنْسانُ أَنْ يَلْقى فيها ما

يُنْسيهِ كآبَةَ الحياةِ!»

ورَأَتْ كاترينُ في عَيْنَيْها تِلكَ الدُّنْيا الغامِضةَ المُغْلَقَةَ في وَجْهِها.

واسْتَتْلَتْ أَنّا: «بالنِّسبةِ إِليَّ هُناكَ حَفْلةٌ مُضْجِرَةٌ وأُخرى أَقَلُّ ضَجَرًا!»

- «وماذا يَجْعَلُكِ تَشْعُرينَ بالسَّأَمِ؟»

- «ولِمَ لا أَشْعُرُ بهِ؟»

وأَدْرَكَتْ أَنّا بغَريزَتِها ما ستَقولُهُ كاترينُ. وقد أَصابَتْ في تكهُّنِها، إِذْ إِنَّ كاترينَ راحَتْ تَقولُ: «لأَنَّكِ دائمًا تَتَجَلَّيْنَ في ثَوْبٍ باهٍ مِنَ الحُسْنِ لا تُضاهيكِ في جَمالِهِ غادةٌ أُخْرى!»

وكانَتْ أَنّا ماهِرةً في التَّمْثيلِ، قادِرةً على صَبْغِ مُحَيّاها مَتى شاءَتْ بخِضابِ الخَجَلِ... وقد تَضَرَّجَ وَجْهُها ساعةَ طَرَقَتْ سَمْعَها كَلِماتُ كاترينَ، وأَجابَتْ وهْيَ تُغْضي قَليلًا: «كَلامُكِ فيهِ غُلُوٌّ تُمليهِ المُجاملةُ يا عَزيزتي، ولوِ افْتَرَضْنا أَنَّ في ما تَقولينَهُ الصِّدْقَ والصَّوابَ، فما تَأْثيرُ هٰذِهِ الحَقيقةِ؟»

- «وهل تَأْتينَ إِلى الحَفْلةِ؟»

- «يَبْدو لي أَنْ لا مَنْدوحةَ لي عَنِ المَجيءِ».

- «يَطيبُ لي مَجيئُكِ، وأَصْدُقُكِ أَنّي أَتَشَوَّفُ الأَبْصارَ إِلى مُشاهدتِكِ تَرْفُلينَ في ثَوْبِ سَهْرةٍ بَنَفْسَجِيٍّ».

- «ولِمَ ذٰلِكَ؟ لِمَ تَطْلُبينَ الثَّوْبَ البَنَفْسَجِيَّ؟ إِنّي أَدْري لماذا تُلِحّينَ عَليَّ في المَجيءِ، فأَنْتِ تَتَوَقَّعينَ الكَثيرَ، وتَوَدّينَ مِن صَميمِ قَلبِكِ أَنْ يَأْتِيَ الجَميعُ لمُشارَكَتِكِ في إِنْجاحِ الحَفْلَةِ».

- «وكَيفَ حَدَسْتِ ذٰلِكَ؟ أَنْتِ على حَقٍّ!»

- «لَشَدَّ ما أَغْبِطُكِ على هٰذِهِ الفَتْرةِ الهَنيئةِ مِن حَياتِكِ يا عَزيزتي، وإِنّي لأَذْكُرُ ذٰلِكَ الوَهيجَ[1] الأَزْرَقَ الشَّبيهَ بالضَّبابِ الَّذي يُرَفْرِفُ على جَوِّ سويسرا، ذٰلِكَ الضَّبابِ الَّذي يَشْمُلُ كُلَّ شَيءٍ في ذٰلِكَ الطَّوْرِ السَّعيدِ، عِندَما تَكونُ الطُّفولةُ في مَرْحَلتِها الأَخيرةِ، ومِن خِلالِ

---

(١) الوَهيج: التَّوَقُّد.

تِلْكَ الحَلْقةِ المَرِحةِ المُنْشَرِحةِ، يَبْرُزُ دَرْبٌ يَضِيقُ شَيْئًا فشَيْئًا، وما أَلَذَّ السّاعَةَ الَّتي تَدْخُلينَ فيها قاعةَ الحَفْلَةِ المُتالِّقَةَ بالأَنْوارِ، المُزْدانَةَ بالغيدِ! فمَنْ؟ مَنْ لم يَمُرَّ في هٰذا الدَّرْبِ؟ مَنْ؟»

وابْتَسَمَتْ كاترينُ، وحَدَّدَتْ في أَنّا طَرْفًا مُتأَمِّلًا، وجَعَلَتْ تَسْتَعيدُ حَوادِثَ الماضي القَريبِ وتُفَكِّرُ وتَتأَمَّلُ: «فكيفَ؟ كيفَ بَلَتْ أَنّا ما وَصَفَتْ؟ ما أَشَدَّ شَوْقي إِلى الِاطِّلاعِ على قِصَّةِ حَياتِها، على غَرامِها!»

ورَأَتْ أَمامَها «أَليكسيس كارنين» زوجُ أَنّا، بوَجْهِهِ المُتَجَهِّمِ الدَّميمِ، وذَهِلَتْ قَليلًا عن نَفْسِها والوَجْهُ المُقَطَّبُ مائِلٌ لناظِرَيْهَا... فهل رَسا مَرْكَبُ أَحْلامِها على هٰذا الشّاطِئِ؟ هلِ انْتَهَتْ حَياتُها الرُّوحيّةُ باصْطِدامِها بِهٰذا الإِنْسانِ المادِّيِّ؟

وما عَتَّمَتْ أَنّا أَنْ قالَتْ وهْيَ تُومِضُ بعَيْنَيْها: «لقد أَنْهى إِليَّ ستيفانُ ما كانَ مِنْ أَمْرِ فرونسكي، ولا يَسَعُني إِلّا تَهْنِئَتُكِ، فإِنّي قابَلْتُ الشّابَّ في المَحَطَّةِ».

فتَضَرَّجَ مُحَيّا كاترينَ وقالَتْ مُتَسائلةً: «وماذا أَخْبَرَكِ ستيفانُ، ماذا قالَ؟»

– «كُلَّ شيءٍ، ومِنْ دَواعي سُروري يا عَزيزتي أَنْ تَمْتَزِجي وتَنْدَمجي بهٰذا الفَتى... لقد قَضَيْتُ ساعاتٍ طَويلةً مَعَ أُمِّه، وهْيَ امْرَأَةٌ لا يَروقُ لها إِلّا التَّحَدُّثُ عنِ ابْنِها. إِنَّها تُحِبُّهُ ولا تُطيقُ فِراقَهُ».

– «وهل قالَتْ لَكِ شَيْئًا؟»

– «أَشْياءَ كَثيرةً، وكُلُّها مَديحٌ وإِطْراءٌ. وعلى سَبيلِ المِثالِ، قالَتْ إِنَّه عَرَضَ على أَخيهِ ثَرْوَتَهُ كُلَّها، وأَنْقَذَ امْرَأَةً مِنَ الغَرَقِ وهْوَ حَدَثٌ. واثِقَةٌ أَنا مِنْ أَنَّهُ بَطَلٌ!»

وما قَالَتْ أَنّا هٰذِهِ الكَلِماتِ إِلّا عِنْدَما تَذَكَّرَتْ تَبَرُّعَهُ بمِئَتَيْ روبلٍ، حينَ سَقَطَ الحارِسُ صَريعًا تَحْتَ عَجَلاتِ القِطارِ. غَيرَ أَنَّها لم تَأْتِ على ذِكْرِ التَّبَرُّعِ؛ ولسَبَبٍ ما كانَتْ تَشْعُرُ بالانفِعالِ كُلَّما فَكَّرَتْ في هٰذِهِ اللَّفتةِ الَّتي بَدَرَتْ منهُ، وتَراءى لها أَنَّ لها عَلاقةً، أو بالأَحْرى سيَكونُ لها عَلاقةٌ بالمَوْضوعِ كُلِّهِ. ولٰكِنَّها شَعَرَتْ أَنَّ هٰذا الأَمْرَ يَجِبُ أَلّا يَكونَ.

والْتَفَتَتْ إِلى كاترينَ فَجْأَةً وقالَتْ: «أَحْمَدُ اللهَ؛ إِنَّ ستيفانَ أَطالَ المَكْثَ في مَخْدَعِ داريا».

ونَهَضَتْ مِن مَكانِها وجَعَلَتْ تُداعِبُ الأَطْفَالَ وتُلاعِبُهُمْ وصاحَ أَحَدُهُمْ: «أُرِيدُ أَنْ أُقَبِّلَكِ

قَبْلَ الآخَرينَ...». وهَتَفَ آخَرُ: «بل أنا الأَوَّلُ!»

وصاحَتْ هِيَ والبِشْرُ يَرْسُمُ على مُحَيّاها الوَسيمِ لَوْنًا رائِعًا: «قَبِّلوني كُلُّكُمْ، كُلُّكُمْ، في آنٍ واحِدٍ!»

وانْدَفَعَتْ نَحْوَهُمْ فعانَقَتْهُمْ، وحَمَلَتْهُمْ وَجَعَلَتْ تَدورُ بهِمْ في مَرَحٍ وحُبورٍ وَسَطَ الغُرفةِ، وقد عَلَتْ ضَوْضاؤُهُمْ، وارْتَفَعَتْ أَصْواتُهُمْ، ومَلأَ المَكانَ صَخَبُهُمْ.

* * *

خَرَجَتْ داريا مِن غُرفتِها لتَتَناوَلَ الشّايَ مَعَ الكِبارِ. ولم يَصْحَبْها ستيفانُ، ولَعَلَّهُ غادَرَ مَخْدَعَ زَوْجِهِ مِنَ البابِ الآخَرِ!

وما كادَتْ تَجْلِسُ مَعَ أَنّا وكاترينَ حتّى قالَتْ مُوَجِّهةً حَديثَها إِلى الأُولى: «أَخافُ أَنْ يُؤْذِيَكِ البَرْدُ في الغُرفةِ العُليا، ولهٰذا أَرى أَنْ تَنْتَقلي إِلى الطَّبَقةِ الأَرضِيَّةِ».

فأَجابَتْها أَنّا وهْيَ تَحْدِجُها بنَظْرةٍ مُتَفَرِّسَةٍ مُتَفَحِّصَةٍ: «أَرْجو أَلّا تَقْلَقي مِن أَجْلِي».

- «بل يَجِبُ أَنْ تَسْتَبْدِلي غُرْفَتَكِ».

- «ثِقي أَنّي أَجِدُ الرّاحَةَ والمُتْعَةَ في أَيِّ مَكانٍ أَنامُ فيهِ، يا عَزيزتي».

ووَصَلَ ستيفانُ في تِلكَ الأَثْناءِ، فقال مُتَسائِلًا: «ماذا جَرى؟ وعمّا تَتَكلَّمانِ؟»

وأَدْرَكَتْ أَنّا مِن لَهْجتِهِ أَنَّ المياهَ عادَتْ إِلى مَجاريها بينَ الزَّوْجَيْنِ.

وقالَتْ زَوْجُهُ رَدًّا على سُؤالِهِ: «أُرِيدُ أَنْ أَنْقُلَ أَمْتِعَةَ أَنّا إِلى الطَّبَقَةِ الأَرْضِيَّةِ، لٰكِنْ لَيسَ ثَمَّةَ مَنْ يُرَتِّبُ أُمورَ النَّوافِذِ غَيري!»

وهَجَسَتْ أَنّا في ما بينَها وبينَ نَفْسِها، وجَعَلَتْ تَقولُ: «اللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ إِنْ كانَ القَلبانِ قد خَلَصا مِنَ الضَّغائِنِ؛ اللهُ يَعْلَمُ إِنْ كانا قد تَصالحا وتَصافَيا!»

وقالَ ستيفانُ، وهْوَ يَنْظُرُ إِلى زَوْجِهِ، ثُمَّ يُنَقِّلُ طَرْفَهُ بَيْنَ السَّيِّدَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ: «هٰذا هُراءٌ! إِنَّ داريا تَسْتَنْبِطُ الصِّعابَ دائِمًا. على أَنّي طَوْعَ أَمْرِكِ فافْعَلي ما تَشائينَ!»

وأَتَمَّتْ أَنّا مُناجاتَها والابتِسامةُ تُداعِبُ شَفَتَيْها: «أَجَلْ... أَجَلْ. لَقدِ اتَّفَقا وتَوافَقا، والصُّلْحُ كامِلٌ، كامِلٌ... شُكْرًا للهِ!»

وظَلَّتْ داريا، طِيلةَ ساعاتِ المَساءِ، تُوَجِّهُ إِلى زَوْجِها الحَديثَ باللَّهْجةِ السّاحِرَةِ الَّتي دَرَجَتْ مُنْذُ زَمَنٍ على مُخاطَبَتِهِ بها.

أَمّا هُوَ- الزَّوْجُ المُذْنِبُ الَّذي صَفَحَتْ عنهُ امْرَأَتُهُ- فقد طَغَى عليهِ السُّرورُ، ثُمَّ نَسِيَ بَعْدَ قَليلٍ أَنَّهُ خانَ زَوْجَهُ فاسْتَحَقَّ العِقابَ، نَسِيَ كُلَّ شيءٍ، ورَجَعَ- كما كانَ- ستيفانَ أوبلنسكي الَّذي لا تُفارِقُ الابتِسامةُ فَمَهُ.

وطُرِقَ البابُ ودَقَّتِ السّاعةُ مُعْلِنةً انْتِصافَ التّاسِعَةِ.

وفُتِحَ البابُ، وبَدا للجَميعِ وَجْهُ فرونسكي، فشَعَرَتْ أَنّا بمَزيجٍ مُتَناقِضٍ مِنَ السُّرورِ والفَزَعِ، أَمّا كاترينُ فقد شَعَرَتْ بالسَّعادةِ، وخُيِّلَ إِليها أَنَّ الشّابَّ مَرَّ عليها في بَيْتِها، فلمّا لم يَجِدْها جاءَ وَراءَها وانْتَحَلَ هٰذا العُذْرَ. فقد قالَ لِستيفانَ: «في أَيِّ ساعةٍ تُقيمُ المَأْدُبَةَ للضَّيْفِ العَظيمِ الَّذي تَنْتَظِرُ مجيئَهُ غَدًا؟» واكْتَفَى فلم يَدْخُلْ. وتَخَضَّبَ وَجْهُ كاترينَ فأَطْرَقَتْ برَأْسِها خَجَلًا وحَياءً!

وأَبى فرونسكي أَنْ يَدْخُلَ، ورَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتى. وتَبادَلَ الجَميعُ نَظَراتِ التَّعَجُّبِ والتَّساؤُلِ، ولم تَلْبَثْ عُيونُهُمْ أَنْ تَحَوَّلَتْ إِلى مَجْمَعٍ للرُّسومِ كانَتْ أَنّا قد بَدَأَتْ تَتَأَمَّلُ فيهِ.

فهل هُناكَ ما يُثيرُ الرِّيَبَ في زيارةٍ يَقومُ بها شابٌّ في مِثْلِ هٰذا الهَزيعِ[1]؟ ثُمَّ لماذا لم يَدْخُلْ؟ لماذا تَرَدَّدَ ثُمَّ أَحْجَمَ؟ لا، لَيْسَ هُناكَ ما يُثيرُ الرِّيَبَ والشُّكوكَ، إِلّا أَنَّ الأَمْرَ بَدا مُذْهِلًا لَهُمْ جَميعًا. ما سَبَبُ إِحْجامِهِ؟ لماذا اكْتَفى بالسُّؤالِ؟ أَلَمْ يَكُنْ في استِطاعتِهِ إِرْجاءُ سُؤالِهِ إِلى الغَدِ؟

أَمّا أَنّا فقد عَدَّتْ عَمَلَهُ نَزَقًا وطَيْشًا، وللشَّبابِ طَفْرَتُهُ ونَزْوتُهُ ورُعونَتُهُ! فهل عَدَّتْ أَنّا عَمَلَهُ نَزَقًا وطَيْشًا في قَرارَةِ نَفْسِها؟ أَم... أَم ماذا؟

❊ ❊ ❊

أَنْفَقَتْ كاترينُ كَثيرًا مِن وَقْتِها وهْيَ تَتَزَيَّنُ وتَتَأَنَّقُ وتَسْتَعِدُّ للحَفْلةِ السّاهرَةِ الَّتي سَيَتَقَرَّرُ فيها مُسْتَقْبَلُها، فيُذاعُ في أَثْنائِها خَبَرُ خِطْبَتِها لِلْكونتِ الشّابِّ فرونسكي، أو على الأَقَلِّ يُبَتُّ في هذا الأَمْرِ نِهائيًّا، وتُؤَجَّلُ التَّفاصيلُ إِلى تاريخٍ آخَرَ.

---

[1] الهَزيع: بَعْضٌ مِنَ اللَّيلِ.

وأَخَذَتْ تَتَأَمَّلُ في المِرآةِ، وتَنْظُرُ إلى خَلْقِها القَويمِ، وحُسْنِها الخالِصِ، ولَفْتَتِها المُدِلَّةِ، حتّى إذا ما رَضِيَتْ عن نَفْسِها، وقَنِعَتْ بقُوّةِ سِحْرِها، خَرَجَتْ مِن حُجْرَتِها تَميسُ دَلالًا، وتَخْطِرُ عُجْبًا، وتَتَهادى في خَفَرٍ مَقْرونٍ بغُنْجٍ. ودَلَفَتْ إلى الرَّدهةِ الفَسيحةِ الّتي أُقيمَتْ فيها السَّهرةُ، وكانَتِ الموسيقى تَصْدَحُ بأَنْغامِها، فيَتَرَدَّدُ صَداها العَذْبُ في أَرجاءِ المَنْزِلِ الَّذي سادَ أَهْلِيهِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ شُعورٌ بالتَّفاؤُلِ والبِشْرِ، مَبْعَثُهُ اليَقينُ مِنْ أَنَّ كاترينَ مُقْبِلَةٌ على زَواجٍ، وأَنَّ الخِطْبَ[1] المَوْعودَ رَجُلٌ ذو بَسْطةٍ وجاهٍ.

وأَخَذَ طَرْفَها السّاجيَ وَجْهُ أَنّا كارنينا الجَميلُ، فأَذْهَلَها ما رَأَتْهُ مِن سِحْرِها. لقد بَدَتِ الغادَةُ في أَبْهى حُلّةٍ وأَبْدَعِ زينةٍ، حتّى إنَّها كادَتْ تَكْذِبُ عَيْنَيْها وهْيَ تَتَساءَلُ: أَهٰذِهِ حقًّا أَنّا كارنينا، أَمِ امْرَأَةٌ أُخرى سِواها؟»

لقد طَلَبَتْ إليها أَنْ تَتَلَفَّعَ بثَوبٍ بَنَفْسَجِيٍّ يَنِمُّ عَنِ الوَرْدِ، ولٰكِنَّها شُدِهَتْ ممّا رَأَتْهُ مِنِ انْسِجامِ اللَّوْنِ الأَسْوَدِ مَعَ المَرأَةِ الفاتِنةِ... وَيْ! أَبَعْدَ هٰذِهِ الرَّوعةِ رَوْعةٌ؟ أَهُناك في موسكو وبطرسبرج مَنْ يُضاهيها؟ كلّا... كلّا...

وأَدْرَكَتْ بُطْلَ رَأْيِها في أَنَّ الرِّداءَ هُوَ عِمادُ المَرْأَةِ ومُقَوِّمُ جَمالِها، فالمَرْأَةُ الجَميلةُ جَميلةٌ مَهْما لَبِسَتْ ومَهْما ارْتَدَتْ، ولن يَزيدَها اللِّباسُ الحَسَنُ إلّا أَناقَةً... وها هِيَ ذي أَنّا تَبْدو في ثَوْبِها الأَسْوَدِ أَشَدَّ فِتْنَةً مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ أُخْرى اتَّخَذَتْ مِنَ الأَلْوانِ الزّاهِيَةِ عَوْنًا لَها على دَمامَةٍ أو نَقْصٍ أو سِحْنَةٍ شاحِبَةٍ ناحِلَةٍ دَميمَةٍ!

وما كانَ ثَوْبُ أَنّا في الحَقيقةِ إلّا إطارًا أَسْوَدَ يُعانِقُ المِثالَ البَديعَ، فلا يُكْسِبُ المِثالَ، كما أَنَّ القَمَرَ لا يَكْسِبُ مِنَ الهالةِ!

كانَتْ أَنّا كارنينا ساعَتَذاكَ تَتَوَسَّطُ فَريقًا مِنَ المَدْعُوِّينَ والمَدْعُوّاتِ، وكانَتْ في أَناقتِها المُبَسَّطَةِ أَرْوَعَ مِنْ كُلِّ امرَأَةٍ سِواها في أَناقتِها المُعَقَّدةِ! كانَ ثَوْبُها الأَسْوَدُ البَسيطُ يَبُذُّ في اسْتِرْسالِهِ اللَّيِّنِ الهَيِّنِ اللَّطيفِ أَيَّ ثَوْبٍ آخَرَ يَتَعَرَّجُ، ويَتَماوَجُ، ويَرْتَفِعُ، ويَنْتَفِخُ، وتَعْلوهُ طَبَقاتٌ مِن قُماشٍ لامِعٍ ومُلَّونٍ ومُرَقَّشٍ.

ودَنَتْ كاترينُ مِنها، فتَناهى إليها حَديثٌ مُتبادَلٌ بينَها وبينَ مُعَلِّمِ الرَّقْصِ «كورسونسكي».

---

(١) الخِطْبُ: الخاطِبُ.

فوَقَفَتْ، ثُمَّ تَحَرَّكَتْ، فابْتَدَرَتْها أَنّا بابتِسامةٍ رَقيقةٍ وادِعةٍ، ثُمَّ صَعَّدَتْ في قامَتِها عَيْنًا فاحِصَةً، ولم تَلْبَثْ أَنْ هَزَّتْ رَأْسَها، وكأَنَّها تَقولُ: «أُهنِّئُكِ على ذَوْقِكِ وأَغْبِطُكِ. . .».

وفَهِمَتْ كاترينُ ما قالَتْهُ عَيْنا أَنّا، فتَضَرَّجَ وَجْهُها وقالَتْ وهْيَ تَدْنو مِنْها: «لِيَهْنِكَ قَدُّكِ وانْسِجامُكِ، فأَنْتِ تَخْطِرينَ في المَكانِ وكأَنَّكِ تَرْقُصينَ رِقْصةَ الفَنِّ الخالِدَةِ!»

وانبَرى مُعَلِّمُ الرَّقْصِ يَقول مُتَحَمِّسًا: «وأَصْدُقُكِ يا سَيِّدَتي أَنَّها خَيرُ مَنْ تَعَلَّمَ الرَّقْصَ على يَدي! فهَلُمّي يا أَنّا، هَلُمّي نَرْقُصْ، فالموسيقى تَعْزِفُ لنا أَعْذَبَ لَحْنٍ سَمِعَتْهُ أُذُنايَ!»

فقالَتْ أَنّا: «أَعْتَذِرُ إليكَ، فالرَّقْصُ لا يَروقُ لي دائِمًا».

قالَ: «غيرَ أَنَّنا اللَّيلَةَ في حَفلةِ مَرَحٍ ورَقْصٍ ومُتْعةٍ، فكيفَ يُطاوِعُكِ قَلْبُكِ على التَّمَنُّعِ والاعْتِذارِ؟»

وبَدا فرونسكي قادِمًا نَحْوَها، فانْثَنَتْ إلى مُعَلِّمِها بسُرعَةٍ وقالَتْ: «أَصَبْتَ. . . أَصَبْتَ. . . فهيّا نَرْقُصْ».

ودارَتْ مَعَ كورسونسكي خَفيفَةً بارِعَةً، وابْتَعَدَتْ عن فرونسكي الَّذي أَلْقى عليها التَّحِيَّةَ، فلم تَحْفِلْها ولم تَرُدَّ عليها، وكأَنَّها ما وَعَتْها!

* * *

لم يَفُتْ كاترينَ تَجاهُلُ أَنّا لِوُجودِ فرونسكي وانْصِرافُها عن تَحيَّتِهِ، وكأَنَّها تُعَنِّفُهُ لِشَيْءٍ أو تَتَهَرَّبُ منهُ لسَبَبٍ. وتَساءَلَتْ والدَّهَشُ مُستَوْلٍ عليها: «عَجَبًا لَها! لِمَ أَغْضَتْ عنهُ فلم تَرُدَّ تَحِيَّتَهُ بِمِثْلِها؟»

وقَطَعَ عليها حَبْلَ تَفكيرِها صَوْتُ فرونسكي وهْوَ يَصِفُ لَها أَسَفَهُ لَعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الإلمامِ بَيْتِها زائِرًا في الأَيّامِ القَليلةِ الماضِيَةِ.

وأَصاخَتْ كاترينُ السَّمْعَ إلى ما كانَ يَقولُ، ولٰكِنَّها لم تَنْقَطِعْ طيلةَ الوَقْتِ عن تَتَبُّعِ حَرَكَةِ أَنّا الماهِرةِ وهْيَ تَدورُ في حَلْبةِ الرَّقْصِ خَفيفَةً رَشيقَةً واثِقَةً.

وطالَ انْتِظارُها، وأَخَذَتْ تَتَمَلْمَلُ أَلَمًا وقُنُوطًا- فلِماذا لا يَدْعوها الشّابُّ إلى الرَّقْصِ؟ أَلا يَعْرِفُ الرَّقْصَ أَم هُوَ راغِبٌ عنها نافِرٌ مِنْها؟

وبَيْنما هِيَ مُوغِلةٌ في فِكْرٍ حَزينٍ كَسيفٍ، فَطِنَ فرونسكي إلى قُصورِهِ وإِهمالِهِ فسارَعَ يَقولُ

مُتَنَدِّمًا: «تَبًّا لي! كيفَ نَسِيتُ في غَمْرةِ الحَديثِ أَنْ أَطْلُبَ إِليكِ مُشارَكتي الرَّقْصَ؟»

ثُمَّ إِنَّهُ أَحاطَها بذِراعِهِ واخْتَلَطَ بالرَّاقِصينَ.

ورَنَتْ إِلَيْهِ كاترينُ بعَيْنَيْنِ مُتَلَهِّفَتَيْنِ تَشِيانِ بما يَعْتَمِلُ في صَدْرِها مِن آياتِ الحُبِّ.

وقد أَثْقَلَتْ عليها هٰذِهِ النَّظْرةُ في ما بَعْدُ، وكانَتْ كُلَّما تَذَكَّرَتْها، يَطْغى عليها شُعورٌ بالخَجَلِ والحَياءِ، لأنَّها كانَتْ نِداءً هَتَفَتْ بهِ عَيْناها، فلم يَجِدْ لَهُ في صَدْرِ الفَتى وقَلْبِهِ صَدًى ولا جَوابًا.

أَجَلْ... ظَلَّتْ سِنينَ عَديدةً وهْيَ تَذوبُ خَجَلًا كُلَّما تَذَكَّرَتْ تِلْكَ النَّظرَةَ الَّتي لم تَتَجاوَبْ أَصْداؤها إِلَّا في قَلْبِها الفَتِيِّ النّابِضِ بالحُبِّ والحياةِ!

* * *

ورَقَصَتْ كاترينُ مِرارًا مَعَ فرونسكي، فنَقَعَتْ غَليلَها مِنْ قُرْبِهِ، ورَوَّتْ ظَمَأَها مِنْ حَديثِهِ، فقد تَناجيَا وتَبادَلا الكَلامَ. ولٰكِنَّهُ عِندما سَأَلها عن ليفينَ ارْتَبَكَتْ ولم تَعْرِفْ ماذا تَقُولُ. ونَظَرَ فرونسكي إليها فرَأَى وَجْهَها الجَميلَ يَتَخَضَّبُ بلَوْنِ الاِضْطِرابِ... غيرَ أَنَّهُ كانَ اضْطِرابًا مِنْ نَوعٍ آخَرَ، كانَ اضْطِرابَ فَتاةٍ تَنْتَظِرُ مُفاجأَةً، وتَتَوَقَّعُ أَنْ يُفاتِحَها الحَبيبُ بحُبِّهِ، ويَبُثَّها لوَاعِجَ قَلْبِهِ.

بَيْدَ أَنَّ فرونسكي تَجَنَّبَ حَديثَ الحُبِّ والغَرامِ، فلم يَمُضَّها هٰذا التَّجاهُلُ، بل أَيْقَنَتْ أَنَّهُ لن يُبْطِئَ أَنْ يَقولَ لَها ما في قَلْبِهِ ساعةَ يَحينُ ميعادُ الرَّقْصَةِ الَّتي يَتَلَهَّفُ إِليها الجَميعُ، رَقصةِ المازوركا العَظيمةِ... إِنَّهُ، ولا شَكَّ، سَيَغْتَنِمُ فُرصةَ احتِضانِهِ لَها في تِلْكَ الرَّقْصَةِ ليُطارِحَها غَرامَهُ، ويُفَاتِحَها بما يَطْمَعُ فيهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ يَدَها... أَجَلْ يَطْلُبُ يَدَها.

وسَها عن بالِ فرونسكي أَنْ يُذَكِّرَها بأَنَّ رَقْصةَ المازوركا المُنْتَظَرَةَ هِيَ لَهُ مِن دونِ سِواهُ، إِلَّا أَنَّها لم تَقْلَقْ، فهْيَ واثقةٌ كُلَّ الوُثوقِ مِن أَنَّهُ لن يُراقِصَ غيرَها متى أَزِفَتِ السَّاعةُ... وعلى ذٰلِكَ، فقد رَدَّتْ خَمْسَةَ رِجالٍ طَلَبُوا إِلَيْها مُراقَصَتَهُمْ، بكَلِمةٍ واحدةٍ: «المَعْذِرةَ... لقد سَبَقَكُمْ غيرُكُمْ!»

كانَتِ الحَفلةُ بالنِّسبةِ إلى كاترينَ رُؤْيا ساحِرةً مِنَ الأَلوانِ الزّاهِيَةِ والموسيقى الحالمةِ، والضَّوْضاءِ والحَرَكَةِ. ولم تَكُنْ لِتَجْلِسَ دَقيقةً واحدةً. ومَعَ أَنَّ التَّعَبَ أَخَذَ مِنْها مَأْخَذَهُ،

كانَتْ تَرْقُصُ وتَرْقُصُ.

واتَّفَقَ، بَيْنَما كانَتْ تُراقِصُ شابًّا مُمِلًّا، وتَدورُ مَعَهُ في الحَلْبَةِ، أَنِ اقْتَرَبَتْ مِنْ أَنّا، وكانَتِ الأَخيرةُ تُراقِصُ فرونسكي، فشَدَهَها ما رَأَتْ. ماذا رَأَتْ؟ رَأَتْ أَنّا مُضْطَرِمَةَ الخَدَّينِ، بَرّاقةَ العَيْنَيْنِ. رَأَتْ فيها أَماراتِ الظَّفَرِ، وعَلاماتِ النَّصْرِ. رَأَتْ فيها ما أَكَّدَ لَها أَنَّ أَنّا ثَمِلةٌ مُنْتَشِيةٌ بخَمْرةِ سَعادتِها، وكانَتْ كاترينُ تَخْبُرُ هٰذا الشُّعورَ العَجيبَ، شُعورَ النَّصْرِ، ورَأَتْ أَيضًا ذٰلِكَ الضَّوْءَ الخَفّاقَ الَّذي يَنْبَثِقُ مُتَأَجِّجًا مِن ناظِرَيْها، والاِبْتِسامةَ الَّتي تَنِمُّ عن حُبورٍ وانْفِعالٍ.

– «مَنْ؟...» تساءَلَتْ كاترينُ.

– «كلّا، لَيْسَ تَهافُتُ القَوْمِ عَلَيها، هُوَ الَّذي أَسْكَرَها وأَفْعَمَ قَلْبَها بَهْجَةً. كلّا، بَلْ إِنَّهُ حُبُّها لامرِئٍ واحِدٍ فحَسْبُ، لامْرِئٍ واحِدٍ. وهٰذا الواحِدُ... هل يُمْكِنُ ذٰلِكَ؟ هل يُمْكِنُ؟» مَضَتْ تُناجي نَفْسَها وهْيَ مُنْشَغِلَةٌ عن رَفيقِها.

إِنَّهُ يُلازِمُها كَظِلِّها، وها هُوَ يُكَلِّمُها بصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، بل لَعَلَّهُ يُناغيها... وها هِيَ تَبْتَسِمُ لَه كُلَّما هَمَسَ في أُذُنِها...

وتَراءَى لكاترينَ أَنَّ أَنّا تَبْذُلُ وُسْعَها لِكَي تُخْفيَ هٰذِهِ العَلاماتِ ولٰكِنَّ المَشاعِرَ كانَتْ أَقْوى مِنَ الإرادةِ، فَطَفَرَتْ إِلى وَجْهِها.

ونَظَرَتْ إِلى فرونسكي... وفَكَّرَتْ: «وهْوَ؟...» وما رَأَتْهُ مُرْتَسِمًا في مِرآةِ وَجْهِ أَنّا، رَأَتْهُ مُنْعَكِسًا على قَسَماتِهِ وأَمائِرِهِ.

فماذا أَصابَهُ؟ ماذا أَصابَ شَخْصِيَّتَهُ، حتّى بَدا خاضِعًا مُتَطامِنًا؟ إِنَّه يَكادُ يَخِرُّ على الأَرْضِ ساجِدًا كُلَّما رَنا إِلى وَجْهِها... وإِنَّ عَيْنَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ خَبَتْ وَقْدَتُهما، وغَدَتا تَنْظُرانِ إِلى أَنّا في استِجداءٍ وابتِهالٍ وخَوْفٍ!

كانا يَتَهامَسانِ وكأَنَّهُما يَتَناجَيانِ... وشَعَرَتْ كاترينُ والأَلَمُ يَحِزُّ في صَدْرِها أَنَّ كُلَّ كَلِمةٍ يَقولانِها كانَتْ تُقَرِّرُ مَصيرَهُما ومَصيرَها هِيَ أَيضًا!

والغَريبُ في الأَمْرِ أَنَّهُما لم يَتَحَدَّثا إِلّا عَن أُمورٍ تافِهةٍ. بَيْدَ أَنَّ هٰذِه الأُمورَ الَّتي خاضا في حَديثِها كانَتْ تَجْذُبُهما جَذْبًا إِلى ذٰلِكَ الاتِّجاهِ الفِكْرِيِّ الَّذي أَوْغَلَتْ فيهِ كاترينُ، إِلى

الِاعْتِقادِ عن يَقينٍ بأَنَّ كُلَّ كَلِمةٍ مَهْما كانَتْ تافِهةً ستُقَرِّرُ مَصيرَهُما... هٰذا ما كانَ يَشْعُرُ بهِ كُلٌّ مِنْهُما، وهٰذا ما تَمَخَّضَتْ عنهُ مَشاعِرُ كاترينَ.

وذابَ كُلُّ شَيْءٍ، الحَفْلَةُ، بلِ الدُّنْيا بأَسْرِها ذابَتْ في غَمامةٍ قاتِمةٍ في أَعماقِ كاترينَ. ولٰكِنَّ الفتاةَ الأَبِيَّةَ احْتَفَظَتْ بجَلَدِها واصْطِبارِها بفَضْلِ نَشْأَتِها الصّارِمَةِ القَويمَةِ في بَيْتِ أَبَوَيْها، واسْتَطاعَتْ أَنْ تقومَ بالواجبِ المَفْروضِ عليها، مِنَ الرَّقْصِ، والرَّدِّ على الأَسْئِلَةِ، والِابْتِسامِ، والدُّعابةِ!

ولٰكِنَّ نَوْعًا مِنَ الفَزَعِ أَلْهَبَ فُؤادَها قُبَيْلَ الشُّروعِ في رَقْصَةِ المازوركا... لقد رَدَّتْ خَمْسةَ شُبّانٍ، وها هِيَ تَقِفُ وَحيدَةً حائِرَةً. فهل تَلوذُ بفِراشِها؟ هل تَزْعُمُ أَنَّها مَريضةٌ؟ وأَخيرًا لَجَأَتْ إِلى رُكْنٍ مُنْفَرِدٍ، فَتَهالَكَتْ على كُرْسِيٍّ هُناكَ وهْيَ تَلْهَثُ مِنَ النَّصَبِ والوَصَبِ[1]، وتَتَمَنّى لو تَخَرَّمَها الرَّدى[2] حتّى تَنْجُوَ مِنْ هٰذا العَذابِ!

فَيَا لَقَلْبِها البِكْرِ! ويا لِإِحْساسِها المُرْهَفِ!

ويا لَلطَّعنةِ النَّجْلاءِ! يا لَلطَّعنةِ النَّجْلاءِ الَّتي سَدَّدها فارِسُ أَحْلامِها إِلى مُهْجَتِها!

وخُيِّلَ إِليها وهْيَ تَتَداعى مِنَ القُنوطِ أَنَّ مِطْرقةً هائلةً جَعَلَتْ تَرْتَفِعُ إِلى أَعلى، لتَهْبِطَ بكُلِّ قُوّةٍ على فُؤادِها، وإِنَّها تُوشِكُ أَنْ تَتَحَطَّمَ وهْيَ لمّا تَزَلْ في عُنفوانِ العُمْرِ وغَضارةِ الصِّبا.

على أَنَّ للنَّفْسِ دَوْمًا مَنْفَذًا مِنَ اليَأْسِ، وقد ناجَتِ المُتَأَلِّمَةُ نَفْسَها، فعَلِقَتْ تَقولُ: «أَمُصيبةٌ أَنا في ظَنّي، أَمْ إِنَّ تَسَرُّعي صَوَّرَ لي الأُمورَ على غيرِ حَقيقتِها؟ قد أَكونُ مُخطِئةً، وقد يَكونُ بَيْنَهُما ما بينَ صَديقَيْنِ عادِيَّيْنِ مِنَ الأُمورِ التّافهةِ اليَسيرةِ».

ولٰكِنَّها راحَتْ بَعْدَ دَقائِقَ تَسْتَعْرِضُ في مُخَيِّلَتِها ما وَقَعَ عليهِ طَرْفُها، فأَيْقَنَتْ والغُصَّةُ تُرمِضُها[3] أَنَّ عَلاقَةَ فرونسكي بأَنّا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ صَداقةٍ بَريئةٍ، بل إِنَّها عَلاقةٌ تَطَوَّرَتْ بسُرعةِ البَرْقِ، فأَضْحَتْ عاطِفَةً مُتَبادَلَةً تَجيشُ بأَمَلٍ، وتَعْتَمِلُ برَجاءٍ، وتَتَمَخَّضُ عن أَشْياءَ وأَشْياءَ!

---

(١) النَّصَبُ والوَصَبُ: التَّعَبُ والوَجَعُ.
(٢) تَخَرَّمَها الرَّدى: اسْتَأْصَلَها المَوْتُ وأَهْلَكَها.
(٣) تُرْمِضُها: تُحْرِقُها، توجِعُها.

وبينا هِيَ في هٰذِهِ النَّجوى الكَئيبةِ إِذْ طَرَقَ سَمْعَها صَوْتُ امْرَأَةٍ يُخاطِبُها وَيقولُ: «عَجَبًا يا كاترينُ! أَتَنْفَرِدينَ والكُلُّ في فَرْحةِ الرَّقْصةِ الكُبْرى؟»

وانْثَنَتْ كاترينُ برَأْسِها المُثْقَلِ، فأَبْصَرَتْ تِلْقاءَها الكونتس نوردسون، ورَأَتْها تَرْنو إِليها مُتَفَكِّرةً.

وتَحامَلَتْ على نَفْسِها فنَظَرَتْ صامِتةً مُسْتَطْلِعةً، وبادَرَتْها المَرْأَةُ تَقولُ: «تُرى ما الَّذي عاقَكِ عَنِ الرَّقْصِ؟ وهل تَكْرَهينَ هٰذِهِ الرَّقْصَةَ بالذّاتِ؟»

فشَهَقَتِ الفتاةُ، وأَجابَتْ بصَوْتٍ تَخْنُقُهُ العَبَراتُ: «أَجَلْ، أَجَلْ، إِنّي لا أُحِبُّها!»

قالَتْ: «أَمّا هُوَ- فرونسكي- فإِنّي سَمِعْتُهُ بأُذُني يُلْحِفُ عليها أَنْ تُخَصِّصَها لَهُ... وقد تَمَنَّعَتْ أَنّا وطَلَبَتْ إِليهِ أَنْ يُراقِصَكِ، إِلّا أَنَّهُ اسْتَهجَنَ عِنادَها وما زالَ بها حتّى أَقْنَعَها!»

فأَطْرَقَتْ كاترينُ، ونَكَسَتْ عَينَيها وقالَتْ بصَوْتٍ خافِتٍ: «لا أَحْفِلُهُ، فلْيَرْقُصْ مَعَ مَنْ يَشاءُ!»

لقد أَخْبَرَتْها المَرأَةُ المِهْذارَةُ بحَقيقةِ ما جَرى، فرَأَتْ أَنْ تَتَمالَكَ صَوابَها فلا تُرْخي العِنانَ لأَلَمِها، لئَلّا تُشْهِرَ نَفْسَها وتَجْعَلَ للنّاسِ في شَخْصِها مَغْمَزًا ومَلْمَزًا.

ولَزِمَتِ الصَّمْتَ، فلم تَرُدَّ على المَرأَةِ بكَلامٍ آخَرَ، وجَعَلَتْ تُفَكِّرُ في رَجُلٍ ثانٍ، في رَجُلٍ رَدَّتْهُ مُنْذُ أَيّامٍ خائبًا يُجَرِّرُ وراءَهُ أَذْيالَ الفَشَلِ. ومَنْ يَعْلَمُ؟ لقد كانَتْ مَيّالةً إِلى هٰذا الرَّجُلِ... كانَتْ تَميلُ إِلى ليفينَ، بَيْدَ أَنَّ فرونسكي الجَذّابَ الأَنيقَ المُهَنْدَمَ بَرَزَ إِلى المَيْدانِ فحَجَبَ عنها الرُّؤْيةَ، وجَعَلَها تُضَيِّعُ الفُرْصَةَ!

لقد خَفَرَ العَهْدَ مِن دونِ أَنْ يَنْطِقَ... وهل مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يَعْمَدَ الإِنْسانُ إِلى الكَلامِ يَنْطِقُ بِهِ لِسانُهُ متى وَشَتْ برَغْبتِهِ عَيْناهُ ونَظْرتُهُ؟ لقد صارَحَها فرونسكي برَغْبَتِهِ، وها هُوَذا يَحيدُ عنها بَعْدَ اجْتِماعِهِ بأَنّا!

وقالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها: «إِنَّ الَّذي قَوْلُهُ واحِدٌ لا يَخْتَلِفُ هُوَ اللهُ، ولْيَجْرِ ما هُوَ مُقَدَّرٌ، ولْيَكُنْ ما يَكونُ...».

ودَنا مِنْهُما كورسونسكي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وكانَ على مَوْعِدٍ مَعَ الكونتس نوردسون ليَرْقُصِ. بَيْدَ أَنَّ المَرْأَةَ اعْتَذَرَتْ إِليهِ عن ذٰلِكَ، فما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنْ تَحَوَّلَ إِلى كاترينَ ورَجاها

أَنْ تُرافِقَهُ إِلى حَلْبَةِ الرَّقْصِ.

وسُرَّتْ كاترينُ، فقد رَأَتْ في ذٰلِكَ خَلاصًا لها مِن مَأْزِقٍ حَرِجٍ أَوْقَعَها فيهِ فرونسكي، ومِن فِكْرِها المُعَذَّبِ، ومِنَ المَرأَةِ المُتَطَفِّلَةِ الَّتي يَسْتَأْثِرُ بلُبِّها الفُضولُ.

ورَقَصَتْ كاترينُ كأَنَّها تِمثالٌ أو كأَنَّها آلَةٌ؛ ولٰكِنَّها لم تَكُنْ مُضْطَرَّةً إِلى الكَلامِ- وهٰذا مِنْ حُسْنِ حَظِّها- فرَفيقُها كانَ في شُغلٍ عَنِ الكَلامِ بقيادةِ دَفَّةِ الرَّقْصِ...

وكانَتْ تَرْقُصُ عَنْ كَثَبٍ مِنْ أَنّا وفرونسكي، وكانَ الاثْنانِ يَجْلِسانِ في مَكانٍ واحِدٍ كُلَّما انْتَهى دَوْرُهُما، وكانَتْ تَراهُما يَنْهَضانِ لِيَسْتَأْنِفا الرَّقْصَ كُلَّما حانَتِ الدَّقيقةُ الَّتي يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِما أَنْ يَتَقَدَّمَا فيها.

وكانَتْ كُلُّ لَحْظَةٍ تَمُرُّ عليها تَزيدُها يَقينًا مِنْ إِثْمِ الِاثْنَيْنِ... وكانَتْ هٰذِهِ اللَّحَظاتُ كأَنَّها السّاعاتُ الطّويلةُ المُضْنِيةُ!

كانا يَسْبَحانِ في أُفُقٍ خاصٍّ بِهما. كانا يَميسانِ وكأَنَّهُما يُحلِّقانِ في فضاءِ سَعادتِهِما، وكانا، كما رَأَتْ كاترينُ، يَظُنّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنَّهُما وَحيدانِ، فلا هُما يَشْعُرانِ بالنّاسِ مِنْ حَوْلِهِما. ولا هُما يُحِسّانِ بالأَعْيُنِ تَحْدِجُهُما وتَنْتَهِبُهُما.

ناهيكَ بنَظْرَةِ فرونسكي. فأَيْنَ شِدَّتُها؟ وأَيْنَ عَزْمُها؟ وأَيْنَ قُوَّتُها؟ لقد تَلاشَتِ الشِّدَّةُ والعَزْمُ والقُوّةُ، وحَلَّ مَحَلَّها جَميعًا نِظْرةُ حَيْرةٍ واضْطِرابٍ، بل نِظْرةُ خُضوعٍ وتَسْليمٍ. كانَتْ نَظْرتُهُ أَشْبَهَ بنِظْرَةِ كَلْبٍ ذَكيٍّ ارْتَكَبَ هَفوةً!

وابْتَسَمَتْ أَنّا، فانْعَكَسَتِ ابْتِسامتُه على مُحَيّاهُ بِشْرًا ونورًا. وبَدا عليها الفِكْرُ، فقَطَّبَ حاجِبَيْهِ وكأَنَّهُ يَنْسابُ مَعَها في مَجْرى الفِكْرِ!

وخُيِّلَ لكاترينَ أَنَّ قُوَّةً قاهِرَةً تَجْذِبُ عَيْنَيْها إِلى وَجْهِ أَنّا... فاسْتَحْوَذَتْ عَليها رِعْشَةٌ عَظيمةٌ لِما رَأَتْ. وما رَأَتْ كانَ ثَوْبًا بَسيطًا، إِلّا أَنَّهُ أَضْفى على صاحِبَتِهِ مِنَ الفِتْنةِ والسِّحْرِ ما يُذْهِلُ كُلَّ ناظِرٍ ومُتَأَمِّلٍ... كانَتْ أَنّا فاتِنةً في ثَوْبِها البَسيطِ الرّائِعِ؛ كانَتْ فاتِنَةً بذِراعَيْها المُسْتَديرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يُزَيِّنُهُما سِوارانِ بَرّاقانِ؛ كانَتْ فاتِنَةً بجيدِها الرَّخْصِ الَّذي يُحَلِّيهِ عِقْدٌ مِنَ اللُّؤْلُؤِ؛ كانَتْ فاتنةً بضَفيرَتِها المَتْروكَةِ على سَجِيَّتِها؛ كانَتْ فاتِنةً بلَفْتَتِها، وحَرَكَتِها، ونَظْرتِها، وبَسْمتِها، وكانَتْ فاتِنةً بقَدَمَيها الصَّغيرتَينِ، ويَدَيها ووَجْهِها!

إلّا أنَّ في رَوْعَتِها تِلْكَ كَمَنَ شَيْءٌ رَهيبٌ، شَيْءٌ يَمْتازُ بالقَسْوةِ المُخيفةِ...

إنَّها الفِتْنةُ القاسِيَةُ.

إنَّها الرَّوعةُ الباطِشَةُ.

إنَّها الجَمالُ العاصِفُ الَّذي لا يُبْقي ولا يَذَرُ!

وتَضاعَفَ إعْجَابُ كاترينَ بها، وبالقَدْرِ الَّذي زادَ فيهِ إعجابُها نَما أَلَمُها ووَصَبُها.

ولمّا تَبادَلَ الرّاقِصونَ والرّاقِصاتُ المَواقِعَ، ودَنا منها فرونسكي، كانَتْ كاترينُ امْرَأَةً غيرَها، كانَتْ تَخْتَلِفُ في كُلِّ شَيْءٍ، حتّى في هَيْئَتِها ومَنْظَرِها... ولكي يَقولَ هُوَ شَيْئًا فلا يَبْدو بمَظْهَرِ الشُّذوذِ، قالَ لها ولُبُّهُ شارِدٌ وقَلْبُهُ مُوَزَّعٌ: «إنَّها حَفْلَةٌ رائعةٌ، لم أُشاهِدْ لَها مَثيلًا!»

وأَجابَتْ هِيَ: «أَصَبْتَ!»

ولمّا لَبَّتْ نِداءَ أَنّا مَعَ امْرَأَةٍ أُخرى، ودَنَتْ منها في وَسَطِ الحَلْقةِ، وهْيَ لا تُخْفي امتِعاضَها، رَنَتْ إليها أَنّا مُتَأَمِّلةً، وابْتَسَمَتْ وهْيَ تُطْرِقُ برَأْسِها وتَضْغَطُ على يَدِها.

إلّا أَنَّها ما كادَتْ تَلْمَحُ نَظْرةَ اليَأْسِ الَّتي أَجابَتْ كاترينُ بها على ابْتِسامتِها حتّى أَشاحَتْ عَنها، وشَرَعَتْ تَتَبادَلُ الحَديثَ مَعَ المَرْأَةِ الأُخْرى وهْيَ تَضْحَكُ ضِحْكًا مُتَواصِلًا.

وقالَتْ كاترينُ تُحدِّثُ نَفْسَها: «أَجَلْ إنَّ فيها شَيْئًا مُريبًا، إنَّ فيها شَيْطانًا مَرِيدًا، ولٰكِنَّهُ شيطانٌ فاتِنٌ قاهِرٌ!»

وانْتَهى الرَّقْصُ، فذَهَبَ بَعْضٌ وبَقِيَ بَعْضٌ آخَرُ، وتَفَرَّقَ مَنْ بَقِيَ في أَنْحاءِ القاعةِ.

ووَقَفَتْ أَنّا كارنينا مَعَ رَبِّ البَيْتِ، وأَخَذَتْ تُعْرِبُ لَهُ عن رَغْبتِها في الذَّهابِ، إلّا أَنَّهُ أَلَحَّ عليها أَنْ تَمْكُثَ فتُشارِكَهُمْ في تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ.

ولٰكِنَّها أَصَرَّتْ على الذَّهابِ، وقالَتْ وهْيَ تَبْتَسِمُ بلُطْفٍ: «لا مَنْدوحةَ لي مِن مُفارَقَتِكُمْ، فأنا مُتْعَبَةٌ وفي حاجَةٍ إلى النَّوْمِ».

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ تَقولُ: «عَليَّ أَنْ أَذْهَبَ لأَنّي رَقَصْتُ اللَّيْلَةَ أَكْثَرَ ممّا رَقَصْتُ في سَنةٍ كامِلَةٍ!»

والْتَفَتَتْ إلى فرونسكي الواقِفِ قَريبًا منها، وعَقَّبَتْ بَعْدَ هُنَيْهةٍ: «يَخْلُقُ بي أَنْ أَهْجَعَ

وأَسْتَرِيحَ قَبْلَ رُكوبِ مَتْنِ السَّفَرِ بَعْدَ ساعاتٍ».

فارْتَعَشَ فرونسكي وانْبَرى يَقولُ مُنْفَعِلًا: «وهل أَنْتِ مُزمِعَةٌ على مُبارحةِ موسكو غَدًا؟»

قالَتْ: «هٰذا ما أنويهِ».

وحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ تَنِمُّ عن تَعَجُّبِها مِنْ جُرْأَتِهِ في طَرْحِ الأَسْئِلَةِ.

وكأَنَّ تأَلُّقَ عَيْنَيْها والشَّرَرَ الَّذي انْبَعَثَ مِنْهُما، وكأَنَّ بَسْمَتَها الَّتي ارْتَسَمَتْ على شَفَتَيْها، وهٰذِهِ النَّارَ الَّتي انْدَلَعَتْ مِنْ عَيْنَيْها، وهٰذِهِ الابْتِسامةَ الَّتي افْتَرَّ عنها ثَغْرُها، أَضْرَمَتْ كُلُّها النَّارَ في داخِلِه. وقد أَحَسَّ بهٰذِهِ النَّارِ تَتَلَظَّى في قَرارتِهِ حينَ نَبَسَتْ بكَلِماتِها القَليلَةِ ذاتِ المَعاني الكَثيرَةِ!

ولم تَمْكُثْ أَنّا بلِ اسْتَأْذَنَتْ ومَضَتْ في سَبيلِها، إِلى بَيْتِ شَقيقِها.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - تخلَّلَ السَّردَ في مطلعِ هذا الفصلِ أُسلوبُ النَّجوى الداخليّة. أَشِرْ إلى ذلك، وقُلْ ما الدَّورُ الَّذي أَدَّتْهُ النَّجوى هذه؟

٣ - حاوَلَتْ أَنّا أن تُصلِحَ ما انصدَعَ بين أَخيها ستيفان وزوجتِهِ، فبمَ توسّلَتْ إلى ذلك؟

٤ - كيفَ كان تقويمُها لخيانَةِ أَخيها زوجتَهُ داريا؟

٥ - هل استطاعَتْ أَنّا كارنينا أن تُوَفَّقَ في إنهاءِ الأَزمةِ العائليّةِ؟ ولصالحِ مَنْ كانَ حلُّ هذه العقدةِ؟

٦ - ما الفكرةُ الَّتي كوَّنْتَها في هذا الفصلِ عن أَنّا كارنينا؟

٧ - لَمَحَّ الكاتِبُ إلى أحداثٍ غامضةٍ ستقعُ لاحقًا في حياةِ أَنّا كارنينا، استخرِجْ من هذا الفصلِ إشاراتِهِ إلى ذلكَ ممّا لوحِظَ قبلَ السَّهرةِ الرّاقِصَةِ.

٨ - حاوِل أن ترى في كلِّ إشارةٍ من تلكَ الإشاراتِ مَدلولها.

٩ - بدأَتْ تظهرُ في هذا الفصلِ جَفْوَةٌ بين أَنّا وكاترين. حَدِّدْ مَواطِنَها وأَسبابَها.

١٠ - ما الحالُ النَّفسيّةُ الَّتي انتهَتْ إليها كاترين في ختامِ هذا الفصلِ؟

١١ - تفاعَلَتْ في هذا الفصل نماذجُ مُختَلِفَةٌ من الشَّخصيّاتِ البَشَرِيَّةِ، حَدِّدِ النّموذجَ الَّذي تُمثِّلهُ كلٌّ من هذه الشَّخصيّاتِ.

١٢ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصْلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الحادي عشر

غادَرَ ليفينُ موسكو بَعْدَ فَشَلِهِ في تِلْكَ اللّيلةِ، وتَيَقُّنِهِ أَنَّ كاترينَ تَيَّمَها حُبُّ الشّابِّ فرونسكي. وآلى على نَفسِهِ عَقِبَ وُصولِهِ إلى قَريتِهِ أَنْ يَقْنَعَ بالَّذي هُوَ فيهِ، فلا يَتَشَوَّفَ بِبَصَرِهِ إلى سَعادةٍ وارِفَةِ الظِّلالِ في بَيْتٍ يَضُمُّ زَوْجَةً وأَوْلادًا. آلى على نفسِهِ أَنْ يَنْغَمِسَ كَرَّةً أُخْرى في الأَعْمالِ، وأَنْ يَصِلَ اللَّيلَ بالنَّهارِ جادًّا كادًّا في دَأَبٍ لا يَفْتُرُ.

وأَنّا كارنينا امْرَأَةُ الفِتْنَةِ والجَمالِ ما لَبِثَتْ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي للحَفْلةِ السّاهرةِ أَنْ أَبْرَقَتْ إلى زَوْجِها في بطرسبرج تُنبِئُهُ بقُدومِها.

وكانَ القِطارُ المُسافِرُ إلى بطرسبرج يُغادِرُ مَحَطّةَ موسكو في السّابعةِ مِن مَساءِ كُلِّ يَومٍ، وقد قَضَتْ أَنّا النَّهارَ بطولِهِ في بَيْتِ أَخيها، ثُمَّ تَناوَلَتِ الطَّعامَ مَعَ زَوْجِهِ.

بَيْدَ أَنَّ الزَّوجةَ والأَوْلادَ رَأَوا فيها اليَوْمَ ما لم يَرَوْهُ مِن قَبْلُ. وقد عَجِبَتْ داريا لِما شابَ حَرَكَتَها وهَيْئَتَها مِنْ تَبَدُّلٍ، ولٰكِنَّها نَسَبَتْ هٰذِهِ الظّاهِرَةَ إلى انْشِغالِ بالِها في التَّأَهُّبِ لِلسَّفَرِ، وإلى انْفِعالِها لوَشَكِ مُفارَقَةِ أَخيها وأَوْلادِهِ الَّذينَ كَلِفَتْ بهِمْ كَلَفًا شَديدًا، كما خُيِّلَ إليها.

وأَخيرًا عِندَما تَمَلْمَلَتِ القاطِرةُ، ونَفَخَتْ ما في جَوفِها مِن نارٍ وبُخارٍ، وَدَّعَتْ أَنّا أَخاها وتَهالَكَتْ على المَقْعَدِ الوَثيرِ وهِيَ تُتَمْتِمُ قائلةً: «إِنْتَهى كُلُّ شَيْءٍ، والحَمْدُ للهِ على نَعْمائِهِ».

ودَنَتْ مِنَ النّافذةِ، وجَعَلَتْ تُلَوِّحُ لشَقيقِها مُوَدِّعَةً، ثُمَّ عادَتْ تُخاطِبُ نَفْسَها وتَقولُ: «أَلْفَ شُكْرٍ للهِ، سأَرى غَدًا «سيرج» و«أَليكسيس كارنين» وسَتَعودُ حَياتي إلى مَجْراها الطَّبيعيّ، فتُوْضَعُ الأُمورُ في نِصابِها، ويَسْتَريحُ الضَّميرُ، وتَقَرُّ العَيْنُ».

وما لَبِثَتْ أَنْ فَتَحَتْ حَقيبةَ السَّفَرِ الحَمْراءَ، وتَناوَلَتْ مِن داخِلِها وِسادةً ناعِمةً صَغيرةً وَضَعَتْها على رُكْبَتَيْها، وغِطاءً دَثَّرَتْ بهِ قَدَمَيْها.

وإلى جانِبِها كانتَ امْرَأَةٌ كَسيحَةٌ تَغِطُّ في نَوْمِها، بينَما أَخَذَتِ امْرَأَتانِ أُخْرَيانِ تَتَجاذَبانِ

أَطْرافَ الحَديثِ.

وما لَبِثَتِ المَرْأَتانِ المُتَقَدِّمَتانِ في السِّنِّ أَنْ وَجَّهَتا الحَديثَ إلى أَنّا، وشَرَعَتا تُبْدِيانِ مُلاحَظاتِهِما عن نِظامِ التَّدْفِئَةِ في القِطارِ... وقد أَجابَتْهُما أَنّا باقْتِضابٍ.

ولمّا أَيْقَنَتْ أَنَّ حَديثَهما لا يُثيرُ انتِباهَها بل يُسَبِّبُ ضَجَرَها، أَخْرَجَتْ مِنْ حَقيبتِها كِتابًا إنْكليزيًّا ومِقْطَعًا للوَرَقِ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْ خادِمتِها أَنْ تُنيرَ المِصْباحَ وتُعَلِّقَهُ وراءَ ظَهْرِها.

ولم تَسْتَطِعْ في أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ تَسْتَرْسِلَ في القِراءَةِ. فقد كانَتِ الضَّجّةُ واللَّغَطُ شَديدَينِ لِدَرَجةٍ تَعَذَّرَ مَعَها على أَنّا أَنْ تُرَكِّزَ أَفكارَها في المَعاني.

وانْسابَ القِطارُ في سَيْرِهِ السَّريعِ، فاسْتَحْوَذَ على انْتِباهِها نَدْفُ الثَّلْجِ المُتَلاطِمِ بزُجاجِ النّافذةِ، ثُمَّ اسْتَرعى نَظَرَها الحَرَسُ ببِزَزِهِم العَسْكَرِيّةِ... وأَنْصَتَتْ أَخيرًا لما كانَ يُقالُ عَنِ العاصفةِ الثَّلْجيّةِ الهَوْجاءِ الّتي كانَتْ تَزْأَرُ غَضْبى في الخارجِ.

ومَضى الوَقْتُ وأَنّا لا تَقْرَأُ، والأَسْبابُ الَّتي تُبْعِدُ بَينَها وبَيْنَ الكِتابِ واحدةٌ لا تَتَبَدَّلُ.

وعَزَمَتْ في النِّهايةِ على ما عَجِزَتْ عنهُ طَويلًا، فأَقْبَلَتْ على الكِتابِ تَتَصَفَّحُهُ، ففَهِمَتْ كَلامَهُ ولٰكِنَّها كانَتْ تُطالِعُ كارِهةً، وتُحاوِلُ أَنْ تَفْهَمَ كارِهةً أَيْضًا! ولم تَجِدْ ما يُحَبِّبُ إلَيها تَتَبُّعَ انعِكاساتِ حَياةِ غيرِها على الوَرَقِ بينما تَجيشُ الرَّغبةُ في صَدْرِها إلى الحياةِ، إلى الحياةِ الكاملةِ المُفْعمةِ بمَعاني الحياةِ ومَباهِجِها!

فهْيَ حينما قَرَأَتْ أَنَّ بَطَلَةَ القِصّةِ كانَتْ تُمَرِّضُ رَجُلًا سَقيمًا، وَدَّتْ لو كانَتْ تَتَحَرَّكُ بُهدوءٍ في غُرفةِ رَجُلٍ بَرَّحَتْ بِهِ العِلَّةُ. وهْيَ حينما قَرَأَتْ عن عُضْوٍ في البَرْلمانِ يُلقي خُطْبَةً مُسْتَفيضةً، هَفَتْ نَفْسُها إلى الاِقْتِداءِ بِهِ في إلْقاءِ الخُطْبَةِ. وهْيَ حينما قَرَأَتْ عن غادةٍ أَذْهَلَتِ النّاسَ بجُرْأَتِها، خُيِّلَ إلَيها أَنَّها هِيَ نَفْسَها تِلْكَ الحَسناءُ الجَسورةُ...

ولٰكِنَّها لا تَفْعَلُ شَيْئًا، ولن تَسْنَحَ لها فُرصةٌ للقِيامِ بأَيِّ عَمَلٍ.

ووَضَعَتِ المِقْطَعَ الصَّغيرَ جانبًا وقَسَرَتْ نَفْسَها ثانيةً على تَتَبُّعِ الكَلِمِ.

على أَنَّها لم تَفْهَمِ المَعنى، ولا فَهِمَتِ المَبْنى، ورَأَتْ نَفْسَها مَسوقةً إلى التَّفكيرِ بموسكو، وبالحَفْلةِ الباهِرةِ، وبفرونسكي.

وشاهَدَتِ الشّابَّ الوَسيمَ، وأَبْصَرَتْ عَينَيْهِ... ولَمَحَتْ في تَينِكَ العَيْنَيْنِ المَنْهومَتَيْنِ دَعْوَةً

وتَوَسُّلًا واستِعْطافًا!

وأَطْرَقَتْ والعَرَقُ الباردُ يَتَفَصَّدُ بِهِ جَبينُها. وعَجِبَتْ وتَوَلّاها الذُّهولُ. أَتَخْجَلُ؟ ولِمَ تَخْجَلُ؟ ومِمَّ تَخْجَلُ؟ هل أَتَتْ نُكْرًا؟ هل تَعَثَّرَتْ بها القَدَمُ؟

كلّا، كلّا... ومَعَ ذٰلِكَ، فما فَتِئَتْ، على الرَّغْمِ مِن أَنْفِها، تَشْعُرُ بأَنَّها أَتَتْ أَمْرًا إِدًّا[١] يَسْتَوجِبُ الخَجَلَ، ويَقْتَضي الشُّعورَ بالِاضْطِرابِ والبَلْبَلَةِ.

وأَلَحَّ عَلَيْها هٰذا الشُّعُورُ حتّى فَقَدَتْ مَعَهُ كُلَّ صَبْرٍ التَمَسَتْهُ مِنَ الإرادةِ، وأَنْشَأَتْ أخيرًا تُحاوِرُ نَفْسَها حتّى تُقْنِعَها: «ماذا دَهاني؟ وهَل أنا صَريعةُ الوَهْمِ؟ ولِمَ أَخْشى الواقِعَ؟ هَل أَخافُ مِنْهُ؟ وما مَعْنى الشُّعورِ بتَأْنِيبِ الضَّميرِ؟ هَل زَلَلْتُ حتّى أَتَعَرَّضَ لما يَشُقُّ عليَّ؟ ثُمَّ، أَجَرى بَيْني وبَيْنَهُ أَمْرٌ ما؟ وهَل يُمْكِنُ أَنْ يَجريَ؟ كلّا... كلّا...».

وأَضاءَتْ فَمَها بَسْمةُ اسْتِخْفافٍ، وهَزَّتْ رَأْسَها كأَنَّها تَنْفُضُ مِن ذِهْنِها ما أَلَحَّ عَلَيها. وعادَتْ إِلى كِتابِها تُقَلِّبُ صَفَحاتِهِ، وتُحاوِلُ عَبَثًا أَنْ تَقْرَأَ كَلِماتِهِ.

وأَحَسَّتْ فَجْأَةً أَنَّهُ يَجِبُ عليهِ، هُوَ الآخَرُ، أَنْ يَخْجَلَ مِنْ نِفْسِهِ.

لٰكِنَّها عادَتْ تَتَساءَلُ عَنِ السَّبَبِ، وهل فَعَلَ ما يُوجِبُ الخَجَلَ؟ وهلِ اقْتَرَفَ ذَنْبًا، أو أَتى مُنْكَرًا؟

وَهَزَّتْ رَأْسَها بانْفِعالٍ وغَضَبٍ وأَلْقَتِ الكِتابَ مِنْ يَدِها...

وتَوَقَّفَ القِطارُ فنَهَضَتْ أَنّا وأَشارَتْ إِلى خادِمتِها أَنْ تُناوِلَها قُبَّعَتَها ومِعْطَفَها، وهَمَّتْ بالبابِ ففَتَحَتْهُ وهْيَ تَقولُ: «أُريدُ أَنْ أَسْتَنْشِقَ الهَواءَ الطَّلْقَ، فالهَواءُ كَريهٌ في الدّاخِلِ، وهْوَ مُشْبَعٌ بالرّوائِحِ».

وهَبَّ الهَواءُ البارِدُ مِنَ الخارجِ فنَفَحَ وَجْهَها، واسْتَقْبَلَها نَدْفُ الثَّلْجِ فانْتَثَرَ على قُبَّعتِها ومِعْطَفِها... وتَعارَكَتْ قليلًا مَعَ العاصِفَةِ وهْيَ تَخْرُجُ، وسَرَّتْها المَعْرَكةُ، فانْدَفَعَتْ غيرَ آبِهةٍ لِبَردٍ أو مُكْتَرِثَةٍ بريحٍ.

وصَفَرَتِ الرِّيحُ كأَنَّها تُنْذِرُها بغَضَبِها، لٰكِنَّها لم تَعْبَأْ بها، بل طَفِقَتْ تَمْشي على

---

١) إِدًّا: فظيعًا.

الإفريزِ[١]، وتَسْتَنْشِقُ الهَواءَ البارِدَ مِلْءَ رِئَتَيها.

وكانَ الرِّجالُ يُهَرْوِلونَ في حَرَكةٍ سَريعةٍ دائِبَةٍ، وهُمْ يَتَبادَلونَ الحَديثَ ويَضْحَكُونَ. ورَجَعَتْ بعَدْ دَقائِقَ إِلى المَرْكبةِ فوَضَعَتْ قَدَمَها على دَرَجَتِها وهَمَّتْ بالصُّعودِ، لٰكِنَّ رَجُلًا يَرْتَدي مِعْطفًا عَسْكَرِيًّا مَرَّ في تِلْكَ الفَيْنةِ تَحْتَ مِصْباحِ الإِفْريزِ، فرَمَتْهُ بنَظْرَةٍ مُتَفرِّسةٍ، وأَيْقَنَتْ والدَّهشةُ تَعْقِلُ لِسانَها أَنَّهُ فرونسكي.

ومالَ الفَتى نَحوَها رافعًا بيَدِهِ قُبَّعَتَهُ عن رَأْسِهِ، وقالَ وهْوَ يَنْحَني: «هل هُناكَ ما أَسْتَطيعُ أَداءَهُ لَكِ يا سَيِّدَتي؟»

فرَنَتْ إِليهِ طَويلًا؛ وخُيِّلَ إِليها، على الرَّغْمِ مِنَ الظُّلْمَةِ المُحيقَةِ بها، أَنَّها تَتَبَيَّنُ جَيِّدًا نَظْرَةَ عَينَيْهِ، وتَعْبيرَ وَجْهِهِ. وكانَتْ تِلكَ النَّظْرَةُ تَتَحَدَّثُ مِنْ تِلقاءِ نَفْسِها عن حُبِّهِ وهُيامِهِ، بل عن تَقْديسِهِ لها! وكانَتْ قَسَماتُهُ وأَمائِرُهُ تَشي كُلُّها بخُضوعِهِ التّامِّ وتَسْليمِهِ المُطْلَقِ!

ما أَكْثَرَ المَرّاتِ الَّتي أَكَّدَتْ فيها لنَفْسِها أَنَّ ما بَيْنَها وبَيْنَ فرونسكي لا يَتَعَدّى ما بَيْنَها وبَيْنَ سائِرِ الرِّجالِ الَّذين تَعْرِفُ، وأَنَّها لن تَسْمَحَ لنَفْسِها أبدًا أَنْ تَشْغَلَ رَأْسَها بالتَّفكيرِ فيهِ... إِلّا أَنَّها ما كادَتْ تَلْمَحُهُ الآنَ حتّى دَهَمَها شُعورٌ عارِمٌ بالمَسَرَّةِ والغِبْطَةِ. ولم تَكُنْ في حاجةٍ لتَتَساءَلَ عن سَبَبِ مَجيئِهِ، فهْيَ واثقةٌ مِن أَنَّهُ شَعَرَ بوجوبِ الذَّهابِ إِلى حَيْثُ تَذْهَبُ هِيَ.

وما عَتَّمَتْ أَنْ قالَتْ وهْيَ تُقَطِّبُ: «لم أَعْلَمْ أَنَّكَ مُسافِرٌ كذٰلِكَ، فلِمَ جِئْتَ؟ وماذا جَعَلَكَ تُغادِرُ موسكو؟»

وبَرَقَتِ السّعادةُ في عَينَيها كوَمْضةٍ مِنْ نارٍ، وشَعَّ وَجْهُها حتّى لكأَنَّ هالةً مِنْ هَناءٍ تَتَكَوَّنُ حَولَهُ.

وأَجَابَ الفَتى بجَأْشٍ رابِطٍ: «تَسْأَلينَني عَنِ السَّبَبِ؟ أَما تَعْلَمينَ أَنّي جِئْتُ لِكَي أُلازِمَكِ؟ أَما تَدْرِينَ أَنْ لا حيلةَ لي في ذٰلِكَ؟»

وزَأَرَتِ الرِّيحُ، وتَساقَطَتْ دُفْعةٌ عظيمةٌ مِنَ الثَّلْجِ، وأَرْدَفَ هُوَ يَقولُ بصَوتٍ مَهْموسٍ ذَليلٍ: «اِصْفَحي عَنّي، ولا تَغْضَبي لِقَوْلي، فما قُلْتُ إِلَّا الصِّدْقَ!»

---

(١) الإِفْريز: الرَّصيف.

لقد تَكَلَّمَ بمَذَلّةِ العاشِقِ، ولٰكِنَّ صَوْتَهُ كانَ يَحْمِلُ في طَيّاتِهِ الكَثيرَ مِنَ العِنادِ والإصْرارِ، بلِ المَزيدَ مِنَ العَزْمِ.

وقالَتْ أَخيرًا وهْيَ تُقاوِمُ مَعْرَكَةً نَشَبَتْ في داخِلِها: «هٰذا خَطَأٌ، لقد أَخْطَأْتَ كَثيرًا، وأَرْجوكَ، بل أَضْرَعُ إِليكَ أَنْ تَنْسى ما قُلْتَ كما أَنّي سأَنْساهُ أَنا».

قالَ: «دونَ هٰذا خَرْطُ القَتادِ، ولن أَنْسى، لن أَنْسى ولو حاوَلْتُ النِّسْيانَ. كُلُّ كَلِمةٍ نَطَقَ بها فَمُكِ، وكُلُّ نَظْرةٍ رَمَتْها عَيْناكِ، قد حُفِرا حَفْرًا في عَقْلي وقَلْبي!»

فهَتَفَتْ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «كَفى... كَفى...».

وحاوَلَتْ عَبَثًا أَنْ تُكْسِبَ وَجْهَها، الَّذي كانَ يَرْمُقُهُ بشَغَفٍ وحُبٍّ، مَظْهَرَ الغَضَبِ والتَّبَرُّمِ.

وما أَبْطَأَتْ بَعْدَما أَخْفَقَتْ في مُحاولتِها أَنْ قَفَزَتْ إِلى داخِلِ العَرَبةِ. ولٰكِنَّها ما كادَتْ تَـ دُ نَفْسَها وَحيدةً في المَمَرِّ حتّى تَرَيَّثَتْ تُفَكِّرُ بما وَقَعَ لَها الآنَ... ومَعَ أَنَّها لم تَتَذَكَّرْ ما قالَهُ وما قالَتْهُ، أَيْقَنَتْ أَنَّ هٰذِهِ المُقابَلَةَ العابِرَةَ قد أَدْنَتْ أَحَدَهُما مِنَ الآخَرِ لدَرَجةٍ مُخيفةٍ؛ فلَهِفَتْ نَفْسُها، لٰكِنَّها فَرِحَتْ وتَوَلَّتْها مَسَرَّةٌ!

ودَلَفَتْ إِلى مَقْصورَتِها وتَهالَكَتْ على المَقْعَدِ، وهْيَ نُهْبةٌ لمَشاعِرَ شَتّى وخَلَجاتٍ كَثيرةٍ. وقَضَتْ ساعاتِ اللَّيْلِ بطولِها ساهِرةً لا يَغْمُضُ لها جَفْنٌ. ولٰكِنْ، في كُلِّ ما مَرَّ عليها في تِلْكَ اللَّيلةِ، لم يَكُنْ هُناك شَيْءٌ مُزعِجٌ أو مُفْزِعٌ، بل كانَتْ أَفْكارُها شَبيهةً بأَحْلامٍ حُلْوةٍ عَذْبةٍ، وكأَنَّ الدُّنْيا كانَتْ تَتَمَخَّضُ لها عَنْ سَعادةٍ لم تَسْبُرْ لَها غَوْرًا مِنْ قَبْلُ.

وفي ساعةِ الصُّبْحِ الباكِرِ غَلَبَها الكَرى على أَمْرِها، فاسْتَسْلَمَتْ للوَسَنِ[1]، ولم تَسْتَيْقِظْ إِلّا والقِطارُ يُشْرِفُ على أَرْباضِ بطرسبرج.

ووَصَلَ القِطارُ أَخيرًا إِلى المَحَطّةِ، ولمّا دَنا مِنْها زَوْجُها، رَمَقَتْهُ بنَظْرةٍ فاحِصةٍ، ورَأَتْ أُذُنَيْهِ، وكأَنَّها تَراهُما لأَوَّلِ مَرّةٍ في حَياتِها، وتَساءَلَتْ مُتَعَجِّبةً عن سَبَبِ بُروزِ هاتَيْنِ الأُذُنَيْنِ، وصَرامةِ هٰذا الوَجْهِ، وافتِقارِ زَوْجِها إِلى الوَسامَةِ والقَسامَةِ والجاذِبِ!

وعاجَلَها زَوْجُها بالتَّحِيَّةِ وهْوَ يَبْتَسِمُ ابتِسامَتَهُ الساخِرَةَ التَّقْليدِيَّةَ، ويَحْدِجُها بنَظْرةٍ مُتَفَرِّسةٍ مُتَأَمِّلةٍ.

---

(١) الوَسَن: شِدّة النُّعاس.

وقد شَعَرَتْ على التَّوِّ بشَيْءٍ يَضْغَطُ على فُؤادِها، وامْتَعَضَتْ، وكأَنَّها كانَتْ تَتَوَقَّعُ أَنْ تَرى شَيْئًا آخَرَ، أَنْ تَراهُ في شَكْلٍ آخَرَ وأَنْ تَلْقاهُ بعاطِفَةٍ أُخرى. . .

وكانَ هٰذا شُعورُها المُلازِمُ لَها كُلَّما اجْتَمَعَتْ إِلى زَوْجِها، إِلَّا أَنَّها لم تَعْرِفْ كُنْهَهُ قَبْلَ اليَوْمِ، أو على الأَصَحِّ لم تَحْدُسْ حَقيقتَهُ إِلَّا بَعْدَ اتِّصالِها بفرونسكي!

وقالَ الرَّجُلُ: «أَجَلْ، ها أَنَذا زَوْجُكِ المُخْلِصُ الأَمينُ، آتي بنَفْسي وكُلِّي شَوْقٌ إِلى استِقْبالِكِ!»

ولم يَخْلُ صَوْتُهُ مِن لَهْجةِ التَّهَكُّمِ الَّتي تَعْهَدُها فيهِ، وإِنْ كانَتْ تُعَبِّرُ تَمامًا عن صَراحتِهِ ومَشاعِرِهِ الصّادقةِ. . .

وقالَتْ: «وسيرج؟ أَهُوَ في صِحّةٍ جَيِّدةٍ؟»

قالَ: «وهل هٰذِهْ مُكافَأَتُكِ لي على شَوْقي؟ إِنَّه في أَحْسَنِ حالٍ».

أَمّا فرونسكي فلم يُحاوِلْ أَنْ يَنامَ في تِلْكَ اللَّيْلةِ. وقد لَزِمَ مَقْعَدَهُ وهْوَ يَرْقُبُ كُلَّ حَرَكةٍ. كانَ بشَخْصِيَّتِهِ القَوِيّةِ يُؤَثِّرُ في النّاسِ بطَبيعتِهِ الَّتي تُوحي بالصَّرامةِ وعَدَمِ التَّرَدُّدِ، أَمّا ما انْطَبَعَ على أَساريرِهِ[1] اللَّيلَةَ فهْوَ العَزْمُ والإِصْرارُ. وقد جَعَلَ يَنْظُرُ إِلى النّاسِ كأَنَّهُمْ أَشياءُ. وشَعَرَ نَحْوَهُ بالكَراهِيةِ مُوَظَّفٌ صَغيرٌ كانَ يَجْلِسُ قُبالَتَهُ، وكانَ مَبْعَثَ كُرْهِهِ نَظْرَتُهُ المُتَحَدِّيَةُ المُحْتَقِرَةُ. وطَلَبَ منهُ المُوَظَّفُ نارًا، ثُمَّ حاوَلَ أَنْ يُجاذِبَهُ أَطْرافَ الحَديثِ. وتَعَمَّدَ أَخيرًا أَنْ يَميلَ عليهِ حتّى يُشْعِرَهُ بأَنَّهُ ليسَ مُجَرَّدَ شَيْءٍ بل إِنسانٌ مِثْلُهُ.

بَيْدَ أَنَّ فرونسكي نَظَرَ إِليهِ كما يَنْظُرُ إِلى المِصباحِ، فتَجَهَّمَ وَجْهُ الفَتى، وشَعَرَ بأَنَّهُ بَدَأَ يَفْقِدُ ثِقَتَهُ بنَفْسِهِ تَحْتَ وَطْأَةِ هٰذِهِ النَّظَراتِ الَّتي تَأْبى أَنْ تَعْتَرِفَ بهِ كإِنسانٍ.

لم يُبْصِرْ فرونسكي شَيْئًا، ولم يُبْصِرْ أَيَّ إِنسانٍ. وشَعَرَ أَنَّهُ مَلِكٌ، ليسَ لَظَنِّهِ أَنَّهُ اسْتَرعى انتِباهَ أَنّا وأَثَّرَ فيها، فهْوَ لم يُؤْمِنْ بهٰذا بَعْدُ، بل لأَنَّ التَّأْثيرَ الَّذي أَحْدَثَتْهُ أَنّا في قَلبِهِ وشُعورِهِ سَبَّبَ لهُ السّعادةَ والاِعْتِزازَ وكَثيرًا مِنَ الاِعْتِدادِ.

وتَراءى لهُ أَنَّ قِواهُ الَّتي كانَتْ في الماضي مُوَزَّعةً مُبَدَّدةً مُشَتَّتةً، قد تآلَفَتِ الآنَ وتَجَمَّعَتْ، واتَّجَهَتْ إِلى ناحيةٍ واحدةٍ، إِلى هَدَفٍ فَرْدٍ. وقد سَرَّهُ ذٰلِكَ، وعَلِمَ فَقَطْ أَنَّهُ

---

(١) أَسارير: خُطوطٌ في الجَبْهَة.

صَدَقَها الخَبَرَ، وأَنَّهُ جاءَ إلى حَيثُ تُقيمُ، وأَنَّ مَعانيَ حَياتِهِ، وسَعادتِهِ، ومَسَرَّتِهِ، تَتَوَقَّفُ جَميعًا على استِجلاءِ طَلْعتِها والإصْغاءِ إلى نَبْرَتِها.

ولم يُخْفِ عَنْها الحَقيقةَ ساعةَ الْتَقاها لَدى مَخْرَجِ عَرَبةِ القِطارِ، بل جَهَرَ بما يَكُنُّهُ لها في صَدْرِهِ... وسَرَّهُ ذٰلِكَ، سَرَّهُ يَقينُهُ بأَنَّها مُحيطةٌ بما يَضُمُّهُ لها بينَ جَوانِحِهِ.

ووَصَلَ القِطارُ إلى بطرسبرج فتَرَجَّلَ مِنْهُ وهْوَ يَشْعُرُ، على الرَّغْمِ مِن أَرَقِهِ وتَسَهُّدِهِ، بالقُوَّةِ والنَّشاطِ. ووَقَفَ في مَكانٍ يَرْقُبُ نُزولَها وهْوَ يُمَنِّي نَفْسَهُ برُؤْيتِها وسَماعِ صَوْتِها. ولٰكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُبْصِرَ بِها، وَقَعَ طَرْفُهُ على زَوْجِها الَّذي كانَ يَمْشي مَرْفوعَ الرَّأْسِ يَتْبَعُهُ ناظِرُ المَحطّةِ.

في تِلْكَ القَيْنةِ فَقَطْ تَذَكَّرَ فرونسكي أَنَّ هُناكَ إِنْسانًا مُتَّصِلًا بها اتِّصالًا وَشيجًا، وأَنَّ هٰذا الإِنْسانَ هُوَ زَوْجُها.

زَوْجُها!... كانَ يَعْلَمُ أَنَّ لها قَرينًا، لٰكِنَّهُ أَنْكَرَ وُجودَهُ ولم يَعْتَرِفْ بهِ. ورآهُ الآنَ، ورَأَى رَأْسَهُ المَرْفوعَ، ومَنْكِبَيْهِ، وسِرْوالَهُ الأَسْوَدَ الضَّيِّقَ... ورَأَى يَدَهُ تَمْتَدُّ إِلَيْها وتَقْبِضُ على ذِراعِها بثِقةٍ، كما يُمْسِكُ الإِنْسانُ مَتاعًا لهُ يَمْلِكُهُ مِن دونِ سِواهُ.

وشَعَرَ بمِثْلِ ما يَشْعُرُ بهِ رَجُلٌ بَرَّحَ بهِ الظَّمأُ، ولمّا وَصَلَ إلى مَنْهَلٍ عَلِمَ أَنَّ كَلْبًا قد وَلَغَ فيهِ، ولَوَّثَ ماءَهُ!

واضْطَرَبَ فرونسكي اضْطِرابَ الاِشْمِئْزازِ حينَ رَأَى كارنينَ بقَدَمَيهِ الضَّخْمَتَينِ ويَدَيهِ المُهْتَزَّتَينِ. أَمّا هِيَ، فكَعَهْدِهِ بِها جَميلةٌ فاتنةٌ، ومَنْظَرُها يُثيرُهُ ويَهيجُهُ ويَمْلأُ روحَهُ أَمَلًا ويَأْسًا، أَجَلْ أَمَلًا ويَأْسًا!

وإِنَّهُ لَيَسْتَعْرِضُ بناظِرَيْهِ وَجْهَ أَنّا وهْيَ تَتَحَدَّثُ إلى زَوْجِها، ويَتَتَبَّعُ خِلْسةً الانْطِباعاتِ المُخْتَلِفةَ على أَمائِرِها الدَّقيقةِ، إذ شَعَرَ بَغْتةً بالنُّفورِ الشَّديدِ مِنْ هٰذا الرَّجُلِ الدَّخيلِ! أَلَيْسَ هُوَ بالدَّخيلِ؟ أَلا يَحولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ المَرأَةِ الَّتي غَزَتْ قَلْبَهُ في لَحْظةٍ خاطِفةٍ؟!

وبَدا لهُ مِمّا رآهُ أَنَّ أَنّا بَعيدةٌ كُلَّ البُعدِ عن زَوْجِها بمَشاعِرِها وأَفْكارِها، وأَنَّها تَعيشُ في مَنْأًى عَنْهُ لا يَصِلُها بهِ إلّا رابِطَةُ الزَّوْجِيّةِ، أَمّا العاطفةُ فلَيْسَ لها في قَلْبِها وُجودٌ.

فهْيَ لا تُحِبُّهُ، وهْيَ لن تُحِبَّهُ أَبَدًا.

وسَرَّهُ هٰذا الاِكْتِشافُ فتَقَدَّمَ نَحْوَهُما بَطيئًا مُتَّئِدًا. وأَيْقَنَ، ونَفْسُهُ جَذْلى، أَنَّها شَعَرَتْ بهِ

يَدْنُو مِنْها، فتَمَلْمَلتْ في مَكانِها، وكأَنَّها تَوَدُّ أَنْ تَلْتَفِتَ، ولٰكِنْ لا تَجْرُؤُ. وواصَلَتْ حَديثَها مَعَ زَوْجِها، وانْتَظَرَتْ. أَجَلْ، هٰذا ما أَيْقَنَ بهِ. . . اِنْتَظَرَتْ.

وقالَ وهْوَ يَنْحَني مُسَلِّمًا باحْتِرامٍ: «عَسى أَنْ تَكوني قد قَضَيْتِ ليلةً مُريحةً في القِطارِ يا سَيِّدتي؟»

وغَضَّتِ الفاتنةُ مِن عَيْنَيْها قَليلاً، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَها. . . فلم يَرَ في أَساريرِها ما رَآهُ قَبْلًا مِنْ نَظَراتِ الدُّعابةِ والمُزاحِ، بل شاهَدَ عِوَضًا مِن ذٰلِكَ، شُعلةً عَجيبةً تَضْطَرِمُ بها عَيْناها لَحْظةً خاطِفةً، ولٰكِنَّها كافيةٌ، بل فيها ما يَفوقُ كُلَّ نَثْرٍ ونَظْمٍ، فيها آيةُ الحُبِّ الكُبْرى، وشُعلتُهُ الخالدةُ الَّتي لا تَخْمُدُ ولا تَنْطَفِئُ.

والْتَفَتَ الزَّوْجُ إلى فرونسكي، ولَمَعَتْ عَيْناهُ كَمَنْ يَتَلَهَّبُ غَيْظُهُ، ونَظَرَ إِليه شَزَرًا[1]، وجَعَلَ يَقْدَحُ زِنادَ ذاكرتِهِ لَعَلَّهُ يَحْدُسُ مَنْ يَكونُ هٰذا مِنَ النّاسِ.

لقد تَلاقى في تِلْكَ الفَيْنَةِ نِدّانِ[2] مُتَكافِئان، وقَرْنانِ مُتَعادِلان. واصْطَدَمَتْ إرادةُ هٰذا بإرادةِ ذاكَ، فنَفَرَ هٰذا مِنْ ذاكَ. لٰكِنَّ أَنّا سارَعَتْ تَقولُ وهْيَ تُحاوِلُ أَنْ تُنْقِذَ المَوْقِفَ: «ذَرْني يا عَزيزي أُقَدِّمْ لكَ الكُونتَ فرونسكي. . .».

فقاطَعَها زَوْجُها ببُرودٍ وهْوَ يَمُدُّ يَدَهُ إلى فرونسكي: «يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنّي أَعْرِفُكَ، أَما تَقابَلْنا مِنْ قَبْلُ؟» واسْتَدارَ إلى زَوْجِهِ، وأَرْدَفَ باللَّهْجَةِ نَفْسِها: «لَقَدِ ارْتَحَلْتِ مَعَ الأُمِّ وعُدْتِ مَعَ الِابْنِ كما أَرى. . .».

ولم يَفُتْها المَعنى الَّذي رَمى إِليهِ زَوجُها، لٰكِنَّها تَغاضَتْ مُتَجَلِّدةً، ولم تَقُلْ كَلِمةً.

ومَضى زَوجُها يَقولُ وهْوَ يَنْثَني إلى فرونسكي: «أَلَمْ يَبْقَ لكَ مَأْرَبٌ في موسكو حتّى رَجَعْتَ، أَمْ إِنَّكَ قادِمٌ في إِجازةٍ؟»

وعَجَّلَ يُخاطِبُ زَوجَهُ: «ما أَصْعَبَ الفِراقَ يا عَزيزتي! أَلَم تَذْرِفي الدُّموعَ ساعةَ غادَرْتِ موسكو؟»

وكانَ يَقْصِدُ مِنْ كَلِماتِهِ أَنْ يُنَبِّهَ فرونسكي إلى رَغْبتِهِ في التَّفَرُّدِ بزَوجِهِ. بَيْدَ أَنَّ الشّابَّ

---

(١) نَظَرَ إليهِ شَزَرًا: نَظَرَ إليهِ بجانِبِ عَيْنِهِ مُعرِضًا عنهُ.
(٢) النِّدّانِ: النَّظيرانِ، المُتَماثِلانِ.

تَجاهَلَ الغايةَ وضَرَبَ صَفْحًا عَنِ المَرْمى، وقالَ: «لَشَدَّ ما أَتَلَهَّفُ إِلى زِيارتِكُمْ في أَقْرَبِ وَقْتٍ يا سَيِّدتي!»

فحَدَجَهُ كارنينُ بعَيْنِ اللّائمِ المُتَبَرِّمِ، وقالَ: «ثِقْ أَنَّ زِيارتَكَ تَجْلِبُ لنا المَسَرَّةَ يا سَيِّدي، ونَحْنُ نَمْكُثُ في البَيْتِ دائمًا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ أُسبوعٍ».

واسْتَدارَ كأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُشْعِرَهُ بأَنَّهُ لا يَرْغَبُ في مُتابَعَةِ الحِوارِ، ثُمَّ تَأَبَّطَ ذِراعَ زَوْجِهِ وقالَ: «أَكْثَرُ ما يُسْعِدُني يا عَزيزتي انتِهابُ دَقائقَ مِنْ وَقْتِي لأَراكِ فيها، وأُمَلِّيَ طَرْفي في حُسْنِكِ، وأُمَتِّعَ نَفسي بالإِصْغاءِ إِلى كلِماتِكِ».

فقالَتْ مازِحَةً: «لا تُبالِغْ في وَصْفِ إِخلاصِكَ، فأَنا لا أُقَدِّرُ الأُمورَ بما تَسْتَحِقُّها!»

وأَنْصَتَتْ مِن دونِ انْتِباهٍ إِلى خُطُواتِ فرونسكي المُبْتَعِدةِ، وشَعَرَتْ أَنَّ قَلْبَها يُرافِقُهُ، وأَنَّ روحَها عَصَتْ جَسَدَها، وعَصَتْ عَقْلَها، وانْتَزَعَتْ فَرْعها مِن جَذْرِها لتَلْحَقَ بروحِهِ، وتَصْحَبَ روحَهُ، وتُواكِبَ هٰذِهِ الرُّوحَ الحَبيبةَ.

إِنَّ لِشَبابِهِ بُرْدًا قَشيبًا[1]، وإِنَّ لِرَيّاهُ[2] أَرَجَ الغُصْنِ الرَّطيبِ. ولٰكِنَّها اسْتَشْعَرَتِ النَّدَمَ، وشاءَتْ أَنْ تَتَدارَكَ الأَمْرَ، فَسَأَلَتْ زَوجَها عن وَلَدِها «سيرج»، وعن صِحّتِهِ وتَصَرُّفاتِهِ.

فما كانَ مِنَ الرَّجُلِ الرَّصينِ إِلَّا أَنْ أَجابَها مُبْتَسِمًا: «رَوَتْ لي الحاضنةُ مارييتا أَنَّهُ لم يُفْرِطْ قَطُّ في المَرَحِ والسُّرورِ كما أَفْرَطَ في أَثْناءِ غِيابِكِ، وهٰذا يَدُلُّكِ على أَنَّ زَوْجَكِ هُوَ الوَحيدُ الَّذي افْتَقَدَكِ».

فقَرْقَرَتْ أَنّا ضاحِكةً، واسْتَتْلى هُوَ يَقولُ: «وثَمَّةَ إِنْسانٌ آخَرُ كانَ لا يَفْتَأُ يَسْأَلُ عَنْكِ، وكأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ أَوْبَتَكِ، وهٰذا الشَّخْصُ هُوَ صَديقَتُكِ «الكونتس ليديا إِيفانوفنا»».

وصَمَتَ فَيْنَةً، ثُمَّ أَرْدَفَ كمَنْ يَتَذَكَّرُ شَيْئًا غابَ عنهُ: «وهل صادَفَكِ التَّوْفيقُ في مُهِمَّتِكِ؟ هل نَجَحْتِ حَيْثُ أَخْفَقَ غَيْرُكِ؟»

فلاحَ البِشْرُ على مُحَيّاها وأَجابَتْ: «كُلَّ التَّوْفيقِ والحَمْدُ للهِ. لقَدْ كانَ الخِصامُ على أَشَدِّهِ بَيْنَ أوبلنسكي وزَوْجِهِ، ولولا وُجودِي لانْفَصَلَ الِاثْنانِ وتَصَدَّعَ البُنْيانُ وتَشَتَّتَتِ الأُسرَةُ».

---

(١) قَشيبًا: جَديدًا نَظيفًا.

(٢) رَيّاهُ: رائِحَتُهُ الطَّيِّبَةُ.

وطَفِقَتْ تَقُصُّ عليهِ بالتَّفْصيلِ دَقائِقَ رِحْلتِها برِفْقَةِ الكونتس فرونسكي إلى موسكو، وما شاهَدَتْهُ مِنْ حادِثٍ مُرَوِّعٍ في المَحَطَّةِ.

وقالَ زَوْجُها بَعْدَ انتِهائِها مِن سَرْدِها: «إنّي وأَيْمُ الحَقِّ لا أَجِدُ ما أُعَلِّلُ بهِ جُنوحَ أَخيكِ سِوى مَيلِهِ إلى المُتْعَةِ المُحَرَّمَةِ، واللَّذَّةِ المُبْتَذَلَةِ الَّتي لا يَسْتَسيغُها كُلُّ ذي حَصافةٍ وإِرادةٍ».

فرَنَتْ إليهِ أنّا مُبْتَسِمةً مُتَفَكِّرَةً. إنَّهُ كَعَهْدِها بهِ صارِمٌ في نَظْرتِهِ وتَفْكيرِهِ، عَنيدٌ في مَبْدَئِهِ، لا يُطيقُ الِانْحِرافَ، ولا يَخْشى مِنْ قَولِ الحَقِّ، وَلَوْ كانَ ضِدَّ أَقْرَبِ المُقَرَّبينَ إِلَيْهِ، بَلْ لَوْ كانَ ضِدَّهُ هُوَ بالذّاتِ. وكانَتْ أَنّا تُكْبِرُ فيهِ هٰذهِ العادةَ؛ كانَتْ تَثِقُ بِهِ وتَحْتَرِمُهُ لخُلُقِهِ وطَبْعِهِ. فهْوَ لا تَروقُهُ المَباذِلُ الَّتي يَنْغَمِسُ فيها سِواهُ مِنَ الرِّجالِ، وهْوَ يَأْنَفُ مِنْ مُصادَقَةِ أَيٍّ كانَ، مَتى ارْتابَ في أَمْرِهِ ونَواياهُ.

وقالَ الرَّجُلُ: «على أَنّي مَسْرورٌ لنَجاحِكِ في إزالةِ الغَمامةِ الَّتي ظَلَّلَتْ سَماءَ العائِلَةِ».

إنَّ شُعاعَ الرَّجُلِ يَدُلُّ على شَمْسِهِ، وإِنَّ هُدوءَهُ في القَوْلِ والتَّفْكيرِ لأَبْلَغُ دَليلٍ على رَجاحَتِهِ واتِّزانِهِ... وقد خَجِلَتْ أَنّا ساعَةَ انْثَنى يَقولُ بَغْتَةً: «أَخْبِريني يا عَزيزتي عن مَوْقِفِ الأَهْلينَ في موسكو حِيالَ التَّجْنيدِ الإجْبارِيِّ الَّذي أَثَرْتُ مَوْضوعَهُ أَخيرًا في الحُكومةِ».

أَجَلْ، خَجِلَتْ أَنّا لأَنَّها أَهْمَلَتْ شَأْنَ زَوجِها، فلم تُفَكِّرْ فيهِ دَقيقةً، ولم تُحاوِلْ سَبْرَ آراءِ النّاسِ في ما يَعْني زَوْجُها مِنْ أُمورِ السّياسةِ. بَيْدَ أَنَّها، وقد كانَتْ تَعْرِفُ في زَوجِها مَيلَهُ إلى الإطْراءِ والثَّناءِ، طَفِقَتْ تَسْأَلُهُ بحَمِيَّةٍ وحَماسةٍ عمّا انْتَهى إليهِ مَشْروعُهُ، وعَنِ المَراحِلِ الَّتي مَرَّ فيها، ويَنْتَظِرُ أَنْ يَمُرَّ فيها في أَثْناءِ الأَيّامِ المُقبِلَةِ.

وسُرَّ كارنينُ لإِقْبالِ زَوْجِهِ عَلَيْهِ وإِظْهارِها كُلَّ هٰذِهِ الحَماسَةِ، فأَجابَ: «إنَّ مَشْروعي يا عَزيزتي، وَليدُ تَفْكيرٍ وإِعدادٍ طَويلَيْنِ، لهٰذا لَمْ يُدْهِشْني ما لَقِيَهُ مِنْ مُعارَضةٍ وتَأْييدٍ. وإِنَّ المُعارَضةَ والتَّأْييدَ لَيَدُلّانِ على ما انْتَهى إليهِ أَمْرُ النّاسِ مِنْ إِكْبابِهِمْ على بَحْثِ الأُمورِ مَلِيًّا ووَزْنِها بميزانِ العَقْلِ والتَّمْييزِ الحَسَنِ».

ونَظَرَ إلى ساعتِهِ، وأَرْدَفَ: «أَمّا الآنَ فأنا ذاهِبٌ، يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إلى عَمَلي، وثِقي أَنّي جِدُّ مُغْتَبِطٍ لعَودتِكِ».

فَتَمْتَمَتْ بصَوْتٍ خافِتٍ: «لتُرافِقْكَ السَّلامةُ يا زَوْجي!»

وأَتْبَعَتْهُ نَظَرَها، ونَاجَتْ نَفْسَها: «خيرُ الرِّجالِ... أَفْضَلُ الأَزْواجِ... بارِعٌ، بارِزٌ، مُخْلِصٌ».

فهل تَوَخَّتْ مِن كَلماتِها أَنْ تُرَجِّحَ كِفَّتَهُ على كِفَّةِ سِواهُ؟ هل تُحارِبُ إِحْساسًا غامِضًا يَصْرِفُها عَنْهُ صَرْفًا شَديدًا؟

وقالَتْ فَجْأَةً: «غيرَ أَنَّ أُذُنَيْهِ، أُذُنَيْهِ، لماذا طالَتا وانْتَفَخَتا؟ هل حَلَقَ شَعْرَ رَأْسِهِ؟ هل أَزالَ كَثيرًا مِنْهُ؟!»

وانْتَقَلَتْ بمُخَيِّلَتِها إلى فرونسكي، فرَأَتْهُ، وأُعْجِبَتْ بِهِ، وتَساءَلَتْ مُغْضَبَةً: «تَبًّا لَهُ كيفَ نَظَرَ! كيفَ نَظَرَ إِلَيَّ!»

وهَزَّتْ رَأْسَها، واسْتَقَلَّتِ العَرَبَةَ.

ولمّا تَرَجَّلَتْ أمامَ مَنْزِلِها هُرِعَ إِلَيْها ابْنُها سيرجُ، فضَمَّتْهُ إِلَيْها في حُبٍّ وشَوْقٍ، وطَبَعَتْ على وَجْنَتِهِ قُبْلَةً أَوْدَعَتْها أَغْلى عاطفةٍ، قُبْلَةً مُخلِصَةً لا زَيْفَ فيها ولا رِياءَ... قُبْلَةَ أُمٍّ!

وما لَبِثَتْ بَعْدَ ساعةٍ أَنْ أَقْبَلَتْ على مَلابِسِها تَسْتَخْرِجُها وتُرَتِّبُها، ثُمَّ فَضَّتِ الرَّسائِلَ الَّتي وَرَدَتْ إِلَيْها في أَثْناءِ غَيْبَتِها. ولمّا فَرَغَتْ مِنْ هٰذِهِ الأُمورِ انْهَمَكَتْ في تَدبيرِ المَنْزِلِ، والإِشْرافِ على شُؤُونِهِ.

وفَاءَتْ[1] إلى نَفْسِها وعاوَدَتْها طُمَأْنينَتُها؛ فهُنا مَلْجَأٌ أَمينٌ، هُنا لا تُساوِمُها عَيْنٌ جَميلةٌ ولا وَجْهٌ وَسيمٌ، هُنا مَمْلَكَتُها الصَّغيرةُ. ونَسِيَتْ فرونسكي، ونَسِيَتْ خَجَلَها، ونَسِيَتْ تَأْنيبَ ضَميرِها، وما فَكَّرَتْ إِلَّا في بَيْتِها وفي وَلَدِها وزَوْجِها.

وشَرَعَتْ بَعْدَ قَليلٍ تَسْخَرُ مِنْ نَفْسِها. كيفَ تُعْجَبُ بشابٍّ لم تَرَهُ إِلَّا مَرّاتٍ؟ ثُمَّ كيفَ تُفَكِّرُ فيهِ وكَلامُهُ ليسَ فيهِ إِغْراءٌ ولا بارقةُ ذَكاءٍ؟ وقالَتْ تُناجي نَفْسَها: «والأَجْدَرُ بي أَنْ أُزيلَ مِنْ ذاكِرتي ما صادَفَني وما طَرَقَ سَمْعي، فلا أُحَدِّثَ زَوْجي بأَمْرٍ تافِهٍ لا يَسْتَأْهِلُ التَّفْكيرَ».

وضَحِكَتْ ساعةَ اسْتَعادَتْ إلى الذّاكِرَةِ حادِثَةً مَرَّتْ بها مُنْذُ سَنةٍ، وأَثْبَتَتْ لَها أَنَّ زَوْجَها رَجُلٌ عَزيزُ الجانِبِ يَثِقُ بها ويَثِقُ بنَفْسِهِ...

فقد عَلِقَ بها شابٌّ يَعْمَلُ تَحْتَ إِمْرَةِ زَوْجِها، وجَعَلَ في كُلِّ مُناسبةٍ يَتَوَدَّدُ إِلَيْها، ثُمَّ

---

(١) فاءَتْ إلى نَفْسها: عادَتْ إِلَيها بعدَ شُرودٍ.

حاوَلَ ذاتَ يَوْمٍ أَنْ يَبوحَ لَها بلَواعِجِ قَلْبِهِ، بينَ دُموعٍ تَنْحَدِرُ مِنْ مآقيهِ، وزَفَراتٍ يَنْشَقُّ عنها صَدْرُهُ. فما كانَ مِنها إِلَّا أَنْ أَسَرَّتِ الخَبَرَ إِلى زَوْجِها، فلَمْ يَحْفِلِ الشابَّ، ولَمْ يَكْتَرِثْ لِقِحَتِهِ وجُرْأَتِهِ، بل صارَحَها القَوْلَ بأَنَّهُ لا يَخافُ عَلَيها، لأَنَّهُ يَعْلَمُ ما تَتَحَلَّى بهِ مِنْ صفاتِ المَنْعةِ والقُوّةِ والشَّرَفِ.

وشَخَصَتْ إلى أَعْلى، وقالَتْ: «فلا مُوجِبَ إِذًا لمُفاتَحَتِهِ في أَمْرٍ تافِهٍ ما دُمْتُ شَريفةً طاهِرَةً لَمْ أَجْتَرِحْ إِثْمًا ولم أَزِرْ وازِرةً».

ولٰكِنْ... أَيْنَ الشُّعلةُ الَّتي انْبَثَقَتْ مِنْ عَينَيها وهْيَ في موسكو؟

لقد زالَتْ!

أَيْنَ الوَميضُ العَجيبُ الَّذي كانَ يَنْقَدِحُ شَرَرًا مُدْهِشًا كُلَّما كَلَّمَها (هُوَ)؟

لقد خَمَدَ!

إِنَّها في بَيتِها...

أُمٌّ وزَوجةٌ...

فلْتَبْقَ كذٰلِكَ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - علامَ يدلُّ قولُ أَنّا كارنينا إِذِ انطلَقَ بها القِطارُ: «انْتَهى كلُّ شيءٍ، والحمدُ لله على نعمائِهِ... ألف شكر للهِ، سأرى غَدًا سيرج وأَلكسيس كارنين، وستعودُ حياتي إلى مجراها الطّبيعيّ، فتوضعُ الأمورُ في نصابها ويستريحُ الضَّميرُ، وتَقَرُّ العينُ»؟

٣ - ما نَوعُ الكتابِ الَّذي شَرَعَتْ أَنّا تقرأُهُ في القطار؟ وبأيِّ لغةٍ هو؟

٤ - ما الأسبابُ الَّتي حالَتْ بينَها وبين القراءةِ؟

٥ - ذَكَرَ الكاتِبُ الرِّياحَ بصفيرها وزئيرها، فهل كانَ هذا يرمُز عنده لأَمرٍ ما؟

٦ - ما كانَ شُعورُ أَنّا حينَ وقعَتْ عينُها على فرونسكي في مَحَطّةِ القطارِ؟

٧ - لِمَ رأَتْ أَنّا في زوجِها حينَ استقبَلَها قُبْحًا كأنّها لم تَرَهُ من قَبْلُ؟

٨ - هل كانَ للحوارِ الَّذي دارَ بينَ أَنّا وزوجِها فضلٌ في كشفِ بعضِ ملامحِ شخصيَّتِهِ؟ وضِّحْ ذلك.

٩ - ما أَبرزُ سماتِ اللّقاء الأوَّل بينَ زوجِ أَنّا والضّابطِ فرونسكي؟

١٠- ما الانطباعُ الَّذي كوَّنْته عن الزَّوج كارنين؟

١١- هَلِ استطاعَ الكاتِبُ أَنْ يَرسُمَ صورةً واضحةً للصِّراعِ النفسيِّ الغامضِ الَّذي يعتَمِلُ في صدرِ أَنّا كارنينا بعد لقاءاتِها المتكرِّرةِ بفرونسكي؟ وضِّحْ هذهِ الصّورةَ.

١٢- ارْبِطْ، في أَسطرٍ قليلةٍ، بينَ أَحداثِ القسمِ الأَوَّلِ مِنَ الرِّواية.

القسم الثَّاني

الفصل الأوَّل

أَصابَ كاترينَ بَعْدَ تِلْكَ الوَليمةِ وَصَبٌ شَديدٌ، وكانَتِ الأُسرةُ في غِنًى عن هٰذِهِ المَتاعِبِ، كانَتْ في غِنًى عَنِ المُداورةِ في مَسْأَلةِ زَواجِ كاترينَ... فليفينُ خَيرُ شابٍّ، ولٰكِنْ...

لم يَخَفْ أَحَدٌ مِنْ سوءِ العُقْبى، ونَظَروا إلى فرونسكي كأَنَّهُ الزَّوجُ المِثاليُّ... ورَأَتْهُ كاترينُ ببَصَرِها لا ببَصيرتِها، فلمَّا ذَهَبَ، وخُيِّلَ إليها أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ ارْتَبَطَ بِمَسْأَلتِها قد انْتَهى إلى زَوالٍ، اجْتَمَعَتِ الأُمورُ كُلُّها على إثارةِ شَجَنِها، واسْتِفْزازِ أَلَمِها...

ونَظَرَتْ إلى الوَراءِ وإلى الأَمامِ، فأَلْفَتْ أَنَّها مُتَعَرِّضَةٌ، في سَبيلِ مَطْمَعٍ خَلّابٍ، لصُنوفِ الشَّقاءِ، وأَنَّها أَضْحَتْ هِيَ وأَفْكارُها وآمالُها عَدَمًا.

وأُفْعِمَ قَلْبُها بالحُزْنِ، وأَصابَها السَّقَمُ؛ فنَحَلَ عودُها، ورَقَّ جِلْدُها، وتوَلَّاها شُحوبٌ واصْفِرارٌ.

* * *

ولَّى فَصْلُ الشِّتاءِ، وخَفَّتْ وَطْأَةُ البَرْدِ، وعُقِدَ في بَيْتِ آلِ شرباتسكي مَجْمَعٌ طِبِّيٌّ للبَتِّ في حالةِ كاترينَ الصِّحِّيّةِ، والإجْراءاتِ الَّتي يَجِبُ اتِّخاذُها حتّى تَسْتَعيدَ الفَتاةُ قُوتَّها.

كانَتْ مَريضةً، وزادَ سَقَمُها بمَجيءِ الرَّبيعِ، فأَمْسَتْ ضَعيفةً مُعْتَلَّةً مُصْفَرَّةَ الوَجْهِ لا تَميلُ إلى الحَرَكةِ، وتَنْفُرُ مِن كُلِّ مَجْهودٍ.

وقد أَعْطاها طَبيبُ العائِلَةِ كُلَّ أَنواعِ المُقَوِّياتِ الشائِعَةِ كزَيْتِ السَّمَكِ، ثُمَّ مُشْتَقَّاتِ الحَديدِ، ثُمَّ نَتَراتِ الفِضَّةِ. غيرَ أَنَّهُ نَظَرًا لِعَدَمِ حُصولِها على الفائدةِ المُتَوَخّاةِ مِنَ الأَوَّلِ والثّاني والثّالِثِ، رَأَتِ العائلةُ أَنَّهُ يَتَحَتَّمُ الاسْتِعانةُ بِنطاسِيٍّ[1] شهيرٍ.

(1) النِّطاسِيُّ: الطَّبيبُ العالِم.

وكانَ النِّطاسِيُّ البارِعُ شابًّا جَميلَ الصُّورةِ إلى دَرَجةٍ مُتَناهِيَةٍ، حتّى إنَّ رَبَّ العائِلَةِ احْتارَ في أَمْرِهِ، ولم يَعْرِفْ كيفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بفَحْصِ الفَتاةِ!

ولمّا أَجْرى فَحْصَهُ أخيرًا قالَ إنَّ حَياءَ الفَتاةِ مِنَ الوُقوفِ عاريَةً أَمامَ الطَّبيبِ لَهُوَ مِن قَبيلِ البَرْبَرِيَّةِ، وإِنَّهُ أَمْرٌ طَبيعيٌّ أَنْ تَفْعَلَ ذٰلِكَ مِن دونِ تَحَرُّجٍ.

وكانَ لا يَرَى شَيْئًا مُسْتَهْجَنًا في وُقوفِ كاترينَ أَمامَهُ عارِيةً، فهْوَ يَرى كُلَّ يَوْمٍ في عيادتِهِ أَلوانًا جَديدةً مِنْ أَجْسامِ النِّساءِ، حتّى أَصْبَحَ كُلُّ اعْتِراضٍ مِنْ هٰذا القَبيلِ يُثيرُ دَهْشَتَهُ واشْمِئْزازَهُ. . . وليسَ غَريبًا أَنْ يَرى تَحَرُّجَها مِنَ الإقْدامِ على هٰذا الفِعْلِ نَوْعًا مِنَ الهَمَجِيَّةِ والبَرْبَرِيَّةِ، بل الغَريبُ أَنْ لا يَرى تَحَرُّجَها نَوْعًا مِنَ الإهانَةِ المُوَجَّهةِ إليهِ.

ولم يَجِدْ آلُ شرباتسكي مَنْدوحةً مِنَ الإذْعانِ أَخيرًا. ومَعَ أَنَّ كُلَّ الأَطِبّاءِ تَلَقَّوا فَنَّهُمْ في مَعْهَدٍ واحِدٍ، ودَرَسوا في كُتُبٍ واحِدةٍ، ومَعَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ زَعَموا أَنَّ هٰذا الطَّبيبَ الذّائِعَ الصِّيتِ لا يَعْرِفُ مِنَ الطِّبِّ إِلّا اسْمَهُ، رَأَى ذَوو الأَميرَةِ الأُمِّ والمُقَرَّبونَ مِنها، بل سَلَّمُوا جَدَلًا بأَنَّ هٰذا الطّبيبَ وَحْدَهُ قادِرٌ على مُعالَجَةِ كاترينَ وشِفائِها مِنْ وَعْكَتِها.

وأَجْرى الطَّبيبُ فُحوصَهُ الدَّقيقةَ على الفَتاةِ العارِيَةِ الغارِقةِ في عَرَقِ الخَجَلِ والحَياءِ. ولمّا انْتَهى بَعْدَ ساعةٍ، غَسَلَ يَدَيْهِ بعِنايةٍ، ووَقَفَ مَعَ الأَميرِ الأَبِ يُحَدِّثُهُ بصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ.

وقد أَصْغَى إِلَيهِ الرَّجُلُ وهْوَ عابِسٌ مُقَطِّبٌ، وسَعَلَ سُعالَ مَنْ لا يُريدُ أَنْ يُصْغِيَ إلى لَغْوٍ مِنَ الحَديثِ. وكانَ قَليلَ الإيمانِ بالطبِّ، يَمُجُّ الأَطِبَّاءَ، ويَمْقُتُ هٰذا الطَّبيبَ بنَوْعٍ خاصٍّ لغَرابةِ أَطْوارِهِ، وشُذوذِهِ في تَأْدِيةِ أَعْمالِهِ.

وكانَ نَفُورًا بطَبْعِهِ مِنِ اسْتِحْداثِ الضَّجّةِ الّتي لا لُزومَ لَها. كانَ يَرْغَبُ دائمًا في مُعالَجةِ الأُمورِ بُهدوءٍ ولينٍ. ولَعَلَّ نُفورَهُ مِنْ كُلِّ ما جَرى حَوْلَهُ نَتَجَ عن إحاطتِهِ بمَرَضِ ابْنَتِهِ، بالسَّبَبِ، ثُمَّ بالدَّواءِ!

وعَلَّقَ، وهْوَ يُصْغي مُكْرَهًا إلى شَرْحِ الطَّبيبِ، يُحَدِّثُ نفسَهُ بقَولِهِ: «يا لَلْمَغْرورِ الأَحْمَقِ! يا لَلْمَغْرورِ الأَحْمَقِ!»

وقد بادَلَهُ الطَّبيبُ شُعورَ الكَراهِيةِ والِاحْتِقارِ، ولٰكِنَّهُ كَتَمَ ما خالَجَ إِحْسَاسَهُ، وأَخْفى احْتِقارَهُ، وكُرْهَهُ تحتَ قِناعِ الجِدِّ والصَّرامةِ. وكانَ يَشْعُرُ وهْوَ يُكَلِّمُهُ أَنَّهُ يَجورُ على نَفْسِهِ

وعلى وَقْتِهِ، وأَنَّ عليهِ أَنْ يُخاطِبَ الأَميرَةَ الزَّوْجَةَ في شَأْنِ ابنَتِها.

ودَخَلَتِ الأَميرةُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ وبرِفْقَتِها طَبيبُ العائلَةِ. فانْسَحَبَ الأَبُ وقد أَصابَتْهُ سَوْرَةٌ مِنِ اسْتِهجَانٍ لِهٰذِهِ التَّمْثيليَّةِ الَّتي طالَتْ فُصولُها.

وكانَتِ الأَميرةُ مُوَزَّعَةَ الأَفْكارِ، مُضْطَرِبَةً مُرْتَبِكَةً، تَشْعُرُ بِأَنَّها مُذْنِبَةٌ تُجاهَ ابْنَتِها لأَنَّها السَّبَبُ في ما حَلَّ بها وأَصابَها.

فلمّا دَنَتْ مِنَ الطَّبيبِ الشَّهيرِ قالَتْ تُخاطِبُهُ: «قُلْ يا سَيِّدي الطَّبيبَ ماذا وَجَدْتَ؟»

ووَدَّتْ أَنْ تُضِيفَ إِلى كَلِماتِها هٰذِهِ الكَلِماتِ: «هل هُناكَ أَمَلٌ؟»

بَيْدَ أَنَّ شَفَتَيْها اخْتَلَجَتا، فلم تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْطِقَ بِهِما، بل رَدَّدَتْ: «قُلْ يا سَيِّدي الطَّبيبَ!»

قالَ: «سأُطْلِعُكِ على كُلِّ شَيْءٍ يا سَيِّدتي، بَعْدَ أَنْ أَخْلُوَ قليلًا إِلى زَميلي».

فطَأْطَأَتِ الأَميرةُ مُسْتَسْلِمَةً، وانْسَحَبَتْ وَهْيَ تَتَنَهَّدُ مِن كَبِدٍ فَطَرَها الهَمُّ، وبَرَّحَ بها الغَمُّ.

فلمّا انْفَرَدَ الطَّبيبانِ أَحَدُهما بالآخَرِ، شَرَعَ طَبيبُ العائِلَةِ يَشْرَحُ وُجْهَةَ نَظَرِهِ، ويُبَيِّنُ لزَميلِهِ ما تَوَصَّلَ إِليهِ. وقد زَعَمَ لَهُ أَنَّ كاترينَ مُصابةٌ بالتَّدَرُّنِ الرِّئَوِيِّ...

ومَضى يَتَكَلَّمُ، والطَّبيبُ الكَبيرُ يُصيخُ صامِتًا مُقَطِّبًا. وقاطَعَهُ أَخيرًا فقالَ: «قد تَكونُ مُصيبًا، ولٰكِنْ...».

وأَصْغى طَبيبُ العائلةِ بانْتِباهٍ.

واسْتَطْرَدَ النِّطاسِيُّ الحَويلُ[1] يَقُولُ: «ولا يَغْرُبْ عن بالِكَ ما نَلْقاهُ مِنْ صُعوبةٍ في تَشْخيصِ التَّدَرُّنِ[2] في أَوَّلِ أَمْرِهِ، وما لم تَظْهَرِ العَوارِضُ الثّابِتَةُ اسْتَعصى علينا التَّشْخيصُ والتَّحليلُ. بَيْدَ أَنَّ هُناكَ عَلاماتٍ بَيِّنَةً، مِنها الضَّعْفُ، والِانْفِعَالُ، والِاضْطِرابُ، وهَلُمَّ جَرًّا. وعلينا الآنَ أَنْ نُقَرِّرَ الطَّريقةَ المُثْلَى الَّتي يَخْلُقُ بنا اتِّباعُها لمُقاوَمَةَ الِانْهِيارِ، وتَغْذِيَةِ الجِسْمِ المُصابِ أَوِ المُعَرَّضِ للإِصابةِ...».

وقالَ طَبيبُ العائِلةِ وهْوَ يَبْتَسِمُ ابتِسامةً ماكِرةً: «إِلّا أَنَّ عَلينا دائِمًا أَنْ نَأْخُذَ بعينِ الِاعْتِبارِ

---

(1) الحَويلُ: الكَثيرُ الحيلَةِ، القادِرُ على حَلِّ المُسْتَعْصي.

(2) التَّدَرُّنُ: داءُ السِّلِّ.

الأَسْبابَ الرُّوحِيّةَ، وهي الباعثُ الأَساسِيُّ، والعامِلُ الأَوَّلُ على انْهِيارِ المُقاوَمَةِ لَدى المَريضِ أوِ المُتَعَرِّضِ لِلْمَرَضِ».

فنَظَرَ الطَّبيبُ الكَبيرُ إِلى ساعتِهِ وأَجابَ: «نَعَم، هٰذا أَمْرٌ مُسَلَّمٌ بِهِ...».

ونَظَرَ إِلى ساعتِهِ ثانِيَةً، واسْتَتْلى: «عَلَيَّ أَنْ أُغادِرَ هٰذا المَنْزِلَ بَعْدَ دَقائِقَ. آهِ ماذا كُنّا نَقُولُ؟ التَّغذِيَةُ، أَجَلْ التَّغْذِيَةُ، ثُمَّ تَقوِيَةُ الأَعْصابِ... وهٰذانِ الأَمْرانِ صِنْوانِ لا يَفْتَرِقانِ، ويَجْدُرُ بنا أَنْ نُرَكِّزَ عِنايَتَنا عَلَيهِما مَعًا».

فقالَ طَبيبُ العائلةِ: «وماذا تَرى في جَولةِ تَرْفيهٍ إِلى الخارجِ؟»

قالَ: «لَسْتُ مِنَ المَيّالينَ إِلى هٰذا الضَّرْبِ مِنَ العِلاجِ، وإذا كانَ المَرَضُ قد دَخَلَ في مَرْحلتِهِ الأُولى فما نَفْعُ السَّفَرِ؟ وهل يُجْدِي الحَلُّ والتَّرْحالُ فَتيلًا في شِفاءِ المَريضِ؟ أَمّا الأَمْرُ الَّذي يَجِبُ أَنْ نَقْصِرَ عليهِ عِنايَتَنا فهْوَ التَّغْذِيَةُ، أَجَلِ التَّغْذِيَةُ...».

وجَعَلَ النِّطاسِيُّ الشَّهيرُ يَصِفُ الطَّرِيقَةَ المُثْلى لتَقْوِيَةِ شَهِيَّةِ كاترينَ وحَثِّها على الأَكْلِ.

وأَصْغى طَبيبُ العائِلَةِ بانْتِباهٍ واحْتِرامٍ لآراءِ زَميلِهِ، ثُمَّ قالَ: «إِلّا أَنَّ الأُمَّ تُفَضِّلُ السَّفَرَ إِلى الخارِجِ، كما أُؤَيِّدُها أنا في رَأْيِها، لأَنَّ الاِبْتِعادَ عن مَوْطِنِ الذِّكْرَياتِ لَهُوَ أَنْجَعُ عِلاجٍ لِلْقَلْبِ والرّوحِ والمَشاعِرِ».

قالَ: «فلْتَذْهَبْ إذًا، ما دامَتِ الأُمُّ تُصِرُّ على ذٰلِكَ».

ثُمَّ نَظَرَ إِلى ساعتِهِ، وتابَعَ: «آهِ، لقد سَبَقَني الوَقْتُ».

وعَجَّلَ إِلى البابِ، فالْتَقى الأَميرةَ، وطَلَبَ إِلَيْها أَنْ تَقودَهُ إِلى كاترينَ...

فهَتَفَتْ مُنْذَعِرةً: «أَفَحصٌ طِبِّيٌّ آخَرُ؟ أَتَوَدُّ أَنْ تَفْحَصَها لِلْمَرَّةِ الثّانيةِ؟»

قالَ: «لا، لا... بل أُريدُ أَنْ أَطْرَحَ عَلَيها بِضْعَةَ أَسْئِلَةٍ، أو بعِبارةٍ أَصَحَّ أَنْ أَشْرَحَ الأَمْرَ قَليلًا».

فقادَتْهُ الأُمُّ إِلى قاعةِ الاِسْتِقْبالِ، وكانَتْ كاترينُ هُناكَ، كانَتْ مُضْطَرِبةً مُتَضَرِّجةَ الخَدَّيْنِ، لامِعةَ العَيْنَيْنِ. ولَعَلَّ تَهَيُّجُها كانَ مِن جَرّاءِ الخَجَلِ الشّديدِ الَّذي شابَ مَشاعِرَها ساعةَ تَعَرَّتْ أَمامَ هٰذا الرَّجُلِ.

فلمّا دَخَلَ الطَّبيبُ اغْرَوْرَقَتْ عَيْناها بالدُّموعِ. إِنَّ كُلَّ ما يَمُتُّ إِلى مَرَضِها وعِلاجِها كانَ

في نَظَرِها أَمْرًا سَخيفًا لا مُوجِبَ لَهُ! وتَطْبيبُها بَدا لَها كأَنَّهُ مُحاولةٌ عَقيمةٌ لجَمْعِ قِطَعِ آنِيَةِ خَزَفٍ مُحَطَّمةٍ وإرْجاعِها إلى سابِقِ حالتِها. فلماذا يُحاولونَ تَطْبيبَها بِهٰذِهِ العَقاقيرِ؟ لٰكِنَّها لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَزيدَ في حُزْنِ أُمِّها ومَرارَتِها، وخُصوصًا أَنَّها - أَي أُمَّها - تَرى نَفْسَها المَسْؤولَةَ الأُولى عمّا لَحِقَ بها مِنْ سُوءٍ!

وطَلَبَ الطَّبيبُ الشَّهيرُ إليها أَنْ تَجْلِسَ، وجَلَسَ هُوَ تِلْقاءَها، وطَفِقَ مَرَّةً أُخْرى يُلْقي عَلَيها أَسْئِلَتَهُ المُحْتَمَلَةَ، ويَجُسُّ نَبْضَها ويَتَحَسَّسُ جَبْهَتَها.

واحْتَدَمَ غَيْظُها على حينِ غِرَّةٍ، فقالَتْ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «المَعْذِرةَ يا سَيِّدي الطَّبيبَ، إنّي لا أَرى فائدةً في ما تَفْعَلُ، فقد أَعَدْتَ أَسْئِلَتَكَ، وقد تَحَسَّسْتَ رُسْغي وجَبيني أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرّاتٍ، فما مَعْنى هٰذا؟»

فلم يَحْفِلِ الطَّبيبُ كَلامَها، بلِ اسْتَدارَ إلى أُمِّها ساعةَ انْدَفَعَتْ كاترينُ خارجةً، وقالَ: «انفِعالٌ مَصْدَرُهُ الوَهَنُ... ضَعْفٌ شَديدٌ في الأَعْصابِ!»

ثُمَّ أَنْشَأَ يَشْرَحُ لِلأُمِّ مِنَ الوُجْهَةِ العِلْمِيَّةِ، بصِفَتِها امْرَأَةً خارِقَةَ الذَّكاءِ، حالةَ ابْنَتِها. وقد أَصَرَّ عليها أَنْ تُرْغِمَها على تَجَرُّعِ نَوْعٍ خاصٍّ مِنَ المياهِ المَعْدِنِيَّةِ. ولمّا أَخَذَتْ رَأْيَهُ في السَّفَرِ اسْتَغْرَقَ الطَّبيبُ في الفِكْرِ، وكأَنَّهُ يُحاوِلُ أَنْ يَبُتَّ في مُشْكِلَةٍ خَطيرَةٍ. وأَخيرًا نَطَقَ بحُكْمِهِ، فقالَ: «في اسْتِطاعةِ كاترينَ أَنْ تُسافِرَ، شَريطةَ أَنْ لا تَسْتَأْمِنَ أَيَّ طَبيبٍ أَجْنَبِيٍّ».

وأَفْرَخَ رُوعُ[1] الأَميرةِ الأُمِّ، ورَجَعَتْ إليها الطُّمَأْنينةُ. وما إنِ انْصَرَفَ الطَّبيبُ حتّى طَفِقَتْ تَتَحَدَّثُ مَعَ كاترينَ عَنِ الرِّحلةِ المَوْعودةِ. وقد تَظاهَرَتِ الفتاةُ بالسُّرورِ، فأَقْبَلَتْ على أُمِّها تُبادِلُها الكَلامَ، وتُصْغي إليْها، ولا تُظْهِرُ لَها ما يَخْتَلِجُ في قَلْبِها مِنَ الحَسَراتِ والشُّجونِ.

* * *

وجاءَتْ داريا، فجَلَسَتْ مَعَ أُمِّها وشَقيقتِها، ثُمَّ دَلَفَ الأَميرُ الأَبُ إلى الحُجْرةِ، فقَدَّمَ خَدَّهُ لابنتِهِ داريا، وقالَ مُوَجِّهًا الحَديثَ إلى زَوجتِهِ: «أَمُصَمِّمةٌ أَنْتِ على الرَّحيلِ؟ وماذا فَعَلْتِ مِن أَجْلي أنا؟»

---

(١) أَفْرَخَ رُوعُها: انْكَشَفَ خَوْفُها وزالَ.

قالَتْ: «أَرى أَنْ تَبْقى هُنا يا أَلِكْسَنْدَرُ، على أَنَّ الأَمْرَ مَوْكولٌ إِليكَ يا عَزيزي».

وانْبَرَتْ كاترينُ تَقولُ: «أُمّاهُ! لماذا لا يَأْتي مَعَنا؟ إِنَّ في رِفْقَتِهِ مُتْعةً لنا ولَهُ».

فدَنا الأَميرُ مِنِ ابْنَتِهِ ومَسَحَ على شَعْرِها بيَدِهِ، ورَفَعَتِ الحَسْناءُ رَأْسَها ونَظَرَتْ إِليهِ مُتَوَسِّلةً، وقد اغْتَصَبَتْ مِنْ أَساها ابْتِسامةً واهِنَةً واهِيَةً.

كان أَبوها كما يَلوحُ لَها، الشَّخْصَ الوَحيدَ الَّذي يَفْهَمُها، مَعَ أَنَّهُ لا يَتَحَدَّثُ كَثيرًا عَنها، وكانَتْ هِيَ الِابْنَةَ الأَثيرَةَ لَدْيهِ، فهُوَ يُحِبُّها، ولِهٰذا لا يَبْرَحُ يُفَكِّرُ فيها ويَعْرِفُ ما يَضيرُها ويَنْفَعُها.

فلمّا الْتَقَتْ لِحاظُها بلِحاظِهِ في تِلْكَ الدَّقيقةِ تَراءى لَها أَنَّهُ اكْتَنَهَ ما يَخْتَلِجُ في أَعْماقِها، وأَنَّهُ فَهِمَ كُلَّ شَيْءٍ، وسَبَرَ حَقيقةَ العِلَّةِ الَّتي مَغَثَتْ في صَدْرِها. وتَضَرَّجَتْ وَجْنَتاها، لَقد عَلِمَ أَبوها مِن أَمْرِها ما حَرَصَتْ على كَتْمِهِ.

وأَقْبَلَ الأَميرُ على داريا يُحَدِّثُها حَديثَ الأَبِ الشَّفوقِ، ويَسْأَلُها عن زَوْجِها ويَسْتَوْضِحُها عن حالةِ بَنيها، ثُمَّ عَطَفَ فَجْأَةً على كاترينَ وقالَ: «أَتَدْرينَ ما يَخْلُقُ بكِ عَمَلُهُ يا كاترينُ؟ يَجِبُ أَنْ تَنْهَضي مِن فِراشِكِ في ساعةٍ مُبَكِّرةٍ، وأَنْ تَقولي لنَفسِكِ كُلَّما اسْتَيْقَظْتِ: أنا على خَيْرِ ما يُرامُ، أنا قَوِيَّةٌ سَعيدةٌ، وسأَخْرُجُ مَعَ أَبي في جَوْلَةٍ بَعيدَةٍ».

كانَ كَلامُهُ كَلامَ رَجُلٍ يُحِبُّ ابنَتَهُ ويَمْحَضُها النُّصْحَ، لٰكِنَّ كاترينَ شَعَرَتْ كأَنَّها مُذْنِبةٌ اجْتَرَحَتْ مِنَ الإِثْمِ ما تُؤاخَذُ عَلَيهِ، فاضْطَرَبَتْ أَيَّما اضْطِرابٍ- أَجَلْ إِنَّهُ يَفْهَمُ ويَرى- ولم تَسْتَطِعْ أَنْ تَرُدَّ على مَقالتِهِ، بَلِ انْفَجَرَتْ تَبْكي، وانْدَفَعَتْ مِنَ الغُرفةِ لا تَلْوي على شَيْءٍ.

وحَدَجَتْهُ الأُمُّ بنَظْرةِ لَوْمٍ وتَقْريعٍ، وقالَتْ مُؤَنِّبةً: «أَتَرى نَتيجةَ دُعابتِكَ، أَنْتَ دائِمًا...».

وانْطَلَقَ لِسانُها في سَيْلٍ لا يَنْقَطِعُ مِنَ الِاتِّهامِ والتَّجْريحِ. ثُمَّ أَرْدَفَتْ بهُدوءٍ: «لَكَمْ تُحْزِنُني حالَتُها! لَكَمْ أَذوبُ شَفَقَةً عَلَيها، ومَعَ ذٰلِكَ فأَنْتَ تَجْهَلُ ما يُبْئِسُها وما يَسُرُّها، إِنَّها لا تُطيقُ أَن يَذْكُرَ أَحَدٌ سَبَبَ أَساها، قُتِلَ الإِنْسانُ ما أَغْدَرَهُ! لَيْتَ شِعْري كَيفَ لا يَتَنَبَّهُ المَرْءُ أَحْيانًا إِلى الخَتْلِ والخَديعةِ إِلّا بَعْدَ حُلولِ الحَيْفِ[1]!»

وأَدْرَكَ الأَميرُ وداريا أَنَّ الأُمَّ كانَتْ تَقْصِدُ فرونسكي بكَلامِها.

---

(١) الحَيْفُ: الجَوْرُ، الظُّلْمُ.

واسْتَتْلَتْ: «ولا أَعْلَمُ لماذا لا تَسْتَنُّ الحُكومةُ مِنَ القَوانينِ الرّادِعَةِ ما تُؤَدِّبُ بها مِثْلَ هٰؤلاءِ الأَوْغادِ!»

فقالَ الأَميرُ بانْقِباضٍ ظاهِرٍ وهْوَ يُغادِرُ مَكانَهُ: «لا طاقةَ لي على الإِصْغاءِ إِلى مَقالتِكِ... إِنَّ هُناكَ مِنَ القَوانينِ ما يَرْدَعُ كُلَّ طاغٍ مُتَجَبِّرٍ، وما دُمْتِ قد تَحَدَّيْتِني فسأُخْبِرُكِ مَنْ هُوَ الشَّخْصُ الجَديرُ باللَّوْمِ. إِنَّهُ أَنتِ، وأَنْتِ، وأَنْتِ، ولا أَحَدَ سِواكِ!»

وتَنَفَّسَ الشَّيْخُ الصُّعَداءَ وَمضى يَقُولُ: «إِنَّني كَهْلٌ مُسْتَضْعَفٌ، ولَو كُنْتُ أَصْغَرَ سِنًّا لما تَرَدَّدْتُ أَبَدًا في الاقْتِصاصِ مِنْ هٰذا الفَسْلِ[1]. وأَنْتِ، أَنْتِ ما فَتِئْتِ تَسْتَدْعينَ هٰؤلاءِ الدَّجّالينَ الَّذينَ يُطْلِقونَ على أَنْفُسِهِمِ الأَلْقابَ الطِّبِّيَّةَ، لِيُعالِجوا ابنَتَكِ، وكأَنَّهُمْ يَملِكونَ مِن أَمْرِ قَلْبِها شَيْئًا!».

واخْتَرَطَتِ[2] الأَميرةُ تَبْكي، وتَقَدَّمَتْ مِنْهُ وهْيَ تُرَدِّدُ: «أَلِكْسَنْدَر... أَلِكْسَنْدَر...».

وهَدَأَتْ ثائرةُ الأَميرِ، فضَمَّها إِلَيْهِ وجَعَلَ يَقولُ: «كفى... كفى... أَنْتِ مَحزونةٌ أَيضًا، ولٰكِنْ ما لَنا عَنِ الصَّبْرِ غِنًى، ولم يَزَلْ هُناكَ أَمَلٌ في انْقِشَاعِ الغُمَّةِ[3]...».

وغادَرَ الأَميرُ الغُرْفَةَ، وتَبِعَتْهُ داريا، ولٰكِنَّها لم تَذْهَبْ إِلى حُجْرَتِهِ، بل عَرَّجَتْ على شَقيقَتِها في مَخْدَعِها.

---

(١) الفَسْلُ: الَّذي لا مُروءَةَ لهُ.
(٢) اخْتَرَطَ واسْتَخْرَطَ في البُكاءِ: لَجَّ فيهِ واسْتَغْرَقَ.
(٣) الغُمَّةُ: الكُرْبَةُ والحُزْنُ.

أسئلة تحليلية

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - مَن كانَ المسؤولُ عن مرضِ كاترين؟

٣ - أتَرى أنَّ هذا الفصلَ قد عُقِدَ ليُبيِّنَ أثرَ استهتارِ فرونسكي بعواطفِ كاترين، ومِن ثَمَّ، ليكونَ دَعوةً إلى احترامِ عَواطفِ الآخَرين؟ وضِّحْ ذلك.

٤ - في هذا الفصلِ غَمْزٌ على بعضِ أهلِ العلمِ. أَشِرْ إلى ذلكَ في موضِعِهِ.

٥ - الأُمُّ (أُمُّ كاترين) تلومُ نفسَها، فعلامَ تلومُ نفسَها؟ دُلَّ على ذلكَ في موضِعِهِ.

٦ - الأميرُ (والِدُ كاترين) يلومُ زوجَهُ. هَل تَراهُ مُحِقًّا في ذلك؟ وهل ترى أَنَّ اللَّومَ باتَ نافعًا؟ ولماذا؟

٧ - هَل تَرى أَنَّ الأَميرَ شرباتسكي يَتَحَمَّلُ جزءًا من المسؤوليَّةِ؟ وكيفَ؟

٨ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّاني

الطَّبَقةُ الرّاقيةُ في بطرسبرج، أو أَعْلى طَبَقةٍ في الهَيْئةِ الاِجْتِماعيَّةِ هُناكَ، هِيَ بالضَّرورةِ واحِدةٌ، وفيها كُلُّ واحِدٍ يَعْرِفُ الآخَرَ، وكُلُّ واحِدٍ يَزورُ الآخَرَ.

بَيْدَ أَنَّ هٰذِهِ المجموعةَ العَظيمةَ لها أَقْسامُها وفُروعُها، وكانَ لأَنّا كارنينا أَصْدِقاءُ مُقَرَّبونَ تَنْتَظِمُهُمْ حَلَقاتٌ ثَلاثٌ.

الحَلْقَةُ الأُولى تِلْكَ الَّتي تَشْتَمِلُ على أَصْدِقاءِ زَوْجِها، ومَنْ تَرْبِطُهُ بِهِمْ أَواصِرُ العَمَلِ. وقد نَظَرَتْ إِلَيْهِمْ في أَوَّلِ الأَمرِ نَظْرَةَ المَهابَةِ والاِحْتِرامِ، ثُمَّ أَلَمَّتْ بدَخيلَتِهِمْ، ورَأَتْ مَواطِنَ الضَّعْفِ فيهِمْ، كما اطَّلَعَتْ على مَصادِرِ القُوَّةِ. وما لَبِثَتْ أَنْ بَرِمَتْ بَعْضَ الشَّيْءِ بعِشْرتِهِمْ، لِما كانوا يَجْنَحونَ إِليهِ في أَغْلَبِ الأَحْيانِ مِن حَديثِ السِّياسةِ، والسِّياسةُ مَوْضوعٌ لا يَروقُ لأَنّا!

والحَلْقَةُ الثّانيةُ، كانَتْ الحَلْقَةَ الَّتي صَعِدَ زوجُها بوَساطَتِها دَرَجاتِ النَّجاحِ والشُّهرةِ، وأَفْرادُها في الغالِبِ عَجائزُ بَلَغْنَ مِنَ العُمُرِ عِتِيًّا[1]، لٰكِنَّهُنَّ اتَّصَفْنَ بدَماثةِ الخُلُقِ والطِّيبةِ والأَرْيَحِيَّةِ. كما اشْتَمَلَتْ هٰذِهِ الحَلْقَةُ على نَفَرٍ مِنَ الرِّجالِ الأَذْكياءِ المُطَّلِعينَ الطّامِحينَ بأَبْصارِهِمْ إِلى الذُّرْوَةِ. بَيْدَ أَنَّها شَعَرَتْ لَدى رُجوعِها مِن موسكو أَنَّها لا تَسْتَطيعُ الاِنْدِماجَ بأَفْرادِ هٰذِهِ الحَلْقةِ، أَمَّا الأَسْبابُ فلا وُجودَ لَها. إِلّا أَنَّها شَعَرَتْ بأَنَّ أَفْرادَ الحَلْقةِ هُمْ أَشْخاصٌ مُراؤونَ مُداهِنونَ!

أَمّا الحَلْقةُ الثّالثةُ الَّتي تَوَشَّجَتِ الأَواصِرُ بَيْنَها وبينَ أَنّا، فقد كانَتْ حَلْقَةَ الحَفَلاتِ، والسَّهَراتِ، أي حَلْقةَ الدُّنْيا، دُنْيا اللَّهْوِ والمُتْعةِ، دُنْيا الطَّعامِ والشَّرابِ والأَزْياءِ والبَذْخِ. وكانَ مِحْورُ هٰذِهِ الحَلْقةِ الأَميرةَ «بتسي» قَريبةَ أَنّا وفرونسكي في آنٍ واحِدٍ. وكانَتْ هٰذِهِ

(١) بَلَغْنَ مِنَ العُمْرِ عِتِيًّا: تَجاوَزْنَ الحَدَّ فيهِ.

الأميرةُ ثَرِيّةٌ يُقَدَّرُ دَخْلُها بمئةٍ وعِشْرينَ أَلْفَ روبل، وقد مالَتْ إلى أَنّا وأَحَبَّتْها وأَدْنَتْها منها.

وكانَتْ تَقولُ لَها في مَعْرِضِ الحَديثِ عَنِ الحَلْقة الثّانيةِ: «عِنْدَما أُصْبحُ امْرَأَةً طاعِنَةً في السِّنِّ أَنْدَمِجُ في هٰذا الرَّهْطِ الخَرِفِ، أَمّا وأَنْتِ يافِعةٌ شَرِخَةٌ[1] فلا تَفْعَلي يا عَزيزتي، أَجَلْ لا تَنْخَرِطي في سِلْكِ نَزيلاتِ مَأْوى العَجَزةِ».

وقد تَجَنَّبَتْ أَنّا في البَدْءِ هٰذا الوَسَطَ المُتْرَفَ لأَنَّ وَسائِلَها المادِّيَّةَ لا تُتيحُ لَها مُجاراةَ المُنْتَمينَ إلى هٰذِهِ الحَلْقةِ في بَذْخِهِنَّ وإِسْرافِهِنَّ، إِلّا أَنَّ نَفْسَها عافَتِ الحَلْقَتَيْنِ الأُولى والثّانِيَةَ عَقِبَ عَوْدَتِها مِن موسكو، وطَفِقَتْ تَتَرَدَّدُ على مُجتَمعاتِ هاتِهِ الزَّهَراتِ اليانِعَةِ، حَيْثُ الْتَقَتْ فرونسكي؛ ومَرَّتْ في طَوْرٍ عَجيبٍ مِنَ السُّرورِ المُضْطَرِبِ أَسْفَرَ عنهُ هٰذا اللِّقاءُ وما تَلاهُ مِنِ اجْتِماعاتٍ.

وكانَتْ تَجِدُهُ في كُلِّ مَكانٍ تَذْهَبُ إِلَيهِ، فتُصْغي إلى حَديثِ الحُبِّ يَنْطِقُ بهِ فمُهُ ونَظْرَتُهُ.

ولم تُشَجِّعْهُ على البَوْحِ لَها بخَلَجاتِ فُؤادِهِ، إِلّا أَنَّ كَلِماتِهِ كانَتْ تَجْعَلُها تَشْعُرُ بنَوْعٍ جَديدٍ مِنْ أَنْواعِ الحَياةِ لا عَهْدَ لَها بهِ. كانَتْ تَشْعُرُ أَنَّ حُبورَها يَصْعَدُ إلى عَيْنَيْها بَريقًا، وإلى شَفَتَيْها بَسْمةً... ولم يَكُنْ في استِطاعَتِها كِتْمانَ ما بها، فالشُّعورُ لَهُ صُوَرٌ شَتّى، وطُرُقُهُ مُعْوَجّةٌ لا قِبَلَ للمَرءِ بعَرْقَلَتِها.

تَحَلَّقَ القَوْمُ زَرافاتٍ زَرافاتٍ، في مَنْزِلِ الأَميرةِ بتسي، وكانَ فرونسكي أَوَّلُ القادِمينَ إلى بَيْتِ ابْنَةِ عَمِّهِ، وقد تَلَفَّتَ حَوْلَهُ بَعْدَ حينٍ فوَجَدَ كُلَّ الأَشْخاصِ الَّذينَ تَوَقَّعَ وُجودَهُمْ.

وكانَ فرونسكي في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ يُكْثِرُ مِن زِيارةِ الأَميرةِ لما لاحَظَهُ مِن صَداقَتِها المَتينَةِ لأَنّا، وكانَ يَصْبو دائِمًا إلى فُرصَةٍ مُؤاتِيَةٍ يَسْتَنِحُها للتَّحَدُّثِ إلى فاتِنَةِ لُبِّهِ.

في تِلكَ اللَّيْلَةِ، دارَ الحَديثُ بينَ القَوْمِ عَنِ التَّمثيلِ والرَّقْصِ وحَفَلاتِ القَنْصِ.

وتَناهى إلى فرونسكي صَوْتُ خُطًى تَقْتَرِبُ، فأَيْقَنَتِ الأَميرةُ بتسي أَنَّ القادِمَةَ هِيَ أَنّا كارنينا، فنَظَرَتْ إلى فرونسكي. وكانَ الشابُّ يُحَدِّقُ إلى البابِ وقد كَسَتْ وَجْهَهُ نَظْرَةٌ عَجيبةٌ. ونَهَضَ مُتَباطِئًا من مَقْعَدِهِ. ودَلَفَتْ أَنّا إلى القاعةِ وهْيَ مَرفوعَةُ الرَّأْسِ مُنْتَصبةُ القامةِ، تَمشي خَفيفًا، لا تَلْتَفِتُ ولا تَطْرِفُ لَها عَيْنٌ. ولمّا وَصَلَتْ إلى حَيْثُ كانَتِ المُضيفةُ تَقِفُ،

---

(١) شَرِخَةٌ: في أَوَّلِ الشَّباب.

حَيَّتْها بابْتِسامَةٍ وصافَحَتْها ضاغِطَةً على يَدِها بوَلاءٍ، وما عَتَّمَتْ أَنِ اسْتَدارَتْ إلى فرونسكي وهْيَ لا تَزالُ تَبْتَسِمُ، فأَحْنى فرونسكي قامتَهُ، ثُمَّ قَدَّمَ لَها مَقْعَدًا.

فأَوْمَأَتْ برَأْسِها، واحْمَرَّ وَجْهُها قَليلًا، وانْثَنَتْ تُصافِحُ الأَيْديَ المَمْدودَةَ لمُصافَحَتِها، بينَما راحَتْ تُحَدِّثُ بتسي وتَقولُ: «كُنْتُ في مَنْزِلِ الكونتس ليديا، وحاوَلْتَ أَنْ أُبَكِّرَ بالحُضورِ، لٰكِنِّي مَكَثْتُ مُرْغَمَةً، قد كانَ السير جون هُناك، وهْوَ كَما تَعْلَمينَ مُحَدِّثٌ بارِعٌ يَسْتَوْلي على الأَسْماعِ».

فقالَتِ الأَميرةُ بتسي: «السير جون! أَتَعْنينَ ذٰلِكَ الرَّجُلَ المُبَشِّرَ؟»

قالَتْ: هُوَ بعَينِهِ. وقد قَصَّ علينا أَغْرَبَ القِصَصِ عَنِ الحياةِ في الهِنْدِ».

وانْبَرَتِ الأَميرَةُ «ميا كايا» تَقولُ: «إِنَّهُ مُبَشِّرٌ فيهِ شُذوذٌ غيرُ قَليلٍ، لٰكِنَّ حَديثَهُ كما قُلْتِ طَلِيٌّ لا يَمَلُّهُ المُسْتَمِعُ. وقد وَقَعْتُ إِبَّانَ الشَّبابِ بحُبِّ قَسٍّ مِنْ هٰؤلاءِ المُبَشِّرينَ».

وسادَ المَكانَ جَوٌّ مِنَ المَرَحِ، ودَبَّ النَّشاطُ في نُفوسِ الضُّيوفِ، وقالَتِ المُضيفةُ: «لا شَكَّ أَنَّهُ رَجُلٌ مُطَّلِعٌ أديبٌ، وقدِ اجْتَمَعْتُ إِليهِ في بَيْتِ الأَميرِ فلاديمير».

وقالَتْ إِحْدى المَدْعُوّاتِ: «أَحَقًّا ما قيلَ لَنا مِنْ أَنَّ ابنَةَ الأَميرِ فلاديمير سيَبْعُلُ لَها الكونتُ توبوف؟»

-«أَجَلْ، وقدِ اتَّفَقَتِ العائِلَتانِ الكَبيرَتانِ».

-«وهل هُوَ زَواجٌ سَداهُ الحُبُّ ولُحْمَتُهُ التَّفاهُمُ؟»

وصاحَتِ امْرَأَةٌ: «الحُبُّ؟ هٰذا هُراءٌ! وما هُوَ الحُبُّ، وأَيْنَ نَجِدُهُ في هٰذِهِ الأَيّامِ؟»

وقالَ فرونسكي: «الحُبُّ يا سَيِّدَتي أَساسُ كُلِّ زَواجٍ».

-«كلّا. فالزَّواجُ السَّعيدُ هُوَ الَّذي لم يَكُنْ وَليدَ حُبٍّ عَنيفٍ!»

وضَحِكَتْ أَنّا، وضَحِكَتِ المُضيفةُ. والْتَفَتَتِ الأُولى بَغْتَةً فرَأَتْ فرونسكي يَرْمُقُها بنَظْرَةٍ تَفيضُ غَرامًا، فما كانَ مِنْها إِلّا أَنْ خاطَبَتْهُ قائِلَةً: «جاءَتْني أَخْبارٌ مُزْعِجَةٌ عن مَرَضِ كاترينَ...».

فأَجابَ وهْوَ يَعْبَثُ بحاجِبِهِ: «أَحَقًّا تَقولينَ؟»

فحَدَجَتْهُ أَنّا بتَمَعُّنٍ شَديدٍ وقالَتْ: «أَولا يَعْنيكَ هٰذا؟»

-«بالعَكْسِ إِنَّهُ يَهُمُّني ويَغُمُّني، فماذا قالوا لَكِ تَمامًا؟»

فانْتَصَبَتْ أَنّا واقِفَةً، ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَها ودَنَتْ مِنْ بَتْسي، وطَلَبَتْ إِلَيْها أَنْ تُعْطِيَها فِنْجانَ شايٍ.

وبَيْنا المُضيفةُ تَصُبُّ لَها الشَّرابَ السّاخِنَ، تَقَدَّمَ فرونسكي مِنْها وسَأَلها قائِلاً: «ماذا كَتبوا لَكِ؟»

وناجَتْ أَنّا نَفْسَها: «كثيرًا ما أَظُنُّ الرِّجالَ لا يَفْهَمونَ ما يَتَّصِلُ بالشَّرَفِ، مَعَ أَنَّهُمْ لا يَفْتَأُونَ يَتَحَدَّثونَ عَنهُ ويَتَشَدَّقونَ بهِ».

ثُمَّ إِنَّها أَجابَتْهُ عن تَساؤُلِهِ قائِلَةً: «وَدِدْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ مُنْذُ أَيّامٍ بمَرَضِ كاترينَ، ولٰكِنّي لم أَلْقَكَ...».

وابْتَعَدَتْ عنهُ وجَلَسَتْ قُرْبَ مائِدَةٍ عَليها عَدَدٌ مِنْ حافِظاتِ الصُّوَرِ.

وتَبِعَها فرونسكي فقَدَّمَ لها فِنجانَ الشّايِ، ونَظَرَتْ هِيَ إِلى المَقْعَدِ الخالي وقالَتْ: «كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أُخْبِرَكَ...».

فقاطَعَها وهْوَ يَجْلِسُ: «إِنَّني لا أَفْهَمُكِ، فماذا تَعْنينَ؟»

فأَسْبَلَتْ جَفْنَيْها وقالَتْ: «أَرَدْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بأَنَّكَ تَصَرَّفْتَ تَصَرُّفًا شائِنًا».

قالَ: «وهَلْ تَظُنِّينَ أَنّي لا أَعْلَمُ أَنّي أَخْطَأْتُ؟ ولٰكِنْ مَنْ كانَ السَّبَبَ في ذٰلِكَ ؟»

فَرَمَتْهُ بنَظرةٍ صارمةٍ وقالَتْ: «ولماذا تَقولُ هٰذا لي؟»

فأَجابَ بجُرْأَةٍ ومَرَحٍ وهْوَ يَنْظُرُ إِليها ولا يُغْضي: «أَنْتِ تَعْلَمينَ لماذا!»

وظَهَرَ أَنَّها هِيَ الَّتي أَصابَها الاضْطِرابُ وليسَ هُوَ، فقد أَجابَتْ مُحتَدِمَةً: «أَنْتَ عَديمُ الشُّعورِ، أَنْتَ رَجُلٌ بلا قَلْبٍ!»

بَيْدَ أَنَّ عَيْنَيْها قالَتا غيرَ ذٰلِكَ، قالَتا إِنَّهُ ذو قَلْبٍ كَبيرٍ، ولهٰذا السَّبَبِ خافَتْهُ.

وأَجابَ: «ما قُلْتُهُ الآنَ قُلْتُهُ عن خَطَإٍ ولَيْسَ عن حُبٍّ!»

فارتَعَشَتْ أَنّا وأَجابَتْ: «تَذَكَّرْ أَنّي مَنَعْتُكَ مِنَ التَّفَوُّهِ بهٰذِهِ الكَلِمةِ، هٰذِهِ الكَلِمةِ الكَريهَةِ».

لٰكِنَّها أَيْقَنَتْ أَنَّها في كَلِمتِها «مَنَعْتُكَ» اعْتَرَفَتْ لنَفْسِها ببَعْضِ الحُقوقِ عَلَيهِ، وأَنَّها بذٰلِكَ تُشَجِّعُهُ على المُضِيِّ في ما بَدَأَهُ. . .

واسْتَتْلَتْ وهْيَ تُحَدِّدُ فيهِ نَظَرًا ثابِتًا: «عَزَمْتُ مِن قَبْلُ أَنْ أُفْضِيَ إلَيْكَ برَأْيي هٰذا، وجِئْتُ اللَّيلَةَ خِصّيصى لمُقابَلتِكَ. أَلا فاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ المَهْزَلَةَ يَجِبُ أَنْ تَنْتَهِيَ. إِنَّني لم أَشْعُرْ بالخَجَلِ أمامَ أَيِّ إِنْسانٍ لأَنّي لم أَرْتَكِبْ إِثْمًا أُلامُ عَلَيْهِ، وها أَنْتَ تُرْغِمُني على الشُّعورِ بالخَجَلِ والحَرَجِ وكأَنّي مُذْنِبةٌ اجْتَرَحْتُ خَطيئةً!»

ورَنا إِليها الشّابُ بلَحْظٍ مُتَمعِّنٍ مُتَأَمِّلٍ، فراعَهُ ما شاهَدَهُ مِن سُطوعِ جَمالِها. أَذْهَلَهُ هٰذا الرُّواءُ العَديمُ النَّظيرِ الَّذي نَضَحَ مِن قَسامتِها، وما أَبْطَأَ أَنْ قالَ بهُدوءٍ واتِّزانٍ: «وماذا تَقْتَرحينَ أَنْ أَفْعَلَ؟ ماذا أَصْنَعُ؟ قولي».

فنَظَرَتْ إِليهِ مَلِيًّا ثُمَّ أجابَتْ: «أُريدُكَ أَنْ تَرْحَلَ عَن بطرسبرج، أَنْ تَذْهَبَ إلى موسكو حالًا مِن دونِ إِبطاءٍ!»

فقالَ وهْوَ لا يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ عَن وَجْهِها: «أَمُتَأَكِّدَةٌ أَنْتِ مِن رَغْبَتِكِ؟ هل تُريدينني حَقًّا أَنْ أَذْهَبَ؟»

فأَجابَتْ بصَوْتٍ مَهْموسٍ: «أَجَلْ، اذْهَبْ إلى موسكو، إلى كاترينَ، واعْتَذِرْ إِليها».

قال: «كلّا . . . كلّا . . . أَنْتِ لا تُريدينَ ذٰلِكَ!»

قالَتْ: «إِنْ كُنْتَ تُحِبُّني حَقًّا، فافْعَلْ ما أَطْلُبُ مِنْكَ، حَقِّقْ رَجائي حتّى تَعودَ إِلَيَّ طُمَأْنينتي وهُدوءُ بالي».

-«أَلا تَعْلَمينَ أَنَّكِ الحَياةُ كُلُّها بالنِّسْبَةِ إِلَيَّ؟ بَيْدَ أَنّي لا أَتَذَوَّقُ طَعْمَ الطُّمَأْنينَةِ والسَّلامِ، ولا يُمكِنُني والحالةُ هٰذِهِ أَنْ أَهَبَكِ السَّلامَ الَّذي تَنْشُدينَ، ولا يُمكِنُني أَنْ أُفَكِّرَ فيكِ وفي نَفْسي كشَخْصَيْنِ مُفْتَرِقَيْنِ، فأَنْتِ وأنا في عُرْفي شَخْصٌ واحِدٌ، ولا أَجِدُ أَيَّ أَمَلٍ لنا في السَّلامِ، بلى لا أَجِدُ أَمَلًا لِكِلَيْنا للشُّعورِ بالطُّمَأْنينةِ بل على العَكْسِ أَرى شَقاءً وقُنوطًا».

وسَمِعَتْ كَلامَهُ كُلَّهُ، وجاهَدَتْ لتَقولَ ما يَنْبَغي أَنْ يُقالَ، لٰكِنَّها بَدَلًا مِن ذٰلِكَ أَغْضَتْ بعَيْنَيْها، ثُمَّ أَحَدَّتْهُما إلى وَجْهِهِ، وكانَتْ نَظْرَتُها مُفْعَمَةً بالحُبِّ. . . ولم تُحْرِ جَوابًا.

وفَكَّرَ: «إِنَّني أَجْني ما زَرَعْتُ. فعِنْدَما شَرَعَ اليَأْسُ يَتَغَلْغَلُ إِلى فُؤادي، وخُيِّلَ إِلَيَّ أَنْ لا

نِهايةَ لهٰذا الأَمْرِ، فإِذا بي أَظْفَرُ فَجْأَةً بالمُنى! إِنَّها تُحِبُّني! وهْيَ تَعْتَرِفُ!»

-«إذن اِفْعَلْ هٰذا مِنْ أَجْلي، لا تُلْقِ على مَسامِعي مِثْلَ هٰذِهِ الكَلماتِ، ولْنَكُنْ صَديقَينِ...». قالَتْ أَنّا، أو بالأَحْرى قالَ فَمُها. أَمّا عَيْناها فقد قالَتا شَيْئًا مُخْتَلِفًا تَمامَ الاخْتِلافِ.

فأَجابَ: «لن نَكونَ صَديقَيْنِ وحَسْبُ، وأَنْتِ تَعْرِفينَ، فإِمّا أَنْ نَكونَ أَسْعَدَ أَهْلِ الأَرْضِ، وإِمّا أَنْ نَكونَ أَكْثَرَهُمْ شَقاءً. وهذا مَنُوطٌ بكِ أَنْتِ».

وحاوَلَتْ أَنْ تُجيبَ، ولٰكِنَّهُ اسْتَتْلى بسُرعةٍ: «ولي طَلَبٌ واحِدٌ، وطَلَبي الَّذي أُوَجِّهُهُ إليكِ هُوَ أَنْ تَمْنَحيني حَقَّ الأَمَلِ في أَنْ يَكونَ لي الحَقُّ في الأَلَمِ كما أَتَأَلَّمُ الآنَ. فإِنْ كانَ هٰذا أيضًا غيرَ مُيَسَّرٍ لي، فمُريني أَنْ أَخْتَفِيَ، أَنْ أَزولَ، وسأَمْضي إلى المَجْهولِ، ولن يَقَعَ نَظَرُكِ عَليَّ».

-«كلّا، فأَنا لا أَرْغَبُ في إِبعادِكَ».

فأَجابَ وصَوْتُهُ يَرْتَعِشُ قَليلًا: «فلْيَبْقَ كُلُّ شَيْءٍ على ما هُوَ عَليهِ إذًا. ها هُوَذا زَوْجُكِ، إِنَّهُ مُقْبِلٌ».

وكانَ كارنينُ زوجُها يَتَقَدَّمُ في تِلكَ اللَّحْظَةِ بُهدوءٍ وثِقَةٍ، وقد الْتَفَتَ إلى زَوْجِهِ وفرونسكي، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى رَبّةِ الدّارِ حيثُ جلَسَ إلى جانِبِها يَحْسو فِنْجانَ الشّايِ الّذي قُدِّمَ لهُ، ويُجاذِبُها أَلْوانًا مِنَ الحديثِ، بلَهْجتِهِ المُتَهَكِّمةِ الَّتي أَصْبَحَتْ مُلازِمةً لهُ لا تُفارِقُ طَبْعَهُ، وكأَنَّها خُلَّةٌ[1] أو سَجِيَّةٌ!

قالَ: «للهِ دَرُّكِ يا سَيِّدتي، فبَيْتُك أَمْسى مَلْقى الأَفْذاذِ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، وهْوَ وأَيْمُ الحَقِّ أَشْبَهُ بقَصْرِ رامبوييه في فرنسا».

بَيْدَ أَنَّ الأَميرةَ «بتسي» لم تَكُنْ لِتَتَحَمَّلَ مِنْهُ مِثْلَ هٰذِهِ اللَّهْجةِ السّاخِرَةِ، فبَذَلَتْ وُسْعَها حتّى تَمَكَّنَتْ مِنْ إِرْغامِهِ على الخَوْضِ في حَديثٍ جادٍّ رَزينٍ عَنِ التَّجنيدِ الإِلْزامِيِّ. ولمّا هاجَمَتِ المَشْروعَ وطَعَنَتْ فيهِ، نَسِيَ الرَّجُلُ كُلَّ شَيْءٍ آخَرَ، وجَعَلَ يُدافِعُ بحَماسَةٍ مُنْقَطِعَةِ النَّظيرِ عَنِ الحافِزِ الَّذي جَعَلَ الأَمْبَراطورَ يُصْدِرُ مَرْسومَهُ.

(١) خُلَّةٌ: خَصْلَةٌ، طَبْعٌ وعادَةٌ.

ولَزِمَتْ أَنّا وفرونسكي مَكانَهُما أمامَ المائدةِ الصَّغيرةِ. . .

وهَمَسَتْ سَيِّدةٌ في أُذُنِ صَديقةٍ لَها ولِأَنّا، وهْيَ تُومِضُ بعَيْنَيْها: «هذا غَيرُ لائِقٍ، إِنَّهُما يَرْتَكِبانِ ما يُنافي الأَدَبَ!»

ولم تَكُنْ هاتانِ السَّيِّدتانِ هُما الوَحيدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ اسْتَهْجَنَتا تَصَرُّفَ أَنّا وفرونسكي، بل إِنَّ المَدْعُوِّينَ جَميعًا قد أَخَذوا على الشّابَّيْنِ شُذوذَهُما، وتَهامَسوا في شَيْءٍ مِنَ الحَنَقِ عَنِ اعْتِزالِهِما بَقِيَّةَ الضُّيوفِ، وكأَنَّهُما لا يَشْعُرانِ بالعُيونِ تَنْتَهِبُهُما، أو كأَنَّهُما لا يُبْصِرانِ في هٰذا المَكانِ إِلّا شَخْصَيْهِما.

أَمّا كارنينُ، فقد كانَ الشَّخْصَ الوَحيدَ الَّذي لم يَلْتَفِتْ إِلَيْهِما، بل إِنَّه مَضى يَتَحَدَّثُ بحَرارةٍ وإِيمانٍ، وكأَنَّ الأَمْرَ لا يَعْنيهِ في قَليلٍ أَو كَثيرٍ!

وضاقَتِ الأَميرةُ بتسي ذَرْعًا بِتَحَوُّلِ الأَفْكارِ إِلى أَنّا، فاحْتالَتْ على الانْسِحابِ مِنْ مَكانِها، واتَّجَهَتْ إِلَيْها وخاطَبَتْها بصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «لَشَدَّ ما يُعْجِبُني زَوْجُكِ بحَديثِهِ الواضِحِ المَفْهومِ، ويُخَيَّلُ إِليَّ، كُلَّما اسْتَرسَلَ في كَلامِهِ، أَنِّي أُصْغي إِلى أَكْثَرِ الأَفْكارِ سُمُوًّا، إِلى أفكارٍ لا تَصْدُرُ إِلّا عن رَجُلٍ طَويلِ الباعِ فائقِ الذَّكاءِ».

فتَلأْلأَ وَجْهُ أَنّا وأَجابَتْ: «أَصَبْتِ، أَصَبْتِ. . .». لٰكِنَّها لَمْ تَسْمَعْ كَلِمةً مِمّا قالَتْهُ الأَميرةُ بتسي، فسَعادَتُها كانَتْ مِنْ نَوعٍ آخَرَ. . وما لَبِثَتْ أَنْ نَهَضَتْ إِلى المائِدَةِ الكَبيرَةِ، واشْتَرَكَتْ في ما أَخَذَ القَوْمُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ نِقاشٍ ولِجاجٍ.

وتَحَفَّزَ كارنينُ بَعْدَ ساعةٍ لمُغادَرَةِ المَكانِ، وطَلَبَ إِلى زَوْجِهِ أَنْ تَتَأَهَّبَ لِلذَّهابِ، ولٰكِنَّها اعْتَذَرَتْ لَهُ زاعِمةً أَنَّها تَرْغَبُ في تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ مَعَ صَديقَتِها الأَميرةَ بتسي. فلم يُمانِعِ الرَّجُلُ أو يُصِرَّ على اصْطِحابِها، بل حَيّا الجَميعَ مُوَدِّعًا ومَضى في سَبيلِهِ.

وكانَ الحُوذِيُّ التَتَرِيُّ البَدينُ يُحاوِلُ عَبَثًا تَهدِئَةَ الجِيادِ. . . وكانَتْ قد هاجَتْ مِنَ البَردِ وشَرَعَتْ تَضْرِبُ الأَرْضَ بحَوافِرِها، عِندَما نَزَلَتْ أَنّا كارنينا بصُحْبةِ فرونسكي.

وأَصاخَتْ أَنّا لِرفيقِها بانتِباهٍ، وكانَ الفتى يَقولُ: «لم تَعِدي بشَيْءٍ، ولن أَطلُبَ مِنكِ شَيْئًا، بَيْدَ أَنَّكِ تَعْلَمِينَ أَنَّ الصَّداقَةَ لَيْسَتْ هِيَ كُلَّ ما أَبْتَغي. . . أَنْتِ تَعْلَمِينَ أَنَّ هُناكَ سَعادةً واحِدَةً فحَسْبُ، سَعادةً واحِدَةً لي في هٰذِهِ الحَياةِ، وأَنَّ هٰذِهِ السَّعادَةَ تَكْمُنُ في كَلِمةٍ واحِدَةٍ

تَمْقُتينها أَنْتِ- الحُبُّ- أَجَلْ، الحُبُّ. . .».

ورَدَّدَتْ أَنّا الكَلِمةَ بِبُطْءٍ شَديدٍ: «الحُبُّ. . . الحُبُّ. . .».

واسْتَتْلَتْ بِسرُعةٍ وهْيَ تَتَحَفَّزُ للصُّعودِ إِلى العَرَبةِ: «إِنَّني أَمْقُتُ هٰذِهِ الكَلِمةَ لأَنَّها تَعْني كَثِيرًا بالنِّسبةِ إِليَّ، بل لأَنَّها تَنْطوي على مَعانٍ هائلةٍ لا قِبَلَ لَكَ بالتَّكَهُّنِ بها!»

ومَدَّتْ إِليهِ يَدَها وحَدَحَتْهُ بنَظَرِها، ثُمَّ اسْتَقَلَّتِ العَرَبةَ.

وكانَ لنَظْرَتِها ولِلَمْسَةِ يَدِها فِعْلُ النّارِ في الهَشيمِ، فقد أَحَسَّ بالنّيرانِ تَنْدَلِعُ في أَحْشائِهِ، فرَفَعَ يَدَهُ، وقَبَّلَ المَوْضِعَ الَّذي لَمَسَتْهُ أَنّا، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلى بَيْتِهِ لا يَكادُ يَطَأُ الأَرْضَ مِنْ فَرْطِ زَهْوِهِ وسَعادتِهِ، وهْوَ مُوقِنٌ كُلَّ اليَقينِ أَنَّ مَأْرَبَهُ أَضْحى قابَ قَوْسَيْنِ[1] أَو أَدْنى، وأَنَّهُ نائِلٌ عن قَرِيبٍ ما هَفَتْ إِليهِ نَفْسُهُ وتاقَتْ روحُهُ طيلةَ الشَّهْرَيْنِ اللَّذَيْنِ تَصَرَّما عَقِبَ اجتِماعِهِ بها في مَحَطَّةِ القِطارِ.

(١) أَضْحى قابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنى: أَصْبَحَ قَرِيبًا جِدًّا.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - تنتمي شَخصيّاتُ هٰذهِ الرِّوايةِ إلى مُجْتَمَعٍ مُعيَّنٍ. فأيَّ الطَّبقاتِ يُمثِّلُ مُجْتَمَعُ هذهِ الشَّخصيّاتِ؟

٣ - لِمَ اختارَ تولستوي أَبطالَ رِوايَتِهِ من هذهِ الطَّبقةِ الرَّفيعةِ؟ أَكانَ يريدُ أَن يَفْضَحَها، أم كانَ يُريدُ أن يُقوِّمَها؟

٤ - اذْكُرْ بعضَ مَثالِبِ هذهِ الطَّبقةِ ممّا تَراهُ في هذا الفَصلِ، أَو ممّا رَأيتَهُ في فصولٍ سابقةٍ.

٥ - قالَتْ أَنّا في صَددِ دفاعِ فرونسكي عن ضَرورةِ الحُبِّ للزّواجِ النّاجحِ: «جاءَتْني أَخبارٌ مُزعِجَةٌ عن مرضِ كاترين». فماذا أَرادَتْ بقولِها هذا؟

٦ - إلامَ انتهى الحِوارُ بينَ أَنّا كارنينا وفرونسكي؟

٧ - إذا كانَ ما انتَهيا إليه يُنافي القواعدَ الاجتماعيّةَ التي تَرْتكِزُ عليها الأُسرةُ، فمَنْ منهما المسؤولُ؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّالث

لم يَجِدْ كارنينُ في تَصَرُّفِ زَوجِهِ في تِلْكَ اللَّيلَةِ ما تُلامُ عليهِ، ولٰكِنْ، لم يَفُتْهُ ما طَرَأَ على الضُّيوفِ مِنِ اضْطِرابٍ، وما أَخَذُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الهَمْسِ واللَّغَطِ. ولٰهذا تَراءى لَهُ أَنَّ ما فَعَلَتْهُ أَنّا لم يَكُنْ يَليقُ بها، وآلى أَنْ يُحَدِّثَها بذٰلكَ صَراحةً لَدى أَوْبَتِها.

وقَلَّبَ الرَّأْيَ على مُخْتَلِفِ وُجوهِهِ، ووَطَّنَ النَّفْسَ أَخيرًا على مُواجَهَتِها بالحَقيقةِ السّافرةِ، ومُجابَهَتِها بهٰذا الكَلامِ: «لا أَجِدُ لي مَهْرَبًا مِنْ إِيضاحِ النِّقاطِ التّاليةِ لَكِ يا عَزيزتي: أَوَّلًا: عَدَمُ الِاسْتِهانةِ بالرَّأْيِ العامِّ والذَّوْقِ واللِّياقةِ؛ ثانيًا: الحِرْصُ على صِيانةِ المَعاني الدِّينيّةِ للزَّواجِ؛ ثالثًا: التَّكَهُّنُ بما عَسى أَنْ يَلْحَقَ ابْنَنا مِنَ المَذَلَّةِ؛ رابعًا: ما قد يَجُرُّهُ هٰذا علينا مِنَ الشَّقاءِ والعَناءِ!»

وارْتَفَعَ في الخارِجِ صُوْتُ عَرَبةٍ تَسيرُ صَوْبَ البابِ، فجَمَدَ الرَّجُلُ في مَكانِهِ وَسَطَ الغُرفةِ. وتَناهى إِلى سَمْعِهِ صَوْتُ خُطًى لامْرَأَةٍ، فضَغَطَ على يَدِهِ. ومَعَ رِضاهُ عَنِ الكَلِماتِ الَّتي أَعَدَّها، شَعَرَ بالخَوْفِ مِنَ التَّفْسيرِ والإِيْضاحِ... فلو سَأَلَتْهُ عَنِ الأَسبابِ الَّتي حَدَتْهُ على مُجابَهَتِها بِمثْلِ هٰذا التَّحْذيرِ، لاسْتَغْلَقَ عَليهِ الأَمْرُ وأُرْتِجَ القَوْلُ.

دَلَفَتْ أَنّا إِلى بَيْتِها مُطْرِقةً تَعْبَثُ بسَبْلَةِ قُبَّعَتِها. وكانَ وَجْهُها يَتَأَلَّقُ ويَتَوَهَّجُ، لٰكِنَّ هٰذا البَريقَ لم يَكُنْ إِشْراقًا، بل كانَ أَشْبَهَ بأَجيجِ حَريقٍ مُخيفٍ في بَهيمِ لَيْلةٍ حالِكةِ الإِهابِ دامِسَةِ الجِلْبابِ.

ولَدى شُعورِها بُوجودِ زَوْجِها، رَفَعَتْ رَأْسَها وابْتَسَمَتْ، وكأَنَّها اسْتَفاقَتْ مِنْ نَوْمٍ!

وقالَتْ وهْيَ تَتْرُكُ قُبَّعَتَها تَسْقُطُ مِنْ يَدِها: «أَراكَ ساهِرًا، فما أَعْجَبَ هٰذا مِنْكَ!»

ومَشَتْ إِلى حُجْرةِ المَلابِسِ وهْيَ تُتَمْتِمُ: «إِنَّ الوَقْتَ مُتَأَخِّرٌ يا أَلِكْسي».

قالَ: «أَنّا، لا بُدَّ لي مِنْ مُحادَثَتِكِ».

قالَتْ مُتَعَجِّبَةً: «مُحادَثَتي!... وفي أيِّ مَوْضوعٍ؟»

وتَرَيَّثَتْ لَدى البابِ واسْتَتْلَتْ: «ولماذا؟ وماذا تَوَدُّ أَنْ تَقولَ؟»

وجَلَسَتْ على الأَريكةِ وتابَعَتْ: «هاتِ ما عِنْدَكَ إِنْ كانَ لا بُدَّ اللَّيْلَةَ مِنَ الحَديثِ، مَعَ أَنّي أُفَضِّلُ النَّومَ على كُلِّ شَيءٍ آخَرَ».

قالَتْ أَنّا ما حَضَرَ بَديهَتِهَا، وعَجِبَتْ ساعةَ سَمِعَتْ نَفْسَها، لِمَقْدِرَتِها على الكَذِبِ. فهْيَ لا تَشْعُرُ بأَيِّ مَيْلٍ إِلى الرُّقادِ. وخُيِّلَ إِليها في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّها مَجْبولةٌ بالنِّفاقِ، وأَنَّ قُوَّةً خَفِيَّةً تُؤازِرُها وتَشُدُّ عَضُدَها.

وقالَ الرَّجُلُ: «يَخْلُقُ بي يا أَنّا أَنْ أُحَذِّرَكِ...».

فقاطَعَتْهُ مَدْهوشةً: «تُحَذِّرُني! ومِمَّ تُحَذِّرُني؟»

ونَظَرَتْ إِليهِ نَظْرةً بَريئةً طَبيعيّةً، حتّى كانَ مِنَ المُتَعَذِّرِ على كُلِّ امْرِئٍ لا يَعْرِفُها كما يَعْرِفُها زَوجُها، أَنْ يَجِدَ شيئًا غيرَ طَبيعِيٍّ فيها، سَواءٌ أَكانَ هٰذا الشَّيءُ في لَهْجَتِها أم في كَلِماتِها.

أَمّا زَوجُها، وهْوَ المُلِمُّ بحَرَكاتِها وسَكَناتِها، العَليمُ بخَلَجاتِها لإِقبالِها عليهِ في كُلِّ شُعورٍ يَعْتَمِلُ في صَدْرِها، تَسْتَشيرُهُ وتَأْخُذُ رَأْيَهُ، فإِنَّهُ أَمْسى قادِرًا، بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَتْ عَدَمَ الِاكْتِراثِ بما يَجيشُ في صَدْرِهِ، على مَعْرِفةِ الكَثيرِ مِنْ أَمْرِها مِنْ دونِ كَلامٍ ولا اسِتجْوابٍ.

ورَأَى أَنَّ أَعْماقَها الَّتي كانَتْ مُفَتَّحَةَ المَصاريعِ لَهُ قد أُغْلِقَت الآنَ إِلى الأَبَدِ... وفَوْقَ ذٰلِكَ لاحَظَ مِنْ صَوْتِها وحِدَّتِهِ أَنَّها لا تَعْبَأُ بهِ. لَقَد دَرى بِخَفِيَّتِها، أو بالأَحْرى لَقد عَلِمَ أَنَّ قَلْبَها قد انْشَغَلَ بِسِواهُ عنهُ!

وخامَرَهُ شُعورُ مَنْ يَرْجِعُ إِلى مَنْزِلِهِ فيَلْقى البابَ مُوصَدًا مُحْكَمَ الرِّتاجِ.

بَيْدَ أَنَّهُ ناجى نَفْسَهُ قائِلًا: «ولٰكِنْ، رُبّما وَجَدْتُ المِفتاحَ، فلْأُحاوِلْ»

وانْبَرى يَقولُ بصَوْتٍ هادِئٍ مُنْخَفِضٍ: «أَرْغَبُ في تَحْذيرِكِ مِنْ قِلّةِ الِاكْتِراثِ فالإِهْمالُ يُثيرُ القالةَ، ويَجْعَلُ المَرْءَ مُضْغةً في الأَفْواهِ. وخَلْوَتُكِ بالكونتِ فرونسكي اللَّيْلَةَ كانَ لَها عَواقِبُ وَخيمةٌ!»

ونَظَرَ خِلالَ حَديثِهِ إلى عَيْنَيْها الضّاحِكَتَيْنِ، فذُعِرَ أَشَدَّ الذُّعْرِ ممّا شاهَدَهُ فيهِما مِنَ الغُموضِ والإِبْهامِ، وشَعَرَ بل أَيْقَنَ أَنَّ مُحاولتَهُ عَقيمةٌ لا طائِلَ تَحْتَها.

وأَجابَتْ أَنّا وكأَنَّها لا تَفْهَمُ ما يَقولُ: «أَنْتَ لا تَتَبَدَّلُ يا عَزيزي. تارةً تُنَدِّدُ بِبُرودي وجُمودي، وتارةً تَسْتَهْجِنُ حَيَوِيَّتي ومَرَحي. واللَّيْلَةَ لم أَكُنْ جامدةً مَيْتَةَ المَشاعِرِ، فهل أَثْقَلْتُ عَليكَ؟ هل آذَيْتُكَ؟»

وارْتَعَشَ أَلِكْسيس كارنين ارتعِاشَ الرَّهْبةِ وأَجابَ بلُطْفٍ: «أَنّا! هل أَنْتِ أَنْتِ؟!»

فقالَتْ بدَهْشةٍ صادقةٍ: «وماذا جَرى يا تُرى؟ وماذا تُريدُ مِنّي؟»

وتَرَدَّدَ كارنينُ وتَحَسَّسَ جَبْهَتَهُ وعَيْنَيْهِ. وقد رَأَى أَنَّهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَفْعَلَ ما عَزَمَ عليهِ مِنْ إطْلاعِ زَوْجِهِ، أو بالأَحرى تَنْبيهِها إلى الأَخْطَاءِ الَّتي يَراها النّاسُ ويَتَشَدَّقونَ بها، عَنِيَ كُلَّ العِنايةِ بضَميرِها وإحساسِها، وكافَحَ أَشَدَّ الكِفاحِ لتَذْليلِ العَقَبةِ الَّتي رآها تَنْمو بسُرعةٍ مُخيفةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَها. ولم يَلْبَثْ بَعْدَ قَليلٍ أَنْ قالَ ببُرودٍ وهُدوءٍ: «أَضْرَعُ إليكِ أَنْ تُصغي إلى ما أَقولُ، إنَّني كما تَعْلَمينَ أَعْتَبِرُ الغَيْرةَ، شَيْئًا يَنْطوي على الشَّيْنِ وأَرْبَأُ بنَفسي عَنْها، وأَضِنُّ بها مِنْ أَنْ تَسْتَرِقَّها الغَيْرةُ فتُبَدِّدَها. بَيْدَ أَنَّ هُناكَ الذَّوْقَ، وحُدودَهُ، وسُدودَهُ... ولا يُمْكِنُ للمَرْءِ أَنْ يَخْتَرِقَ الحُدودَ، ويُحَطِّمَ السُّدودَ... لم أُبالِ اللَّيْلَةَ بما جَرى، ولٰكِنَّ التَّأْثيرَ الَّذي أَحْدَثَهُ عُزوفُكِ عَنِ النّاسِ كانَ شَيْئًا للغايةِ، أَكْثَرَ سُوءًا مِمّا تَظُنِّينَ!»

فهَزَّتْ أَنّا كَتِفَيْها وأَجابَتْ بقِلّةِ اكْتِراثٍ: «لا أَفْهَمُ مَا تَرْمي إِليهِ».

واسْتَتْلَتْ فيما بَيْنَها وبَيْنَ نَفْسِها: «إنَّهُ لا يُبالي، ولولا انتِباهُ الضُّيوفِ لِلأَمْرِ لما اضْطَرَبَ وارْتَبَكَ!»

واسْتَتْلَتْ بصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «أَنْتَ مُتَوَعِّكٌ يا أَلِكْسي...». وانْتَصَبَتْ واقفةً واتَّجَهَتْ صَوْبَ البابِ. ولٰكِنَّهُ خَطا إلى الأَمامِ كأَنَّهُ يُحَاوِلُ مَنْعَها مِنَ الخُروجِ.

وكانَ وَجْهُهُ مُكْفَهِرًّا، لم تَرَهُ أَنّا مِنْ قَبْلُ على تِلْكَ الحالةِ. كانَ مُرْبَدًّا يَنْطِقُ بالثَّوْرةِ لعارِمةِ المُعْتَمِلةِ في أَعْماقِهِ.

وتَرَيَّثَتْ مُجفِلةً، ثُمَّ كَتَمَتْ ما داخَلَها مِنِ اشْمِئْزازٍ، وقالَتْ وهْيَ تَرْفَعُ يَدَها إلى رَأْسِها تَنْزِعَ مِنْ ضَفيرتِها الدَّبابيسَ المُذهَّبةَ: «ها أَنَذا أُصيخُ إليكَ، فهاتِ ما عِنْدَكَ، فأَنا مَشوقةٌ إلى

عَجْمِ عودِكَ[1]، وسَبْرِ حَقيقةِ نَزْوتِكَ!»

وتَوَلَّاها عُجَبٌ شَديدٌ. فكيفَ تَتَأتّى لها هٰذِهِ المَقْدِرةُ؟ كيفَ تَسْتَطيعُ مُجابهتَهُ بِمِثْلِ هٰذا البُرودِ المُتَهَكِّم؟

وشَرَعَ كارنينُ يَتَكَلَّمُ، قالَ: «إنّي أَعْتَبِرُ التَّغَلْغُلَ إلى أَعْماقِ مَشاعِرِك وأَحاسيسِكِ تَطَفُّلًا لا يَحِقُّ لأَحَدٍ أَنْ يَجْنَحَ إليهِ، حتّى ولو كانَ زَوْجَكِ. بل إنّي على يَقينٍ مِنْ أَنَّ لِمْثِلِ هٰذِهِ الخُطوةِ عَواقِبَ وَخيمةً، لأَنَّ المَرْءَ إذا حاوَلَ اسْتِكْشافَ الرُّوحِ رَأى في الغالِبِ ما يَبْهَظُهُ[2] ويُخَيِّبُ أَمَلَهُ. فشُعورُكِ مِلْكٌ لَكِ، شُعورُكِ مَوْكولٌ إلى ضَميرِكِ؛ غيرَ أَنّي أَشْعُرُ، بل أَعْتَقِدُ أَنَّ الواجِبَ الَّذي يَفْرِضُهُ عَليَّ رِباطُ الزَّوْجِيَّةِ- واجبي تُجاهَكِ أَيَّتُها الزَّوْجةُ، وأَمامَ اللهِ - هُوَ أَنْ أَلْفِتَ نَظَرَكِ إلى واجبِكِ أَنْتِ. لَقد انْدَمَجَتْ حَياتُنا لَيْسَ بِفعْلِ الإنْسانِ بل بإرادةٍ مِنَ اللهِ، ولا يَفْصِمُ هٰذا الرِّباطَ المُقَدَّسَ إلَّا جَريمةٌ، ولِكُلِّ جَريمةٍ عِقابٌ».

وهَتَفَتْ أَنّا بسُرعةٍ، وهْيَ لا تَزالُ تَعْبَثُ بشَعْرِها لتَسْتَخْرِجَ بَقِيَّةَ الدَّبابيسِ: «لا أَفْهَمُ كَلِمةً مِمّا تَقولُ، وقدِ اسْتَوْلى عَليَّ النُّعاسُ، فدَعْني أَذْهَبْ إلى مَرْقَدي».

فأَجابَ مُتَلَوِّعًا: «ناشَدْتُكِ اللهَ أَنْ تُقْلِعي عن هٰذِهِ اللَّهْجةِ يا أَنّا. رُبَّما كُنْتُ مُخْطِئًا في ما ذَهَبْتُ إليهِ، ولٰكِنْ لا يَعْزُبْ عن بالِكِ أَنّي قُلْتُ ما قُلْتُ، بحافِزٍ مِنَ المَصْلحةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَنا، فأنا زَوْجُكِ، وأنا أُحِبُّكِ!»

وتَلاشى مِنْ عَيْنَيْها بَريقُ التَّهَكُّمِ، وأَطْرَقَتْ مُتَأَمِّلَةً مُتَفَكِّرَةً: «الحُبُّ! وهل يَسْتَطيعُ أَنْ يُحِبَّ؟ ولو لم يَسْمَعْ عَن شيءٍ اسمُهُ الحُبُّ لما نَطَقَ قَطُّ بهٰذِهِ الكَلِمةِ. إنَّهُ لا يَعْرِفُ مَعْنى الحُبِّ، أَجَلْ، إنَّهُ لا يَعْرِفُ مَعْناهُ!»

ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَها وواجَهَتْهُ بنَظَرِها وهْيَ تَقولُ: «ثِقْ أَنّي لا أَفْهَمُ مُرادَكَ يا أَلِكْسي، فكُنْ صَريحًا وأَوْضِحْ!»

قالَ: «ذَريني أَكْشِفْ لَكِ عَمّا يَعْتَمِلُ في صَدْري، إنّي أُحِبُّكِ، بَيْدَ أَنّي لا أَوَدُّ أَنْ أَتحدَّثَ عن نَفْسي، لأَنَّ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ أُريدُ أَنْ أَرْعى مَصْلَحَتَهما هُما أَنْتِ وابْنُنا. رُبَّما رَأَيْتِ

(١) عَجْمُ عودِكَ: اخْتِبارُكَ.
(٢) يَبْهَظُهُ: يَشِقُّ عليهِ، يُتْعِبُهُ.

مَلامي هُراءً لا مَثيلَ لَهُ، ورُبَّما كُنْتُ مُخْطِئًا في رَأْيي وتَفْكيري نَتيجةَ الوَهْمِ الزَّائِفِ. فإِنْ كُنْتُ كَذٰلِكَ أَضْرَعْ إِليكِ أَنْ تَغْفِري لي وتَصْفَحي عَنّي، أَمَّا إِنْ كانَ لظُنوني شَبَحٌ مِنَ الحَقيقةِ، فأَسْأَلُكِ أَنْ تُعْمِلي الفِكْرَ، وأَنْ تَتَرَوَّي، وأَنْ تَبُثِّيني ما في صَدْرِكِ. أَرْجوكِ!»

وغابَ عن بالِ الرَّجُلِ القَلِقِ أَنَّهُ قالَ غيرَ ما أَزْمَعَ أَنْ يَقولَ.

واغْتَصَبَتِ المَرْأَةُ ابْتِسامَةً مَقْهورَةً وأَجابَتْ: «ليس لَدَيّ ما أَقولُ، وفَوْقَ ذٰلِكَ فالوَقْتُ مُتَأَخِّرٌ، وعلينا أَنْ نَأْخُذَ لنَفْسَيْنا قِسْطًا مِنَ الرّاحةِ».

وتَنَفَّسَ أَلِكسيس كارنين الصُّعَداءَ، ومَشى بخُطُواتٍ بَطيئةٍ إِلى مَخْدَعِ النَّومِ.

ولمّا جاءَتْ بَعْدَ دَقائِقَ أَلْفَتْهُ مُضْطَجِعًا في الفِراشِ. واخْتَلَسَتِ النَّظَرِ إِلى وَجْهِهِ فَرَأَتْ شَفَتَيْهِ القَوِيَّتَينِ المُطْبَقَتَينِ، ورَأَتِ العَيْنَينِ الجامِدتَينِ، وقَرَأَتْ ما لم تَفْهَمْ في تِلْكَ الأَساريرِ.

واسْتَلْقَتْ إِلى جانِبِهِ وانْتَظَرَتْ أَنْ يَتَكَلَّمَ. انْتَظَرَتْ كَلامَهُ بمَزيجٍ مِنَ الخَوْفِ والرِّعْدَةِ والتَّلَهُّفِ على سَماعِ ما يَوَدُّ أَنْ يُفْصِحَ عنهُ، ولٰكِنَّهُ لَزِمَ الصَّمْتَ، ولم يُغْنِ عنها انْتِظارُها شَيْئًا.

واتَّجَهَتْ بفِكْرِها رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلى الرَّجُلِ الآخَرِ، ونَسِيَتْ في لَمْحَةٍ كُلَّ شَيءٍ عَنِ هٰذا الرّاقِدِ إِلى جانِبِها- عَن زَوجِها- ورَأَتْهُ، رَأَتْ ذٰلِكَ الشّابَّ، وشَعَرَتْ بالدَّمِ يَتَدَفَّقُ حارًّا مِنْ قَلْبِها. . . ووَخَزَها ضَميرُها، لٰكِنَّ نَفْسَها انْتَشَتْ برَحيقِ الحُبِّ.

وفَجْأَةً تَناهى إِليها صَوْتُ غَطيطٍ، ثُمَّ انْقَطَعَ الصَّوْتُ كأَنَّ أَلِكسيس خَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ. ولٰكِنَّهُ لم يَلْبَثْ أَنِ ارْتَفَعَ ثانيَةً مُتَقَطِّعًا بلَحْنٍ رَتيبٍ مُنْتَظِمٍ.

وهَمَسَتْ باسِمةً: «لقد تَأَخَّرْتُ كَثيرًا، كَثيرًا، ويَجِبُ أَنْ أَهْجَعَ. يَجِبُ أَنْ اسْتَسْلِمَ للكَرى!»

ومَعَ ذٰلِكَ فقد مَضَتْ عَلَيْها الدَّقائِقُ وهْيَ شاخِصةٌ إِلى السَّقْفِ، تُفَكِّرُ وتُفَكِّرُ، ويَتَراءى لَها إِبَّانَ إِمْعانِها في الفِكْرِ، أَنَّها تَرى بعَيْنَيها وميضَ عَيْنَيها!

* * *

مُنذُ ذلكَ اليَوْمِ بَدَأَتْ حَياة جَديدَةٌ في بَيْتِ أَلِكسيس كارنين. لم يَحْدُثْ شَيءٌ غيرُ عاديٍّ، واسْتَمَرَّتْ أَنّا تَخْرُجُ إِلى المُجْتَمعاتِ كما كانَتْ تَفْعَلُ. وأَكْثَرَتْ مِنْ زِياراتِها لقَصْرِ الأَميرةِ

بتسي حَيْثُ كانَتْ تَجْتَمِعُ إِلى فرونسكي. وكانَتْ تَلْقاهُ في أَمْكِنَةٍ أُخْرى أَيْضًا، بل إِنَّها وَجَدَتْهُ في كُلِّ مَكانٍ ذَهَبَتْ إِلَيهِ.

ورَأَى زَوْجُها وأَبْصَرَ، لٰكِنَّهُ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا. إِنَّها ظَلَّتْ في مَنْأًى عنهُ، تَتَجَنَّبُهُ وتَبْتَعِدُ عنهُ وتُقْفِلُ كُلَّ بابٍ للحَديثِ يُحاوِلُ فَتْحَهُ.

وأَكْثَرَتْ مِنَ الخُروجِ، وأَفْهَمَتْ زَوجَها بتَصَرُّفاتِها أَنَّها تَرْغَبُ عَنِ الحِجاجِ وتَمُجُّ اللِّجاجَ، ولا تُطيقُ أَنْ يُحَدِّثَها في أَمْرٍ هُوَ بالنِّسبةِ إِلَيها لا يَعْني سِواها!

وقد عافَتْ مَحْضَرَهُ، وصَدَفَتْ عَنِ الاجْتِماعِ إِليهِ؛ أَمّا أَمامَ النّاسِ فقد حَرَصَ الاثْنانِ على الظُّهورِ بمَظْهَرِ الزَّوجَينِ المُتَفاهِمَينِ المُتَوائِمَينِ، مَعَ أَنَّ عَلاقاتِهِما في المَنْزِلِ كانَتْ ما تَفْتَأُ تَتَدَهْوَرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلى أَسْوَأَ.

أَلِكسيس كارنين، الرَّجُلُ الشَّديدُ المِراسِ، الطَّويلُ الباعِ، البارِعُ، العَظيمُ القَدْرِ، هٰذا الرَّجُلُ المَشْهُورُ وَجَدَ نَفسَهُ ضَعيفًا في بَيْتِهِ، لا حَوْلَ لَهُ ولا طَوْلَ، كالثَّوْرِ يَحْني رَأْسَهُ بُخضوعٍ انْتِظارًا لضَرْبَةِ الفَأْسِ!

وكُلَّما فَكَّرَ هٰذا الرَّجُلُ بما شابَ حَياتَهُ، شَعَرَ بأَنَّهُ يَخْلُقُ بِهِ أَنْ يُعيدَ الكَرَّةَ ويُحاوِلَ مَرَّةً أُخْرى. فثَمَّةَ آمالٌ تَجيشُ في صَدْرِهِ، ثَمَّةَ آمالٌ تُهَدْهِدُ أَحْلامَهُ، فقد يَسْتَطيعُ أَنْ يُنْقِذَها قَبْلَ فَوَاتِ الأَوانِ مِنْ بَراثِنِ الهَوانِ.

على أَنَّهُ في كُلِّ مَرَّةٍ حاوَلَ أَنْ يُفاتِحَ زَوْجَهُ في الأَمْرِ، كانَ يَشْعُرُ كَأَنَّ روحَ الشَّرِّ الَّتي تُهَيْمِنُ على مَشاعِرِها قَدِ انْتَقَلَتْ إِليهِ هُوَ، وأَنَّهُ أَضْحى مِثْلَها مُنافِقًا مُرائِيًا، ولولا ذٰلِكَ لما غَيَّرَ المَوْضوعَ وخاضَ في حَديثٍ آخَرَ غيرِ الَّذي بَدَأَ بِهِ.

وهٰكذا مَرَّ الوَقْتُ، مَرَّ يَومًا إِثْرَ يَومٍ، ودارَتْ عَجَلَةُ الزَّمانِ والرَّجُلُ حائِرٌ في أَمْرِهِ، والمَرأَةُ سادِرَةٌ في هَواها، ماضِيَةٌ في طَرِيقِها لا تَلْوي على أَحَدٍ؛ فإِلى أَيْنَ تَقودُها قَدَماها؟ إِلى أَيْنَ يُفْضي بها غُرورُها؟ ومتى تَسْتَفيقُ؟ هل تَتَراجَعُ أو تَقْذِفُ بنَفْسِها في الأَتونِ؟

على مَفْرِقِ طَريقَيْنِ أَلْفَتْ أَنّا نَفْسَها.

إِلى اليَمينِ طُهْرٌ وعِفَّةٌ ونَقاءٌ...

وإِلى اليَسارِ فُحْشٌ ودَنَسٌ ورِجْسٌ...

فإلى أَيِّهما تَتَّجِهُ الغانِيَةُ[1]؟

إنَّها على مَفْرِقِ طَريقَيْنِ تَقِفُ...

والقَدَرُ يَنْتَظِرُ، وزَوْجُها المَلْهوفُ يَنْتَظِرُ!

---

(١) الغانِيَةُ: المَرْأَةُ الَّتي أَغناها جَمالُها عنِ الزِّينَةِ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.
٢ - ما عواقبُ الخِيانةِ الزّوجيَّةِ في رَأْيِ أَلِكسيس كارنين؟
٣ - لأَنّا كارنينا مآخذُ على زوجِها كارنين. فماذا تلاحظُ منها في هذا الفصلِ؟ وهل ترى أنّ لهذهِ المآخذِ دورًا في سلوكِها الجديدِ حيالَ فرونسكي؟
٤ - أَتَرَى أنّ موقفَ كارنين كانَ كافِيًا لِلَجْمِ جموحِ زوجِهِ قبلَ أَن تصلَ إلى قَعرِ الهُوَّةِ؟ ولماذا؟
٥ - وأَنتَ. هَل تَرى أنَّ أَنّا كارنينا كانتْ تسيرُ حقًّا نحوَ الهاويةِ؟
٦ - هَل تَرى أَنَّ المؤلِّفَ أَرادَ أَنْ يَدينَ المُجْتَمَعَ الَّذي تعيشُ فيه أَنّا كارنينا؟ وكيفَ؟
٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الرَّابع

هٰذا الَّذي كانَ لفرونسكي الوَطَرَ الوَحيدَ لحَوْلٍ مَضى؛ هٰذا الَّذي أَرَّقَهُ وكَحَّلَ عَيْنَيْهِ بالسُّهادِ؛ هٰذا الأَمَلُ الجَيّاشُ تَحَقَّقَ أَخيرًا، وظَفِرَ فرونسكي بما اشْتَهى وابْتَغى.

هٰذا الَّذي كانَتْ فَرائِصُ[1] أَنّا تَرْتَعِدُ لمُجَرَّدِ التَّفْكيرِ فيهِ؛ هٰذا الَّذي كانَ يَقُضُّ مَضْجَعَها لهَوْلِهِ، وتَرْتَجِفُ أَوْصَالُها لبَشاعتِهِ، تَحَقَّقَ أَخيرًا، وكانَ سَعادةً لها، وكانَ هَناءةً، وكانَ نِعمةً سابغَةً[2]!

ووَقَفَ فرونسكي إِزاءَها أَصْفَرَ الوَجْهِ، مُخْتَلِجَ الجُفونِ، يَرْعَشُ حَنَكُهُ رِعْشَةَ الاِنْفِعالِ. وجَعَلَ يَبْتَهِلُ ويَتَوَسَّلُ إِليها أَنْ تَهْدَأَ، وأَنْ تَسْكُنَ، وأَنْ تُخَفِّفَ مِنْ غُلْوائِها.

قالَ وفي صَوْتِهِ نَغْمةُ اسْتِعْطافٍ مَخْنوقَةٍ: «أَنّا! أَنّا! لا تَسْتَرْسِلي في ما أَنْتِ فيهِ ناشَدْتُكِ اللهَ».

غَيْرَ أَنَّ صَوْتَهُ المُتَهَدِّجَ المُرْتَفِعَ النَّبْرَةِ جَعَلَها تُسْبِلُ جَفْنَيْها، وتَحْني صَعْدَتَها[3]. فكانَ أَنِ ازْدادَ شُعورُها بالعارِ والصَّغارِ، ثُمَّ انْهارَتْ على الأَرْضِ، قَريبًا مِنْ قَدَمَيْهِ.

وما لَبِثَتْ أَنْ هَتَفَتْ والِهةً: «المَغْفِرةَ، المَغْفِرةَ... لَقد أَذْنَبْتُ!»

ما أَمَرَّ الخَطيئَةَ! شَعَرَتْ أَنّا بالغَضاضةِ، شَعَرَتْ بأَنَّها خاطِئَةٌ، مُجرِمَةٌ، وأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ صالِحٍ قد زالَ مِنْ حَياتِها، وأَنَّها انْخَفَضَتْ إِلى الدَّرْكِ[4] الأَسْفَلِ، وأَنَّهُ لم يَبْقَ لَها سِوى العِقابِ، واسْتِجْداءِ الصَّفْحِ.

---

(١) الفَرائِصُ: جَمْعُ فَريصَةٍ، وهيَ العَضَلَةُ الصَّدْرِيَّةُ. ارْتَعَدَتْ فَرائِصُها: فَزِعَتْ أَشَدَّ الفَزَعِ، خافَتْ خَوْفًا شَديدًا.

(٢) نِعْمَةٌ سابِغَةٌ: نِعْمَةٌ واسِعَةٌ.

(٣) صَعْدَتُها: قامَتُها المُسْتَقيمَةُ (والأَصلُ القَناةُ المُسْتَقيمَةُ).

(٤) الدَّرْكُ: أَقْصى قَعْرِ الشَّيءِ.

على أَنَّهُ أَحَسَّ كما يُحِسُّ قاتِلٌ يَرى جُثَّةَ ضَحِيَّتِهِ مُسَجّاةً أَمامَ ناظِرَيْهِ. إِنَّهُ حَرَمَها الحَياةَ. إِنَّهُ قَتَلَها، وها هِيَ جُثَّتُها، الجُثَّةُ الَّتي حَرَمَها الحَياةَ، إِنَّها جُثَّةُ الحُبِّ. إِنَّها المَرْحلةُ الأُولى مِن حُبِّهِما!

كانَ هُناكَ شَيْءٌ مُريعٌ يَصْطَرِعُ في مُخَيِّلَتِهِ، كانَ هُناكَ فِكْرٌ هائِلٌ عَنِ الشَّيْءِ الَّذي اشْتَراهُ بِثَمَنِ العارِ الرَّهيبِ، العارِ أَوِ الشُّعورِ بالخَجَلِ مِنْ تَعَرِّي روحَيهِما مِنْ لُبوسِ الحِشْمةِ والعِصْمةِ، حَطَّمَها هِيَ، وأَذَلَّ كِبْرِياءَهُ هُوَ.

على أَنَّهُ بالرَّغْمِ مِنْ رُعْبِ القاتِلِ الَّذي يُواجِهُ الجُثَّةَ، يَتَحَتَّمُ عَليهِ أَنْ يُمَزِّقَ أَشْلاءَها إِرْبًا إِرْبًا، وأَنْ يُخْفِيَ أَجْزاءَها، وأَنْ يُمَتِّعَ نَفْسَهُ بما ظَفِرَ بِهِ مِنْ طَريقِ الجَريمةِ!

وما هِيَ إِلَّا فَيْنَةٌ حتّى أَلْقى فرونسكي نَفْسَهُ على الضَّحِيَّةِ، وسَحَبَها، وأَوْسَعَها لَثْمًا وتَقْبيلًا، مَثَلُهُ في ذٰلِكَ مَثَلُ القاتِلِ الَّذي يَنْقَضُّ بجُنونٍ على جُثَّةِ القَتيلِ المُضَرَّجِ بدَمِهِ.

وقَبَّلَها في وَجْهِها وكَتِفَيْها وصَدْرِها، وأَمْسَكَتْ هِيَ بيَدِهِ، ولم تُبْدِ حِراكًا.

هٰذِهِ القُبُلاتُ، أَي ذٰلِكَ الشَّيْءُ الَّذي اشْتَرياهُ بعارِهِما وشَنارِهِما. أَجَلْ، وهٰذِهِ اليَدُ الَّتي تَقْبِضُ عَلَيْها مِنَ الرُّسْغِ، هِيَ يَدُ المُجْرِمِ شَريكِها!

ورَفَعَتْ يَدَهُ إِلى شَفَتَيْها وقَبَّلَتْها؛ وجَثا فرونسكي على رُكْبَتَيْهِ، وحاوَلَ أَنْ يَرى وَجْهَها، لٰكِنَّها أَخْفَتْهُ ولم تَقُلْ شَيْئًا.

واسْتَرْجَعَتْ ما أَذْرَتْهُ الخَطيئةُ مِنْ راحةِ بالٍ وضَميرٍ، فانْتَصَبَتْ واقِفةً ودَفَعَتْهُ عَنْها. وكانَ وَجْهُها جَميلًا كعادَتِهِ، لٰكِنَّهُ كانَ يَنْطِقُ بالأَسى، وكانَ يَسْتَدِرُّ الإِشْفاقَ.

وقالَتْ بِصَوْتٍ عَذْبٍ حَزينٍ: «اِنْتَهى الأَمْرُ، ولم يَبْقَ لي إِلّاكَ، فتَذَكَّرْ هٰذا».

ورَدَّ عَلَيْها بصَوتٍ جَهيرٍ: «لَنْ أَنْسى ما حَيِيْتُ إِكْسيرَ الحَياةِ[1]. لَنْ أَنْسى فِلْذَةً مِنّي. لَنْ أَنْسى حَياةً هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ حَياتي. لَنْ أَنْسى السَّعادَةَ».

وكأَنَّ غَضْبَتَها تَسَرَّبَ مِنْها شَرَرٌ مُحْرِقٌ إِلى نَفْسِهِ، فبَدا مُتَجَهِّمًا عَبوسًا، وحاوَلَ الكَلامَ، إِلَّا أَنَّها قَطَعَتْ عَليهِ الطَّريقَ قائلةً: «لا تَقُلْ شَيْئًا، أُصْمُتْ، أُصْمُتْ!»

---

(١) إِكْسيرُ الحَياةِ: شَرابٌ زَعَمَ الأَقْدَمونَ أَنَّهُ يُطيلُ الحَياةَ.

ونَظَرَتْ إِليهِ شَزَرًا ومَضَتْ مِنَ المَكانِ لا تَلْوي على شَيْءٍ.

خَليطٌ مِنَ المَشاعِرِ غزا قَلْبَها، فلم تَدْرِ أَهِيَ حَزينةٌ أَم جَذْلى؟ ولم تَدْرِ أَهِيَ سَعيدةٌ أَم شَقِيَّةٌ؟ ولم تَدْرِ أَهِيَ قانِطةٌ أَم مُتَفائِلةٌ؟

وتَعاقَبَتْ عَلَيْها الأَيّامُ وهْيَ أَعْجَزُ ما تَكونُ عن سَبْرِ غَوْرِ هٰذا الشُّعورِ المُتَضارِبِ. وما أَكْثَرَ ما خاطَبَتْ نَفْسَها بقَوْلِها: «لا، لا أَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ أُفَكِّرَ في هٰذِهِ المَسْأَلَةِ، وسأَفْعَلُ ذٰلِكَ بَعْدَ أيّامٍ، عِنْدَما تَهْدَأُ أَعْصابي، وتَخْمُدُ وَقْدةُ عَذابي».

على أَنَّ الهُدوءَ المَنْشودَ ظَلَّ في مَنْأًى عَنْها، وظَلَّ فِكْرُها يَخْبِطُ في الفَضاءِ مِنْ دونِ كابِحٍ، كما ظَلَّ حُلْمٌ واحِدٌ مُزْعِجٌ يُوقِظُها كُلَّ ليلةٍ مِنْ نَوْمِها مَذْعورةً مَزْؤودَةً[1].

كانَتْ تَحْلُمُ كُلَّ لَيْلةٍ أَنَّ الرَّجُلَينِ أَصْبَحا زَوْجَيها، وأَنَّهُما يَتَقاسَمانِها ويَتَمَتَّعانِ بمَحاسِنِها. وكانَ أَلِكْسي كارنين يَذْرِفُ الدَّمْعَ السَّخينَ فَوْقَ صَدْرِها، ويَقولُ: «ما أَسْعَدَنا! ما أَسْعَدَنا اليَوْمَ!» وفرونسكي كانَ مَعَها أيضًا، وكانَ زَوجًا لَها. وكانَتْ هِيَ تَشْرَحُ لَهُما الأَمْرَ ضاحِكةً مُغْرِقةً في الضَّحِكِ، كانَتْ تُنَبِّئُهُما أَنَّهُما حازا ما صَبَتْ إِليهِ نَفْساهما. أَلَيْسَ في ما حَظِيا بِهِ ما لا يَطْمَعُ بأَكْثَرَ مِنْهُ إِنْسانٌ، أَلا يَشْعُرانِ كِلاهُما بأَنَّ الحَياةَ استَقامَ لَهُما مُعْوَجُّها؟

بَيْدَ أَنَّ هٰذا الحُلْمَ كانَ يُعَذِّبُها عَذابَ السَّعيرِ، وكانَ كالكابوسِ يُنيخُ على صَدْرِها، ويَشُلُّ حَرَكَتَها، ويُحيلُها إِلى امْرَأَةٍ شَقِيَّةٍ خائِرَةٍ[2] خائرةٍ، تَئِنُّ مِنَ الهَولِ، ولا تَني تَئِنُّ!

❊ ❊ ❊

ضاقَتِ الدُّنْيا على رَحْبِها في عَيْني ليفينَ، وغَدا بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ موسكو يُفَكِّرُ في خَيْبَتِهِ المُرَّةِ، وفي هٰذا الإِخْفاقِ الذَّريعِ الَّذي مُنِيَ بِهِ.

وَمَضَتِ الأَيّامُ، فخَفَّتْ وَطْأَةُ غَمِّهِ، وشَرَعَ يُقارِنُ بينَ مُصيبتِهِ الجَديدةِ ومَصائبِهِ القَديمةِ الَّتي كانَ يَظُنُّ، كُلَّما لَحِقَتْ بِهِ مِنْها واحِدَةٌ، أَنَّهُ لا بُدَّ مُنْهارٌ تحتَ وَطْأَتِها. وها هِيَ السِّنونَ تَمُرُّ عليهِ، فيَنْسى ما تَكَبَّدَهُ، ويَتَغَلَّبُ على ما خُيِّلَ إِليهِ في الماضِي أَنَّهُ ثالِثَةُ الأَثافيّ[3].

---

(١) مَزْؤُودَةٌ: مُفْزَعَةٌ.

(٢) خائِرَةٌ: مُضْطَرِبَةٌ فيها ضَعْفٌ وفُتورٌ.

(٣) الأَثافي والأَثافيُّ: أَحْجارُ المَوْقِدِ وهْيَ ثَلاثَةٌ. وثالِثَةُ الأَثافِيّ يُرادُ بها كُبْرى المَصائِبِ وأَدْهاها.

وناجى نَفْسَهُ أَحْيانًا بِقَولِهِ: «كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي انْتَهَيْتُ، لٰكِنِّي حَيِيْتُ وقَوِيتُ، وسَوفَ أَحْيا وأَقْوى، ولن تَنالَ مِنّي خَيْبَتي ما عَجَزَتْ عن نَيْلِهِ آلامي البائدةُ».

ومَعَ ذٰلِكَ، فقد لَبِثَ يُفَكِّرُ في كاترينَ بِمِثْلِ المَرارةِ الَّتي فَكَّرَ بِها عَقِبَ أَوْبتِهِ. وكانَ أَمَلُهُ المُنْهارُ في بِناءِ بيتٍ وإِنْشاءِ أُسْرةٍ يَمُضُّهُ ويَحِزُّ في قَلْبِهِ. كانَ يَحْلُمُ بالعَيْشِ النَّظيمِ، وكانَتْ أَحْلامُهُ بالزَّوْجِ الجَميلةِ والأَطْفالِ تُداعِبُ مُخَيِّلَتَهُ ولا تُفارِقُهُ لَمحةً واحِدةً. إِنَّ السِّنينَ تَمُرُّ عليهِ سِراعًا، ومَعَ ذٰلِكَ فما زالَ عَزَبًا، وما زالَ بَيْتُهُ خالِيًا مِنَ المَرأَةِ الَّتي تَزْهو فيهِ وتُشْرِقُ، وتَقْلِبُ جَدْبَهُ خِصْبًا، وظَلامَهُ نورًا، وهُدوءَهُ ضَجَّةً!

وجاءَ الرّبيعُ! فكَسا الرِّيفَ بحُلّةٍ رائِعَةِ الجَمالِ، وزَيَّنَ الدُّنْيا بلَونٍ باهٍ، وقَلَبَ الكَآبَةَ اسْتِبْشارًا، والِاكْفِهْرارِ صَفاءً، والكَدَرَ رَوْنَقًا.

وفُوجِئَ ليفينُ ذاتَ يَوْمٍ بمَقْدَمِ صَديقِهِ أوبلنسكي، فرَحَّبَ بهِ تَرْحيبًا صادِقًا، وإِنْ تَغَلَّبَتْ لَهْجةُ التَّعَجُّبِ والِاسْتِغْرابِ على صَوْتِهِ وعِبارتِهِ.

ولم تَخْفَ عن أوبلنسكي دَهْشَةُ ليفينَ لقُدومِهِ، إِلَّا أَنَّهُ لم يَحْفِلْ ذٰلِكَ، بل أَنْهى إِلَيْهِ بأَنَّهُ جاءَ لِيَستَرْوِحَ نَسيمَ الرِّيفِ، ولِيُمَتِّعَ النَّفْسَ بساعاتٍ هادِئةٍ يَقْضيها في الخَلاءِ، ثُمَّ لِيَبيعَ ما يَمْلِكُ مِنَ الأَرْضِ في ذٰلِكَ الإِقْليمِ.

وامْتَدَّ بِهِما الحَديثُ وتَشَعَّبَ في ذٰلِكَ اليَوْمِ، إِلّا أَنَّ أوبلنسكي لم يَذْكُرْ كاترينَ أَمامَ ليفينَ ولو تَلْميحًا.

ومَعَ ذٰلِكَ، فقد كانَ ليفينُ يُفَكِّرُ فيها طيلةَ السّاعةِ الَّتي قَضاها مَعَ صَديقِهِ في غُرفةِ الاسْتِقْبالِ، وكانَ يَراها بعَينِ مُخَيِّلَتِهِ، فيَجِفُّ قَلْبُهُ، ويَنْقَبِضُ صَدْرُهُ، وتَتَوَلّاهُ غُصَّةٌ مِنْ أَلَمٍ وحَسْرةٍ!

وقد غَبَطَ صَديقَهُ على إِنْسانِيَّتِهِ وذَوْقِهِ، لتَجَنُّبِهِ الخَوْضَ في حَديثٍ يَنْكَأُ جِراحاتِ قَلْبِهِ، إِلّا أَنَّهُ كانَ يَشْعُرُ بشَوْقٍ شَديدٍ إِلى مَعْرِفةِ ما انْتَهى إِليهِ أَمْرُ كاترينَ وفرونسكي. ولمّا جَلَسَ الِاثْنانِ إِلى مائِدةِ الطّعامِ، رَأى أَنْ يُقْبِلَ على ضَيْفِهِ بالسُّؤالِ عن زَوْجِهِ وأَوْلَادِهِ، وعَمّا أَسْفَرَ عنهُ الخِصامُ الَّذي استَفْحَلَ أَمْرُهُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وكانَ سَبَبًا في قُدومِ أَنّا كارنينا إِلى موسكو.

فما إِنْ طَلَبَ إِليهِ التَّحَدُّثَ عَنْ نَفْسِهِ وعَنْ زَوجِهِ وأَوْلادِهِ حتّى انْبَرى أوبلنسكي يَقولُ:

«رُوَيْدَكَ يا صاحِ ولا تكُنْ عَجولًا! لقد نَهَيْتَني عَنِ الاتِّجاهِ بناظِرَيَّ وإِحْساسي نَحْوَ المُتْعَةِ، وعَنَّفْتَني في تَأَدُّبٍ، ولم تَشَأْ أَنْ تَعْتَرِفَ بما لِلقَلْبِ مِنْ حَقٍّ على صاحبِهِ. فاعْلَمِ الآنَ ما دُمْتَ طَرَقْتَ بابَ هٰذا المَوْضوعِ مِن تِلقاءِ نَفْسِكَ أَنَّ الحَياةَ جَدْبٌ ومَحْلٌ، بل إِنَّها سَعيرٌ لا يُطاقُ إِنْ صَفِرَتْ[1] مِنَ الحُبِّ. وأُصارِحُكَ القَوْلَ بأَنّي أَمُجُّ حَياتي إِنْ أَقْفَرَتْ مِنْ نَأْمَةٍ لَذيذةٍ تَهُزُّ أَعْطافي حتّى يَخْفُقَ قَلْبي، وتُهَدهِدُ مَشاعري حتّى تَرْتَجِفَ أَوْصالي. إِنَّني هٰكذا خُلِقْتُ، وعلى هٰذا سأَعيشُ حتّى المَوْتِ!»

فقالَ ليفينُ وهْوَ لا يُخْفي تَعَجُّبَهُ ونُفورَهُ: «وَيْ لَكَ! أَثَمّةَ امْرَأَةٌ أُخْرى جَديدَةٌ؟»

قالَ: «أَجَلْ، هُناكَ أُنْثى أُخْرى بَزَغَتْ في أُفُقِ حَياتي. وأَيُّ أُنْثى هِيَ! وأَيُّ حُورِيَّةٍ! إِنَّها مِثالُ الجَمالِ، وهْيَ مَصْبوبةٌ في قالَبٍ سَماوِيٍّ. إِنَّها حُلْمٌ، بَل أُغْنِيَةٌ. وأَصْدُقُكَ أَنّي أَخافُ أَحْيانًا مِنَ التَّفْكيرِ فيها، أَخافُ لأَنّي لا أَكادُ أُصَدِّقُ بَصَري أَحْيانًا».

-«هٰذِهِ غُلَواءُ لا مُبَرِّرَ لَها».

-«بَل هِيَ الحَقيقةُ الحُلْوةُ المُرّةُ أَيُّها الصَّديقُ... واعْلَمْ أَنَّ النِّسَاءَ على أَنْواعٍ، وحَبيبَتي الجَديدَةُ تَأْتي في الذُّرْوَةِ، فَوْقَ الجَميعِ... ولا تَعْلو عَلَيها امْرَأَةٌ!»

-«أَراكَ مَيّالًا إِلى استِجْلاءِ ما يَكْتَنِفُ المَرْأَةَ، وما يَعْتَوِرُ حَياتَها، ويُلابِسُ مَشاعِرَها».

-«لا، إِنِّي لا أَعْبَأُ بدَرْسِ الأَخْلاقِ والصِّفاتِ والخَصائِصِ؛ فلَذَّتي لَيْسَتْ في سَبْرِ غَوْرِ هٰذِهِ الأُمورِ بَل في نَقْعِ ظَمَئي إِلى الحُبِّ!»

وأَخْلَدَ الاِثْنانِ إِلى الصَّمْتِ، وحَلَّقا في سَماءِ الفِكْرِ، ثُمَّ تَمَلْمَلَ ليفينُ في مَقْعَدِهِ، كأَنَّهُ يَتَأَلَّمُ مِنْ شَيْءٍ، وقَالَ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «هَل غادَرَ فرونسكي مَدينةَ موسكو؟ هل بارَحَها؟»

فنَظَرَ إِليهِ أوبلنسكي مُتَأَمِّلًا وأَجابَ: «أَوَتَسْأَلُني عَنِ فرونسكي؟ آهٍ، لقد قَفَلَ راجِعًا إِلى بطرسبرج عَقِبَ ذَهابِكَ أَنْتَ. وهْوَ الآنَ هُناكَ، ولا يُزْمِعُ الرُّجوعَ. على أَنّي أَوَدُّ أَنْ أُصارِحَكَ القَوْلَ في أَمْرٍ طالَما رَغِبْتُ في الجَهْرِ بِهِ لكَ؛ فقد أَخْطَأْتَ الخَطَأَ الجَمَّ حينَ خُيِّلَ إِليكَ أَنَّ آمالَكَ قد بَدَّدَها فرونسكي، وإِنّي آخُذُ عَلَيْكَ فِرارَكَ مِنْ وَجْهِ غَريمِكَ، فما أَنْتَ بالرَّجُلِ الهَيِّنِ، بل أَنْتَ مِنْ خَيْرِ الرِّجالِ، فلِمَ الخَوْفُ إِذًا؟ ولِمَ الفِرارُ؟ أَلَمْ أَحُثَّكَ على

(١) صَفِرَتْ مِنَ الحُبِّ: خَلَتْ مِنهُ.

التَّقَدُّمِ إِلَيْها بطَلَبِكَ؟ أَلَمْ أَقُلْ لكَ إِنَّكَ المُفَضَّلُ؟»

وعادَ أوبلنسكي إلى صَمْتِهِ، وعادَ ليفينُ إلى إِطْراقِهِ، ومَضَتْ بِضْعُ دقائِقَ والسُّكونُ مُخَيِّمٌ على القاعةِ، وليفينُ يُناجي نَفْسَهُ ويَقولُ: «إِنَّهُ لا يَعْلَمُ أَنّي رُفِضْتُ. إِنَّهُ يَجْهَلُ أَنَّ كاترينَ رَدَّتْني خائِبًا مَغْلوبًا على أَمْري. ولٰكِنْ، أَتَصْدُقُ المَظاهِرُ دائِمًا؟ وأوبلنسكي، هَل يُصَرِّحُ بالحقَيقَةِ دائِمًا؟ كلّا، كلّا. إِنَّهُ ماكِرٌ يُسِرُّ حَسْوًا في ارْتِغاءٍ[1]، إِنَّهُ خَبيثٌ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُبْطِنُ!»

وعاوَدَ أوبلنسكي الكَلامَ، فقالَ: «لقد أَخْطَأْتَ خَطَأً لا يُغْتَفَرُ كما قُلْتُ لكَ، وإِخالُكَ حَسِبْتَها تُؤْثِرُ فرونسكي بقَلْبِها وحُبِّها، لٰكِنَّكَ أَخْطَأْتَ. لا أُنْكِرُ أَنَّ أُمَّها غَرَّتْها مَظاهِرُ الشّابِّ ومَكانَتُهُ وانْتِماؤُهُ إِلى طَبَقةِ النُّبلاءِ، فأَقْبَلَتْ عليهِ وأَعْرَضَتْ عَنْكَ، ولٰكِنْ، أَلَمْ تَحْسُبْ حِسابَ الأَبِ؟ أَلَمْ تُفَكِّرْ بكاترينَ؟ أَلَيْسَتْ هِيَ الَّتي تَتَزَوَّجُ؟ أَلا يَعْنيها الأَمْرُ؟»

وصاحَ ليفينُ مُحْتَدِمًا: «على رِسْلِكَ يا هٰذا[2]، أَتَنْعَتُ فرونسكي بالنُّبْلِ وتَسْتَثْني سِواهُ مِنَ الخَلْقِ؟ وما هُوَ النُّبْلُ؟ قُلْ ما هُوَ هٰذا الشَّيْءُ الَّذي تُضْفيهِ عَليهِ مِن دون سائِرِ الرِّجالِ، أو مِن دونِ مُعْظَمِ الرِّجالِ الَّذينَ تَعْرِفُ وأَعْرِفُ؟ وهَل هٰذِهِ الصِّفَةُ تَضَعُهُ فَوْقي أَنا، أو فَوْقَ أَيِّ رَجُلٍ آخَرَ اسْتَثْنَيْتَهُ مِن وَصْفِكَ، وأَبْعَدْتَهُ عَنِ النِّطاقِ الَّذي ضَرَبْتَهُ لمَعْنى كَلِمتِكَ؟»

وانْقَطَعَ ليفينُ عَنِ الكَلامِ وهْوَ يَلْهَثُ مِنَ الغَيْظِ، ثُمَّ تابَعَ يَقولُ: «وَضَعْتَ فرونسكي في مَصافِّ النُّبلاءِ، فهَل تَعْلَمُ مَنْ أَبوهُ؟ وهَل يَليقُ بِكَ أَنْ تُقَرِّرَ أَشْياءَ لا يُقِرُّها العُرْفُ؟ أَوَتَعْلَمُ كيفَ حازَ أَبوهُ اللَّقَبَ؟ لَقَد تَناهى الرَّجُلُ في الصَّغارِ، وتَوَسَّلَ بالوَقيعَةِ ليَنالَ ما تَصْبو إِليهِ نَفْسُهُ الخَسيسَةُ. وفَوْقَ ذٰلِكَ، أَلَمْ تَعْمَدْ أُمُّهُ، هِيَ الأُخْرى، إِلى التَّوَسُّلِ بجَمالِها لبُلوغِ أَوْطارِها؟ ثُمَّ تَأْتي أَنْتَ لتَرْفَعَهُ فَوْقي، لتَقولَ إِنَّهُ مِنَ النُّبَلاءِ، مِنَ الصَّفْوةِ! هُراءٌ... هُراءٌ... إِنَّني أَحْتَقِرُ الأَلْقابَ يا صَديقي، على أَنّي أَشَدُّ نُبْلًا مِنْ هٰؤلاءِ الَّذينَ يَحْمِلونَها، فأَنا أُسَلْسِلُ لَكَ أَجْدادي، وأُبَرْهِنُ لَكَ على كَريمِ مَحْتِدِهِمْ، وبُعْدِهِمْ عَنِ التَّبَذُّلِ، وعِزَّةِ نُفوسِهِمْ. أَنا أُثْبِتُ لَكَ أَنَّ نِساءَنا جَميعًا كُنَّ خيرَ النِّساءِ، لا تَجْسُرُ الواحدةُ مِنْهُنَّ على بَيْعِ جَسَدِها، ولو

---

(١) يُسِرُّ حَسْوًا في ارْتِغاءٍ: الحَسْوُ: الحساءُ. الارْتِغاءُ: الفَقاقيعُ الَّتي تَعْلو السّائِلَ، وهوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لمَنْ يُخْفي شَيْئًا ويُظْهِرُ غَيْرَهُ.

(٢) على رِسْلِكَ: على مَهْلِكَ، تَأَنَّ.

كانَ في ما تَفْعَلُ الغِنى والجاهُ. أَجَلْ، نَحْنُ النُّبَلاءُ، أَمّا هٰؤلاءِ فهُمُ الحُثالَةُ، الحُثالَةُ أوِ الرُّغاءُ[1]. إِنَّهُمُ الحُثالَةُ الَّتي تَتَعَلَّقُ بالأَلْقابِ كَما لَوْ كانَتْ تَتَعَلَّقُ بالأَوْهامِ».

وكانَ أوبلنسكي طيلَةَ ذٰلِكَ يُحَمْلِقُ في صَديقِهِ مَشْدوهًا مَبْهوتًا لا يَكادُ يُصَدِّقُ أُذُنَيْهِ، ويَظُنُّ في المُتَكَلِّمِ الظُّنونَ. أَهُوَ مَجْنونٌ فاقِدُ الحِجى؟ أَأَعْمَتْهُ الغَيْرةُ؟ أَهٰذا هُوَ ليفينُ الهادِئُ الرَّصينُ الَّذي لا يَنْبِسُ قَبْلَ أَنْ يُفَكِّرَ، ولا يَنْطِقُ قَبْلَ أَنْ يَزِنَ؟ إِنَّهُ يُلْقي الكَلامَ على عَواهِنِه، فيُهاجِمُ فرونسكي، ويَقْدَحُ فيهِ، ويَثْلِبُهُ[2]. ولٰكِنْ، أَغابَ عنهُ أَنَّهُ يُهاجِمُ أَيضًا أوبلنسكي الجالسَ مَعَهُ إِلى مائدةٍ واحدةٍ؟ وهَل يَنْسى أَنَّهُ يَجْلِسُ مَعَهُ حتّى يَسْتَرْسِلَ في غَضْبَتِهِ إِلى هٰذا الحَدِّ؟

وطَأْطَأَ أوبلنسكي رَأْسَهُ، وقالَ بهُدوءٍ وحِلْمٍ: «قد تَكونُ مُصيبًا في كُلِّ رَأْيٍ أَبْدَيْتَهُ يا صَديقي، إِلَّا أَنّي لم أَشَأْ أَنْ أُثيرَ انْفِعالَكَ، وما وَدِدْتُ إِلَّا أَنْ أَقولَ لكَ صَراحَةً إِنَّكَ ارْتَكَبْتَ أَبْشَعَ غَلْطَةٍ باخْتِفائِكَ ونُزوحِكَ. وأَعودُ فأُوَجِّهُ لكَ النُّصْحَ؛ اِرْجِعْ إِلى موسكو، عُدْ سَريعًا، تَوَجَّهْ إِلى كاترينَ، تَكَلَّمْ إِلَيها، ٱمْكُثْ هُناكَ، وسَتَنْجَحُ الآنَ حَيْثُ أَخْفَقْتَ مُنْذُ شُهورٍ!»

فاصْفَرَّ وَجْهُ ليفينَ، وكأَنَّهُ نَدِمَ على ما فَرَطَ مِنه، وأَجابَ وهْوَ جاحِظُ العَيْنَيْنِ: «أَجادٌّ أَنْتَ؟ هَل أَذْهَبُ؟ هَل يُمْكِنُ أَنْ أَنالَ المُنى؟»

---

(١) الرُّغاءُ: صَوْتُ الإِبِلِ أو الصَّوْتُ القَوِيُّ.
(٢) يَثْلِبُهُ: يَعيبُهُ، يَذُمُّهُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - أَتَرى أنّ فرونسكي حقَّقَ نصرًا ما؟ وهل تَرى، في مقابلِ ذلكَ، أَنّ أَنّا كارنينا قد سقَطَتْ حقًّا في حمأَةِ الرَّذيلةِ؟

٣ - رَأَيْتَ كيفَ صوَّرَ تولستوي الصراعَ العنيفَ في نفسِ أَنّا كارنينا. فهَلْ أَعجَبَكَ هذا التَّصويرُ؟ وما الأُسلوبُ الَّذي اعتمدَهُ الكاتِبُ في ذلك؟ أَهُوَ السَّردُ أَمِ الحوارُ أَمِ النَّجوى؟

٤ - جَعَلَ الكاتِبُ أوبلنسكي رَجُلًا باحثًا عَنِ المُتْعَة يَنْشُدُ اللّذَّةَ الحرامَ. فهَلْ تَراهُ يردُّ ذلكَ إلى عاملٍ وراثيٍّ يسوِّغُ انحرافَ الأُخْتِ (أُخْتِ أوبلنسكي) أَنّا كارنينا؟ أَوْضِحْ رأيكَ في المسألةِ.

٥ - تناوَلَ الكاتِبُ النُّبلَ ومعانيَهُ على لسانِ ليفين. فهَلْ كانَ هذا مُحِقًّا في نعتِهِ لأولئك الَّذينَ يحملونَ أَلقابَ النُّبلاءِ؟

٦ - مَنْ هُمُ النُّبلاءُ المُزيَّفونَ في نَظَرِ ليفين؟

٧ - هل بدا أخيرًا بصيصُ نورٍ أو بارقةُ أملٍ في نفقِ ليفين المُظْلمِ؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أسطرٍ قليلةٍ.

الفصل الخامس

هٰكذا عادَ الأَمَلُ يُداعِبُ أَفْكارَ ليفينَ.

هٰكذا عادَ هٰذا الأَمَلُ الحُلْوُ يُهَدْهِدُ صَدْرَهُ.

ففَكَّرَ بكاترينَ، وفكَّرَ بالسَّعادَةِ... وهَيَّجَ الفِكْرُ آمالَهُ، فبَنى قُصورَهُ مِنْ جَديدٍ، ونَظَرَ إلى الوَراءِ وإلى الأَمامِ، وقالَ إحْساسُهُ الباطِنُ: «عَلَيْكَ بالزَّواجِ حتّى تُصْبِحَ لكَ أنْتَ أَيْضًا مَمْلَكَتُكَ الخاصَّةُ».

***

كانَ فرونسكي في أَشَدِّ حالاتِ الحُبِّ. اِرْتَمى في لُجَّةِ الهَوى، ورَضِيَ عن نَفْسِهِ وعن هَوى قَلْبِهِ.

أَحَبَّ أَنّا كارنينا كما لَمْ يُحِبَّ إنسانٌ آخَرُ امْرَأَةً أُخْرى. أَحَبَّها بكُلِّ جَوارِحِه؛ أَحَبَّها بمَجموعِهِ، حتّى فَنِيَ في حُبِّها.

ومَعَ ذٰلِكَ فما صَرَفَهُ غَرامُهُ المُتَلَهِّبُ عن واجباتِهِ، وظَلَّ حَريصًا على أَداءِ هٰذِهِ الواجباتِ، لا يُهْمِلُ في أَمْرٍ عَسْكَرِيٍّ، ولا يَتَأَخَّرُ عَنِ الوَفاءِ بمَطاليبِ وَظيفتِهِ في الفِرْقَةِ الَّتي يَنْتَمِي إلَيْها. فهُوَ مُتَعَلِّقٌ بأَتْرابِهِ الضُّبّاطِ، يُحِبُّهُمْ ويَمْحَضُهُم الوَفاءَ، ويُؤْثِرُهُمْ على الأَقْرانِ جَميعًا. وكانَ الضُّبّاطُ يُبادِلونَهُ حُبًّا بحُبٍّ؛ كانوا يَحْتَرِمونَهُ ويُبَجِّلونَهُ، ولا يَبْخَسونَهُ حَقَّهُ مِنَ الإِعْجابِ والتَّقْديرِ.

وكَتَمَ ما في قَلْبِهِ، فلم يُطْلِعْ أَحَدًا على عَلاقَتِهِ الجَديدةِ، وغَرامِهِ الجديدِ.

كانَ يَنْغَمِسُ مَعَهُمْ في شُرْبٍ ولَهْوٍ، ولٰكِنَّهُ لم يَفُهْ بكَلمةٍ تَشي بهِ وتَفْضَحُ سِرَّهُ.

كانَ يُنْكِرُ ويَكْتُمُ، ويَتَحاشى الخَوْضَ في حَديثِ القَلْبِ، مَعَ أَنَّ النّاسَ جَميعَهُمْ كانوا يَلْهَجونَ بذِكْرِ عَلاقتِهِ الجَديدةِ، ويُضْفونَ عَلَيْها أَلْوانًا خِصْبَةً مِنَ الوَصْفِ. كانَ حَديثَ

النّاسِ، وكانَتْ أَنّا قِصَّةَ العامِ، ففي كُلِّ مُجتَمَعٍ وفي كُلِّ نادٍ لَغَطَ النّاسُ بقِصَّةِ غَرامِها، وقالُوا ما شاؤُوا عَن عَلاقتِها بالضّابطِ الشّابِّ الَّذي يَمْلِكُ المَلايينَ.

ومَعَ أَنَّ فرونسكي كانَ مِنْ خيرةِ الشُّبّانِ، ومِنْ أَغْناهُمْ وأَكْثَرِهِمْ نُفوذًا، رَأى الكَثيرونَ مِنَ الطامِحينَ المُتَطَلِّعينَ إلى التَّقَدُّمِ والفَلاحِ في عَلاقتِهِ بأَنّا، سُلَّمًا لهُ يَصْعَدُ فيهِ إلى أَعْلى. أَمّا كارنينُ الزَّوْجُ، فهْوَ في رَأْيِهِمْ السُّلَّمُ المُؤَدّي إلى الذُّرْوةِ!

وقد تَكَلَّمَتِ النِّساءُ في حَدَثِ موسكو وبطرسبرج، فقُلْنَ إنَّ أَنّا جَميلةٌ، لٰكِنَّها عابثةٌ مُسْتَهتِرةٌ. وارْتَحْنَ إلى هٰذِهِ العَلاقةِ، ووَجَدْنَ فيها مِغْمَزًا يَغْرِسْنَ فيهِ رِماحَ غَيْرَتِهِنَّ مِنْ أَنّا. فمَنْ مِنْهُنَّ تَمْلِكُ ما تَمْلِكُ أَنّا؟ مَنْ مِنْهُنَّ تَتَمَتَّعُ بالجَمالِ الأَخّاذِ، والزَّوْجِ الواسِعِ النُّفوذِ؟ ثُمَّ... مَنْ مِنْهُنَّ تَحوزُ عَشيقًا مِثْلَ فرونسكي؟!

وأَسِفَ البَعْضُ لهٰذا الحُبِّ، وقالوا، لقدِ انْهارَ صَرْحٌ آخَرُ للشَّرَفِ، وتَصَدَّعَ بُنيانٌ شَيَّدَهُ رَجُلٌ كَبيرٌ هُوَ كارنينُ، وتَضَعْضَعَ ما أَقامَهُ مِنْ دَعائِمِ السُّلْطةِ والقُوّةِ والمَنَعَةِ.

ولم يَأْسَفْ فرونسكي، ولم تَأْسَ أَنّا، وسَدَرَ الاِثْنانِ في غَرامٍ يَضْطَرِمُ ويَؤُجُّ بنارِ مَحْرقةٍ عَظيمةٍ.

* * *

وراجَتِ الشّائعاتُ حتّى تَناهَتْ إلى والِدةِ فرونسكي، فاكْتَأَبَتْ لأَوّلِ وَهْلَةٍ، لٰكِنَّها ما عَتَّمَتْ أن سُرَّتْ واغْتَبَطَتْ. فابْنُها في مَطْلَعِ الشَّبابِ، ولا مِرْيَةَ[1] في أَنَّهُ مُحتاجٌ إلى ما يُنيرُ عَيْنَيْهِ ويُهَذِّبُ حِسَّهُ، ويَفْتَحُ لَهُ الأَبْوابَ على مَصاريعِها. ومَنْ هُناكَ بَيْنَ النِّساءِ مَنْ تَبُذُّ أَنّا في جَمالِها وسَعةِ اطِّلاعِها وكَفاءَتِها، حتّى تَأْخُذَ بيَدِ ابْنِها في طَريقِ الطَّبَقةِ المُتْرَفةِ المُهَيْمِنةِ على الأُمورِ؟

وسُرَّتِ الأُمُّ كَذٰلِكَ لأَنَّها اكْتَشَفَتْ في أَسْرَعَ مِمّا قَدَّرَتْ مَواطِنَ الضَّعْفِ في المَرْأَةِ المِثاليَّةِ أَنّا كارنينا، وأَيْقَنَتْ أَنَّها كَمثيلاتِها مِنْ بَناتِ حَوّاءَ، ضَعيفةٌ تُجاهَ الحُبِّ، تَسْقُطُ ولو كانَ لَها أَلْفُ عاصِمٍ، وتَتَرامى بمَحْضِ إرادَتِها في البِرْكَةِ الآسِنَةِ، ولو كانَ هَدَفُها الوَحيدُ في الحياةِ هُوَ الحِفاظَ على الشَّرَفِ والكَرامةِ والذِّكْرِ الحَسَنِ!

---

(١) لا مِرْيَةَ: لا جَدَلَ.

أُمُّ فرونسكي يَغْمُرُ قَلْبَها السُّرورُ لعَلاقَةٍ آثِمَةٍ وَشَجَتْ بَيْنَ قَلْبِ ابْنِها وغانِيَةٍ اشْتَهَرَتْ بجَمالِها وكَمالِها!

الأُمُّ تَفْرَحُ وتَغْتَبِطُ لِزَلَّةٍ زَلَّها ابنُها، ولو دَرَتْ أَنَّهُ طَوى كَشْحَهُ[١] عَنِ مَنْصِبٍ خَطيرٍ عَرَضَتْهُ عَلَيْهِ الحُكومةُ لجُنَّ جُنونُها، ولأَقامَتِ الدُّنْيا وأَقْعَدَتْها، ولَسَلَقَتِ المَرْأَةَ (أَنّا) بِلِسانٍ حادٍّ لا يَعْرِفُ مِنْ زَمانِهِ إِلّا القَدْحَ والتَّشْهيرَ.

أَجَلْ، أَصابَ الأُمَّ مِنْ حُبِّ ابْنِها جَذَلٌ عَظيمٌ! ولٰكِنَّ الحُكومةَ أَصابَتْها مِنهُ خَيْبَةٌ، ووَضَعَتْ في مَلَفِّهِ بُقْعَةً سَوْداءَ كَبيرةً. إِنَّهُ يَرْفُضُ أَجَلَّ المَناصِبِ، ورَفْضُهُ مُسَبَّبٌ، والسَّبَبُ غَرامٌ. فهْوَ مُسْتَضْعَفٌ إذًا، والضَّعيفُ مَكانُهُ في غَيرِ الجَيْشِ. هٰذِهِ هِيَ البُقْعَةُ السَّوْداءُ!

أَمّا أَخوهُ فقدِ اغْتَمَّ واهْتَمَّ، ولم يُثِرْ غَمَّهُ وهَمَّهُ عَلاقةُ أَخيهِ الغَراميَّةُ، بل تَرَدّيهِ في حُفْرَةٍ لن يَخْرُجَ مِنْها سالمًا، أَيِ اسْتِسلامُ أَخيهِ إلى ما يُؤَخِّرُهُ في مِضْمارِ الحَياةِ، ويُمَهِّدُ طَريقَ النَّجاحِ لِسِواهُ مِنَ الأَقْرانِ والأَنْدادِ.

ولَمْ يَعْبَأْ فرونسكي بالهَمْسِ، لَمْ يَحْفِلِ التَّجْريحَ، بل أَقْبَلَ على عاطفتِهِ الجَديدةِ يَحُوطُها بكُلِّ عِنايةٍ، ويُغَذّيها، ويُقَوِّيها، ويَصْقُلُ الوَعْثَ[٢] مِنْ أَجْزائِها.

كانَ يُحِبُّ الجَيْشَ كما يُحِبُّ أَنّا، وبجانِبِ حُبِّهِ للجَيْشِ وأَنّا كانَ مُتَعلِّقًا بالجِيادِ، فهْوَ يُؤْثِرُها على سائِرِ الأَشْياءِ. ولمّا تَناهى إلى عِلْمِهِ أَنَّ الجَيْشَ في سَبيلِ إقامةِ سِباقٍ عَظيمٍ تَحْتَ إِشْرافِ القَيْصَرِ سارَعَ إلى ابْتِياعِ جَوادٍ أَصيلٍ مَشْهودٍ لَهُ، وأَدْخَلَ اسْمَهُ ضِمْنَ أَسْماءِ الفُرْسانِ الَّذينَ سَيَشْتَرِكونَ في هٰذا السِّباقِ.

وعَكَفَ على التَّمْرينِ، واعْتَنى بجَوادِهِ، وراضَهُ ودَرَّبَهُ.

ولمّا أَزِفَ ميعادُ السِّباقِ، أَلَمَّ بالبَيْتِ الَّذي أُفْرِدَ لَهُ في الفِرْقَةِ، فاجْتَمَعَ إلى زُملائِهِ وَقْتًا قَصيرًا، ثُمَّ اغْتَسَلَ وطَعِمَ، وامْتَطى صَهْوَةَ الجَوادِ القَوِيِّ، وخَبَّ[٣] بهِ في الطَّريقِ إلى أَرْباضِ[٤] بطرسبرج حَيْثُ تُقيمُ أَنّا كارنينا.

---

(١) طَوى كَشْحَهُ عَن مَنْصِبٍ: أَعْرَضَ عَنهُ.
(٢) الوَعْثُ: الغَليظُ، الشّاقُّ، الخَشِنُ.
(٣) خَبَّ الفَرَسُ: عَدا، جَرى مُسْرِعًا.
(٤) أَرْباض: مُفْرَدُها رَبَضٌ، وهْوَ هُنا مَساكِنُ القَوْمِ مِمّا حَوْلَ المَدينَةِ.

وكانَ قدِ انْقَطَعَ عَنْها لثَلاثةِ أيّامٍ خَلَتْ، لا لأنَّهُ انْشَغَلَ بأُمورٍ أُخْرى، بَل لأنَّ كارنينَ كانَ يَلْزَمُ البَيْتَ في تِلْكَ الأيّامِ لِعارِضٍ مِنْ أَلَمٍ انْتابَهُ بَغْتَةً في ساقِهِ.

أمّا في ذٰلكَ اليَوْمِ فقد عَلِمَ أنَّ الرَّجُلَ قَصَدَ مَكْتَبَهُ في بطرسبرج، ولهٰذا عَجَّلَ بالتَّوَجُّهِ إلى أنّا حتّى يَجْتَمِعَ إلَيْها قَبْلَ أَوْبَةِ زَوْجِها.

فلمّا وَصَلَ تَرَجَّلَ وسأَلَ الحاجِبَ عن سَيِّدتِهِ، ثُمَّ عَجَّلَ بالصُّعودِ ووَجْهُهُ يَطْفَحُ بِشْرًا.

وكانَتْ أنّا لا تَنْتَظِرُهُ في ذٰلِكَ اليَوْمِ، فهُما لَيْسا على ميعادٍ. لهٰذا تَعَمَّدَ أنْ لا يُحدِثَ صَوْتًا حتّى يَفْجَأَها بظُهورِهِ.

ودَنا مِنْ مَخْدَعِها، فتَذَكَّرَ أنَّ ابْنَها في البَيْتِ. وابْنُها كما أَيْقَنَ مِنْ قَبْلُ، مُدْرِكٌ يَفْهَمُ، وذَكِيٌّ يُقَدِّرُ ويَسْتَنْتِجُ.

كانَ الوَلَدُ صَغيرًا، إلّا أنَّ ذِهْنَهُ اجْتازَ سِنَّهُ، وفَهْمَهُ سَبَقَ عِلْمَهُ، حتّى غَدا العَقَبَةَ الوَحيدةَ الَّتي تَمْنَعُهُ في كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ مِنَ الاِخْتِلاءِ بمَحْبوبتِهِ.

وقَد طالَما شَعَرَ بالنُّفورِ مِن هٰذا الطِّفْلِ، وقَد طالَما أنْحى على نَفْسِهِ باللّائِمَةِ لنُفورِهِ مِنَ الاِبْنِ البَريءِ لأنَّهُ يُعَرْقِلُ طَريقَ حُبِّهِ لأُمِّهِ.

وما أكْثَرَ ما غَضِبَ مِنَ الفَتى لأنَّهُ لم يَتَمَكَّنْ في أثْناءِ وُجودِهِ مِنَ الإفْضاءِ بكُلِّ ما يَخْتَلِجُ في قَلْبِهِ. فهْوَ يَمْلِكُ مِنْ قُوّةِ المُلاحَظةِ ما لا يَمْلِكُهُ الرِّجالُ، وسَوْفَ يَتَذَكَّرُ ولا شَكَّ، كُلَّ حَرَكةٍ قامَتْ بها أُمُّهُ. سَوْفَ تَرْسَخُ الأُمورُ في مُخَيِّلَتِهِ، حتّى إذا كَبُرَ وشَبَّ عَنِ الطَّوْقِ جَمَعَ الأطْرافَ وأَمْسَكَ الخُيوطَ، واسْتَنْتَجَ الحَقيقةَ، وأيْقَنَ مِنْ صِدْقِ ما يُقالُ، ومِنْ صِدْقِ ما قدَ يُنْعَتُ بِهِ ويُوْصَمُ، إنْ تَقَدَّمَ أحَدٌ بالِاتِّهامِ!

ظَنَّ فرونسكي الظُّنونَ بالطِّفْلِ، وتَراءى لَهُ أنَّهُ يَكْتُمُ ما في نَفْسِهِ، وإلّا لَما كانَ يَنْكُسُ رَأْسَهُ خَجَلًا كُلَّما نَظَرَ إلى وَجْهِهِ، وكُلَّما داعَبَهُ ورَبَّتَ خَدَّهُ.

على أنَّ الطِّفْلَ كانَ بَعيدًا كُلَّ البُعْدِ عَنِ الرِّيَبِ، لا تَرْقى إلى أُمِّهِ الشُّبُهاتُ في تَفْكيرِهِ وإحْساسِهِ، وإنْ قادَتْهُ غَريزَتُهُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ إلى مَوْطِنِ النُّفورِ مِن فرونسكي. وقَد بَذَلَ كَثيرًا مِنَ الجُهْدِ الصّادِقِ لِيَسْتَشْعِرَ المَيْلَ نَحْوَهُ، لٰكِنَّ جُهْدَهُ في هٰذا المِضمارِ لم يُفْلِحْ في كَثيرٍ أو قَليلٍ، وظَلَّ شُعورُ الِاشْمِئْزازِ مِنْ صَديقِ أُمِّهِ يَنْتابُهُ كُلَّما ضَمَّ الِاثْنَينِ مَجْلِسٌ، وكُلَّما

اضْطُرَّ فرونسكي إلى التَّأَدُّبِ في حَضْرَتِهِ، والتَّكَلُّفِ في حَديثِهِ مَعَ أَنّا!

هٰذا الصَّغيرُ النّافِرُ كانَ يَتَساءَلُ عن مَكانةِ فرونسكي في هٰذا البَيْتِ، وصِلَتِهِ بأُمِّهِ، وعَلاقَتِهِ بأَبيهِ.

هٰذا النّافِرُ الصَّغيرُ كانَ يَنْظُرُ بتَأَمُّلٍ، فيَرى ببَصَرِهِ الثّاقِبِ وبَصيرَتِهِ النّافِذَةِ أَنَّ أَباهُ وسائِرَ الخَدَمِ يُكِنّونَ لفرونسكي الكَراهِيَةَ والمَقْتَ، ويَعْتَبِرونَهُ شَخْصًا غَيرَ مَرْغوبٍ فيهِ، فيُدْهَشُ ويَزْدادُ نُفورًا.

ومَعَ أَنَّ أُمَّهُ كانَتِ الوَحيدةَ الَّتي تَعْطِفُ أَمامَهُ على فرونسكي، فإنَّ عَطْفَها لم يَزِدْهُ إِلّا بُعْدًا عَنِ الشّابِّ.

والْتَبَسَ عليهِ الأَمْرُ، ولم يَجِدْ لتَضارُبِ الآراءِ تَعْليلًا، ولم يَجِدْ لاخْتِلافِ المَشارِبِ تَفْسيرًا.

وظَلَّ رَأْسُهُ الصَّغيرُ عاجِزًا عَنِ اخْتِراقِ سُجُفِ الواقعِ، ظَلَّ الطِّفْلُ في جَهْلٍ، لأَنَّ الحَقيقةَ لم تَتَبَلَّجْ لَه بَعْدُ، ولأَنَّ غَرائِزَهُ لم تَنْمُ إلى الحَدِّ الَّذي يُصْبِحُ فيهِ قادِرًا على تَفَهُّمِ مَعْنى الحُبِّ والعَلاقةِ الجِنْسِيَّةِ... أو لأَنَّهُ بكَلامٍ مُقْتَضَبٍ لم يَبْلُغْ تِلْكَ المَرْتَبَةَ الَّتي تُمَكِّنُهُ مِنْ سَبْرِ غَوْرِ العَواطِفِ والأَحاسيسِ، وطَفَراتِ القُلوبِ!

كانَ الطِّفْلُ للأُمِّ وَعَشيقِها بمَنْزِلَةِ البُوصَلَةِ الَّتي تُريهِما دائِمًا النُّقْطَةَ الَّتي غادَرا مِنْها ما يَعْرِفانِ، بَل ما لا يَوَدّانِ أَنْ يَعْرِفا.

ولم يَكُنِ الطِّفْلُ في البَيْتِ ساعةَ دَخَلَهُ فرونسكي؛ وكانَتْ أَنّا تَنْتَظِرُ أَوْبَتَهُ مِنْ نُزْهتِهِ اليَوْمِيَّةِ، وقَد جَلَسَتْ وَحْدَها في الشُّرْفَةِ.

وكانَ المَطَرُ يَسْقُطُ رَذاذًا، وقَد سارَعَتْ أَنّا لَدى تَكاثُفِ الغُيومِ إلى إِرْسالِ خادِمَيْنِ وَراءَ ابْنِها، حتّى يَصْطَحِباهُ في طَريقِ العَودَةِ.

وتَلَفَّعَتْ بثَوْبٍ أَبْيَضَ مُطَرَّزٍ، وجَلَسَتْ في رُكْنٍ تَحْجُبُهُ الوُرودُ. وكانَتْ مَحْنيَّةَ الرَّأْسِ، تَضْغَطُ جَبينَها على إِناءٍ نَظيفٍ يَسْتَعْمِلُهُ البُسْتانيُّ لرَيِّ أَزْهارِهِ.

ووَقَفَ فرونسكي عَنْ كَثَبٍ مِنْها، فلم تَرَهُ. وما كادَ يَخْطو نَحْوَها حتّى أَحَسَّتْ بوُجودِهِ، فرَفَعَتْ رَأْسَها، واتَّجَهَتْ إِليهِ بوَجْهِها.

وقالَ وهْوَ يَدْنو مِنْها: «أَبِكِ سُوءٌ؟ هَل تَشْعُرينَ بما تُؤْثِرينَ مَعَهُ العُزْلَةَ والِانْفِرادَ؟»

وصَمَتَ. كانَ بَوَدِّهِ أَنْ لا يَصْمُتَ، كانَ يَتَلَهَّفُ إِلى احْتِضانِها ونَقْعِ صَدى حُبِّهِ مِنْها. لٰكِنَّهُ كَبَتَ هٰذِهِ الثَّوْرَةَ الَّتي اعْتَمَلَتْ في أَعْماقِهِ ساعةَ وَقَعَ طَرْفُهُ عَلَيْها، حتّى لا يُشاهِدَ الخَدَمُ ما يَجِبُ أَلّا يُشاهِدوا.

ومَدَّتْ لَهُ يَدَها فصافَحَتْهُ ضاغِطةً قَليلًا على أَنامِلِهِ، ثُمَّ أَجابَتْ والابتِسامَةُ تَتَراقَصُ على ثَغْرِها، أو بالأَحْرَى تُقَبِّلُ هٰذا الثَّغْرَ الرّائِعَ: «كلّا، إِنّي في خَيْرِ حالٍ، فماذا جاءَ بِكَ اليَوْمَ؟»

قالَ: «لقد دَفَعَني الشَّوْقُ إِلى القُدومِ. ولٰكِنْ، ما بالُ يَدِكِ تَرْتَعِشُ بارِدَةً مَقْرورَةً؟ ما بالُكِ يا أَنّا؟»

-«لَيْسَ بي ما يُثيرُ القَلَقَ، على أَنَّكَ أَخَفْتَني بظُهورِكَ المُفاجِئِ».

-«لا تَنْقِمي عَلَيَّ، فأَنا أَرْغَبُ في مُشاهَدَتِكِ كُلَّ يَوْمٍ بَل كُلَّ ساعةٍ، لو تَسَنّى لي ذٰلِكَ».

-«وإِنَّني لَمُغْتَبِطَةٌ، وأَوَدُّ أَنْ أَراكَ في كُلِّ دَقيقةٍ».

-«على أَنّي قَلِقٌ مِنْ أَجْلِكِ، فأَنْتِ مُتَوَعِّكَةُ المِزاجِ قَليلًا، فهَل حَدَثَ ما كَرَبَكِ وأَقْلَقَكِ؟»

-«ثِقْ أَنَّهُ لم يَحْدُثْ ما يُعَكِّرُ صَفْوي».

-«فهَل هُوَ الفِكْرُ إِذًا؟ وفيمَ تُفَكِّرينَ؟»

-«في أَمْرٍ واحِدٍ... في شَيْءٍ واحِدٍ!»

-«وما هُوَ هٰذا الأَمْرُ أَوِ الشَّيْءُ؟»

وهَزَّتْ أَنّا رَأْسَها، ولم تَجِبْ.

كانَتْ تُفَكِّرُ حَقيقَةً في أَمْرٍ واحِدٍ لا ثانيَ لَهُ، كانَتْ تُفَكِّرُ في نَفْسِها، أو بالأَحْرى، في سَعادَتِها وشَقائِها- في النَّقيضَيْنِ اللَّذَيْنِ اجْتَمَعا على حينِ غِرّةٍ في سُوَيْدائِها.

ورُبَّ مَرَّةٍ تَساءَلَتْ فيها قَبْلًا عَن مَبْعَثِ أَساها، ومَنْشَأِ هَمِّها؛ ورُبَّ مَرَّةٍ أَنْحَتْ على نَفْسِها بالقَوْلِ الفَظِّ. أَهِيَ المَرْأَةُ الأُولى الّتي تَعْشَقُ على زَوْجِها؟ أَلا تُحِبُّ صَديقَتُها بتسي؟ ومَعَ ذٰلِكَ، فإِنَّها لا تَتَرَمَّضُ على نارِ التَبْكيتِ الّتي تَتقَلّى عَلَيْها هِيَ!

وغَيْرُ بتسي مِنَ النِّساءِ اللَّواتي لَهُنَّ أَكْثَرُ مِنْ عَشيقٍ، ولٰكِنَّهُنَّ جَميعًا يَنْعَمْنَ بالهَناءِ ورَاحَةِ البالِ، إلَّا هِيَ، فهْيَ تَتَعَذَّبُ وتَتَأَلَّمُ، وتُعاني مِنْ وَخْزِ الضَّميرِ ما يَهونُ إزاءَهُ كُلُّ عَذابٍ وأَلَمٍ.

وهَزَّتْ رَأْسَها وكأَنَّها تَنْفُضُ منهُ ما تَزاحَمَ فيهِ مِنْ أَفْكارٍ مُرْمِضَةٍ، وأَقْبَلَتْ عليهِ تُخاطِبُهُ، وتَطْرَحُ عليهِ مُخْتَلِفَ الأَسْئِلَةِ.

ولٰكِنَّهُ لم يَرُدَّ على أَسْئِلَتِها، بَل نَبَرَ يَقولُ وهْوَ يُقَطِّبُ قَليلًا: «ولِمَ تَكْتُمينَ عنّي ما يَشْغَلُ فِكْرَكِ؟ لِمَ لا تَفْتَحينَ لي مَغاليقَ قَلْبِكِ؟»

فرَنَتْ إليهِ بِطَرْفٍ مُخَضَلٍّ[1] ولَزِمَتِ الصَّمْتَ.

واسْتَأْنَفَ يَقولُ: «لا جَرَمَ[2] أَنَّ في صَدْرِكِ اضْطِرابًا وانْفِعالًا، وثِقي أَنَّ الإفْضاءَ إليَّ بما يُؤْلِمُكِ يُخَفِّفُ عَنْكِ الوَطْأَةَ، ويُزيلُ عَنْ صَدْري كابوسًا ثَقيلًا. فتَكَلَّمي ناشَدْتُكِ اللهَ ولا تُسْرِفي في إيلامي».

فقالَتْ بصَوْتٍ مَهْموسٍ يَسيلُ رِقَّةً وأَلَمًا: «أَتَرْغَبُ إليَّ حَقًّا أَنْ أَتَكَلَّمَ؟»

قالَ مُتَوَسِّلًا: «أَجَلْ... أَجَلْ... قولي كُلَّ شَيْءٍ».

فأَغْضَتْ عَيْنَيْها، وقالَتْ وهْيَ تَشْرَقُ: «إنّي امْرَأَةٌ حامِلٌ».

وارْتَعَدَتْ، وارْتَعَشَتْ، واخْتَلَجَتْ شَفَتاها. ثُمَّ رَفَعَتْ إلى وَجْهِهِ عَينَينِ ساحِرَتَينِ حَزينَتَينِ، وجَعَلَتْ تُحَدِّقُ في أَسارِيرِهِ، كأَنَّها تُريدُ أَنْ تَسْتَشِفَّ تَأْثيرَ كَلماتِها في قَلْبِهِ.

وأُلْجِمَ لِسانُهُ، وجَمَدَ في مَكانِهِ. ولم يُعَتِّمْ أَنِ انْحَنى إلى الأَمامِ قَليلًا ومالَ برَأْسِهِ على صَدْرِهِ، وكأَنَّ إحْساسَهُ الباطِنَ طَفِقَ يَتَساءَلُ وَيقولُ: «مَنْ ذا الَّذي فَعَلَ بي هٰذا؟ إنّي إذًا لَذو وَلَدٍ، فلَيْتَ لي وَلَدًا! لَكَ الوَيْلُ يا رَجُلُ! لَكَ الوَيْلُ مِنْ مُجْرِمٍ دامي الأَنْيابِ، وفاسِقٍ فاجِرٍ مَيِّتِ الضَّميرِ! أَأَتَبَسَّمُ؟ أَأَسْتَطيعُ أَنْ أَتبَسَّمَ وأنا مُجْرِمٌ؟ أَأَسْتَطيعُ ذٰلِكَ، والتَّبَسُّمُ في حالتي ضَرْبٌ مِنَ الرِّياءِ؟»

وكأَنَّها تَتَبَّعَتْ مَجْرى أَفْكارِهِ، وقَرأَتْ في عَينَيهِ ما اعْتَمَلَ في صَدْرِهِ، فمَدَّتْ إلَيهِ يَدًا

---

(١) مُخْضَلٌّ: مُبَلَّل.
(٢) لا جَرَمَ: لا بُدَّ.

رَخْصةً، وضَغَطَتْ بها على يَدِهِ، ولِسانُ حالِها يَقولُ: «لا تَرْزَحْ تَحْتَ ثِقْلِ اليَأْسِ، لا تَدَعْ روحَكَ تَئِنُّ، فلَيْسَتْ هٰذِهِ الصَّدْمَةُ إِلَّا ثَمَرَةً مِنْ ثَمَراتِ الحُبِّ. ولَكَ الحَمْدُ، لَكَ الحَمْدُ، فأَنا بخَيرٍ ما دامَ قَلْبُكَ عامِرًا بالمَحَبَّةِ والإِخْلاصِ!»

ولم تَكُنْ أَنّا على صَوابٍ في ما حَدَسَتْهُ، لم تَكُنْ على حَقٍّ حينَ صَوَّرَ لَها حُبُّها للرَّجُلِ آلامَهُ مِنْ أَجْلِها بصُورةٍ رائعةٍ تَحْمِلُ مِنَ المَعاني ما يَجِلُّ عَنِ الوَصْفِ، بَل تَحْمِلُ مِنَ القِيَمِ الإِنْسانِيَّةِ ما تَنْحَني لَها هامَةُ الإِنْسانِيَّةِ احْتِرامًا وتَقْديرًا...

لم تَكُنْ أَنّا على حَقٍّ، فهْوَ رَجُلٌ مِنَ الرِّجالِ، وهْوَ قَد نَظَرَ إِلى الأَمْرِ كما يَنْظُرُ كُلُّ رَجُلٍ آخَرَ. لقد شَعَرَ بالخَطَرِ الماثِلِ، إِنَّها حامِلٌ، ولا مِرْيَةَ في أَنَّ زَوْجَها سَيَطَّلِعُ على الحَقيقةِ، ولِهٰذا يَتَرَتَّبُ عليهِ أَنْ يَبُتَّ الأَمْرَ مِن دونِ إِبطاءٍ.

لقد فَكَّرَ في نَفْسِهِ كمُجْرِمٍ، لٰكِنَّ رَهْبَةَ المَوْقِفِ هِيَ الَّتي جَسَّمَتْهُ مُجْرِمًا في نَظَرِ ذاتِ هٰذِهِ النَّفْسِ، وكانَتْ لَمْحةً خاطِفةً تَلاشى فيها المُجْرِمُ، وظَهَرَ الشّابُّ الَّذي يُريدُ أَنْ يُدَبِّرَ الأُمورَ قَبْلَ استِفْحالِ الخَطَرِ.

كانَ فرونسكي على شَيءٍ مِنَ الاسْتِقامةِ، إِلَّا أَنَّ هٰذا الجانِبَ مِنَ الشَّهامَةِ لم يَكْبَحْ جِماحَ الأَثَرةِ الَّتي لا يَخْلو مِنْها قَلْبُ إِنْسانٍ مهما تَعالى وسَما، ومَهْما كانَتْ إِنْسانِيَّتُهُ تَبُذُّ شَهْوَتَهُ.

ونَظَرَ فرونسكي إِلَيْها نَظْرَةَ الصَّبِّ المُسْتَهامِ، فإِذا بقَلْبِهِ يَجِفُ[1] وبإِحْساسِهِ يَرِقُّ حتّى يَكادُ أَنْ يَكونَ كالنَّسيمِ. وإِذا بهِ يَأْخُذُ يَدَها بيَدِهِ، ويَلْثِمُها ويُقَبِّلُها، ثُمَّ يُوَجِّهُ إِلى صاحِبَتِها حَديثَهُ فيَقولُ برِفْقٍ وهُدوءٍ وثِقةٍ: «أَيْ أَنّا! يا صِنْوَ الرّوحِ! يا مَعْبودَتي! لقد وَشَجَتْ بَيْنَنا عَلاقةُ لَذَّةٍ وشَهْوةٍ، لٰكِنِّي لم آخُذْها كعَلاقةِ رَجُلٍ يَمْجُنُ. ولا مَفَرَّ لَنا الآنَ مِنَ البَتِّ والجَزْمِ. لا مَنْدوحَةَ لَنا مِنَ الفَصْلِ، أَجَلْ، عَلَيْنا أَنْ نُقَرِّرَ المُسْتَقْبَلَ».

قالَتْ وصَوْتُها يَنِمُّ عن قَلَقِها: «فماذا تَرْتَئي؟ ماذا تَفْعَلُ؟»

قالَ: «أَتُحِبِّينَني؟ إِنْ كُنْتِ تُحِبِّينَني فاهْجُري قَرينَكِ. أُتْرُكيهِ. غادِريهِ، وتَعالَي، تَعالَي بِيَ، حتّى تَنْصَهِرَ روحانا وتَنْدَمِجَ حَياتانا».

قالَتْ: «لا شَكَّ أَنَّ حَياتَيْنا قد أَصْبَحَتا حَياةً، وروحَيْنا روحًا».

---

١) يَجِفُ (الماضي: وَجَفَ): يَضْطَرِبُ.

قالَ: «في السِّرّ ذٰلكَ، في السِّرِّ. وعَلَينا أَنْ نُعْلِنَ على المَلأِ أَنَّنا أَصْبَحْنا مُتَّحِدَينِ مُنْدَمِجَينِ!»

-«على أَنّي مُتَزَوِّجةٌ، وأُمٌّ، فماذا أَفْعَلُ؟ ما هُوَ الحَلُّ؟»

-«أُتْرُكيهِ. أُترِكي زَوْجَكِ. قولي لَهُ إِنَّكِ لا تُحِبِّينَهُ...».

-«ما أَهْوَنَ الكَلامَ وَأَصْعَبَ الأَداءَ!»

-«أَتُحِبِّينَهُ؟».

-«كَلّا، لا أُحِبُّهُ... فهْوَ ثَقيلٌ».

-«فماذا يَمْنَعُكِ إِذًا مِنَ الِانْضِمامِ إِلَيَّ؟ أَوَلَدُكِ؟»

ففكَّرَتْ وتَمعَّنَتْ، ثُمَّ أَجابَتْ: «لا أَدْري. لا أَدْري. صَدِّقْ ما أَقولُ. إِنَّني مُحْتارَةٌ، أَتَأَلَّمُ. ثُمَّ إِنّي سَعيدَةٌ أَيْضًا. أَتْعَلَمُ؟»

-«فإِذًا؟!»

-«حَبيبي... أَلا تُوَفِّرُ عَلَيَّ ما أُكابِدُهُ؟ أَرْجِئِ القَوْلَ، أَسْدِلْ سِتارًا على ما تَوَدُّ أَنْ تُنْهِيَهُ. إِنَّني لا أَدْري مَنْ أَنا، وما أَنا، وكيفَ أَنا، ولِمَ أَنا، إِنَّني لا أَدْري!»

وانْحَنى على يَدِها فطَبَعَ عَلَيْها قُبْلَةً أَوْدَعَها كُلَّ ما يَعْتَلِجُ في صَدْرِهِ مِنْ وَجْدٍ وهُيامٍ، ثُمَّ انْثَنَى ببَصَرِهِ إِلى الأُفُقِ البَعيدِ يَنْظُرُ إِليهِ ويُطيلُ التَّحْديقَ، ويُحاوِلُ مِنْ وَراءِ ذٰلِكَ أَنْ يَسْتَشِفَّ الغَيْبَ وَيَقْرَأَ ما تُخَبِّئُهُ لَهُ ولَها الأَيّامُ.

وكانَتِ الأَيّامُ تُخبِئُ أُمورًا كَثيرةً، كانَتْ تَنْطَوي على مُفاجآتٍ.

كانَتْ تَزْخَرُ بالفَرَحِ والتَّرَحِ، وبالأَمَلِ والأَلَمِ. كانَتْ حافِلَةٍ بكُلِّ ما يَحْفِلُ بهِ الزّمانُ مِن عَجائِبَ وطَرائِفَ، يُطْلِقُ عليها الإِنْسانُ تارةً اسْمَ المَأْساةِ، ويَدعوها تارةً أُخْرى السَّعادَةَ.

والإِنْسانُ أُعْجوبةٌ.

ودَهْرُهُ أُعْجوبةٌ.

ومَصيرُهُ أُعْجوبةٌ.

* * *

وعَبَّرَتْ صَفْحةُ وَجْهِها عَن مَذَلَّةٍ وانْكِسارٍ وانْهِيارٍ، وقالَتْ، قالَتْ أَنَا، وصَوْتُها يَنِمُّ عَن حَيْرَتِها: «لا يَعْلَمُ، أُوّاهِ! إِنَّهُ لا يَعْلَمُ، ولا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ».

فأَجابَها فرونسكي بثَباتٍ: «لا أَحْفِلُهُ، لا أُبالي بهِ، ولْيَعْلَمْ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَنْتِ مُثْقلةٌ بالهُمومِ، ولا يَخْلُقُ بي أَن أَدَعَكِ تَرْزَحينَ تَحْتَ وَطْأَتِها، فقد تَسْحَقُكِ».

قالَتْ: «وماذا تَراني فاعلةً؟ ماذا تَرْتَئي؟»

قالَ: «أَرى أَنْ تَكوني صَريحةً، فتُميطي لَهُ اللِّثامَ عَنِ الحَقيقةِ؛ أَصْدِقيهِ القَوْلَ ثُمَّ اتْرُكيهِ وشَأْنَهُ. لا توجِسي خيفةً، لا تَفْزَعي».

فلاحَ على فَمِها شَبَحُ ابتِسامةٍ، وأَجابَتْ في شَيْءٍ مِنَ السُّخْرِيَةِ: «وإذا فَعَلْتُ، إذا قُلْتُ لهُ الحَقيقةَ، أَتَدْري ما يَكونُ مَوْقِفُهُ؟ إِنَّهُ سَيَرْمُقُني بنَظَرِهِ المُتَهَكِّم مُتَأَمِّلًا مُتَفَحِّصًا، ثُمَّ يُجيبُني قائِلًا: «فأَنْتِ تَعْشَقينَ، أَنْتِ تُحِبِّينَ رَجُلاً آخَرَ إِذًا! يا عَجَبًا أَلَمْ أُحَذِّرْكِ؟ ثُمَّ، أَلا تَخافينَ المَغَبَّةَ؟ أَتَرْتَمينَ في حِضْنِهِ مِن دونِ اكْتِراثٍ؟ وما رَأْيُكِ في الأُصولِ الدّينيّةِ والمَدَنِيّةِ؟ ما رَأْيُكِ في التّقاليدِ المَرْعِيَّةِ الجانِبِ؟ أَصيخي إِلَيَّ، أَعيريني سَمْعَكِ... إِنَّني جِدُّ حَريصٍ على اسْمي، ولَن أُتيحَ لَكِ أَنْ تُلَوِّثي هٰذا الاِسْمَ بقاذوراتِكِ، وأَنْ تُلْصِقي العارَ باسْمِ...».

ولم تَنْطِقْ باسْمِ وَلَدِها، فهْيَ تُجِلُّهُ وتُحِبُّهُ، ولا تَسْمَحُ بإِشْراكِهِ في أَيِّ فَضيحةٍ.

وتَنَفَّسَتِ الصُّعَداءَ، واسْتَتْلَتْ: «سيَقولُ هٰذا، وسَيَزيدُ، سيُخْبِرُني بحَزْمٍ أَنَّه لن يَدَعَني وشَأْني، وأَنَّهُ سيَتَمَسَّكُ بي حتّى لا أَذْهَبَ، سَيَتَمَسَّكُ بي لا لأَنَّه يَهْواني، بَل لأَنَّهُ يَخْشى الفَضيحةَ، ويَخْشى القالَةَ الَّتي يَراها شَرًّا مِنَ الفَضيحةِ، وأَنَّهُ لن يُحْجِمَ عَنِ اللُّجوءِ إِلى القانونِ ليَمْنَعَني مِنَ التَّصَرُّفِ بحَماقَةٍ. وأَنا مُوقِنَةٌ أَنَّهُ سيَقْرِنُ القَوْلَ بالعَمَلِ، ويُنَفِّذُ تَهْديدَهُ بكُلِّ دِقَّةٍ. إِنَّهُ رَجُلٌ مُخيفٌ متى حَزَبَ الأَمْرُ[1]، ولَهُ مِنْ إِرادتِهِ ما يُذَلِّلُ بِهِ الصِّعابَ مَهْما بَلَغَتْ شِدَّتُها، هُو كَذٰلِكَ، وأَنْت لا تَعْرِفُهُ. هُوَ قاسٍ كأَقْسى ما يَكونُ الرِّجالُ، وهْوَ متى غَضِبَ هَدَّدَ، ومَتى هَدَّدَ نَفَّذَ».

فَهَزَّ فرونسكي رَأْسَهُ وقالَ: «يَجِبُ أَنْ لا تَفُلَّ إِرادتُهُ إِرادَتَنا، يَجِبُ أَنْ نَصْمُدَ وأَنْ نُكافِحَ. فصارِحيهِ بكُلِّ شَيْءٍ، ولْنَنْتَظِرْ، ثُمَّ لِنَعْمَلْ؛ أو بالأَحْرى لنُقابِلْ إِجراءاتِهِ بإِجراءاتٍ

---

١) حَزَبَ الأَمْرُ: اشْتَدَّ.

مُضادَّةٍ، واللهُ وَحْدَهُ يُقَرِّرُ النَّتائِجَ والمَصائِرَ».

ولمّا لم يَحْظَ مِنْها بجَوابٍ مَضى يَقُولُ: «اُهْجُريهِ، اُتْرُكي بَيْتَهُ، لا تُراعي يا أَنّا».

قالَتْ: «وماذا يَجْري مِنْ بَعْدُ متى هَجَرْتُهُ وغادَرْتُ بَيْتَهُ؟ هل أُقيمُ مَعَكَ كَعشيقةٍ؟ كخليلةٍ؟»

فحَدَّدَ فيها عَيْنًا يَتَطايَرُ منها الشَّرَرُ وهَتَفَ: «أَنّا!»

ولانَتْ نَظْرَتُهُ فَجْأَةً، ورَنا إِلَيْها مُسْتَعْطِفًا.

وأَرْدَفَتْ: «أَجَلْ، أَهْجُرُهُ، فأَنْتَقِلُ مِن بَيْتِ الزَّوْجِ إِلى بَيْتِ العَشيقِ. فأُحَطِّمُ كُلَّ شَيْءٍ، وأَهْدِمُ مُسْتَقبَلي ومُسْتَقْبَلَ..».

وحاوَلَتْ أَنْ تَقولَ- ابْني- لٰكِنَّ لِسانَها عَصاها مَرّةً أُخْرى، فاكْتَفَتْ بما قالَتْ.

وَعَجَزَ فرونسكي عَنْ فَهْمِ مَوْقِفِها تُجاهَ الوَضْعِيَّةِ الَّتي بَلَغاها. إِنَّها صادقةٌ تَمْقُتُ النِّفاقَ والرِّياءَ، فكيفَ يَتَسَنّى لها أَنْ تَصْبِرَ على حياةٍ مَليئَةٍ بالنِّفاقِ والرِّياءِ؟ كيفَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَسْتَمِرَّ وأَنْ تَمْضِيَ، وأَنْ تَقْنَعَ، وهْيَ المَرْأَةُ الحُرَّةُ الأَبِيَّةُ!

ولم يَفْطَنْ فرونسكي إِلى السَّبَبِ، وغابَ عنهُ أَنَّها تُضَحّي مِنْ أَجْلِ ابْنِها؛ لم يَفْهَمْ ذٰلِكَ لأَنَّهُ لم يَبْلُ شُعورَ الأَبِ بَعْدُ!

* * *

لَشَدَّ ما كانَتْ تَرْتَجِفُ فَرَقًا كُلَّما تَراءى لَها ابْنُها يَعيشُ في بَيْتٍ يَكْتَنِفُهُ العارُ! لَشَدَّ ما كانَتْ تَجْزَعُ كُلَّما فَكَّرَتْ بهٰذا الطِّفْلِ البَريءِ، وبمَصيرِهِ المُظْلِمِ إِنْ هِيَ اسْتَجابَتْ لنَأْمَةِ النَّزَقِ الَّتي تُراوِدُها، فغامَرَتْ بكُلِّ شَيْءٍ!

* * *

ورَنَتْ إِلى فرونسكي بلَحْظٍ مُغْرَورِقٍ بالدُّموعِ، وقالَتْ والأَسى يُلَعْثِمُ لِسانَها: «حَبيبي، مُنْيَةَ قَلْبي... اِستَجِبْ لي، وتَجَنَّبِ الخَوْضَ في مِثْلِ هٰذِهِ المَعاني الشّائِكَةِ، أَرْجوكَ، أَرْجوكَ».

قالَ: «على أَنَّنا يا أَنّا...».

فقاطَعَتْهُ بسُرعةٍ وقالَتْ: «لا تُضاعِفْ مِنْ آلامي، لا تُضِفْ عَذابًا إِلى عَذابي. أَبْتَهِلُ إِلَيْكَ أَنْ تَرْفُقَ بي. اُرْفُقْ بي».

-«أَنّا...».

-«وإِنّي أُهيبُ بِكَ أَنْ تَتْرُكَ الأَمْرَ لي، وسأَتَصَرَّفُ وَفْقَ المَصْلَحَةِ المُشْتَرَكَةِ. فأَنا مُلِمَّةٌ بكُلِّ شَيْءٍ، وأُقَدِّرُ كُلَّ شَيْءٍ، وأَرى الهاوِيَةَ السَّحيقةَ... فاصْبِرْ وأَقْصِرْ، وكُنْ كَريمًا».

-«لَكِ ذٰلِكَ يا حَبيبةُ، لَن أُثْقِلَ عَليكِ ولَن أُلْحِفَ. بَيْدَ أَنَّ قَلَقي عَظيمٌ، وخَوْفي عَليكِ أَعْظَمُ، ولا يَليقُ بي أَنْ أَتَخَلّى عنكِ وأَنْتِ تُعانينَ هٰذا الحَرَجَ».

-«أَشْكُرُ لَكَ. أَشْكُرُ لَكَ. فأَنْتَ طَيِّبٌ كَريمٌ، ولَسْتُ أَشُكُّ في أَنَّكَ لا تَتَأَخَّرُ عن إِتْيانِ المُسْتَحيلِ متى اقْتَضى الأَمْرُ رُكوبَ مَراكِبِ الخَطَرِ».

-«والَّذي يُذْهِلُني يا أَنّا تَضْحِيَتُكِ الكُبْرى، مِنْ أَجْلي أَنا... وهل في إِمْكاني أَنْ أَنْسى نُبْلَكِ؟ هل في طاقتي أَنْ أَجْحَدَ النِّعْمَةَ الَّتي أُسْبِغَتْ عَليَّ ساعةَ ظَفِرْتُ بكِ؟»

فرَمَتْهُ بنظْرةٍ ساجِيةٍ[1] تَنْطِقُ بالحُبِّ وأَجابَتْ: «إِنَّني تاعِسَةٌ ومَعَ ذٰلِكَ أَشْعُرُ بالسَّعادةِ. لَقد أَحْبَبْتُ أَخيرًا والحُبُّ سِحْرٌ عَجيبٌ، الحُبُّ مَعْنًى خالِدٌ مِنْ مَعاني الحَياةِ».

-«ولٰكِنَّكِ قانِطةٌ!»

-«أَنا! أَحْيانًا أَشْعُرُ باليَأْسِ، ولٰكِنَّ الحُبَّ يُلاشي مِنْ قَلْبي هٰذا اليَأْسَ».

وارْتَفَعَ صَوْتُ الصَّبِيِّ، فتَوَرَّدَتْ وَجْنَتاها، واخْتَلَجَتْ شَفَتاها، ورَقَّتْ عَيْناها، حتّى سالَتِ الرِّقَّةُ دَمْعًا مِنْهُما، ونَهَضَتْ واقِفَةً، ونَظَرَتْ حَوْلَها، ثُمَّ تَحَوَّلَتْ بناظِرَيْها إِلى الحَديقةِ.

وما عَتَّمَتْ أَنِ انْدَفَعَتْ نَحْوَ فرونسكي، فلَفَّتْ ذِراعَها حَوْلَ عُنُقِهِ، وقَبَّلَتْهُ بشَغَفٍ قُبْلَةً أَوْدَعَتْها خُلاصَةَ ما يَهيجُ مَشاعِرَ الحُبِّ في سُوَيْدائِها، وقالَتْ: «اِذْهَبْ يا حَبيبَ الرُّوحِ، اِذْهَبْ بسَلامٍ، وفَكِّرْ فِيَّ، في أَنّا».

---

(١) نَظْرَةٌ ساجِيَةٌ: نَظْرَةٌ هادِئَةٌ طَويلَةٌ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - «مَنْ مِنْهُنَّ تَحوزُ عشيقًا مثلَ فرونسكي؟» عبارةٌ قالها تولستوي على لسانِ نساءِ الطَّبقةِ الرَّفيعةِ في بطرسبرج. إلامَ كانَ يرمي؟ فَكِّرْ ثُمَّ أَجِبْ.

٣ - لِمَ اغتبطَتْ والِدةُ فرونسكي للعَلاقةِ الّتي قامَتْ بينهُ وبينَ أَنّا كارنينا؟ وعلامَ يدلُّ هذا في أخلاقِ الطَّبقةِ الرَّفيعةِ هناك؟

٤ - ما السرُّ الَّذي كشفَتْ عنه أَنّا أمامَ فرونسكي؟ وكيفَ تَلَقّاهُ؟

٥ - كانَ للطّفلِ «سيرج» دورٌ في هذا الفصلِ. فما الّذي أرادَ الكاتِبُ أَنْ يُقدِّمَهُ إلى القارئِ من خلالِ هذا الدَّورِ؟

٦ - أَنّا تَتَأَلَّمُ لعلاقتِها غيرِ الشرعيّةِ بفرونسكي. فلِمَ تتأَلَّمُ وكثيراتٌ من مَثيلاتِها لا يتأَلَّمْنَ؟ أَيَكونُ الضَّميرُ المُتَيَقّظُ فيها وراءَ ذلكَ، أَم إِنَّه أمرٌ آخرُ؟ فَكِّرْ ثُمَّ أَجِبْ.

٧ - باتَتِ العلاقةُ بين أَنّا وفرونسكي أَكْثَرَ تعقيدًا. فما الّذي جعلَها كذلكَ؟

٨ - «إنَّها (أَنّا) صادقةٌ تمقُتُ النّفاقَ والرّياءَ». كيفَ تعلِّلُ سلوكَها وهي كذلكَ؟ وهَل أَرادَ تولستوي أَن يَدين زواجها؟ حاوِلْ أَنْ تبحَثَ في هذا.

٩ - لم تكنْ أَنّا تُريدُ لابنِها أَن يعيشَ في بيتٍ يَكْتَنِفُهُ العارُ. فكيفَ رَضِيَتْ لنفسِها إذًا أَن تعيشَ العارَ؟ ولماذا اختارَتْ لابنِها هذا المصيرَ أخيرًا؟

١٠ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّادس

لَمْ يَطْرَأْ جديدٌ على عَلاقةِ الزَّوْجَينِ، فهُما أَمامَ المَلَأِ خَيرُ الأَزْواجِ، ابْتِساماتٌ مُتَبادَلَةٌ، وكَلِماتُ مُجامَلَةٍ، وعَواطِفُ مُتَنَقِّلَةٌ بَيْنَ القَلْبَينِ.

على أَنَّ كارنينَ أَكَبَّ على عَمَلِهِ، فغَدا أَشَدَّ إِقْبالًا عليهِ مِنْ ذي قَبْلُ، حتّى عَجِبَ مِنْهُ الجَميعُ، ورَأَوا في نَشاطِهِ بادِرةً لا مُسَوِّغَ لَها.

ولمّا وَلّى فَصْلُ الشِّتاءِ ببَرْدِهِ وزَمْهَريرِهِ وثَلْجِهِ، ارْتَحَلَ إِلى إِحْدى مُدُنِ المِياهِ المَعْدنِيَّةِ حَيْثُ مَكَثَ شَهْرينِ، ثُمَّ قَفَلَ راجِعًا في أَوَّلِ الصَّيْفِ، لِيَسْتَأْنِفَ نَشاطَهُ بما عُرِفَ عنهُ مِن هِمَّةٍ وحِرْصٍ.

ولَزِمَ بطرسبرج فلَمْ يُبارِحْها، وإِنْ كانَ حَرُّها في الصَّيْفِ شَديدًا لا يُطيقُهُ النّاسُ.

أَمّا أَنّا زَوجُهُ فقد بارَحَتْ بطرسبرجِ إِلى مَنْزِلِ زَوْجِها الرِّيفِيِّ في «بيترهوف». وكانَ المَنْزِلُ هٰذا صَغيرًا جَميلًا مُؤَثَّثًا ببَساطَةٍ وذَوْقٍ سَليمٍ.

* * *

أَمّا ما جَرى بَعْدَ ذٰلِكَ اليَوْمِ، فهْوَ أَنَّ فرونسكي قد غادَرَ بَيْتَ كارنينَ في بيترهوف، وذَهَبَ إِلى المَدينةِ لِيَسْتَعِدَّ للسِّباقِ.

وكانَ المَسْؤولونَ قد أَعَدُّوا العُدَّةَ واتَّخَذُوا الأُهْبَةَ لِكَي يَحْفِلَ ذٰلِكَ النَّهارُ بسِباقٍ مُثيرٍ يَعْلَقُ ذِكْرُهُ في الأَذْهانِ.

فأَقاموا أَرْبعَة أَشْواطٍ، أَوَّلُها سِباقُ الفُرْسانِ، ثُمَّ الضُّبّاطِ، ثُمَّ الأَميالِ الثَّلاثَةِ، وأَخيرًا السِّباقُ الَّذي اشْتَرَكَ فيهِ فرونسكي.

وما كادَ فرونسكي يَصِلُ إِلى الحَلْبَةِ حتّى نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ مَرَّ بِهِ، ولم يَعُدْ يُفَكِّرُ إِلّا في جَوادِهِ، وفي الجُهْدِ الَّذي يَخْلُقُ بِهِ أَنْ يَبْذُلَهُ لِيَفوزَ بالقِدْحِ المُعَلّى.

وحانَ ميعادُ الشَّوْطِ الأَخيرِ، واعْتَلى فرونسكي ظَهْرَ جَوادِهِ، ووَقَفَ في الصَّفِّ، وشَخَصَ إِلى ما يَمْتَدُّ أمامَ ناظِرَيْهِ، ولم يَنْظُرْ في ما يَكْتَنِفُهُ. لم يَرَ أَحَدًا، ولم يَعْبأْ بأَحَدٍ. إِنَّهُ فارِسٌ، ومُسابِقٌ. وفرونسكي! إِنَّهُ فرونسكي، وعَلَيْهِ أَنْ يُبَرْهِنَ للمَلَأِ أَنَّهُ جَديرٌ بالِاسْمِ الَّذي يَحْمِلُ، وباللَّقَبِ الَّذي يَزينُ هٰذا الِاسْمَ، أوِ الَّذي يَزينُهُ هٰذا الِاسْمُ!

وكانوا سَبْعَةَ عَشَرَ فارِسًا. وأُعْطِيَتْ إِشارَةُ البَدْءِ، وانْدَفَعَ فرونسكي، ولٰكِنَّهُ انْدَفَعَ مُتَأَخِّرًا بَعْضَ الشَّيْءِ.

وبَدا لأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنَّ فرونسكي لا يَمْلِكُ أَمْرَ نَفْسِهِ ولا أَمْرَ جَوادِهِ «فراو- فراو». لٰكِنَّهُ عَقَدَ العَزْمَ، فحَثَّ الجَوادَ؛ واسْتَجابَ «فراو- فراو» فسَبَقَ غَيْرَهُ، ولم يَبْقَ أَمامَهُ إِلَّا جَوادٌ واحِدٌ.

وكانَ «فراو- فراو» خَفيفًا في عَدْوِهِ، ماهِرًا في اجْتِيازِهِ العَقَباتِ المَوْضوعَةِ.

ومَعَ ذٰلِكَ فإِنَّهُ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَفَوَّقَ على خَصْمِهِ الجَوادِ الأَدْهَمِ المُنْدَفِعِ إِلى الأَمامِ، أَمامَهُ، يَعْدُو وكأَنَّهُ يُسابِقُ الرِّيحَ.

غَيْرَ أَنَّ فرونسكي أَخْطَأَ قَبْلَ النِّهايَةِ. كانَ جَوادُهُ يَقْفِزُ فَوْقَ الحاجِزِ الأَخيرِ، وكانَ عَليهِ أَنْ يَنْخَسَهُ برِفْقٍ، لٰكِنَّ انْفِعالَهُ أَنْساهُ واجِبَهُ، فضَرَبَ بَطْنَ الجَوادِ بُعْنفٍ، وارْتَبَكَ الجَوادُ فتَعَثَّرَتْ قَوائِمُهُ بالحاجِزِ، ووَقَعَ على الأَرْضِ.

وأَنَّ فرونسكي، أَنَّ مِنَ القَهْرِ؛ لقد أَخْطَأَ فخَذَلَ الجَوادَ المِسْكينَ! وأَسْرَعَ رِجالُ الإِسْعافِ إليه. ولم يَنْسَ فرونسكي ما حاقَ بِهِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ، بل رَسَخَتْ ذِكْراهُ في رَأْسِهِ. وكانَ يَتَحَسَّرُ دَوْمًا، وكانَ يُنْحي على نَفْسِهِ باللَّائِمَةِ.

لَقَد ـَ سرَ السِّباقَ، فلْيَتَحَسَّرْ، ولٰكِنَّ الشَّيْءَ الَّذي قَهَرَهُ وأَرْمَضَ شُعورَهُ هُوَ يَقينُهُ بأَنَّهُ خَذَلَ «فراو- فراو»، بَعْدَ أَنْ كادَ الجَوادُ العَظيمُ يَفوزُ بقَصَبِ السَّبْقِ.

* * *

هٰذا ما جَرى في أَصيلِ ذٰلِكَ اليَوْمِ، وأَثَّرَ في فرونسكي تَأْثيرًا بالِغًا.

أَمّا أَنا فقَد قَضَتْ أَشْهُرَ الصَّيفِ في «بيترهوف»، بَيْنما مَكَثَ كارنينُ في بطرسبرج، يُرْهِقُ نَفْسَهُ بالعَمَلِ لكَي يَنْسى، وماذا يَنْسى؟ وكُلَّما حاوَلَ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلى مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ الَّذي يَسْعى

إِلى نِسْيانِهِ، ازْدادَ رَغْبَةً في التَّهَرُّبِ مِنْ نَفْسِهِ ومِنْ تَفْكيرِهِ، حتّى يَبْقى هٰذا الشَّيْءُ غامِضًا مُبْهَمًا.

كانَ هٰذا الرَّجُلُ يَحْتَقِرُ الغَيْرَةَ ويَمْقُتُها، وكانَ يُقاسي كَثيرًا مِنْ شُعورِ المَذَلَّةِ كُلَّما اخْتَلَجَ في صَدْرِهِ الشَّكُّ.

وقد شَكَّ في امْرَأَتِهِ، وارْتَابَ رِيبَةً شَديدَةً بما دارَ بَيْنَهُ وبَيْنَها مِن حَديثٍ بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ المَشْؤومَةِ الَّتي قَضَيا شَطْرًا مِنْها في مَنْزِلِ الأَميرَةِ بتسي.

وما أَكْثَرَ ما آلَمَهُ شَكُّهِ، لٰكِنَّهُ حَرَصَ على أَلَّا يَجْعَلَ أَنّا تُحيطُ عِلْمًا بما يُعَذِّبُهُ. وهٰكذا نَأَى بمَشاعِرِهِ عَنْها، وابْتَعَدَ طاقَتَهُ عن كُلِّ مَكانٍ كانَتْ تُوجَدُ فيهِ. وبَذَلَ جُهْدَ الجَبابرةِ ليُبْعِدَها عن تَفْكيرِهِ، وبذٰلِكَ يُقْصي هٰذِهِ الأَوْضارَ[1] أوِ الشُّكوكَ الَّتي دَهَمَتْهُ على حينِ غِرَّةٍ.

وأَغْرَقَ نَفْسَهُ في العَمَلِ، لِكَي يُغْرِقَ بذٰلِكَ هُمومَهُ في لُجَّةٍ لا يَطولُها الفِكْرُ المُضْطَرِبُ. وكانَ كُلَّما عَجِبَ لتَراكُمِ العَمَلِ، يُقْنِعُ نَفْسَهُ أَنَّ الظُّروفَ هِيَ الَّتي أَدَّتْ إِلى تكاثُرِ الأَعْباءِ، مَعَ أَنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الَّذي عَمِلَ على الإِكْثارِ مِنْها.

فلمّا ظَعَنَتْ[2] أَنّا في صَيْفِ ذٰلِكَ العامِ إِلى مَصيفِهِما الرِّيفِيِّ، في أَرْباضِ بطرسبرج أَبَتْ الكونتس «ليديا إِيفانوفنا» أَنْ تَذْهَبَ إِلى المَكانِ نَفْسِهِ.

وكانَتْ هٰذِهِ المَرْأَةُ مِنَ المُعْجَباتِ بكارنينَ، المُحِبّاتِ لأَنّا زَوْجَتِهِ، بَيْدَ أَنَّها في ذٰلِكَ العامِ أَنِفَتْ أَنْ تُرافِقَ أَنّا، ولم تَتَوَرَّعْ عَنِ التَّلْميحِ لِزَوْجِها بسَبَبِ تَرَدُّدِها في الذِّهابِ، بَل أَفْهَمَتْهُ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ أَنَّ عَلاقةَ امْرَأَتِهِ بفرونسكي أَمْرٌ كَريهٌ، وأَنَّ هٰذِهِ الصَّداقَةَ الوَثيقَةَ هِيَ الَّتي حَبَسَتْها عَنِ انْتِجاعِ المَصيفِ الَّذي تَلوذُ بِهِ أَنّا.

وقد حَنِقَ كارنينُ أَشَدَّ الحَنَقِ مِنْ هٰذا التَّلْميحِ، وأَجابَها بخُشونةٍ لاذِعَةٍ، وأَفْهَمَها أَنَّه يَثِقُ بزَوْجِهِ ويَرْبَأُ بها عَنِ المُنْكَرِ، ولا يَشُكُّ في تَصَرُّفاتِها.

وصَعَّرَ لِلمَرْأَةِ خَدَّهُ[3] بَعْدَ تِلْكَ الحادثةِ، ولم يَرْضَ عنها، ولم يُكَلِّمْها.

يا لَلرَّجُلِ الَّذي عَصَفَتْ بِهِ الرِّيحُ! فأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ حتّى لا يُبْصِرَ النّاسَ، فلم يُبْصِرْهُمْ؛

---

(١) الأَوْضارُ (جَمْعُ الوَضَرِ): الأَوْساخُ.

(٢) ظَعَنَتْ: رَحَلَتْ.

(٣) صَعَّرَ خَدَّهُ: أَمالَهُ أَنَفَةً وتَكَبُّرًا.

لَقَد أَصْبَحَ يَخْشاهُمْ.

يا لَلرَّجُلِ! أَصَمَّ أُذُنَيْهِ كي لا يَسْمَعَ ما يَتَهامَسُ بِهِ النَّاسُ، فلم يَسْمَعْ لَغَطَهُمْ؛ لَقَد أَصْبَحَ يَرْهَبُ جانِبَهُمْ!

وكَرِهَتْ نَفْسُهُ الحَياةَ، وعافَتْ كُلَّ ما فيها، ونَأَى بِفِكْرِهِ عَن كُلِّ ما يُريبُ، حتّى لا تُمَزِّقَ الرِّيَبُ قَلْبَهُ.

وشَعَرَ، ونَفْسُهُ والِهةٌ، أَنَّهُ زَوْجٌ مَخْدوعٌ. شَعَرَ بذٰلِكَ، مَعَ أَنَّهُ كافَحَ المَشاعِرَ حتّى لا يَشْعُرَ.

لقد حَزِنَ كَثيرًا، وأَسْلَسَ قِيادَهُ للأَسى. وما كانَ حُزْنُهُ لِغَيْرةٍ، أو لأَسَفٍ على حُبٍّ ضائِعٍ، بَل كانَ حُزْنُهُ نِتاجَ شُعورِهِ بأَنَّ كَرامَتَهُ قد أُهْدِرَتْ، وأَنَّ اسْمَهُ قد ثُلِمَ. هٰذا هُوَ الشَّيْءُ الَّذي مَلأَ شَغافَ قَلْبِهِ بالأَلَمِ.

سَمِعَ في ما سَلَفَ قِصَصَ الخِيانَةِ؛ قيلَ لَهُ عَنْ زَوْجٍ غَدَرَتْ بهِ امْرَأَتُهُ، فأَجابَ: «إِنَّهُ المَسْؤولُ أَوَّلًا وآخِرًا. فلَو أَخْلَصَ، ولَوِ اسْتَقامَ، لَما فَكَّرَتْ هِيَ بالخِيانةِ! ثُمَّ لو تَدارَكَ هٰذا الرَّجُلُ المَخْدوعُ أَمْرَ زَوجِهِ، لَما وَقَعَ المُنْكَرُ، ولَسَلِمَ شَرَفُهُ واسْمُهُ وبَيْتُهُ».

أَمَّا وقَد أُصيبَ بالكَريهَةِ عَيْنِها، فهْوَ يَرى نَفْسَهُ أَعْجَزَ مِنْ أَنْ يَتَلافى الخَطْبَ، هُوَ يَشْعُرُ كما يَشْعُرُ الغَريقُ ساعَةَ يَتَلاشى أَمَلُهُ في النَّجاةِ، فيَسْتَسْلِمُ إِلى اليَمِّ المُتَلاطِمِ، لِيَموتَ.

ومَعَ ذٰلِكَ فقد تَناهى في إِنْكارِ الواقِعِ، بَل تَمادى في الإِنْكارِ، وأَسْرَفَ في عَدَمِ الاِعْتِرافِ، وما مَوْقِفُهُ السَّلْبِيُّ هٰذا إِلّا مِنْ قَبيلِ تَخَوُّفِهِ وتَوَجُّسِهِ، واعْتِقادِهِ بأَنَّ أَيَّ شَكٍّ لا يَعْمَدُ إِلى مقاوَمتِهِ، قد يُفْضي بهِ إِلى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ!

وقَد تَجَنَّبَ زَوْجَهُ، ولم يَجْتَمِعْ إِلَيْها طيلَةَ الفَتْرَةِ الَّتي قَضَتْها في المَصيفِ. ولٰكِنَّهُ، في اليَوْمِ الَّذي جَرى فيهِ سِباقُ الفُرْسانِ والضُّبّاطِ، انْطَلَقَ إِلى «بيترهوف» وهْوَ عازِمٌ على اصْطِحابِ أَنّا إِلى مَيْدانِ السِّباقِ، لِما يُعَلِّقُ على ظُهورِها مَعَهُ أَمامَ النّاسِ مِنْ أَهَمِّيّةٍ كُبْرى.

فقَد كانَ مِنَ المُقَرَّرِ أَنْ يَشْهَدَ الأَمْبَراطورُ سِباقَ ذٰلِكَ اليَوْمِ، ولا جَرَمَ أَنَّ جميعَ السَّراةِ والأَعْيانِ والنُّبَلاءِ سَيَأْتونَ أَيْضًا.

ولٰكِنَّهُ ما كادَ يَصِلُ إِلى الدّارَةِ الصَّغيرَةِ حتّى صَرَفَ مِنْ ذِهْنِهِ فِكْرَةَ مُرافَقَتِها.

وما كادَتْ هِيَ تُبْصِرُ بهِ يَتَرَجَّلُ مِنَ العَرَبَةِ، وكانَتْ حينَذاكَ تَسْتَكْمِلُ زينَتَها، حتّى اقْشَعَرَّ

جِلْدُها، وتَوَلّاها مِن أُذُنَيْهِ الكَبيرتَيْنِ نُفورٌ واشْمِئْزازٌ.

وابْتَدَرَتْ نَفْسَها تَقولُ لنَفْسِها: «أُوّاهِ! هَل يُزْمِعُ قَضاءَ اللَّيلِ هُنا؟»

على أَنَّها بادَرَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّفَتِ البِشْرَ والسُّرورَ، ومَدَّتْ إِلَيْهِ يَدَها، وصافَحَتْهُ باشَّةً، وقالَتْ وكَلامُها يَنِمُّ عَمّا يَزْدَحِمُ فيهِ مِنَ المُداهنةِ والرِّياءِ: «قَدِمْتَ أَهْلًا يا عَزيزي، وإِنّي لَمَسْرورَةٌ لِمَقْدمِكَ، لأَنَّ هٰذا يُتيحُ لي مُشاهَدَةَ السِّباقِ... فهَل تَمْكُثُ اللَّيْلَةَ هُنا؟ إِنَّ بتسي قادِمةٌ عَمّا قَريبٍ لمُرافَقَتِي إِلى المَيْدانِ».

فتَجَهَّمَ وَجْهُ كارنينَ حينَ سَمِعَ اسْمَ المَرْأَةِ الَّتي يَمْقُتُ ويَحْتَقِرُ، وقالَ: «وعلى هٰذا لَنْ أُفَرِّقَ بَيْنَكِ وبَيْنَها، وسَأَذْهَبُ بمُفْرَدي إِلى الحَلْبَةِ».

-«فاجْلِسْ إِذًا حتّى آتِيَكَ بالشَّرابِ السّاخِنِ».

وجَلَسَ كارنينُ مِن دونِ أَنْ يَتَكَلَّمَ. ودَعَتْ أَنّا خادِمَتَها فأَمَرَتْها أَنْ تَأْتِيَ بِفِنْجانٍ مِنَ الشّاي، وأَنْ تُنْبِئَ الِابْنَ بَمْقَدَمِ أَبيهِ.

وما لَبِثَتْ أَنِ اسْتَدارَتْ إِلى زَوْجِها، وقالَتْ وهْيَ تَتَفَرَّسُ في وَجْهِهِ العابِسِ المُنْقَبِضِ: «ماذا دَهاكَ؟ هَلْ ثَمَّةَ ما يُؤْلِمُكَ؟»

وعَجِبَتْ مِنْ هٰذا الرِّياءِ. لَقَدِ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ كما رَأَتْ!

وقالَ هُوَ بهُدوءٍ: «أَصَبْتِ، فأَنا مُنْهَمِكٌ في أَعْمالي، وأَنا مُتْعَبٌ مِنْ كَثْرَتِها».

فأَظْهَرَتِ الِاهْتِمامَ، وطَفِقَتْ تَسْأَلُهُ وتَسْتَوْضِحُ منهُ، ثُمَّ أَلَحَّتْ عَليهِ في قَضاءِ بَعْضِ الوَقْتِ مَعَها في «بيترهوف»، على أَنْ يَنْزِعَ إِلى الرّاحَةِ ويُخْلِدَ إِلى الهُدوءِ.

وقَد تَكَلَّمَتْ كَما لَو كانَتْ تَعْني ما تَقولُ؛ كانَتْ تَتَكَلَّمُ بلَهْجَةِ الإِخْلاصِ، لٰكِنَّ الإِخْلاصَ كانَ في مَعْزِلٍ عَنْ مَشاعِرِها.

وسَبَرَ كارنينُ غَوْرَها، فلَم يُصَدِّقْ حَرْفًا مِنْ كَلامِها، بَل أَيْقَنَ أَنَّها حَريصةٌ مِثْلَهُ على اسْتِبْقاءِ المَظاهِرِ، والِاحْتِفاظِ بالظّاهِرِ.

وقَدِ ارْتَبَكَتْ أَنّا ارْتِباكًا شَديدًا لكَلِماتِ الإِفْكِ[1] الَّتي هَضَلَتْ[2] بها، لم تَرْتَبِكْ في

---

(١) الإِفْكُ: الكَذِبُ.

(٢) هَضَلَتْ بالكَلامِ: انْطَلَقَتْ بهِ.

حَضْرتِهِ، بل خَجِلَتْ بَعْدَ ذَهابِهِ، وتَوَلَّاها ما يُشْبِهُ الحُزْنَ على سَجِيّةٍ مُحْتَضَرةٍ لن يَبْقى لَها وُجودٌ.

وجاءَ الطِّفْلُ «سيرج» فأَنْقَذَ بمَجيئِهِ المَوْقِفَ المُتَوَتِّرَ. ونَظَرَ إلى أُمِّهِ مَلِيًّا، ثُمَّ تَحَوَّلَ إلى أَبيهِ، وأَغْضى حَياءً.

وأَدْنى كارنينُ ابْنَهُ مِنْهُ، فرَبَّتَ خَدَّهِ مُلاطِفًا، وقَبَّلَهُ، وحَدَّثَهُ، وداعَبَهُ، لٰكِنَّهُ فَعَلَ هٰذا كُلَّهُ بفُتورٍ وتَكَلُّفٍ.

وخَفَقَ قَلْبُ الطِّفْلِ، وانْقَبَضَ صَدْرُهُ. وما عَتَّمَ أَنْ نَظَرَ إلى أُمِّهِ مُسْتَجيرًا، فتَفَطَّرَتْ كَبِدُها أَسًى، ورَأَتْ بعَينِ مُخَيِّلَتِها دَعائِمَ بَيْتِها تَتَهاوى وتَنْهارُ.

غَيْرَ أَنَّها تَدارَكَتِ الأَمْرَ، فأَقْبَلَتْ على الطِّفْلِ تَحْتَضِنُهُ وتُقَبِّلُهُ، ثُمَّ أَمْسَكَتْهُ مِنْ يَدِهِ وقادَتْهُ إلى الشُّرْفةِ.

وتَناهى إِلَيْها صَوْتُ عَرَبةٍ قادِمَةٍ، فقالَتْ تُخاطِبُ زَوْجَها: «ها هِيَ بتسي، إِنّي راحِلَةٌ».

ورَجَعَتْ إِلَيْهِ فصافَحَتْهُ مُوَدِّعةً.

ولمّا قَبَّلَ الرَّجُلُ يَدَ زَوْجِهِ، أَجْفَلَتْ مِنَ القُبْلَةِ، لٰكِنَّها تَمالَكَتْ نَفْسَها، فابْتَسَمَتْ وأَسْرَعَتْ بالذَّهابِ.

على أَنَّها لَبِثَتْ تُفَكِّرُ بشَفَتَيْهِ، وبالقُبْلَةِ الكَريهَةِ الَّتي طَبَعَها على يَدِها. إِنَّها تَمْقُتُهُ! إِنَّها تَمْقُتُ أُذُنَيهِ إِنَّها تَمْقُتُ شَفَتَيهِ.

وهٰذا هُوَ الحُبُّ،

حُبُّ العَشيقِ الأَثيرِ،

حُبُّ الخَليلِ،

الحُبُّ الدَّنِسُ المُحَرَّمُ،

إِنَّهُ دَوْمًا أَشْهى وَأَلَذُّ مِنْ حُبِّ الخَليلِ...

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.
٢ - يَسودُ النّفاقُ علاقاتِ الطَّبقةِ الرَّفيعةِ في بطرسبرج وموسكو. أَشِرْ إلى ما يدلُّ على ذلك في هذا الفصل من الرّواية.
٣ - كيفَ حاولَ كارنين أَنْ يَنْسى مأْساتَهُ؟ وإِلامَ انصرفَ؟
٤ - أَتَرى في انصرافِ كارنين بكلِّيَّتِهِ إلى العملِ ضربًا من الهروبِ، أَم حالًا من الانتحارِ الداخليِّ؟
٥ - أَأَنْتَ راضٍ عن تصرُّفِ كارنينَ مع زَوْجِهِ الخائنةِ؟ وماذا كانَ يُمكِنُ أَنْ يفعَلَ؟
٦ - ما الَّذي كان يَجعلُ كارنينَ يقفُ هذا المَوْقِفَ من زَوْجِهِ الخائنةِ؟ وهل تَرى مُسَوِّغًا منطقيًّا لموقِفِهِ هذا؟
٧ - أَكانَ كارنين يَرضى لأحدٍ أَنْ يُعَرِّضَ بحياتِهِ الزَّوجيَّةِ أو أَنْ يتناولَ زوجتَهُ بكلامِ السّوءِ؟ ولماذا؟
٨ - هَل لعَلاقةِ فرونسكي بأَنّا كارنينا أَثَرٌ في خسارَتِهِ السِّباقَ؟ وكيفَ؟
٩ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّابع

جَلَسَتْ أَنّا في المُرْتَفَعَ الكَبيرِ الَّذي تَحْتَلُّهُ الطَّبَقَةُ العُلْيا مِنَ الأَشْرَافِ والسَّراةِ، وجَلَسَتِ الأَميرةُ بتسي إلى جانِبِها.

ووَصَلَ كارنينُ فشاهَدَ زَوْجَهُ وشاهَدَ صَاحِبَتَها، وعَضَّ على نَواجِذِهِ مِنَ القَهْرِ المَكْبوتِ.

ورَأَتْهُ أَنّا، واخْتَلَسَتِ النَّظَرَ إِلى وَجْهِهِ المُتَجَهِّمِ الَّذي يُنْبِئُ بالثَّوْرَةِ الهائِلَةِ المُنْدَلِعَةِ النِّيرانِ، الَّتي تَعْتَمِلُ بقُوَّةٍ في صَدْرِهِ.

وفَكَّرَتْ بفرونسكي. الرَّجُلانِ هُنا في مَكانٍ واحِدٍ: الزَّوْجُ المَمْجوجُ[1]، والعَشيقُ المُفَضَّلُ! ذاكَ بأُذُنَيْهِ المَقيتَتَيْنِ، وهٰذا بقامَتِهِ المَمْشوقَةِ، وشَبابِهِ الغَضِّ، وقَلْبِهِ الَّذي يَنْبُضُ بالحُبِّ.

رَأَتْ زَوْجَها ببَصَرِها، ورَأَتْ عَشيقَها ببَصيرَتِها، فنَقِمَتْ على الأَوَّلِ لأَنَّها لا تُحِبُّهُ مَعَ أَنَّهُ زَوْجُها، وهَفَتْ إِلى الثّاني لأَنَّها تُحِبُّهُ، ولو كانَ حُبُّها لَهُ يَعْني دَمارَها وتَقَوُّضَ دارِها!

وللهِ في خَلْقِهِ شُؤونٌ. لَقَدْ خَلَقَ الإِنسانَ وخَلَقَ مَعَهُ النَّزَعاتِ، والعَواطِفَ، والمَشاعِرَ، فأَصْبَحَ الإِنْسانُ كالرِّيشَةِ في مَهَبِّ الرِّيحِ، وأَصْبَحَتِ الرِّيحُ تِلْكَ العَواطِفَ والمَشاعِرَ والنَّزَعاتِ الَّتي تَجيشُ، وتَجيشُ، وتَثورُ، وتَفُورُ، ولا تَهْدَأُ وفي داخِلِهِ خَلْجَةٌ مِنْ حَياةٍ!

وتَتَبَّعَتْ خُطُواتِ زَوْجِها، وتَتَبَّعَتْ ببَصيرَتِها التَّحَوُّلَ الفِكْرِيَّ الَّذي أَصابَها عَقِبَ تَوَطُّدِ صَداقَتِها بفرونسكي، ودُهِشَتْ مِمّا اسْتَنْتَجَتْ. كانَتْ مُعْجَبَةً بزَوجِها مِنْ قَبْلُ، كانَتْ تَراهُ عَظيمًا، أَمّا الآنَ فما هُوَ إِلّا حَفْنَةٌ مِنْ تُرابٍ! أو قِطْعَةٌ مِنْ حَديدٍ أو خَشَبٍ، يَتَحَرَّكُ كما تَتَحَرَّكُ الآلَةُ، وتَدُلُّ حَرَكَتُهُ ومِشْيَتُهُ على اعْتِدادِهِ بالرَّغْمِ مِنِ انْكِسارِهِ، وعلى شُعورِهِ بما يَشْعُرُ بِهِ الرَّجُلُ الخَطيرُ الكَبيرُ.

---

(١) المَمْجوجُ: المَكْروهُ والمَنْبوذُ.

كانَ يُحِبُّ أَنْ يُقابِلَهُ النّاسُ بالتَّجِلَّةِ والإِكْبارِ، وكانَتْ أَنّا تَعْرِفُ فيهِ هٰذِهِ الخِلَّةَ، لٰكِنَّها لم تَسْتَهْجِنْها كما طَفِقَتْ تَفْعَلُ عَقِبَ وُقوعِها في حُبِّ فرونسكي. كانَتْ تَرْجو أَنْ يكونَ دائِمًا مُحْتَرَمًا مُبَجَّلًا، فأَصْبَحَتِ اليَوْمَ أَوَّلَ مَنْ يَكْرَهُ فيهِ مَيْلَهُ إِلى الظُّهورِ بمَظْهَرِ الرَّجُلِ الَّذي لَهُ في الدَّولَةِ شَأْنٌ ومَرْكَزٌ ومَكانَةٌ!

وخُيِّلَ إِلَيها، وهْوَ يُنَقِّلُ طَرْفَهُ هُنا وهُناكَ، أَنَّهُ يُريدُ مِنَ الخَلْقِ جَميعًا أَنْ يَقِفوا في ذُعْرٍ لَدى مُرورِهِ. فتَضاعَفَ حَنَقُها، وتَضاعَفَ بُغْضُها.

وأَبَتْ عَيْناها أَنْ تَتَحَوَّلا عَنْهُ، وأَبى ذِهْنُها أَنْ يَتَحَوَّلَ عَنِ الإِنْسانِ الَّذي أَحَبَّتْهُ حُبًّا لا يَبْلُغُهُ مَجموعُ حُبِّ النِّساءِ كُلِّهِنَّ.

وابْتَغَتِ البُكاءَ... ولم تَدْرِ السَّبَبَ.

وأَيْقَظَها مِنْ شُرودِها صَوْتُ صَديقَتِها يَهْمِسُ في أُذُنِها: «هُوَذا زَوْجُكِ يا أَنّا، هُوَذا زَوْجُكِ».

وسَمِعَتْها تُخاطِبُهُ، وهْوَ يَدْنو، بقَولِها: «إِنَّها هُنا أَيُّها الكونت، زَوْجَتُكَ هُنا، أَلَمْ تُبْصِرْ بها؟»

فابْتَسَمَ الرَّجُلُ وأَجابَ: «لا، لم أَرَها، ولا أُؤَاخَذُ بسَهْوي، فالمَظاهِرُ فَخْمَةٌ تَخْلُبُ الأَنْظارَ، وتَشْدَهُ الأَبْصارَ، وتُذْهِلُ العَقْلَ والإِحْساسَ».

والْتَفَتَ إِلى أَنّا ضاحِكًا، ودَنا مِنْها كما يَفْعَلُ سائِرُ الأَزْواجِ، وأَلْقى يَدَهُ على يَدِها.

ومَرَّ بِهِ قائِدٌ في الجَيْشِ فحَيّاهُ ووَقَفَ مَعَهُ. وأَنْشَأَ الاِثْنانِ يَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الحَديثِ؛ وطَفِقَ كُلٌّ مِنْهُما يُبْدي رَأْيَهُ في السِّباقِ، وما يَجِبُ أَنْ يَكونَ عليهِ السِّباقُ، وكيفَ يَبْدَأُ، وكيفَ يَنْتَهي.

وقد أَعْرَبَ لَهُ كارنينُ عن إِشْفاقِهِ على حَياةِ الفُرْسانِ المُهَدَّدَةِ بالضَّياعِ، فالخَطَرُ يُحْدِقُ بالمُتَسابِق ما دامَ القائِمونَ بالسِّباقِ يَحْرَصونَ على وَضْعِ الحَواجِزِ المُرْتَفِعةِ في طَريقِهِ.

وأَصْغَتْ أَنّا، وبَدا لَها فرونسكي الرَّشيقُ الشُّجاعُ مُتَمَرِّغًا في الثَّرى، بَدا لَها مُنْطَرِحًا أَرْضًا وهْوَ يَنْزِفُ دَمًا.

ونَظَرَتْ إِلى زَوجِها، وازْدادَتْ كَراهِيَةً لهُ، فقد نَبَّهَها إِلى ما يَتَهَدَّدُ حَبيبَها، وكأَنَّهُ تَعَمَّدَ

أَنْ يُخيفَها حتّى تَفْقِدَ طُمَأْنينَتَها.

واسْتَغْرَقَتْ في الفِكْرِ: «هٰذا الرَّجُلُ، الرَّجُلُ ذو الأُذُنَيْنِ الكَبيرَتَيْنِ، الرَّجُلُ المَقيتُ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُوَقِّرَهُ النّاسُ ويُوَفّوهُ حَقَّهُ مِنَ المَدْحِ، أَفي اسْتِطاعَتِها أَنْ تُحِبَّهُ؟ أَفي اسْتِطاعَتِها أَنْ تُقْصِيَ مِن قَلْبِها مَقْتَها لَهُ؟ إِنَّهُ نَسيجُ وَحْدِهِ في إِثارَةِ نُفورِها. إِنَّهُ عَدُوُّها ولا غَرْوَ».

مِسْكينَةٌ هٰذِهِ المَرْأَةُ الَّتي أَعْماها حُبُّها فخُيِّلَ إِلَيْها أَنَّ عَدُوَّها رابِضٌ في قَلْبِ زَوجِها.

مِسْكينَةٌ أَنّا، فقَد غابَ عَنْها أَنَّ ثَرْثَرَةَ زَوجِها كانَتْ صادِرةٌ عَن أَلَمٍ دَفينٍ يُدْمي قَلْبَهُ، ويُزَعْزِعُ صَبْرَهُ، ويَهْدِرُ كَرامَتَهُ... غابَ عَنْها أَنَّ كارنينَ كانَ يَتَأَلَّمُ أَلَمًا شَديدًا، وأَنَّ الإِكْثارَ مِنَ الكَلامِ كانَ يَصْرِفُهُ عَن أَفْكارِهِ المُدْلَهِمَّةِ، ويُبْعِدُهُ عن مَواطِنِ الآلامِ المُبَرِّحَةِ.

غابَ عَنْها ذٰلِكَ، ولم تَعُدْ تُفَكِّرُ فيهِ إِلّا كَرجُلٍ شاءَ سوءُ طالِعِها أَنْ يُصْبِحَ زَوجَها!

* * *

ولمّا كانَتْ نَفْسُها تَتوقُ إِلى إِلْقاءِ اللَّوْمِ على زَوْجِها، حتّى لا يَنالَها مِنْ ذَنْبِها أَذًى لروحِها، فقَد أَبَتْ لَها هٰذِهِ النَّفْسُ الحَوْباءُ[1] إِلّا الخُصومَةَ لِهٰذا الزَّوجِ!

ولمّا أَعْماها حُبُّها، فما عادَتْ تَعْرِفُ نَفْعَها مِنْ ضُرِّها، رَأَتْ في زَوجِها كُلَّ شَرٍّ وسُوءٍ!

ولمّا شَرِهَتْ نَفْسُها إِلى اللَّذَّةِ الجَديدَةِ، واسْتَحْيَتْ أَنْ تَعْتَرِفَ بفُجورِها، رَأَتْ في زَوجِها الفُجورَ مُتَجَسِّمًا مُتَجَسِّدًا!

واصْطَفَّ الفُرسانُ مُتَأَهِّبينَ للسِّباقِ، وسادَ الصَّمْتُ، وسَكَنَتِ الضَّوْضاءُ.

وانْتَهى بَعْدَ حينٍ الشَّوْطُ الأَوَّلُ، وتَبِعَهُ الثّاني، والثّالِثُ. ثُمَّ حانَ ميعادُ الشَّوْطِ الأَخيرِ الَّذي يَشْتَرِكُ فيهِ فرونسكي. وخَفَقَ قَلْبُ أَنّا خَفْقَةَ الإِنْفِعالِ والخَوْفِ، ورَفَعَتْ مِنْظارَها إِلى عَيْنَيْها، وجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلى الشّابِّ الجَميلِ، ولا تُحَوِّلُ عَنْهُ ناظِرَيها.

ورَأى كارنينُ ما انْصَرَفَتْ زَوجُهُ إِلَيْهِ فجَعَلَ يَرْقُبُها صامِتًا جامِدَ الوَجْهِ. وأَخَذَ يَتَأَمَّلُ في وَجْهِها المُصْفَرِّ، ويَدِها المُرْتَعِشةِ، ومَلامِحِها المُتَشَنِّجةِ. وأَيْقَنَ أَنَّها لم تَكُنْ تَرى سِوى شَخْصٍ واحِدٍ، ولم تَكُنْ تُفَكِّرُ إِلّا في شَخْصٍ واحِدٍ، وأَنَّ كُلَّ إِنْسانٍ آخَرَ، حتّى زَوْجَها

---

(١) الحَوْباءُ: الآثِمَةُ، المُذْنِبَةُ.

ووَلَدَها، لم يَعُدْ لَهُ وُجودٌ في رَأْيِها وتَفْكيرِها.

غَيْرَ أَنَّهُ، لمّا أَجالَ طَرْفَهُ في سائِرِ المَوْجودينَ، ناجى نَفْسَهُ بقَولِهِ: «إِنَّها كغَيْرِها، لقد عَمَّ الِانْفِعالُ، ولم يَبْقَ إِنسانٌ سِوايَ أَنا لم يَطْرَأْ عليهِ ما أَصابَها».

واسْتَدارَ إِلَيْها ثانيةً وتَصَفَّحَ أَمائِرَها، وأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ. لَقَد رَأَى كُلَّ شَيْءٍ، وعَلِمَ كُلَّ شَيءٍ. وهالَتْهُ المَعْرِفةُ، وأَنَّتْ حُشاشَتُهُ[1]!

وتَساقَطَ بَعْضُ المُتَسابِقينَ، وخَفَّ رِجالُ الإِسْعافِ لنَجْدَتِهِمْ.

وصَاحَتِ امْرَأَةٌ رَقيقةٌ: «أَمَجْزَرَةٌ؟ وهَل ثَمَّةَ ما يُوجِبُ هٰذِهِ الأَلْوانَ المُتَعَدِّدَةَ مِنَ المآسي؟»

أَمَّا أَنّا فقَد جَمَدَتْ كالتِّمثالِ. كانَتْ شاخِصَةً إِلى الأَمامِ، وكانَ بَصَرُها لا يُفارِقُ فارِسًا مِنَ الفُرْسانِ؛ كانَتْ تُتابِعُ فرونسكي ولا تَحْفِلُ زَوْجَها؛ وكانَتْ تَبْتَهِلُ في سِرِّها إِلى اللهِ أَنْ يَحْمِيَهُ.

وتَقَدَّمَ فرونسكي، لٰكِنَّهُ سَقَطَ، وسَقَطَ مِنْظارُ أَنّا، وزَفَرَتْ، ونَهَضَتْ، ثُمَّ قَعَدَتْ.

وقالَ كارنينُ بصَوْتٍ خَفيضٍ: «لنَذْهَبْ، هَيّا، هَيّا...».

ولم تَكْتَرِثْ لأَقْوالِهِ، بَل أَصاخَتْ إِلى ما كانَ يُقالُ، وتَناهى إِلَيْها أَنَّ فرونسكي صَدَعَ ساقًا. فحاوَلَتْ أَنْ تَرى، ولٰكِنَّها لم تَرَ شيئًا.

وخاطَبَها زَوْجُها ثانِيَةً، طالِبًا إِلَيْها مُرافَقَتَهُ والعَودَةَ مَعَهُ، بَيْدَ أَنَّها انْكَمَشَتْ مُجْفَلَةً، وقالَتْ مُحتَدِمَةً: «اِذْهَبْ أَنْتَ، أَمّا أَنا فسَأَبْقى هُنا».

وجاءَ ضابِطٌ مِنَ الحَرَسِ فأَخْبَرَ القَيْصَرَ بما حَدَثَ، وعَلِمَتْ أَنّا أَنَّ فرونسكي لم يُصَبْ بأَذًى، فتَنَهَّدَتْ بارْتِياحٍ، وحَلَّ الأَمَلُ في تَقاطيعِها مَحَلَّ اليَأْسِ.

وبَكَتْ، بَكَتْ مِنَ الِاطْمِئْنانِ. ورآها زَوْجُها تَذْرِفُ الدَّمْعَ، فدَنا مِنها ووَقَفَ في وَجْهِها حتّى لا يَراها الغَيرُ وهْيَ تَسْتَعْبِرُ.

وخاطَبَها مَرَّةً ثالِثَةً، فقالَ: «لماذا تَتَشَبَّثينَ بالعِنادِ، هَلُمِّي مَعي... قُلْتُ لَكِ هَلُمّي!»

---

(١) الحُشاشَةُ: بَقِيَّةُ الرُّوحِ في الجَسَدِ.

وأَجابَتْهُ الأَميرةُ بتسي قائلةً: «سأَرْجِعُ مَعَها يا أَلِكْسي، فلا تُلْحِفْ عليها».

لٰكِنَّهُ حَدَجَها بنَظْرةٍ صارِمَةٍ، وقالَ: «لقد أَثَّرَ هٰذا السِّباقُ فيها تَأْثيرًا مُخيفًا، ولا بُدَّ لها مِنَ العَودَةِ مَعي».

وفَطِنَتْ أَنّا إِلى ما أَظْهَرَهُ زَوجُها مِنَ التَّصَلُّبِ، فانْتَصَبَتْ واقِفَةً، ووَضَعَتْ يَدَها في يَدِه. ومَشَتْ مَعَهُ كما تَمْشي كُلُّ زَوْجَةٍ مَعَ زَوْجِها.

مَشَتْ مَعَهُ، لٰكِنَّ قَلْبَها ظَلَّ في مَكانِهِ لا يَبْرَحُ ولا يَريمُ.

مَشَتْ طائِعَةً، لٰكِنَّها خَلَّفَتْ وَراءَها شُعورَها، ودُعاءَها، وحُبَّها، وحَبيبَها.

* * *

هٰكذا سارَ الزَّوْجانِ المُتَباعِدانِ جَنْبًا إِلى جَنْبٍ، وهُما يُوَزِّعانِ التَّحِيّاتِ والاِبْتِساماتِ على المَعارِفِ والأَصْدِقاءِ، حتّى عَجِبَ لَهُما النّاسُ، وتَساءَلوا عن حَقيقةِ العَلاقةِ الَّتي تَشِجُ بينَ الزَّوْجَينِ. أَهِيَ، كما يُشاعُ ويُذاعُ، عَلاقَةٌ تَتَّسِمُ بطابَعِ الجَفاءِ، أَم إِنَّ النُّفورَ حَديثُ خُرافَةٍ، والصَّداقَةَ هِيَ الطّابَعُ الغالِبُ بالرَّغْمِ مِن قِصّةِ الغَرامِ الَّتي تَداوَلَتْها الأَلْسُنُ؟

كانَتْ أَنّا في شُغْلٍ بتَفكيرِها، كانَتْ تُفَكِّرُ بفرونسكي والخَوفُ مُسْتَحْوِذٌ على مَشاعِرِها، وكانَتْ تَضْرَعُ إِلى اللهِ أَنْ يَحْفَظَهُ ويَصونَهُ ويَدْرَأَ عَنْهُ كُلَّ مَكْروهٍ.

ولمّا اسْتَقَلَّتِ العَرَبَةِ وجَلَسَ زَوجُها إِلى جانِبِها، نَظَرَتْ إِلَيْهِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، فلَمْ تَرَ إِلّا أُذُنَيهِ! وخَثَرَتْ[1] نَفْسُها، وتَوَلّاها اللُّغوبُ[2]. فيا لَلأُذُنَينِ الكَبيرتَينِ! يا لَلأُذُنَينِ الكَريهَتَينِ!

على أَنَّ كارنَينَ ظَلَّ في جُمودِهِ وبُرودِهِ، لا يَلْتَفِتُ إِلَيْها ولا يُكَلِّمُها. وقد نَأَى بتَفْكيرِهِ عنها، وإِنْ كانَ يَتَرَمَّضُ[3] في داخِلِهِ على نارٍ. لَقَد هالَهُ مِنْها اسْتِهْتارُها بالعُرْفِ والتَّقاليدِ، وأَخافَهُ تَهَوُّرُها الشَّديدُ، وعَدَمُ احتِفالِها بالنّاسِ. وشَعَرَ أَنَّ واجِبَهُ يَفْرِضُ عَليهِ تَنْبيهَها إِلى سوءِ المَصيرِ إِنْ هِيَ تَمادَتْ في الغَيِّ[4]، وأَسْرَفَتْ في اسْتِهانَتِها باسْمِهِ ومَرْكَزِهِ بينَ النّاسِ.

---

(١) خَثَرَتْ نَفْسُها: غَثَتْ واضطَرَبَتْ.

(٢) اللُّغوبُ: التَّعَبُ والإِعْياءُ الشَّديدانِ.

(٣) يَتَرَمَّضُ: يَتَحَرَّقُ.

(٤) الغَيُّ: الضَّلالُ.

على أَنَّهُ حارَ في أَمْرِهِ، فكيفَ يَبْدَأُ الحَديثَ؟ وماذا يَقولُ؟

ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَجْمَعَ عَزيمتَهُ المُشَتَّتَةَ، وانْبَرى يَقولُ بصَوْتٍ شارِدٍ كأَنَّهُ مَذْهولٌ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «لَكَمْ يَنْفُرُ قَلبي مِن مِثْلِ هٰذِهِ المَشاهِدِ! إِنَّها قَسْوةٌ لا مُسَوِّغَ لَها، إِنَّها كالطُّقوسِ الباليةِ الَّتي يُكَرِّرُها الإِنْسانُ بالرَّغْمِ مِن تَفاهَتِها ومَضَرَّتِها».

فأَجابَتْ وهْيَ تَحْدِجُهُ بنَظْرَةٍ يَفيضُ مِنها اللَّوْمُ والاِحْتِقارُ والاِسْتِهجانُ: «إِنّي لا أَفْهَمُكَ، فأَوْضِحْ. أَوْضِحْ مَقْصَدَكَ».

فانْثَنى بنَظَرِهِ إِلَيْها، وقالَ في حِدَّةٍ ظاهِرَةٍ: «لا مِرْيَةَ في أَنَّ الواجِبَ يَقْتَضي مُصارَحَتَكِ بما يَجولُ في ذِهْني. ولا أَمْلِكُ مِنْ نَفْسي أَمْرَ النّاسِ، لٰكِنَّكِ زَوْجي، وقَد شَطَطْتِ وغَلَوْتِ وارْتَكَبْتِ مِنَ الأُمورِ ما يَتَنافى واللِّياقَةَ، أَي إِنَّكِ أَسَأْتِ التَّصَرُّفَ».

قالَتْ: «وما هُوَ دَليلُكَ على ذٰلِكَ؟»

قالَ: «نَسيتِ نَفْسَكِ ساعَةَ كَبا الجَوادُ براكِبِهِ، وكأَنَّكِ وَحيدَةٌ، كأَنَّكِ كُنْتِ تَجْلِسينَ بمُفْرَدِكِ. لَقَد جُنَّ جُنونُكِ، ونَطَقَتْ أَساريرُكِ بالجَزَعِ الشَّديدِ. وإِنّي يا سَيِّدَتي أُذَكِّرُكِ بما نَبَّهْتُكِ إِلَيْهِ في يَومٍ مَضى. أُذَكِّرُكِ بواجِبِكِ فاحْرِصي على سُمْعَتي، وذودي[1] عَنِ اسْمي».

فهَزَّتْ رَأْسَها واسْتَمَرَّتْ تُصْغي مِن دونِ أَنْ تَنْبِسَ بحَرْفٍ.

ومَضى هُوَ يَقولُ: «إِنَّ ما يَعْنيني مِنَ الأَمْرِ الآن هُوَ تَصَرُّفُكِ أَمامَ النّاسِ، أَمّا عَلاقَتُنا الدّاخليَّةُ فقد طَوَيْتُ كَشْحي عَنها[2]».

ولاحَ فرونسكي لناظِرَيْها فلَمْ تُصْغِ إِلى كَلامِ زَوجِها، ولم تُحاوِلْ أَنْ تَتَتَبَّعَ ما يَقولُ.

وما كادَ كارنينُ يَنْتَهي مِن كَلامِهِ حتّى اخْتَلَسَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةً مُتَهَكِّمَةً ساخِرَةً، فاسْتَعَرَ أُوارُ غَيْظِهِ، وأَخَذَ يَحْرُقُ عَليها الأُرَّمَ[3] وهْوَ يُتابِعُ حَديثَهُ: «أَكَلامي تافِهٌ إِلى هٰذا الحَدِّ، أَم ظَنّي خَيالٌ لا مُعْتَمَدَ عَلَيْهِ؟ إِنْ كانَ ذٰلِكَ فالمَعذِرَةَ على تَسَرُّعي، وإِنْ لم يَكُنْ... إِنْ لم يَكُنْ...».

---

(١) ذودي: دافِعي.

(٢) طَوَيْتُ كَشْحي عَنْها: أَعْرَضْتُ عَنْها، أَهْمَلْتُها.

(٣) يَحْرُقُ عَلَيها الأُرَّمَ: يَحُكُّ أَسْنَانَهُ بَعْضَها ببَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الغَيْظِ.

وعيلَ صَبْرُ أَنّا في تِلْكَ الفَيْنَةِ وضاقَ صَدْرُها، فتَنَفَّسَتِ الصُّعَداءَ مِن شِدَّةِ ما نالَها مِنَ الكَرْبِ، وأَجابَتْ بصَوْتٍ عَميقٍ، ولَهْجَةٍ صارِمَةٍ مُفْعَمَةٍ بالقَسْوَةِ: «أَصَبْتَ اليَقينَ في ظَنِّكَ، فأَنا ساعةَ ارْتَمى الحَبيبُ مُتُّ فَرَقًا. واعْلَمْ أَنّي أَسْمَعُ صَوتَكَ فَقَطْ، ولٰكِنِّي لا أَفْهَمُكَ، فهْوَ قَد أَضْحى مِلْءَ السَّمْعِ والبَصَرِ... هُوَ... أَتَفْهَمُ؟ هُوَ... وحُبِّي لهُ لا نِهايَةَ لهُ. حُبّي عَظيمٌ كأَنَّهُ البَحْرُ، عَظيمٌ كأَنَّهُ الفَضاءُ. حُبّي لهُ عَظيمٌ كبُغْضي لَكَ، وكخَوْفِي مِنْكَ».

وانْكَمَشَتْ على نَفْسِها، وأَغْمَضَتْ عَيْنَيها، وأَجْهَشَتْ، ثُمَّ اسْتَخْرَطَتْ في البُكاءِ[1].

الرَّجُلُ الكَبيرُ القَدْرِ صُعِقَ مِنَ الهَولِ! صَعَقَتْهُ كَلِمةٌ!

الرَّجُلُ الحَويلُ الَّذي مَلَكَ القُلوبَ واسْتَوْلى على الأَلْبابِ، يَهْتَزُّ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلى أَخْمَصِ قَدَمَيهِ كَريشَةٍ ضَعيفةٍ تَعْصِفُ بها الرِّيحُ!

ما كادَ كارنينُ يَسْتَوعِبُ المَعْنى حتّى قَفَزَ قَلْبُهُ بَينَ ضُلوعِهِ... لَقَد ظَهَرَ المَخْفِيُّ أَخيرًا، ظَهَرَ بُوضوحٍ وجَلاءٍ، على لِسانِ امْرأَتِهِ. كانَ مُلِمًّا بالحَقيقةِ، ولٰكِنَّهُ كانَ يَتَجاهَلُها حتّى لا يَنْهَارَ ويَسْقُطَ، فهَل في طاقَتِهِ الآنَ أَنْ يَتَجاهَلَها؟ هَل يَسْتَطيعُ أَنْ يُواصِلَ هٰذا الدَّوْرَ الَّذي أَدّاهُ بصَبْرٍ وجَلَدٍ واحتِمالٍ؟

فهَل يَتَكَلَّمُ؟ وما جَدْوى الكَلامِ؟ ما فائدتُهُ؟ لقدِ انْقَضى كُلُّ شَيءٍ، ونَفَذَ المَقْدورُ، وغَدَرَ بِهِ الدَّهْرُ في مَوْطِنِ الحَساسِيَةِ مِنْ حَياتِهِ، فهَل يَسْتَسْلِمُ؟ هَل يُلْقي السِّلاحَ؟ أَيَقْضي على مُسْتَقْبَلِهِ مِن دونِ كِفاحٍ؟

إِنَّهُ شُجاعٌ، وعاطِفتُهُ لَيْسَتْ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يَعيشُ لِهَدَفٍ، وهَدَفُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ ويَتَقَدَّمَ، باستِمْرارٍ ومِن دونِ انْقِطاعٍ.

ودَنَتِ العَرَبَةُ بخُيولِها المُطَهَّمَةِ مِنَ المَنْزِلِ، فقالَ كارنينُ مِن غَيرِ أَنْ يَنْظُرَ إِلى امْرَأَتِهِ الباكِيَةِ: «لَن أَعْذُلَكِ، على أَنّي أَرْغَبُ إِلَيْكِ في التَّمَسُّكِ بالحِرْصِ، اِحْرِصي ما وَسِعَكِ الأَمْرُ على اسْمي وسُمْعتي، وسأُفَكِّرُ في ما يَخْلُقُ بي أَنْ أَفْعَلَ. التَزِمي جانِبَ التَّعَقُّلِ رَيْثما أَبُتُّ في مَصيري ومَصيرِكِ، ولا تُرْغِميني على رُكوبِ مَتْنِ الشِّدَّةِ. هٰذا هُوَ مَطْلَبي الوَحيدُ، فتَفَكَّري مَلِيًّا، وتَرَوَّيْ، وإِلَّا لَحِقَتْكِ نَدامَةٌ، ولَن أُلامَ، فقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ».

---

(١) اسْتَخْرَطَتْ في البُكاءِ: اشْتَدَّتْ فيهِ ولَجَّتْ.

وكَبَحَ الحُوذِيُّ جِماحَ خَيْلِهِ، فوَقَفَتِ العَرَبَةُ، ونَزَلَ كارنينُ وأَعانَ زَوْجَهُ على النُّزولَ، ثُمَّ صافَحَها مُحْنيًا لَها هامَتَهُ، ورَجَعَ مِن حَيْثُ أَتى. رَجَعَ إِلى بطرسبرج وهْوَ يَشْعُرُ كَمَنْ أُصيبَ بطَعْنةٍ نَجْلاءَ في حَماطَتِهِ[1]، يَشْعُرُ شُعورَ المُدْنَفِ الَّذي بَرَّحَ بهِ السَّقَمُ حتّى أَشْفى[2]!

وصَعِدَتْ أَنّا إِلى مَخْدَعِها في «بيترهوف» فأَغْلَقَتِ البابَ عَلَيْها وانْطَرَحَتْ على مَرْقَدِها.

وسُرْعانَ ما نَسِيَتْ مُصيبَتَها، نَسِيَتْها ساعةَ طَرَقَتْ خادِمتُها البابَ عَلَيْها، وقَدَّمَتْ إِليها رُقْعَةً صَغيرةً كَتَبَتْها صَديقَتُها الأَميرةُ بتسي.

ولمّا فَضَّتِ الوَرَقَةَ وتَلَتْ ما سُطِّرَ فيها انْفَرَجَتْ شَفَتاها عَنِ ابتِسامةٍ مُشْرِقَةٍ، وهَتَفَتْ وهْيَ تَضْحَكُ مُغْتَبِطةً:

«إِنَّهُ سَليمٌ لَمْ يُصَبْ بأَذًى.

إِنَّهُ مُعافًى لَمْ يَلْحَقْ بهِ سوءٌ.

فيا لَفَرْحَتي! يا لَفَرْحَتي!

فرونسكي... ما أَحْلاكَ وما أَشْهاكَ!

فرونسكي... أَنْتَ الحَياةُ وأَنْتَ الأَمَلُ.

وكُلُّ شَيءٍ خلا ذٰلِكَ، فَهْوَ عَدَمٌ مِنَ العَدَمِ».

---

(١) الحَماطَةُ: سُوَيْداءُ القَلْبِ وحَبَّتُهُ، صَميمُ القَلْبِ.

(٢) أَشْفى المُدْنَفُ (العَليل): امْتَنَعَ شِفاؤُه أو قارَبَ المَوْتَ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عنوانًا مناسبًا.

٢ - أَتستَحِقُّ الطَّبَقَةُ العُليا من الأشرافِ المُرتفَعَ الكبيرَ الَّذي جلسَتْ فيه؟ ولماذا؟

٣ - رَسَمَ الكاتِبُ لِأَلِكْسي كارنين صورةً جدِّيَّةً كلَّ الجِدِّ ولأَنّا صورةً لاهيةً كلَّ اللَّهوِ. فهَل لهاتَينِ الشَّخصيَّتَيْنِ أَنْ تَنْسَجما وتَتَحابّا؟ ولماذا؟

٤ - تضخَّمَتْ عيوبُ أَلِكْسيس كارنين في عَينَيْ أَنّا. كيفَ عَلَّلَ الكاتِبُ ذٰلِكَ في نَفْسِها؟ أَكانَ تعليلُه مُقنِعًا؟ وهَل يَنطَبِقُ ما في نَفْسِ أَنّا على قولِ الشاعِرِ؟

وعَــيــنُ الــرِّضــا عــن كــلِّ عَــيــبٍ كــلــيــلــةٌ
ولــكــنَّ عــيــنَ الــكــرهِ تُــبــدي الــمــســاوِيــا

٥ - هَل تَرى أَنَّ الأَميرةَ بتسي توفِّرُ لأَنّا بَعْضًا من الحمايةِ أو الدَّعْمِ المعنويِّ؟ وكيفَ ذلك؟

٦ - في هذا الفصلِ انكشَفَ السِّتْرُ وتَمَّتِ المُصارَحةُ. فماذا تَرى أَلِكسي كارنين فاعلًا؟

٧ - لِمَ احتَدَمَ غضبُ أَنّا كارنينا فصارحَتْ زوجَها بحبِّها العظيم لفرونسكي وبكرْهِها لهُ؟ تُرى أَكانَتْ مُحِقَّةً في غضبِها هذا؟

٨ - اربِطْ، في أَسطُرٍ قَليلَةٍ، بينَ أَحداثِ القسمِ الثّاني من الرِّوايةِ.

القسم الثَّالث

الفصل الأوّل

ما كانَ للإنْسانِ في كُلِّ أوانٍ أَنْ يَحْدُسَ ما يَتَجاوَبُ في قُلوبِ النَّاسِ مِن أَضْداءِ الأَحاسيسِ المُخْتَلِفةِ الخَلَجاتِ المُتَنَوِّعةِ؛ وما كانَ لأَحَدٍ، سَواءٌ أكانَ قَريبًا إلى أَلِكْسيس كارنين أَم كانَ بَعيدًا عنهُ، أَنْ يَكْنُهَ حَقيقَةَ ما جُبِلَ عَليهِ الرَّجُلُ الفَذُّ.

فهْوَ، في مَظْهَرِهِ، جامِدٌ صُلْبٌ لا تَلينُ لهُ عاطِفَةٌ ولا يَرِقُّ إحْساسٌ. وهْوَ، في ما يَتَبَيَّنُ مِن حَرَكاتِهِ وسَكَناتِهِ، رَجُلٌ قَلَّما يُشْفِقُ ونَدَرَ ما يَرْثي، ولا يَخافُ حتّى مِنْ هادِمِ اللَّذّاتِ.

بَيدَ أَنَّ الحَقيقَةَ الَّتي لا مِراءَ فيها[1]، هِيَ أَنَّهُ كانَ يَذوبُ شَفَقَةً ويَسيلُ لَوْعَةً كُلَّما أَصْغى مُرْغَمًا إلى امْرَأَةٍ أو طِفْلٍ يَبْكِيانِ.

ناهيكَ بالعَبَرات، وناهيكَ بوَقْعِ مَشْهَدِها على قَلْبِهِ الحَسَّاسِ. وما أَكْثَرَ ما جاءَتْهُ امْرَأَةٌ وهْيَ تَسْفَحُ الدُّموعَ، فيُصَدِّقُ أَلَمَها، ويَتَالَّمُ هُوَ مَعَها، ثُمَّ يُلَبِّي طَلَبَها ولو كانَ لا يَتَّفِقُ في شَيْءٍ مَعَ الحِكْمةِ والعَدالةِ.

وبَلَغَتْ بهِ الرِّقَّةُ أَنَّهُ لم يَتَمالَكْ نَفْسَهُ عَنِ التَّفَجُّعِ لأَنّا زَوْجِهِ حينَ صارَحَتْهُ بما يَشِجُها بفرونسكي مِنْ عَلائِقَ، واسْتَخْرَطَتْ مِنْ بَعْدُ تَبْكي بُكاءً مَريرًا. لقد أَلَمَّ بهِ ساعَتَذاكَ ما يُلِمُّ بهِ عادةً عِنْدَما يَرى المَدامِعَ، فنَسِيَ سَيِّئَتَها، ولم يَحْفِلْ خِيانَتَها، بَل إنَّ نَفْسَهُ الرَّقيقةَ ذَرَفَتْ هِيَ الأُخرى الدَّمْعَ الغَزيرَ مَعَ عَيْنَي أَنّا.

ما أَكْثَرَ ما تَأَلَّم كارنينُ لما وَعاهُ! ما أَكْثَرَ ما فَعَلَتْ قِصَّةُ الخِيانةِ في فُؤَادِهِ! لٰكِنَّ الدَّمْعَ غَلَبَ على شُعورِ الغَيْظِ، فرَثى لَها ووَدَّ لَوْ تَكُفُّ عَنِ النَّحيبِ.

ثُمَّ إنَّهُ خَرَجَ مُسْرِعًا، واسْتَقَلَّ العَرَبَةَ، وتَنَهَّدَ مِن كَبِدٍ حَرّى. وما لَبِثَ أَنْ تَنَفَّسَ الصُّعَداءَ

(١) لا مِراءَ فيها: لا جِدالَ فيها.

كأَنَّهُ يُبْعِدُ أَوْشابًا[1] عَلِقَتْ بنَفْسِهِ... وشَعَرَ كمَنْ أُفْرِجَ عَن مَخْنَقِهِ، شَعَرَ أَنَّهُ تَخَلَّصَ إلى الأَبَدِ مِن رابِطَةِ حُبٍّ طالَما شَغَلَتْ تَفْكيرَهُ، وأَنَّهُ تَحَرَّرَ أَيضًا مِن غَيْرتِهِ الشَّديدةِ الَّتي اسْتَرَقَّتْهُ واسْتَعْبَدَتْهُ.

فيا لَلرَّجُلِ الغامِضِ! أَيَنْسى الخِيانَةَ بمِثْلِ هٰذِهِ السُّرعَةِ؟ أَخِيانَةُ الزَّوجَةِ لا تَزيدُ في تَأْثيرِها عَنِ اقْتِلاعِ ضِرْسٍ مُؤْلِمٍ مِنَ الفَمِ؟

وهَلِ الِاعْتِرَافُ بالخِيانةِ يَزيدُ شَقاءَ الرَّجُلِ المُخْدوعِ، أو إِنَّهُ يَرْفَعُ عن كاهِلِهِ حِمْلًا طالَما ناءَ مِن ثِقْلِهِ، وطالَما تَعَذَّبَ؟

وهَزَّ كارنينُ رَأْسَهُ. إِنَّهُ الآنَ حُرٌّ، إِنَّ نَفْسَهُ حُرَّةٌ وروحَهُ حُرَّةٌ، وفي مِكْنَتِهِ الآنَ أَنْ يَتَصَرَّفَ كيفما شاءَ، في طَوْقِهِ أَنْ يَعْمَلَ مِن دونِ أَنْ يَشْغَلَ فِكْرَهُ أَمْرٌ آخَرُ.

أَلَمٌ هائِلٌ يُلِمُّ بهِ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يُمْحى ويَزولَ... وبسُرْعَةِ البَرْقِ الخاطِفِ...

وناجى نَفْسَهُ بقَوْلِهِ: «تَبًّا لَها! لِمَ أَحْقِدُ عَلَيْها؟ أَلَيْسَتْ زَوْجَتي امْرَأَةً كسائِرِ النِّساءِ؟ أَلَيْسَتْ أَنّا مَخْلوقًا ضَعيفًا لا كَرامَةَ لَهُ ولا شَرَفَ؟ إِنَّها غَدَرَتْ بي، ولٰكِنْ، أَلَمْ أَنْتَظِرْ مِنها الخِيانَةَ؟ أَلَمْ أَتَوَقَّعْ في كُلِّ حينٍ أَنْ تَأْتِيَ المُنْكَرَ، وتَجْنَحَ إلى المُوبِقَةِ؟

فلِمَ إِذًا الحُزْنُ؟ لِمَ الشَّجَنُ؟ وماذا يَنْفَعُ التَّمَرُّغُ في أَوْحالِ الأَلَمِ والعَذابِ؟ أَأُضَحِّي براحَتي وهَنائي في سَبيلِها؟ أَأَقْتُلُ نَفْسي حتى تَعيشَ وتَحْيا وتَرْتَعَ في حَمأَتِها؟ كَلاّ... كَلاّ... لَقَد تَوَقَّعْتُ كُلَّ هٰذا مِن قَبْلُ، وتَحَقَّقَ ما انْتَظَرْتُ وتَوَقَّعْتُ، فلْيَكُنِ الأَمْرُ كما أَرادَتْهُ ولَن أُنْحيَ عَلَيها باللّائِمَةِ، لَن أَفْعَلَ ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَطِّمَها ويَقْصِمَ ظَهْرَ حَبيبِها!»

وخَيَّلَ إِلَيْهِ الوَهْمُ أَنَّ حُبَّهُ لابنِهِ قد نَضَبَ مَعينُهُ، وأَنَّ الغُلامَ أَضْحى غَريبًا بَعيدًا، لا يَعْنيهِ في شَيْءٍ. هُوَ وأُمُّهُ، هُوَ وأُمُّهُ الَّتي أَوْدَتْ بكُلِّ شَيْءٍ، وعَصَفَتْ بكُلِّ شَيْءٍ، أَصْبَحا في نَظَرِهِ غَريبَينِ لا يَهُمُّهُ مِنْهُما إِلَّا ما يُحْزِنُ سِواهُ مَتى شابَ نَفْسَهُ قَلَقٌ. ويَتَحَتَّمُ عليهِ الآنَ أَنْ يُلاشِيَ قَلَقَ نَفْسِهِ حتّى تَعودَ إِليهِ نَفْسُهُ، وأَنْ يُنَقِّيَ روحَهُ ممّا عَلِقَ بها حتّى يَرْجِعَ إِليهِ هُدوؤُهُ، ويَعودَ إِليهِ اتِّزانُهُ، فيُزاوِلَ أَعمالَهُ بما أُثِرَ عَنْهُ مِنَ الهِمَّةِ والكَفاءةِ.

وطَفِقَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ويَقولُ: «وما بالي أَسْعى إلى شَقائي؟ وهَل تَسْتَحِقُّ كُلَّ هٰذا العَناءِ

---

(١) الأَوْشابُ (جَمْعُ وِشْبٍ): الأَوْباشُ، أَخْلاطُ النّاسِ.

والتَّحَرُّقِ على الرَّمْضاءِ امْرَأَةٌ خَلَعَتِ العِذارَ[1] وارْتَكَبَتِ المَعاصيَ؟ أما يَخْلُقُ بي أَن أَبْحَثَ عَنِ الدَّواءِ؟ أما يَليقُ بي أَنْ ابْحَثَ عَنِ الحَلِّ المُلائِم حتّى أَخْلُصَ مِن هٰذِهِ الأَدْرانِ؟ أَأَنا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذي أَصابَهُ على يَدِ زَوْجِهِ هٰذا البَلاءُ؟ أَأَنا الرَّجُلُ الأَخيرُ الَّذي مَرَّغَتْ زَوْجُهُ شَرَفَهُ بالأَوْحالِ؟ كَلاّ، ثُمَّ كَلاّ. فهُناكَ كَثيرونَ غَيْري امْتُحِنوا بمِثْلِ ما امْتُحِنْتُ، هُناكَ أَزْواجٌ آخَرونَ جَنَحَتْ نِساؤُهُمْ إِلى الرَّذيلةِ مِنْ دونِ أَنْ يَحْفِلْنَ سُمْعَةً ولا اسْمًا ولا شَرَفًا! وقد سَخِرَ مِنْهُمُ النَّاسُ وتَهَكَّموا عَلَيْهِمْ، ولٰكِنِّي مِنْ دونِ النَّاسِ رَثيتُ لحالِهِمْ وسَخِرْتُ مِنْ نِسائِهِمْ لأَنَّ الدَّائرةَ في النِّهايةِ ستَدورُ عَلَيْهِنَّ مِنْ حَيثُ لا يَشْعُرْنَ! فماذا يَليقُ بي أَنْ أَفْعَلَ؟ هٰذا هُوَ السُّؤَالُ الَّذي يَتَطَلَّبُ الجَوابَ السَّريعَ الحاسِمَ».

ورأَى بعَيْنِ مُخَيِّلتِهِ وُجوهَ رِجالٍ ارْتَكَبَتْ نِساؤُهُمُ المَعْصِيةَ، وأَنْشأَ يَسْتَعْرِضُ رَدَّ الفِعْلِ، والإِجْراءَ الَّذي تَوَسَّلَ بهِ كُلُّ زَوْجٍ خَدَعَتْهُ امْرَأَتُهُ فَظَلَمَتْهُ.

وكانَ مِنْهُمْ مَنْ قاتَلَ عَشيقَ زَوْجِهِ، وكانَ مِنْهُمْ مَنْ رَضِيَ بالأَمْرِ الواقِعِ، فأَغْضى وتَجاهَلَ، وكانَ مِنْهُمْ مَنْ هَجَرَ امْرَأَتَهُ، وكانَ مِنْهُمْ مَنْ تَخَرَّمَ[2] أَنْفاسَها، وكانَ مِنْهُمْ مَنْ سَعى إِلى الطَّلاقِ مِنْها.

أَمّا فِكرةُ المُبارَزَةِ فقَدِ اسْتَحْوذَتْ عَلَيهِ، ولٰكِنَّهُ رأَى فيها خَطَرًا مُحَقَّقًا، فهْوَ إِنْ قَتَلَ غَريمَهُ تَزَعْزَعَتْ حَياتُهُ، وهْوَ إِنْ قُتِلَ بيَدِ غَريمِهِ لم يَبْقَ لَهُ كِيانٌ في هٰذا الكَوْنِ.

وسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَّخِذَ الإِجْراءاتِ القانونِيَّةَ لتَطْليقِ امْرَأَتِهِ، ولٰكِنْ كيفَ يَصْبِرُ بعدَ ذٰلِكَ على رُؤْيةِ أَنّا تَنْتَقِلُ بينَ أَحْضانِ الرِّجالِ! إِنَّها لَن تَقْتَرِنَ بَعْدَ طَلاقِها مِنهُ، لأَنَّ الكَنيسةَ تُحَرِّمُ زَواجَ المُطَلَّقةِ. إِنَّهُ لم يَعُدْ يَشْعُرُ نَحْوَها بالمَحبَّةِ، ولٰكِنَّهُ لا يَرْغَبُ في رُؤْيَتِها تَتَدَهْوَرُ إِلى الدَّرْكِ. فهَل هُوَ الإِشْفاقُ، أو هِيَ الأَثَرَةُ؟

وتَمَلْمَلَ كارنينُ وتَلَدَّدَ[3]، ثُمَّ شَخَصَ مِنَ النَّافذةِ وجَعَلَ يُنَقِّلُ طَرْفَهُ الشَّارِدَ في ما يُحيطُ بهِ... إِنَّه في مَأْزِقٍ، والحَبْلُ مَشْدودٌ على مَخْنَقِهِ، فما العَمَلُ؟ ما العَمَلُ؟

إِنَّهُ يُحِبُّ الاِنْتِقامَ. لقَدِ اكْتَشَفَ هٰذا الآنَ، ولَن يُفْسِحَ في المَجالِ لأَنّا، لَن يَدَعَها تَنْعَمُ

---

(١) خلَعَتِ العِذارَ: خَلَعَتِ الحَياءَ، اتَّبَعَتْ هَواها.

(٢) تَخَرَّمَ أَنْفاسَها: أَهْلَكَها.

(٣) تَلَدَّدَ: تَلَبَّثَ (أَقامَ) في مَكانِهِ مُتَحَيِّرًا.

بحُبِّها بحُرِّيَّةٍ واسْتِقْلالٍ.

فهْوَ لَن يُقاتِلَ دِفاعًا عَن عِرْضِهِ، وهْوَ لَن يُطَلِّقَ دَرْءًا للفَضيحَةِ، ثُمَّ تَجَنُّبًا لما قد يُتيحُهُ لَها مِنْ حُرِّيَّةِ التَّمَتُّعِ بحُبِّها، وهْوَ لِذٰلِكَ سَيَحْتَفِظُ بها زَوْجَةً بالاسْمِ، ويَبْذُلُ ما في طاقَتِهِ للحَيلولةِ بَيْنَها وبَيْنَ عَشيقِها. ثُمَّ يُسْدِلُ سِتارًا صَفيقًا مِنَ الكِتْمانِ على ما حَدَثَ، حتّى لا تَنْتَشِرَ الفَضيحةُ فيَسْمَعَ بها القاصي والدَّاني.

وفَضْلًا عن ذٰلِكَ، ارْتاحَ لما وَطَّنَ عَلَيهِ النَّفْسَ، وعَلَّلَ ارْتِياحَهُ إلى نَأْمَةِ[1] الخَيْرِ الَّتي يَعْتَقِدُ أَنَّها تَعْتَمِلُ باسْتِمْرارٍ في قَراراتِهِ. عَلَّلَ ارْتِياحَهُ بأَنَّهُ ناجِمٌ عن أَمَلِهِ أَنْ تَنْتَبِهَ أَنّا وتَفيءَ[2] إلى نَفْسِها، وأَنْ تَرْعَويَ أَنّا قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ فتَنْدَمَ وتُكَفِّرَ عَمّا اجْتَرَحَتْهُ، وعَمّا اقْتَرَفَتْهُ، وعَمّا أَتَتْهُ مِنَ المُنْكَرِ.

* * *

الخائِنَةُ! دَمْدَمَ يَقولُ، وهْوَ يَحْرُقُ عَلَيها الأُرَّمَ ويَصْرِفُ بأَسْنانِهِ[3]...

ووَقَفَتِ العَرَبةُ فنَزَلَ مِنْها، ثُمَّ صَعِدَ إلى مَكْتَبِه وجَلَسَ قَليلًا، وما أَبْطَأَ أَنْ تَناوَلَ وَرَقًا وقَلَمًا وجَعَلَ يَكْتُبُ:

«سأَبِرُّ بوَعْدي لَكِ وأُطْلِعُكِ على قَراري بصَدَدِكِ. كُنْتِ حَمْقاءَ في ما صَنَعْتِ، وكانَ عَلَيَّ أَنْ أَفْصِمَ كُلَّ صِلَةٍ تَشِجُني بشَخْصِكِ، إلَّا أَنّي عُدْتُ فعَدَلْتُ عَن هٰذا الرَّأْيِ حتّى لا أَتَحَدّى اللّٰهَ في ما أَوْجَبَهُ على عِبادِهِ، وحتّى لا أُفَرِّقَ بَينَ مَنْ وَصَلَهُما برِباطِ الدِّينِ. ولا شَكَّ أَنَّ انْحِرافَ زَوْجٍ أو زَوْجَةٍ عَنِ الجادَّةِ لا يَقْسِرُ المُساءَ إليهِ على فَصْمِ الشَّرِكَةِ الزَّوْجِيَّةِ حتّى لا تَتَقَوَّضَ بذٰلِكَ دَعائِمُ العائِلَةِ، ويُقْضى على ثَمَراتِ الزَّواجِ وهْيَ الأَوْلادُ! وعَلَيهِ فلا مَنْدوحَةَ لي عن اسْتِبْقائِكِ في كَنَفي[4] حِفاظًا على اسْمي واسْمِكِ، وإشْفاقًا على وَلَدِنا المِسْكينِ. وإنّي واثِقٌ مِنْ أَنَّكِ تُوافِقينَ على خُطَّتي، وتُساعِدينَني حتّى نَتَمَكَّنَ مِن تَخَطّي العَقَباتِ، فلا أُضْطَرَّ إلى اتِّخاذِ سِوى ذٰلِكَ مِنَ الخُطُواتِ. ورَغْبةً مِنّي في إقْناعِكِ بصَوابِ رَأْيي أَرى أَنْ

(١) نَأْمَةُ الخَيرِ: صَوْتُ الخَيرِ.

(٢) تَفيءُ إلى نفسِها: تعودُ إليها.

(٣) يَصْرِفُ بأَسْنانِهِ: يَحُكُّ بَعْضَها ببَعْضٍ فيُسْمَعُ لها صَوْتٌ.

(٤) في كَنَفي: في جانِبي وتَحْتَ ظِلّي أو رِعايَتي.

نَجْتَمِعَ في ميعادٍ لتَبادُلِ الرَّأْيِ وتَوْحيدِ الطَّريقةِ، لأَنَّ هَدَفي في رِعايةِ ابْني هُوَ هَدَفُكِ ولا غَرْوَ. فتَعالي إِلى بطرسبرج قَبْلَ يومِ الثُّلاثاءِ المُقْبِلِ وإِيَّاكِ أَنْ تَتَلَكَّئي أو تَتَأَخَّري».

وقَرَأَ ما خَطَّهُ، فوافَقَ على كُلِّ كَلِمَةٍ، وارْتاحَ إِلى كُلِّ مَعْنًى. وما هِيَ إِلَّا دَقيقَةٌ حتّى كانَتِ الرِّسالةُ في طَريقِها مَعَ مَبْعوثٍ خاصٍّ إِلى زَوجتِهِ في بيترهوف.

* * *

أمّا أَنّا فكانَتْ في حَيْرةٍ مِنْ أَمْرِها، كانَتْ مُوَزَّعةَ الفِكْرِ، مُبَلْبَلَةَ النَّفْسِ، مَلْهوفَةً مُشَتَّتَةً، لا تَكادُ تَسْتَقِرُّ على أَمْرٍ، أو تَهْدَأُ على حالٍ. كانَتْ تُفَكِّرُ ولا تُفَكِّرُ، وكانَتْ تَهْمِسُ في ما بَينَها وبَينَ نَفْسِها، فلا تَكادُ تَعي ما يَمْلأُ عَلَيها حَياتَها ويَسْتَوعِبُ فِكْرَها.

لقد تَأَجَّمَ[1] غَيْظُها حينَ جابَهَها حَبيبُها برَأْيِهِ، وقالَ لها إِنَّها أَضْحَتْ في مَرْكَزٍ صَعْبٍ عَسيرٍ لا انْحِلالَ لَهُ. ومَعَ أَنَّها غَضِبَتْ واحْتَدَمَ غَيْظُها وغَلَتْ مَراجِلُ هٰذا الغَيْظِ في أَعْماقِها، لم يَسَعْها سِوى التَّسْليمِ بما قالَهُ فرونسكي؛ إِنَّ مَرْكَزَها مُحْرِجٌ للغايةِ، ولَيْسَ لها إِلَّا البَحْثُ عمّا يُزيلُ تِلْكَ الجِبالَ مِنَ العَقَباتِ الَّتي تَعْتَرِضُ الآنَ سَبيلَها.

وصارَحَتْ زَوجَها بما حَصَلَ، جَهَرَتْ لَهُ بنُفورِها مِنْهُ، وبمَيلِها إِلى فرونسكي، وأَقْنَعَتْ نَفْسَها بَعْدَ ذَهابِهِ بأَنَّ عَمَلَها كانَ عَمَلًا حَكيمًا أَمْلَتْهُ أَصالةُ الرَّأْيِ؛ فهْيَ لا تَقْوى بَعْدَ اليَوْمِ على مُتابعةِ الحياةِ مَعَهُ، هِيَ لا تَقْوى على مُواصَلةِ حَياةٍ يُفْعِمُها الكَذِبُ والتَّصَنُّعُ والرِّياءُ.

ولٰكِنَّها شَكَّتْ، في ما بَعْدُ، في ما قامَت بِهِ، وأَيْقَنَتْ أَنَّها رَمَتْ بنَفْسِها في التَّهْلُكةِ. على أَنَّها عادَتْ فطَمْأَنَتْ نَفْسَها وعَلَّلَتْها بقُرْبِ انفِراجِ الغُمَّةِ، فالصَّراحةُ مَهْما قَسَتْ تُبَدِّدُ السُّحُبَ، وهْيَ بصَراحتِها لم تَعُدْ تَحْتاجُ إِلى النِّفاقِ والرِّياءِ والكَذِبِ. وعلى زَوْجِها المَمْجوجِ الآنَ أَنْ يَتَدَبَّرَ أَمْرَهُ بما يَراهُ، عَلَيهِ أَنْ يَفْعَلَ اللّازِمَ، ولن تُباليَ هِيَ بما يَفْعَلُ، ولن تُراعَ ممّا يَقومُ بِهِ.

(١) تَأَجَّمَ غَيْظُها: اشْتَدَّ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - للكشفِ عن نفسيّاتِ أشخاصِ القصّةِ أساليبُ مختلفةٌ. فأَيَّ أسلوبٍ اتَّبعَ تولستوي في تصويرِ نفسيَّةِ أَلِكْسيس كارنين؟

٣ - صِراعٌ نَفْسيٌّ مريرٌ عاناهُ كارنين، فبأَيِّ أساليبِ القَصِّ صَوَّرَ الكاتِبُ هذا الصِّراعَ؟

٤ - هَل بَدا لكَ الرَّجلُ ذا إرادةٍ قويَّةٍ؟ وهل تَراهُ يُريدُ نَشْرَ الفضيحةِ وتعميمَها؟ ولماذا؟

٥ - هَل كانَ ما أَرادَهُ كارنين مِن اسْتِبْقاء أَنّا في كَنَفِهِ إجْراءً مقبولًا؟ ولماذا؟

٦ - ما الحَلُّ الَّذي تَراهُ أَنتَ مُمْكِنًا وأَسْلَمَ مِن سِواه؟ عَلِّلْ إجابتَكَ.

٧ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثّاني

على أَنَّها ما كادَتْ تَهْجَعُ في تِلكَ اللَّيْلَةِ وتَسْتَيْقِظُ صَباحًا حتّى خُيِّلَ إليها أَنَّها حَلَّقَتْ في أعالي الجَوِّ لِتَسْقُطَ مَرَّةً واحِدَةً وتَتَحطَّمَ، وأَنَّ المَنْطِقَ كانَ يُوجِبُ عَلَيها أَنْ تَلْتَزِمَ جانِبَ الرَّيْثِ، وتَتَعَلَّقَ بِحَبْلِ الحَذَرِ والرَّوِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَرْمِيَ بنَفْسِها في التَهْلُكَةِ، وقَبْلَ أَنْ تَتَرَدّى في جَرْفٍ سَحيقٍ لا قَرارَ لهُ.

فمِن أَيْنَ لها هٰذِهِ الجُرأَةُ؟ وكيفَ اسْتَطاعَتْ أَنْ تُواجِهَ زَوجَها باعْتِرافِها؟

ومَهْما يَكُنْ فقد فاتَ زَمَنُ النَّدامةِ والتَّحَسُّرِ على شَيءٍ حَصَلَ. وزَوْجُها الآنَ يَعْلَمُ مِنَ الأَمْرِ ما تَعْلَمُ، وسيَفْعَلُ شَيْئًا، فلتَنْتَظِرْ ما يَفْعَلُ!

فهل تُرى يُغْني عَنْها اعْتِرافُها؟ وهل كانَ مِنَ الحِكْمةِ أَنْ تُفْصِحَ قَبْلَ أَنْ تُعِدَّ العُدَّةَ لأَسْوَإِ النَّتائجِ؟

إِنَّ زَوجَها حَويلٌ ذو نُفُوذٍ وصُحْبَةٍ، وهْوَ لَن يَقِفَ مَكْتوفَ اليَدَينِ. فهَل فَكَّرَتْ قَبْلَ الإِقْدامِ في ما يَجْري؟ هَل فَكَّرَتْ في حالِها حينَ يَقَعُ البَلاءُ وتَذيعُ قِصَّةُ الخِيانةِ، ويَعْرِفُها المَلأُ؟ إِنَّها الآنَ تَنْتَظِرُ الضَّربةَ، وقَد تكونُ ساحِقةً، وقَد لا تكونُ. وظَلَّتْ أَنّا تَنْتَظِرُ وهْيَ مُنْقَصِمَةُ الظَّهْرِ حَزينةُ النَّفْسِ.

والعَجيبُ في الأَمْرِ أَنَّ ما ظَنَّتْهُ واضِحًا بَعْدَ اعتِرافِها باتَ غامِضًا تَكْتَنِفُهُ ظُلُماتٌ حالِكةٌ، كنَفْسِها، وكإِحْساسِها، وكمَشاعِرِها.

وتَناهَتْ في الهَجْسِ والتَّوَجُّسِ، وصَوَّرَ لَها الوَهْمُ أَنَّ فرونسكي يَلْهو بها، وأَنَّهُ لا يَهْواها، وأَنَّهُ لَن يَلْبَثَ أَنْ يَتَنكَّرَ لَها مَتى لَفَظَها زَوْجُها. فأَيْنَ تَذْهَبُ؟ وإلى مَنْ تَلْجَأُ؟

ودارَ في خَلْدِها وهْيَ تَتَلَوّى مِن أَلَمِ الرُّوحِ والقَلْبِ، أَنَّ حُسْنَ الكَلامِ لا يَتِمُّ كَما قيلَ إِلَّا بحُسْنِ العَمَلِ، فأَيْنَ مِنها حُسْنُ العَمَلِ حتّى تُحْسِنَ الكَلامَ؟ أَلَيْسَ هٰذا ما طَوَّحَ بها؟ أَلَيْسَ

هٰذا ما جَعَلَها تَرْتَكِبُ الخُرْقَ[1]، فتبوحُ بسِرِّها قَبْلَ تأَكُّدِها مِنْ دَوائِها؟

إِنَّها لم تَسْتَعْمِلِ الرَّأْيَ، فلْتَذُقْ عَلْقَمَ سُخْفِها، ولْتَنْتَظِرْ قَرارَ زَوجِها، ولْيكُنْ ما يَكونُ!

وتَراءى لها ثانيةً أَنَّ فرونسكي مُنْصَرِفٌ عنها، وأَنَّ ما أَظْهَرَهُ كانَ خِلافَ ما شَعَرَ بهِ؛ وتَساءَلَتْ عَمّا يَخْلُقُ بها أَنْ تَفْعَلَ. أَتَترامى عَلَيهِ أم تَجْفوهُ؟ ولٰكِنْ، كيفَ تَبْتَعِدُ وتَنْأَى وهْيَ الآن مَوْسومَةٌ بمَيسَمِ الخِزْيِ، يَأْباها زَوْجُها، ويَقْلوها[2] غيرُ زَوجِها مِنْ مُدَّعِي الشَّرَفِ؟

لَقد قالَتْ لِزَوْجِها كَلامًا كَثيرًا، فهل سَمِعَ الكَلامَ أُناسٌ آخرونَ؟ رُبَّما سَمِعوهُ، ورُبَّما وَعَوْهُ وتَفَهَّموهُ.

وعادَتْ إِلى النَّدامَةِ، فقَرَّعَتْ نَفْسَها وعَذَلَتْها[3] على كَثرةِ كَلامِها. ثُمَّ وَلَجَتْ عَلَيْها الغُرفةَ خادِمَتُها وهْيَ تَحْمِلُ إِلَيها شَرابًا ساخِنًا، فصاحَتْ في وَجْهِها، ثُمَّ طَلَبَتْ إِلَيها أَنْ تَرْجِعَ مِنْ حَيثُ أَتَتْ. غَيْرَ أَنَّ المَرْأَةَ تَجاهَلَتِ الأَمْرَ وقالَتْ بهُدوءٍ: «يا سَيِّدتي... إِنَّ ابنَكِ سيرج يَنْتَظِرُكِ، فهْوَ كالعادَةِ يَرْغَبُ في التَّحَدُّثِ إِلَيْكِ».

وتَلا ذٰلِكَ صَوْتُ الغُلامِ وهْوَ يُنادي أُمَّهُ، وقد شابَتْ صَوْتَهُ رَنَّةُ أَلَمٍ».

فتَوَلّى أَنّا الخَوْفُ، واصْفَرَّ وَجْهُها، وتَساءَلَتْ: «ما الخَطْبُ؟ ما الخَطْبُ؟»

فأَجابَتِ الخادِمَةُ: «لَعَلَّهُ يَكونُ قَد تَعَثَّرَ فسَقَطَ، أو لَعَلَّ شَيْئًا أَغْضَبَهُ وأَثارَ أَلَمَهُ».

فنَهَضَتْ أَنّا وهُرِعَتْ إِلى ابْنِها مُتَلَهِّفَةً مُضْطَرِبَةً، ولمّا اطْمَأَنَّتْ إِلى سَلامتِهِ خاطَبَتْهُ بلَهْجَةٍ مُؤَنِّبَةٍ، فقالَتْ: «أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ المُخاطَرَةِ في اللَّعِبِ؟ أَلا تَسْمَعُ نَصائِحي يا سيرجُ؟»

فقالَ وهْوَ يُطْرِقُ حَياءً: «سَمْعًا وطاعةً يا أُمّاه، لَن أَرْجِعَ إِلى الخُشونةِ كَرّةً أُخرى!»

فعانَقَتْهُ وقَبَّلَتْهُ، وانْبَسَطَتْ أَساريرُ الغُلامِ بَعْدَ انْقِباضِها، فلَصِقَ بها وهْوَ يَبْتَسِمُ ويَقولُ مُتَسائِلًا: «أَتُحِبِّينَني كُلَّ الحُبِّ يا أُمّاهْ؟»

قالَتْ: «وهَل تَشُكُّ في حُبّي؟»

وناجَتْ نَفْسَها: يا إِلٰهي! أَلا أُحِبُّهُ؟ أَلا أَفْتَديهِ؟ أَلا أُقَدِّمُ إِليهِ حَياتي؟»

---

(١) الخُرْقُ: الحَماقَةُ.

(٢) يَقْلوها: يُبْغِضُها.

(٣) عَذَلَتْها: لامَتْها.

واغْرَوْرَقَتْ عَيْناها بالدُّموعِ، فبادَرَتْ إلى الرُّجوعِ وهْيَ تُتَمْتِمُ والِهةً مَلْهوفةً: «أَجَلْ! إنّي أُحِبُّهُ، أُحِبُّهُ...».

* * *

كانَ ظُهورُ ابْنِها أَشْبَهَ بالنَّسْمةِ المُنْعِشَةِ، تَهُبُّ على القَلْبِ المَهيضِ فتَنْفُخُ الحَياةَ في مَواتِهِ، وتُبْدِلُ بأَلَمِهِ أَمَلًا، وتُعْطيهِ القُوَّةَ والجَلَدَ والاِحْتِمالَ.

وجَعَلَتْ تَتَذَكَّرُ. رَجَعَتْ بمُخَيِّلَتِها إلى الوَراءِ، طَفِقَتْ تَسْتَعيدُ حَوادِثَ الماضي. لَقَد انْجَبَتْ سيرجَ وغَذَّتْهُ بلَبَنِها، وسَقَتْهُ ماءَ حَنانِها، وآثَرَتْ سَعادتَهُ على سَعادَتِها. كانَ يَمْرَضُ أَحْيانًا، فتَخْثُرُ[1] نَفْسُها! وكانَ يَئِنُّ، فيُظْلِمُ الكَوْنُ في ناظِرَيْها! إنَّها شَكَّتْ مُنْذُ قَليلٍ في نَفْسِها وروحِها؛ ولٰكِنَّ رُوعَها أَفْرَخَ[2] الآنَ، بَدَّدَهُ شُعورٌ بالثِّقَةِ والإِيمانِ. فرونسكي... وزَوْجُها... إنَّهُما في كِفَّةٍ، أَمّا ابْنُها فهْوَ يَحْتَلُّ الكِفَّةَ الرّاجِحَةَ. فلْيَبْقَ مُسْتَحْوِذًا على حَبَّةِ الفُؤادِ، ولْيَبْقَ في مَعْزِلٍ عَنِ العاطِفَةِ الَّتي تَمَخَّضَ عنها رِجْسُ الحَياةِ.

وأَوْلى بها أَنْ تَذْهَبَ، أَوْلى بها أَنْ تَصْطَحِبَ ابْنَها إلى بُقْعَةٍ نائِيَةٍ مِنَ الأَرْضِ، لِيَعيشا مَعًا بَعيدًا عَنِ الأَحْزانِ وعَنْ مُسَبِّبي الأَحْزانِ!

وعَقَدَتِ العَزْمَ على مُبارَحَةِ الدِّيارِ، عَزَمَتْ على الرَّحيلِ إلى موسكو. وقامَتْ لِساعَتِها، فانْتَضَتْ[3] مِنَ «الدُّرْجِ» قَلَمًا مَسْنونًا[4] ووَرَقًا أَبْيَضَ، وكَتَبَتْ:

إلى زَوْجي:

«إنّي راحِلَةٌ مَعَ وَلَدي، فأَنا لَنْ أَمْكُثَ مَعَكَ بَعْدَ الَّذي حَدَثَ، فالوَداعَ!

إنَّ القانونَ أَمْرٌ غَريبٌ عَنّي، لا أَعْرِفُهُ ولا أَفْهَمُهُ. وإِنّي، والحالَةُ هٰذِهِ، لَنْ أَبْحَثَ عَمَّنْ مِنَ الوالِدَيْنِ هُوَ الأَحَقُّ بتَرْبيَةِ الابْنِ. إنَّهُ ابْني، تَعْزِيَتي، سَلْوَتي، فلا تَتَجَبَّرْ، ولا تَغْتَنِمِ الفُرْصَةَ لقَهْري وسَلْبي ثَمَرةَ أَحْشائي».

---

(١) تَخْثُرُ: تَجيشُ وتَضْطَرِبُ.
(٢) أَفرَخَ رُوعُها: ذَهَبَ خَوفُها.
(٣) انْتَضَتْ: اسْتَلَّتْ.
(٤) قَلَمًا مَسْنونًا: قَلَمًا مَبْرِيًّا.

وبَينا هِيَ تُعيدُ تِلاوةَ ما كَتَبَتْ، دَخَلَتِ الوَصيفَةُ، فمَزَّقَتِ الرِّسالةَ شَذَرَ مَذَرَ[1]. وناوَلَتْها المَرْأَةُ «مَظْروفًا»، ففَضَّتْهُ مُتَوَتِّرَةَ الأَعْصابِ، فإذا الخَطُّ خَطُّ زَوجِها، وإذا الإِمْضاءُ إِمْضاؤُهُ.

وقَرَأَتْ ما جاءَ فيها واصْفَرَّ لَوْنُها حتّى حاكى وَجْهُها وَجْهَ مَيْتَةٍ مَسْلوبَةِ الحَياةِ...

إِنَّهُ اللُّؤْمُ المُتَجَسِّمُ، إِنَّهُ يُطالِبُها بالرُّجوعِ إِلى بطرسبرج قَبْلَ يَوْمِ الثُّلاثاءِ المُقْبِلِ، وهْوَ يُلَوِّحُ لها مُهَدِّدًا، كأَنَّهُ يُنْذِرُها بكُلِّ شَرٍّ إِنْ تَمَرَّدَتْ وعَصَتْ ولم تَرْجِعْ.

ها هِيَ المَصائِبُ تَتْرى. ها هِيَ النَّوازِلُ تَجْتاحُ حَياتَها. ها هِيَ الآلامُ تَمْلَأُ صَدْرَها.

هٰذِهِ المَشاعِرُ المُتَضارِبةُ...! تَرَدَّدَتْ ثُمَّ اعْتَرَفَتْ. ولمّا اعْتَرَفَتْ نَدِمَتْ وحَزِنَتْ، وقالَتْ لنَفْسِها إِنَّ العاقِلَ لا يَعْمَلُ عَمَلَها. ولمّا جاءَ الآنَ زَوجُها يَهَبُها الصَّفْحَ والغُفْرانَ، ويَعْرِضُ عليها الاِسْتِمرارَ في العَيشِ مَعَهُ، أَظْلَمَتِ المَسْكونَةُ في عَينَيها، وتَراءى لَها أَنَّ سَعادَتَها وَلَّتْ، وأَنَّ عَيْشَها قد ذَوَتْ نُضْرَتُهُ، وكأَنَّهُ كانَ يَسْلُبُها كُلَّ شَيءٍ، ولا يَمْنَحُها الأَمانَ والاِطْمِئْنانَ!

فماذا دَهاها حتّى أَصابَها مِنْ لينِهِ كُلُّ سُوءٍ؟ وجَعَلَتْ تَقولُ وهْيَ مُحتَدِمةٌ هائجةٌ: «ما أَقْساهُ! عَجَبًا! كُلُّهُمْ، كُلُّ إِنْسانٍ يُضْفي عَلَيه مِنْ آياتِ المَديحِ ما يَضَعُهُ في مَصافِّ الإِنْسانِ الكامِلِ. كُلُّهُمْ يُبَجِّلونَهُ، ويُعَظِّمُونَهُ، ويَصِفونَهُ بالرَّجُلِ العادِلِ الَّذي يَرْعى الحَقَّ، إِلَّا أَنا! أَنا! ومَنْ يَعْرِفُهُ أَكْثَرَ مِنِّي؟ لَقَد عاشَرْتُهُ زَمَنًا، وخَبِرْتُهُ، وسَبَرْتُ غَوْرَ نفسِهِ. وهَلْ في الدُّنْيا مَنْ هُوَ أَقْسى قَلْبًا مِنْهُ؟ أَلَمْ يُذِلَّ نَفْسي، يَقْهَرْ روحي، ويُمِتْ عاطِفتي؟ ثَماني سِنينَ قَضَيْتُها في كَنَفِهِ هِيَ ولا غَرْوَ ثَمانيةُ قُرونٍ، لم يَشْعُرْ هٰذا الرَّجُلُ الصَّلِفُ المَغْرورُ طَوالَها أَنّي امْرَأَةٌ رَقيقَةٌ تَطْمَحُ ببَصَرِها إِلى الحُبِّ!»

وتَمَلْمَلَتْ، وهَزَّتْ رَأْسَها، ثُمَّ تابَعَتْ مُناجاتَها: «ومَعَ ذٰلِكَ صَبَرْتُ وصابَرْتُ، وشَغَلْتُ نَفْسي بأُمورِ العائِلَةِ، وعلَّلْتُها بالفَرَجِ بَعْدَ الضِّيقِ؛ وبَذَلْتُ وُسْعي لِكَي أُحِبَّهُ، فلم أُوَفَّقْ، وأَسْبَغْتُ على وَلَدي أَعْظَمَ الحُبِّ، وكَلَأْتُهُ بكُلِّ عِنايةٍ وحَدْبٍ، عَسى أَنْ يَكونَ لي في ذٰلِكَ عِوَضٌ مِن هَوَى الرَّجُلِ، فهَل وُفِّقْتُ؟ هَلِ اكْتَفَيْتُ؟ وها أَنَذا أَخْضَعُ للعاطِفَةِ المَشْبوبَةِ، وها أَنَذا أَلينُ.

---

(١) شَذَرَ مَذَرَ: نُتَفًا.

ويَأْتي هُوَ الآنَ فيُهَدِّدُني بالوَيْلِ والثُّبورِ، يُهَدِّدُني بالكَريهَةِ إِنْ عَصَيتُ لهُ أَمْرًا، وسِلاحُهُ الماضي الحَدَّينِ هُوَ سيرجُ، فهَلْ يَأْخُذُهُ مِنّي؟ أَيَحْرِمُني أَعَزَّ ما أَمْلِكُ؟

أَفأُجازِفُ بسيرجَ؟ وكَيفَ تَكونُ حَياتي مِنْ دونِهِ؟ أَوَيَكْفيني حَبيبي؟ وما لَذَّةُ العَيْشِ مَعَهُ إِنْ كانَ سَبَبَ الحِرمانِ وأَساسَ الكارِثَةِ؟

إِنَّ أَلِكْسيس يَعْرِضُ عَليَّ الاِسْتِمْرارَ في حَياتي الزَّوْجيَّةِ، وهٰذا جَميلٌ؛ بَيْدَ أَنَّ لهُ مَعْنًى خطيرًا، ومَعْناهُ اختِيارُ الجَحيمِ وإِيثارُ نارِ السَّعيرِ.

أَوَّهْ! لَطالَما عَنَّ لي خاطِرُ الذَّهابِ والاِبْتِعادِ، فلِمَ يَطْلُبُ إِلَيَّ المُسْتَحيلَ؟ لِمَ يُريدُني أَنْ أُداوِمَ حَياةَ النِّفاقِ والرِّياءِ والكَذِبِ؟ إِنَّهُ يَنْتَقِمُ... يَنْتَقِمُ... وهٰذِهِ سَجِيَّتُهُ، وهٰذا طَبْعُهُ!»

وسالَتْ مِنْ مُقْلَتِها دَمْعَةٌ مُحرِقَةٌ، واسْتَطْرَدَتْ: «سُحْقًا لَكَ يا زَوْجي! أَيُّها الكَذوبُ الَّذي يَمْلَأُ قَلْبَكَ الباطِلُ! خَسِئْتَ؛ فأَنا أَرْجَحُ عَقْلًا، ولن أَدَعَكَ تَنْعَمُ بلَذَّةِ انتِقامِكَ!»

واسْتَخْرَطَتْ في بُكاءٍ مُرٍّ، وسَحَّ[1] دَمْعُها مِدْرارًا؛ وظَلَّتْ فَتْرَةً وهْيَ تَنْشِجُ وتَزْفِرُ وتَئِنُّ.

وكانَ شَأْنُها شَأْنَ الإِنْسانِ المَغْلوبِ، المَقْهورِ، المَغْلولِ اليَدَينِ، المَشْلولِ الحَرَكَةِ، الَّذي يَتَمَرَّدُ ولا يَجْهَرُ بتَمَرُّدِهِ، ويَعْصي ولا يُعْلِنُ العِصْيانَ، خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ المُصْلَتِ على عُنُقِهِ!

إِنَّ ابْنَها هُوَ هٰذا السَّيفُ المَسْلولُ، ولا يُمْكِنُها أَنْ تَتَخَلّى عَنْهُ طائِعَةً راضِيَةً... لا يُمْكِنُها أَنْ تَقْبَلَ بفرونسكي وتَفْقِدَ سيرجَ.

ودَخَلتِ الخادِمَةُ للمَرَّةِ الثّانيَةِ، فأَغْضَتْ طَرْفَها حتّى لا تُحْرِجَ سَيِّدَتَها إِنْ نَظَرَتْ، وقالَتْ: «لا يَزالُ مَبْعوثُ سَيِّدي يَنْتَظِرُ الجَوابَ».

فقالَتْ أَنّا وهْيَ تُشيحُ بوَجْهِها: «فلْيَنْتَظِرْ فَيْنَةً أُخْرى، وسأُعْطيهِ الجَوابَ المَنْشودَ».

وغادَرَتْها الخادِمَةُ، وفَكَّرَتْ هي في ما تَكْتُبُ. أَتَكْتُبُ لَعْنَتَها أَم رَجاءَها؟ أَتَكْتُبُ نِقْمَتَها أَم تَوَسُّلَها؟ أَتُخْبِرُهُ بأَنَّ الحَياةَ مَعَهُ شَرٌّ مِنَ المَوْتِ، وأَنَّ الحَياةَ مِن دونِ ابْنِها وَيْلٌ دونَهُ كُلُّ وَيْلٍ؟ ماذا تَكْتُبُ؟ ماذا تَكْتُبُ؟

وأَمْسَكَتْ بالقَلَمِ، وشَخَصَتْ إِلى الأَمامِ جاحِظَةَ العَيْنَيْنِ، وجَمْجَمَتْ: «لِمَ لا أَفْزَعُ إِلَيْهِ،

---

(١) سَحَّ الدَّمْعُ: سالَ.

إلى حَبيبي؟»

وخَطَّتْ أَرْبَعَ كَلِماتٍ: «لَقَد قَرَأْتُ ما كَتَبْتَ!»

* * *

فرونسكي... هٰذا الشَّابُّ النَّبيلُ الثَّرِيُّ الحَسَنُ الصُّورَةِ، كانَ، بالرَّغْمِ مِن شَبابِهِ وجاهِهِ، مَجْبولًا على حُبِّ النِّظام. فهُوَ يُعْنى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ باسْتِبْقاءِ شُؤونِهِ الخاصَّةِ الشَّخْصِيَّةِ في مَعْزِلٍ عن عاطِفَتِهِ ومَلْهاتِهِ.

كانَ يُراجِعُ أُمورَهُ، ولا يَفْتَأُ يُصَحِّحُ ما اعْوَجَّ وما تَدَهْوَرَ، ثُمَّ يُحاوِلُ أَنْ يُقَوِّمَ الاِعْوجاجَ ويَتَلافى الأَخْطاءَ، ليَرْجِعَ، كما كانَ في كُلِّ حينٍ، قَوِيًّا مَنيعًا لا شُبْهَةَ في مَرْكَزِهِ ومَقامِهِ.

فلَمّا حانَ يَوْمُ السِّباقِ نَهَضَ مِنْ نَوْمِهِ مُبَكِّرًا، وغادَرَ فِراشَهُ، فاغْتَسَلَ ولَبِسَ، ثُمَّ عَمَدَ إلى أَوْراقِهِ ووَثائِقِهِ يَنْظُرُ فيها ويَدْرُسُ مُحْتَوياتِها. وقد اكْتَشَفَ أَنَّ عليهِ مالًا للنَّاسِ كَثيرًا؛ لٰكِنَّهُ لم يُرَعْ، فمَوْرِدُهُ غَزيرٌ، وثَرْوَتُهُ لا تُؤَثِّرُ فيها هٰذِهِ الدُّيونُ التَّافِهَةُ.

ونَظَرَ في كُلِّ احْتِمالٍ، وأَيْقَنَ أَنَّ في السِّباقِ خَطَرًا على الحَياةِ، فكَتَبَ باسْمِ أَخيهِ جُلَّ إيرادِهِ السَّنَوِيِّ لِيَسْتَوْلِيَ عليهِ في حالِ مَوْتِهِ. وكانَ، في الحَقيقَةِ، قَد وَهَبَهُ هٰذا المَبْلَغَ الطَّائِلَ مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلةٍ لِما انْتابَ حالَةَ هٰذا الأَخِ مِنِ اضْطِرابٍ وتَزَعْزُعٍ مالِيٍّ بَعْدَ اقْتِرانِهِ. وشَرَعَ فرونسكي يَسْتَعينُ بأُمِّه بَعْدَ ذٰلِكَ، فتُسْعِفُهُ عن طيبةِ خاطِرٍ. بَيْدَ أَنَّها كَفَّتْ يَدَها لمّا أَيْقَنَتْ مِمّا رَأَتْهُ وسَمِعَتْهُ، وهْوَ أَنَّ عَلاقَةَ ابنِها بأَنّا كارنينا أَخَذَتْ تَسْتَنْزِفُ مالَهُ وقُواهُ، وتَدْفَعُ بِهِ سَريعًا إلى مَهواةٍ سَحيقةٍ.

وأَنِفَ فرونسكي، فجَفا أُمَّهُ وانْقَطَعَ عنها. على أَنَّهُ احْتارَ في أَمْرِهِ، فكَيفَ يُدَبِّرُ المالَ؟ هَل يَسْتَرْجِعُ ما أَعْطى؟ هَل يَفْعَلُ ذٰلِكَ؟ وماذا تَقولُ زَوجُ أَخيهِ إنْ فَعَلَ؟

ولمّا انْتابَهُ هٰذا الفِكْرُ، ورَأى أَنْ لا مَحيصَ مِنَ الوُصولِ إلى قَرارٍ سَريعٍ، هَزَّ رَأْسَهُ وقالَ: «كُلُّ شَريفٍ مِنَ الرِّجالِ يُقَدِّسُ دَيْنَ المَيْسِرِ[1]، ويَدْفَعُهُ ولو باعَ نَفْسَهُ، مَعَ أَنَّهُ في حِلٍّ مِنْ دَفْعِ الدُّيونِ العادِيَّةِ الأُخْرى أو إرْجاءِ دَفْعِها! وكُلُّ شَريفٍ مِنَ الرِّجالِ لا يَكْذِبُ إلَّا على المَرْأَةِ، كُلُّ رَجُلٍ شَريفٍ لا يَخْدَعُ إلَّا زَوْجَ الجَميلَةِ، كُلُّ رَجُلٍ شَريفٍ لا يُغْضي عَنْ إهانَةِ

(١) المَيْسِرُ: القِمارُ.

بَل يَكيلُ الإهانَةَ لِسِواهُ في غَيرِ تَحَرُّجٍ أو تَرَدُّدٍ».

وما لَبِثَ أَنِ انْتَهى إِلى قَرارٍ، فآلى أَنْ يَبيعَ خَيْلَهُ، ويَبيعَ بَعْضَ العَقارِ، ويَدْفَعَ ما عليهِ حتّى لصانِعِ الثِّيابِ.

وعَرَّجَ بفِكْرِهِ على قَلْبِهِ، ومُثِّلَتْ لهُ أَنّا في مُخَيِّلَتِهِ، فخَفَقَ فُؤادُهُ، ولم يَرَ عَجَبًا في عَلاقتِهِ، فهٰذا مَبْدَأُهُ، ويَجِبُ أَنْ لا يُؤَنِّبَهُ ضَميرُهُ؛ إِنَّ المَرْأَةَ الفاتِنَةَ وَهَبَتْهُ مِن نَفْسِها ومِن جَسَدِها ما أَفْعَمَهُ بالوَجْدِ، فلْيَسْتَمِرَّ، ولَن يَحْفِلَ الزَّوْجُ، بَلْ لَن يُبيحَ لهُ التَّدَخُّلَ في ما لا يَعْنيهِ!

غَيْرَ أَنَّها حامِلٌ، والجَنينُ الَّذي يَتَحَرَّك في أَحْشائِها هُوَ ثَمَرَةُ حُبِّهِما المُتَبادَلِ، وما على أَنّا الآنَ سِوى الِانْفِصالِ، لتَنْفَصِلَ عن زَوجِها ولْتَبْقَ لهُ هُوَ.

وعادَ فخَطَّأَ الرَّأْيَ، وأَلْفى في نَصيحَتِهِ كُلَّ خَرَقٍ، وقالَ يُناجي نَفْسَهُ: «مَتى عَمِلَتْ بنَصيحتي وَجَبَ عَلَيَّ أَنْ أُجارِيَها، فأَهْجُرَ فِرْقَتي، وأَنْضَمَّ إِلَيها، وأَذْهَبَ بَعيدًا، ورُبَّما أُغادِرُ روسيا».

ولم يَطْرَحِ الفِكْرَ جانِبًا، أو يَصِلْ إِلى رَأْيٍ حَسَنٍ يَرْتاحُ إِليهِ، وبَقِيَ يَتَقَلَّبُ بينَ الشَّكِّ واليَقينِ، يَجْذِبُهُ الحُبُّ ويَكْبَحُ جِماحَهُ الواجِبُ، حتّى جاءَهُ رَسولٌ مِنْ لَدُنِ الأَميرةِ بَتْسي يُنْبِئُهُ بأَنَّ أَنّا كارنينا تَرْغَبُ في الِاجْتِماعِ إِليهِ في مَنْزِلِها، أَي في مَنْزِلِ الأَميرَةِ بَتْسي!

فرَدَّهُ مِن حَيْثُ جاءَ على أَنْ يَتْبَعَهُ بَعْدَ حينٍ.

واعْتَمَلَتِ الكآبَةُ في صَدْرِهِ، وشَعَرَ بالأَسى، شَعَرَ شُعورَ مَنْ يَرْتَكِبُ إِثْمًا، ويُغَرِّرُ بإِنْسانٍ. لٰكِنَّهُ دَهِشَ أَيَّما دَهَشٍ لِتَناقُضِهِ وتَضارُبِ نَزَعاتِهِ، وهَزَّ رَأْسَهُ مَغيظًا، ثُمَّ نَهَضَ لِساعتِهِ وقَصَدَ بَيْتَ الأَميرةِ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.
٢ - أَنّا الآنَ في قلقٍ عاصفٍ. فهَل تَرى قَلقَها هذا مشروعًا؟ ولماذا؟
٣ - في هذا الفصلِ، باتَ المُسْتَقْبَلُ الغامضُ كابوسَ أنا. فهَل هي مُحِقَّةٌ في ذلك؟ ولماذا باتَ المُسْتَقْبَلُ هاجِسَها؟
٤ - نَدِمَتْ أَنّا على ما باحَتْ به إلى زَوْجِها؟ فهَل يَنْفَعُها النَّدَمُ؟ ولِمَ النَّدَمُ إذًا؟
٥ - سأَلَ سيرج أُمَّهُ: «أَتُحِبِّينَني كلَّ الحبِّ يا أُمّاهُ؟». أَتَرى لهذا السُّؤالِ خلفيَّةً ما؟ وما دافِعُه إلى هذا التّساؤلِ؟
٦ - الزَّوْجُ والعَشيقُ في كِفَّة والابنُ في أُخْرى. فأَيُّ الكِفَّتَيْنِ أَرْجَحُ؟ ولماذا؟
٧ - خَرَجتْ أَنّا عن الصِّراطِ، لكنَّها بَقِيَتْ أُمًّا. هَل تَرى أَنَّ الأُمومةَ الَّتي تُحِسُّها في أَعماقِها تشفَعُ لها في نَفْسِ القارئِ؟ عَلِّلْ إجابَتَكَ.
٨ - كَتَبَ كارنينُ إلى زوجتِهِ، وهذه شَرَعَتْ تكتبُ له. فماذا أَرادَ كلٌّ مِنْهُما أَنْ يقولَ للآخرِ؟ وأَيُّهما كانَ أَكْثَرَ عقلانيَّةً في ما كَتَبَ؟
٩ - جاءَ على لِسانِ فرونسكي، وفي حديثٍ له معَ نَفْسِهِ، تحديدٌ لبعضِ خصالِ الأَشرافِ. فما رأْيُكَ في هذه الخصالِ؟ وهَل هيَ حَقًّا خصالٌ شريفةٌ؟ عَلِّلْ إجابَتَكَ.
١٠ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثّالث

لَمْ تَهْدَأْ هَواجِسُ فرونسكي، وطَفِقَ يَتساءَلُ طولَ الطَّريقِ عن سَبَبِ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ المُسْتَعْجِلَةِ، وعَنِ السَّبَبِ الَّذي جَعَلَ أَنّا تَطْلُبُ إِلَيهِ مُوافاتَها إِلى بَيْتِ الأَميرَةِ صَديقَتِها. وسَأَلَ نَفْسَهُ، وهُوَ لا يَجِدُ لسُؤالِهِ جَوابًا: تُرى، أَحَدَثَ ما عَصَفَ بطُمَأْنينَةِ حَبيبَتِهِ وأَمْنِها ودَعَتِها؟

ودَلَفَ مِن بابِ الحَديقَةِ، وأَنْبَأَهُ حِسُّهُ أَنَّ أَنّا تَجْلِسُ في مَكانٍ ما تَحْتَ الشَّجَرِ، فمَشى في المَمَرِّ الضَّيِّقِ، وما لَبِثَ أَنِ اهْتَدى إِلَيها فدَنا مِنْها وحَيَّاها وصافَحَها.

وضَغَطَتْ هِيَ على يَدِهِ، وارْتَعَشَتْ أَصابِعُها. ورَنَتْ إِلَيهِ بطَرْفٍ فاتِنٍ مُنْفَعِلٍ، وأَنْشَأَتْ تَقولُ: «أَخْبِرْني، هل أَقْلَقْتُكَ؟ هل أَغْضَبْتُكَ؟»

فرَمَقَها بلَحْظٍ مُتَأَمِّلٍ، ولَهِفَتْ نَفْسُهُ، فهْيَ مُوَزَّعَةُ البالِ، شارِدَةُ اللُّبِّ، قَلِقَةٌ، فَزِعَةٌ. وأَجابَ بَعْدَ قليلٍ: «لَيْسَ بي غَضَبٌ مِنْكِ، بَل أَنا مُضْطَرِبٌ لأَجْلِكِ، خائِفٌ عَلَيكِ، فأَنْتِ يا أَنّا أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسي».

ونَسِيَتْ هَمَّها، نَسِيَتْ شَجَنَها، ووَدَّتْ لَو أَهْلَكَتْ نَفْسَها مِنْ أَجْلِهِ، فهْيَ تُحِبُّهُ كالعِبادَةِ.

وما لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ بصَوتٍ خَفيضٍ: «لَقَد نَكَأْتُ الجُرْحَ، وكاشَفْتُ أَلِكْسيس بجَلِيَّةِ الأَمْرِ، فكُنْتُ صَريحةً مَعَهُ، ولَو كُنْتُ كما أَظُنُّ، عَدُوَّةً لنَفْسي».

وكانَ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ كَلِماتِها الأَخيرةَ قد رَكَنَ إِلى الفِكْرِ، واسْتَرْسَلَ في تَقْليبِ الرَّأْيِ. كانَ يُفَكِّرُ في الوَسيلَةِ الَّتي يُبْعِدُ بها السُّوءَ عن حَبيبَتِهِ، فلَمّا وَعى ما تَقولُ حَدَجَها بنَظْرَةٍ حادَّةٍ، ثُمَّ أَجابَ: «لَقَد أَصَبْتِ في ما فَعَلْتِ، ولا شَكَّ أَنَّ الصَّراحَةَ مَطْلوبَةٌ في حالَتِنا، فلْيَعْلَمِ الحَقيقَةَ، ولٰكِنْ حَذِرَينِ مُتَرَبِّصَيْنِ مِنْ دونِ حِقْدٍ أو ضِغْنٍ».

وتَأَمَّلَتْ أَساريرَ وَجْهِهِ، وحاوَلَتْ أَنْ تَسْتَشِفَّ حَقيقَةَ مَشاعِرِهِ.

إِلَّا أَنَّهُ عَنى في ما قالَ أَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لمُواجَهَةِ أَسْوَأِ النَّتائِجِ حتّى القِتالِ، فهْوَ لَن يَتَرَدَّدَ عن مُبارَزَةِ الزَّوْجِ المَثْلومِ العِرْضِ.

ومَعَ أَنَّها أَيْقَنَتْ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَتْ كَلِمةَ زَوجِها، أَنْ لا مَنْدوحَةَ لَها عَنِ النُّزولِ عِنْدَ إِرادَتِهِ، لَبِثَتْ، مَعَ ذٰلِكَ، تَرْجو أَنْ تَتَغَيَّرَ الحالُ، ويَنْقَلِبَ الميزانُ عَقِبَ اجْتِماعِها بفرونسكي.

كانَتْ تَتَوَقَّعُ أَنْ يَشُدَّ فرونسكي أَزْرَها، وأَنْ يَقولَ مِن دونِ تَرَدُّدٍ: «هَلُمّي... هَلُمّي... اهْجُريهِ! دَعيهِ! وتَعالَيْ مَعي!»

ولٰكِنَّهُ لم يَقُلْ هٰذِهِ الكَلِماتِ، فشَعَرَتْ آنَذاكَ بتَقَوُّضِ الرَّجاءِ وضَيعَةِ الآمالِ.

وهاجَ كامِنُ حُزْنِها، فأَخْرَجَتْ وَرَقَةَ زَوجِها، وقالَتْ وهْيَ تُقَدِّمُها لَهُ: «اقْرَأْ... اقْرَأْ ما يُريدُ مِنّي هٰذا الرَّجُلُ!»

فأَخَذَ الوَرَقَةَ، إِلَّا أَنَّهُ لم يَقْرَأْها، بَل نَظَرَ الَيها مُشَجِّعًا وقالَ: «كِلي الأَمْرَ لي، فأَنا لا يَعْنيني في الدُّنْيا إِلَّا سَعادَتُكِ، ولا يُرضيني إِلَّا راحَتُكِ، فثِقي بما أَقولُ».

قالَتْ: «أَنا لا أَشُكُّ في صِدْقِ طَوِيَّتِكَ، فأَرْجو أَنْ تَقْرَأَ الرِّسالَةَ».

فلَبّى الشّابُّ رَجاءَها وقَرَأَ الرُّقْعَةَ، أو تَظاهَرَ بأَنَّهُ قَرَأَها، إِلَّا أَنَّهُ في الحَقيقةِ كانَ مُتَّجِهًا بفِكْرِهِ إِلى القِتالِ الَّذي أَيْقَنَ أَنَّ الزَّوْجَ سَيَدْعوهُ إِلَيهِ. كما كانَ يُفَكِّرُ في ما يَعْقُبُ ذٰلِكَ مِن فَضيحَةٍ لثَلاثَتِهِمْ: للزَّوْجِ، ولأَنّا، ولَهُ هُوَ.

ولمّا سَأَلَتْه عَنْ رَأْيِهِ، ونَعَتْ على زَوجِها تَشَبُّثَهُ وحُمْقَهُ أَجابَ: «أَجَلْ... أَجَلْ... إِنَّهُ كذٰلِكَ، على أَنَّ الأُمورَ يَجِبُ أَنْ تَجرِيَ في مَجراها، والنَّتيجةُ الطَّبيعيَّةُ لا بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ في حينِها».

- «إِذًا؟»

- «لا يُمْكِنُ أَنْ تَدومَ الحالُ على ما هِيَ عَليهِ».

- «وماذا تَعْني؟»

- «ذَريني أُفَكِّرْ، فالفِكْرُ قَمينٌ بإِضْفاءِ النُّورِ على الظُّلْمةِ، وسنَتَحَدَّثُ مَلِيًّا في الغَداةِ».

فقاطَعَتْهُ مُنْفَعِلةً مُحْتَدِمةً: «وماذا تُراكَ تَقولُ؟ أَلا تَرى أَنَّهُ يُهَدِّدُني بحِرماني مِنْ سيرجَ ابْني؟»

فقالَ وهْوَ لا يُحَوِّلُ ناظِرَيْهِ عن وَجْهِها: «إنَّكِ مُخَيَّرَةٌ بَيْنَ أَمْرَينِ لا ثالِثَ لَهُما: إمّا أَنْ تَتَخَلَّيْ عَنْ وَلَدِكِ، وإمّا أَنْ تَسْتَمْرئي هٰذا المَرْعى المُذِلَّ».

- «أَتَذْكُرُ المَذَلَّةَ؟ ماذا تَقْصِدُ؟»

- «أَقْصِدُ المَوْقِفَ المُلَطَّخَ لِكِلَينا، ولِزَوْجِكِ أَيْضًا ولِوَلَدِكِ».

فصاحَتْ مُتَأَوِّهَةً: «أَنْتَ آخِرُ مَنْ تَوَقَّعْتُ أَنْ يَتَفَوَّهَ بهٰذِهِ الكَلِماتِ... أَنْتَ آخِرُ رَجُلٍ انْتَظَرْتُ أَنْ يُدْمِيَ قَلْبي، ويُضيفَ جِراحًا إلى جِراحاتي. إنَّني مُذْ وَقَعْتُ في حُبِّكَ لم أَعُدْ أُقيمُ وَزْنًا لِلْعُرْفِ والتَّقليدِ؛ لَقَد تَبَدَّلَ الأَمْرُ وأَصْبَحْتُ لا أَحْيا إلَّا على ذِكْرِكَ، ولَسْتُ أَقْوى على مُتابَعةِ الحَياةِ إلَّا إذا تَنَسَّمْتُ أَرَجَكَ!»

- «على رِسْلِكِ يا أَنّا، فإنَّ حُبّي لَكِ هُوَ الآخَرُ واسِعٌ كاتِّساعِ الوُجودِ، وأَصْدُقُكِ القَوْلَ إنِّي أَشْعُرُ بالزَّهْوِ كُلَّما فَكَّرْتُ فيكِ، فلا تُسيئي فَهْمَ ما أَقْصِدُ».

- «وثِقْ، بالزَّهْوِ يا فرونسكي، أَنِّي لا أَسْتَشْعِرُ النَّدامةَ، فأَنا...».

ونَظَرَتْ في ما حَوْلَها، وهَمَتْ مَدامِعُها. ولَهِفَتْ نَفْسُ الشَّابِّ، وتَوَلَّاهُ أَسًى شَديدٌ، ووَدَّ لو بَكى، وَدَّ لو جَمَعَ الدُّنيا بيَدَيْهِ وقَدَّمَها لَها عُرْبونًا على إخْلاصِهِ ومَحَبَّتِهِ. لٰكِنَّهُ تَجَلَّدَ، فقَدْ يَكونُ مُخْطِئًا، قَد لا يَكونُ في قَلْبِهِ حُبٌّ وهَوًى، بَل عاطِفَةٌ، عاطِفَةٌ جَيَّاشةٌ طارِئَةٌ فحَسْبُ».

وتَرَدَّدَ قَبْلَ أَنْ يَقولَ: «أَما مِنْ خَلاصٍ؟ أَما مِنْ سَبيلٍ إلى الطَّلاقِ؟»

ولم تُجِبْ، وظَلَّ هُوَ يُحَدِّقُ إلى تَقاطيعِها الجَميلَةِ.

واسْتَتْلى بَعْدَ فَينَةٍ: «وإذا اسْتَحالَ الطَّلاقُ، فهَلْ يَسْتَحيلُ الهِجْرانُ؟ خُذي ابنَكِ واتْرُكي زَوجَكِ، وسأَتَدَبَّرُ ما يَتْلو ذٰلِكَ».

قالَتْ: «رُبَّما فَعَلْتُ ذٰلِكَ، ورُبَّما فَعَلْتُ غَيرَهُ، وسأُقابِلُهُ يَوْمَ الثُّلاثاءِ، ولَنْ أَرْجِعَ قَبْلَ أَنْ أَبُتَّ المَسْأَلَةَ».

قالَ: «نِعِمَّا الرَّأْيُ رَأْيُكِ، فَلْنَنْتَظِرْ ولْنَكُنْ مِنَ الصَّابِرينَ».

وذَهَبَ فرونسكي في سَبيلِهِ. وجاءَ يَوْمُ الثُّلاثاءِ فغادَرَتْ مَصيفَها مُتَوَجِّهةً إلى بَيْتِها في بطرسبرج.

* * *

وصَلَتْ أَنّا إِلى المَنْزِلِ، وتَرَجَّلَتْ مِنْ عَرَبَتِها، وهَمَّتْ بِالدَّرَجِ فصَعِدَتْهُ مُتَّئِدَةً مُفَكِّرةً. وسَأَلَتْ عَن زَوْجِها، فلم يُجِبْها أَحَدٌ بما يَشْفي الغَليلَ. وتَوَغَّرَ صَدْرُها غَضَبًا، فعَنُفَتْ في السُّؤالِ، فأُخْبِرَتْ أَنَّهُ في خَلْوَةٍ مَعَ مُساعِدِهِ.

وانْتَظَرَتْ أَنّا، حتّى إِذا عِيلَ صَبْرُها، أَمَرَتْ أَحَدَ الخَدَمِ بِأَنْ يُنْبِئَ سَيِّدَهُ بمَقْدَمِها. ورَجَعَ الخادِمُ ولم يَأْتِ كارنينُ.

وتَوَجَّهَتْ هِيَ إِلى قاعةٍ قَريبةٍ مِنْ مَكْتَبِهِ، وجَعَلَتْ تُحَدِّثُ خادِمةً وتَرْفَعُ صَوتَها مُتَعَمِّدَةً؛ ولٰكِنَّها أَخْفَقَتْ في تَنْبيهِ زَوجِها إِلى وجُودِها وإِلى نَفادِ صَبْرِها.

ولمّا ذَهَبَ المُساعِدُ دَلَفَتْ إِلى غُرفةِ المَكْتَبِ، فأَلْفَتْ زَوجَها مُكِبًّا على أَوْراقِهِ، وقَدِ ارْتَدى ملابِسَهُ الرَّسْمِيَّةَ.

ورَفَعَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ ورآها، وتَحَرَّكَ في مَكانِهِ، لٰكِنَّهُ لَم يَنْتَصِبْ واقِفًا، بَل شَخَصَ إِلَيها مُصْفَرَّ اللَّوْنِ مُنْقَبِضَ الجَبينِ مُتَوَتِّرًا مُنْفَعِلًا.

ولم يَلْبَثْ بَعْدَ قَليلٍ أَنْ وَقَفَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْها فصافَحَها بحَرَكَةٍ مُتَكَلَّفَةٍ، وحَنى لها رَأْسَهُ بابْتِسامةٍ مُغْتَصَبَةٍ، وقالَ بصَوْتٍ فاتِرٍ: «لَقَد جِئْتِ الآنَ كما أَرى، وهٰذا يَسُرُّني ويَجْعَلُني أُرَحِّبُ بمَقْدَمِكِ».

وتَهالَكَتْ على أَريكَةٍ وَثيرَةٍ، وقَعَدَ هُوَ قَريبًا مِنْها. ولمّا حاوَلَ الكَلامَ أَعْياهُ القَوْلُ، وأُرْتِجَ عليهِ البَيانُ.

وكانَتْ أَنّا قَد أَعَدَّتِ العُدَّةَ لكُلِّ احْتِمالٍ، واسْتَعَدَّتْ لمُقابَلَةِ العُنْفِ بالعُنْفِ، والتَّهَجُّمِ بالتَّهَجُّمِ، إِلَّا أَنَّها ما كادَتْ تُبْصِرُ بوَجْهِهِ الشَّاحِبِ الَّذي ارْتَسَمَ على صَفْحَتِهِ ما خالَجَ قَلْبَهُ مِنْ أَلَمٍ وحُزْنٍ، حتّى رَثَتْ لَهُ رِثاءً شَديدًا، وكادَتْ تَبْكي.

كانَ يَتَخَوَّفُ شَيئًا، وكانَتْ مِثْلَهُ تَخْشى أَمْرًا. فالخِيانَةُ الزَّوْجِيَّةُ مَخوفَةٌ، وأَخْوَفُ مِنْها حِلْمُ الزَّوجِ وأَناتُهُ وتَفْكيرُهُ.

وانْتَظَرَتِ المَرْأَةُ على أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ، واسْتَعَرَ القَلَقُ في أَحْشائِها.

وتَكَلَّمَ هُوَ أَخيرًا، فقالَ: «وكَيفَ تَرَكْتِ سيرجَ؟»

فجَزِعَتْ أَنّا أَشَدَّ الجَزَعِ، فها هُوَذا يَسْتَهِلُّ حَديثَهُ بالتَّكَلُّمِ على ابْنِهِما.

غَيْرَ أَنَّ جَزَعَها انْقَلَبَ في مِثْلِ غَمْضَةِ عَيْنٍ وفَتْحَتِها إلى دَهْشَةٍ وشَدَهٍ، فقد عَقَّبَ يَقولُ: «ولا مَنْدوحَةَ لي الآنَ عَن مُغادَرَةِ البَيْتِ، ولَن أَعودَ في مَوْعِدِ الغَداءِ».

فقالَتْ بلينٍ: «ولٰكِنِّي أَرْغَبُ، أَنا الأُخْرى، في الذَّهابِ إِلى موسكو».

فأَجابَ بسُرْعَةٍ: «يَجْدُرُ بكِ أَلَّا تَرْحَلي، بَلِ امْكُثي».

ولَفَّهُما سُكونٌ مُمِضٌّ، بَدَّدَتْهُ أَنَا بقَوْلِها: «إِنَّكَ أَشْرَفُ مِنّي يا أَلِكْسيس! لقد أَسَأْتُ إِلَيكَ، وأَرَدْتَ أَنْتَ صُلْحًا، وآذَيْتُكَ، فاغْتَفَرْتَ كَريمًا! ولٰكِنِّي شِرِّيرَةٌ، شِرِّيرَةٌ، ولَن أَرْتَدِعَ. لَقَد أَلَنْتَ القَوْلَ، وإِنِّي أَجْتَرِئُ عَليكَ، فأُخْبِرُكَ أَنَّ دونَ إِصْلاحِ الأَمْرِ خَرْطَ القَتادِ، وأَنَّ ما انْصَدَعَ لَن يُرْأَبَ أَبَدًا».

فحَدَجَها بنَظْرَةٍ غاضِبَةٍ، وكأَنَّ حِقْدَهُ ما انْفَكَّ يَبْحَثُ عَنِ العِلَلِ، وأَجابَ: «لا شَكَّ أَنَّ حُسْنَ الكَلامِ لا يُغَيِّرُ ما في النَّفْسِ الأَمّارَةِ. غَيْرَ أَنّي أُصِرُّ على وُجوبِ بَقائِكِ، فاحْذَري مَغَبَّةَ العِصْيانِ، وثِقي أَنّي أُغْمِضُ عَيْنَيَّ على القَذى، وسأُبْقيهِما مُغْمَضَتَينِ ما بَرِحْتِ حَريصَةً على عَدَمِ تَلْويثِ اسْمي بانْحِطاطِكِ! وأَنّي لَأَرجو أَنْ لا تُرْغِميني بحَماقَتِكِ وتَهَوُّرِكِ على رُكوبِ المَرْكَبِ الخَشِنِ الَّذي يُمْليهِ عَلَيَّ حِرْصي على اسْمي ومَرْكَزي».

فنكَّسَتْ طَرْفَها، وتَمْتَمَتْ بصَوتٍ خَفيضٍ مَهْموسٍ: «أَتَبْقى صِلَتي بِكَ كما كانَتْ، صِلَةَ زَوْجٍ بزَوْجِها، مِنْ كُلِّ وُجوهِها؟»

فلم يُجِبْها، بَل ظَلَّ يَتَأَمَّلُ فيها ويُفَكِّرُ في ما وَصَلَتْ إِلَيهِ.

وكأَنَّ مَوْقِفَهُ وعِنادَهُ اسْتَلّا مِنْ قَلْبِها ما اسْتَشْعَرَتْهُ مُنْذُ دَقائِقَ مِنَ الشَّفَقَةِ والرِّثاءِ، فاسْتَتْلَتْ: «لا، لا، لَن أَكونَ لَكَ زَوْجًا بَعْدَ اليَوْمِ، بَل سأَكونُ رَفيقًا قَريبًا بجَسَدِهِ مِنْكَ، بَعيدًا برُوحِهِ وعاطفتِهِ وإِحساسِهِ، عَنْكَ».

فضَحِكَ ساخِرًا، أو تَضاحَكَ، وقالَ: «أَيْنَ ذَكاؤُكِ؟ هَل عَصَفَتْ بهِ حالَتُكِ المُزْرِيَةُ الَّتي تَرَدَّيتِ في حَمْأَتِها؟[1] إِنَّني، إذ بَيَّنْتُ لَكِ مَرامي، لم أَرْمِ قَطُّ إِلى مُزاولةِ ما انْقَطَعَ بَيْنَنا مِنْ عَلاقَةٍ زَوْجِيَّةٍ. فماضيكِ النَّقِيُّ سيَبْقى مُخَلَّدًا في ذاكِرَتي؛ لَن أَمْزُجَ بَيْنَهُ وبَيْنَ حاضِرِك المَشينِ، وسأَنْأَى عَنْكِ مُجاراةً لِشُعوري ورَغْبَتِكِ».

---

(١) في حَمْأَتِها: في وَحْلِها.

وتَبَدَّدَتْ جُرْأَتُها، ولم تَدْرِ ما تَقولُ. فهْوَ على حَقٍّ، والبَريءُ شُجاعٌ، أَمّا المُذْنِبُ... والبَريءُ ذَلِقُ اللِّسانِ، أَمّا المُذْنِبُ...

واسْتَجْمَعَتْ مِنَ الضّعْفِ قُوَّةً، فقالَتْ: «أَبِنْ، أَفْصِحْ عَن نِيّاتِكَ، ماذا تَبْتَغي مِنّي؟»

فقالَ في حَزْمٍ وصَراحَةٍ: «سأَتَغاضى كما قُلْتُ عَن كُلِّ شَيْءٍ إِلّا عَن رُؤْيَةِ هٰذا الرَّجُلِ في مَنْزِلي، فإِيّاكِ أَنْ تَسْتَقْبِليهِ هُنا. ثُمَّ احْرَصي على أَنْ لا تُثيري رِيَبَ النّاسِ لِئَلّا يَعْلُوَ لَغَطُهُمْ. وهٰذانِ طَلَبانِ مُتَواضِعانِ كما تَعْلَمينَ، هٰذانِ طَلَبانِ إِنْ وَفَيْتِ بِهِما وَقَيْتِ نَفْسَكِ مِنْ كُلِّ سوءٍ مُنْتَظَرٍ».

ولَمْ تَرَ أَنّا في كَلامِ زَوْجِها ما يُثيرُ نِقْمَتَها، فهْوَ على حَقٍّ في حِرْصِهِ؛ وهْيَ، هِيَ... لَقَد عَلِقَ قَلْبُها بالغاياتِ، فماذا يَضيرُها لو جارَتْهُ فلَم تَقْضِ عَلَيْهِ القَضاءَ المُبْرَمَ؟

وغادَرَها أَلِكْسيس. مَضى الرَّجُلُ المَهيضُ الجَناحِ في سَبيلِهِ، وكانَ مَثَلُهُ كمَثَلِ رَجُلٍ يَتَعَلَّقُ بخَيْطٍ واهٍ لا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَطِعَ، أو يَتَشَبَّثُ بخَشَبَةٍ صَغيرةٍ لا تُبْطِئُ أَنْ تَفْلِتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ، ليَغوصَ في لُجَّةٍ سَحيقةٍ لا قَرارَ لَها!

لقد رَكَنَ إِلى رَأْيِهِ، وأَيْقَنَ أَنَّ طَريقَتَهُ تِلْكَ هِيَ الطَّريقةُ المَأْمونَةُ، وهٰذا شَأْنُ كُلِّ واثِقٍ مِنْ نَفْسِهِ، مُعْتَدٍّ بمَقْدِرَتِهِ مُؤْمِنٍ برَجاحةِ تَفْكيرِهِ...

أَمّا العاقِبَةُ، فلا يَعْلَمُها إِلّا عَلّامُ الغُيوبِ! وأَمّا النَّتيجَةُ فهْيَ سِرٌّ مَكْنونٌ سَوْفَ تَتَمَخَّضُ عنهُ الأَيّامُ!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - لماذا ضربَتْ أَنّا مَوعِدًا لعَشيقِها في مَنْزِلِ الأميرةِ «بتسي»؟ ألا يدلُّ هذا على أنَّ للأَميرةِ دورًا في رعايةِ حُبِّهِما؟

٣ - دارَ حِوارٌ طويلٌ بينَ أَنّا وفرونسكي. هَل كانَ هذا الحوارُ مُلائمًا للموقِف؟ وهَل كانَ مُلائمًا لشخصيَّةِ المُتكلِّم؟ عَلِّلْ إجابتَكَ.

٤ - ما نظرتُكَ إلى مُكاشفةِ أَنّا زوجَها بالأَمْرِ؟ أَهيَ جُرأَةٌ، أَم صَراحةٌ، أَم وَقاحةٌ؟ عَلِّلْ ما تذهبُ إليهِ.

٥ - أَلا تَرى معنا أَنَّ أَنّا تَحَدَّتِ المُجتَمَعَ من حولِها وخرجَتْ في مَسْلَكِها عَنِ المأْلوفِ؟ فعَلامَ يدلُّ سلوكُها هذا؟

٦ - قارِنْ بينَ شخصيَّتَي فرونسكي وكارنين، مُستفيدًا مِنْ الحوارِ الَّذي دارَ بينَ أَنّا وكُلٍّ مِنْهُما.

٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الرَّابع

عاشَ الزَّوْجانِ في بَيتِهِما كما يَعيشُ غُريبانِ قَضَتْ عَلَيْهِما الظُّروفُ أَنْ يَتَجاوَرا. عاشا مَعًا، ولٰكِنَّهُما كانا بَعيدَينِ كُلَّ البُعْدِ، بالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُما كانا يَتَقابَلانِ ويَتَحادَثانِ، ولا يُظْهِرانِ ما يَعْتَمِلُ في قَلْبِ كُلٍّ مِنْهُما مِنَ النُّفورِ والجَفْوَةِ.

عَلى أَنَّهُ تَجَنَّبَ طاقَتَهُ الجُلوسَ مَعَها إِلى مائِدَةِ طَعامٍ واحِدَةٍ، وكانَ لِهٰذا يَتَناوَلُ طَعامَهُ خارِجَ المَنْزِلِ.

كما أَنَّها امْتَثَلَتْ لرَغْبتِهِ، فتَجَنَّبَتْ دَعوةَ حَبيبِها إِلى بَيْتِها، ولو أَنَّها كانَتْ تَلْتَقيهِ كَثيرًا خارِجَ المَنْزِلِ.

وعَلِمَ كارنينُ مِنْ أَمْرِ زَوْجِهِ كُلَّ شَيءٍ، لٰكِنَّهُ طَوى كَشْحَهُ عنها وعَن أَخْبارِها، ولم يُفاتِحْها بشَيْءٍ مِمّا يَمَسُّها ويَتَّصِلُ بعَلاقَتِها المُحَرَّمَةِ.

وقَد داخَلَ الرَّجُلَ مِن مَوَدَّةِ زَوْجِهِ لفرونسكي ما مَلَأَ قَلْبَهُ اشْمِئْزازًا، فمَقَتَها واحْتَقَرَها، وأَيْقَنَ أَنَّ هٰذِهِ العَلاقةَ لَن تَبْقى سِرًّا، بَل إِنَّها مِنَ الأُمورِ الَّتي تَفْشو سَريعًا وتَظْهَرُ إِلى العِيانِ، ولا يَلْبَثُ النّاسُ أَنْ يَتَحَدَّثوا بِها.

إِنَّهُ لَذَنْبٌ عَظيمٌ، وسُكوتُهُ ذَنْبٌ أَكْبَرُ وأَعْظَمُ!

وكأَنَّ أَنّا وَثِقَتْ بوَعْدِهِ واطْمَأَنَّتْ إِلى خَوفِهِ، فتَمادَتْ في غَيِّها، وأَسْرَفَتْ في اتِّصالِها بحَبيبِ قَلْبِها.

وكانَ مِن شَأْنِ غُلَوائِها أَنْ تَزيدَ النّارَ انْدِلاعًا، وأَنْ يَنْسَدِلَ سِتارُ الشَّقاءِ على البَيْتِ الهادِئِ، فلا يَنْعَمُ صاحِبُهُ بساعةِ صَفاءٍ، ولا يَعْرِفُ السَّلامُ إِلى قَلْبِهِ مَدْخَلًا!

وكانَ مَعَ ذٰلِكَ يَرْجو أَنْ تَعودَ أَنّا إِلى رُشْدِها، فتَرْعَوِيَ نادِمَةً سادِمَةً[1] وتُقْلِعَ عَنِ الفُحْشِ

(١) سادِمةٌ: نادِمةٌ مُغْتاظَةٌ.

شَفَقَةً على بَيتِها مِنَ الإنْهيارِ، ومُسْتَقْبَلِ ابْنِها مِنَ الزَّوالِ.

كانَ صَبْرُهُ لأَمَلٍ في انْبِلاجِ الفَجْرِ بَعْدَ الحُلْكَةِ الرَّهيبَةِ.

أَمّا أَمَلُها فكانَ الاسْتِمْرارَ، الاسْتِمْرارَ في النَّهْلِ مِنْ مَنْبَعِ الحُبِّ حتّى تَرْتَوِيَ. وأَنّى لَها أَنْ تَنْقَعَ صَدى النَّفْسِ؟ أَنّى لَها أَنْ تَكْتَفِيَ، والعاطفةُ في صَدْرِها جَيّاشَةٌ فَوّارَةٌ، تَقْوى مَعَ الأَيّامِ ويَزْدادُ عُنْفُوانُها!

وجارى فرونسكي حَبيبَتَهُ، فوَكَلَ أَمْرَهُ لِلْقَدَرِ، وتَساقى مَعَها في كُلِّ يَوْمٍ كُؤوسَ الهَوى دِهاقًا[1]!

لٰكِنَّ حالَتَهُ كانَتْ كحالَتِها، اضْطِرابٌ وقَلَقٌ وتَوَجُّسٌ وانْتِظارٌ. وكذٰلِكَ كانَتْ حالةُ الزَّوجِ الصّابِرِ على ضَيمٍ.

ولمّا مَضى مِنَ الشِّتاءِ نِصْفُهُ، قَضى فرونسكي أُسبوعًا مُتْعَبًا، كَلَّ فيهِ مِنْ كَثْرَةِ الحَرَكَةِ، وأَرْهَقَتْ أَعْصابَهُ الرَّسْمِيّاتُ الَّتي أُرْغِمَ على مُراعاتِها.

فقد وَفَدَ على البِلادِ ضَيْفٌ لهُ مَكانَةٌ وقَدْرٌ. وكانَ هٰذا الوافِدُ الأَجْنَبِيُّ أَميرًا شاءَ أَنْ يُلِمَّ ببطرسبرج زائِرًا، فاخْتارَتِ الحُكومَةُ فرونسكي لِيُصاحِبَهُ في حَلِّهِ وتَرْحالِهِ. وقد بَرِمَ الشّابُّ بَرَمًا شَديدًا، لٰكِنَّهُ كَتَمَ ما في نَفْسِهِ، وأَمْضى أَيّامَهُ مَعَ الأَميرِ، يَشْرَحُ لهُ كُلَّ شَيْءٍ، ويُلَبِّي طَلَباتِهِ، ويَصْبِرُ على ثَرْثَرتِهِ. وكانَ هٰذا الأَميرُ أَيْضًا مُتَهافِتًا على اللَّهْوِ، يَغْشى مَطارِحَهُ، ولا يَرْبَأُ بنَفْسِهِ عَنِ انْتِهابِ اللَّذَّةِ ولَوْ على حِسابِ اسْمِهِ ومالِهِ. وقد قُسِرَ فرونسكي على مُصاحبتِهِ ومُماشاتِهِ في عَبَثِهِ حينًا مِنَ الوَقْتِ، لم يُكَحِّلْ عَينَيهِ في أَثْنائِهِ بمُشاهَدَةِ حَبيبَتِهِ.

واتَّفَقَ، وهْوَ في إِبّانِ انْهِماكِهِ مَعَ الأَميرِ الثَّقيلِ، أَنْ رَجَعَ في أَحَدِ الأَيّامِ مُبَكِّرًا إِلى مَسْكَنِهِ، فوَجَدَ في انتِظارِهِ رُقْعَةً بخَطِّ أَنّا، ففَضَّها مُسْتَعْجِلًا وقَرَأَها، فإذا فيها:

«أَنا مَريضَةٌ وتاعِسَةٌ، لا أَسْتَطيعُ الخُروجَ، ولا أَقْوى على العَيْشِ مِن دونِ أَنْ أَراكَ! فتَعالَ اللَّيْلَةَ. . إِنَّ زَوْجي أَلِكْسيس يَذْهَبُ إِلى دارِ الحُكومَةِ في السّابِعَةِ ويَقْفُلُ راجِعًا في العاشِرةِ. تَعالَ، أَرْجوكَ».

وكانَ فرونسكي قد حَظِيَ في تِلْكَ السَّنَةِ برُتْبَةِ «الكولونيل»، فغادَرَ الثُّكْنَةَ العَسْكَرِيَّةَ وأَوى

(١) دِهاقٌ: مُمْتَلِئَةٌ.

إلى مَسْكَنٍ صَغيرٍ جَميلٍ.

وتَبَلَّغَ ببَعْضِ الطَّعامِ، ثُمَّ نَضا عنهُ مَلابِسَهُ ورَقَدَ في فِراشِهِ. لٰكِنَّهُ لم يَنَمْ، وظَلَّ مُحَدِّقًا إلى السَّقْفِ، يُفَكِّرُ بأَنّا، ويَرى وَجْهَها وقَدَّها، ويَسْمَعُ كَلامَها وضِحْكَها.

وداعَبَ الوَسَنُ عَينَيهِ بَعْدَ ساعةٍ، فأَغْفى، ولم يُفِقْ إلّا والظَّلامُ يُسَرْبِلُ الدُّنيا بغِلالتِهِ السَّوْداءِ.

وغادَرَ فِراشَهُ مُسْرِعًا، واغْتَسَلَ، وتَأَنَّقَ، ورَكِبَ عَرَبَةً صَغيرةً مُتَوَجِّهًا إلى مَنْزِلِ مَحْبوبَتِهِ.

ولمّا وَصَلَ كانَتِ السّاعةُ تُشيرُ الى الثّامِنَةِ.

وتَهَيَّبَ الدُّخولَ، فكَيفَ يَجْسُرُ؟ أَلا يَرْدَعُهُ شُعورُهُ؟ أَلا يَصْرِفُهُ ضميرُهُ؟

لٰكِنَّهُ عادَ فنَفَضَ مِن ذِهْنِهِ هٰذِهِ الأَفكارَ، وخَطا إلى صَحْنِ الدّارِ. إلّا أَنَّهُ فوجِئَ بكارِنينَ نَفْسِهِ يَخْرُجُ مِن غُرفةٍ جانبيَّةٍ. وجَمَدَ الرَّجُلانِ، ووَقَفا يَتَبادَلانِ النَّظَراتِ.

وقَرَأَ كُلٌّ مِنْهُما شَيْئًا خَطيرًا مَحْفورًا في وَجْهِ الآخَرِ. وتَفَصَّدَ جَبينُ الزَّوْجِ بالعَرَقِ، وبَرَقَتْ عَيْنا فرونسكي، وظَلَّ يُحَدِّقُ إلى الوَجْهِ الشّاحِبِ المُصْفَرِّ، وهْوَ حائِرٌ لا يَدْري ما يَفْعَلُ.

إلّا أَنَّ كارنينَ مَسَّ طَرَفَ قُبَّعَتِهِ بإِصْبَعِهِ، ثُمَّ انحَرَفَ قَليلًا وغادَرَ البَيْتَ.

ذَهَبَ الزَّوْجُ لا يَلْوي على أَحَدٍ، ودَخَلَ العَشيقُ خِدْرَ الزَّوْجِيَّةِ، دَخَلَ المَخْدَعَ الَّذي رَكَنَتْ إِلَيهِ زَوْجَةٌ مَجْنونَةٌ!

وحَدَّثَ كارنينُ نَفْسَهُ مِن دونِ أَنْ يَفْقَهَ ما قالَهُ لِسانُهُ.

ولَوَّحَ فرونسكي بيَدِهِ، وقالَ: «مُصادَفَةٌ... مُصادَفَةٌ حَسَنَةٌ. لا أُباليهِ، لا أَحْفِلُهُ. ولٰكِنْ، ما خَطْبُهُ؟ لِمَ لا يَفْعَلُ شَيئًا؟ لِمَ لا يَذُبُّ[1] عن شَرَفِهِ بمُقاتَلَتي؟ تَبًّا لَهُ مِن رِعْديدٍ! أَلا يَتَحَرَّكُ حتّى أُنْهِيَ المَسْأَلَةَ وأَبُتَّ الأَمْرَ؟

وتَقَدَّمَ إلى غُرفَةِ أَنّا، وطَرَقَ البابَ خَفيفًا وفَتَحَهُ. كانَتْ أَنّا بادِيَةَ الاِنْفِعالِ، تَذْرَعُ

---

(١) يَذُبُّ: يَدْفَعُ.

المَكانَ[1] مُهْتاجَةً مُضْطَرِبَةً. وما شاهَدَتْهُ يَدْخُلُ حتّى هَتَفَتْ وهْيَ تَشْرَقُ: «هذا مُريعٌ! إنَّهُ لا يُحْتَمَلُ!»

قالَ: «خَفِّفي عَنْكِ يا أَنّا، ماذا دَهاكِ؟ ماذا أَلَمَّ بِكِ؟»

قالَتْ: «عَذابٌ، عَذابٌ، تَوَتُّرٌ شَديدٌ وانْفِعالٌ وهِياجٌ دائمانِ، وأَنا أَتَحَرَّقُ لَيْلَ نَهارَ على نارٍ مُتَلَظِّيةٍ. لَقَد كَظَّتْني[2] حالَتي وبَهَظَتْني[3] وَضْعِيَّتي، لَن أَصْبِرَ أَكْثَرَ مِمّا صَبَرْتُ. ثُمَّ تَتَلَكَّأُ أَنْتَ وتَتَأَخَّرُ، وتَمْضي السّاعاتُ وأَنا أُعَلِّلُ النَّفْسَ، فماذا جَرى يا تُرى؟»

ودَنَتْ مِنْهُ، وطَرْفُها يَتَمَلّى أَساريرَهُ، فبانَ في لَحْظِها الفاتِنِ مَعْنًى عَميقٌ مِن مَعاني الحُبِّ الرّاسِخِ.

وجَلَسَ الِاثْنانِ، ولَفَّ هُوَ ذِراعَهَ حَوْلَ خَصْرِها، وقَبَّلَها، وهَدْهَدَ خَدَّها، حتّى إذا ما هَدَأَ ثائِرُها، رَنَتْ إِلَيهِ مَتَوَدِّدةً وقالَتْ: «إِخالُكُما تَقابَلْتُما وَجْهًا لوَجْهٍ، فهَل تَكَلَّمْتُما؟»

قالَ: «لم نَتَبادَلِ الكَلامَ بَلِ النَّظَراتِ».

قالَتْ: «خَيْرًا فَعَلْتُما».

قالَ: «إِلّا أَنّي أَعْجَبُ مِنْ هٰذا الخَطَأِ، فقَد ذَكَرْتِ أَنَّهُ ذاهِبٌ إِلى دارِ الحُكومَةِ، فكَيْفَ...؟»

فقاطَعَتْهُ قائِلَةً: «لا أَعْلَمُ من أَمْرِهِ شَيئًا، أو بالأَحْرى لم أَعُدْ أَعْلَمُ. فقَدْ ذَهَبَ وعادَ، ثُمَّ ذَهَبَ كَرَّةً ثانِيَةً كما رأَيْتَ».

قالَ: «لَعَلَّهُ يُبَيِّتُ أَمْرًا».

قالَتْ: «لا آبَهُ، فلْيُضْمِرْ كُلَّ الشَّرِّ. أَمّا أَنْتَ، فحَدِّثْني عَن أَميرِكَ».

قالَ: «إِنَّهُ مُتْعَبٌ، وصُحْبَتُهُ تُفْعِمُني سَأَمًا، وهْوَ اليَوْمَ مُتَوَعِّكٌ يَلوذُ بمَرْقَدِهِ، والحَمْدُ لِلّٰهِ».

فقَرْقَرَتْ أَنّا مُغْتَبِطةً، لٰكِنَّها سُرْعانَ ما قالَتْ مُقَطِّبَةً: «على أَنَّكَ أَزْجَيْتَ مَعَهُ وَقْتًا طَيِّبًا،

---

(١) تَذْرَعُ المَكانَ: تَذْهَبُ فيهِ وتَجيءُ (والأَصلُ أَنَّها تقيسُه).

(٢) كَظَّتْني: غَمَّتْني وأَثْقَلَتْني.

(٣) بَهَظَتْني: أَثْقَلَتْني، سَبَّبَتْ لي مَشَقَّةً.

وصَحِبْتَهُ إلى مَلاهي المَدينَةِ كُلِّها. وأَنْتَ رَجُلٌ، والرِّجالُ لا يَتَأَخَّرونَ عَنِ اجْتِناءِ لَذَّةٍ».

فنظَرَ إِلَيْها مَبْهوتًا، وأَفْزَعَه في مُحَيَّاها تَقَلُّصٌ غاضَ مَعَهُ جَمالُها، ووَلّى رَيّاها، ولٰكِنَّهُ كَتَمَ اشمِئْزازَهُ ورُعْبَهُ وأَجابَ: «لا صِلَةَ لي بالمُجونِ، فقَدْ صَدَفْتُ عَنْهُ مُنْذُ زَمَنٍ، وثِقي أَنَّ صُحْبَتي للأَميرِ تَوَلّاني مِنها ضَجَرٌ لا يَعْدِلُهُ ضَجَرٌ».

فتفَرَّسَتْ فيهِ مُرتابةً مُشَكِّكَةً، وقالَتْ: «على أَنّي وَقَفْتُ على أَخْبارِ اللَّيْلَةِ الحَمْراءِ الَّتي أَحْياها الأَميرُ».

- «وماذا في ذٰلِكَ؟ وما شَأْني بهِ؟»

- «أَلَمْ تُسْهِمْ مَعَهُ في الحَفْلَةِ؟»

- «لا. فقَدْ كُنْتُ في مَعْزِلٍ عَنِ الجَميعِ بفِكْري».

- «وماذا تَقولُ عَنِ الفَتاةِ المُسْتَهْتِرَةِ الَّتي تَعَرَّتْ ورَقَصَتْ رَقْصَتَها الصَّاخِبَةَ؟»

- «وهَل أُلامُ أَنا؟ هَل أَمْنَعُ ما يُريدُهُ صاحِبُ الحَفْلَةِ؟»

- «وَيْ لَكُمْ يا رِجالَ اليَوْمِ! تَقْتَرِفونَ الفاحِشَةَ ثُمَّ تُنْكِرونَ! وتَرْتَكِبونَ المُنْكَرَ ثُمَّ تَتَنَصَّلونَ! وأَنا، أَنا الَّتي أَهْواكَ وأَعْبُدُكَ، هَل أَعْرِفُ عَنْكَ إِلَّا النَّزْرَ اليَسيرَ، هَل أَعْرِفُ ما تَقومُ بهِ في غَفْلَةٍ عَنّي؟»

- «كَفاكِ لَغْوًا يا أَنّا فأَنْتِ تُجْهِدينَ نَفْسَكِ في ما لا طائِلَ تحتَهُ، أَنْتِ تُثيرينَ أَلَمي، وعَذابي بهٰذِهِ التُّرَّهاتِ!»

- «أَصَبْتَ، أَنا أَفْعَلُ هٰذا لٰكِنَّ وَحْدَتي قاسِيَةٌ، قاسِيَةٌ لا تُجاريها في قَسْوَتِها مَلالةُ امْرَأَةٍ، أَلا فلْتَغُضَّ ولْتَنْسَ!»

وقَبَّلَتْهُ، وبادَلَها القُبْلَةَ.

* * *

كانَتْ في المُدَّةِ الأَخيرَةِ قَد قَصَّرَتْ هِمَّتَهُ، وقَلَّلَتْ مِنْ حُبِّهِ لها بما أَبْدَتْهُ مِنْ عَلاماتِ الغَيْرَةِ، حتّى شَعَرَ بالرَّابِطَةِ الوَثيقةِ تَنْحَلُّ عُراها، وبالعَلاقةِ الوَطيدةِ تَنْقَطِعُ حَلَقاتُها.

كانَ يَسْتَعْذِبُ كَلامَها مِنْ قَبْلُ، وكانَ كُلُّ ما تَقولُهُ يَحْسُنُ مَوْقِعُهُ في قَلْبِهِ. وما أَكْثَرَ ما

ناجى نَفْسَهُ قائِلًا: «لِتُحِبَّني فَقَطْ، لِتُحِبَّني! فأُصْبِحَ أَسْعَدَ أَهْلِ الأَرْضِ طُرًّا».

ولٰكِنْ، لمّا أَحَبَّتْهُ هٰذا الحُبَّ الجارِفَ، وعَشِقَتْهُ وتَدَلَّهَتْ بهَواهُ، وتَبعَ ذٰلِكَ غَيْرةٌ نَهّاشَةٌ اتَّقَدَتْ نيرانُها، واضْطَرَمَتْ كأَقْوى ما تكونُ، تَلاشى حُبُّهُ الأَوَّل، وجَعَل يُفَكِّرُ ويَعْجَبُ ويَتَضايَقُ. ثُمَّ إِنَّ شُعورَ الهَناءِ الَّذي تَسَرَّبَ إِلى قَلبِهِ، يَوْمَ أَعْرَبَتْ لَهُ عَن حُبِّها، لم يَعُدْ لَهُ وُجودٌ. وأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ جَعَلَ يَتَحَسَّرُ على الأَيّامِ الخالِيَةِ، ويَرى فيها سَعادَتَهُ الفانِيَةَ، ويَوَدُّ لَو رَجَعَتْ، يَوَدُّ لَو فَقَدَ ما كَسَبَ، يَوَدُّ لَو بَقِيَ كما كانَ.

لَقَد تَبَدَّلَتِ الحالُ، وتَبَدَّلَتْ أَنّا، ولَم تَعُدْ كما كانَتْ مِن قَبْلُ، لم تَعُدْ جَميلَةً يَنْضَحُ الحُسْنُ مِن مُحيّاها وجَسَدِها. لم تَعُدْ كما كانَتْ غانِيَةً بَسّامَةَ الثَّغْرِ، رَيّانَةَ القَدِّ؛ جَذّابَةَ الكَلِمةِ... أَلَمْ يَرَ وَجْهَها ساعةَ غَضِبَتْ؟ أَلَمْ يَشْهَدْ تَقاطيعَها تَتَقَلَّصُ عَن كُرْهٍ وغَيرَةٍ؟

ثُمَّ أَلَمْ يَجْنِ ما يُريدُ؟ فلِمَ يُسْرِفُ في هَواهُ إذًا، ما دامَ قَد حَصَلَ على كُلِّ ما ابْتَغاهُ؟ وهَل يَسْتَطيعُ أَنْ يَجِدَ فيها أَكْثَرَ مِمّا وَجَدَ؟

وهْوَ في كُلِّ طَوْرٍ مِن أَطْوارِ حَياتِهِ كانَ يَعْتَدُّ بقُوَّتِهِ وإِرادَتِهِ، ويُؤْمِنُ بأَنَّهُ لا يَعْجِزُ في كُلِّ وَقْتٍ عَنِ الإِقْلاعِ عَن حُبِّ امْرَأَةٍ مَهْما كانَ راسَخَ الجُذُورِ، وأَنَّهُ في كُلِّ وَقْتٍ يَسْتَطيعُ أَنْ يَكُفَّ عَن عادةٍ مَهْما كانَتْ مُتَمَكِّنَةً مِن حَياتِهِ، فكَيفَ الحالُ مَعَ هٰذا الحُبِّ الجديدِ الَّذي لم يعُدْ جَديدًا؟ كَيفَ الحالُ مَعَ حُبِّهِ لامْرَأَةٍ ظَهَرَ لَهُ مِن غَيْرَتِها ما مَلأَ فُؤَادَهُ نُفورًا ورَغْبَةً في الِابْتِعادِ؟

وقَد لاحَظَتْ فيهِ أَنّا ما أَخافَها، فجَعَلَتْ تَقولُ وصَوْتُها يَفْضَحُ نَدامَتَها:

«لَن أَخْضَعَ لنَأْمَةِ الغَيرَةِ، وسَأَطْرَحُها جانِبًا مَهْما كانَ الأَمْرُ، فأَخْبِرْني الآنَ، حَدِّثْني عَنِ الأَميرِ صاحِبِكَ، وعَن سَبَبِ بَرَمِكَ بِهِ وبرِفْقَتِهِ».

فضَحِكَ فرونسكي وقالَ: «إِنَّ عاداتِهِ قَبيحَةٌ مُسْتَهجَنةٌ، وقد فَكَّرْتُ مِرارًا في إِعْفاءِ نَفْسي مِنْ مُصاحَبَتِهِ، لٰكِنِّي صَبَرْتُ على كُرْهٍ حتّى لا أُسِيءَ إِلى مَرْكَزي. إِنَّهُ والحَقُّ يُقالُ حَيَوانٌ بَهيمٌ عُقِدَ على رَأْسِهِ تاجٌ، حتّى يَطوفوا بهِ في أَنحاءِ البِلادِ، وحتّى يَراهُ كُلُّ العِبادِ».

فابْتَدَرَتْهُ مُتَعَجِّبَةً مُسْتَفْهِمةً: «وكَيفَ تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ هٰذا القَوْلَ، ومَكانَتُهُ في العِلْمِ والِاطِّلاعِ لا يَجْهَلُها إِنْسانٌ؟»

«أَصَبْتِ، إِلَّا أَنَّهُ أَخْلى رَأْسَهُ مِنَ الفِكْرِ، وكَأَنَّهُ عِنْدَما جَمَعَ العِلْمَ، جَمَعَ مَعَهُ الجَهْلَ، أو كَأَنَّهُ عِنْدَما حَصَلَ على المَعْرِفةِ حَصَلَ على عَدَمِ المَعْرِفةِ!»

فضَحِكَتْ أَنّا.

واسْتَطْرَدَ هُوَ يَقولُ: «فمِنْ واجِبِ العالِمِ أَنْ يَعِظَ، مِنْ واجِبِهِ أَنْ يُقَوِّمَ النَّاسَ بلِسانِهِ، ويُؤَدِّبَهُمْ بحِكْمتِهِ، ويَكونَ لَهُمُ القُدْوَةَ الحَسَنةَ باتِّزانِهِ. أَمَّا هُوَ فلا يُظْهِرُ إِلَّا الحُجَّةَ على خَرَقِهِ وسَفَهِهِ وتَفاهةِ فِكْرِهِ وعَمَلِهِ».

قالَتْ: «زِدْني إيضاحًا، فقَد أَثَرْتَ فُضولي».

قالَ: «وفَضْلًا عن كُلِّ هٰذا، فهْوَ صَنيعَةُ الشَّهْوةِ يُؤْثِرُ النِّساءَ على كُلِّ شَيءٍ آخَرَ، ويَتْبَعُ الرَّذيلَةَ إلى أَقْصى المَعْمورَةِ!»

فتَجَهَّمَ وَجْهُها، وتَقَبَّضَتْ سِحْنَتُها، وقالَتْ مُحْتَدَّةً: «وهٰذا نَقْصُكُمْ جميعًا أَيُّها الرِّجالُ، تَرْكَبونَ الأَهْوالَ لتَنالُوا رَغْبَةَ النَّفْسِ الجِنْسِيَّةَ، وتَبْسُطونَ اليَدَ بالمالِ، لتُدْرِكوا أَوْطارَكُمْ مِنَ النِّساءِ... إنَّ المَرْأَةَ هِيَ حَياتُكُمْ. إِنَّها الهَواءُ الَّذي تَتَنَشَّقونَ، والطَّعامُ الَّذي تَأْكُلونَ، والماءُ الَّذي تَشْرَبونَ! هٰذا ما عايَنْتُهُ فيكُمْ مَعْشَرَ الرِّجالِ، وهٰذا ما عَهِدَهُ غَيْري مِنْ بَناتِ حَوّاءَ».

فحَمْلَقَ فيها مَشْدوهًا مَبْغوتًا.

واسْتَتْلَتْ وقد زادَتْ هِياجًا وحَنَقًا: «وأَنْتَ! هَل تُنْكِرُ أَنَّ غَريزَتَكَ أَمْلَتْ عَليكَ التَّمَتُّعَ بمَنْظَرِ الرَّاقِصَةِ العارِيَةِ؟»

فقالَ مُحْتَدِمًا قَليلًا: «خِلْتُ أَنَّكِ قُلْتِ مُنْذُ قَليلٍ أَنَّكِ تَخَلَّيْتِ عَنِ الغَيْرَةِ، فماذا دَهاكِ؟»

ثُمَّ عادَ فابْتَسَمَ، ودَنا مِنْها وقَبَّلَها مُسْتَرْضِيًا.

وقالَتْ: «لَقَد فَتَّقَ لي حُبّي لَكَ أَنْ يَنْصَبَّ كَلامي على ما يَمَسُّ غَرامي، فلا تَلُمْني، لا تَلُم امْرَأَةً لَعَجَها الحُبُّ، فتَأَلَّمَتْ وتَعَذَّبَتْ. وأَظُنُّ أَنَّ المُحِبِّينَ مَتَعَرِّضونَ دَوْمًا لمِثْلِ هٰذِهِ النَّزَعاتِ المُتعارِكَةِ المُتَضارِبَةِ».

قالَ: «أَجَلْ! إِنَّ المُحِبِّينَ عُرضَةٌ في كُلِّ حينٍ لهٰذِهِ الأَحاسيسِ».

قالَتْ: «هلّا أَخْبَرْتَني عَنِ التِقائِكَ بزَوْجي؟ وكَيفَ تَمَّ ذٰلِكَ؟»

قالَ: «لمّا دَخَلْتُ البابَ فُتِحَ على حينِ غِرَّةٍ بابٌ آخَرُ بَرَزَ مِنْهُ أَلِكْسيسُ، فخَفَقَ قَلْبي،

ولٰكِنّي سُرِرْتُ، لأنّي ظَنَنْتُهُ رَجُلًا يُسَوّي حِسابَهُ مَعَ المُحْسِنِ والمُسيءِ على حَدٍّ سَواءٍ».

قالَتْ: «فماذا فَعَلَ باللّٰهِ عَلَيْكَ؟»

قالَ: «مَسَّ قُبَّعَتَهُ بأَنْمُلَتِهِ، ووَقَفَ كأَنَّهُ سُمِّرَ إلى الأَرْضِ، ولم يَلْبَثْ أَنْ مَضى مُسْرِعًا كما بَدا».

قالَتْ: «وَيْلَهُ، ووَيْلَ جُمودِهِ وصُمودِهِ! إنّي أَكادُ أُجَنُّ مِن غُموضِهِ!»

وضَحِكَ فرونسكي، وضَحِكَتْ أَنّا. أَمّا الزَّوْجُ، أَمّا أَلِكْسيس كارنين الزَّوْجُ، فهُوَ لَم يَضْحَكْ، بَل قَبَعَ في مَكْتَبِهِ في مِثْلِ هٰذِهِ السّاعَةِ المُتأَخِّرَةِ، يُفَكِّرُ، ويُفَكِّرُ، ويَتَأَلَّمُ.

* * *

وهَل هُناكَ أَلَمٌ أَبْلَغُ أَثَرًا مِن أَلَمِ زَوْجٍ داسَتِ امْرَأَتُهُ على كَرامَتِهِ، وحَطَّمَتْ شَرَفَهُ، وامْتَهَنَتِ اسْمَهُ؟

كانَ كارنينُ يُفَكِّرُ بالقَتْلِ، ويُفَكِّرُ بالطَّلاقِ، ويُفَكِّرُ بالهَجْرِ، لٰكِنَّهُ لم يَصِلْ إلى نَتيجةٍ في تَفْكيرِهِ، وكَأَنَّهُ لم يُفَكِّرْ قَطُّ.

ومَضى فرونسكي يَقولُ، بَعْدَ أَنْ ضَحِكَ هُوَ ومَعْشوقَتُهُ مَلِيًّا: «وما أَعْسَرَ زَوْجَكِ على الفَهْمِ! أَهُوَ جَبانٌ أَم شُجاعٌ؟ أَهُوَ شَريفٌ أَم خائِنٌ؟ أَهُوَ قَوِيٌّ أَم خائِرٌ؟ أَهُوَ عاقِلٌ أَم أَبْلَهُ؟ إنَّهُ واحِدٌ مِنِ اثْنَيْنِ، لٰكِنّي لا أَعْلَمُ أَيُّ الواحِدينِ هُوَ، ولا يُمْكِنُني أَنْ أَعْلَمَ. فلَو كانَ فَظًّا غَليظًا لارْتَحْتُ، لٰكِنَّهُ هادِئٌ، رَزينٌ، وهٰذا ما يَزيدُني اضْطِرابًا وقَلَقًا. ولَوْ تَحَدّاني ودَعاني إلى المُبارَزَةِ، لاغْتَبَطَتْ نَفْسي ولٰكِنَّهُ يَراني أَلِجُ بَيْتَهُ، فيَتْرُكُ لي الحُرِّيَّةَ ويَتْرُكُ المَجالَ. أَلَيْسَ في تَصَرُّفِهِ ما يُرْبِكُ ويُحَيِّرُ؟»

قالَتْ: «إنَّهُ بَليدُ الحِسِّ بَطيءُ الإِدْراكِ، لٰكِنَّهُ لَئيمُ الطَّبْعِ أَيْضًا».

قالَ: «قَد تَكونينَ مُخْطِئَةً، وإِخالُهُ يَتَأَلَّمُ كما يَتَأَلَّمُ رَجُلٌ ذَبيحٌ».

فضَحِكَتْ ساخِرةً وأَجابَتْ: «هُو يَتَأَلَّمُ! وهَل يَعْرِفُ هٰذا الرَّجُلُ مَعْنى الأَلَمِ؟ هٰذا الرَّجُلُ الأَنانِيُّ الطّامِعُ الطّامِحُ لا يُفَكِّرُ إلّا في بُلوغِ مآرِبِهِ مِنَ الحياةِ. ومَأْرَبُهُ الأَوَّلُ احْتِلالُ الذُّرْوَةِ ولو تَوَسَّلَ بالباطِلِ».

- «ولٰكِنَّهُ، كما قُلْتُ لَكِ، يَتَرَمَّضُ على نيرانِ العَذابِ».

- «وعلى ماذا تَبْني حُكْمَكَ؟ أَلا تَراهُ يُذْعِنُ ويَرْضَخُ ويَقْبَلُ الأَمْرَ الواقِعَ؟ أَلا تَراهُ يَرْضى لامْرَأَتِهِ أَنْ تَعْشَقَ عليهِ؟»

فعَجِبَ مِنْها ودُهِشَ مِن كَلِماتِها.

واسْتَتْلَتْ: «إِنَّهُ نَسيجُ وَحْدِهِ، فبَدَلًا مِنْ أَنْ يَقْضِيَ على المَرْأَةِ الَّتي خانَتْهُ يَطْلُبُ إِلَيها أَنْ تَبْقى مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً. أَتَعْلَمُ لماذا يُريدُني أَنْ أَبْقى مَعَهُ؟ لأَنَّهُ لا يَرْغَبُ في عَرْقَلَةِ مَساعيهِ الرَّامِيَةِ إِلى تَذْليلِ الصِّعابِ الَّتي تَعْتَرِضُ طَريقَ مَجْدِهِ. هٰذا هُوَ السَّبَبُ، أَفَهِمْتَ؟»

وازْدادَ فرونسكي عَجَبًا.

ومَضَتْ أَنّا تَقولُ وعَيْناها تَشِعَّانِ ببَريقٍ غَريبٍ، وعَضَلاتُ وَجْهِها تَتَوَتَّرُ وتَنْكَمِشُ: «تَبًّا لَهُ! لقد عَذَّبَني واسْتَرَقَّني. وإِنِّي أَمْقُتُهُ».

وتَضاعَفَ عَجَبُ الشَّابِّ.

وأَتَمَّتْ أَنّا، ونَظْرَتُها تَرِقُّ بَغْتَةً، وأَساريرُها تَنْبَسِطُ، ولَوْنُها يَصْفو بَعْدَ كَدَرٍ: «ولٰكِنْ... إِنَّنا قَد نَكونُ مُخْطِئَيْنِ، وكُلُّ مُتَكَهِّنٍ قَد يُصيبُ وقَد يُخْطِئُ».

* * *

فلِماذا هَدَأَتْ ثائِرَتُها فَجْأَةً؟ ولِماذا رَقَّتْ شَمائِلُها[1] في مِثْلِ وَمْضَةِ بَرْقٍ؟

لم يَعْلَمْ فرونسكي سِرَّ هٰذا الِانْقِلابِ. لم يَعْلَمْ أَنَّ شَيْئًا خَفِيًّا تَمَلْمَلَ في أَحْشائِها. لم يَعْلَمْ أَنَّ ثَمَرَةَ حُبِّها الأَثيمِ تَتَحَرَّكُ حَيثُ وَضَعَها.

لم يَعْلَمْ، لم يَعْلَمْ...

---

(١) الشَّمائِلُ (جَمْعُ شَميلَةٍ): الطِّباعُ، الأَخلاقُ، الخِصالُ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.
٢ - ما الَّذي قدَّمَهُ السَّردُ في مطلعِ هذا الفصلِ؟ وهَل شعَرْتَ بالمَللِ؟
٣ - هَل تَرى أَنَّ الحِوارَ أَشَدُّ تَشويقًا للقارئِ؟ ولماذا؟
٤ - بأَيِّ أساليبِ العرضِ القَصَصيِّ صَوَّرَ الكاتِبُ مَظاهِرَ الغَيْرَةِ لدى أَنّا كارنينا؟ هَل نَجَحَ في ذلكَ؟ وهَل كانَ مُقنِعًا؟ عَلِّلْ ما تذهبُ إِليهِ.
٥ - كيفَ بدَتْ لكَ أَنّا كارنينا في هذا الفصلِ؟ أَهِيَ بعيدةُ النَّظَر أَم قَصيرَتُه؟ ولماذا؟
٦ - بَدَأَ الخطُّ البَيانيُّ لِحُبِّ فرونسكي يأْخذُ في هذا الفصلِ مَنْحًى مُعاكِسًا هو مَنْحى الانحدارِ. دُلَّ على ذلك في موضِعِهِ، وعَلِّلْ أَسبابَهُ.
٧ - هَل كانَ كارنينُ على صوابٍ في الموقفِ الَّذي اتَّخذَهُ من زوجتِهِ الخائنةِ؟ عَلِّلْ ما تذهبُ إِليهِ.
٨ - أَتَرى في هدوءِ كارنينَ هدوءًا دائمًا أَمِ الهدوءَ الَّذي يَسْبِقُ العاصِفةَ؟ عَلِّلْ إجابَتَكَ.
٩ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الخامس

بَعْدَ أَنِ الْتَقى أَلِكْسيس عَشيقَ امْرَأَتِهِ في بَيْتِهِ، ذَهَبَ إِلى مَكْتَبِهِ، فقَضى فيهِ ساعةً، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلى دارِ الأُوبرا، وانْزَوى في مَقْصورتِهِ يَتَأَمَّلُ في الخَلْقِ، ويُحاوِلُ أَنْ يَرى كُلَّ مَنْ يُريدُ أَنْ يَراهُ.

وعادَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ إِلى بَيْتِهِ، ولاذَ بغُرْفتِهِ، لٰكِنَّهُ لم يَنَمْ، بَل جَعَلَ يَذْرَعُ الحُجْرَةَ وهْوَ مُسْتَغْرِقٌ في الفِكْرِ. وما زالَ كَذٰلِكَ حتّى طَرَقَتْ سَمْعَهُ دَقّاتُ السّاعَةِ الثّالثةِ.

كانَ مُتَوَغِّرَ الصَّدْرِ، يَشْعُرُ بالغَيْظِ والمَوجِدةِ، ويَنْقُمُ على زَوْجِهِ لأَنَّها ضَرَبَتْ عُرْضَ الحائطِ[1] بتَحْذيرِهِ واسْتَقْبَلَتْ عَشيقَها في بَيْتِهِ... وهْوَ لهٰذا لم يَبْقَ لَهُ خِيارٌ بينَ الصَّفْحِ والقِصاصِ، وسيُعاقِبُها، ويَسْعى إِلى طَلاقِها بَعْدَ أَنْ يَحْرِمَها مِنِ ابْنِها.

وما تَبَلَّجَ الفَجْرُ ورَنَّقَتْ ذُكاءُ[2]، حتّى انْدَفَعَ خارِجًا مِنْ غُرفتِهِ وتَوَجَّهَ إِليها في مَخْدَعِ النَّوْمِ، وهْوَ يُزْمِعُ أَنْ يَصُبَّ على رَأْسِها جامَ غَضَبِهِ[3]، ويَشْفيَ غَليلَهُ مِنْها.

كانَ أَلِكْسيس كارنين رَجُلًا مُتَّئِدًا مُتَأَنِّيًا، لا يَتَحَرَّكُ ساعةَ يَثورُ غَضَبُهُ حتّى لا يُوقِعَهُ تَهَوُّرُهُ في المآزِقِ. كانَ صَبورًا يُفَكِّرُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَ، ويَعْمَلُ بَعْدَ أَنْ يَضَعَ الخُطَّةَ اللّازمةَ.

وقد فَكَّرَ طَويلًا في ساعاتِ تِلْكَ اللَّيْلةِ، فلم يَسْكُنْ غَضَبُهُ ولم تَخِفَّ حِدَّةُ هِياجِهِ. لقد صَفَحَ لَها عَن زَلَّتِها الكُبْرى، وأَذْعَنَ للقَدَرِ فأَذِنَ لَها - لِزَوجِهِ - أَنْ تَلْتَقِيَ عَشيقَها في كُلِّ مَكانٍ ما عَدا بَيْتَهُ. وحَذَّرَها مِنْ مَغَبَّةِ التَّفَرُّدِ بهِ في هٰذا البَيتِ، لٰكِنَّها تَجاهَلَتْ تَحْذيرَهُ وسَخِرَتْ مِنْهُ، واسْتَغْفَلَتْهُ فاسْتَضافَتْ عَشيقَها. فيا وَيلَها! يا وَيلَها!

---

(١) ضَرَبَتْ عُرْضَ الحائطِ بتَحْذيرِهِ: لم تُبالِ تَحْذيرَهُ.
(٢) رَنَّقَتْ ذُكاءُ: تَحَيَّرَتِ الشَّمْسُ في مَكانِها فَلا تُحَسُّ حَرَكَتُها، وذُكاءُ اسْمٌ للشَّمْسِ.
(٣) جامَ غَضَبِهِ: كأْسَ غَضَبِهِ.

ورَأَتْهُ أَنّا يَدْخُلُ عَلَيها وعَيْناهُ تَبْرُقانِ حَنَقًا، فأَوْجَسَتْ خيفَةً، إِلَّا أَنَّها لم تَظُنَّ قَطُّ أَنَّهُ سيَأْخُذُ مِنْ هٰذِهِ الهَفْوةِ ذَريعةً لانْتِقامِهِ شِفاءً لِغَليلِهِ.

خُيِّلَ إِلَيْها أَنَّ زَوجَها فَقَدَ كُلَّ رُجولةٍ. خُيِّلَ إِلَيْها أَنَّهُ أَحْمَقُ مَخْبولٌ لا يَحْفِلُ المَكارِمَ، ولا يُقيمُ وَزْنًا للشَّرَفِ.

فلمّا رَأَتْهُ مُقْبِلًا وفي عَيْنَيهِ شَرَرٌ كأَنَّهُ النَّارُ، وَجَفَ قَلْبُها خَوْفًا، ووَجَبَ وَجيبَ الذُّعْرِ والرَّهْبَةِ.

ونَظَرَتْ إِلَيْهِ مَتَسائلةً، فَرَأَتْ في عَيْنَيهِ الشَّرَّ مُجَسَّمًا، ورَأَتْ في حَرَكَتِهِ الوَيْلَ مُتَأَجِّمًا[1]، واسْتَنْتَجَتْ أَنَّهُ آتٍ إِلَيْها ليُسَوِّيَ الأَمْرَ مَعَها.

وصَدَقَ حَدْسُها، فقد كانَ مُتَجَهِّمًا، وتَهَجَّمَ عليها بالكَلامِ فحَمْلَقَتْ غيرَ مُصَدِّقةٍ.

ثُمَّ انْثَنى إِلى خِزانةِ ثِيابِها، ففَتَحَ «جارورًا» صَغيرًا تَضَعُ فيهِ أَوْراقَها الخاصّةَ، فصاحَتْ: «أَقْصِرْ... اِبْتَعِدْ... لا تَمُدَّ يَدَكَ!»

ولٰكِنَّهُ لم يَتَرَدَّدْ بَل دَفَعَ يَدَهُ داخِلَ «الدُّرْجِ» واسْتَخْرَجَ رُزْمةً صَغيرةً مِنَ الرَّسائِلِ.

فوَثَبَتْ كمَنْ أَصابَهُ مَسٌّ، وأَمْسَكَتْ بيَدِهِ، لٰكِنَّهُ دَفَعَها عنهُ بعُنْفٍ، ووَضَعَ الرُّزْمَةَ في جَيْبِهِ وهْوَ يَقولُ: «هَذِهِ الرَّسائِلُ، رَسائِلُ غَرامِكِ، إِنَّها لي، أَصْبَحَتْ لي، وسأَسْتَعْمِلُها في ما أَنْتَوي القيامَ بِهِ».

وصَرَخَتْ أَنّا في وَجْهِهِ، ووَجَّهَتْ إِلَيْهِ تَقْريعًا شَديدًا، إِلَّا أَنَّهُ حَدَجَها بنَظْرةٍ صارِمةٍ مُتَوَعِّدةٍ، وقالَ: «لَن يُجدِيَكِ احْتِجاجُكِ نَفْعًا، ولَن يَعودَ عَلَيْكِ صَخَبُكِ إِلَّا بالأَذى، فاجْلِسي وأَصيخي».

فصَدَعَتْ بالأَمْرِ مَشْدوهةً، وجَلَسَتْ وانْتَظَرَتْ قَوْلَهُ.

وتَكَلَّمَ الرَّجُلُ، فكانَ كمَنْ يَنْطِقُ بالحُكْمِ.

قالَ: «أَلَمْ أُنَبِّهْكِ؟ أَلَمْ أَنْهَكِ عن مُقابَلَةِ عَشيقِكِ في بَيتي؟»

قالَتْ ولِسانُها يَتَعَثَّرُ في حَلْقِها: «أَرَدْتُ أَنْ أُطْلِعَهُ على أَمْرٍ... أَرَدْتُ أَنْ أُخْبِرَهُ أَنْ...».

---

(١) مُتَأَجِّمًا: مُشْتَدًّا.

فعارَضَها بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «أَرَدْتِ فَقَطْ أَنْ تُقابِليهِ، وأَنْ تَقْضي مَعَهُ بَعْضَ الوَقْتِ».

فصاحَتْ: «تَبًّا لَكَ! أَلا تَقْتَنِعُ؟»

قالَ: «أَبِكَلماتِكِ أَقْتَنِعُ؟ هَل أُومِنُ بما تَزْعُمينَ، وأَنْتِ... أَنْتِ الَّتي...؟»

- «أَيُّها القاسي!»

- «أَنا لَسْتُ بالإِنْسانِ القاسي، بَل أَنا رَجُلٌ ديسَ شَرَفُهُ، وهُتِكَ عِرْضُهُ. وأَنْتِ، أَلَسْتِ لِصَّةً؟ وحَبيبُكِ مَنْ هُوَ حَبيبُكِ؟»

- «أَيُّها القاسي!»

- «أَلِأَنِّي أَنْهاكِ عن مُقابَلَةِ عَشيقِكِ في بَيْتي تَصِمينَني بالقَسْوَةِ؟ أَلِأَنِّي أُحاوِلُ أَنْ أُعاقِبَكِ على خِيانَتِك لي تَقولينَ إِنِّي مُتَعَنِّتٌ لا أَرحَمُ؟»

- «إِنَّكَ وَضيعٌ! ومَتى اجْتَمَعَتِ القَسْوَةُ مَعَ الضَّعَةِ تَناهى الرَّجُلُ في الصَّغارِ».

فحَمْلَقَ إِلَيها مُتَعَجِّبًا، وتَساءَلَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ عَن كُنْهِ هٰذِهِ المَرْأَةِ، وتَساءَلَ عَن طَبيعَتِها، فهَل هِيَ زَوْجَتُهُ أَنّا؟ هَل هِيَ الأُنْثى الَّتي عاشَرَها سِنينَ طَويلةً؟

ولَمّا انْتَصَبَتْ واقِفةً ومَشَتْ نَحْوَ البابِ لِتَذْهَبَ، اعْتَرَضَ سَبيلَها، وقالَ وهْوَ يُشيرُ بيَدِهِ إِشارَةَ الآمِرِ النَّاهي: «اِجْلِسي! لا تُبارِحي المَكانَ، فلي مَعَكِ كَلامٌ كَثيرٌ».

فهَزَّتْ كَتِفَيها وحاوَلَتْ تَجَنُّبَهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَبَضَ على ذِراعِها وضَغَطَ بشِدَّةٍ حتّى صَرَخَتْ، ثُمَّ دَفَعَها فانْهارَتْ على مَرْقَدِها وهْيَ تَتَأَوَّهُ وتَنْشِجُ.

ورَماها، وهْوَ ماثِلٌ فَوْقَها كما يَمْثُلُ إِلٰهُ النِّقْمَةِ، بنِظْرةِ احْتِقارٍ ساحِقةٍ وقالَ: «أَنْتِ تُثيرينَ غَضَبي، وتَأْخُذينَ عَلَيَّ اعْتِراضي على وُجودِ عَشيقِكِ في بَيْتي، أَلا فاعْلَمي أَنَّكِ أَقْسى مَنْ صادَفْتُ مِنَ النِّساءِ السَّاقِطاتِ! أَنْتِ لا تَخافينَ شَيْئًا، أَنْتِ لا تُشْفِقينَ على زَوْجٍ وَفِيٍّ وابْنِ طِفْلٍ ما زالَ مُسْتَقْبَلُهُ يَتَرَجَّحُ في كِفَّةِ ميزانٍ. فكَيفَ يُطاوِعُكِ قَلْبُكِ؟ كيفَ؟»

وأَنَّتِ المَرْأَةُ تَحْتَ ضَرَباتِ هٰذِهِ الكَلِماتِ، وذَرَفَتْ عَيناها دُموعًا غَزيرَةً، ولم تَنْطِقْ بحَرْفٍ، فقَد سَلَّمَتْ لهُ في قَرارَتِها بحَقِّهِ، فهْوَ مَظْلومٌ، وهْيَ باغِيَةٌ.

واسْتَطْرَدَ هُوَ يَقولُ: «وهَل هُناكَ في تَعابيرِ اللُّغةِ وأَلْفاظِها ما لا يَنْطَبِقُ السَّيِّءُ مِنْهُ على حالَتِكِ المُزْرِيةِ؟»

فأَجابَتْ مُتَلَعْثِمَةً: «وأَنا أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فلا تَتَمادَ في وَصْفِ ما أَعْرِفُ».

- «فكَيفَ ضَرَبْتِ بتَحْذِيري إِذًا عُرْضَ الحائِطِ؟»

- «وماذا تَطْلُبُ الآنَ؟ أَبِنْ عَن مَأْرَبِكَ، أَمِطِ اللِّثامَ عَن مَقْصَدِكَ».

- «فاعْلَمي إِذًا أَنِّي سَأَلْجَأُ إِلى القانونِ حتّى يُنْقِذَني مِن هٰذِهِ المُصيبَةِ النَّكْراءِ، سَأَفْعَلُ ما يَليقُ بي فِعْلُهُ، قَبْلَ أَنْ تُفيقي أَنْتِ أو عَشيقُكِ مِن نَشْوَتِكُما، وقَبْلَ أَنْ تَفيئا إِلى نَفْسَيْكُما».

قالَتْ: «افْعَلْ ما يَحْلو لَكَ، فليسَ أَحَبَّ إِلى نَفْسي مِنْ وَضْعِ حَدٍّ لِهٰذِهِ المَأْساةِ الَّتي طالَ أَمْرُها».

- «حتّى تُكَرِّسي لَهُ وَقْتَكِ كُلَّهُ، حتّى تَنْعَمي بحُبِّكِ المُلَوَّثِ!»

- «كَفى، كَفى... فاللَّغْوُ في مِثْلِ هٰذِهِ الحالِ لا يُغْني عَنِ الآلامِ».

- «وماذا يُغْني عَنِ الآلامِ؟»

- «أَلا تَشْعُرُ بالإِباءِ؟ أَلا تُشْفِقُ على امْرَأَةٍ صَرَعَتْها النَّائِباتُ؟ أَوَتَظُنُّني سعيدةً بما آلَتْ إِلَيْهِ نَفْسي؟ إِنِّي أَتَعَذَّبُ!»

- «إِنِّي أُشْفِقُ على نَفْسي أَيْضًا، نَفْسي الَّتي رَبَأْتُ بِها[1] عَنِ المُنْكَرِ، فابْتُلِيَتْ بما هُوَ شَرٌّ مِنَ المُنْكَرِ».

وعَظُمَتْ في ناظِرَيْها جَريمتُها، وأَنْبَأَها حِسُّها بأَنَّهُ أَهْلٌ لِكُلِّ شَفَقةٍ، فأَيْنَ الرِّجالُ الَّذينَ يَسْتَطيعونَ أَنْ يَحْتَمِلوا ما احْتَمَلَهُ؟ أَيْنَ الرِّجالُ الَّذينَ يَكْبِتونَ مشاعِرَهُمْ ويَتَعَذَّبونَ بصَمْتٍ وسُكونٍ ووَحْدَةٍ؟

ولٰكِنَّها جَمْجَمَتْ بأَسًى: «وماذا تَراني فاعِلَةً، لَقَد تَلاشَتْ قُوَّتي وتَخَلَّتْ عنّي إِرادَتي».

قالَ وكأَنَّهُ لم يَعِ كَلِماتِها: «لَقَد سَبَقَ السَّيْفُ العَذْلَ كما أَرى، وأُعْلِمُكِ أَنِّي مُسافِرٌ غَدًا إِلى موسكو، وأَنِّي عن هٰذا المَنْزِلِ مُبْتَعِدٌ لا أَرومُ رُجوعًا. سأَلْجَأُ إِلى مُحامِيَّ، وأَطْلُبُ إِليه أَنْ يقومَ بالإِجْراءاتِ الَّتي أُسَوِّي بها مَسْأَلَتَكِ، سأَطْلُبُ طَلاقَكِ. أَمّا ابْني فسَأَبْعَثُ بِهِ لِيَعيشَ في كَنَفِ شَقيقَتي».

---

(١) رَبَأْتُ بِها: نَزَّهْتُها.

فارْتَعَدَتْ فَريصَتُها وجَحَظَتْ عَيْناها وهَتَفَتْ بصَوْتٍ يُذيبُ الجَمادَ: «أَتَحْرِمُني حُشاشَتي؟ أَتَنْزَعُ مِنّي فِلْذَةَ كَبِدي؟»

- «لا مَنْدوحةَ لي عَنْ ذٰلِك، فهٰذا أَمْرٌ يُحَتِّمُهُ الواجِبُ».

- «أَوَتَنْتَقِمُ مِنِ امْرَأَةٍ يائِسَةٍ مُسْتَضْعَفةٍ؟»

- «بَل أُنْقِذُ طِفْلًا مِنْ حَمْأَةٍ».

- «بَيْدَ أَنَّكَ لا تُحِبُّهُ».

- «وهَل أَبْقَيْتِ لي مَجالًا لأُحِبَّ؟»

- «فاتْرُكْهُ لي إِذًا تَعْزِيَةً وسُلْوانًا!»

- «بَل إِنِّي آخُذُهُ مِنْكِ؛ هٰذا واجِبٌ يَفْرِضُهُ عَلَيَّ التَّقْليدُ والشَّرَفُ».

وخَطا خُطْوَتَينِ نَحْوَ المَخْرَجِ، فاعْتَرَضَتْ سَبيلَهُ وقالَتْ مُتَضَرِّعةً: «ارْحَمْني. اتْرُكْ لِيَ ابْني. لا تَصْفَحْ، لا تَغْفِرْ، بَلِ افْعَلْ هٰذا فَقَطْ، افْعَلْهُ، أَرْجوكَ!»

وشَرِقَتْ بدَمْعِها وزَفَرَتْ، فخُيِّلَ إِلى الرَّجُلِ أَنَّها تَنْفُخُ النّارَ. لٰكِنَّها تَمالَكَتْ وقالَتْ: «مَنْ ذا الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَسْلُبَ الأُمَّ ابنَها؟ مَنْ غَيْرُ الشَّيْطانِ؟!»

قالَ: «الشَّيْطانُ الَّذي يَرْحَمُ أَحْيانًا. فسيرحُ طِفْلٌ، وخَيْرٌ لَهُ أَنْ يَعيشَ وَحيدًا مِنْ غيرِ أُمٍّ، مِنْ أَنْ تَكونَ لَهُ أُمٌّ خَلَعَتِ العِذارَ وارْتَكَبَتِ المَعاصِيَ».

قالَتْ: «أَلا تَخافُ رَبَّكَ يا أَلِكْسيس كارنين؟ فَكِّرْ بما أَنْتَ فاعِلٌ، فَكِّرْ بقَلْبٍ تَسْعى إِلى تَمْزيقِهِ إِرْبًا إِرْبًا. اُحْكُمْ عَلَيَّ بالعَذابِ والمَوْتِ، ولٰكِنْ لا تَسْلُبْ نورَ عَيني، لا تَقْتَلِعْ قَلْبي مِنْ بينِ أَضْلاعي!»

فلم يُحِرِ الرَّجُلُ جَوابًا، وظَلَّ واقِفًا جامِدًا مُسْتَغْرِقًا في الفِكْرِ.

وأَتَمَّتْ: «كُنْ رَحيمًا، ولو أَسَأْتُ إِلَيْكَ، يَرْفَعْ عَنْكَ اللّٰهُ آلامًا كَثيرةً!»

قالَ: «إِنّي أَرْحَمُ الإِنْسانَ لضَعْفِهِ، ولٰكِنْ عَلَيَّ أَنْ أُعْنى بِوَلَدي فلا أَتْرُكَهُ لِيَنْشَأَ في أَحْضانٍ فاسِقةٍ».

نأَعْوَلَتْ أَنّا، وارْتَمَتْ على الأَرْضِ؛ وظَلَّتْ في مَكانِها وهْيَ تَنْشِجُ وتَنْتَحِبُ.

ونَظَرَ إِلَيها زَوْجُها قَليلًا، ثُمَّ غادَرَ الحُجْرةَ وهُوَ يُتَمْتِمُ: «أَنْتِ اخْتَرْتِ هٰذا المَصيرَ، فلْتَتَلَمَّظي بعَلْقَمِ جَريرَتِكِ».

* * *

أَمّا سَبَبُ اخْتِيارِ كارنينَ مَدينَةَ موسكو لِكي يُجْرِيَ فيها طَلاقَهُ مِنْ زَوْجِهِ، فيَرْجِعُ إِلى أَنَّ أَعْمالَهُ كانَتْ تَتَطَلَّبُ مِنْهُ القِيامَ بزيارةٍ لموسكو والمَكْثَ فيها زُهاءَ عَشَرةِ أَيّامٍ، وإِلى أَنَّهُ كُلَّما بَعُدَ عن بطرسبرجَ خَفَّتْ وَطْأَةُ اللَّغَطِ. والحَديثُ في شَأْنِهِ الخاصِّ أَكْرَهُ ما يَخافُ.

وقد ظَعَنَ في اليَوْمِ التّالي إِلى المَدينةِ. وبَعْدَ أَنِ اسْتَراحَ مِن وَعْثاءِ السَّفَرِ[1]، ذَهَبَ إِلى مُحامٍ شَهيرٍ مَشْهودٍ لهُ بالبَراعةِ وطُولِ الباعِ.

وانْتَظَرَ كارنينُ في قاعةِ الاسْتِقْبالِ حتّى بَرِمَ وعيلَ صَبْرُهُ. ولمّا رَأَى أَنَّ الوَقْتَ قَد يَطولُ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الرَّجُلُ مِنْ مُقابَلَةِ زُبُنِهِ جَميعًا، أَرْسَلَ لَهُ بِطاقتَهُ. وما أَسْرَعَ ما جاءَ المُحامي مُهَرْوِلًا! فحَيّاهُ وبَشَّ في وَجْهِهِ ثُمَّ صَحِبَهُ إِلى مَكْتَبِهِ.

ولمّا اسْتَتَبَّ المَقامُ بالرَّجُلَيْنِ وتَبادَلا كَلِماتِ المُجامَلَةِ، دَخَلَ كارنينُ في صُلْبِ المَوْضوعِ، فمالَ على المُحامي يَقولُ: «إِنَّ ما جِئْتُكَ مِن أَجْلِهِ قَضِيَّةٌ خاصَّةٌ لا مَفَرَّ لَكَ مِن إِحاطَتِها بالكِتْمانِ والسِّرِّيَّةِ».

فأَجابَ المُحامي وهُوَ يُقَطِّبُ قَليلًا، «ولا أَحْتاجُ إِلى تَنْبيهٍ يا سَيِّدي، فمَسْؤولِيَّةُ المُحامي كمَسْؤولِيَّةِ الطَّبيبِ».

وتَأَمَّلَ فيهِ كارنينُ للمَرَّةِ الثّانِيَةِ، واسْتَطْرَدَ: «أَنْتَ تَعْرِفُني ولا غَرْوَ؟»

قالَ: «أَجَل، فأَنْتَ وَزيرٌ مِنْ وُزراءِ روسيا، وهٰذا شَرَفٌ عَظيمٌ لي».

ولم يُجِبْهُ كارنينُ، بَل ظَلَّ صامِتًا شاخِصًا أَمامَهُ. وما عَتَّمَ أَنِ ابْتَدَرَ المُحامِيَ يَقولُ: «أَلا فاعْلَمْ إِذًا أَنَّ هٰذا الوَزيرَ زَوْجٌ مَخْدوعٌ لا يَرى نُدْحَةً مِنْ طَلَبِ الطَّلاقِ».

فقالَ المُحامي: «وأَنْتَ تُريدُ مِنّي أَنْ أُنْهِيَ المَسْأَلَةَ بحَسَبِ مَشيئَتِكَ».

قالَ: «هٰذا ما أَتَيْتُكَ مِنْ أَجْلِهِ، على أَنْ تَفْعَلَ اللّازِمَ ليَبْقى لي حَقُّ الاحْتِفاظِ بوَلَدي».

---

(١) وَعْثاءُ السَّفرِ: مَشَقَّتُهُ.

- «ثُمَّ؟»

- «ثُمَّ، أَوَدُّ أَنْ أَجْعَلَكَ على بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْري، إِنَّني الآنَ هُنا لِأَحْظى بمَشورَتِكَ ورَأْيِكَ. قَد يَقْتَصِرُ عَمَلُكَ الآنَ على إِسْداءِ مِثْلِ هٰذا الرَّأْيِ وتِلْكَ المَشورَةِ، وقَد يَقْتَضي قِيامُكَ بالإِجراءاتِ حتّى آخِرِ مَرْحَلَةٍ مِنْها. واعْلَمْ أَنَّ ما أَبْغيهِ مِنْ تَطليقِ زَوْجي يَرْتَهِنُ ببَعْضِ الشُّروطِ، وهٰذِهِ الشُّروطُ هِيَ لازمةٌ لي، ورُبَّما يَضْطَرُّني عَدَمُ تَوافُرِها إِلى عُدولي عَمّا أُريدُ.

- «هٰذا شأْنُكَ، وأَنْتَ حُرٌّ في ما تُريدُ».

- «فهَل لَكَ أَنْ تُحيطَني عِلْمًا بالخُطُواتِ الَّتي يَخْطوها المَرْءُ في مِثْلِ هٰذِهِ الحالِ؟»

- «أَوَتَبْغي مِنّي أَنْ أَسْرُدَ عَلَيْكَ التَّفاصيلَ؟»

-«نَعَمْ، افْعَلْ إِنْ كانَ هٰذا لا يُرْهِقُكَ ويُبَدِّدُ وَقْتَكَ».

- «اعْلَمْ أَنَّ التَّشْريعَ في بِلادِنا يُجيزُ الطَّلاقَ في أَحْوالٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوَّلُها: عَجْزٌ في الجِسْمِ أو نَقْصٌ مَعيبٌ في تَرْكيبِ الرَّجُلِ أَوِ المَرْأَةِ الطَّبيعِيِّ؛ ثانِيًا: هَجْرٌ طَويلُ الأَمَدِ، أَو على وَجْهِ التَّحْديدِ تَغَيُّبُ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ لِمُدَّةٍ لا تَقِلُّ عَن خَمْسَةِ أَعْوامٍ؛ ثالِثًا: الخِيانَةُ الثّابِتَةُ. فما هِيَ قَضِيَّتُكَ؟ وإِلامَ تَسْتَنِدُ؟»

فأَطْرَقَ كارنينُ ولم يُجِبْ.

واسْتَتْلى المُحامي وهْوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ: «ففي حالَتِكَ إِذًا، حالَةِ الخِيانَةِ الزَّوْجِيَّةِ، يَكونُ الجُرْمُ مُتَفَرِّعًا إِلى شُعْبَتَيْنِ: زِنى الزَّوْجَةِ بمُوافَقَةِ الزَّوْجِ، ووُقوعُها في الفَحْشاءِ في غَفْلَةٍ مِن زَوْجِها!»

قالَ: «وماذا تَعْني؟ أَوْضِحْ!»

قالَ: «قد يَتَّفِقُ أَنْ يَرى الزَّوْجانِ أَنَّ عَلاقَتَهُما شابَتْها غُيومٌ تَلَبَّدَتْ في سَمائِها حتّى حَجَبَتْها وكَدَّرَتْها، فيَنْفَصِلانِ مُتَّفِقَيْنِ، وتَعْمِدُ الزَّوْجَةُ إِلى الحَياةِ مَعَ حَبيبِها. وهٰذِهِ الخِيانَةُ لا تَحْتاجُ إِلى دَليلٍ في القَضاءِ، فَرِسالَةٌ واحِدَةٌ تَكْفي للظَّفَرِ بالحُكْمِ، والإِشْهادُ عَلَيْهِما في الجُرْمِ المَعْروفِ هُوَ كذٰلِكَ دَليلٌ لا يَحْتاجُ إِلى إِثْباتٍ. فما هِيَ قَضِيَّتُكَ، وكَيفَ تُريدُني أَنْ أَسيرَ بِها؟»

ونَظَرَ إِلى كارنينَ مُتَسائِلًا، واحْمَرَّ وَجْهُ الأَخيرِ ولم يُحِرْ جَوابًا.

وأَرْدَفَ المُحامي يَقولُ: «عَلَيْكَ أَنْ تكونَ شُجاعًا فتُفْضِيَ إِليَّ بالحَقيقَةِ، لا تَخْشَ سُوءًا، فكُلُّنا في المُصيبَةِ سَواءٌ!»

وتَمَلْمَلَ كارنينُ في مَجلِسِهِ، ثُمَّ انْتَصَبَ واقِفًا، وقالَ وهْوَ يَتَأَهَّبُ لِيَذْهَبَ: «عَلَيَّ أَنْ أُقَلِّبَ الفِكْرَ على مُخْتَلِفِ وُجوهِهِ، فذَرْني أَتأَمَّلْ في هٰذِهِ المَسْأَلةِ، وسأَرْجِعُ إِلَيكَ».

قالَ: «أَنْتَ في أُمورِكَ مُخَيَّرٌ، فافْعَلِ اللَّازِمَ، وثِقْ أَنّي على قَدَمِ الاسْتِعدادِ لخِدْمتِكَ في كُلِّ حينٍ».

ومَضى كارنينُ في سَبيلِهِ وهْوَ يَتَعَثَّرُ في مِشْيَتِهِ. لَقَد كَرَبَهُ الأَمْرُ حتّى انْحَنَتْ هامَتُهُ مِنَ الهَمِّ، فمَشى في الطَّريقِ مُتَّئِدًا مُسْتَغْرِقًا في الفِكْرِ، وهْوَ موقِنٌ أَنَّهُ أَشْقى شَقِيٍّ في الوَرى.

أسئلة تحليلية

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - حَلِّلْ شخصيَّةَ أَلِكْسيس كارنين من خلالِ الحوارِ الطَّويل الَّذي دارَ بينَه وبينَ زوجَتِهِ الخائنَةِ في هذا الفصلِ من الرّوايةِ.

٣ - هَل أُعْجِبْتَ بلُغةِ الحِوارِ هٰذا؟ وهَل جاءَتْ مُلائِمةً لشخصيَّةِ المُحاوِرِ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.

٤ - تمادَتْ أنّا كارنينا في التوسُّلِ إلى زوجِها واستعطافِهِ كَي يُبْقيَ لها ابنَها سيرج. فهَلِ اسْتَدَرَّ ذلكَ إشفاقَكَ؟ ولماذا؟

٥ - قد تَرى في شخصيّةِ كارنين ما لا يُعجِبُكَ في موقفِهِ من أنّا في هذا الحِوارِ. فهَل تَرى فيه نَموذَجًا لبعضِ النّاسِ، أو تَراهُ مُتَفرِّدًا شاذًّا في موقفِهِ هذا؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.

٦ - قالَ المحامي: «كُلُّنا في المُصيبةِ سَواءٌ». ماذا تحمِلُ هذهِ العبارةُ من دَلالاتٍ؟

٧ - عَرَفْتَ في هذا الفصلِ المَنْصِبَ الَّذي يَشغَلُهُ كارنين. فما هوَ؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّادس

مَشى كارنينُ، وما زالَ يَضْرِبُ في الطَّريقِ على غَيرِ هُدًى، حتّى الْتَقى بَغْتَةً استيفانَ أوبلنسكي شَقيقَ زَوْجتِهِ أنّا.

وقد أَجْفَلَ ساعةَ رَآهُ، فهْوَ مُنْصَرِفٌ بذِهْنِهِ عَنِ الجَميعِ، كارِهٌ لكُلِّ مُقابَلَةٍ، لا يَرْغَبُ في التَّحَدُّثِ مَعَ إِنْسانٍ، ولا سِيَّما هٰذا الرَّجُلُ الَّذي يُذَكِّرُهُ بأَنّا وخِيانَتِها.

وحَيّاهُ بإِيماءَةٍ، واسْتَمَرَّ يَمْشي، غَيْرَ أَنَّ أوبلنسكي اسْتَدارَ على عَقِبَيهِ وهَرْوَلَ وَراءَهُ، ثُمَّ قالَ بصَوْتٍ مُشْرَبٍ بالعَتَبِ: «أَتَأْتي إِلى موسكو ولا تُعَرِّجُ علينا؟ أَتَأْتي مِن دونِ أَنْ تَطْرُقَ بابَنا؟ هٰذا عَجيبٌ، هٰذا أَمْرٌ يُذْهِلُ!»

فقالَ كارنينُ بصَوتٍ خَشِنٍ أَجَشَّ: «إِنَّني في شُغْلٍ عَنِ الجَميعِ، ولَيْسَ لَدَيَّ مِنْ وَقْتي فُسْحَةٌ أَزورُ فيها الأَصْدِقاءَ».

ولم يَأْبَهْ أوبلنسكي لجَفائِهِ، بَل تابَعَ يَقُولُ بصَوتِهِ الجَهْوَرِيِّ: «لا مَنْدوحةَ لَكَ عَنِ المَجيءِ فنَحْنُ في شَوقٍ شَديدٍ إِلَيْكَ... واعْلَمْ أَنَّنا مَدْعُوّونَ غَدًا إِلى الِاحْتِفالِ الرَّائِعِ الَّذي يُحييهِ آلُ شرباتسكي بمُناسبَةِ خِطْبَةِ كاترينَ. أَوَتَعْلَمُ مَنِ الخَطيبُ؟ إِنَّهُ ليفينُ. ولا بُدَّ لكَ مِنْ حُضورِ الحَفْلَةِ مَعَنا».

- «ولٰكِنِّي راحِلٌ إِلى بطرسبرج».

- «فلْتَأْتِ إِذًا لتُشارِكَنا طَعامَ الغَداءِ، لأَنَّ داريا تَرْغَبُ كَثيرًا في رُؤْيتِكَ».

- «لَن أَتَمَكَّنَ مِنْ ذٰلِكَ».

- «حاوِلْ، أَرْجو أَنْ تُحاوِلَ».

ورَمَقَهُ بعَيْنَيْنِ مُتَوَسِّلَتَينِ لانَتْ إِزاءَهُما خُشونَةُ كارنينَ. لقد كانَ مُصَمِّمًا على مُجافاةِ هٰذا الرَّجُلِ؛ كانَ عازِمًا على الابْتِعادِ عَنهُ، حتّى لا يُضْطَرَّ إِلى مُصاحَبَةِ شَقيقِ زَوْجَتِهِ؛ لٰكِنَّهُ أَحَسَّ

بَعْدَ هٰذا الإلْحاحِ، بالمَيلِ إلَيهِ، وخَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ ومِنْ جَفْوَتِهِ.

وتَناهى إلَيْهِ وهُوَ يُفَكِّرُ، صَوْتُ أوبلنسكي يَتَساءَلُ: «وماذا يَحولُ دونَ مَجيئِكَ؟ هَل ثَمَّةَ ما يُقْلِقُ بالَكَ؟»

ففَكَّرَ كارنينُ قَليلًا وأَجابَ: «لم يَعُدْ بَيْنَنا رِباطٌ كالسَّابِقِ، لقد فَصَمْتُهُ أَنّا بمَحْضِ إرادَتِها».

فصاحَ الرَّجُلُ مَشْدوهًا: «أَفي حُلْمٍ أَنا؟ وهل تَقولُ الحَقيقةَ؟»

قالَ: «كُلَّها يا صَديقي، كُلَّها. وما مَجيئي اليَوْمَ إلى موسكو إلَّا لأُنْهِيَ عَلاقَتي بها بالطَّلاقِ!»

واصْفَرَّ وَجْهُ أوبلنسكي؛ لم يَكُنْ يَتَوَقَّعُ هٰذِهِ المُفاجَأَةَ الهائِلَةَ. ماذا؟ أَيُزْمِعُ كارنينُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ؟ وما السَّبَبُ يا تُرى؟

وتَرَنَّحَ وتَعَثَّرَ، ثُمَّ تَمالَكَ نَفْسَهُ قَليلًا، وقالَ مُتَلَعْثِمًا: «ما الخَطْبُ؟ هَل جَرى ما يَقْتَضي الطَّلاقَ؟»

- «أَجَلْ. فقَد حادَتْ أُخْتُكَ عَنِ الصِّراطِ!»

- كُنْ عاقِلًا يا أَلِكْسيس كما أَعْهَدُكَ، فَكِّرْ في الأَمْرِ قَبْلَ أَنْ تُقْدِمَ، لا تَكُنْ عَجولًا فتَنْدَمَ!»

- «بَيْدَ أَنَّ الحالةَ غَدَتْ لا تُطاقُ، وارْتَكَبَتْ أَنّا أَبْشَعَ فِعْلٍ تَرْتَكِبُهُ امْرَأَةٌ في مِثْلِ مَقامِها ومَنْزِلَتِها!»

- «وَيْ! أَحَقٌّ هٰذا؟»

- «وأَكْثَرُ مِنْهُ!»

- «على أَنَّ العَجَلَةَ تَعْقُبُها النَّدامَةَ، فتَرَوَّ، تَرَوَّ!»

- «ما أَكْثَرَ ما لزِمْتُ جادَّةَ الرَّوِيَّةِ والصَّبْرِ! ولا مِرْيَةَ أَنَّ جُمودي شَجَّعَها على التَّمادي».

- «ما أَرْوَعَ ما سَمِعْتُ! هٰذا أَمْرٌ لا أَكادُ أُصَدِّقُهُ! ففَكِّرْ ناشَدْتُكَ اللّٰهَ، فَكِّرْ. فلَكَ مَرْكَزُكَ، ولَكَ سُمْعَتُكَ، ولَكَ ابنُكَ».

- «فَكَّرْتُ في كُلِّ شَيْءٍ. لٰكِنَّها لم تُفَكِّرْ يَوْمَ داسَتْ كَرامَتي، وثَلَمَتْ عِرْضي، واسْتَباحَتْ شَرَفَ ابْني، لم تُفَكِّرْ... لم تُفَكِّرْ... وكأَنَّها جُنَّتْ، وكأَنَّها فَقَدَتِ الحِجى[1] والنُّهى[2]!»

- «تَعالَ إِلَيْنا، تَعالَ، قد تَجِدُ السَّلْوى والرَّأْيَ السَّديدَ لَدى داريا، فهْيَ مُخْلِصةٌ لأَصْدِقائِها، تَتَمَنّى لَهُمْ كُلَّ خيرٍ».

وتَرَدَّدَ كارنينُ ولم يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ.

وتابَعَ أوبلنسكي يَقولُ في تَوَسُّلٍ واسْتِعْطافٍ: «غَدًا... غَدًا... تَعالَ إلى بَيْتِنا غَدًا».

- «ولٰكِنِّي في حَيرَةٍ مِنْ أَمْري عَظيمَةٍ يا صاحِبي، فقَدْ آلَيْتُ أَنْ أَنْأَى بجانِبِي عَنْكُمْ، وها أَنْتَذا تُلِحُّ عَليَّ في أَنْ أَزورَكُمْ».

- «وماذا يَحْدوكَ على إِحْلالِ القَطيعَةِ مَكانَ الوِدادِ؟»

- «لأَنَّ انفِصامَ عَلاقتي بزَوجتي يُوجِبُ عَليَّ الِابْتِعادَ عَنْ سائِرِ أَفْرادِ العائِلَةِ».

- «على أَنَّ صَداقَتَنا راسِخةٌ لا يَخْلُقُ بالمَرْأَةِ أَنْ تُعَكِّرَها. أَنا مُخْلِصٌ في قَوْلي، ولم أَكُنَّ لَكَ طَوالَ أَيّامي إِلّا التَّجِلَّةَ والإِكْبارَ والحُبَّ...».

- «وأَنا أَشْكُرُ لَكَ طيبةَ قَلْبِكَ».

- «فهَل تَأْتي إذًا؟»

- «لا أَرى غَيْرَ ذٰلِكَ، فقَد سَلَبْتَني حُجَّتي».

وتصافَحَ الرَّجُلانِ، وابْتَسَمَ أَلِكْسيس كارنين في هٰذِهِ المَرَّةِ، ثُمَّ افْتَرَقا على ميعادٍ.

* * *

لم يَسْتَطِعْ كارنينُ أَنْ يَخْرُجَ عَن حَدِّهِ، لا، ولم يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْتَبدِلَ بأَدَبِ النَّفْسِ قِلَّةَ الذَّوْقِ.

ورَضَخَ لِلإِلْحاحِ واسْتَجابَ لنِداءِ الصَّداقَةِ، وجاءَ بَيْتَ أوبلنسكي في مُنْتَصَفِ نَهارِ اليَوْمِ التّالي.

---

1) الحِجى (جَمْعُهُ أَحْجاء): العَقْلُ.
2) النُّهى (مُفْرَدُهُ نُهْيَةٌ): العَقْلُ.

وكانَ هُناكَ رَجُلٌ في طَوْرِ الشَّبابِ يُدْعى بوشكينَ. وقد تَعَرَّفَ بهِ كارنينُ، وارْتاحَ إلى حَديثِهِ، ولا عَجَبَ في ذٰلِكَ، فالشَّابُّ صِحافِيٌّ مَشْهودٌ لَهُ بطُولِ الباعِ.

وتَناوَلَ الجَميعُ طَعامَهُمْ، وتَجاذَبُوا وهُمْ يَأْكُلونَ أَلْوانًا مِنَ الحَديثِ المُمْتِعِ الرَّصينِ.

وما زالَ البَحْثُ يَتَنَقَّلُ بافْكارِهِمْ مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْرٍ حتّى رَسا في نِهايَةِ الأَمْرِ على مَوْضوعِ المَرْأَةِ الرُّوسِيَّةِ، وهْوَ مَوْضوعٌ شائِكٌ طالَما أَقْلَقَ بالَ الحُكومَةِ وأَزْعَجَ رِجالَها، وسَبَّبَ كَثيرًا مِنَ القالَةِ بَيْنَ أَوْساطِ الشَّعْبِ.

فالمَرْأَةُ لُغْزٌ مُحَيِّرٌ، تارَةً يَرى النَّاسُ أَنَّها جديرةٌ بكُلِّ تَقْديرٍ، فيُطالِبونَ لَها بالمُساواةِ، وتارةً أُخْرى يَصِمونَها بالنَّقْصِ والتَّفاهَةِ ويُصِرُّونَ على بَقائِها حَيْثُ هِيَ.

أَمّا الصِّحافِيُّ القَديرُ فقَد كانَ مِنَ الفِئَةِ الَّتي تُطالِبُ لِلمَرْأَةِ بالمُساواةِ، لا تَرْضى مِنْها بَديلًا. فهْوَ يَرى أَنَّ المُساواةَ لو تَحَقَّقَتْ لنَهضَتْ مِن دونِ شَكٍّ بالمَرافِقِ المُتَأَخِّرةِ والنَّواحي المُتَخَلِّفةِ، ولَلاشَتْ إلى حَدٍّ كَبيرٍ ما تَجْنَحُ إليهِ المَرْأَةُ مِنْ خِيانَةٍ. فلو تَساوى الرَّجُلُ والمَرْأَةُ في نَظَرِ القانونِ، لخافَ الرَّجُلُ عاقِبَةَ الخِيانَةِ كما تَخافُها المَرْأَةُ، ولَتَرَدَّدَ الاِثْنانِ مِئَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يُقْدِما على اسْتِباحَةِ ذِمارِ العَلاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ المُقَدَّسةِ.

وفَزِعَ أوبلنسكي، وعَنَّفَ نَفْسَهُ على قِلَّةِ تَبَصُّرِهِ، وانْعِدامِ حِرْصِهِ، فالصِّحافِيُّ ثَرْثارٌ بطَبيعَتِهِ، ولو تَثَبَّتَ مِن عَدَمِ طَرْقِ هٰذا المَوْضوعِ بسابِقِ تَدْبيرٍ لَما تَحَرَّجَ المَوْقِفُ وتَأَزَّمَ.

وقَد تَجَهَّمَ وَجْهُ كارنينَ، وبَدا عَلَيهِ الاِنْفِعالُ، إلَّا أَنَّه كَبَتَ مَشاعِرَهُ، وصَبَرَ صَبْرًا جَميلًا، حتّى إذا فَرَغَ الجَميعُ مِنَ الطَّعامِ، ابْتَسَمَ كارنينُ ابتِسامةً مُغْتَصَبَةً لِكَي يُظْهِرَ لأوبلنسكي أَنَّ ما سِمِعَهُ لا يُؤَثِّرُ فيهِ. وما عَتَّمَ أَنْ قالَ مُوَجِّهًا الحَديثَ إلى الصِّحافِيِّ بصَوْتٍ هادِئٍ مُشْرَبٍ بلَهْجَةِ التَّهَكُّمِ والسُّخْرِيةِ، مَشوبٍ بشَيْءٍ مِنَ الغَيْظِ المَكْتومِ: «وعلى أَنَّ الأَمْرَ لا يَعْدو الإعْرابَ عَن رَأْيٍ لَكَ ورَأْيٍ لي، وإخالُ أَنَّ رَأْيَكَ يُناقِضُ رَأْيي؛ فالمَرْأَةُ مَخْلوقٌ مُتَأَخِّرٌ يَجِبُ تَسْييرُهُ وتَوْجيهُهُ، وعلى هٰذا يَتَعذَّرُ وَضْعُها في مَصافِّ الرَّجُلِ، أَي في المَقامِ الَّذي وَصَلَ إليهِ».

ولمّا هَمَّ بالاِنْتِقالِ إلى قاعَةِ الاِسْتِقْبالِ اسْتَوْقَفَهُ بوشكينُ، وقالَ: «إنَّ الخِيانَةَ كما أَكَّدْتُ لكَ هِيَ وَليدةُ الفارِقِ الَّذي تُؤَيِّدُهُ، يا سَيِّدي، أَلَمْ تَسْمَعِ البارِحَةَ ما جَرى؟»

- «وماذا جَرى؟»

- «لَقَد تَحَدّى الكونت بركنكوف غَريمَهُ في زَوجَتِهِ، وتَبارَزَ الِاثْنانِ فقُتِلَ العَشيقُ لساعَتِهِ».

ولَهِفَتْ نَفْسُ أوبلنسكي، ووَدَّ لَوِ اسْتَطاعَ أَنْ يُنَبِّهَ الرَّجُلَ الثَّرْثارَ إلى تَهَوُّرِهِ، وَدَّ لَو صَفَعَهُ على وَجْهِهِ. وحاوَلَ أَنْ يَصْرِفَ الِاثْنَيْنِ عَن مُتابَعَةِ الحَديثِ، فدَعاهُما إلى مُغادَرَةِ مائِدَةِ الطَّعامِ. غَيْرَ أَنَّ كارنينَ حَدَجَهُ بنَظْرَةٍ صارِمَةٍ، والْتَفَتَ إلى الصِّحافِيِّ وسَأَلَهُ، وكأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ كُلَّ كَلامِهِ: «وما السَّبَبُ؟ ماذا جَرى؟ أَشِجارٌ، أَمْ خِلافٌ في المَبْدَأِ؟»

قالَ الصِّحافِيُّ: «إِنَّها الخِيانةُ الزَّوْجِيَّةُ كما قُلْتُ لَكَ، ولا شَيءَ غَيرَها. وقَدْ أَثْنى الجَميعُ على الزَّوْجِ، فهْوَ شُجاعٌ دَلَّلَ بحَزْمٍ على شَجاعَتِهِ، واسْتَأْهَلَ بذٰلِكَ كُلَّ تَقْديرٍ».

وعَضَّ كارنينُ على نَواجِذِهِ، وتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ مِنْ شِدَّةِ ما أَلَمَّ بهِ مِنَ الكَرْبِ. وأَحْنى رَأْسَهُ، ثُمَّ مَشى برِفْقٍ إلى قاعةِ الِاسْتِقبالِ فتَهالَكَ على مَقْعَدٍ صَغيرٍ، وجَلَسَتْ داريا إلى جانِبِهِ واسْتَرَقَتْ إليهِ نَظَراتٍ خائِفَةً وَجِلَةً، لٰكِنَّها لم تَسْتَشِفَّ ما خالَجَ صَدْرَ الرَّجُلِ الغامِضِ، فتَمَلْمَلَتْ في ضيقٍ وقالَتْ: «لَكَمْ سَبَّبَ لي حُضورُكَ مِنْ سُرورٍ وانْشِراحٍ يا سَيِّدي، فأَنْتَ دائِمًا في القَلْبِ، أَنْتَ صَديقٌ يَرتاحُ الإنْسانُ إِلَيهِ كُلَّ الِارْتِياحِ».

فتَكَلَّفَ كارنينُ الِابْتِسامَ وأَجابَ: «هٰذا واجِبٌ تَقْتَضيهِ العُشْرَةُ والأُلْفَةُ يا سَيِّدَتي؛ وإِنّي، وايْمُ الحَقِّ، جَذِلٌ لهٰذِهِ الفُرصةِ».

- «وكم تُراكَ تَمْكُثُ بَينَنا؟»

- «سأَرْحَلُ على التَّوِّ، فأَعْمالي كَثيرَةٌ، وهْيَ تَضْطَرُّني إلى التَّجوالِ في المَناطِقِ البَعيدةِ عن موسكو».

وفَتَحَتْ داريا فاها لِتَتَكَلَّمَ، لٰكِنَّها أَطْبَقَتْهُ مِنْ دونِ أَنْ تَتَكَلَّمَ. ورَماها كارنينُ بنَظْرَةٍ لَطيفَةٍ شَجَّعَتْها على ما تُريدُ، فابْتَدَرَتْهُ تَقولُ: «لَقَد داخَلَني مِنْ مَوَدَّةِ أَنّا ما جَعَلَني دائِمًا في شَوقٍ إِلَيها، فكَيفَ هِيَ الآنَ؟»

قالَ: «إِنَّها وافِرَةُ الصِّحَّةِ والهَناءِ».

وقَطَّبَ قَليلًا وتَوَتَّرَتْ عَضَلاتُ وَجْهِهِ.

قالَتْ: «ومَعَ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ ما أَطْلُبُهُ مِنْكَ هُوَ مِنَ الأَسْرارِ الَّتي يَجِبُ كَتْمُها، فإِنِّي أَتَوَسَّلُ إِليكَ أَنْ تَبُثَّني هَمَّكَ، وتُطْلِعَني على دَفينِ أَمْرِكَ».

- «اِعْلَمي أَنَّ هٰذا الكَلامَ شَديدُ الوَطْأَةِ على نَفْسي، فحَوِّلي إِنْ أَرَدْتِ دَفَّتَهُ إِلى اتِّجاهٍ آخَرَ».

- «أَطْلُبُ الصَّفْحَ يا صَديقي، بَيْدَ أَنّي أُلِحُّ، فأَنْبِئْني بالخَبَرِ اليَقينِ، ولا تَكْتُمْ ما سَوْفَ يَفْشو ويَشيعُ».

- «إِنَّ زَوْجَكِ، إِنْ صَدَقَتْ فِراسَتي، قَصَّ عليكِ خَبَري».

- «إِنَّهُ قَدْ فَعَلَ، ولٰكِنْ بإِيجازٍ. فماذا تَأْخُذُ على أَنّا؟ ماذا فَعَلَتْ حتّى اسْتَوْجَبَتِ العِقابَ؟»

- «اِقْتَرَفَتْ أَحَطَّ جَريمةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَقْتَرِفَها امْرَأَةٌ مُتَزَوِّجةٌ».

- «أَكادُ أَنْ أُكَذِّبَ سَمْعي يا أَلِكْسيس كارنين».

- «بل صَدِّقي كُلَّ كَلِمةٍ. لَقَد نَكَثَتْ أَنّا بعَهْدِها، وطَعَنَتْ زَوجَها في قَلْبِهِ وشَرَفِهِ».

- «وماذا فَعَلَتْ؟»

- «اِرْتَكَبَتِ الفاحِشَةَ، اِرْتَمَتْ في أَحْضانِ الفُجورِ، شَرِبَتْ مِنَ المِياهِ الآسِنَةِ الَّتي تَسِمُ شارِبَها بالرَّذيلَةِ والخَنى».

- «لا، لا، لَنْ أُصَدِّقَ!»

- «هٰذا شَأْنُكِ، ولَكِ أَنْ تَصَدِّقي كَلامي، أو تَنْسُبيهِ إِلى الكَذِبِ الوَضيعِ».

- «أَنا واثِقَةٌ مِنِ اسْتِقامتِكَ، مُوقِنةٌ بكَرَمِ طِباعِكَ، لا أَرْتابُ، ومَعاذَ اللّٰهِ أَنْ أَرْتابَ في نَواياكَ. غَيْرَ أَنَّ الخِيانةَ لم تَخْطُرْ لي على بالٍ، فأَنا أَعْرِفُ أَنّا وأَحْتَرِمُها، وأُقَدِّرُ رَجاحَةَ عَقْلِها».

فتَلَهَّبَ كارنينُ غَضَبًا، وهَتَفَ مُتَأَجِّمًا مُحْتَدِمًا: «أَنْتِ تُدافِعينَ لمُجَرَّدِ الدِّفاعِ، أو لأَنَّ صَديقَتَكِ عَزيزَةٌ على نَفْسِكِ، لا تَرْضَينَ لها المَذَلَّةَ والهَوانَ. ولٰكِنْ، ما قَوْلُكِ في اعْتِرافِها؟ لَقَد اعْتَرَفَتْ لي هِيَ بِمَحْضِ إِرادَتِها، اِعْتَرَفَتْ بعَلاقتِها الأَثيمَةِ. وهَل يُعَدُّ الكَلامُ الَّذي يَنْطِقُ بِهِ إِنْسانٌ بمِلْءِ اخْتِيارِهِ لَغْوًا وهُراءً، وبخاصَّةٍ إِذا كانَ اعْتِرافًا؟»

- «إِعْتَرَفَتْ!...».

- «وقالَتْ إِنَّها تَنْظُرُ إلى السِّنينَ الَّتي قَضَتْها مَعي كَأَنَّها سِنو بُؤْسٍ وشَقاءٍ، وإِنَّ ما تَبَقَّى لَها مِنَ العُمْرِ سَوْفَ تَعْرِفُ جَيِّدًا كَيفَ تَقْضيهِ».

- «أَوَّهْ! وهَل في مِكْنَتي أَنْ أُوَفِّقَ بَينَ صَديقَتي أَنّا والخِيانَةِ الزَّوْجيَّةِ؟ أَنّا، تِلْكَ المَرْأَةُ العاقِلَةُ الأَبِيَّةُ، أَتَتَرَدَّى في مِثْلِ هٰذا الجَرْفِ!»

وغَصَّتِ المَرْأَةُ بريقِها، واخْتَنَقَ صَوْتُها.

أَمّا كارنينُ فقَدْ أَثَّرَ فيهِ كَثيرًا ما شاهَدَهُ مِنْ أَلَمِ داريا ورِقَّتِها، فسارَعَ يَقولُ: «تَغاضَيْتُ في أَوَّلِ الأَمْرِ، ولَم أَرِدْ أَنْ أُعاقِبَها مَعَ أَنَّ ذَنْبَها أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُغْتَفَرَ؛ لٰكِنَّها اسْتَغَلَّتْ سُكوتي وصَفْحي فعَمِلَتْ على قَتْلِ إِحْساسِ الشَّفَقَةِ في نَفْسي. لَكَمْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ تَفيءَ أَنّا إلى نَفْسِها وتَسْتَعيدَ رُشْدَها، لٰكِنَّها تَمادَتْ يا عَزيزتي داريا حتّى بَلَغَتِ الرُّوحُ التَّراقِيَ[1]...».

وتَنَفَّسَ الرَّجُلُ المَهيضُ الجَناحِ مِنْ كَبِدٍ حَرّى، وتابَعَ يَقولُ: «كُلُّنا يَخافُ الشَّكَّ، لأَنَّهُ يَمْزَعُ[2] الصَّدْرَ، ولٰكِنْ مَتى انْقَلَبَ الشَّكُّ يَقينًا مَزَّقَ الرُّوحَ. أَجَلْ، مَزَّقَ الرُّوحَ الشَّفّافَةَ الهُيولِيَّةَ الرَّقيقةَ. لقد ذَهَبَ الأَمَلُ يا داريا، وأَنا أَكْرَهُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيها، لأَنّي كُلَّما نَظَرْتُ رَأَيْتُ الرِّجْسَ مُجَسَّمًا، والفُحْشَ مُنْطَبِعًا بصورَةٍ مُرَوِّعةٍ في أَساريرِها».

- «هٰذا مُخيفٌ يا كارنينُ».

- «وأَخْوَفُ منهُ ما طَفِقْتُ أَشْعُرُ بهِ مِن نُفورٍ شَديدٍ مِنَ الطِّفْلِ البَريءِ. أَتُصَدِّقينَ؟ لَقَد أَصْبَحْتُ أَنْفِرُ مِنِ ابْني!»

- «يا لَكَ مِنْ شَقِيٍّ!»

- «إِنَّني أَشْقى مَنْ وُجِدَ، إِنَّني التَّعاسَةُ الَّتي تَفْزَعُ مِنها كُلُّ تَعاسَةٍ عَرَفَها الإِنْسانُ».

- «وعَلامَ عَوَّلْتَ؟ هَل عَزَمْتَ على طَلاقِها؟»

- «وهَل لي نُدْحةٌ مِنْ ذٰلِكَ ؟ أَلَدَيْكِ غَيرُ هٰذا الحَلِّ؟»

---

(١) التَّراقِيَ: مُفْرَدُها «تَرْقُوَةٌ»، وهِيَ العَظْمُ الَّذي في أَعْلى الصَّدْرِ بَينَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ والعاتِقِ.

(٢) يَمْزَعُ الصَّدْرَ: يُمَزِّقُهُ.

فلاذَتْ داريا بالصَّمْتِ، وأَغْمَضَتْ عَينَيها ثُمَّ فَتَحَتْهُما، فإِذا بالدُّموعِ تَتَرَقْرَقُ في حَدَقَتَيهِما، وإذا بها تَقولُ: «لا يَسْتَعْصي على مِثْلِكَ البَحْثُ عَن حَلٍّ آخَرَ».

- «وكَيفَ؟ هَل أَبْقى كما أَنا الآنَ؟ هَل أَصْبِرُ على هٰذا الضَّيمِ؟ لَقَدْ أَعْمَلْتُ الفِكْرَ طَويلًا، فما اهْتَدَيْتُ إِلى وَسيلةٍ أُخْرى سِوى الطَّلاقِ، أَمْ إِنَّكِ تُريدينَ مِنّي أَنْ يَكونَ لزَوجَتي زَوجٌ ثانٍ».

فتَصاعَدَ الدَّمُ إلى وَجْهِها، واسْتَعْبَرَتْ عَيناها، وأَنْشَأَتْ تُتَمْتِمُ بهَمْسٍ: «ما أَصْعَبَ المَوْقِفَ! ما أَصْعَبَ المَوْقِفَ!»

ثُمَّ اسْتَدارَتْ بَغْتَةً والتَفَتَتْ، وما عَتَّمَتْ أَنْ أَرْدَفَتْ: «ولٰكِنْ، ما قَوْلُكَ بما حَرَّمَهُ اللّٰهُ على عِبادِهِ؟ أَوَتُجيزُ ما يَمْنَعُهُ اللّٰهُ؟ أَوَتَضْرِبُ بوَصِيَّةِ اللّٰهِ؟ أَوَتَقْسو حَيثُ حَثَّنا اللّٰهُ على الرَّحْمَةِ؟ وماذا يَحْدُثُ؟ ماذا يَحِلُّ بها مَتى أَصْبَحَتْ بلا زَوْجٍ ووَلَدٍ؟ أَتَرْضى لها بالنِّهايةِ الرَّهيبَةِ الَّتي تَنْتَظِرُها إنْ تَخَلَّيْتَ عَنْها؟»

- «ما أَكْثَرَ ما أَرْمَضَني هٰذا الفِكْرُ! وما أَكْثَرَ ما عَذَّبَني! بَيْدَ أَنّي رَأَيْتُ أَخيرًا أَنْ أَسْحَقَ نَأْمةَ الرَّحْمَةِ والشَّفَقَةِ، وأَبْحَثَ عَمّا يَنْفَعُني ويُخَفِّفُ أَلَمي».

- «إِذًا . . .».

- «مَنَحْتُها الفُرْصَةَ لتَتوبَ وتَرْجِعَ، مَنَحْتُها الفُرصَةَ لِتُقْلِعَ، فلم تَرْتَدِعْ، بَل أَسْرَفَتْ في اسْتِهْتارِها، ووَصَلَ بها جُنُونُها إِلى دَرَجَةٍ لم تَتَوَرَّعْ مَعَها عَنِ اسْتِقْدامِ عَشيقِها إِلى بَيتِها، بَيْتي أَنا. أَبَعْدَ هٰذا كُلِّهِ تَطْلُبينَ إِليَّ أَنْ أُحْجِمَ عَنِ الطَّلاقِ؟»

- «نَعَمْ ، ما زِلْتُ مُصِرَّةً على اسْتِحْلافِكَ بكُلِّ عَزيزٍ وغالٍ أَنْ تَنْزِعَ هٰذِهِ الفِكرةَ الكَريهةَ مِنْ رَأْسِكَ».

- وبماذا تُشيرينَ؟ ماذا أَفْعَلُ غيرَ ذٰلِكَ؟»

- «أَلِكْسيس كارنين! كُنْ إِنْسانًا. كُنْ ذٰلِكَ الإِنْسانُ الَّذي عَرَفْتُ وأَحْبَبْتُ. كُنْ إِنْسانًا، وضَحِّ مِنْ أَجْلِ روحِها الخائِرَةِ. ضَحِّ بكُلِّ شَيْءٍ، ولا تُضَحِّ بامْرَأَةٍ ضَلَّتِ السَّبيلَ؛ لا تَقْذِفْ بها في الحَمْأَةِ، واللّٰهُ بَصيرٌ وسَوْفَ يُكافيكَ ويُجازيكَ».

- «وما الحيلةُ؟ أَنْبِئيني».

- «فكِّرْ أَنْتَ، ولا تُفَوِّضْ أَمْرَكَ إلى اليأْسِ».

- «طالَما فَكَّرْتُ، وطالَما قَدَحْتُ زِنادَ الفِكْرِ، فلَمْ أَصِلْ إلى نَتيجةٍ. على أنّي لا أُنْكِرُ فضْلَكِ، ولا يَسَعُني إلّا شُكْرُكِ. إنَّني ذاهِبُ الآنَ فثَمَّةَ ما يَضْطَرُّني إلى مُبارَحَتِكُمْ».

- «تَرَيَّثْ يا كارنينُ، اِتَّقِ قَليلًا، ولا تَهَبِ التَّقاليدَ الباليَةَ، بَل ثِبْ إلى الأمامِ، واظْفِرْ بنَزْعَتِكَ الإنسانِيَّةِ السَّامِيَةِ».

- «تَطْلُبينَ المُحالَ».

- «بَل أَطْلُبُ المُسْتَحيلَ مِنْ شَخْصٍ قادِرٍ على كُلِّ مُسْتَحيلٍ. أَلَمْ يَفْعَلْ بي زَوجي ما فَعَلْتَهُ أَنّا بِكَ؟ أَلَمْ أُباغِتْهُما مُتَلَبِّسَيْنِ هِيَ وزَوجي؟ وصَمَّمْتُ على أَنْ أَبْتَعِدَ عَنهُ، أَنْ أَهْجُرَ بَيْتَهُ، لٰكِنَّ أَنّا جاءَتْ مُهْرِعَةً وحَدَّثَتْني حَديثَ الرَّحْمةِ، ففِئْتُ إلى نَفْسي، وثابَ إِلَيَّ رُشْدي، وأَنْقَذْتُ بَيْتي مِنَ الدَّمارِ».

- «وكَيفَ تَشْعُرينَ اليَوْمَ؟»

- «رَجَعَتْ إِلَيَّ سَعادَتي بفَضْلِ أَنّا، ولَن يَعْزُبَ[1] عَنِّي مَهْما امْتَدَّ الأَجَلُ ما فَعَلَتْهُ وما ادَّتْهُ. لَقَد صَفَحْتُ وعَفَوْتُ، فانْسُجْ على مِنْوالي، واصْفَحْ صَفْحًا جَميلًا تَلْقَ عاقِبَةً جَميلَةً».

فهَزَّ رَأْسَهُ بشِدَّةٍ وأَجابَ: «يُؤْسِفُني أَنْ أُخَيِّبَ رَجاءَكِ، فلَسْتُ قادِرًا على الصَّفْحِ! لا يُمْكِنُ ذٰلِكَ، فدونَ العَفْوِ خَرْطُ القَتادِ!»

- «أَوَتُخْلِفُ ظَنّي فيكَ؟»

- «قُلْتُ يُؤْسِفُني ذٰلِكَ. وتَأَكَّدي أَنَّ إصْراري لا يَنِمُّ عن ظُلْمٍ أو طُغْيانٍ أو قَسْوةٍ وتَحَجُّرٍ. أَنا لا أَكْرَهُ أَيَّ شَخْصٍ في الوُجودِ، على أَنَّها عَلَّمَتْني المَقْتَ، عَلَّمَتْني المَقْتَ الشَّديدَ الَّذي يَتَلَظّى ويَسْتَعِرُ».

وطَفَرَتْ عَبْرَةٌ مُحرِقَةٌ مِن عَينَيهِ، فمَسَحَها بظَهْرِ يَدِهِ واسْتَتْلى: «ما أَجْمَلَ الصَّفْحَ يا داريا ساعةَ يَسْتَحِقُّهُ الإنسانُ، أَمّا أَنْ تَصْفَحي عَنِ امْرَأَةٍ فاجِرَةٍ حطَّمَتْ بيتَها، وما زالَتْ، فجَريمةٌ نَكْراءُ، وإِخالُ أَنَّ اللّٰهُ تَعالى لا يُبارِكُ مَنْ يَصْفَحُ عَنها!»

---

(١) يَعْزُبُ عَنّي: يَغيبُ عَنّي.

وصَمَتَ فَيْنةً ثُمَّ مَضى يَقُولُ: «ولا أرى في ما أَبْدَيْتِ رَأْيًا سَديدًا، لا أرى في ما قُلْتِ ما يَقْوى على ثَنْيي عَن عَزيمَتي. إِنَّني صَمَتُّ مَلِيًّا، وصَبَرْتُ مَلِيًّا، لٰكِنِّي مُضْطَرٌّ الآنَ إِلى أَنْ أُدافِعَ عَن نَفْسي حتّى أَطْمَئِنَّ في بَيتي وبَلَدي».

يا لَشِدَّةِ العَيْشِ مَتى حَزَبَ الأَمْرُ!

يا لَلنَّفْسِ مَتى جَرى ما يُضْعِفُها ويُذِلُّها!

وكُلُّنا سَواءٌ، أَرَضينا أَمْ كَرِهْنا.

كُلُّنا سَواءٌ، نَخْضَعُ، ثُمَّ نَتَمَرَّدُ، ونَصْبِرُ، ثُمَّ يَنْفَدُ صَبْرُنا.

كُلُّنا سَواءٌ، وكُلُّنا هَباءٌ...

* * *

ذَهَبَ كارنينُ في جَولتِهِ العَمَلِيَّةِ في ضَواحي موسكو وفي الأَمْكِنةِ البَعيدةِ، ثُمَّ قَفَلَ راجعًا بَعْدَ بِضْعةِ أَيّامٍ وهْوَ مُعَوِّلٌ على استِئْنافِ السَّعْيِ للظَّفَرِ بالطَّلاقِ.

ولٰكِنَّهُ ما كادَ يَسْتَريحُ في الفُنْدُقِ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ، حتى وَصَلَتْهُ بَرْقِيَّةٌ مِن بطرسبرج، ما إِنِ اطَّلَعَ على مُحْتَواها حتّى دُهِشَ وتَوَلّاهُ الِاضْطِرابُ، كما أَصابَهُ هَلَعٌ شَديدٌ.

فقَد جاءَ في البَرقِيَّةِ: «أَنا أَكادُ أُفارِقُ الحَياةَ، فعُدْ بِسُرعةٍ، تَعال قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ، لأَنَّ نَفْسي المُعَذَّبَةَ لَنْ تَهْجَعَ في لَحْدِها وتَسْتَريحَ قَبْلَ أَنْ أَنالَ صَفْحَكَ وغُفْرانَكَ».

«أَنّا»

وأَدْخَلَ الشَّكُّ في رُوعِهِ أَنَّ أَنّا تَرومُ خَدْعَهُ، وأَنَّ حالَتَها طَيِّبَةٌ لا تَسْتَدْعي القَلَقَ والخَوفَ.

ولم يَحْزِمْ أَمْرَهُ عَلى شَيءٍ، بَل أَعادَ تِلاوَةَ البَرْقيَّةِ، وتَمَعَّنَ في الكلِماتِ والمَعاني، وتَساءَلَ عن خَطْبِها. تُرى هَل أَصابَها مَكْروهٌ؟ إِنَّ الجَنينَ الَّذي حَمَلَتْهُ سِفاحًا أَبى أَنْ يَبْقى لِيَعيشَ شَقِيًّا مَنبوذًا مَقْصِيًّا..!

إِنَّها تَطْلُبُ الغُفْرانَ. أَفَيَبْخَلُ عَلَيْها بمَشيئَتِها الأَخيرَةِ؟ أَفَيُخَيِّبُ رَجاءَ امْرَأَةٍ مُحْتَضَرَةٍ؟

كلّا. كلّا. وإِنْسانِيَّتُهُ الصّادِقَةُ تَتَمَرَّدُ على إِرادَتِهِ إِنْ أَزْمَعَ على رَفْضِ مُلْتَمَسِها، وتَرَكَها

تموتُ والحَسْرَةُ تَنْهَشُ كَبِدَها.

وقامَ لِساعَتِهِ، فرَتَّبَ شُؤونَهُ، وانْتَظَرَ مَوْعِدَ القِطارِ، فرَكِبَهُ في طَريقِهِ إلى بطرسبرج، وهُوَ يَبْتَهِلُ إلى اللّٰهِ أَنْ يَصِلَ قَبْلَ أَنْ تَلْفِظَ المُشْفِيَةُ[1] أَنْفاسَها الأَخيرَةَ.

ولٰكِنَّهُ، في الوَقْتِ عَيْنِهِ، كانَ يُؤَكِّدُ لنَفْسِهِ أَنَّهُ لَن يَتَأَخَّرَ لَمْحَةً عَنِ الرُّجوعِ إِنِ اكْتَشَفَ باطِلَها، وعَلِمَ أَنَّها غَرَّرَتْ بِهِ وخَدَعَتْهُ لحاجةٍ في نَفْسِها ونَفْسِ حَبيبِها!

وتَقابَلَ وَجْهًا لِوَجْهٍ مَعَ الحاجِبِ، فابْتَدَرَهُ يَسْأَلُهُ عن زَوْجَتِهِ، فأَحْنى الرَّجُلُ هامَتَهُ وابْتَسَمَ ثُمَّ أَجابَ: «إِنَّها مَريضةٌ يا سَيِّدي، وقد وَضَعَتْ أَمْسِ مَولودًا أُنْثى».

فباتَ وَجْهُ كارنينَ كوُجوهِ المَوْتى، وسُمِّرَ إلى الأَرْضِ، وأُلْجِمَ لِسانُهُ فلم يَنْطِقْ. ووَدَّ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ الحالِكَةِ لَو قالَ لَهُ الحاجِبُ: «لَقَد قَضَتْ سَيِّدَتي نَحْبَها!»

لٰكِنَّها مَريضَةٌ كما قالَ الرَّجُلُ، فلَعَلَّها تُبِلُّ[2] مِنْ مَرَضِها، لَعَلَّها تَنْهارُ فيَتَخَرَّمَ روحَها القَذِرَةَ المَوْتُ الزُّؤامُ[3]!

وعادَ يَسْأَلُهُ: ماذا أَصابَها؟ ما هُوَ وَصَبُها[4]؟»

قالَ: «لا أَدْري بالتَّمامِ، على أَنَّ الطَّبيبَ لا يُبارِحُ مَخْدَعَها».

وتَقَدَّمَ كارنينُ مُطَأْطِئَ الرَّأْسِ، يَشْعُرُ بالمَضَضِ المُتَناهي ويَكادُ يَنوءُ تَحْتَ ثِقْلِ الضَّرَباتِ المُتَلاحِقَةِ.

وأَخَذَتْ عَيْنُهُ في زاوِيَةٍ مِعْطَفًا عَسْكَرِيًّا، فحَمْلَقَ فيهِ مَذْعورًا، وما عَتَّمَ أَنْ سَأَلَ خادِمًا آخَرَ عن صاحِبِهِ. فتَرَدَّدَ الخادِمُ وأَجابَ: «إِنَّهُ... إِنَّهُ مِعْطَفُ الكونتِ فرونسكي».

وتَلَفَّتَ حَوْلَهُ، وخَطا إلى الأَمامِ مُجْفِلًا مُحتارًا. وإذا ببابِ غُرْفَةٍ أَنّا يُفْتَحُ بسُكونٍ، وتَخْرُجُ منهُ القابلةُ بثَوْبِها الأَبْيَضِ. فلمّا شاهَدَتْهُ حَيَّتْهُ ببَسْمَةٍ طَفيفةٍ وابْتَدَرَتْهُ تَقولُ: «لَقَد أَتَيْتَ، وهٰذا مِنْ حُسْنِ الحَظِّ، فهِيَ لا تَفْتَأُ تَطْلُبُكَ وتُرَدِّدُ اسْمَكَ».

---

(١) المُشْفِيَةُ: المُشْرِفَةُ على المَوْتِ.

(٢) تُبِلُّ مِن مَرَضِها: تُشْفى مِن مَرَضِها.

(٣) المَوْتُ الزُّؤامُ: المَوْتُ الكَريهُ.

(٤) وَصَبُها: وَجَعُها.

وارْتَفَعَ صَوْتٌ أَجَشُّ يُهيبُ بالقابلةِ أَنْ تُسْرِعَ بآنيةِ الثَّلْجِ، فأَدْرَكَ أَنَّهُ الطَّبيبُ المُداوي، وأَنَّهُ يَحُثُّ الخادِمَ على الإِسْراعِ بإِحضارِ الثَّلْجِ. ولَوْلا أَنَّ حالةَ أَنّا سَيِّئةٌ لَما عَلا صَوْتُ الطَّبيبِ، ولَما تَهَدَّجَ غَضَبًا.

ودَلَفَ رَبُّ البَيْتِ إِلى حُجْرَةٍ صغيرَةٍ تَجاوِرُ مَخْدَعَ النَّوْمِ فَرَأى فرونسكي جالِسًا على الأَريكَةِ، وسَمِعَهُ يَنْشِجُ بالبُكاءِ.

وتَناهى إِلى الشَّابِّ المُكْتَئِبِ رِكْزٌ[1] خَفيفٌ، فرَفَعَ رَأْسَهُ، ووَقَعَ طَرْفُهُ على كارنينَ، فارْتَجَفَ وارْتَعَشَ، وتَمَلْمَلَ في مَكانِهِ كأَنَّهُ يَنْوي الوُقوفَ، ثُمَّ عادَ فتَراخى ومالَ برَأْسِهِ إِلى جانِبٍ.

وعادَ فنَهَضَ واقِفًا وتَقَدَّمَ مِن كارنينَ خُطْوَةً، وقالَ: إِنَّ زَوْجَتَكَ تَسيرُ بسُرْعَةٍ نَحْوَ المَوتِ، إِنَّها تُحْتَضَرُ. وأُصارِحُكَ بأَنّي طَوْعُ أَمْرِكَ في كُلِّ ما تَطْلُبُ، على أَنْ تَتْرُكَني الآنَ فلا تَطْرُدَني».

وانْثَنى كارنينُ برَأْسِهِ كأَنَّهُ لا يَوَدُّ أَنْ يَرى فرونسكي، ثُمَّ عَجَّلَ فتَقَدَّمَ مِنَ المَخْدَعِ، ووَقَفَ مُرهِفًا أُذُنَيهِ.

أَصاخَ كارنينُ، وتَناهى إِلَيْهِ صَوْتُ امْرَأَتِهِ، فحاوَلَ أَنْ يَلْتَقِطَ الكَلِماتِ الَّتي كانَتْ تَتَفَوَّهُ بها. كانَتْ تُثَرْثِرُ بِسُرْعَةٍ، وتَهْضُلُ[2] بكَلِماتِها بصَوْتٍ قَوِيِّ النَّبْرَةِ، وكأَنَّهُ بَتَّ في أَمْرٍ تَرَدَّدَ فيهِ كَثيرًا. فدَفَعَ البابَ برِفْقٍ ودَخَلَ، وأَلْقى على المُحتَضَرَةِ نَظْرَةً وَجِلةً، فإِذا بها مُسْتَلْقِيةٌ على مَضْجَعِها، وقَد جَحَظَتْ عَيْناها، وتَضَرَّجَ مُحَيّاها، وتَفَصَّدَ العَرَقُ مِنْ جَبينِها. وكانَتْ تَهْذي بكَلِماتٍ مُتَقَطِّعَةٍ لا مَعْنًى لَها. كانَتْ تَهذي وتَقولُ:

«يا أَلِكْسيس كارنين... ويا أَلِكْسيس... وَيْ! اسْمٌ واحِدٌ لكِلَيْهِما! أَمُصادَفَةٌ هِيَ أَمْ نِقْمَةٌ مَصْبوبَةٌ على رَأْسي؟! أَلِكْسيس كارنين، أَيْنَ أَنْتَ أَيُّها الزَّوْجُ الرَّضِيُّ الخُلُقِ؟ أَما تَأْتي؟ لَقَد دَعَوْتُكَ، فأْتِ.. أَنْتَ كَريمُ النَّفْسِ، أَنْتَ سَمْحٌ لا تُعاقِبُ، فتَعالَ، أَرْجوكَ. أَكادُ أَخْتَنِقُ... أَكادُ أَموتُ. أَعْطوني ماءً. أَعْطوني دَواءً... ماذا جَرى لي؟ وأَيْنَ طِفْلَتي؟ اِحْموها مِنْ كُلِّ سوءٍ. أَطْعِمُوها. أَرْضِعُوها. ولٰكِنَّهُ سَيَتَعَذَّبُ ساعَةَ يَسْمَعُ ويَرى. فما

---

(١) رِكْزٌ: صَوْتٌ خَفِيٌّ.

(٢) تَهْضُلُ أو تَهْضِلُ بالكَلامِ: تُكْثِرُ مِنْهُ عَلى اضْطِرابٍ، تَنْطَلِقُ فيهِ.

العَمَلُ؟ رَبّاهُ! ما العَمَلُ؟...».

ورَدَّ عَليها الطَّبيبُ وهْوَ يَمْسَحُ على جَبينِها المُلْتَهِبِ بِمِنْديلٍ مُبْتَلٍّ: «إِنَّهُ هُنا يا سَيِّدتي أَنّا، إِنَّ زَوْجَكِ مَعَكِ هُنا».

فلَمْ تَعِ ما قالَهُ، ولم ترَ بعَينَيها المُفَتَّحتَينِ إِلّا أَشْباحًا وأَطْيافًا، ومَضَتْ هِيَ تَهْذي وتَقولُ: «أَيْنَ طِفْلتي، حَبيبتي؟ هاتوها... إِنَّني أَرْغَبُ في رُؤْيَتِها... ما بالُه تَمَنَّعَ؟ لِمَ لَمْ يَأْتِ؟ وَيْلاه! إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ، فقَد آلى أَلّا يَصْفَحَ عَنّي.. أَنا واثِقةٌ مِنْ ذٰلِكَ. فهْوَ شَديدُ المِراسِ، يَحْلُمُ كَثيرًا، ويَصْبِرُ طَويلًا. فإذا غَضِبَ لا يَسْتَلُّ الغَضَبَ مِنْ قَلْبِهِ شَيءٌ، حتّى المَوتُ..».

وتَفَتَّحَتْ عَيناها المُفَتَّحتانِ، وانْجابَتِ الغَشاوَةُ الَّتي كانَتْ تُظَلِّلُهُما، فرَأَتْ زَوْجَها، واضْطَرَبَتْ، وارْتَعَدَتْ. وما أَسْرَعَ ما صَرَخَتْ بصَوتٍ مُبْحوحٍ: «هُوَ هُنا، فلْيَعْلَمْ أَنّي مُطْمَئِنَّةٌ لا أَرْهَبُ نَظْرَتَهُ الصّارِمَةَ... أَمّا المَوْتُ... أَوَّه! اِبْتَعِدْ يا مَوْتُ، اِبْتَعِدْ! أَيُّها الطَّبيبُ، اِصْنَعْ شَيئًا... ادْرَأِ المَوْتَ عَنّي».

ولم يُطِقْ كارنينُ صَبْرًا، وذابَ قَلْبُهُ شَفَقَةً، فانْحَنى ثُمَّ جَلَسَ على حافَةِ السَّريرِ، ورَبَّتُ يَدَها السّاخِنَةَ، وأَمْسَكَ بها كأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يُطَمْئِنَ زَوْجَهُ إلى صَفْحِهِ. وما لَبِثَ أَنْ أَغْمَضَ عَينَيهِ؛ ومِن جَفْنَيهِ المُسْبَلَيْنِ سَحَّتْ عَبَراتُ رَجُلٍ لا يَضْطَغِنُ على امْرِئٍ ولا يَحْمِلُ سَخيمَةً[1].

ولٰكِنَّ يَدَ زَوجتِهِ اخْتَلَجتْ في يَدِهِ، فحَدَّقَ إِلَيها مُسْتَطْلِعًا، وانْبَرَتْ أَنّا تَقولُ: «أَلا شُكْرًا على مَجيئِكَ، ولَسْتُ أَرْغَبُ إِلَيكَ إِلّا في أَمْرٍ واحِدٍ، في مَغْفِرَتِكَ، فاصْفَحْ عَنّي، اِضْرِبْ صَفْحًا عَن سَيِّئَتي!»

وقالَ الرَّجُلُ المُتَأَلِّمُ: «أَنّا...».

لٰكِنَّها لم تَتْرُكْهُ يُتِمُّ، بل تابَعَتْ: «أَنا أَمْضي بسُرْعَةٍ إِلى عالَمِ المَجْهولِ، وقَد طَلَبْتُكَ، تَضَرَّعْتُ إِلَيكَ أَنْ تَأْتِيَ، وها أَنتَذا هُنا، ولَن أَنْسى، وأَنا هُناكَ... بَعيدًا، أَنَّكَ كَريمٌ رَحيمٌ مُتَأَصِّلٌ في الشَّرَفِ».

---

(١) السَّخيمَةُ: الضَّغينَةُ، الحِقْدُ.

وتَبَدَّلَتْ حالُ كارنينُ، وانْتَقَلَ بِهِ الشُّعورُ مِنَ الأَلَمِ الشَّديدِ إلى الاطْمِئْنانِ المُتَناهي. وتَذَكَّرَ بَيِّناتٍ مِنَ الكِتابِ المُقَدَّسِ، تَذَكَّرَ كَلِماتٍ رائِعةً نَطَقَ بها السَّيِّدُ المَسيحُ وهْوَ يُوصي بالصَّفْحِ والمَغْفِرَةِ، ويَحُثُّ الإنْسانَ على أَنْ يُحِبَّ حتّى عَدُوَّهُ. وأُفْعِمَ شُعورُهُ بِسُمُوِّ هٰذِهِ المَحَبَّةِ. أَجَلْ، أُفْعِمَ قَلْبُهُ بِرَوعةِ هٰذِهِ العاطِفَةِ النَّبيلَةِ: أَحْبِبْ عَدُوَّكَ... أَحْبِبْ عَدُوَّكَ... أَحْبِبْ مَنْ يَبْغُضُكَ. وجَثا قُرْبَ السَّريرِ، وانْحَنى بِرَأْسِهِ حتّى لامَسَ جَبينُهُ يَدَ أَنّا واسْتَخْرَطَ في البُكاءِ.

وجَمَدَ الكُلُّ في أَماكِنِهِمْ مَشْدوهِينَ، وتَحَرَّكَتْ أَنّا في مَكانِها، فمَسَحَتْ على رَأْسِهِ الخالي مِنَ الشَّعْرِ بيَدِها، وتَمْتَمَتْ بصَوْتِ الظّافِرِ الجَذِلِ: «إِنَّهُ صَفَحَ... صَفَحَ... فيا لَلرَّجُلِ النَّبيلِ! بَيْدَ أَنَّني أَوَدُّ أَنْ أَراهُ، أَرى الشّابَّ، الشّابَّ. فأَيْنَ هُوَ؟ ادْعوهُ إِلَيَّ...».

وهَتَفَتْ: «فرونسكي... فرونسكي...».

وجاءَ الشّابُّ المُلْتاعُ، وحَدَّدَ في المَريضةِ حَبيبَتِهِ نِظْرةَ المُتَأَمِّلِ الفاحِصِ، ولَهِفَتْ نَفْسُهُ، فأَشاحَ وَجْهَهُ وتَأَوَّهَ وزَفَرَ.

لٰكِنَّها ابْتَدَرَتْهُ تَقولُ: «ما بالُكَ؟ أَلا تَصْبِرُ على مَكْروهٍ؟ أَلا تَنْظُرُ إِلَيهِ، إلى زَوجي؟ أُنْظُرْ إِلَيهِ، إلى الرَّجُلِ الكَبيرِ، إلى المَلاكِ الطّاهِرِ».

فلم يَتَحَرَّكْ فرونسكي، ولم يَلْتَفِتْ.

وخاطَبَتْ أَنّا زَوجَها عِنْدَئِذٍ، فقالَتْ: «اُدنُ مِنهُ يا أَلِكْسيس، وأَرغِمْهُ على الاتِّجاهِ إِلَيَّ بعَينَيهِ».

فامْتَثَلَ كارنينُ، ودَنا مِن فرونسكي، وطَلَبَ إِلَيهِ أَنْ يَفْعَلَ ما تَطْلُبُ أَنّا.

وقالَتِ المُحْتَضَرَةُ بلَهْجَةٍ قَوِيَّةٍ وصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «أَلِكْسيس! اُمْدُدْ لَهُ يَدًا بَيْضاءَ نَقِيَّةً، صافِحْهُ... صافِحْهُ...».

ولم يَتَرَدَّدِ الرَّجُلُ، بَل مَدَّ لعَشيقِ زَوْجِهِ يَدَهُ وصافَحَهُ، وضَغَطَ على كَفِّهِ... وانْهَمَرَتْ مِنْ عَينَيهِ الدُّموعُ.

وهَتَفَتْ وهْيَ تَبْتَسِمُ وعَيْناها تَلْمَعانِ: «رَبّاه! إِنّي لَكَ شاكِرَةٌ، ولِلْمَوْتِ مُسْتَعِدَّةٌ. فقَدْ صَفَحَ مِنْ كُلِّ قَلْبِهِ، وصَفَحْتَ أَنْتَ يا رَبّي!»

وانْكَفَأَتْ على جَنْبِها وأَغْمَضَتْ عَينَيها ولَهَثَتْ شَديدًا.

خَرَجَ الجَميعُ، واليَأْسُ مِنْ حياتِها يَقْوى على الأَمَلِ.

وانْتَصَفَ اللَّيْلُ، وكانَتْ حالَتُها تَتَدَهْوَرُ وتَنْحَطُّ، حتّى إِنَّ الطَّبيبَ جاهَرَ الجَميعَ بأَنَّ ما تَبَقَّى لَها لا يُحْصى إِلَّا بالدَّقائِقِ.

ومَضى فرونسكي إِلى دارِهِ حَزينًا مُكْتَئِبًا.

وظَلَّ أَلِكْسيس صاحِيًا مُسْتَيقِظًا مُفَكِّرًا، يَنْتَظِرُ الخَبَرَ المَشْؤومَ المَحْتومَ في كُلِّ لَحْظَةٍ وهْوَ واجِفُ القَلْبِ، راجِفُ الجَسَدِ.

وانْقَضَتْ ساعاتُ اللَّيْلِ مِن دونِ حادِثٍ، وجاءَ فرونسكي في أَوَّلِ النَّهارِ، فحَيَّاهُ كارنينُ وقادَهُ إِلى الغُرْفَةِ الصَّغيرَةِ المجاوِرَةِ لمَخْدَعِ أَنّا، وتَحَدَّثَ إِلَيهِ قَليلًا، ورَجاهُ أَنْ لا يَبْرَحَ الدَّارَ، فقد تَطْلُبُ أَنّا رُؤْيَتَهُ.

ومَضى يَوْمانِ آخَرانِ والمَريضَةُ تَتَرَجَّحُ بَيْنَ المَوْتِ والحَياةِ، والطَّبيبُ حائِرٌ يَعْجَبُ لهٰذا الكِفاحِ الرَّهيبِ، ويَكادُ أَنْ يَذْهَلَ عن نفسِهِ لصُمودِ أَنّا ومُقاوَمتِها.

وانْقَضى اليَوْمُ الثَّالِثُ، وطَرَأَ عَليها تَحَسُّنٌ طَفيفٌ، فاسْتَبْشَرَ الطَّبيبُ وأَعْلَمَ زَوجَها أَنَّ مَجالَ الأَمَلِ قَدِ اتَّسَعَ مِنْ جَديدٍ، وأَنَّ ذٰلِكَ لم يَتَحَقَّقْ إِلَّا بأُعْجوبَةٍ سَماوِيَّةٍ... ومَضى يَوْمانِ آخَرانِ عَظُمَ فيهِما رَجاءُ الطَّبيبِ، وأَيْقَنَ أَنَّ المَريضةَ في طَوْرِ الإِبْلالِ لا الاِنْحِلالِ.

* * *

في ساعةِ الظَّهيرَةِ مِنْ ذٰلِكَ اليَوْمِ انْفَرَدَ أَلِكْسيس بعَشيقِ زَوْجِهِ في تِلْكَ الغُرفَةِ الصَّغيرَةِ، وأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بتُؤَدَةٍ وتَمَهُّلٍ.

وخُيِّلَ لفرونسكي أَنَّ الزَّوْجَ المَخْدوعَ يَرْغَبُ في بَتِّ أَمْرِهِما، وأَنَّهُ ما جاءَهُ اليَوْمَ إِلَّا لِيُطْلِعَهُ على قَرارِهِ، ولهٰذا عَجَّلَ فقاطَعَهُ بِقَوْلِهِ: «يا أَلِكْسيس كارنين، أَنا مُبَلْبَلُ الفِكْرِ اليَوْمَ، مُوَزَّعُ النَّفْسِ، فأَرْجِئِ الأَمْرَ، فهْوَ يُعَذِّبُني كما يُعَذِّبُكَ».

وتَحَرَّكَ مِنْ مَكانِهِ في طَريقِ البابِ. غَيْرَ أَنَّ أَلِكْسيس اعْتَرَضَ سَبيلَهُ قائِلًا: «لا تَتَعَجَّلْ يا سَيِّدي، بَل أَعِرْني سَمْعَكَ فأَنا شَديدُ الرَّغْبَةِ في إِحاطَتِكَ بشُعوري الحَقيقيِّ...».

وصَمَتَ فَينةً، ثُمَّ مَضى يَقولُ: «كُنْتُ قَدِ اعْتَزَمْتُ الطَّلاقَ، وإِخالُكَ سَمِعْتَ بما صَمَّمْتُ عَليهِ. وقُمْتُ بالإِجراءاتِ الأُولى تَمْهيدًا لإِعلامِ زَوْجَتي بالدَّعوى، ومَعَ ذٰلِكَ كُنْتُ خائِفًا

أَتَرَدَّدُ وأُفَكِّرُ وأَتَحَيَّرُ. ولمّا وَصَلَتْني بَرْقِيَّتُها بخَبَرِ وَعْكَتِها، لم تَتَبَدَّلْ حالي، بَل عُدْتُ أَدْراجي ورَغْبتي في الاِنْتِقامِ لا تَزالُ تَجيشُ بها نَفْسي. ثُمَّ جَرى ما جَرى وأَثَّر فيَّ المَوْتُ الماثِلُ، فتَذَكَّرْتُ وذَكَرْتُ، وأَخَذْتُ العِبْرَةَ، واهْتَدَيْتُ إلى سَواءِ السَّبيلِ، وعَفَوتُ، أَجَلْ عَفَوْتُ. وللصَّفْحِ يا صَديقي وَقْعٌ عَظيمٌ على النَّفْسِ؛ إِنَّهُ مِصفاةُ الأَدْرانِ، ولَذَّةُ النَّفْسِ الكُبْرى... الصَّفْحُ... إِنَّهُ لَسِرٌّ سَماوِيٌّ!»

وكَفَّ عَنِ الكَلامِ، ونَظَرَ إِلى فرونسكي مَلِيًّا، وعادَ يَقولُ باللَّهْجةِ الرَّقيقةِ نَفْسِها: «لَقد ضاقَتْ نَفْسي بالدُّنْيا، وصَغُرَ الإنسانُ في عَيني، أَي في عَينِ الإِنْسانِ، ورَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ لا يَسْتَحِقُّ ما نُضْفيهِ عليهِ مِنَ الخُطورةِ؛ رَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ حَقيرًا، إِلّا السّانِحَةَ الَّتي نَسْتَمِدُّها مِن قُوَّةِ الخالِقِ أَيًّا كانَتْ، كالشُّعورِ الجَميلِ، والمَغْفِرَةِ، وكَلِمَةِ الدِّينِ، وآلَيْتُ أَنْ أَنْسى، آلَيْتُ أَنْ أَنْزِلَ عن حَقّي، آلَيْتُ أَنْ أَتَقَبَّلَ الصَّفْعَةَ كما تَقَبَّلَها هادِيَّ[1]. إِنَّ زَوجتي مُذْنِبَةٌ، ولٰكِنّي لا أَمْلِكُ حَقَّ عِقابِها، وإِنّي، إِذْ أَفْعَلُ هٰذا، أَبْتَهِلُ إِلى اللّٰهِ أَنْ يُديمَ لي هٰذا الشُّعورَ الجَديدَ الحَميدَ».

واسْتَعْبَرَتْ عَيْناهُ، وانْحَدَرَتْ مَدامِعُهُ على وَجْهِهِ، وتَجَسَّمَتِ المَهابَةُ في تَقاطيعِهِ، حتّى دُهِشَ فرونسكي وتَوَلّاهُ الذُّهولُ.

واسْتَطْرَدَ كارنينُ يَقولُ: «ولَكَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تُضاعِفَ كَيْلَ المَهانَةِ، فأَنا بَعْدَ اليَوْمِ لا آبَهُ لشَيءٍ. لَكَ أَنْ تُذِلَّني وتَقْهَرَني وتَجْعَلَني مُضْغَةً في الأَفْواهِ؛ بَيْدَ أَنّي لن أَتَخَلّى عنها، سَأُعْنى بها، وسأَذُبُّ عَنها حتّى النِّهايَةِ!»

وحَمْلَقَ فرونسكي في وَجْهِهِ مَشْدوهًا لا يَفْهَمُ ولا يَعي.

واتَمَّ كارنينُ حَديثَهُ وهْوَ يُطْرِقُ مُسْتَسْلِمًا: «يَخْلُقُ بكَ الآنَ أَنْ تَلوذَ بِبَيتِكَ؛ ابْقَ هُناكَ وانْتَظِرِ الكَلِمةَ، فرُبَّما شاءَتْ أَنْ تَراكَ، رُبَّما بَعَثَتْ في طَلَبِكَ».

وتَبادَلَ الرَّجُلانِ نَظَراتٍ غَيرَ نَظَراتِهِما الأُولى، وخامَرَ قَلْبَ فرونسكي إِحْساسٌ بالضَّعةِ والهَوانِ، ورَأَى نَفْسَهُ صغيرًا قَميئًا، رأى نَفْسَهُ قَزَمًا أَمامَ هٰذا الطَّوْدِ المُتَعالي.

ولم يَلْبَثْ أَنْ أَهْرَعَ إِهْراعًا إِلى الخارِجِ وكأَنَّهُ يَفِرُّ مِن شَيءٍ رَهيبٍ!

---

(١) الهادي: يَعني بِهِ السَّيِّدَ المَسيح.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.
٢ - ما تقويمُكَ لما دارَ بينَ كارنين وأوبلنسكي من حوارٍ في شَأْنِ أنّا؟
٣ - ما الغَرَضُ الّذي أدّاه إقحامُ بوشكين في أحداثِ الرّوايةِ؟ أعَمِلَ على تطويرِ الأَحداثِ؟ أأضافَ بُعدًا جديدًا إلى معانيها وغاياتها؟ أعَمَّقَ بعضَ المعاني أم لا؟
٤ - ما الدَّورُ الّذي حاولَتْ داريا أن تلعَبَهُ في هذا الفصلِ؟ هَل كانَتْ مُخلِصَةً في ما تَوَجَّهَتْ إليه؟ هَل كانَتْ مُحِقَّةً؟ وهَل كانَ بمقدورِ كارنين أنْ يتعَقَّلَ أكثرَ ممّا تعقَّلَ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ مِن رَأْيٍ أو توجُّهٍ.
٥ - الزَّوجُ والعاشِقُ الآنَ أمامَ الزَّوجةِ العاشِقةِ في حَضْرةِ المَوتِ. هَلِ استطاعَ تولستوي أنْ يغورَ إلى أعْماقِ النُّفوسِ أمامَ عَتَبةِ الموتِ؟ وما نظرتُكَ إلى مَوْقفِ كارنين؟ أأعجبَكَ أم لا؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.
٦ - أتَرى أنَّ هذا الموقفَ الإنسانيَّ سيُغَيِّرُ مِن واقِعِ الحالِ إذا كُتِبَتِ الحياةُ للمُحْتَضَرةِ؟
٧ - قالَ كارنين: «إنَّ الصَّفْحَ سِرٌّ سَماويٌّ». أتُوافِقُهُ في ذلكَ؟ وهَل تَرى أنَّ للصَّفحِ منزلةً سامِيةً في نَفْسِ تولستوي؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.
٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّابع

إنْ كانَ شَيْءٌ يَنْطِقُ بالذَّنبِ، فوَجْهُ فرونسكي كانَ أَبْلَغَ ناطِقٍ بذَنْبِ صاحِبِهِ. فقَدِ انْدَفَعَ خارِجًا، وهْوَ يَتَعَثَّرُ ويَقولُ: «وَيلاهُ! عَلامَ يَصْفَحُ هٰذا الرَّجُلُ؟ إِنَّهُ لو أَرادَ الانْتِقامَ لَما تَأَلَّمْتُ. ولٰكِنَّهُ وقد صَفَحَ، تَبَيَّنْتُ أَنّي على ضَلالٍ. فيا أَيُّها الحُبُّ المُستَبِدُّ لَقد جَعَلْتَ صَدْري يَرْزَحُ تَحتَ حِمْلِكَ الثَّقيلِ!»

وتَحَمَّلَ الصَّدْمَةَ الَّتي أَعْقَبَها صَفْحُ كارنينَ، وتَجَلَّدَ، ومَشى في الطَّريقِ، وفي قَلْبِهِ نارٌ تَتَأَجَّجُ، وفي نَفسِهِ حَيرةٌ وتَساؤُلٌ: «كَيفَ يَعفو الرَّجُلُ، وقد لَحِقَ بهِ ما لَحِقَ مِنَ العارِ؟!»

لم يَفْهَمْ شَيْئًا، فسارَ على غَيرِ هُدًى، ولم يَدْرِ أَيْنَ يَذْهَبُ. سارَ مُتَمَهِّلًا مُطْرِقًا تَكادُ نَفْسُهُ مِن شُعورِ الضَّعةِ والصَّغارِ تَتَمَزَّقُ أَباديدَ[1]، وتَكادُ روحُهُ ممّا لَوَّثَها مِنَ العارِ تَخْمُدُ وَقْدَتُها، وتَخبو شُعْلَتُها. ويَكادُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ أُقْصِيَ عَن مَكانٍ مَوْبوءٍ حَمَلَ إِليهِ هُوَ نَفْسُهُ جُرْثومةَ الرِّجْسِ!

وتَضاءَلَ في عَيْنَي ذاتِهِ، وبَحَثَ عَن كَرامتِهِ فلم يَجِدْ كَرامَتَهُ. وتَساءَلَ على مَضَضٍ كيفَ سَمَحَ لنَفْسِهِ أَنْ يَفقِدَ الشَّرَفَ والعِزَّةَ... وشَعَرَ بأَنَّهُ كانَ أَهْوَنَ عليهِ لَو فَقَدَ حَياتَهُ وبَقِيَ سَيِّدًا شَريفًا مِن أَنْ يَفْقِدَ شَرَفَهُ وتَبْقى لَهُ حياةٌ دَنِسةٌ.

ونَظَرَ بِبَصيرَتِهِ إِلى كارنينَ، الزَّوْجِ المَخْدوعِ، وقالَ: «أَكْرِمْ بِهِ مِنْ رَجُلٍ، كَيفَ تَنْصَرِفُ نَفْسُهُ عَنِ البَغْضاءِ... سَقْيًا لَهُ مِنْ إِنْسانٍ كَبيرٍ، كَيفَ تَتَحَوَّلُ روحُهُ إِلى النَّواحي الرّائِعَةِ... إِنَّ في جَسَدِهِ عَناصِرَ قَيِّمَةً نادِرةً!...».

ولَبِثَ يُثَرْثِرُ لنَفْسِهِ كَمَنْ بِهِ مَسٌّ. ولَبِثَ يَتَكَلَّمُ بعَجَلةٍ ووَجيفٍ. ولَبِثَ يُثْني على الرَّجُلِ النَّبيلِ، غَريمِهِ، حتّى أَيْقَنَ أَنَّ الآيَةَ قدِ انْقَلَبَتْ، وأَنَّهُ أَضْحى هُوَ ذٰلِكَ المَخْلوقَ الوَضيعَ النَّذْلَ، بَيْنَما سَما كارنينُ إِلى أَعلى عِلِّيِّينَ، وتَسَنَّمَ الذُّرْوَةَ، وتَرَبَّعَ على القِمَّةِ. فأَيْنَ هُوَ مِنْهُ؟

---

(١) أباديدُ (جَمْعٌ لا مُفْرَدَ لهُ): مُبَدَّدةٌ، مُتَفَرِّقَةٌ.

أَيْنَ هُوَ مِنْهُ؟!

ووَصَلَ إلى مَنْزِلِهِ، واسْتَلْقى على مَقْعَدٍ وَثيرٍ مُريحٍ، وحاوَلَ أَنْ يُغْرِقَ آلامَهُ بالنَّومِ، فجَفاهُ النَّومُ، ونَبا عنهُ.

وعَجِبَ... إنَّهُ قضى الأيَّامَ الثَّلاثَةَ الماضِيةَ بلَياليها مُسَهَّدًا لا تَغْمُضُ لَهُ عَيْنٌ، وها هُوَذا الآنَ أَرِقٌ لا يَجِدُ سَبيلًا إلى الرَّاحَةِ...

وعَنَّفَ نَفْسَهُ على ضَعْفِها، وقَرَّعَها على تَهافُتِها، وأَغْمَضَ عَيْنَيهِ، ولٰكِنَّهُ لم يَنَمْ...

وقارَنَ بَينَهُ وبينَ كارنينَ، فأَنَّ أَنينَ الثَّكْلى[1]، وتَقَلَّبَ في مَكانِهِ على المَقْعَدِ، ثُمَّ زَفَرَ... ووَدَّ لَو قَضى نَحْبَهُ على التَّوِّ، وَدَّ لَو تَخَرَّمَتْهُ الحُتوفُ[2] حتّى يَخْلُصَ مِنْ هٰذا الشُّعورِ المَخوفِ...

* * *

إنَّهُ الضَّميرُ، الضَّميرُ المُعَذِّبُ. لَقَدِ انْفَصَلَ الضَّميرُ في ذٰلِكَ اليَوْمِ عَنِ الجَسَدِ، بَلِ انْفَصَلَ عَنِ الرُّوحِ، وجَعَلَ يَبْحَثُ في الحَقائِقِ، ويَسْبُرُ غَورَ الصَّالِحِ والطَّالِحِ. فلمّا قَوِيَ هاجَمَ صاحِبَهُ مُهاجَمَةً ضارِيَةً، حتّى أَبْغَضَ فرونسكي نَفْسَهُ، وحتّى أَيْقَنَ أَنَّهُ يَعيشُ في وَهْمٍ، لأَنَّهُ ضَعيفٌ ضَعْفَ الأَنْذالِ، ولأَنَّهُ لا يَمْلِكُ سُلْطانًا على شَهَواتِ نَفْسِهِ...

وخُيِّلَ إلَيهِ، وضَميرُهُ يَسوطُهُ[3] بشِدَّةٍ، أَنَّهُ صُرْصورٌ يَعيشُ مِنْ أَبْخِرَةِ النَّتَنِ والأَقْذارِ، ومِنْ حَياتِهِ تَنْبَعِثُ اللَّعْنَةُ الأَبَدِيَّةُ.

فأَيُّ إحساسٍ كانَ يُخامِرُهُ في تِلْكَ السَّاعةِ الرَّهيبةِ؟ وهَل كانَ لِيَخْطُرَ على بالِهِ ما خَطَرَ الآنَ، لَو لَمْ تَمْرَضْ أَنّا، ولَو لَمْ يَصْفَحْ أَلِكْسيس؟

لَقَدِ اخْتَلَسَ اللَّذَّةَ مِنْ أَنّا وعلى غَفْلَةٍ مِن زَوجِها، فلِمَ لَمْ يُؤَنِّبْهُ ضَميرُهُ إلَّا بَعْدَ وُقوعِ الخَطْبِ؟

إنَّ الطَّمَعَ رَذيلَةٌ في كُلِّ حينٍ! وهْوَ مَهْلَكَةٌ مَتى تَنازَعَتْ صاحِبَهُ مَشاعِرُ الخَوْفِ، ومَتى

---

(١) الثَّكْلى: المَرْأَةُ الَّتي ماتَ ابْنُها أو زَوْجُها، المَرْأَةُ المَفْجوعَةُ.

(٢) تَخَرَّمَتْهُ الحُتوفُ: ماتَ.

(٣) يَسوطُهُ: يَضْرِبُهُ بالسَّوْطِ، يُعَذِّبُهُ.

رَأى صاحِبُهُ ما يُذَكِّرُهُ بالنِّهايةِ، وما يَكْشِفُ لهُ عن حَقائِقَ تُثْبِتُ أُمورًا غامِضَةً تَحْسُرُ القِناعَ عن وَجْهِ الحَياةِ الّذي مُوِّهَتْ حَقيقَتُهُ.

ووَثَبَ مِنْ مَكانِهِ كمَنْ لَدَغَتْهُ أَفْعى، وصاحَ: «هَل أَموتُ؟ هَل أَقْتُلُ نَفْسي؟»

وعادَ فانْطَرَحَ ثانيَةً على المَقْعَدِ وهُوَ يُتَمْتِمُ: «كلاّ. كلاّ. فلَدَيَّ أُمورٌ أُخرى. فأَنا في أَوَّلِ عُمْري، ومُسْتَقْبَلي باسِمٌ زاهِرٌ، والجَيْشُ يُريدُني، والبَلاطُ يَطْلُبُني، والمُجْتَمَعُ يَرْغَبُ في وُجودي، فلأَنَمْ، لِأَنَمْ».

* * *

ولٰكِنَّهُ لم يَنَمْ، لم يَنَمْ، وظَلَّ صاحِيًا مُسْتَيْقِظًا، وظَلَّتِ الأَفْكارُ السَّوْداءُ تَنْتاشُهُ[1]، وظَلَّ يَهيمُ في كُلِّ وادٍ سَحيقٍ مِنَ الهَمِّ.

وصاحَ وهْوَ يَقْفِزُ مَجْنونًا: «لِأَنَمْ... لِأَنَمْ...».

وتَناوَلَ مِنَ «الدُّرْجِ» شَيْئًا أَسْوَدَ ضَخْمًا.

ومَزَّقَ السُّكونَ دَوِيٌّ شَديدٌ.

وتَرَنَّحَ... وتَرَنَّحَ...

وسَقَطَ...

* * *

لم يَكُنْ أَلِكْسيس كارنين لِيُؤْمِنَ بشِفاءِ زَوْجَتِهِ، وقَد رَآها مُشْفِيَةً تَكادُ تَلْفِظُ أَنْفاسَها.

ولِهٰذا سارَعَ إلى الوُقوعِ في الغَلَطِ، فصَفَحَ وعَفا، وقَد داخَلَ نَفْسَهُ مِنْ تَوْبَتِها اعْتِقادٌ ويَقينٌ.

واتَّضَحَ لَهُ غَلَطُهُ بَعْدَ أَيّامٍ كَثيرَةٍ، رَأى غَلَطَهُ بَشِعًا، وسَمِعَهُ يَصْرُخُ في وَجْهِهِ: «يا وَيْلَكَ!...».

ولٰكِنَّهُ ما كانَ لِيَمْلِكَ نَفْسَهُ مِنَ الصَّفْحِ عَنها ساعَةَ شاهَدَها تَبْكي مِنَ النَّدَمِ وتَتَلَوّى مِنَ الأَلَمِ... ما كانَ لِيَسْتَطيعَ غَيرَ ذٰلِكَ وهْيَ مُسَجّاةٌ أَمامَهُ على فِراشِ المَوْتِ، تَذْرِفُ الدَّمْعَ

---

(١) تَنْتاشُهُ: تُناوِشُهُ.

وتَسْتَجدي العَفْوَ؛ وقَد ذَرَفَ مَعَها الدَّمْعَ السَّخينَ. بَكى كطِفْلٍ والِهٍ[1] حَزينٍ، كما كانَ يَبْكي دائمًا كُلَّما الْتَقى مُتَأَلِّمًا، وواجَهَ مُتَلَوِّعًا!

وما عَتَّمَ أَنْ غَفَرَ وعَفا، ونَسِيَ نُكْرَ[2] فرونسكي، وأَحَبَّ ابنَهُ، وعَنَّفَ نَفْسَهُ على تَنكُّرِهِ لَهُ، ولامَها على تَجَنُّبِهِ والنُّفورِ مِنْهُ، وهْوَ البَريءُ الضَّعيفُ، وزادَ على ذٰلِكَ فحَبا الطِّفْلَةَ النَّغْلَةَ[3] بِعَطْفِهِ وحَنانِهِ، وأَحَبَّها واعْتَنى بها.

لَقد وَلَدَتْها أُمُّها سِفاحًا، بَيْدَ أَنَّهُ أَشْفَقَ عَلَيْها لِما رآهُ مِنْ صِغَرِ حَجْمِها، وضَعْفِها، ولِما سَمِعَهُ مِنْ بُكائِها. كانَ قَوِيًّا يَشْعُرُ بقُوَّتِهِ، وكانَ إِنْسانًا يَشْعُرُ بضَعْفِ غيرِهِ، ولِهٰذا كانَتْ شَفَقَتُهُ على الطِّفْلة عَظيمةً لا تُضاهِيها شَفَقَةٌ.

وتَضاعَفَ مَيْلُهُ إِلَيها عِندَما لاحَظَ أَنَّ الكُلَّ انْصَرَفوا عَنْها غيرَ عابِئينَ بها، فشَرَعَ يَتَأَمَّلُ صَفْحَةَ وَجْهِها، ويَتَتَبَّعُ كُلَّ حَرَكةٍ تَأْتيها، فيَهْفو قَلْبُهُ لَها ويَشْتَدُّ شَوْقُهُ إِلَيْها، ويَقْضي مَعَها أَكْثَرَ ما يَسْتَطيعُ مِنْ وَقْتٍ.

والعَجيبُ في أَمْرِ هٰذا الرَّجُلِ العَجيبِ، أَنَّهُ كانَ يَشْعُرُ بالهَناءِ وصَفاءِ النَّفْسِ وراحَتِها إِبّانَ خَلْوتِهِ بهٰذِهِ الطِّفْلةِ. وأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ وُجودَ الطِّفْلَةِ كانَ يَسْتَلُّ أَيَّ شُعورٍ بالحِقْدِ والمَوْجِدَةِ قَد يُداخِلُ قَلْبَهُ.

على أَنَّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ مُضِيَّهُ على هٰذِهِ الوَتيرَةِ أَمْرٌ لَهُ نِهايةٌ، فمِثْلُهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْطَعَ الصِّلَةَ بينَ شُعورِهِ وشُعورِ سِواهُ، فَهْوَ إِنْسانٌ مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ، ولا بُدَّ مِن أَنْ يُراوِدَ نَفْسَهُ ما راوَدَها مِنَ الغِلِّ كُلَّما فَكَّرَ بزَوجتِهِ وخِيانتِها.

لَقد حَثَّتْهُ طيبَتُهُ وشَفَقَتُهُ على الصَّفْحِ، ولٰكِنَّ نَفْسَهُ كانَتْ عُرْضَةً لمَشاعِرَ أُخْرى غَيْرِ الطِّيبةِ والرَّحْمَةِ، مَشاعِرَ تَنِمُّ عَنْ تَمَرُّدٍ على الوَضْعِ الَّذي أَلْفى نَفْسَهُ يَتَعارَكُ في خِضَمِّهِ.

وما أَكْثَرَ ما صَوَّرَ لَهُ الوَهْمُ النّاسَ عُيونًا مُحَدِّقةً إِلَيهِ، تَتَعَجَّبُ مِنهُ، وتَتَهَكَّمُ على شَخْصِهِ، وتَتَساءَلُ: أَيْنَ الرُّجولةُ؟ أَيْنَ الرُّجولةُ...؟

---

(١) والِهٌ: شَديدُ الحُزْنِ.

(٢) النُّكْرُ: الشَّيْءُ المُنْكَرُ.

(٣) الطِّفْلَةُ النَّغْلَةُ: ابْنَةُ الزّانِيةِ، الابْنَةُ المَطْعونُ في نَسَبِها.

وكانَ يَتَراءى لَهُ أَنَّ امْرَأَتَهُ تَخْتَلِسُ إِلَيْهِ نَظَراتِها الوَجِلَةَ، وتُشيحُ بوَجْهِها عَنْهُ كُلَّما حَدَّقَ إِلى أَسارِيرِها، حتّى لا يَلْتَقيَ النّاظِرانِ. كانَ يَتَراءى لَهُ أَنَّها تَوَدُّ أَنْ تُفْضِيَ إِلَيْهِ بما يَعْتَمِلُ في صَدْرِها، لٰكِنَّها لا تَلْبَثُ أَنْ تُحْجِمَ خَوفًا ومَهابَةً!

وطَغى عَلَيْهِ الهَمُّ مِنْ جَديدٍ، فأَصْبَحَ لا يُرى إِلّا ساهِمَ الطَّرْفِ كَئيبَ النَّفْسِ مُقَطَّبَ الجَبينِ.

وجاءَ مَرَّةً إِلى بَيْتِهِ وعِبْئُهُ ثَقيلٌ، ويَأْسُهُ مَريرٌ، فلَمَحَ في زاويةِ المَلابِسِ مِعْطَفًا ثَمينًا، فدَعا الخادِمَ وسَأَلَهُ قائلًا: «لِمَنْ هٰذا؟ مَنْ في البَيْتِ؟»

فأَجابَ الخادِمُ: «إِنَّهُ مِعْطَفُ الأَميرةِ بتسي يا سَيِّدي».

وصَمَتَ كارنينُ، ولٰكِنَّهُ لَمَحَ شَبَحَ ابْتِسامَةٍ واهِيَةٍ تَرْتَسِمُ على فَمِ الخادِمِ لتَتَلاشى بسُرْعَةٍ خاطِفةٍ.

وتَساءَلَ: أَما مِنْ نِهايَةٍ لِهٰذِهِ الحالَةِ؟ أَما مِنْ خَلاصٍ للبُؤْسِ؟ إِنَّ الجَميعَ طَفِقوا في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ يُعْنَوْنَ بهِ وبزَوجَتِهِ. بَل إِنَّهُمْ كُلَّهُمْ جَعَلوا يَتَتَبَّعونَ أَخْبارَهُما، ويَتَسَقَّطونَ أَنْباءَهُما، ويَتَهامَسونَ، ويَلْغَطونَ، ثُمَّ يَهُزّونَ الرُّؤوسَ، ويُلَوِّحونَ بالأَيْدي.

أَفَلَيْسَ لِهٰذا الأَمْرِ نِهايَةٌ؟ أَوَيَقْدِرُ على الِاسْتِمرارِ؟ الِاسْتِمرارِ؟.

ولمّا أَخْبَرَهُ الخادِمُ أَنَّ الاميرَةَ بتسي في البَيتِ، زادَ أَلَمُ نَفْسِهِ، فهْوَ يَنْفِرُ مِنْ هٰذِهِ المرأةِ، ولا يَشْعُرُ نَحْوَها بأَيِّ عاطفةٍ مِنَ الوُدِّ.

ولم يَجِدْ مَنْدوحَةً عَن تَقَبُّلِ الأَمْرِ الواقِعِ، فتَقَدَّمَ مِنْ غُرْفةِ زَوْجَتِهِ، وطَرَقَ البابَ ودَخَلَ. لٰكِنْ، قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ، تَناهى إِلَيهِ كَلامٌ كانَ يُقالُ في الدّاخِلِ، وسَمِعَ مِن دونِ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ، صَوْتَ الأَميرَةِ بتسي تَقولُ: «وهٰذا هُراءٌ لا مُعْتَمَدَ عَلَيهِ، يا عَزيزَتي! فكَيفَ تَرْفُضينَ مُلْتَمَسَ رَجُلٍ يُحِبُّ؟ كَيفَ تُسَوِّلُ لَكِ نَفْسُكِ مِثْلَ هٰذِهِ القَسْوةِ؟ إِنَّ فرونسكي يُزْمِعُ أَنْ يَظْعَنَ عن بطرسبرج، وهْوَ يَرْغَبُ قَبْلَ رَحيلِهِ في مُقابَلَتِكِ والتَّحَدُّثِ إِلَيكِ، لآخِرِ مَرَّةٍ، فلا تَرُدِّيهِ خائِبًا، لا تَفْعلي ذٰلِكَ في الوَقْتِ الَّذي أَشْعُرُ فيهِ أَنَّ زَوْجَكِ نَفْسَهُ لَو سُئِلَ للَبّى طَلَبَهُ مِن دونِ تَرَدُّدٍ!»

وسَمِعَ زَوْجتَهُ تَرُدُّ قائلةً: «وهَلْ تَظُنِّينَ أَنّي أَتَجاهَلُ طَلَبَهُ لِكَي أُوَفِّرَ بذٰلِكَ على زَوْجي ما

قَد يُكابِدُهُ مِنَ الأَلَمِ؟ ألا فاعْلَمي أَنّي أَرُدُّ هٰذا الطَّلَبَ مِنْ أَجْلي أَنا، فأَقْلِعي يا بتسي عَن هٰذا الكَلامِ، أَقْلِعي ناشَدْتُكِ اللّٰهَ».

- «إِنَّ هٰذِهِ القَسْوَةَ لا مَثيلَ لَها؟ أَتَصْفَعينَ وَجْهَ رَجُلٍ ضَحَّى بكُلِّ شَيْءٍ وحاوَلَ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ؟»

- «وهٰذا ما يَجْعَلُني أُصِرُّ على تَجَنُّبِهِ».

ورانَ عَلَيْهِما الصَّمْتُ حينَ دَخَلَ كارنينُ؛ ونَظَرَتِ المَرْأَتانِ إلى الوَجْهِ المُتَغَضِّنِ المُنْقَبِضِ بقَلَقٍ وتَوَجُّسٍ.

وما عَتَّمَتْ أَنّا أَنْ حَيَّتْهُ بإيماءَةٍ، أَمّا بتسي فسُرْعانَ ما استَعادَتْ رَباطَةَ جَأْشِها، وقالَتْ ساخِرةً: «هٰذِهِ نِعْمَةٌ كُبْرى، فأَنا لم أُكَحِّلْ عَينَيَّ بمَرْآكَ مِنْذُ أَمَدٍ طَويلٍ. فماذا حَبَسَكَ عنّي؟»

فلَم يُعْنَ بالرَّدِّ عَلَيْها.

ولٰكِنَّها أَتَمَّتْ قائِلةً: «ما أَكْبَرَكَ! ما أَكْبَرَ نَفْسَكَ! لَقَدِ اطَّلَعْتُ على جَلِيَّةِ الأَمْرِ، وعَلِمْتُ مِنْ مَسائِلِكَ ما مَلَأَني إِعْجابًا بشَمائِلِكَ!»

ونَكَسَ أَلِكْسيس رَأْسَهُ، وانْحَنى فلَثَمَ راحَةَ زَوْجِهِ، وطَرَحَ عَلَيْها بَعْضَ الأَسْئِلَةِ مُسْتَفْسِرًا عَنْ صِحَّتِها في تكَلُّفِ مَنْ يَقومُ بواجِبٍ كَريهٍ.

ولمّا طَمْأَنَتْهُ إلى أَنَّها في أَحْسَنِ حالٍ، وأَنَّها تَشْكُرُ لَهُ غيرتَهُ وإِخْلاصَهُ، هَزَّ رَأْسَهُ وقالَ: «ولٰكِنَّ عَينَيكِ لا تَبْرُقانِ ولا تَشِعّانِ، ويُخَيَّلُ إِليَّ أَنَّكِ ما زِلْتِ مَريضةً لم يُفارِقْكِ وَصَبُكِ، ولم تَتَخَلَّ عَنكِ الحُمّى المَلْعونةُ!»

وانْبَرَتِ الأَميرَةُ بتسي تَقولُ، وكأَنَّها تُعَنِّفُ نَفْسَها، أَو كأَنَّ الأَمْرَ يَعْنيها قَبْلَ أَنْ يَعْنيَ سِواها: «قَد أَكونُ المَلومَةَ على ذٰلِكَ، فرُبَّما أَرْهَقْتُها بحَديثي، ولا عَجَبَ فمَوَدَّتي ومَحَبَّتي تَشْفَعانِ لي».

ولمّا لم يَبْدُ مِنَ الرَّجُلِ أَيُّ جَوابٍ، تَحَفَّزَتْ لِلنُّهوضِ وهْيَ تُتِمُّ قائِلَةً: «وأَرى الآنَ أَنْ أَذْهَبَ في سَبيلي...».

فهَتَفَتْ أَنّا مُعْتَرِضَةً: «لا... لا تَذْهَبي يا عَزيزتي، فلا بُدَّ لي مِنْ إِطْلاعِهِ على جَلِيَّةِ الأَمْرِ».

وشَعَرَ أَلِكْسيس بأَنَّها تُريدُ أَنْ تَقولَ شَيْئًا.

واسْتَتْلَتْ أَنّا مُوَجِّهةً الحَديثَ إِلَيهِ: «واعْلَمْ أَنَّ الكونتَ فرونسكي أَعْرَبَ عَن رَغْبَتِهِ في القُدومِ إِلَيْنا اليَومَ قَبْلَ سَفَرِهِ إِلى الخارِجِ، وهْوَ لِهٰذا أَرْسَلَ صَديقتي بتسي...».

وتَنَفَّسَتِ الصُّعَداءَ، كمَنْ يَعْتَمِلُ في صَدْرِهِ هَمٌّ رازِحٌ، واسْتَطْرَدَتْ: «على أَنّي رَفَضْتُ، ورَجَوْتُ بتسي أَنْ تُنْهِيَ إِلَيهِ قَراري».

وسارَعَتْ بتسي تَقولُ: «أَو عَلى الأَصَحِّ أَنطْتِ مَسْأَلَةَ بَتِّ المَوْضوعِ بزَوجِكِ أَلِكْسيس كارنين!».

وقالَتْ أَنّا مُحْتَدِمَةً: «هٰذا مُحالٌ، مُحالٌ... ولَنْ أَراهُ مَهْما كانَتِ الأَسْبابُ، ومَهْما كانَتِ النَّتائِجُ».

ونَظَرَتْ الى زَوْجِها مُتَأَمِّلَةً، وأَلْقَتْ رَأْسَها على الوِسادَةِ مَنْهوكةً، وتَمْتَمَتْ بضَعْفٍ وخَوَرٍ: «لَنْ أُقابِلَهُ. إِنَّ ما مَضى قَدِ انْقَضى... انْقَضى...».

وخَطا الرَّجُلُ خُطْوَةً إِلى الأَمامِ، ولَمَسَ يَدَها، وأَمْسَكَ بها، وكأَنَّهُ يَشْكُرُ لها تَعَقُّلَها.

ونَفَرَتْ أَنّا مِنْ لَمْسَتِهِ، ووَدَّتْ لَو سَحَبَتْ يَدَها مِنْ يَدِهِ، بَيْدَ أَنَّها أَحْجَمَتْ وتَمالَكَتْ نَفْسَها.

وتَكَلَّمَ الرَّجُلُ المُتَعَلِّقُ بِخَيْطٍ واهٍ مِنَ الأَمَلِ في عَوْدَةِ الرُّشْدِ، فقالَ: «هٰذِهِ أَصالَةٌ، وإِنّي أَشْكُرُ لكِ تَعَقُّلَكِ!»

وتَحَوَّلَ بناظِرَيهِ إِلى بتسي، واخْتَلَجَتْ أَهْدابُهُ، وكأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَقولَ شَيْئًا، ولٰكِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ لوُجودِها.

كانَ كارنينُ يَرى بتسي امْرَأَةً خارِجَةً على العُرْفِ. كانَ يَنْظُرُ إِلَيها كأَنَّها الجَبَروتُ والقَسْوَةُ، ويَرى فيها الحائِلَ بَينَ عاطِفَتِهِ وكُلٍّ مِنَ المَحَبَّةِ والشَّفَقةِ والصَّفْحِ.

وأَدْرَكَتِ المَرْأَةُ الفَطِنَةُ ما خالَجَهُ آنَذاكَ، فانْتَصَبَتْ واقِفَةً، وقالَتْ: «أَنا ذاهبةٌ يا حَبيبَتي أَنّا، وسأُعَرِّجُ عليكِ غَدًا، فإِلى اللِّقاءِ القَريبِ».

وغادَرَتِ المَخْدَعَ، لٰكِنَّ أَلِكْسيس هَرْوَلَ وَراءَها ثُمَّ اسْتَوْقَفَها. ولَعَلَّهُ كانَ يَرومُ أَنْ يَرْفَعَ النِّقابَ لَها عَن حَقيقةِ ما يَعْتَمِلُ في صَدْرِهِ نَحْوَها.

ولٰكِنَّهُ تَرَدَّدَ. وما عَتَّمَتْ، وقَد رَأَتْ تَرَدُّدَهُ، أَنْ قالَتْ: «أَنْتَ رَجُلٌ بكُلِّ ما في كَلِمَةِ الرُّجولَةِ مِنْ مَعْنًى. أَنْتَ رَجُلٌ ذو قَلْبٍ وإِحْساسٍ. فأَنْتَ إِنْسانٌ...».

وابْتَسَمَتْ، فلَمْ يَدْرِ، أَكانَتِ ابْتِسامَتُها ابْتِسامَةَ السَّاخِرِ، أَمِ ابْتِسامةَ الجادِّ الجاهِرِ بالحَقيقةِ.

وتابَعَتْ بصَوتِها المُشْرَبِ ثِقَةً: «أَنْتَ كَبيرٌ يا أَلِكْسيس في كُلِّ شَيْءٍ، ولِهٰذا أَجْسُرُ فأَبُثُّكَ نُصْحَ صَديقَةٍ مُخْلِصَةٍ، فذَرْها تُقابِلْ فرونسكي. دَعْها تَجْتَمِعْ بهِ. وهْوَ إِنْ كُنْتَ لا تَعْلَمُ ذاهِبٌ إِلى مَكانٍ ناءٍ سَحيقٍ، إِلى مُقاطَعَةِ طاشْقَنْدَ».

فحَدَجَها بنَظْرَةٍ صارِمةٍ لائِمةٍ، وأَجابَ: «ما أَغْلى نَصيحَتَكِ! وما أَجْدَرَ الإِنْسانَ باتِّباعِها! بَيْدَ أَنَّ زَوْجتي كما يَتَراءى لي، هِيَ الإِنْسانُ الوَحيدُ الَّذي يَمْلِكُ حَقَّ بَتِّ هٰذا المَوْضوعِ. أَفَلا تُوافِقينَ؟ أَلا أَقولُ الصِّدْقَ والصَّوابَ؟»

فعَجِبَتِ المَرْأَةِ، وتَوَلَّتْها دَهْشَةٌ؛ لٰكِنَّها شَعَرَتْ بعَجْزِها، بَل أَحَسَّتْ بالرَّهْبَةِ والخَوْفِ، فعَجَّلَتْ في الذَّهابِ، وانْدَفَعَتْ مِنَ البابِ لا تَلْوي؛ أَمّا هُوَ فقَد عادَ أَدْراجَهُ إِلى مَخْدَعِ زَوْجِهِ.

فلَمّا دَخَلَ المَخْدَعَ رَأى عَلاماتِ القَلَقِ تَتَجَلّى بوُضوحٍ على أَمائِرِها، ولَمَحَ الدُّموعَ تُبَلِّلُ خَدَّيْها، فخاطَبَها مُلاطِفًا: «كُنْتِ عاقِلةً اليَوْمَ يا أَنّا، فتَقَبَّلي ثَنائي ودُعائي. أَنْتِ ما زِلْتِ جَميلةَ النَّفْسِ صافِيَةَ التَّفْكيرِ، وأُمالِئُكِ[1] على ما ذَهَبْتِ إِلَيهِ، فهْوَ مُسافِرٌ عَمّا قَريبٍ، ولا حاجَةَ لرُؤْيَتِهِ».

فنَبَرَتِ المَريضَةُ النَّاقِهَةُ تَقولُ مُنْفَعِلَةً: «أَلَمْ أَقُلْ هٰذا؟ فلِمَ التَّكْرارُ إِذًا؟»

وفكَّرَتْ قَليلًا، ورَأَتْ فرونسكي بعَينِ خَيالِها، وخَفَقَ قَلْبُها، وناجَتْ نَفْسَها الوالهةَ: «إِنَّهُ ذاهِبٌ إِلى بَعيدٍ فلَن أُحَدِّثَهُ. إِنَّهُ مُسافِرٌ، فما جَدْوى الاِجْتِماعِ بهِ؟ وهَل ثَمَّةَ فائِدَةٌ مِنْ ذٰلِكَ؟ أَلا تَنْكَأُ المُقابَلَةُ جُرْحًا انْدَمَلَ، وتَبْعَثُ أَسًى خَفَّ وشَجًا قَلَّ؟ ولٰكِنْ، أَلا أُحِبُّهُ؟ وهَل يَخْلُقُ بهِ أَنْ يُغادِرَ الدِّيارَ مِن دونِ أَنْ يُوَدِّعَ المَرْأَةَ الَّتي فَنِيَتْ فيهِ، والَّتي سيَتَخَرَّمُها الرَّدى شَوقًا وتَدَلُّهًا؟»

---

(١) مالَأَهُ على أَمْرٍ: جاراهُ فيهِ ووافَقَهُ عَليهِ.

وصَعَّدَتْ ناظِرَيها المُسْتَعْبِرَيْنِ في وَجْهِ زَوْجِها، فعاوَدَها شُعورٌ بالِاشْمِئْزازِ عَنيفٌ جارِفٌ، وكادَتْ تَتَمَرَّدُ على الأَوْضاعِ، كادَتْ تَصيحُ بمِلْءِ فيها: «وَيْلَكَ! وَيْلَكَ! ٱخْرُجْ! ٱغْرُبْ عَن وَجْهي!»

ولٰكِنَّها قالَتْ بصوتٍ خافِتٍ: «أَلا أَنْهِ الحَديثَ في هٰذا الشَّأْنِ، ودَعِ الأُمورَ تَجْري في طَريقِها المَرْسومِ».

قالَ: «على أَنِّي أُذَكِّرُكِ بِرَأْيي، فأَنْتِ حُرَّةٌ في كُلِّ ما تَفْعَلينَ».

- لَنْ أَعْدِلَ عَن قَرارٍ اتَّخَذْتُ، أَو أُناقِضَ وَعْدًا قَطَعْتُ، فأَقْصِرْ، أَرْجوكَ».

ودُهِشَ كارنينُ. إِنَّها تَتَكَلَّمُ مَعَهُ كما تَتَكَلَّمُ مَعَ خادِمٍ حَقيرٍ، إِنَّها نافِدةُ الصَّبْرِ ضَيِّقَةُ الصَّدْرِ. ولا تَثورُ عَصَبِيَّتُها إِلَّا مَتى خَلَتْ إِلَيهِ. فهَلْ يَتَسَنَّى لهُ المُضِيُّ في حَياةٍ تَغَصُّ فيها الآلامُ؟ هَل يُمْكِنُهُ أَنْ يَصْبِرَ إِلى الأَبَدِ؟

* * *

يا لَلرَّجُلِ الَّذي قَصَمَتْ ظَهْرَهُ امْرَأَةٌ!

يا لَلرَّجُلِ الَّذي لاشَتْ أَمَلَهُ زَوْجَةٌ!

وما المَرْأَةُ؟ ما المَرْأَةُ؟

ما المَرْأَةُ إِلَّا مَخْلوقٌ يَفْتِنُهُ المَظْهَرُ،

أَمّا الجَوْهَرُ، فلا وَزْنَ لَهُ في رَأْيِها وتَفْكيرِها.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - دَخَلَ فرونسكي في صراعٍ مريرٍ تَكَشَّفَتْ له فيهِ حَقائِقُ لم يَكُنْ لِيَراها مِنْ قَبْلُ. ما هذهِ الحقائقُ؟ وما الَّذي كانَ وراءَ تَكَشُّفِها لهُ؟

٣ - هَل تَرى الكاتِبَ معَ ما ذهبَ إِليهِ فرونسكي في هذا الصِّراعِ؟ وهَل كانَ مِنْ دُعاةِ الإِنسانيَّةِ الَّتي تَصِلُ إِلى هذا المُسْتوى مِن رِقَّةِ الضَّميرِ وسُموِّ النَّفسِ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِليهِ. وأَيْنَ أَنْتَ مِنْ هٰذا كُلِّهِ؟

٤ - مَنِ المُنْتَصِرُ الحَقيقيُّ في هٰذا الفَصْلِ؟

٥ - كانَ للأَميرةِ بتسي دورٌ في تَصعيدِ أَحداثِ هذه الرِّوايةِ. فهَل تَراها نسيجَ وَحْدِها في مُجْتَمَعِ الطَّبَقَةِ الرَّفيعةِ، أَو هِيَ نَموذَجٌ لكثيراتٍ مِنْ أمثالِها؟ أَوْضِحْ ذلكَ.

٦ - أَأَنْتَ مطمئِنٌّ إِلى تَوْبَةِ أَنّا كارنينا؟ ولماذا؟

٧ - تُرى، أَكانَتْ أَنّا كارنينا تَسْتَحِقُّ كلَّ هذا الصَّفْحِ مِنْ زوجِها؟ ولماذا؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّامن

خَرَجَتْ بتسي وتَلَفَّتَتْ حَوْلَها باحِثَةً عَن عَرَبتِها. ولٰكِنَّها رَأَتْ وَجْهًا تَعْرِفُهُ، ما كادَتْ تَتَأَمَّلُ فيهِ حتّى أَلْفَتْ تِلْقاءَها أوبلنسكي.

وبادَلَها الرَّجُلُ النَّظَراتِ، وهَتَفَ بَعْدَ أَنْ تَبيَّنَها وأَدْرَكَ مَنْ تكونُ: «أَنْتِ هُنا؟ أَنْتِ أَيَّتُها الأَميرةُ؟ هٰذِهِ ساعةُ حَظٍّ وسَعادةٍ، وما كُنْتُ لِأَحْظى بها لو قَصَدْتُ لُقْياكِ!»

وكانَ أوبلنسكي قدِ اضْطَرَّتْهُ بَعْضُ الأَعْمالِ الخاصَّةِ إلى الحُضورِ مِنْ موسكو إلى بطرسبرج، وكانَتِ الأَيَّامُ الَّتي يَتَغَيَّبُها عَن بَيتِهِ مِنْ أَجْمَلِ أَيَّامِ حَياتِهِ.

وأَجابَتْهُ الأَميرةُ بتسي ضاحِكةً مُسْتَبْشِرَةً: «وماذا جاءَ بِكَ أَيُّها الصَّديقُ؟ أَعلى مَوْعِدٍ أَنْتَ - مَوْعِدِ غَرامٍ؟»

فبادَلَها ضِحْكتَها، ثُمَّ انْحَنى فلَثَمَ يَدَها وأَجابَ: «إِنّني حَقًّا على مَوْعِدٍ، ولٰكِنْ، مَوْعِدُ عَمَلٍ ويا لَلأَسَفِ!»

- «فاذْهَبْ إِذًا».

- دَعيني أَراكِ، أَوَدُّ أَنْ أَجْتَمِعَ إِلَيكِ».

- «ومَنْ أَنْبَأَكَ أَنّي أَرْضى باللِّقاءِ؟»

- نَحْنُ صَديقانِ، والأَصْدِقاءُ يَرْغَبونَ في تَذْليلِ كُلِّ صَعْبٍ».

- «ولٰكِنَّكَ خَطِرٌ!»

- أَنا! إِنَّني رَجُلٌ مُنْهَمِكٌ في العَمَلِ، إِنّي أَبٌ يَدْأَبُ على خِدْمةِ أَوْلادِهِ، ثُمَّ إِنّي عَلاوةً على ذٰلِكَ أُعْنى بالبَحْثِ عَن حُلولٍ لِمُعْضِلاتِ النَّاسِ...».

ونَظَرَ إِلَيْها نَظْرَةً ذاتَ مَعْنًى، وأَوْمَضَ بعَينِهِ، فأَيْقَنَتِ المَرْأَةُ أَنَّهُ يُشيرُ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ إلى شَقيقَتِهِ أَنّا وزَوجِها، فقالَتْ باهْتِمامٍ: «هٰذا جَميلٌ مِنْكَ، قُمْ باللَّازِمِ، اِفْعَلِ المُسْتَحيلَ حتّى

تُزِيلَ كَرْبَها، وتَرْفَعَ عنها وَقْرَ غَمِّها».

وقَطَّبَ أوبلنسكي قَليلًا، وقالَ بَعْدَ تَفْكيرٍ: «فاعْلَمي إذًا أنّي ما جِئْتُ إلى بطرسبرج إلّا لِهٰذِهِ الغايَةِ».

– «لَقَد تَأَزَّمَتِ الحَياةُ في بَيتِ شَقيقَتِكَ، وأَصْبَحَ السائِدُ فيهِ تَوَتُّرٌ وتَرَقُّبٌ ورَبْكَةٌ لا مَزيدَ عَليها. ثُمَّ، أَتَعْلَمُ أَنَّ الجَميعَ هُنا يَسْلُقونَها ويَسْلُقونَهُ بأَلْسِنَةٍ حِدادٍ؟ أَتَعْلَمُ أَنَّ الكُلَّ يَلْغَطُ باسمَيهِما ويَلوكُ سُمْعَتَهُما؟ فأَنْتَ الآنَ لا تَرى أَنّا تِلْكَ النّاضِرَةَ الزّاهِرَةَ، بَل تَرى أَنّا المُصْفَرَّةَ الشّاحِبَةَ الهَزيلَةَ العابِسَةَ الوَجْهِ. لَقَد تَنازَعَتِ الخُطوبُ أَحاسيسَها، وعَصَفَتِ الهُمومُ بسَعادَتِها؟ إنَّني حَزينَةٌ، حَزينَةٌ. ويَجِبُ على الزَّوْجِ، زَوجِها، أَنْ يَفْصِلَ في الأَمْرِ ويَبُتَّ، فحالَةُ التَّرَقُّبِ والِانْتِظارِ تَسْتَنْزِفُ دِماءَها، وتُحَطِّمُ أَعْصابَها».

وتَنَفَّسَ أوبلنسكي الصُّعَداءَ، وأَجابَ: «أَجَلْ. أَجَلْ. إنَّ الحالَ لا تُطاقُ، على أَلِكْسيس أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا حاسِمًا. وساتَدَبَّرُ الأَمْرَ طاقتي، وإنْ كُنْتُ مَعْنِيًّا أَيضًا بمَصْلَحَتي الذّاتِيَّةِ. فقد خَلَعَ عَلَيَّ قَيْصَرُنا المُفَدّى وِسامَ الجَدارةِ، وهْوَ مَشْكورٌ على مِنْحَتِهِ».

– «أَحْسَنَ مَوْلانا بعَمَلِهِ وأَصابَ! والآنَ أَسْتَودِعُكَ اللّٰهَ فأَنا ذاهِبةٌ. . .».

وصافَحَتْهُ، وانْحَنى فلَثَمَ اليَدَ البيضاءَ، وانْثَنى صاعِدًا إلى بَيتِ شَقيقَتِهِ وهْوَ يَبْتَسِمُ، وقد نَسِيَ هَمَّهُ.

ودَخَلَ مَخْدَعَ أَنّا فَقبَّلَها قُبْلَةَ الأَخِ الحَنونِ، وسَأَلَها عن حالِها. فأَجابَتْهُ وهْيَ تَدْمَعُ: «ما أَشْقى شَقيقَتَكَ يا عَزيزي! إنَّ صَباحي كظُهْري ومَسائي، هَمٌّ وكَرْبٌ وشَجْوٌ مُقيمٌ. أَمّا لَيلي فهْوَ الطّامَّةُ الكُبْرى، هُوَ المُصيبةُ الّتي لا أَخْلَصُ مِنْها إلّا وقد بَلَغَتْ روحي التَّراقيَ!»

فهَدْهَدَ خَدَّها عاطِفًا وقالَ: «اِهْدَئي، اِهْدَئي، أُخْتاهُ. . . وكوني كعَهْدي بِكِ صابرةً قَوِيَّةَ العَزيمةِ، ثُمَّ تَشَجَّعي وابْتَسِمي للحَياةِ، فلَن تَلْبَثَ الحَياةُ أَنْ تَبْتَسِمَ لَكِ بمِلْءِ فيها».

– «بَيْدَ أَنَّ شَقائي لِحالَةٍ نَفْسِيَّةٍ طارِئَةٍ، فقَد سَمِعْتَ. . .».

فقاطَعَها مُتَعَجِّلًا: «لا يَهُمُّني ذٰلِكَ بقَدْرِ ما يَهُمُّني حالُكِ».

– «ثُمَّ، ثِقْ يا أَخي أَنّي أَكْرَهُ زَوجي مِنْ كُلِّ قَلْبي. أَكْرَهُهُ. . . أَوَتَدْري السَّبَبَ؟ أَكْرَهُهُ لأَنَّهُ مُسْتَقيمٌ! أَكْرَهُهُ لأَنَّهُ فاضِلٌ! أَكْرَهُهُ لأَنَّهُ يَرْحَمُ ويَعْفو!»

- «ماذا تَقولينَ؟!».

- «أَجَلْ أَكْرَهُهُ لِهٰذِهِ الحَسَناتِ، ولا أَكادُ أُطيقُ النَّظَرَ إِلى أَمائِرِهِ».

- «المِسْكينُ! وهَل آذاكِ؟»

- «نَعَمْ ولا. كُلُّ شَيْءٍ كانَ يَهونُ غَيرَ صَمْتِهِ. كُلُّ شَيْءٍ إِلّا هٰذا الهُدوءَ، هٰذا الغُموضَ. إِنَّ نَفْسَهُ غامِضَةٌ مُبْهَمَةٌ. إِنَّهُ مُخيفٌ!»

- «ولٰكِنْ...».

- «ولٰكِنْ ماذا؟ ماذا بَعْدَ ولٰكِنْ؟ لم أَسْمَعْ برَجُلٍ في مِثْلِ نُبْلِهِ، لم أَسْمَعْ برَجُلٍ يَتَحَمَّلُ ما تَحَمَّلَهُ. وإِنِّي لَو قُورِنْتُ بِهِ، لَخَرَجْتُ بِصِفْرٍ كامِلٍ! ومَعَ ذٰلِكَ فَمَقْتي لِشَخْصِهِ لا حُدودَ لَهُ ولا سُدودَ! أَأَنا نَذْلَةٌ، أَمْ أَنا أَحْقِدُ على كُلِّ مَنْ سَبَقَني في شَرَفِهِ وخُلُقِهِ وصِفاتِهِ؟».

فهاجَ وَجْدُ أوبلنسكي، فرَفَعَ إِلَيْها يَدًا آمِرةً، وقالَ: «صَمْتًا، صَمْتًا، فأَنْتِ تَهْذينَ. أَنْتِ مُسْتَضْعَفَةٌ أَضْناكِ المَرَضُ، وفَتَّ في عَضُدِكِ السَّقَمُ».

- «كلاّ، بَل دَعْني أَتَكَلَّمُ».

- «غَيرَ أَنّي لا أَرى فيهِ ما تَرَينَهُ يا أَنّا».

- ولِمَ لا يَتْرُكُني وشَأْني؟ لِمَ لا يَنْبِذُني حتّى أَعْرِفَ أَيْنَ أَنا؟ وأَيْن أَضَعُ قَدَمي؟ وكَيفَ أَحْيا؟ وكَيفَ أَتَنَفَّسُ؟ أَتَعْلَمُ أَنّي أَكادُ أَخْتَنِقُ؟!»

- «أَرْوِدِي[1] يا أُخْتاهْ، فلَيْسَ كالصَّبْرِ والأَناةِ تُعالَجُ بِهِما الأُمورُ، وثِقي أَنَّ لكُلِّ مُعْضِلةٍ حَلًّا، ولِكُلِّ أَزْمَةٍ انْفِراجًا».

- «عَلى أَنَّني لا أَجِدُ إِلّا السُّدودَ والقُيودَ، ولا أَرى إِلّا ظُلُماتٍ مُتَراكِمَةً. فهَل لي مَنْدوحَةٌ عَنِ المَوْتِ؟ أَلَيْسَ المَوْتُ خَلاصي مِنْ شَقائي وعَذابي؟»

- «هُراءٌ، هُراءٌ. بَل إِنَّكِ تَهْذينَ يا أَنّا. وقَد أَعْمَتْكِ حالَتُكِ، فلَم تَعودي تَرَينَ إِلّا النّاحِيَةَ المُظْلِمَةَ مِنْ حَياتِكِ. أَما يَخْلُقُ بِنا الآنَ أَنْ نَحُلَّ العُقْدَةَ؟ فهَلُمِّي نُحَلِّلِ الأُمورَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا».

---

(١) أَرْوِدي: رُوَيْدَكِ، تَمَهَّلي.

- «اِفْعَلْ ما بَدا لَكَ».

- «لَقَد بَنى عَلَيْكِ رَجُلٌ حَويلٌ، لٰكِنَّ سِنَّهُ تَزيدُ كَثيرًا عَن سِنِّكِ؛ ورَضِيتِ أَنْتِ بهِ مِنْ دونِ أَنْ تُبادِليهِ عاطِفَةَ الحُبِّ، بَلِ اقْتَرَنْتِ بهِ ونَفْسُكِ عَنِ الحُبِّ بَعيدَةٌ».

- «أَصَبْتَ، وقَد أَخْطَأْتُ في ما فَعَلْتُ».

- «وما نَفْعُ التَّفَجُّعِ لخَطَإٍ لا سَبيلَ إِلى مُلافاتِهِ؟ يَتَرَتَّبُ عَلَينا الآنَ أَنْ نَسْتَمِرَّ في عَرْضِ صَفْحَةِ حَياتِكِ. لَقَد تَبِعَ ذٰلِكَ شَيْءٌ طَبيعيٌّ، فأُغْرِمْتِ بشابٍّ يُضاهِيكِ سِنًّا وحُسْنًا؛ وهٰذا أَيضًا خَطَأٌ لا يُتَدارَكُ».

وهَزَّتْ أَنّا رَأْسَها مُوافِقَةً.

واسْتَأْنَفَ يَقولُ: «واكْتَشَفَ زَوْجُكِ الحَقيقَةَ، فأَغْضى ثُمَّ غَفَرَ... فهَل لَكِ أَنْ تَصْبِري على ما وَصَلْتِ إِلَيْهِ؟ هَل يُمْكِنُكِ أَنْ تَعيشي في كَنَفِ رَجُلٍ غَفَرَ بالرَّغْمِ مِنَ الإِساءَةِ؟»

- «أَوَّهْ! إِنَّني أَتَخَبَّطُ في لُجَّةِ الحَيْرَةِ».

- «أَلَمْ تَقولي مُنْذُ لَحَظاتٍ إِنَّكِ تُفَضِّلينَ المَوْتَ على الحَياةِ مَعَهُ؟»

ولَمْ تُجِبْ أَنّا.

وأَرْدَفَ: «أَلَمْ تَقولي إِنَّكِ تَمْقُتينَهُ؟»

فصاحَتْ: «كَلاّ، كَلاّ، لم أَقُلْ. ولَو فَرَضْنا أَنَّني قُلْتُ، فلَسْتُ في قَوْلي إِلَّا مُغالِيَةً، أَو إِنّني أَهْرِفُ[1] بما لا أَعْرِفُ!»

- «فلأَشْرَحْ لَكِ الأُمورَ...».

- «كَفى، فلَن أَفْهَمَ كَلِمَةً، لَقَدِ ارْتَبَكَ تَفْكيري، ووَقَفْتُ على حافَةِ جُرْفٍ[2] تَليهِ هُوَّةٌ سَحيقَةُ الغَوْرِ، ولَن أَنْجُوَ!»

- «ومَنْ أَدْراكِ أَنَّ الحِيلَةَ تَعْجِزُ عَن إِنْقاذِكِ؟ أَلَيْسَ في وُسْعِنا أَنْ نَتَلَقَّفَكِ في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ إِلى الغَوْرِ السَّحيقِ؟ فأَبيني عَن حَقيقَةِ مَشاعِرِكِ، اِكْشِفي لي كُلَّ شَيْءٍ، قولي ما تُريدينَ».

---

(١) أَهرِفُ: أَهذي.

(٢) الجُرْفُ: ما أَكَلَتْهُ السُّيولُ مِنَ الارْضِ أو شِقُّ الوادي إذا حَفَرَ الماءُ في أَسْفَلِهِ.

- «لَقد تَجَمَّدَ شُعوري، وتحَجَّرَ إِحْساسي ولم يَبْقَ لي غايَةٌ، ولم يَبْقَ هَدَفٌ!»

- «ولا جَرَمَ أَنَّ قَرينَكِ يَتَأَلَّمُ مِنْ هٰذا الشُّعورِ أَيْضًا، ولا بُدَّ والحالةُ هٰذِهْ مِنْ إِنهاءِ الأَمْرِ، فلِمَ لا تَلْجَآنِ إِلى الطَّلاقِ؟»

فأَطْرَقَتْ واسْتَغْرَقَتْ في الفِكْرِ.

ونَهَضَ وخَرَجَ وهْوَ يَقولُ: «سأَجْتَمِعُ الآنَ إِلَيْهِ، فعَسى أَنْ يُوَفِّقَني اللّٰهُ إِلى ما فيهِ مَصْلَحَةُ الطَّرَفَيْنِ».

* * *

خَطا أوبلنسكي داخِلًا، فلَمَّا وَقَعَ طَرْفُهُ على وَجْهِ كارنينَ المُتَجَهِّمِ فارَقَتْهُ شَجاعتُهُ، وتَوَلَّتْهُ حَيرَةٌ عَظيمةٌ. لٰكِنَّهُ استَجْمَعَ شَتاتَ عَزيمتِهِ وخاطَبَهُ مُتَلَعْثِمًا: «أَخافُ إِنْ حَدَّثْتُكَ قَليلًا أَنْ أُثْقِلَ عَلَيْكَ يا أَلِكْسيس».

قالَ: «قُلْ ما بَدا لَكَ...».

وتَمَلْمَلَ الرَّجُلُ المَكْدودُ في مَجْلِسِهِ، وأَرْدَفَ: «قُلْ إِنَّما أَرْجوكَ أَنْ لا تُطيلَ، فأَنا مُتْعَبٌ مَكْدودٌ».

- «أَجَلْ، أُريدُ أَنْ أَقولَ شَيْئًا...».

- «هاتِ ما عِنْدَكَ ولا تَتَرَدَّدْ».

- «إِنّي أُحِبُّ أَنّا شَقيقَتي، وأُشْفِقُ عَلَيْها».

وصَمَتَ، وتَلَفَّتَ بقَلَقٍ. ولمّا لم يُحِرْ كارنينُ جَوابًا تابَعَ يَقولُ: «وأَرْغَبُ رَغْبَةً صادِقَةً في مُباحَثَتِكَ بشَأْنِ شَقيقَتي هٰذِهْ، وبعَلاقَتِها الشّاذَّةِ بكَ زَوْجًا لها».

وصَعَّدَ كارنينُ نَظَرًا حَزينًا في وَجْهِ مُحَدِّثِهِ، ثُمَّ أَغْضى بعَينَيهِ، وأَخَذَ عَنِ المَكْتَبِ وَرَقَةً مَدَّ بها يَدَهُ إِلَيْهِ وقالَ: «أَظُنُّ أَنَّ في هٰذِهِ الوَرَقَةِ ما يُغْني عَن كُلِّ كَلامٍ، فاقْرَأْها، إِنَّ شَقيقَتَكَ سَئِمَتْ مِنْ زَوجِها، وبَرِمَتْ بطِفْلِها، وكَرِهَتِ الحياةَ المُسْتَقيمَةَ، فلَمْ أَجِدْ مَندوحَةً عَن كِتابَةِ هٰذِهِ الرِّسالةِ إِلَيْها».

وتَناوَلَ أوبلنسكي الوَرَقَةَ، ثُمَّ نَظَرَ إِلى كارنينَ، وما لَبِثَ أَنِ انْهَمَكَ في القِراءَةِ.

وقَد جاءَ في الرِّسالةِ:

«إِنَّ الحَياةَ صَعْبَةٌ، وأَنْتِ كما أَيْقَنْتُ لا تَرْغَبينَ في قُرْبي، أَنْتِ تَكْرَهينَ زَوجَكِ، وهٰذا يَحِزُّ في صَدْري، لٰكِنَّها الحَقيقةُ. الحَقيقةُ المُرَّةُ المُمِضَّةُ!

لَقدْ أَلَمَّتْ بكِ وَعْكَةٌ شَديدةٌ انْحَلَّتْ مِن وَطْأَتِها قُواكِ، ولا أُنْكِرُ أَنّي متُّ فَرَقًا حينما رَأَيْتُكِ تَتَهافَتينَ مِنَ السَّقَمِ، وتَنْهارينَ مِنَ الإِعْياءِ. وإِنّي بَعْدَ أَنْ شاهَدْتُ وَصَبَكِ عاهَدْتُ نَفْسي على نِسْيانِ الماضي، وقَرَّرْتُ أَن أَقْلِبَ صَفْحةً جَديدةً مِنْ صَفَحاتِ حَياتِنا... ولم يُداخِلْني نَدَمٌ على ما وَطَّدْتُ العَزْمَ عليهِ. وما شابَ إِحساسي حَسْرةٌ على ضَعْفِ قَلْبي، فقد شِئْتُ أَنْ أُعْطِيَكِ فُرْصَةَ التَّوْبةِ، كما شِئْتُ أَيْضًا أَنْ أَغْسِلَ أَدْرانَ الماضي وأَقْذارَهُ. بَيْدَ أَنّي أَخْفَقْتُ وبُؤْتُ بالخَيْبَةِ.

إِنّني الآنَ أَنْتَظِرُ رَدَّكِ، فقولي ولا تُخْفي شَيْئًا. اُطْلُبي ما يُسَبِّبُ لَكِ الهَناءَ والعَيْشَ الرَضِيَّ، وثِقي أَنّي أُلَبّي طَلَبَكِ، وأَفْعَلُ المُسْتَحيلَ لأُوَفِّرَ لَكِ السَّعادةَ وهُدوءَ البالِ».

ومَدَّ أوبلنسكي يَدَهُ ببُطْءٍ، وأَرْجَعَ الرِّسالةَ إِلى كارنينَ، وحَدَّقَ إِلَيهِ غيرَ مُصَدِّقٍ، وناجى نَفْسَهُ، وتَمْتَمَ، وغَمْغَمَ، لٰكِنَّ الكَلِماتِ لم تَخْرُجْ واضِحةً مِنْ فَمِهِ.

ورانَ على الغُرْفَةِ سُكونٌ رَهيبٌ، وصَمَتَ الرَّجُلانِ كأَنَّ على رَأْسَيْهِما الطَّيْرَ[1]. وما عَتَّمَ كارنينُ أَنْ خاطَبَ صَديقَهُ قائِلًا: «أَوَعَيْتَ مَعْنى كَلِماتي؟ أَفَهِمْتَ مَغْزى عِباراتي؟»

قالَ: «أَجَلْ، لَقد قَرَأْتُ وفَهِمْتُ. فَهِمْتُ كَلِماتِكَ، وفَهِمْتُ شَخْصِيَّتَكَ وجِبِلَّتَكَ[2]».

- «أَلا تَرى مَعي أَنّي طَلَبْتُ إِلَيها أَنْ تُحيطَني عِلْمًا برَغْبَتِها كَي أَسْتَطيعَ أَنْ أَخْدِمَها وأُنيلَها ما تَصبو إِلَيهِ؟»

- «على أَنَّها كما أَثِقُ شارِدَةٌ كَمَنْ طارَتْ نَفْسُهُ شَعاعًا[3]. إِنَّها مُوَزَّعَةُ الفِكْرِ مُرْتَبِكَةٌ، وإِخالُ صَفْحَكَ عَمِلَ على مُضاعَفةِ وَلَهِ نَفْسِها. وسَوفَ تَزيدُ هٰذِهِ الرِّسالةُ مِنْ أَشْجانِها، لأَنَّها ستُضاعِفُ مِنْ عُلُوِّكَ ومِنِ انْخِفاضِها».

---

(١) كأَنَّ على رَأْسَيْهِما الطَّيرَ: تَعْبيرٌ يُرادُ بِهِ أَنَّهُما جامِدانِ لا يَتَحَرَّكانِ.

(٢) جِبِلَّتَكَ: طَبيعَتَكَ، طينَتَكَ.

(٣) شَعاعًا: مُتَفَرِّقَةً.

- «صَدَقْتَ... فما العَمَلُ إِذًا؟ وكَيفَ أَتَصَرَّفُ؟ كَيفَ أَعْجُمُ عودَها[1]؟»

- «اِحْسِمِ المَوْقِفَ، لا تَتَرَدَّدْ ولا تَتَرَيَّثْ، فأَنْتَ وَحْدَكَ الشَّخْصُ الَّذي يَجْدُرُ بِهِ القَطْعُ في هٰذِهِ القَضِيَّةِ».

- «أَتُريدُ مِنّي أَنْ أُنْهِيَ المَسْأَلَةَ؟ قُلْ... على أَيِّ وَجْهٍ؟ في أَيِّ صورَةٍ؟ قُلْ... ناشَدْتُكَ اللهَ».

- «أَلَمْ تَعْزِمْ مُنْذُ زَمَنٍ على فَصْمِ زَواجِكُما بالطَّلاقِ؟ فإِنْ بَدا لَكَ الآنَ أَنَّ الطَّلاقَ هُوَ الحَلُّ الأَوْحَدُ، فلِمَ لا تَلْجَأُ إِلَيهِ؟»

- «إِنَّني على قَدَمِ الِاسْتِعْدادِ لكُلِّ ما يَرْفَعُ عَن كاهِلِها العِبْءَ الثَّقيلَ».

- «اعْلَمْ يا كارنينُ أَنَّ الزُّجاجَ مَتى انْصَدَعَ لا يُرْأَبُ، وأَنَّ عَلاقَتَكُما أَضْحَتْ كالزُّجاجَةِ المُنْحَطِمَةِ، فانْتَهِيا مِنَ الأَمْرِ بالفِراقِ، واحْسِما المُشْكِلَةَ بالبِعادِ»،

- «أَوْضِحْ يا صاحِ[2]».

- «أَعْني أَنَّ الطَّلاقَ هُوَ خَيرُ عِلاجٍ فاجْنَحْ إِلَيهِ».

وتَنَفَّسَ كارنينُ الصُّعَداءَ، وزَفَرَ زَفْرَةً مُحرِقَةً ودَفَنَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وأَنْهى أوبلنسكي كَلامَهُ بقَوْلِهِ: «فإِنْ لَم يُفَكِّرْ أَيٌّ مِنْكُما في زَواجٍ ثانٍ، هانَ الأَمْرُ، وأَصْبَحَتْ أَنّا حُرَّةً، وزالَتْ أَحْزانُكَ وآلامُكَ».

* * *

أَلَمْ يُعْمِلِ الفِكْرَ؟ هَل أَمْضى هٰذِهِ الأَيّامَ كُلَّها مِن دونِ أَنْ يَسعى إِلى حَلٍّ مُوافِقٍ؟ وهَل يُرْضيهِ هٰذا الحَلُّ؟ كَلّا... كَلّا...

انَّ شَقيقَ زَوجَتِهِ يَرى في الطَّلاقِ خَلاصَهُ وخَلاصَ أَنّا، فهَلِ الطَّلاقُ حَقًّا هُوَ الحَلُّ الأَوْحَدُ؟ هَل في الطَّلاقِ خَلاصٌ لَهُ ولزَوجَتِهِ ولابْنِهِ؟ كَلّا... كَلّا...

شَقيقُ زَوجَتِهِ يَرى هٰذا، ولٰكِنْ، أَنّى لِشَقيقِ زَوجتِهِ الحَصافَةُ والعَقْلُ؟ إِنَّهُ لم يُدْخِلْ في

(١) أَعْجُمُ عودَها: أَعْرِفُ حَقيقَتَها، أَمْتَحِنُها وأَخْتَبِرُها.

(٢) يا صاحِ: يا صاحِبي (مُنادًى مُرَخَّمٌ).

حِسابِهِ مِثْلَ ما أَدْخَلَ كارنينُ، ما يَقْتَضيهِ الطَّلاقُ مِن إجراءاتٍ وأَعْمالٍ لا تَجُرُّ عَليهِ إِلَّا الفَضيحَةَ والتَّشْهيرَ. أَلَيْسَ الزَّوْجُ مُطالَبًا بالِاعْتِرافِ جَهارَةً، وعلى مَلَأٍ مِنْ النَّاسِ، بخِيانَةِ امْرَاتِهِ؟ ثُمَّ أَلا يُقَسَرُ الزَّوْجُ على المُثولِ أَمامَ القاضي والِاعْتِرافِ بما رَأَى، وبما سَمِعَ، بَل على الاِعْتِرافِ بانَّ المَولودَةَ الجَديدَةَ هِيَ ابنَةُ السِّفاحِ والزِّنا؟!

لا... لا... إِنَّهُ لا يَقْدِرُ على هٰذا الامْرِ!

ولا يَقْوى على اتِّهامِ أَنّا، فقَد أَحَبَّها حُبًّا عَظيمًا، وقَد تَدَلَّهَ بها. ثُمَّ، أَلَمْ يَغْفِرْ لَها وهْيَ تُقاسي المَرَضَ؟

ووَلَدُهُ! هَل فَكَّرَ هٰذا الأَبْلَهُ (أوبلنسكي) بوَلَدِهِ؟ أَيَتْرُكُهُ لأُمِّهِ حتّى تَقْضِيَ عَليهِ وعلى مُسْتَقْبَلِهِ؟

ولَو فَعَلَ ذَلك، أَفَيَبْقى ابنُهُ حامِلًا اسْمَهُ، أَمْ تُبَدِّلُ المَرْأَةُ اسْمَهُ نِكايَةً بِهِ؟!

وأَنَّ الرَّجُلُ المَهيضُ أَنينَ الثَّكْلى، وزَفَرَ مِنْ كَبِدٍ حَرّى. وأَصابَهُ الدُّوارُ، وغامَتْ عَيناهُ، فدَعَمَ رَأْسَهُ بيَدِهِ، ونَسِيَ وُجودَ أوبلنسكي، نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ، وشُلَّ دِماغُهُ، فلم يُفَكِّرْ؛ ووَقَفَ هٰذا الدِّماغُ المُتْعَبُ على مَفْرِقِ طَريقَيْنِ، وجَمَدَ في مَكانِهِ حائِرًا لا يَدْري أَيَّ الطَّريقَيْنِ يَسْلُكُ!

ونَبَّهَهُ صَوْتُ أوبلنسكي مِن شُرودِهِ، فرَفَعَ رَأْسَه وأَصْغى. كانَ أوبلنسكي يَتَحَدَّثُ إِلَيهِ، وكأَنَّهُ لا يَرى ما انْتابَهُ، كانَ يقولُ: «ماذا تَرْتَئي؟ وما هِيَ شُروطُكَ الَّتي تَطْلُبُ الطَّلاقَ بمُقْتَضاها، أو بالأَحْرى تِلْكَ الَّتي تُطالِبُ أَنّا بالوَفاءِ بها؟ إِنَّ أَنّا كما أُوقِنُ لا تُريدُ شَيْئًا البَتَّةَ مِنْكَ».

وهَتَفَ كارنينُ بصَوْتٍ مُتَحَشْرِجٍ: «ماذا فَعَلْتُ؟ ماذا ارْتَكَبْتُ حتّى أُمْنى بكُلِّ هٰذا الشَّقاءِ؟ ما هِيَ جَريرتي حتّى يُعاقِبَني اللّٰهُ هٰذا العِقابَ؟ أَوَّهْ! أَوَّهْ!».

وانْكَفَأَ بوَجْهِهِ على المِنْضَدَةِ وهْوَ يَنْشِجُ.

واسْتَتْلى أوبلنسكي: «لَشَدَّ ما أَشْعُرُ مَعَكَ! لَشَدَّ ما أَتَأَلَّمُ مِن أَجْلِكَ! ولٰكِنْ... ولٰكِنْ... ما العَمَلُ؟ إِنّي أَتَقَلَّبُ مِثْلَكَ على وَقْدِ الحَيرَةِ، ولِلْحَيرَةِ أَحْيانًا لَظًى مُتَأَجِّجُ النِّيرانِ».

ولم يُحَرِّكْ كارنينُ ساكِنًا، ولَبِثَ يُفَكِّرُ. لَقَدِ اسْتَغْرَقَ هٰذِهِ المَرَّةَ في فِكْرٍ هادِئٍ رَصينٍ، كانَ يُفَكِّرُ في القَوْلِ المَأْثورِ «مَنْ صَفَعَكَ على خَدِّكَ الأَيْمَنِ، فأَدِرْ لَهُ الأَيْسَرَ». كانَ يُفَكِّرُ في الحِلْمِ والصَّفْحِ، ويُفَكِّرُ في العَفْوِ والمَغْفِرَةِ. لٰكِنَّهُ زَمْجَرَ على حينِ غِرَّةٍ فكانَ الصَّوْتُ كأَنَّهُ غيرُ صَوتِهِ: «لِيَكُنْ ذٰلِكَ. سَوْفَ أَسْعى إلى الطَّلاقِ. سَوْفَ أَتْرُكُها وأَتْرُكُ ابني».

وانْتَصَبَ واقِفًا، وانْدَفَعَ نَحْوَ النّافِذَةِ، وجَعَلَ يَرودُ المَكانَ بطَرْفِهِ الكَليلِ، وجَعَلَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَينَيهِ، فلَم يَرْقَأْها ولَم يُجَفِّفْها، بَل لَزِمَ مَكانَهُ جامِدًا لا يَتَحَرَّكُ.

وقدِ اخْتَلَطَ شُعورُ الأَلَمِ والحُزْنِ في قَرارَتِهِ، بشُعورِ التَّضْحِيَةِ بالذّاتِ، وإيثارِ الآخَرِ على النَّفْسِ العَزيزةِ!

وهَتَفَ أوبلنسكي يَقولُ بصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مَبْحوحٍ: «ما اسْمى قَلْبَكَ، وأَرَقَّ شُعورَكَ يا أَلِكْسيس!»

ولم يُحِرْ كارنينُ جَوابًا، فقَد كانَتْ عَبَراتُهُ تَتَرَقْرَقُ في عَينَيهِ، وتَتَجَمَّعُ في أَنْفِهِ وفَمِهِ.

واسْتَتْلى أوبلنسكي وهْوَ يَتَحَفَّزُ لِلذَّهابِ: «ما أَعْظَمَ المَأْساةَ! لٰكِنَّكَ بَرْهَنْتَ لي على أَنَّكَ أَصْلَبُ عودًا مِنْ أَنْ تُحَطِّمَكَ النَّكْبَةُ وتَسْلُبَ حِجاكَ، وتَحْرِمَكَ نُبْلَكَ وكَرَمَكَ ورَوْعَةَ إِحْساسِكَ».

ومَضى الرَّجُلُ في سَبيلِهِ. وسُرْعانَ ما افْتَرَّتْ شَفَتاهُ عَنِ ابْتِسامةِ الظّافِرِ المُنْتَصِرِ. لَقَد نَسِيَ الأَلَمَ، ونَسِيَ الرَّجُلَ المُتَأَلِّمَ، ولم يَعُدْ يَذْكُرُ إِلّا نَجاحَهُ في مُهِمَّتِهِ.

فها هُوَ كارنينُ يَعْزِمُ على الطَّلاقِ، وها هِيَ أَنّا تَرْتاحُ مِنْ عَذابِها، وتَبْتَعِدُ عَنْ زَوْجِها.

وأَنْشَأَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «أَلَمْ أَكُنْ ماهِرًا؟

أَلَمْ أَكُنْ كيماوِيًا بارِعًا؟

أَلَمْ أَنْجَحْ في اسْتِنْباطِ العَقّارِ الَّذي أَنْقَذَ ثَلاثَةَ أَشْخاصٍ؟

أَلَسْتُ ماهِرًا؟!»

وضَحِكَ مِلْءَ فيهِ.

لم يَكُنْ لَئيمًا...

ولم يَكُنْ دَنيئًا...

ولٰكِنّها طَبيعتُهُ، سَجيَّتُه، جِبِلَّتُهُ!

هٰذا هُوَ ستيفانُ أوبلنسكي!

ولَن يَتَغَيَّرَ!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - أَتَرى في سُؤالِ بتسي لأوبلنسكي «أَعَلى مَوعِدٍ أَنْتَ - مَوعِدِ غرامٍ؟» إدانَةً للمُجْتَمَعِ الَّذي يعيشانِ فيهِ، أَمْ تَرى فيهِ شيئًا آخَرَ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.

٣ - ما الحلُّ الَّذي اقتَرَحَهُ أوبلنسكي على كارنين؟ وهَل تَراهُ حَلًّا مَعْقولًا؟ عَلِّلْ إجابَتَك.

٤ - لِمَ لَمْ يَكُنْ كارنينُ يَرغَبُ في الطَّلاقِ؟ وهَل كانَ مُحِقًّا في ذلِكَ؟

٥ - أَتَرى الكاتِبَ هنا معَ تَماسُكِ الأُسرَةِ أَمْ معَ تَمَزُّقِ شَمْلِها؟ وما دليلُكَ على ذلكَ؟

٦ - أَترى أَنَّ كارنينَ كانَ مُؤمِنًا برِسالةِ المسيحِ؟ أَشِرْ إلى ما يُثبِتُ ذلكَ في الفصلِ.

٧ - وهَل تَرى أَنَّ الكاتِبَ كانَ وراءَ هذا الإيمانِ، ووراءَ هذه الإنسانيَّةِ العميقةِ في نَفْسِ كارنين؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.

٨ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل التَّاسع

اِنْتَحَرَ فرونسكي، لٰكِنَّهُ لَم يَمُتْ، فقَدِ ارْتَعَشَتْ يَدُهُ بالمُسَدَّسِ، فانْحَرَفَتِ الرَّصاصَةُ ولم تُصِبْ مِنْهُ مَقْتَلًا.

غَيْرَ أَنَّ الرَّصاصةَ اخْتَرَقَتْ جَسَدَهُ، واسْتَنْزَفَتْ دَمَهُ، ولَو لَم يُسارِعْ ذَووهُ إلى نَجْدَتِهِ لَما بَقِيَتْ مِنْهُ قَطْرَةٌ، ولَقَضى بَعْدَ ساعَةٍ نَحْبَهُ.

وفَتَحَ فرونسكي عَينَيهِ الذَّابِلتَينِ، وتَلَفَّتَ مُتَعَجِّبًا، فرَأَى زَوجةَ شَقيقِهِ مُكِبَّةً عليهِ، وَهْيَ تُعْنى بِهِ وتُضَمِّدُ جِراحَهُ بحَنانٍ، فسارَعَ يقولُ: «أَيْ فاريا! كُنْتُ أَعْبَثُ بالمُسَدَّسِ فانطَلَقَتْ منهُ رصاصَةٌ. أَفَهِمْتِ؟ لَقَدِ انْطَلَقَتْ قَضاءً وقَدَرًا...».

فهَزَّتِ المَرْأَةُ رَأْسَها، وابْتَسَمَتْ ورَبَّتَتْ جَبْهَتَهُ.

ومضى يَقولُ بصَوْتِهِ الواهي: «احْذَري يا فاريا! فأَنا لا أُريدُ أَنْ يَلْغَطَ النَّاسُ بقِصَّتي، ويَتَساءَلوا عَنِ السَّبَبِ، لَقَدْ أُصِبْتُ اتِّفاقًا».

فقالَتْ وهْيَ تَضْحَكُ قَليلًا: «على أَنْ تَعِدَني بأَلَّا تَنْطَلِقَ الرَّصاصَةُ مِن تِلْقائِها مَرَّةً ثانِيَةً».

فأَغْمَضَ عَينَيهِ، ورأَتِ المَرْأَةُ على ثَغْرِهِ الجَميلِ افْتِرارةَ حُزْنٍ وأَسًى، فطَأْطَأَتْ رَأْسَها وبَكَتْ... فالجَمالُ الحَزينُ لهُ وَقْعٌ على القَلْبِ أَشَدُّ مِن وَقْعِ الجَمالِ الضَّاحِكِ.

لَقَد كانَ فرونسكي في حُزْنِهِ أَرْوَعَ مِنهُ في سُرورِهِ، كانَ في تَرَحِهِ أَجْمَلَ مِنهُ في فَرَحِهِ!

***

وزالَ عَنهُ الخَطَرُ بَعْدَ أَيَّامٍ، وقَوِيَتْ رُوحُهُ، واشْتَدَّتْ عَزيمَتُهُ، وفارَقَهُ ذٰلِكَ اليَأْسُ المَريرُ الَّذي انْتابَهُ على حينِ غَفْلَةٍ! وخُيِّلَ إِلَيهِ أَنَّ دَمَهُ أَبْرَأَ شُعورَهُ، وأَنَّ عارَهُ قد غَسَلَهُ هٰذا النَّقيعُ الَّذي نَزَفَ مِن قَلْبِهِ! كما خُيِّلَ إِلَيهِ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ يَمشِيَ مَرْفوعَ الرَّأْسِ بينَ الأَنامِ، وأَنْ يُحَدِّقَ إلى العُيُونِ مِنْ دونِ وازِعٍ مِنْ خَجَلٍ أو حَياءٍ.

بَيْدَ أَنَّهُ ما زالَ يُحِبُّ أَنّا، وما زالَ يَشْعُرُ نَحْوَها بتِلْكَ العاطفةِ المُلْتَهِبةِ، على الرَّغْمِ مِن غَيرَتِها الرَّعْناءِ الَّتي أَظْهَرَتْها في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ على أَنْواعٍ وأَشْكالٍ.

ولمّا عَرَضَ عليهِ أُولو الأَمْرِ مَنْصِبًا رَفيعًا في بِلادٍ نائِيَةٍ، هِيَ وِلايةُ طاشقند، لم يَتَرَدَّدْ لَمْحةً، بَل وافَقَ على الاضْطِلاعِ بِهِ فَورًا.

ومَضَتِ الأَيَّامُ، واقْتَرَبَ ميعادُ سَفَرِهِ إِلى تِلكَ الوِلايةِ النَّائيَةِ، فوَجَفَ قَلْبُهُ رَهْبةً، ونَدِمَ على تَسَرُّعِهِ في قَبولِ المَنْصِبِ، ووَدَّ لو عَدَلَ؛ لٰكِنَّ كَرامَتَهُ مَنَعَتْهُ مِن إِظْهارِ ضَعْفِهِ، فطَفِقَ يَتَأَهَّبُ لِلسَّفَرِ ويَسْتَعِدُّ للرَّحيلِ.

غيرَ أَنَّهُ كانَ يَتَشَوَّفُ الأَبْصارَ إِلى لُقياها، كانَ يَتَلَهَّفُ إِلى الِاجْتِماعِ بها ولو مَرَّةً واحِدةً قَبْلَ رَحيلِهِ.

وما كانَ مِنهُ إِلَّا أَنْ كاشَفَ الأَميرةَ بتسي برَغْبَتِهِ، فلَم تُكَذِّبِ المَرْأَةُ خَبَرًا، فسارَعَتْ إِلى أَنّا تُطْلِعُها على ما يَطْمَعُ فيهِ فرونسكي. فلَمَّا تَمَنَّعَتْ أَنّا وضَنَّتْ على حَبيبِها بساعَةٍ واحِدَةٍ يَشْفي بها غَليلَهُ، وعَلِمَ فرونسكي بما كانَ، قالَ للأَميرَةِ وهْو يُظْهِرُ الصَّبْرَ والتَّجَلُّدَ وعَدَمَ الِاكْتِراثِ: «عَسى أَنْ يَكونَ في هٰذا كُلُّ الخَيرِ لي ولَها، فمَنْ يَعْلَمُ؟ قد تَخونُني عَزيمَتي لَوِ اجْتَمَعْتُ إِلَيها».

وجاءَتْهُ الأَميرةُ بتسي بَعْدَ يَوْمٍ لتَزُفَّ إِليهِ بُشْرى ما عَزَمَ عَليهِ كارنينُ مِن طَلاقِ زَوجَتِهِ. وكانَ أوبلنسكي شَقيقُ أَنّا قد أَطْلَعَها على فَحْوى حَديثِهِ مَعَ كارنينَ.

فنَهَضَ فرونسكي وتَوَجَّهَ لِساعَتِهِ إِلى بَيْتِ مَحْبوبَتِهِ وهْوَ لا يَكادُ يَطَأُ الأَرْضَ تيهًا وعُجْبًا.

ولمّا دَخَلَ مَخْدَعَ أَنّا، أَلْفاها تَنْتَظِرُ مَقْدَمَهُ على أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ، فانْطَرَحَ قَريبًا منها، وجَعَلَ يَلْثِمُ ثَغْرَها ووَجْنَتَيها، ثُمَّ أَطْبَقَ على يَدَيها يُقَبِّلُهُما ويَضْغَطُهُما إِلى وَجْهِهِ.

وما عَتَّمَتْ أَنّا أَنْ قالَتْ: «أَنا الآنَ لَكَ يا حَبيبي، أَنا لَكَ إِلى الأَبَدِ، فاصْنَعْ بي ما تَشاءُ».

فأَجابَ بصَوتٍ يَنْضَحُ حُبورًا: «أَفي حُلْمٍ أَنا؟ هَل أَصْبَحَتْ لي أَنّا مِن دونِ مُنازِعٍ؟»

قالَتْ: «هُوَ ذاكَ، إِلَّا أَنّي سأَفْعَلُ ما أُريدُ مِن دونِ أَنْ أَنْتَظِرَ منهُ بادِرَةً مِن إِحْسانٍ، سأَفْعَلُ ما يَحْلو لي، ولْيَكُنْ رَدُّ الفِعْلِ ما يَكونُ... فإِنْ طَلَّقَني خَيرًا يَفْعَلْ، وإِنْ أَبى غادَرْتُهُ.

لا يَشْغَلُ بالي الآنَ إِلَّا مَصيرُ ابْني».

ولم يُدْرِكْ فرونسكي كَيفَ أَنَّ فَرْحَتَها باللِّقاءِ لَم تُغْنِ عَنِ انشِغالِ بالِها بابنِها ومَصيرِهِ. ولٰكِنَّهُ لم يَدْرِ أَنَّ الأَهْلَ والإِخْوانَ عِنْدَ النَّوائِبِ، وأَنَّ الوَلَدَ عِنْدَما يَدْلَهِمُّ الجَوُّ، وتُظْلِمُ الدُّنْيا في نَظَرِ الأُمِّ.

ووَجَدَ أَخيرًا في نَفْسِهِ ما يَقولُ، فخاطَبَها بصَوتٍ حَنونٍ: «لا تُزْعِجي نَفْسَكِ الآنَ يا أَنّا، فقَد رَكِبْنا الأَهْوالَ في حُبِّنا وتَجَشَّمْنا الأَخْطارَ، ولا يَصْعُبُ عَلَينا بَعْدَ الَّذي قاسَيناهُ إِيجادُ الحَلِّ المُلائِمِ. أَمّا الآنَ فَفَكِّري في سَعادتِنا، فَكِّري في هَنائِنا، واعْلَمي أَنّي لا أَرى في الدُّنْيا شَيْئًا كالرِّضى. فارْضَي واسْتَبْشِري».

فأَجابَتْ وهْيَ تُعانِقُهُ: «إِنَّ حُسْنَ الثِّقةِ بكَ يُؤْنِسُني يا فرونسكي، وها أَنَذا أَرْضى بما صارَ إِلَيهِ أَمْري، وسأَنْتَقِلُ مِن بَيتِهِ مَهْما كَلَّفَني الأَمْرُ...».

وصَمَتَتْ بَغْتَةً، ثُمَّ هَتَفَتْ بصَوتِ المُتَذَكِّرِ المُتأَلِّمِ: «لَيتَني متُّ! لَيتَني متُّ!»

قالَ: «حَنانَيكِ يا أَنّا! لِمَ كُلُّ هٰذا التَّقَلُّبِ مِن حالٍ إِلى حالٍ؟ لِمَ تُسَلِّمينَ نَفْسَكِ إِلى المَوتِ مِن غَيرِ ضَرورَةٍ تَدْعوكِ إِلى ذٰلِكَ؟»

قالَتْ: «لَقَد فَقَدْتُ الصَّوابَ يا حَبيبي، ولم أَعُدْ أَدْري في أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغي لي أَنْ أَتَكَلَّمَ أَو أَصْمُتَ. لَمْ أَعُدْ أَدْري مَتى يَخْلُقُ بي أَنْ أَحْزَنَ، ومَتى يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَجْذَلَ! إِنَّني مَجْنونَةٌ... مَجْنونةٌ...». وهَمَتِ[1] الدُّموعُ مِن عَينَيها، وضَمَّها فرونسكي إِلى صَدْرِهِ، وقَبَّلَها مِرارًا.

* * *

رَجَعَ فرونسكي إِلى مَنْزِلِهِ، فكَتَبَ يَرْفُضُ المَنْصِبَ الجَديدَ، ولم يَأْبَهْ لما يُسَبِّبُهُ رَفْضُهُ مِن أَضْرارٍ، وكانَ هَمُّهُ نَيلَ مُبْتَغاهُ.

وغادَرَتْ أَنّا بَيتَها...

هَجَرَتْ زَوْجَها...

---

(١) هَمَتِ الدُّموعُ: انسَكَبَتْ.

هَجَرَتِ ابنَها...

هَجَرَتْ سَعادَتَها...

وسَعادَةُ الإِنْسانِ هُدوءٌ واسْتِتْبابٌ.

وظَعَنَتْ مَعَهُ إِلى أوروبا، وأَقامَ الِاثنانِ في إيطاليا، ولم يُطَلِّقْها زَوْجُها.

فقد رَفَضَتْ هِيَ الطَّلاقَ حتّى لا تَشْعُرَ بأَنَّها مَدينَةٌ لَهُ!

* * *

ونَظَرَ الزَّوْجُ (أَلِكْسيس كارنين) في ما حَولَهُ، وآلَمَهُ مَصيرُهُ ومَصيرُ ابنِهِ، آلَمَهُ مَصيرُ المَرْأَةِ الَّتي أَحَبَّ، لٰكِنَّهُ ناجى نَفْسَهُ في أَوَّلِ لَيلةٍ عَلِمَ برَحيلِ أَنّا بقَولِهِ: «تَبًّا لي مِن أَبْلَهَ!

لَقَدِ الْتَمَسْتُ تَقْويمَ ما لا يَسْتَقيمُ،

وحاوَلْتُ مُعالَجَةَ ما لا يُعالَجُ،

وسَعَيْتُ إِلى رَأْبِ صَدْعٍ مِنْ زُجاجٍ،

فكُنْتُ:

كَـنـاطِـحٍ صَـخْـرَةً يَـومًـا لـيـوهِـنَـهـا

فـلَـم يَـضِـرْهـا وأَوْهـى قَـرْنَـهُ الـوَعِـلُ».

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - أتَرى أنَّ الانتِحارَ سَبيلٌ إلى الخَلاصِ من المَشاكِلِ؟ ولماذا؟

٣ - الانتِحارُ جَريمةٌ يُعاقَبُ عليها، ونَقيصةٌ تَصِمُ شَخْصيَّةَ المُنتَحِرِ؛ لذا حاوَلَ فرونسكي التَّهرُّبَ من تُهْمَةِ مُحاولَةِ الانتحارِ. فكَيفَ حاوَلَ التَّهرُّبَ؟

٤ - ما زالتِ الأَميرةُ بتسي تلعَبُ دورًا في إذكاءِ الخِلافِ بينَ الزَّوْجَينِ. دُلَّ على هذا الدَّورِ في مَوضِعِهِ مِنَ الفصلِ.

٥ - ما الخَبرُ السَّارُّ الَّذي زَفَّتْهُ الأَميرةُ بتسي إلى الكونت فرونسكي؟

٦ - هَجَرَتْ أنّا طفلَها وزوجَها لتعيشَ مَعَ عشيقِها. ماذا تقولُ في امْرَأَةٍ كهذِهِ؟ عَلِّلْ قَولَكَ بمَواقِفَ من الفصلِ.

٧ - كَيفَ تَبدو لَكَ أنّا في هذا الفَصلِ؟ أَهِيَ سعيدةٌ أَمْ حَزينةٌ؟ أَهِيَ هادِئةٌ أَمْ قَلِقَةٌ؟ عَلِّلْ حالَتَها النَّفسيَّةَ.

٨ - ما الحالُ الَّتي آلَ إلَيها أَلِكْسيس كارنين في هذا الفصلِ؟ وهَل يُحسَدُ عَليها؟

٩ - اربِطْ، في أَسطرٍ قليلةٍ، بينَ أَحداثِ القِسْمِ الثَّالثِ من الرِّوايةِ.

القسم الرَّابع

الفصل الأوّل

هٰكَذا افْتَرَقَتْ أَنّا عَن زَوجِها، وذَهَبَتْ مَعَ فرونسكي إلى أوروبا. وانْتَهى بهِما المَطافُ في إيطاليا حَيثُ صَرَفا أَشْهُرًا ثَلاثَةً زارا خِلالَها المُدُنَ الإيطاليَّةَ الشَّهيرَةَ كروما، ونابولي، والبُنْدُقيَّة، وغَيرِها.

ولَمْ يَلْبَثا أَنِ اتَّخذا لَهُما مَسْكَنًا في مَدينةٍ صَغيرَةٍ هادِئَةٍ وعاشا في نَعيمٍ مِنَ الحياةِ.

كانَ نَهارُهُما يَبْدَأُ بالسَّعادَةِ ويَنْتَهي بالهَناءِ. كانَ نَهارُهُما تُشْرِقُ في سَمائِهِ شَمْسُ الاتِّفاقِ والصَّفاءِ والمَحَبَّةِ.

وما ذَكَرَتْ أَنّا في الأَيّامِ الأُولى شَيئًا عَن كارنينَ أَو عَنِ ابنِها سيرج. كانَتْ تَخْشى الذِّكْرَياتِ، كانَتْ تَخافُها ولا تَوَدُّ أَنْ تُفَكِّرَ فيها. ثُمَّ أَنَّ السَّعادةَ الَّتي قَطَفَتْ ثَمَراتِها اليانِعَةَ كانَتْ عَميمةً، فاضَتْ حتَّى غَمَرَتْ قَلْبَها وإِحْساسَها وعاطِفَتَها.

كانَ الماضي في رَأْيِها حُلْمًا مُفْزِعًا وضاغوطًا[1] ثَقيلًا يُضَيِّقُ عَلَيها أَنْفاسَها. كانَ كارنينُ مُخيفًا، وكانَ مَرَضُها مُرْعِبًا، وكانَتْ تَوْبَتُها المُوَقَّتَةُ رَهيبةً أَيضًا. كانَ كُلُّ شَيءٍ كالحُلْمِ، وكانَتِ الذِّكْرَياتُ أَضْغاثَ أَحْلامٍ، وقدِ اسْتَيقَظَتِ الآنَ فأَلْفَتْ نَفْسَها تَعيشُ في كَنَفِ فرونسكي، وتَنْعَمُ مَعَهُ بالحُبِّ والوَجْدِ والصَّبابةِ.

واعْتَرَفَتْ في ما بَينَها وبَينَ نَفْسِها ذاتَ يَومٍ أَنَّها مَصْدَرُ شَقاءٍ لِزَوجِها، لٰكِنَّها هَزَّتْ مَنْكِبَيها وقالَتْ: «وما نَفْعُ التَّنَدُّمِ؟ أَلَسْتُ مُصيبَةً في فِراري مِنْهُ؟ أَلَمْ أُوَفِّرْ عَلَيهِ ضِعْفَ ما هُوَ فيهِ الآنَ مِن أَسًى؟»

وناجَتْ عَقْلَها في يَومٍ آخَرَ بقَولِها: «ومَعَ أَنَّهُ فَقَدَ الكَثيرَ، تَبْقى خَسارتي أَجْسَمَ وأَعْظَمَ. لَقَد خَسِرْتُ وَلَدي، ثُمَّ خَسِرْتُ شَرَفي وكَرامتي!»

---

(١) الضّاغوط: الكابوس.

واسْتَعاضَتْ بحُبِّ ابْنَتِها مِن فرونسكي عَن حُبِّها لسيرجَ، فتَعَلَّقَتْ بالطِّفْلَةِ تَعَلُّقًا أَشْبَهَ بالعِبادَةِ، وكانَتْ تَلوذُ بهٰذا الحُبِّ كُلَّما أَثْقَلَ على رَأْسِها فِكْرٌ مُمِضٌّ أَسْوَدُ.

وكانَ المَرَضُ الَّذي أَوْشَكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيها سَبَبًا في تَشَبُّثِها بالحَياةِ، فأَصْبَحَتْ تُحِبُّ الحَياةَ وتَرى الجانِبَ الزَّاهِيَ مِنْها، وأَصْبَحَتْ تَتَغَلَّبُ على يَأْسِها بصَرفِ فِكْرِها عمّا يُدْخِلُ اليأْسَ في قَلبِها. ثُمَّ إِنَّ انفِرادَها بخَليلِها حَبَّبَ إِلَيها الحَياةَ، فهْوَ نسيجُ وَحْدِهِ، رَجُلٌ قَريبٌ إِلى القَلْبِ، لَطيفٌ، ظَريفٌ، إِنْسانٌ.

كانَتْ تَرْنو إِلَيهِ، وتَعْجَبُ لِقَدِّهِ المَمْشوقِ، وبُنْيَتِهِ القَوِيَّةِ، ونَظْرَتِهِ الواثِقَةِ النَّافِذَةِ.

وقَد تَبَدَّلَ إِحْساسُها شَيئًا فشَيئًا حتَّى أَضْحَتْ عِبادَتُها لَهُ مَصْدَرَ شُعورٍ بالنَّقْصِ وعَدَمِ المُساواةِ. فهْوَ أَفْضَلُ مِنْها في كُلِّ شَيءٍ، حتَّى في رَوائِهِ وبَهائِهِ، مَعَ أَنَّها مِنْ أَجْمَلِ النِّساءِ.

ولٰكِنَّها حَرَصَتْ على أَلَّا يَفْطَنَ إِلى إِحْساسِها الجَديدِ هٰذا، لأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ زالَ حُبُّهُ لَها، فحُبُّ الرَّجُلِ يَنْقَلِبُ إِلى أَنْقاضٍ مَتى اطْمَأَنَّ إِلى حُبِّ المَرْأَةِ. وما لَمْ يَكُنْ في قَلْبِهِ شَكٌّ وهاجِسٌ مِن ريبَةٍ فلَن يُذْكِيَ نارَ حُبِّهِ شَيءٌ آخَرُ!

* * *

فهَل كانَ فرونسكي سَعيدًا هُوَ الآخَرُ؟ هَل جَلَبَ إِلَيهِ قُرْبُهُ مِن حَبيبَةِ قَلْبِهِ ما يَشْتَهي مِن راحةٍ وهَناءٍ؟

لا، لَقَد كانَ يُفَكِّرُ دائِمًا في آلامِهِ، في أَسْقامِهِ. كانَ يُفَكِّرُ في عِزَّةِ نَفْسِهِ المَهْدورَةِ، ومُسْتَقْبَلِهِ المُحَطَّمِ. وكانَ يُقارِنُ بَينَ ما اسْتَحْوَذَ عَلَيهِ وما تَخَلَّى عَنهُ، فيَرْتاعُ ويَلْتاعُ، ولٰكِنَّهُ يَكْتُمُ ما اعْتَلَجَ في صَدْرِهِ، ويُسْدِلُ سِتارًا كَثيفًا على ما اخْتَمَرَ في فُؤادِهِ.

وأَيْقَنَ، وهْوَ يُقَلِّبُ الفِكْرَ في إِحْدى خَلَواتِهِ، أَنَّ الإِنْسانَ يُخْطِئُ حينَ يَتَراءى لَهُ أَنَّ في تَحقيقِ المُنى سَعادةَ الرَّجُلِ أَوِ المَرأَةِ. فثَمَّةَ أُمورٌ أُخْرى لا يَتِمُّ هَناءُ الإِنْسانِ إِلَّا بها، ثَمَّةَ أُمورٌ عَميقةُ الأَغْوارِ في قَرارةِ هٰذا الإِنْسانِ، لا يَهْتَدي إِلَيها إِلَّا بَعْدَ تَأَمُّلٍ وتَفَكُّرٍ، ومُقارَنَةٍ ومُقابَلَةٍ.

فهْوَ مَثَلًا قَد سُرَّ في أَوَّلِ الأَمْرِ لِفَصْمِ عَلاقَتِهِ بالجَيْشِ، لٰكِنَّهُ ما كادَ يَبْتَعِدُ عَنهُ حتَّى أَحَسَّ بفَراغٍ في حَياتِهِ لا سَبيلَ إِلى مَلْئِهِ.

وهْوَ قَدِ اغْتَبَطَ لرَفْضِهِ المَنْصِبَ الجَديدَ، بَيدَ أَنَّهُ نَظَرَ في ما بَعْدُ، فرَأَى المَعانِيَ تَذوبُ شَيئًا فشَيئًا مِنْ أُفُقِ حَياتِهِ.

وهْوَ قَد جَذِلَ ساعَةَ خُيِّلَ إلَيهِ أَنَّ الرَّاحَةَ مِنَ العَمَلِ قَد تَهَيَّأَتْ لَهُ؛ لٰكِنَّ تَقاعُدَهُ عن كُلِّ نَشاطٍ انْقَلَبَ في رَدَحٍ وَجيزٍ إلى عَذابٍ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ، وحَيرَةٍ لا مَثيلَ لَها.

وجَعَلَ يَقْرَأُ، وجَعَلَ يَتَتَبَّعُ أَخْبارَ السِّياسةِ، وجَعَلَ يَرْسُمُ...

ورَسَمَ صورَةً للحاضِنَةِ الصَّبِيَّةِ الَّتي جَلَبَتْها أَنّا لِرعايةِ الطِّفْلَةِ، وكانَتِ الفَتاةُ مَليحَةً على جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ القَسامَةِ[1]. فحَرَّكَ الغَيرَةَ في قَلْبِ أَنّا انْهِماكُ فرونسكي في رَسْمِ صورتِها.

وكانَتْ غَيرتُها سَحابةً في سَماءِ سَعادَتِها، وكانَتْ سَحابةً ما عَتَّمَتْ أَنِ اتَّسَعَتْ وكَبُرَتْ وتَضَخَّمَتْ، وجَعَلَتْ تَمْتَدُّ رُوَيدًا رُوَيدًا وتَتَكاثَفُ وتَكْفَهِرُّ.

وأَصْبَحَ دَيْدَنُهُ[2] في تِلْكَ الأَشْهُرِ تَقَلُّبًا وتَبَدُّلًا وقَلَقًا داخِليًّا؛ وسُرْعانَ ما سَئِمَ ما أَخَذَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الرَّسْمِ والتَّصويرِ، كما ضَجِرَ عِندَما دَأَبَ على القِراءَةِ، وعِندَما اسْتَرْسَلَ في مُتابعةِ أَخْبارِ السِّياسَةِ.

وانْتَهى بِهِ الأَمْرُ إلى شُعورِهِ بالمَلَلِ الشَّديدِ مِنْ حَياتِهِ في هٰذِهِ المَدينةِ الإيطالِيَّةِ. ولمّا أَفْضى لأَنّا بما خامَرَ صَدْرَهُ، شاطَرَتْهُ هِيَ شُعورَهُ بالمَلَلِ، واتَّفَقَ الاثْنانِ على الرُّجوعِ إلى بطرسبرج.

* * *

تَقَلَّبَ كارنينُ في أَحْضانِ الحَيرةِ ساعةَ تَأَكَّدَ لَهُ ما شاهَدَهُ وسَمِعَهُ، وعَرَفَ أَنَّ المَطْلوبَ مِنْهُ أَنْ يُطْلِقَ سَراحَ زَوجَتِهِ ويُعْطِيَها كامِلَ حُرِّيَّتِها.

اسْتَوْلَتْ عليهِ الحَيرةُ، واسْتَحْوَذَ القَلَقُ على مَشاعِرِهِ، فلَهِفَتْ نَفسُهُ، وطاشَ حِلْمُهُ، وجَمَدَتْ حَرَكَتُهُ، فلَمْ يَفْعَلْ شَيئًا، بَلْ قَنِعَ بما تَكَفَّلَ بِهِ الدَّهْرُ، وأَسْلَمَ زِمامَ أَمْرِهِ إلى الأَيّامِ لِتَصْنَعَ ما تَشاءُ.

لَقَد مَضَتْ أَنّا في سَبيلِها، غادَرَتْهُ مَعَ خَليلِها؛ ذَهَبَتْ بَعيدًا، فلم يَبْتَئِسْ. فقَد تَجَمَّدَ

---

(١) القَسامَةُ: الجَمالُ.

(٢) دَيدَنُهُ: عادَتُهُ.

إِحْساسُهُ، وتَوَقَّفَ ذِهْنُهُ عَنِ الحَرَكَةِ.

ولٰكِنَّهُ عادَ إِلى طَبيعَتِهِ، وإِلى حَياتِهِ، وإِلى أَفْكارِهِ القاتِمَةِ السَّوداءِ عِنْدَما استَوْضَحَتِ المُرَبِّيَةُ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَرْتَديَ سيرجُ مِنَ المَلابِسِ، وعَمَّا يُسْتَحْسَنُ أَنْ يَأْكُلَ ويَشْرَبَ.

لَقد تَعَقَّدَ المَوْقِفُ، وتَراكَمَتِ المِحَنُ على رَأْسِهِ فأَحْنى هامتَهُ، وأَحْنى كاهِلَهُ، وتَلَبَّثَ يَنْتَظِرُ مُسْتَسْلِمًا لِلضَّرَباتِ التَّالِيَةِ.

وما أَكْثَرَ ما اسْتَغْرَقَ في الفِكْرِ بَعْدَ أَنْ عادَ إِلَيهِ رُشْدُهُ! وما أَكْثَرَ ما عَجِبَ مِن شُذوذِهِ! فكَيفَ يُؤَوِّلُ صَفْحَهُ ونِقْمَتَهُ؟ كَيفَ يُؤَوِّلُ شَفَقَتَهُ وقَسْوَتَهُ؟ ثُمَّ كَيفَ يُفَسِّرُ حُبَّهُ الشَّديدَ لابنَةِ زَوجَتِهِ النَّغْلَةِ؟

أَلا يَتَهَكَّمُ عَلَيهِ النَّاسُ؟ أَلا يَحْتَقِرونَهُ؟

* * *

وبَذَلَ كارنينُ جُهْدَ الجَبابِرَةِ لِكي يَظْهَرَ أَمامَ الجَميعِ بِمَظْهَرِ اللَّامُبالاةِ. ففي البَيتِ كانَ يَتَصَرَّفُ أَمامَ الخَدَمِ بهُدوءٍ وثِقةٍ كأَنَّ شَيئًا لَمْ يَحْدُثْ. وفي مَكْتَبِ الوِزارةِ، كانَ هٰذا الوَزيرُ الخَطيرُ يُدَبِّرُ أُمورَ وِزارَتِهِ بجِدٍّ ودِقَّةٍ، ويَبْتَسِمُ أَمامَ مَرْؤوسيهِ، ولا يُظْهِرُ مِن قَلَقِهِ الدَّفينِ ما يَنِمُّ عَن أَلَمٍ وشَقاءٍ.

غَيرَ أَنَّ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ لا تَتَحَمَّلُ أَكْثَرَ مِنْ طاقَتِها، وكارنينُ إِنْسانٌ كغَيرِهِ مِنَ النَّاسِ، لهُ في نَفْسِهِ نَواحٍ قَوِيَّةٌ ونَواحٍ ضَعيفَةٌ.

وقد صَبَرَ وصابَرَ، وتَجَلَّدَ واحْتَمَلَ، وكافَحَ النَّائِبَةَ، إِلَّا أَنَّ الشَّرارَةَ قَوِيَتْ ثُمَّ اشْتَعَلَتْ فامْتَدَّتْ إِلى مَشاعِرِهِ وأَحاسيسِهِ.

كارنينُ القَوِيُّ الإِرادَةِ، الوَزيرُ القَديرُ، تَحَمَّلَ المُصيبَةَ، غَيرَ أَنَّ صانِعَ ثِيابٍ جاءَ مَرَّةً إِلى بَيتِهِ يُطالِبُ بأَثْمانِ ملابِسِ زَوجَتِهِ فحَطَّمَ مَجيئُهُ مُقاوَمَةَ كارنينَ، فانْهارَ الرَّجُلُ، وتَلاشَتْ قُوَّةُ الإِنْسانِ فيهِ، واسْتَحْوَذَ الضَّعْفُ عَلَيهِ.

وامْتَنَعَ عَنِ الجميعِ، فلَمْ يَعُدْ يُقابِلُ أَحَدًا، ووَدَّ مِنْ وَراءِ ذٰلِكَ أَنْ يَتَفادى ما خُيِّلَ إِلَيهِ أَنَّهُ يَراهُ مُتَجَسِّمًا في عُيونِ النَّاظِرينَ إِلَيهِ مِنْ نَظَراتِ الاحْتِقارِ والاسْتِهْجانِ.

كانَ شَهيرًا يَحْتَرِمُهُ النَّاسُ بقَدْرِ ما يَخافونَهُ وبقَدْرِ ما يَحْسِدونَهُ. لٰكِنَّهُ طَفِقَ يَرى أَنَّ خَوفَ

النَّاسِ مِنْهُ انْقَلَبَ إلى شَماتَةٍ، وحَسَدَهُمُ قَد تَحَوَّلَ إلى سُخْرِيَةٍ. وأَيْقَنَ أَنَّ ما مِنْ إنْسانٍ يَعْرِفُهُ إِلَّا وسيَسْلُقُهُ بلِسانٍ حادٍّ وأَنَّهُ لَن يُشْفِقَ عَلَيهِ ولَن يَرْحَمَهُ... والإنسانُ كالحَيَوانِ مَتى رَأَى إِنْسانًا آخَرَ مَكْسورَ القَلْبِ مَهيضَ الجَناحِ، عَمِلَ على تَحْطيمِهِ وإِهْلاكِهِ.

وجاشَ الأَلَمُ في صَدْرِهِ، وزادَ الطِّينَ بِلَّةً ما رآهُ ولَمَسَهُ مِنْ وَحْدتِهِ. والوَحْدَةُ قاسِيَةٌ مَريرَةٌ مَتى تكاثَرَتْ غُمومُ الإِنْسانِ، ومَتى تَفاقَمتْ آلامُهُ وأَسْقامُهُ.

* * *

والرَّجُلُ هٰذا عاشَ عُمْرَهُ نافِرًا بطَبْعِهِ، مُتَرَفِّعًا بسَليقَتِهِ، يَبْتَعِدُ قَدْرَ طاقَتِهِ عَنِ المُجْتَمَعاتِ؛ وإِنِ امْتَزَجَ بها أَحْيانًا فلِمَصْلَحتِهِ ولرِفْعتِهِ فحَسْبُ.

وتَزَوَّجَ هٰذا الرَّجُلُ امْرأَةً حَسْناءَ جَميلةً فأَحَبَّها وشُغِفَ بها. وكانَ حُبُّهُ لأَنّا شامِلًا مَشاعِرَهُ وأَحاسيسَهُ كُلَّها، حتَّى انْتَهى بهِ الأَمْرُ أَخيرًا إِلى النَّظَرِ إِلَيها كامْرأَةٍ، وكصَديقةٍ، وكمُساعِدَةٍ، وكأَبٍ وأُمٍّ وأَخٍ وأُخْتٍ.

لَقَدْ أَضْحَتْ لَهُ أَنّا كُلَّ شَيءٍ، كُلَّ شَيءٍ لَهُ قيمةٌ وقَدْرٌ.

فلمّا تَكَشَّفَتِ الحَقيقةُ عَن ظُلْمتِها الدّامِسَةِ، تَلَفَّتَ الرَّجُلُ في ما حَولَهُ، فلَمْ يَرَ شَيئًا.

وتَلَفَّتَ ثانيَةً حَولَهُ فما وَجَدَ الصَّديقَ الَّذي يَأْتَمِنُهُ على سِرٍّ، ويُشْرِكُهُ في هَمٍّ.

وانْطَوى على نَفْسِهِ، يَئِنُّ ويَزْفِرُ، وكأَنَّ قَلْبَهُ يَرْزَحُ تَحْتَ ثِقْلٍ مِنْ مَضَضِ النَّفْسِ والرُّوحِ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مناسِبًا.

٢ - اعترفَتْ أنّا بينَها وبينَ نفسِها بأَنَّها خَسِرَتْ وَلَدَها وشَرَفَها وكرامتَها. تُرى، لِمَ فعَلَتْ إذًا ما سَبَّبَ لها هذهِ الخسارَةَ الَّتي لا تُعوَّضُ؟ وهل يَكفي المَرْأَةَ أَنْ تَهوى غيرَ زَوجِها كي تفعَلَ ذلكَ؟ عَلِّلْ ما تذهبُ إِليهِ.

٣ - هَل شعرَتْ أَنّا إزاءَ فرونسكي بالنَّقصِ وعدمِ المساواةِ؟ وماذا سبَّبَ لها ذلكَ؟

٤ - هَل بدا لكَ فرونسكي، في هذا الفصلِ، نادمًا على أمرٍ ما؟ وما هوَ؟

٥ - ألا تَرى أَنَّ الكاتبَ كانَ يصوِّرُ، في سياقِ روايتِهِ، تَفَكُّكَ الأُسرةِ الرُّوسيَّةِ في مجتَمَعِ النُّبلاءِ، والمَدى الَّذي أَوصلَتْ هؤلاءِ إِليهِ حياةُ التَّبَذُّلِ والاسْتِهتارِ وتَعلُّقُهم بسفاسِفِ العيشِ؟ عَلِّلْ رأْيكَ.

٦ - يقولُ الكاتبُ بلسانِ كارنين «الإِنسانُ كالحيوانِ مَتى رَأَى إنسانًا آخَرَ مكسورَ القلبِ مَهيضَ الجَناحِ عَمِلَ على تَحْطيمِهِ وإهلاكِهِ». أَأَنتَ معه في هذا الحُكْمِ؟ عَلِّلْ إجابتَكَ بما تُشاهِدُه حولَكَ من حياةِ النَّاس.

٧ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّاني

ومَعَ أَنَّ كارنينَ أَمَرَ الخَدَمَ أَلَّا يُدْخِلوا أَحَدًا بَيتَهُ، فانَّ الكونتس ليديا إيفانوفنا ضَرَبَتْ عُرْضَ الحائِطِ باحْتِجاجاتِ الخَدَمِ وهُرِعَتْ إِلَيهِ في حُجْرَتِهِ ذاتَ يَوْمٍ، أَو في ذٰلِكَ اليَومِ الَّذي كانَ يَتَخَبَّطُ في أَفْكارِهِ ويَتَضَوَّرُ مِنْ آلامِهِ.

ولمّا رَفَعَ إِلَيها رَأْسَهُ ونَظَرَ مُغْضَبًا صاحَتْ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «عَلامَ كُلُّ هٰذا الِاحْتِجابِ؟ أَوَأَنْتَ الرَّجُلُ الوَحيدُ الَّذي يُصابُ بالكارِثَةِ؟»

فأَجابَها بجَفاءٍ: «إِنَّني لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَن أَحَدٍ بل أُريدُ الخَلْوَةَ استِشْفاءً مِنْ وَعْكَةٍ طارِئَةٍ!»

فهَزَّتِ المَرْأَةُ رَأْسَها، وتَمْتَمَتْ بصَوتٍ مَهموسٍ: «يا لَكَ مِنْ رَجُلٍ مَغْبونٍ! كانَ الأَوْلى بها أَنْ تَرْعى مَرْكَزَكَ ومَكانَتَكَ وإِنْسانِيَّتَكَ».

وخالَسَها كارنينُ النَّظَرَ فرَأَى في وَجْهِها تَقَلُّصًا، وفي أَمائِرِها انْطِباعاتِ حُزْنٍ وانْفِعالٍ، فأَيْقَنَ أَنَّها صادِقَةٌ في شُعورِها نَحْوَهُ وأَنَّها تَكادُ تَسْتَسْلِمُ للبُكاءِ.

واسْتَأْنَفَتِ المَرأَةُ حَديثَها قائِلَةً: «ويَخْلُقُ بِكَ يا صَديقي أَنْ تَتَجَمَّلَ بالصَّبْرِ والإيمانِ، فلا تُرْخِ العِنانَ لأَشْجانِكَ. لا أُنْكِرُ أَنَّ رُزْأَكَ باهِظٌ لا يُحْتَمَلُ، على أَنَّ لكُلِّ داءٍ دَواءً».

ولانَ الرَّجُلُ كما يَلينُ الشَّيءُ تَحْتَ ضَرَباتِ مِطْرَقَةٍ. لانَ كارنينُ وهَتَفَ بصَوتٍ حَزينٍ: «حَطَّمَتْني الكارِثَةُ يا عَزيزتي، فأَمْسَيتُ شَبَحَ رَجُلٍ! إِنَّني الآنَ أَخافُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ بل مِنْ نَفْسي، فما العَمَلُ؟»

– «سُؤالٌ لا جَوابَ لَهُ. اسْتَمِرَّ، تَكَلَّمْ، ففي الكَلامِ تَفْريجٌ، وفيهِ سَلْوى للقانِطِ المَكْروبِ».

– «تَأَكَّدي يا عَزيزتي أَنَّني لا آسَفُ على شَيءٍ فَقَدْتُ، لأَنَّ ما فَقَدْتُ لا وُجودَ لَهُ في رَأْيي وإِحْساسي! إِلَّا أَنَّ ما يَكُظُّني هُوَ نَظَراتُ النَّاسِ وهَمَساتُهُمْ... قَد يَكونُ في ما أَتَخَيَّلُهُ

ظَنٌّ لا صِحَّةَ لَهُ، بَلْ وَهْمٌ ورَجْمٌ بالغَيْبِ، على أَنّي لا أَمْلِكُ نَفْسي مِنَ الِاعْتِقادِ أَنَّ النَّاسَ لا يَعْتَنونَ اليَوْمَ بشَيءٍ قَدْرَ اعتِنائِهِمْ بأَخْباري».

- «على رِسْلِكَ يا كارنينُ، إِنَّ النَّاسَ في شُغْلٍ عَن حَوادِثِ غَيرِهِمْ، وثِقْ أَنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَ بقِصَّتِكَ، وأَحاطَ بما أَبْدَيْتَهُ مِن شَهامَةٍ وتَرَفُّعٍ وشَجاعَةٍ، لا يَسَعُهُ إِلَّا الثَّناءُ عَلَيكَ وإِظهارُ إِعْجابِهِ بكَ وبرُجولَتِكَ».

ولَوَّحَ كارنينُ بيَدِهِ في وَجْهِ المَرْأَةِ، كأَنَّهُ يَأْمُرُها بالسُّكوتِ، فلمّا قَطَعَتْ حَديثَها قالَ مُحْتَدِمًا: «ما لي ولهٰذا الكَلامِ أَيَّتُها الكونتس، على أَنّي أَوَدُّ أَنْ أُطْلِعَكِ على مَدى شَقائي وتَعاسَتي. وهَل يُمْكِنُ لمَخْلوقٍ أَنْ يَتَحَمَّلَ أَكْثَرَ مِن طاقَتِهِ؟ هَل يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَصْمُدَ تَحْتَ وَطْأَةِ هَمٍّ ثَقيلٍ ثِقَلَ الجِبالِ؟ أَلا فاعْلَمي أَنَّ آلامي جَسيمَةٌ، وأَنّي الآنَ مُلْزَمٌ بِرعايةِ شُؤونِ بَيتي، والنَّظَرِ في أَعْمالِ الخَدَمِ، ومُرَبِّيَةِ سيرج، والمَطْبَخِ، والحَديقةِ، والبُسْتانِيِّ! وثالِثَةُ الأَثافي، أُصابُ بها مَرَّاتٍ في اليَوْمِ الواحِدِ، أُصابُ بها كُلَّما رَنا إِلَيَّ سيرجُ بنَظرةٍ مُتَسائِلَةٍ. لقد لَهِفَتْ نَفْسي لِما قَرَأْتُهُ في هاتَينِ العَينَينِ المُتَسائِلَتَينِ المُتَضَرِّعَتَينِ المُؤَدَّبَتَينِ. إِنَّ سيرجَ غُلامٌ رَزينٌ مُحْتَشِمٌ، ولٰكِنَّهُ رَقيقٌ مُرْهَفُ الحِسِّ مُلْتَهِبُ العاطفةِ، يَتَأَلَّمُ فيَكْتُمُ، ويَحْزَنُ فيَبْكي في الخَفاءِ!»

فقالَتِ المَرأَةُ وهْيَ تَتَأَوَّهُ: «تَرَفَّقْ بنَفسِكَ، اِرْحَمْ هٰذِهِ النَّفْسَ يا أَلِكْسيس. لا تُسْرِفْ في يَأْسِكَ فلَكَ أَصْدِقاءُ كَثيرونَ، وأَنا أَوَّلُهُمْ، فانْزَعْ مِن فِكْرِكَ أُمورَ المَنْزِلِ وتَدْبيرَهُ واتْرُكِ الأَمْرَ لي أَنا».

قالَ: «أَجَلْ لا بُدَّ لمَنْزِلي مِنِ امْرَأَةٍ تَقومُ على شُؤونِهِ، فهَل تَفْعَلينَ ذٰلِكَ؟»

قالَتْ: «حُبًّا وكَرامةً، سأَكونُ شَقيقَتَكَ المُخلِصةَ».

ونَهَضَ كارنينُ مِن مَكانِهِ فصافَحَها ولَمَسَ جَبينَها بشَفَتَيْهِ إِعْرابًا لَها عَن شُكْرِهِ وتَقْديرِهِ.

* * *

شَبَّتْ هٰذِهِ المَرأَةُ العَريقةُ في الحَسَبِ، الكَريمةُ المَحْتِدِ، على مَخافَةِ اللّٰهِ؛ كانَتْ تَقِيَّةً وَرِعةً، تُصَلّي آناءَ النَّهارِ، وتَتَهَجَّدُ في أَثْناءِ اللَّيْلِ، وتُفَكِّرُ في التَّوبةِ والِابْتِهالِ كُلَّما جَنَحَتْ إِلى المَعْصِيةِ.

وكانَتْ قَد تَزَوَّجَتْ ثَرِيًّا شابًّا، ذاقَ مِنَ الحَياةِ ما زَهَّدَهُ بالمَرْأَةِ المُسْتَقيمَةِ المُحْتَشِمَةِ.

وقَد رَأى في زَوْجِهِ ما نَفَّرَهُ مِنها، رَأى فيها إِخْلاصًا وتَدَيُّنًا، فغادَرَها مُغادَرَةَ القالي[1]، وهَجَرَها ولمّا يَنْقَضِ على زَواجِهِما أَكْثَرُ مِنْ شَهْرَينِ.

وشُدِهَتِ المَرْأَةُ، ولم تَعْرِفْ لِهجرانِ زَوجِها لها سَبَبًا. وتَلَبَّثَتْ تَنْتَظِرُ عَودَتَهُ والأَمَلُ يُداعِبُ صَدْرَها. فلمّا أَخْلَفَ الفَتى ظَنَّها، طَوَتْ نَفْسَها على نَفْسِها، وطَمَسَتْ صورَتَهُ الَّتي حَفَرَها الحُبُّ في قَلْبِها الفَتِيِّ، واتَّجَهَتْ بِأَبْصارِها إِلى عالَمٍ آخَرَ، وطَفِقَتْ تَرعى البِرَّ وتَعْمَلُ مِنْ أَجْلِ الإِنْسانِيَّةِ.

وما لَبِثَتْ أَنْ خَصَّتْ إِحدى المُؤَسَّساتِ الخَيْرِيَّةِ بِنَشاطِها وخَدَماتِها، وجَعَلَتْ تُلِمُّ بالبُيوتاتِ الكَبيرَةِ تَنْفيذًا لأَهْدافِها الخَيرِيَّةِ. وكانَ ذٰلِكَ نَذيرًا بِتَحَوُّلٍ خَطيرٍ في حَياتِها وفي طِباعِها، فقَد عَلِقَتْ بالعائِلاتِ النَّبيلَةِ، وكَلِفَتْ نَفْسُها بالاِخْتِلاطِ بِأَفْرادِ هٰذِهِ الأُسَرِ، وأَصْبَحَ المَرْءُ يَجِدُها في كُلِّ حينٍ في بَيتٍ مِنْ هٰذِهِ البُيوتِ، أَو في نادٍ يَضُمُّ النُّخْبَةَ والصَّفْوَةَ والخُلاصَةَ!

وكانَ كارنينُ أَكْثَرَ مَنْ حَوَّمَتْ حَوْلَهُ المَرْأَةُ المُخْفِقَةُ في زَواجِها؛ ولا عَجَبَ، فكارنينُ وَزيرٌ خَطيرٌ يَتَمَنَّى كُلُّ إِنسانٍ أَنْ يَحْظى بقُرْبِهِ، ويَفوزَ بنَظْرَةٍ مِنْ عَينَيهِ.

وقَد أَحَبَّتْهُ أَيضًا لِتَمَسُّكِهِ بحَبْلِ التَّقْوى، وابْتِعادِهِ عَن عَبَثِ أَبْناءِ الطَّبَقةِ المُتْرَفَةِ، وبالتّالي لِصُدوفِهِ عَنِ التَّبَذُّلِ والاِسْتِهْتارِ. فلمّا أُصيبَ بما أَدْمى قَلْبَهُ وحَطَّمَ شُعورَهُ، رَجَحَتْ في قَرارَتِها كِفَّةُ السُّرورِ على كِفَّةِ الإِشْفاقِ، فهْيَ تَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ تُوَثِّقَ الأَواصِرَ، وتُوَشِّجَ العُرى. وقد فَعَلَتْ ذٰلِكَ ونَجَحَتْ في ما أَقْدَمَتْ عَلَيهِ كما رَأَينا.

وتَناهى إِلَيها بَعْدَ حينٍ خَبَرُ أَوْبَةِ أَنّا وعَشيقِها إِلى بطرسبرج، فطارَتْ نَفْسُها شَعاعًا[2]، وخافَتْ أَنْ يَكونَ رُجوعُهُما ايذانًا بابْتِعادِها عَنِ الرَّجُلِ الحَزينِ أَلِكْسيس كارنين.

لهٰذا عَزَمَتْ عَزْمًا أَكيدًا أَنْ لا تَأْلُوَ جُهْدًا في الحُؤولِ بَينَ كارنينَ وامْرَأَتِهِ الَّتي داسَتْ على شَرَفِهِ، وطَعَنَتْ قَلْبَهُ الكَبيرَ بنَصْلِ الخيانَةِ والغَدْرِ.

وطَفِقَتْ مُنذُ حَلّا في المَدينَةِ تُراقِبُهُما وتُحْصي كُلَّ حَرَكَةٍ يَقومانِ بها؛ طَفِقَتْ تُسَجِّلُ كُلَّ

---

(١) القالي: الكارِهُ، المُبْغِضُ.

(٢) طارَتْ نفسها شَعاعًا: كنايةٌ عَن خَوفِها اشَدَّ الخَوْفِ.

ما تَراهُ وتَسْمَعُهُ مِن أَعْمالِهِما.

ولمّا دَرَتْ أَنَّهُما يُزْمِعان مُغادَرَةَ المَدينَةِ إلى مَزْرعَةِ فرونسكي في الرِّيفِ، سَكَنَ خَوْفُها، وانْفَثَأَ اضطِرابُها[1]، وقَرَّتْ عينُها. لَقَدِ احْتَفَظَتْ بكارنينَ، ولا تُريدُ شَيْئًا آخَرَ! كما أَنَّ الحَقَّ والإِنْصافَ يُمْلِيانِ على كُلِّ إِنْسانٍ أَنْ يَعْتَرِفَ لَها بأَنَّ قَلَقَها كانَ أَيْضًا بسَبَبِ إِشْفاقِها على الرَّجُلِ مِنْ أَنْ يَزيدَ وُجودُ امْرَأَتِهِ الفاجِرةِ في المَدينَةِ مِنْ حَرَجِهِ وشَقائِهِ!

ومَضَتِ الأَيّامُ والكونتسُ ليديا إيفانوفنا تُديرُ شُؤونَ البَيتِ كأَحْسَنِ ما يَتَمَنّى رَجُلُ أَعْمالٍ ككارنينَ. كانَتْ تَتَفانى في خِدمَتِهِ، وتَحْرَصُ على مَرْضاتِهِ، وتَتَمَسَّكُ بكُلِّ ما تَلْحَظُهُ يَتَمَسَّكُ هُوَ بهِ.

ولٰكِنَّها فوجِئَتْ في صَباحِ يَومٍ مَشْؤومٍ بكِتابٍ يَصِلُها مِن أَنّا كارنينا، فلَمّا فَضَّتْهُ وقَرَأَتْهُ، تَوَلَّتْها مَوجَةٌ مِنَ الخَوْفِ والِانْزِعاجِ. وقد جاءَ في الكِتابِ:

«عَزيزتي الكونتس إيفانوفنا!

لَولا ما أَلْمَسُهُ فيكِ مِنَ الإخْلاصِ ومَخافَةِ اللّٰهِ، والتَّفاني في خِدْمةِ الإِنْسانِيَّةِ المُعَذَّبَةِ، لَما تَجاسَرْتُ على الِاتِّصالِ بكِ.

إِنَّ ابْني سيرج يَعيشُ في كَنَفِ أَبيهِ كما تَعْلَمينَ. وأَنا أُمٌّ يا سَيِّدَتي، وفِراقُهُ حَطَّمَ قَلْبي، وأَضافَ شَقاءً إلى شَقائي...

وأَنتِ امْرَأَةٌ، والمَرأَةُ تُقَدِّرُ شُعورَ الأُمِّ المَحْرومَةِ مِن رُؤْيَةِ ابْنِها، لهٰذا ابْتَهِلُ إِليكِ أَنْ تَأْذَني لي في رُؤْيَتِهِ مَرَّةً واحِدَةً فقَطْ. ومِنْ بَعْدُ، سأَبْتَعِدُ عنهُ، وعَنِ المَدينةِ، وعَنِ النَّاسِ قاطِبَةً.

كانَ في وُسْعي لو شِئْتُ، الظَّفَرُ بأَرَبي باتِّصالي بأَلِكْسيس، بَيدَ أَنّي وَدِدْتُ أَنْ أُجَنِّبَهُ العَذابَ والآلامَ، فاخْتَرْتُكِ أَنْتِ، وأَمَلي وَطيدٌ أَنْ لا تَرُدِّيني خائِبَةً، فتَضْطَرِّيني إلى الِاتِّجاهِ إِليهِ مُباشَرَةً.

والرَّجاءُ أَنْ تُنْبِئيني عَنِ الوَسيلَةِ الَّتي أَتَمَكَّنُ بها مِنَ الِاجْتِماعِ إلى ابْني. أَأَجيءُ إِلَيكُمْ، أَمْ تُرْسِلينَهُ إِليَّ، أَمْ تَرْتَئينَ مَكانًا آخَرَ؟

---

(١) انْفَثَأَ اضْطِرابُها: هَدَأَ اضْطِرابُها.

لا أَتَوَقَّعُ رَفْضَكِ يا سَيِّدتي، وثِقي أَنَّ كارنينَ لَن يَبْخُلَ عَليَّ بهٰذا المُلْتَمَسِ، فهْوَ، كما أَعْهَدُهُ دوْمًا، كَبيرُ القَلْبِ كَريمُ النَّفْسِ.

هٰذا، وإِنّي انْتَظِرُ رَدَّكِ على أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ».

«أَنّا»

تَأَمَّلَتِ المَرْأَةُ في مَعاني الرِّسالةِ، وفَكَّرَتْ مَلِيًّا ثُمَّ انْدَفَعَتْ إلى كارنينَ في غُرْفتِهِ. فلَمّا أَبْصَرَ بها قادِمَةً، وقَرَأَ في صَفْحَةِ وَجْهِها ما أَنْبَأَهُ بخُطورَةِ المَسْأَلةِ، وَجَفَ قَلْبُهُ، لٰكِنَّهُ قالَ بصَوتِ المُسْتَسْلِمِ الَّذي اعتادَ تَلَقِّي المَصائِبِ: «تَكَلَّمي يا عَزيزَتي، ماذا جاءَ بكِ؟»

قالَتْ: «شَرٌّ، قَد تَراهُ كَبيراً، وقَد تَسْتَصْغِرُهُ إِنْ كُنْتَ حَليمًا. ويَعْلَمُ اللّٰهُ أَنّي لا أَتوَخّى إلاّ خَيرَكَ وراحَتَكَ، كما أَتَمنَّى دومًا أَنْ أُبْعِدَكَ عَن كُلِّ ما يُذَكِّرُكَ بمُصيبتِكَ، على أَنَّ غيري مِنَ النَّاسِ لا يَنْشُدُ إِلَّا إِزْعاجَكَ وإِقلاقَكَ».

وصَمَتَتِ المَرأَةُ، وتَأَمَّلَتْ في الوَجْهِ المُقَطِّبِ لِتَرى تَأْثيرَ كَلِماتِها في صاحِبِها، ثُمَّ اسْتَتْلَتْ: «وإِنّي اليَومَ اسْتَلَمْتُ رِسالَةً مِن... مِن أَنّا. لَقَد أَتَتِ المَدينةَ، وهْيَ تَطْلُبُ...».

ولم يَدَعْها كارنينُ تُتِمُّ، بَلِ اخْتَطَفَ الوَرَقةَ مِنْ يَدِها وهْوَ يَرْتَجِفُ، ولَونُهُ يَمْتَقِعُ، وتَلاها. ثُمَّ نَكَسَ طَرْفَهُ وقالَ بصَوتٍ حَزينٍ: «كُنْتُ أَنْتَظِرُ كُلَّ شيءٍ يا كونتس، كُنْتُ أَنْتَظِرُ هٰذا».

ورانَ الصَّمْتُ على الِاثْنَيْنِ. وعادَ كارنينُ فقالَ: «ولَيسَ مِنْ حَقّي أَنْ أَرُدَّها، لَيسَ مِنَ الإِنْسانِيَّةِ في شَيءٍ أَن أَدْرَأَها[1] عَنِ ابْنِها!»

قالَتْ: «ما أَعْظَمَ نَفْسَكَ أَيُّها الصَّديقُ! ما أَنْقى قَلْبَكَ وأَصْفى حِسَّكَ! أَلا تَجِدُ لِلشَّرِّ أَثَرًا في القُلوبِ؟ أَلا تَرَى النَّواحيَ المُظْلِمَةَ في النُّفوسِ؟ سَقْيًا لَكَ، سَقْيًا لَكَ!»

قالَ: أَخْطَأْتِ... أَخْطَأْتِ... فالشَّرُّ كامِنٌ في كُلِّ قَلْبٍ، وإِنّي أَراهُ وأَلْمُسُهُ، غَيرَ أَنّي لا أُقابِلُهُ بالمِثْلِ، بَل أَسْحَقُهُ بالتَّسامُحِ، وعلى هٰذا فلَسْتُ أَرى مِنَ العَدْلِ في شَيءٍ أَنْ... أَنْ...».

---

(١) أَنْ أَدْرَأَها عَنِ ابنِها: أَنْ أَرُدَّها عَنهُ وأَمْنَعَها مِن رُؤْيَتِهِ.

وتَوَقَّفَ ذِهْنُهُ بَغْتةً، وانْحَبَسَ الكَلامُ في حَلْقِهِ. . . ورَمَقَ مُحدِّثَتَهُ بنِظْرةِ استِغاثَةٍ، قالَتْ هِيَ على أَثَرِها: «إنَّ كلامَكَ عَجيبٌ. وفي رَأْيي أَنا أَنَّ للصَّفْحِ حُدودًا، وللنِّسيانِ مَدًى لا يُتجاوَزُ. لَقَد تَهَتَّكَتْ أَنّا وارْتَمَتْ في حَمْأَةٍ فاجِرَةٍ، على أَنَّها لم تَرَ رَحْمَتَكَ بِقَدْرِ ما تَعَشَّقَتْ في نَفْسِها قَسْوَتَها. لَقَد قابَلَتِ الكَرَمَ بالغَدْرِ، والرَّحْمَةَ بالجَوْرِ. وها هِيَ تَؤُمُّ بطرسبرج لتُذَكِّرَ النَّاسَ بحُبِّها، وخِيانَتِها. فلماذا رَجَعَتْ؟ لماذا رَجَعَتْ؟ أَلِتُسْرِفَ في إِيلامِكَ؟ أَلِتُضاعِفَ مِن أَسْقامِكَ؟»

وهَزَّ كارنينُ رأْسَهُ، وبادَلَ المَرْأَةَ نَظَراتِ الحَيرةِ والتَّساؤُلِ، ثُمَّ أَجابَ: «كَلامُكِ حِكْمَةٌ وصَوابٌ، على أَنِّي غَفَرْتُ وعَفَوْتُ، ولَن أَرْجُمَها بالحَجَرِ الأَوَّلِ؛ دَعي سِوايَ يَفْعَلُ هٰذا، ولْتَأْتِ إلى البَيْتِ، لتَأْتِ فتَجْتَمِعَ بابنِها».

قالَتْ: «أَمُتَأَكِّدٌ أَنْتَ مِن إِخْلاصِها لابنِها؟ أَتُحِبُّهُ وقد كَرِهَتْ أَباهُ؟ أَنْتَ رَحيمٌ، بَيْدَ أَنَّ رَحْمَتَكَ لا يَجِبُ أَنْ تَتَعَدَّى الأُصولَ فتُؤْذيَ وَليدَكَ. فماذا يَقولُ الغُلامُ ساعةَ يَرى أُمَّهُ؟ وماذا يَخْتَلِجُ في صَدْرِهِ الصَّغيرِ ساعةَ يَتَكَلَّمُ مَعَها؟ أَلَمْ نُخْبِرْهُ أَنَّها ذَهَبَتْ إلى عالَمٍ آخَرَ؟ أَلَمْ نَقُلْ لَهُ إِنَّها قَضَتْ وماتَتْ؟ أَلا يُصَلِّي مِن أَجْلِ روحِها وخَلاصِ روحِها في كُلِّ لَيلةٍ قَبْلَ أَنْ يَلوذَ بفِراشِهِ؟ فكيفَ؟ كيفَ؟!»

قالَ: «ما أَصْعَبَ الأَمْرَ! أَجَلْ، كيفَ؟»

قالَتْ: «فعَلامَ عَوَّلْتَ الآنَ؟ فَكِّرْ مَلِيًّا».

قالَ: «لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْدَحَ زِنادَ الفِكْرِ، فرَأْسي مُتْعَبٌ».

قالَتْ: «أَرى أَنْ تَرُدَّها، وتُفْهِمَها أَنَّكَ لا تَرْغَبُ في تَحْقيقِ أُمْنِيتِها.. فهْيَ امْرَأَةٌ فَقَدَتِ القِيَمَ الإِنْسانِيَّةَ، حتَّى انْهارَتْ في قَرارتِها، المَحَبَّةُ السّاميَةُ. . . اِبْعَثْ إِلَيها بمَنْ يُخْبِرُها بقَرارِكَ، وجَنِّبْ نَفْسَكَ، وجَنِّبْ طِفْلَكَ كُلَّ هٰذِهِ الآلامِ والأَحْزانِ. . . وذَرْني، ذَرْني أَكْتُبْ إِلَيها!»

قالَ: «اكْتُبي. . . اكْتُبي. . .».

وسارَعَتِ المَرْأَةُ إلى تَسْويدِ رُقْعةٍ صَغيرةٍ. فلَمّا قَرَأَها كارنينُ لَمْ يَعْتَرِضْ، بل تَجَلَّدَ طاقَتَهُ، وأَمَرَ بإِرْسالِها.

وأَمْضى هُوَ ساعاتِ ذٰلِكَ النَّهارِ مُنْقَبِضَ الصَّدْرِ، والِهَ النَّفْسِ، شارِدًا ساهِمًا، لا يُفَكِّرُ إِلَّا في أَحْزانِهِ، ولا يَرى في دُنْياهُ إِلَّا ظُلُماتٍ حالِكَةً تَكْتَنِفُها ظُلُماتٌ...

أَمْضى ساعاتِ ذٰلِكَ النَّهارِ والدُّنْيا تَضيقُ شَيْئًا فشَيْئًا في ناظِرَيهِ، والأَمَلُ يَذوبُ رُوَيدًا رُوَيدًا في عَينَيه، والحياةُ تَتَقَلَّصُ وكأَنَّها مَوتٌ... مَوتٌ...

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - قالَتْ ليديا تُخاطِبُ كارنينَ: «إنَّ النَّاسَ في شُغْلٍ عن حَوادثِ غيرِهِم». أَتَرى أَنْتَ ذلكَ، وأَنَّ ما يَذْهَبُ إليهِ مَنْ يَشْعُرُ بالنَّقيصةِ، مِن أَنَّ النَّاسَ لا يَفْتأُونَ يلوكونَهُ بأَلسنَتِهِم، ليسَ سِوى وَهْمٍ؟ عَلِّلْ إجابتَكَ بما تَراهُ مِن حياةِ النَّاس حولَكَ.

٣ - في شخصيَّةِ الكونتس ليديا إيفانوفنا وزوجِها حالةٌ مناقِضَةٌ لحالةِ أَنَّا كارنينا وزوجِها. علامَ يدلُّ هذا في مجتمَعِ النُّبلاءِ الرُّوسِ؟ عَلِّلْ إجابتَكَ.

٤ - إلامَ انْتَهى زواجُ الكونتس ليديا إيفانوفنا؟ ومَنِ المسؤولُ عن ذلكَ؟

٥ - ما مَعْلوماتُ الطِّفلِ سيرج عنِ اخْتفاءِ أُمِّهِ؟

٦ - ماذا جاءَ في رسالةِ أَنَّا؟ وهَل استجابَ كارنينُ طَلَبَها؟ ومَن كانَ وراءَ ذلكَ؟

٧ - قالَ كارنينُ: «لن أَرْجُمَها بالحجرِ الأَوَّلِ»، وهذِهْ عبارَةٌ ذاتُ أَصْلٍ دينيٍّ. فهَل تَذكرُ شيئًا مِن هذا في أحدِ الكتبِ السَّماويَّةِ؟ أَيْنَ وَرَدَ؟ وكيفَ؟

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثّالث

رَفَضَ كارنينُ رَجاءَ زَوجَتِهِ، وكانَ يَعْرِفُ أَنَّ رَدَّها خائِبةً أَشْبَهُ بطَعْنِها في صَميمِ قَلْبِها. والعَجيبُ في أَمْرِ الرَّجُلِ أَنَّهُ شَعَرَ بكَثيرٍ مِنَ النَّدَمِ لما قامَ بهِ، وطافَتْ في مُخَيِّلَتِهِ صُوَرٌ مِنَ الماضي، ورَأى زَوجتَهُ ورَأى نَفْسَهُ، وأَحْصى أَخْطاءَهُ وزَلّاتِهِ، وأَخَذَ على نَفْسِهِ جُمودَهُ وشُذوذَهُ، واعْتَرَفَ في ما بَينَهُ وبَينَ هٰذِهِ النَّفْسِ الخائِرةِ[1] أَنَّهُ حَثَّها بسُلوكِهِ على الِانْحِرافِ والوُقوعِ.

كما تَذَكَّرَ، والأَسى آخِذٌ مِنهُ كُلَّ مَأْخَذٍ، تَصَرُّفاتِهِ المُذْهِلةَ بَعْدَ تَكَشُّفِ الحَقيقةِ. وتَنَدَّى جَبينُهُ مِنَ العَرَقِ، عَرَقِ الخَجَلِ والحَياءِ، الخَجَلِ مِنْ أَعْمالٍ نَسَبَها الآنَ إِلى الطَّيْشِ، والحَياءِ مِنْ تَصَرُّفاتٍ ما كانَ لِيُقْدِمَ عَلَيها لو تَأَنّى وتَرَيَّثَ وأَعْمَلَ الفِكْرَ.

ولَقد جاءَتْ أَنّا إِلى بطرسبرج وجاءَ مَعَها فرونسكي. جاءا بَعْدَ غَيبةٍ طَويلةٍ وحَلّا في فُنْدُقٍ عَظيمٍ، فاحْتَلَّ فرونسكي حُجْرَةً خاصَّةً بهِ، وخَصَّ أَنّا وطِفْلَتَهُ والمُرَبِّيَةَ بجَناحٍ مُسْتَقِلٍّ.

جاءا إِلى بطرسبرج لأَنَّ حَياتَهُما في إِيطاليا بَلَغَتْ في فَيْنةٍ أَوْجَ الهَناءِ، وفي فَتْرةٍ أَطْوَلَ عَلِقَتْ تَنْحَدِرُ رُوَيدًا رُوَيدًا على سَفْحِ الضَّجَرِ والمَلَلِ، حتَّى أَوْشَكَتْ أَنْ تَصِلَ إِلى الدَّرْكِ.

وما إِنِ ارْتاحَ فرونسكي مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ حتَّى قَصَدَ مَنْزِلَ شَقيقِهِ فأَلْفى هُناكَ والِدتَهُ، وعَلِمَ أَنَّها جاءَتْ مِنْ موسكو مُؤَخَّرًا لقَضاءِ رَدَحٍ مِنَ الوَقْتِ وَفاءً لِوَعْدٍ قَطَعَتْهُ على نَفْسِها.

وقَد سُرَّتْ أُمُّهُ كَثيرًا عِنْدَما رَأَتْهُ مُقْبِلًا، كما أَنَّ زَوجةَ أَخيهِ فاريا هَتَفَتْ مُرَحِّبةً لَدى دُنُوِّهِ مِنْها.

وأَقْبَلَتْ عَلَيهِ المَرْأَتانِ تَسْأَلانِهِ عن حالِهِ وعن أَعْمالِهِ، وعن رِحْلَتِهِ إِلى أوروبا ومَكْثِهِ في إِيطاليا، إِلّا أَنَّهُما تَجَنَّبَتا كُلَّ حَديثٍ عن أَنّا.

---

(١) النَّفْسُ الخائِرَةُ: الثَّقيلَةُ والمُضْطَرِبَةُ.

ولمّا خاطَبَهُ شَقيقُهُ لَمْ يَرْعَ شُعورَهُ، بَل فاتَحَهُ مِنْ دونِ مُوارَبةٍ بما عَرَفَهُ الجَميعُ مِنْ عَلاقتِهِ بأَنّا.

وقَطَّبَ فرونسكي حاجِبَيهِ، ورَمَقَ أَخاهُ بنَظْرَةٍ قاسِيَةٍ وأَجابَ: «لا تُرَعْ يا أَخي، فهْيَ بمَنْزِلَةِ الزَّوْجِ، ولَن أُعَتِّمَ أَنْ أَقْتَرِنَ بِها في القَريبِ العاجِلِ. أَمّا الآنَ فأَنا أَطْلُبُ إِلَيكَ أَنْ تَشْرَحَ الأَمْرَ لِوالِدتي ولِزَوجِكَ».

فقالَ شَقيقُهُ: «على أَنّي أَتَهَيَّبُ المَوْقِفَ، ولا أَوَدُّ أَنْ أُثيرَ الاِضْطِرابَ في بَيتي؛ فوالِدتُكَ تَأْبى لَكَ ما يَضُرُّ بكَ».

فقاطَعَهُ فرونسكي مُحْتَدِمًا: «لا أَحْفِلُ النّاسَ إذا كُنْتُ واثِقًا مِنْ صَوابِ عَمَلي. بَيدَ أَنّي انِ اسْتَهَنْتُ بالنّاسِ فلَن أَرْضى لِذَوِيَّ أَنْ يُصَعِّروا لي ولَها خُدودَهُمْ. واعْلَمْ أَنّي أُحَتِّمُ عَلَيْكُمْ جَميعًا أَنْ تُعامِلوها مُعامَلَتَكُمْ لِزَوجتي، وإِلّا فسيَنْتَهي ما بَيْنَنا بالقَطيعةِ والتَّنائي».

واسْتَمَعَ الأَخُ الأَكْبَرُ مَبْهوتًا إِلى كَلِماتِ شَقيقِهِ، وآثَرَ الصَّمتَ، ولَعَلَّهُ صَمَتَ مُكْرَهًا حتّى يُبْقِيَ على صُحْبَةِ أَخيهِ، فهْوَ يَعْطِفُ عَلَيهِ ويُحِبُّهُ إِلى أَقْصى حَدٍّ.

* * *

عِندَما رَجَعَ فرونسكي مِنْ إيطاليا، كانَ يَنْظُرُ بشَوْقٍ إِلى اليَومِ الَّذي يَسْتَعيدُ فيهِ مَرْكَزَهُ في الحُكومةِ ومَكانتَهُ في المُجْتَمَعِ.

كانَ فرونسكي بَعيدَ النَّظَرِ، ذَكِيًّا مُثَقَّفًا يَحْدُسُ فيُصيبُ في حَدْسِهِ، ويَتَكَهَّنُ فلا يُخْطِئُ. إِلّا أَنَّهُ في هٰذِهِ المَرَّةِ تَنَكَّبَ الجادَّةَ[1] في ما أَعَدَّهُ وفي ما انْتَظَرَهُ.

فهْو قدِ اكْتَشَفَ والأَسى يَحِزُّ في قَلْبِهِ أَنَّ الأَبْوابَ الَّتي كانَتْ مُفَتَّحةَ المَصاريعِ قد أُغْلِقَتْ دونَهُ الآنَ، وأَنَّ المَنازِلَ الَّتي كانَ أَصْحابُها يَهِشُّونَ في وَجْهِهِ لَمْ تَعُدْ تَرْضى بمَقْدَمِهِ.

وأَيْقَنَ أَنَّهُ طَمَسَ اسمَهُ بعَمَلِهِ كما طَمَسَتْ أَنّا اسْمَها.

ولم يَحْتَفِ بِهِ احْتِفاءً صادِقًا إِلّا الأَميرَةُ بتسي. فقَد رَحَّبَتْ بهِ أَيَّما تَرْحيبٍ، وأَعْرَبَتْ لهُ عن سُرورِها بمَقْدَمِ أَنّا؛ لٰكِنَّها لمّا دَرَتْ أَنَّ الطَّلاقَ لم يَتِمَّ بَينَ الزَّوْجَينِ انْتَحَلَتْ أَعْذارًا شَتّى لِتَذْهَبَ في سَبيلِها.

---

(١) تَنَكَّبَ الجادّة: حادَ عَنِ الصَّوابِ.

بَيدَ أَنَّ هٰذِهِ الأَميرةَ أَلَمَّتْ بالفُنْدُقِ بَعْدَ بِضْعةِ أَيَّامٍ واجْتَمَعَتْ إِلى أَنّا، وجاذَبَتْها أَطْرافًا مِنَ الحَديثِ المُتَكَلَّفِ المُفْعَمِ رِياءً وَبُهْتانًا.

ولم تَنْسَ بتسي أَنْ تُنَوِّهَ بفَضْلِها وشَجاعتِها، وبإِقْدامِها مِن دونِ مُبالاةٍ على زِيارةِ أَنّا.

كما أَنَّها حَرَصَتْ على التَّحَدُّثِ عَنِ الطَّلاقِ، فقالَتْ: «لا تَظُنِّي بِيَ الظُّنونَ يا أَنّا، فأَنا لَسْتُ بالمَرْأَةِ الَّتي تَتَقَيَّدُ بمِثْلِ هٰذِهِ التُّرَّهاتِ، غيرَ أَنَّ النَّاسَ تَخْتَلِفُ يا عَزيزتي، وأَنا واثِقةٌ مِن أَنَّ صَديقاتِكِ جَميعَهُنَّ سيَتَجَنَّبْنَ زِيارَتَكِ، ولن تَعودَ المِياهُ إِلى مَجْراها قَبْلَ وُقوعِ الطَّلاقِ، وحُدوثِ ما يُضْفي على عَلاقتِكِ بفرونسكي صِفةً قانونيَّةً».

وذَهَبَتْ بتسي في سَبيلِها مُهْرَعَةً كأَنَّها تَفِرُّ مِن خَطَرٍ مُريعٍ.

وقد أَصْغى فرونسكي إِلى كُلِّ كَلِمةٍ نَطَقَتْ بها المَرْأَةُ، أَصْغى مُتَفَكِّرًا مَتَمَعِّنًا، وأَدْرَكَ أَنَّ كُلَّ مُحاوَلَةٍ يَبْذُلُها لِإِدْخالِ أَنّا المُجْتَمعاتِ سيكونُ مآلُها الخَيْبَةَ والإِخْفاقَ.

وعَلى الرَّغْمِ مِن ذٰلِكَ رَأَى أَنْ يَبْذُلَ وُسْعَهُ، وأَنْ يَشْرَعَ في إِقْناعِ ذَويهِ وأَهْليهِ بتَقَبُّلِ أَنّا.

أَمّا والِدتُهُ فلم يَرَ أَنْ يَبْذُلَ مَعَها أَيَّ مَسْعًى، فهْيَ بطَبيعةِ الحالِ مُمْتَعِضَةٌ تَنْفِرُ مِن أَنّا، وتَحْقِدُ عَلَيها ليَقينِها بأَنَّ هٰذِهِ المَرْأَةَ هِيَ أَساسُ البَلاءِ، وأَنَّها سَبَبُ تَخَلِّي ابنِها عَن وَظيفتِهِ في الجَيْشِ وفي الحُكومةِ.

وبَدَأَ فرونسكي مُحاوَلاتِهِ بزَوجةِ أَخيهِ، فقد جاءَها ذاتَ يَومٍ، وابْتَدَرَها بما خالَجَ صَدْرَهُ، ففَكَّرَتِ المَرْأَةُ ثُمَّ رَدَّتْ عَلَيهِ ووَجْهُها يَتَضَرَّجُ: «لَسْتُ في شَكٍّ قَطُّ مِنْ أَنَّكَ تُحِبُّني وتَحْتَرِمُني. إِنَّكَ كما أَثِقُ تَعْلَمُ مَبْلَغَ تَعَلُّقي بكَ ومَحَبَّتي إِيَّاكَ. فاعْلَمْ إِذًا أَنّي ما اعْتَرَضْتُ على عَلاقَتِكَ بأَنّا، وما حاوَلْتُ التَّنَكُّرَ لَكَ أَو إِسْداءَ النُّصْحِ أَو زَجْرَكَ بكَلامٍ مَعْسولٍ».

وصَمَتَتِ المَرْأَةُ، وتَنَهَّدَتْ مُنْفَعِلةً، ثُمَّ تابَعَتْ تَقولُ: «أَنا يا عَزيزي أُقَدِّرُكَ وأُعْجَبُ بكَ، وأَنا أَيضًا لا أَدَّخِرُ وُسْعًا في إِرْضائِكَ؛ ولٰكِنِّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُلَبِّيَ طَلَبَكَ هٰذا. لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُصادِقَ أَنّا فأَزورَها وتَزورَني، وآخُذَ بيَدِها فأَقودَها إِلى أَنْدِيةِ الطَّبَقةِ الرَّاقِيةِ... إِنَّني أُمٌّ ولي ثَلاثُ فَتَياتٍ، ولِفَتياتي مُسْتَقْبَلٌ، ولا نُدْحةَ لي مِنْ دَرْءِ كُلِّ ما يَشينُ، عَنّي وعَنْهُنَّ».

وهَبَّ فرونسكي واقِفًا، وصاحَ وهْوَ يَصْرِفُ بأَسْنانِهِ: «تَبًّا لَكِ! تَبًّا لِلنِّساءِ جَميعًا! أَكُلُّكُنَّ نَقِيَّاتٌ تَقِيَّاتٌ؟ أَكُلُّكُنَّ طاهِراتٌ وَرِعاتٌ؟ أَوَلَيْسَتْ هِيَ أَفْضَلَ مِن أَكْثَرِكُنَّ؟»

فقالَتْ فاليا لاهِثةً: «حَنانَيكَ يا أَلِكسي، لا تَغْضَبْ، لا تَنْقُمْ عَليَّ».

قالَ وهْوَ يُغْضي بطَرْفِهِ ويَخْفِضُ صَوتَهُ: «لَسْتُ بغاضِبٍ عَلَيكِ، بَل أَنا حانِقٌ على نَفْسي وعلى هٰذا المُجْتَمَعِ الزّائِفِ النّاهِشِ المُتَرَبِّصِ. أَنا حانِقٌ على كُلِّ مَنْ يَدَّعي النُّبْلَ والشَّرَفَ، لأَنَّ كُلَّ مُدَّعٍ مِنهُمْ لا يَمُتُّ بصِلةٍ إِلى هٰذِهِ الصِّفاتِ. إِنَّني ذاهِبٌ الآنَ إِلى غَيرِ رَجْعَةٍ ولَن أَرى أَحَدًا مِنْكُمْ بَعْدَ اليَومِ.

رَأَى الشّابُّ كُلَّ شَيءٍ، وأَيْقَنَ بَعْدَ إِخْفاقِهِ أَنَّهُ لَن يَثْنِيَ أَحَدًا عَن مَوْقِفِهِ، وأَنَّ أَنّا لَفَظَتْها المُجْتَمَعاتُ، وأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ أَمْسى مَنبوذًا مَقْصِيًّا.

أَجَلْ، أَدْرَكَ أَنَّهُما انْقَلَبا إِلى إِنْسانَينِ غَريبَينِ، يَزْدَريهِما الجَميعُ، ولا يَوَدُّ أَحَدٌ أَنْ يَتَّصِلَ بِهِما، حتّى لا تَلْتَصِقَ بشَخْصِهِ مِنْ أَدْرانِهِما قَذارةٌ.

وشَعَرَ شُعورَ مَنِ اقْتَرَفَ إِثْمًا ثُمَّ طُلِبَ إِلَيهِ أَنْ يُسَلِّمَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ. شَعَرَ أَنَّ هٰذا الطَّلَبَ لا ضَرورَةَ لَهُ، وعَزَمَ على مُقاوَمةِ التَّيّارِ، وعلى العَمَلِ كَرَجُلٍ لَهُ أَلْفُ نَفْسٍ.

لٰكِنَّهُ سُرعانَ ما فَقَدَ عَزيمتَهُ وعَزْمَهُ بَعْدَ أَنْ رَأَى النّاسَ كُلَّهُمْ يَتَنكَّرونَ لَهُ، ويَسْتَخِفُّونَ بهِ، ويَنْظُرونَ إِلى أَنّا نَظْرَتَهُمْ إِلى امْرَأَةٍ خَبيثةٍ نَجِسةٍ.

سُرعانَ ما اسْتَسْلَمَ لِلْيَأْسِ والقُنوطِ، عِندَما زادَتْ أَنّا نَفْسُها مِنْ آلامِهِ، بما شابَ طِباعَها وأَعْمالَها في الآوِنةِ الأَخيرةِ مِنْ تَبَدُّلٍ عَجيبٍ مُذْهِلٍ.

وشَكَّ وارتابَ، فهْيَ تَحْنو عَلَيهِ، حتّى لكَأَنَّها خُلاصَةُ الحُبِّ وجَوهَرُهُ، وهْيَ تَرْبَأُ بنَفْسِها[1]، وتَمْتَنِعُ عَنهُ، وتَزْوَرُّ، حتّى لكَأَنَّها كَرِهَتْهُ وعافَتْهُ. ثُمَّ إِنَّها تَبْدو أَحْيانًا مَهمومَةً مُسْتَغْرِقةً في تَفْكيرٍ مُحْزِنٍ مُمِضٍّ. فماذا يَعْتَمِلُ في صَدْرِها يا تُرى؟ اتَرى هِيَ ما جَرى، أَم هِيَ تَحْلُمُ بأَمْرٍ آخَرَ؟

وتَساءَلَ الفَتى، إِلّا أَنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ إِلى جَوابٍ.

تَساءَلَ في جَزَعٍ...

إِنَّ أَمْرَهُ مَبْنِيٌّ على الحَيرَةِ.

---

(١) تَرْبَأُ بنَفْسِها: تُنَزِّهُ نَفْسَها.

إِنَّهُ اسْتَصْغَرَ ما يَسْتَعْظِمُهُ الخَلْقُ.

إِنَّهُ اسْتَهانَ بعَظيمِ الذُّنُوبِ.

إِنَّهُ خالَفَ القَواعِدَ والأُسُسَ.

إِنَّهُ وَثَبَ مِن عَلٍ، فلم يُحَلِّقْ،

بَل سَقَطَ سَقْطةً شَديدةً، على وَجْهِهِ!

أسئلة تحليلية

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - هَل تَرى أَنَّ كارنين كانَ مَسْؤولًا عنِ انْحرافِ زوجَتِهِ كما خُيِّلَ إِليهِ؟

٣ - فرونسكي في هذا الفصلِ بينَ أَهلِهِ. فهَل تَقَبَّلَهُ أَهلُهُ قبلَ أَنْ يتقَبَّلَهُ المُجْتَمَعُ؟ ولماذا؟

٤ - لِمَ ابتعَدَ النَّاسُ عن فرونسكي وأَنّا؟ أَتَرى في هذا دليلًا على مَسْلكِهِم النَّظيفِ، أَم على أَمرٍ آخرَ؟ أَوْضِحْ ما تَذهبُ إِليهِ.

٥ - لقَدِ انْتَهَتْ أَنّا وفرونسكي إِلى أَزْمَةٍ حَقيقيَّةٍ. فهَل تَرى لَهُما خَلاصًا منها؟ وكيفَ؟

٦ - أَكُنتَ تتَوَقَّعُ للعاشِقَينِ مثلَ هذا المَصيرِ؟ ولماذا؟

٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الرَّابع

أَنّا امْرَأَةٌ وأُمٌّ.

وما رَجَعَتْ إلى بطرسبرج إلَّا بحافِزٍ مِن شَوْقِها إلى وَلَدِها. لَقد نَسِيَتْهُ وَقْتًا في غَمْرةِ فَرْحَتِها بفرونسكي، ونَسِيَتْهُ أَو تَناسَتْهُ انْدِفاعًا وَراءَ عاطِفَتِها الجَديدةِ.

أَجَلْ، إِنَّها امْرَأَةٌ وأُمٌّ.

وقد قَفَلَتْ راجِعةً، وكانَتْ كُلَّما اقْتَرَبَتْ مِن بطرسبرج ازْدادَتْ انْفِعالًا وتَهَيُّجًا، وكانَ قَلْبُها يَخْفُقُ بشِدَّةٍ، وكانَ صَدْرُها يَعْلو ويَهْبِطُ، وكانَتْ تَتَرَنَّمُ باسمِ سيرجَ، وتَهْمِسُ بهِ وكأَنَّهُ مَوْجودٌ بقُرْبِها، وكأَنَّها تُناغيهِ وتُدَلِّلُهُ.

ودَنا القِطارُ مِن مَشارِفِ المَدينةِ، واخْتَرَقَ ضَواحِيَها، فتَطَلَّعَتْ مِنَ النَّافذةِ بعَيْنَينِ شاخِصَتَينِ، وطَفِقَتْ ساعةَ دَخَلَ المَحَطَّةَ يَهْدِرُ ويُزَمْجِرُ، ويَتَرَيَّثُ، تُحَدِّقُ إلى الأَطْورَةِ[1] والأَرْصِفةِ، وكأَنَّها تَتَوَقَّعُ أَنْ تَجِدَهُ في اسْتِقْبالِها!

على أَنَّهُ لَمْ يَدُرْ في خَلَدِها طَوالَ رِحْلتِها أَنَّ العَراقيلَ قَد تُوْضَعُ في طَريقِها، وأَنَّها قَد تَرِدُّ خائِبَةً مَقْهورَةً مَتى طَلَبَتْ رُؤْيةَ الغُلامِ. لم يَطْرَأْ عَلَيها مِثْلُ هٰذا الفِكْرِ، فكُلُّ أُمٍّ لَها الحُرِّيَّةُ في الاِجْتِماعِ إلى وَلَدِها، كُلُّ أُمٍّ لَها الحَقُّ في مُقابَلةِ ابْنِها ومُحادَثتِهِ ومُعانَقتِهِ. ومَنْ؟ مَنْ يَجْرُؤُ على الحَيلولةِ بَينَها وبَينَهُ؟ مَنْ يَجْسُرُ على الاِعْتِراضِ؟

وغَشِيَتِ المَدينةَ الكَبيرَةَ، وذَهَبَتْ مَعَ فرونسكي إلى الفُنْدُقِ. ومَضَتِ السَّاعاتُ، ومَضى يَومٌ ويَومانِ وثَلاثةُ أَيّامٍ. وأَيْقَنَتْ مِمّا شاهَدَتْ وسَمِعَتْ، أَنَّها امْرَأَةٌ نُبِذَتْ كما تُنْبَذُ النَّواةُ، وأَنَّ دونَ اجتِماعِها إلى ابْنِها خَرْطَ القَتادِ!

وأَعْمَلَتِ الحيلةَ فلَمْ تَهْتَدِ إلى السَّبيلِ، وقَدَحَتْ زِنادَ الفِكْرِ، فرَجَعَ الفِكْرُ كَليلًا عَليلًا.

---

(١) الأَطْورَةُ: مُفْرَدُها طِوارٌ، وهو فُسْحَةٌ في الدَّارِ أَو نَحْوِها.

وابْتَأَسَتْ أَنّ. إنَّها تُريدُ وَلَدَها، تُريدُ أَنْ تَراهُ وتُقَبِّلَهُ.

وراوَدَتْها نَفْسُها على الذَّهابِ إلى مَنْزِلِها، مَنْزِلِها في يَومٍ مَضى، لٰكِنَّها تَهَيَّبَتِ المَوْقِفَ، وآثَرَتِ الاِنْتِظارَ والتَّرَقُّبَ. فمَنْ يَعْلَمُ؟ قَد تُصادِفُ زَوجَها. مَنْ يَعْلَمُ؟ قَد يُقْصيها الخَدَمُ، وقَد يَحولونَ بَينَها وبَينَ دُخولِ بَيتِها!

فماذا تَفْعَلُ؟ ماذا تَفْعَلُ؟ أَتَكْتُبُ لَهُ رُقْعَةً تَتَضَرَّعُ إِلَيهِ فيها أَنْ يُشْفِقَ عَلَيها؟ أَتُلازِمُ الطَّريقَ حتّى تَرى سيرجَ اتِّفاقًا؟ وهَل يُجْديها ذٰلِكَ نَفْعًا؟ وماذا يَقولُ سيرجُ مَتى فَعَلَتْ ذٰلِكَ؟

لَقَد تَلاشَتْ كَلِماتُ الشَّوْقِ والحُبِّ الَّتي حَفِظَتْها لابْنِها عَن ظَهْرِ قَلْبٍ. لَقَد زالَتْ تِلْكَ الكَلِماتُ الَّتي رَدَّدَتْها عَشَراتِ المَرَّاتِ وهْيَ تُغِذُّ السَّيْرَ[1] إلى بطرسبرج.

وتَناهى إِلَيها خَبَرُ الكونتس إيفانوفنا، وسَمِعَتْ بما فَعَلَتْهُ مَعَ زَوجِها، وأَدْرَكَتْ أَنَّها المَرْأَةُ الَّتي يَتَسَنَّى لَها مُساعَدَتُها على نَيلِ مُبْتَغاها، فبَعَثَتْ إِلَيها بتِلْكَ الرِّسالةِ. رَضِيَتْ لنَفْسِها أَنْ تُمَرِّغَ كِبْرياءَها في الوَحْلِ، رَضِيَتْ أَنْ تَسْتَعْطِفَ امْرَأَةً غَريبةً في أَمْرٍ لا يَعني سِواها، رَضِيَتْ بالاِمْتِهانِ لِكَي تَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ ابْنِها. فماذا كانَتِ النَّتيجَةُ؟

لَقَد جاءَها جَوابُ ا لمَرْأَةِ الجافُّ، جاءَها فحَطَّمَ قَلْبَها. إِنَّهُمْ يَدْفَعونَها دَفْعًا عَنِ ابْنِها، فمِنْ أَيْنَ لَهُمُ الحَقُّ؟ مِنْ أَيْنَ؟

وتَأَلَّمَتْ وَحْدَها مِن دونِ أَنْ تُشْرِكَ أَحَدًا في أَلَمِها. ولَمْ يَكُنْ حَبيبُها يَدْري شَيئًا مِن مُحاوَلتِها، فقَد كَتَمَتْ عَنْهُ الخَبَرَ خَشْيَةَ أَنْ يَبْدُرَ منهُ ما يَخْدِشُ إِحْساسَها ويُضاعِفُ في عَذابِ نَفْسِها.

كانَتْ تُحِبُّ فرونسكي، ولٰكِنَّها أَدْرَكَتْ وهْي تَشُقُّ طَريقَها إلى بطرسبرج أَنَّ حُبَّها لسيرجَ يَرْبو كَثيرًا على حُبِّها لفرونسكي، كما أَيْقَنَتْ وهْيَ تَسْتَعْبِرُ أَنَّ الفَرْقَ بَينَ الحُبَّينِ هُوَ الطُّهْرُ: حُبٌّ طاهِرٌ، وحُبٌّ فاجِرٌ. وأَشْفَقَتْ على نَفْسِها، إِنْ هُوَ سَخِرَ مِنْها ومِنْ حُبِّها لِوَلَدِها، أَنْ يَنْقَلِبَ هَواها إلى اشْمِئْزازٍ، بَل إلى احْتِقارٍ، بَل إلى كَراهِيَةٍ ومَقْتٍ.

لِهٰذا آثَرَتِ الكِتْمانَ حتَّى لا تَفْقِدَ الشَّيءَ الوَحيدَ الَّذي احْتَفَظَتْ بِهِ.

إِنَّها شَقِيَّةٌ، شَقِيَّةٌ...

---

(١) تُغِذُّ السَّيرَ: تَسْرِعُ فيه.

إِنَّها مُعَذَّبةٌ. خَلَعَتِ العِذارَ[1]، ولٰكِنَّها خَلَعَتْ مَعَهُ كُلَّ هَناءٍ وراحةِ بالٍ.

إِنَّها عاثِرةٌ خائرةٌ، وكانَتْ تَظُنُّ مِنْ قَبْلُ أَنَّ غَرامَها هُوَ البَلْسَمُ الشّافي، فإذا بها تَجِدُ أَنَّ هُيامَها كانَ سُمًّا قَضى على حَياتِها وخَلَّفَها شِلْوًا[2] مُحطَّمًا مُهْمَلًا!

***

بَكَتْ أَنّا ساعةَ تَلَتْ رَدَّ الكونتس ورَفْضَها. بَكَتْ، ولٰكِنَّها لم تَلْبَثْ أَنْ نَقَمَتْ نِقْمةً شَديدةً، وجَعَلَتْ تَتَساءَلُ مُتَوَغِّرةَ الصَّدْرِ عَن قِحَةِ المَرْأَةِ الدَّخيلةِ وجُرْأَتِها.

ثُمَّ راحَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها قائِلَةً: «أَما كَفاني ما لَقيتُ؟ إِنَّهُمْ ولا غَرْوَ يَعْمَلونَ على قَتْلي، على قَتْلي. إِنَّهُمْ يَرْغَبونَ في سَحْقِ فُؤادي، بَل إِنَّهُم يَبْحثونَ عَمّا يَقْهَرُ سيرجَ ويُعَذِّبُهُ. لٰكِنِّي أُمٌّ وسأُقاوِمُ، وسأَقْهَرُ هٰذِهِ المَرْأَةَ الشَّيْطانةَ».

وكانَ بَعْدَ يَومَينِ عيدُ ميلادِ سيرجَ، فاسْتَيقَظَتْ في ساعةٍ مُبَكِّرةٍ، وخَرَجَتْ إِلى المَدينةِ فابْتاعَتْ ما يُحِبُّهُ سيرجُ وما يَطْلُبُ اقْتِناءَهُ. ثُمَّ رَجَعَتْ أَدْراجَها إِلى الفُنْدُقِ، فتَناوَلَتْ طَعامَ الإِفْطارِ، وأَسْدَلَتْ على مُحَيّاها نِقابًا أَسْوَدَ، واسْتَقَلَّتِ العَرَبَةَ مُتَوَجِّهةً إِلى مَنْزِلِ زَوجِها.

وجَعَلَتْ، والجِيادُ تَخُبُّ في الطَّريقِ المُعَبَّدِ، تُصَلِّي وتَبْتَهِلُ. وأَخَذَتْ تَضْرَعُ إِلى اللّٰهِ أَنْ تَصِلَ في ساعةٍ يَكونُ فيها زَوجُها مُسْتَغْرِقًا في النَّومِ، ويَكونُ الخَدَمُ مُنْهَمِكينَ في غُرَفٍ أُخْرى، حتَّى لا تُضْطَرَّ إِلى شِراءِ ضَمائِرِهِمْ بالمالِ، إِنْ هُمْ فَطِنوا إِلى شَخْصِها، أَو أَنْ تَكْذِبَ فتَزْعُمَ، مِن دونِ أَنْ تَرفَعَ النِّقابَ الّذي تَلَثَّمَتْ بِهِ، أَنَّها امرَأَةٌ مُوفَدَةٌ كَرسولٍ في أَمْرٍ مِنَ الأُمورِ، وأَنَّ هٰذا الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بسيرجَ ابْنِ سَيِّدِهِمْ وبعيدِهِ السَّعيدِ.

ووَصَلَتْ، فتَرَجَّلَتْ، وقَرَعَتْ بابَ الحَديقةِ، فجاءَها البَوّابُ، فحَيَّتْهُ بكَلِمةٍ لَطيفَةٍ وأَسْقَطَتْ في يَدِهِ قِطْعَةً مِنَ الفِضَّةِ. ونَظَرَ إِلَيها الرَّجُلُ مَشْدوهًا، ثُمَّ حَنى رَأْسَهُ وفَتَحَ البابَ.

ولمّا دَخَلَتْ سَأَلَها عَن بُغْيَتِها، فهزَّتْ كَتِفَيها، وانْسَلَّتْ في المَمَرِّ مُسرِعَةً مُهَرْوِلَةً. واقْتَحَمَتِ البابَ، فواجَهَها الخادِمُ الشَّيْخُ، وكانَ يُحِبُّها ويَحْتَرِمُها، لٰكِنَّهُ لم يَعْرِفْها، بل سَأَلَها مُسْتَفْهِمًا: «أَلَكِ حاجةٌ يا سَيِّدتي؟»

---

(١) خَلَعَتِ العِذارَ: تَهَتَّكَتْ مِن غَيرِ خَجَلٍ.

(٢) شِلْوٌ (جَمْعُهُ أَشْلاءٌ): عُضْوٌ، بَقِيَّةٌ مِن جُثَّةٍ.

فأَجابَتْ وهْيَ تُحاوِلُ أَنْ تُبَدِّلَ صَوْتَها وتُغَيِّرَ نَبْرتَها: «إِنَّني مُوفَدَةٌ مِنْ قِبَلِ الأَميرِ سكاروف، أَو مِنْ قِبَلِ ابنِهِ الغُلامِ، لأُقَدِّمَ لسيرجَ هَدايا العيدِ السَّعيدِ».

قالَ: «بيَدَ أَنَّ سيرجَ لا يَزالُ نائِمًا، فهَل لَكِ في الانْتِظارِ! أَتَنْتَظِرينَهُ رَيثَما يَتَنَبَّهُ مِنْ رُقادِهِ؟»

فهَزَّتْ رَأْسَها مُوافِقةً، ووَقَفَتْ في اسْتِسْلامٍ.

* * *

وتَلَبَّثَ الخادِمُ الشَّيْخُ يَخْتَلِسُ إِلَيها نَظَراتِ المُتَشَكِّكِ المُرْتابِ، ولٰكِنَّها لَمْ تَأْبَهْ لَهُ، فقَد شَغَلَها عَنْهُ فِكْرٌ كَئيبٌ.

لَقَد أَجالَتْ طَرْفَها في ما حَولَها، فتَذَكَّرَتِ المَكانَ. كانَ كُلُّ شَيءٍ باقِيًا على ما هُوَ عَلَيهِ. كانَتِ الأَرائِكُ والمنَاضِدُ والصُّوَرُ في مَكانِها المَعْهودِ، وكانَ بَيتَها، بيتَها، إِلَّا أَنَّها تَنازَلَتْ عَنهُ بمَحْضِ إِرادَتِها. فهَل هِيَ نادِمَةٌ؟ هَل تَوَلَّتْها في تِلْكَ السَّاعَةِ مَوْجةٌ مِن نَدَمٍ على ما انْحَرَفَتْ عَنهُ؟

لا أَحَدَ يَعْلَمُ. لَقَد فَكَّرَتْ في تِلْكَ اللَّحْظةِ كَثيرًا.

فَكَّرَتْ، وبَكى قَلْبُها، ولٰكِنَّ الدُّموعَ تَحَجَّرَتْ في مآقيها فلَمْ تَسِلْ ولَم تَنْهَمِرْ، وما بَكى إِلَّا قَلْبُها!

وسَها عن بالِها ما جاءَتْ مِنْ أَجْلِهِ، وغابَ عَنْها أَنَّها مُتَنَكِّرةٌ، وأَنَّها يَجِبُ أَنْ تَبْقى كَذٰلِكَ حتَّى تَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤيةِ وَلَدِها.

وطَلَبَتْ إِلى الخادِمِ بِلا وَعْيٍ مِنْها، أَنْ يُعينَها على خَلْعِ مِعْطَفِها...

فانْحنى لَها الخادِمُ باحْتِرام، ومَدَّ يَدَهُ فتَناوَلَ المِعْطَفَ الَّذي نَضَتْهُ عنها بسُرْعةٍ، ووَضَعَهُ في مَكانٍ مِنَ الرَّدْهَةِ الكَبيرَةِ، ثُمَّ انْثَنى يُرَدِّدُ: «أَرْجو أَنْ تَنْتَظِري بِضْعَ دَقائِقَ».

وحَمْلَقَ إِلَيها، وأَجْفَلَ، ونَكَصَ إِلى الوَراءِ، وكأَنَّهُ يَرى شَبَحًا!

لَقَد عَرَفَها الرَّجُلُ، عَرَفَها مِنْ مَلابِسِها، بَل مِنْ أَرَجِها[1]. عَرَفَها مِنْ حَرَكَتِها، لَقَد عاشَ

---

(١) الأَرَجُ: فَوْحُ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ.

طَويلًا في هٰذا البَيتِ، عاشَ فيهِ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَهُ عَروسًا لسَيِّدِهِ.

وانْحَنى مُنْبَهِرَ الأَنْفاسِ، وخاطَبَها بِصَوتٍ مُتَهَدِّجٍ: «أَنا طَوْعُ أَمْرِكِ يا سَيِّدتي، لِمَ لَمْ تَكْشِفي لي عَنْ شَخْصِكِ؟ لِمَ لَمْ تُطْلِعيني على رَغْبَتِكِ؟ ولٰكِنْ...».

وظَنَّتْ أَنّا أَنَّ الرَّجُلَ فَطِنَ، بَعْدَ أَنْ رَحَّبَ بها واعْتَذَرَ، إلى أَوامِرِ سَيِّدِهِ، وإلى أَوامِرِ سَيِّدَتِهِ الجَديدةِ الكونتس. ظَنَّتْ ذٰلِكَ، وحاوَلَتْ أَنْ تَقولَ شَيئًا، لٰكِنَّها انْثَنَتْ بسُرْعَةِ البَرْقِ، وأَنْشَأتْ تَعْدو، ثُمَّ صَعِدَتْ في «الدَّرَجِ» المُفْضي إلى غُرْفَةِ ابْنِها.

وتَعَقَّبَ الخادِمُ خُطاها مُنْبَهِرَ الانْفاسِ يَلْهَثُ مِنْ نيرِ السِّنينَ. تَبِعَها وهْوَ يَقولُ: «على رِسْلِكِ يا سَيِّدتي، اِنْتَظِري قَليلًا، اِنْتَظِري رَيْثما أُنَبِّهُ سَيِّدي الصَّغيرَ إلى مَقْدَمِكِ».

ولٰكِنَّها لم تَسْمَعْ كَلِماتِهِ، بَلِ اسْتَمَرَّتْ تَعْدو مُهَرْوِلةً، وهْيَ تَصيحُ: «لا... لا... لَن تَمْنَعَني، لَن يَمْنَعَني إنْسانٌ، لَن يَجْرُؤَ على ذٰلِكَ أَحَدٌ».

ودَفَعَتِ البابَ فانْفَتَحَ، ودَلَفَتْ إلى المَخْدَعِ، فوَقَعَ طَرْفُها على فِلْذَةِ كَبِدِها.

وكانَتْ لَمْحةً، لَمْحةً هائِلَةً!

رَأَتِ الأَمّ ابْنَها. كانَ يَجْلِسُ في سَريرِهِ، ويَفْرِكُ عَينَيهِ بيَدَيهِ الصَّغيرتَينِ.

رَأَتِ الأُمُّ ابْنَها، ففاضَ قَلْبُها بالعاطِفَةِ الحَبيسَةِ، فاضَ بكَلِمةٍ واحِدَةٍ: «سيرج...».

ورَدَّدَتِ الكَلِمةَ: «سيرج...».

وكانَ صَوتُها خافِتًا لم يَسْمَعْهُ أَحَدٌ.

وقالَتْ للمَرَّةِ الثَّالِثَةِ: «سيرج...».

وتَضاءَلَ فرونسكي في عَينِها؛ تَضاءَلَ كُلُّ إِنْسانٍ؛ تَضاءَلَ الوجُودُ، ولم يَبْقَ إِلَّا سيرجُ، لم يَبْقَ إِلّا هٰذا الغُلامُ.

يا لَلْأُمِّ.

غَيرَ أَنَّ العاطِفَةَ مُذَبْذَبةٌ، تَبيضُ ثُمَّ يَنْضُبُ مَعينُها؛ والمُؤَثِّراتُ الَّتي تُشْعِلُ اللَّهيبَ، تَخْمُدُ أَحْيانًا وتَسْتَحيلُ إِلى ثَلْجٍ يَتراكَمُ على العاطِفَةِ.

لَقَد تَضاءَلَ حَبيبُها في تِلْكَ الدَّقيقةِ في ناظِرَيها، فهَل يبقى كَذٰلِكَ بَعْدَ ساعةٍ؟!

وخاطَبَتْ نَفْسَها: «إِنَّهُ نَحيلٌ شاحِبٌ. فماذا أَصابَهُ؟ لِمَ حَلَّ بِهِ الهُزالُ؟ هَل يُعَذِّبونَهُ؟ هَل يَضْطَهِدونَهُ؟ ولٰكِنَّهُ سيرج، أَلَيسَ هُوَ؟»

* * *

ولاحَتْ مِنْ سيرجَ التِفاتَةٌ فأَبْصَرَ والِدَتَهُ، ونَدَّتْ مِنْ صَدْرِهِ صَرْخَةُ تَعَجُّبٍ...

لَقَد تَبَيَّنَ فيها المَرْأَةَ الَّتي رَئِمَتْهُ[1] وحَدَبَتْ عَليهِ، ولٰكِنَّهُ حَمْلَقَ مَشْدوهًا...

إِنَّها هُنا، وما قيلَ لَهُ عَن ذَهابِها كَذِبٌ...

إِنَّها هُنا، وما قيلَ لَهُ عَن مَوْتِها كَذِبٌ...

ودَنَتْ مِنْهُ أَنّا، وحَدَّقَتْ إِلى وَجْهِهِ، وقالَتْ وهْيَ تَنْشِجُ: «وَلَدَاهْ...».

وقالَ الغُلامُ وعَبَراتُهُ تَغْسِلُ وَجْنَتَيهِ: «أُمَّاهْ...».

ووَقَعَتِ الكَلِمةُ بَرْدًا وسَلامًا على قَلْبِها.

وتَرامى الِاثْنانِ على بَعْضِهِما، واحْتَضَنَتِ الأُمُّ طِفْلَها بشِدَّةٍ، وانْكَمَشَ هُوَ في حِضْنِها مَسْرورًا سَعيدًا.

وهَتَفَ ثانيةً: «أُمَّاه...».

وقَبَّلَها... وأَغْمَضَتْ هِيَ عَينَيها!

يا لَلأُمِّ...!

مَهْما فَعَلَتْ، ومَهْما ارْتَكَبَتْ،

فهْيَ أُمٌّ...

* * *

ونَبَرَ الصَّبِيُّ يَقولُ بَعْدَ لَحَظاتٍ: «أُمَّاهْ...». ووَضَعَ ذِراعَهُ على كَتِفِها في غُنْجٍ ودَلالٍ، وأَقْبَلَ عَلَيها يَتَحَسَّسُ وَجْهَها ويُتَمْتِمُ: «إِنَّ اليَوْمَ عيدُ ميلادي، وكُنْتُ واثِقًا مِن أَنَّكِ ستَأْتينَ...». وذَبُلَتْ عَيناهُ، فأَغْمَضَهُما وأَغْفى.

---

(١) رَئِمَتْهُ: عَطَفَتْ عَلَيهِ ولَزِمَتْهُ.

وظَلَّتْ تَحْتَضِنُ الجَسَدَ الصَّغيرَ، ولَبِثَتْ تَنْظُرُ إلى الوَجْهِ المَلائِكِيِّ بحُنُوٍّ، بَل نَظَرَتْ إلَيْهِ نَظْرَةً مَنْهومةً[1]. وما عَتَّمَتْ آلامُها أَنْ رَجَحَتْ على آمالِها، فَغَلَبَها اليَأْسُ، واسْتَخْرَطَتْ في البُكاءِ.

وفَتَحَ الغُلامُ عَينَيه في تِلْكَ الفَينَةِ، ورَأَى أُمَّهُ تَذْرِفُ الدَّمْعَ، فهَتَفَ يَقولُ مُنْزَعِجًا: «ماذا يُبكيكِ يا أُمّي؟ ماذا؟»

ولمّا لَم تُجِبْهُ بكَلِمةٍ أَعادَ الكَرَّةَ، فقالَ مُهْتاجًا: «لماذا...؟ لماذا تَبْكينَ؟»

فقالَتْ وقد رَأَتْ مِنْ قَلَقِهِ ما زادَها قَلَقًا: «إنَّني أَبْكي مِنْ سُروري بهٰذا اللِّقاءِ، فلا تَبْتَئِسْ يا سيرجُ، لا تَشُكَّ فيَّ فأَنا أُمُّكَ، أَفْديكَ بِروحي».

وضَحِكَ الغُلامُ جَذِلًا، واسْتَتْلَتْ: «دَعْني أُساعِدْكَ في ارْتِداءِ ثِيابِكَ. مَنْ يُساعِدُكَ الآنَ؟ مَنْ مِنَ النَّاسِ؟»

وخَنَقَتْها عَبْرةٌ، فأَمْسَكَتْ.

وأَقْبَلَ سيرجُ عَلَيها، وجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِمَرَحٍ، ويَضْحَكُ ويُقَرْقِرُ، وقَد بانَ في أَمائِرِهِ نورٌ هُوَ ولا شَكَّ نورُ الهَناءِ والسَّعادةِ لظَفَرِهِ بأُمِّهِ.

وما لَبِثَ أَنِ ارْتَمى على صَدْرِها يُعانِقُها ويُقَبِّلُها.

وقالَتْ أَنّا: «وماذا قالوا لَكَ عَنّي؟ هل أَخْبَروكَ أَنّي مِتُّ؟»

قالَ: «لم أُصَدِّقْ كَلامَهُمْ، بلِ انْتَظَرْتُكِ طَويلًا».

قالَتْ: «أَحَقًّا كُنْتَ تَنْتَظِرُني؟».

قالَ: «نَعَمْ، وكُنْتُ واثِقًا مِن أَنَّكِ ستَأْتينَ يا أُمّاهْ».

وقَبَّلَتِ الأُمُّ ابْنَها، وأَمْسَكَ هُوَ بيَدِها وجَعَلَ يَلْثِمُها ويُمَرِّرُها على وَجْهِهِ، وقد لَمعَتْ عَيناهُ وأَشْرَقَ مُحَيّاهُ.

وتِلْكَ هِيَ سَعادةُ الطِّفْلِ!

وجاءَ في تِلْكَ اللَّحْظةِ الخادِمُ الشَّيخُ ففَتَحَ البابَ بهُدوءٍ، ورَأَى الأُمَّ تحْتضِنُ ابْنَها،

---

(١) مَنْهومَةٌ: مولَعَةٌ.

فدَمَعَتْ عَيناهُ، وقالَ: «لا، لا أَسْتَطيعُ... وسأَرْجِعُ بَعْدَ قَليلٍ!»

وكانَ الخَدَمُ جَميعًا قَد سَمِعوا بمَجيءِ الأُمِّ، فتَوَلّاهُمُ الاِضْطِرابُ والخَوفُ، وأَشْفَقوا أَنْ تَبْقى الأُمُّ، فيَراها سَيِّدُهُمْ في السَّاعةِ التَّاسِعَةِ، عِندَما يُلِمُّ بغُرْفَةِ ابنِهِ.

وما كانَ مِنَ المُرَبِّيَةِ إِلَّا أَنِ انْدَفَعَتْ إلى حُجْرَةِ سيرجَ، وكانَ الغُلامُ عِندَما دَخَلَتْ، يَرْوي لأُمِّهِ حِكاياتٍ عَمَّا يَفْعَلُهُ، ويُخْبِرُها كَيفَ يُمْضي وَقْتَهُ. وكانَتِ الأُمُّ تُصْغي إِلَيهِ، وتُنْصِتُ بلَذَّةٍ ونَشْوَةٍ إلى جَرْسِ صَوْتِهِ.

على أَنَّها كانَتْ تُفَكِّرُ في السَّاعَةِ الرَّهيبَةِ، ساعَةِ انْصِرافِها، وكانَتْ تَشْعُرُ بأَنَّها ستَموتُ حَسْرةً مَتى ذَهَبَتْ مِنْ دونِهِ.

ولَمَّا دَهَمَتْها المُرَبِّيَةُ لَمْ تَرْفَعْ بَصَرَها، بَل لَمْ تَشْعُرْ بوُجودِها إِلَّا عِندَما قَبَّلَتِ المَرْأَةُ ذِراعَها، ورَحَّبَتْ بها حامِدَةً اللّٰهَ على سَلامَتِها، شاكِرةً لها قُدومَها في يَومِ عيدِ ابنِها.

واسْتَخْرَطَتِ المُرَبِّيَةُ تَبْكي وهْيَ تَتَكَلَّمُ، وأَعادَتِ الكَرَّةَ، فقَبَّلَتْ يَدَ سَيِّدَتِها وقَبَّلَتْ خَدَّها، ثُمَّ هَمَسَتْ في أُذُنِها بِضْعَ كَلِماتٍ، ما كادَتْ تَعيها أَنّا حتَّى فَرَّ اللَّونُ مِنْ وَجْهِها.

وما عَتَّمَتْ أَنْ أَحاطَتْ سيرجَ بذِراعِها وقَبَّلَتْهُ وهْيَ تَنْشِجُ، وقالَتْ: «حَبيبي... يا حَبيبي...».

وحاوَلَتْ أَنْ تَقولَ كَلِمةً أُخْرى، أَنْ تَقولَ وَداعًا، ولٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ. على أَنَّ الطِّفْلَ قَرَأَ الكَلِمةَ مُنْطَبِعةً مَعَ الأَلَمِ على أَسارِيرِها، فعَبَسَ قَليلًا واغْرَوْرَقَتْ عَيناهُ بالدُّموعِ.

وقالَتْ بَعْدَ أَنِ اسْتَجْمَعَتْ قُوَّتَها: «اُذْكُرْني دائِمًا يا سيرج، اُذْكُرْني...».

ودَنا مِنْها الغُلامُ حتَّى الْتَصَقَ بجَسَدِها، وتَشَبَّثَ بمَلابِسِها وهْوَ يَقولُ: «كلّا... كلّا... لا تَذْهَبي بَلِ امْكُثي مَعي!»

- «على أَنِّي مُضْطَرَّةٌ يا حَبيبي إلى الذَّهابِ».

- لا، لا تَذْهَبي فأَبي لَن يَأْتِيَ الآنَ، ثِقي مِنْ ذٰلِكَ!»

فَرَنَتْ إِلَيهِ بطَرْفٍ مُخْضَلٍّ، وعَلِمَتْ مِن تَقاطيعِهِ أَنَّهُ يَبْغي النُّصْحَ والإِرْشادَ، وأَنَّهُ يَسْأَلُها إِنْ كانَ يَتَحَتَّمُ عَلَيهِ التَعَلُّقُ بأَبيهِ، فقالَتْ: «سيرجُ... هُوَ أَبوكَ، فأَحِبَّهُ، أَحِبَّهُ كَثيرًا، لأَنَّهُ خَيرٌ مِنّي، وافضل وأَحسن، فأَنا أَسَأْتُ إِلَيهِ، وأَضْرَرْتُ بِهِ، أَمّا هُوَ، فقَد كانَ نَبيلًا كَريمًا،

وسَوفَ تَعْلَمُ ذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكبُرَ وتَبْلُغَ طَوْرَ الشَّبابِ».

فهَتَفَ سيرجُ مُعارِضًا: «هٰذا لَغْوٌ، لَغْوٌ. وهَل هُناكَ مَنْ يَفْضُلُكِ يا أُمّاهْ؟ هَل هُناكَ مَنْ يَفوقُكِ في حُبِّهِ لي؟»

ونَشَجَ الطِّفْلُ وأَلْقى رَأْسَهُ الجميلَ على كَتِفِها، فذابَتْ حُشاشَتُها وتَمْتَمَتْ مَتَلَوِّعَةً: «حَبيبي... حَبيبي... حَبيبي...».

وقَبَّلَتْهُ مِرارًا...

وفُتِحَ البابُ، ووَقَفَ كارنينُ على عَتَبَتِهِ وهْوَ لا يَنْظُرُ ولا يَسْمَعُ. وجَمَدَ الطِّفْلُ مَأْخوذًا، ومَشَتْ أَنّا بتُؤَدَةٍ، حتَّى إذا ما مَرَّتْ قَريبًا مِنْ زَوجِها، أَحْنى هٰذا رَأْسَهُ بُطْءٍ ووَقارٍ.

وشَعَرَتْ بالنُّفورِ الشَّديدِ، وعَجِبَتْ كَيفَ طاوَعَها قَلْبُها على تَوصِيَةِ ابْنِها بوُجوبِ مَحْضِ أَبيهِ كُلَّ حُبِّهِ ووِدادِهِ!

وانْسَلَّتْ مِنَ البابِ بَعْدَ أَنِ اخْتَطَفَتْ مِنَ الأَرضِ رِزْمَةَ الأَلْعابِ والهَدايا الَّتي أَحْضَرَتْها مَعَها لسيرج. وقَد حَمَلَتِ الرِّزْمَةَ بيَدِها، وهْيَ لا تَدْري مِنْ أَمْرِ حَرَكَتِها هٰذِهْ شَيْئًا...

وقَفَلَتْ راجِعةً إِلى الفُنْدُقِ.

رَغِبَتْ أَنّا عَنْ شَوقٍ في رُؤيةِ ابْنِها، وسَعَتْ إِلى بطرسبرج وفي قَلْبِها حَنينٌ عَظيمٌ إِلَيهِ؛ لٰكِنَّها لَمْ تُقَدِّرْ ما سيُصيبُها عَقِبَ ذٰلِكَ، ولَمْ تَكْنَهِ التَّأْثيرَ المُخيفَ الَّذي سَيَطْرَأُ على إِحْساسِها ساعةَ تُفارِقُ وَلَدَها لِلمَرَّةِ الأَخيرةِ.

فلَمّا هَمَّتْ واقِفةً وانْسَحَبَتْ، شَعَرَتْ أَنَّها تَرَكَتْ مُهْجَتَها في حُجْرةِ الغُلامِ. وعِنْدَما أَلَمَّتْ بالفُنْدُقِ قَعَدَتْ على كُرْسِيٍّ كَبيرٍ في الشُّرفةِ، وأَرْسَلَتِ الطَّرْفَ على سَجِيَّتِهِ يَرودُ المَدينةَ...

وتَأَوَّهَتْ بَعْدَ قَليلٍ، ودَخَلَتْ مَخْدَعَها، فانْهارَتْ قُرْبَ المِدْفَأَةِ والدُّموعُ تَسيلُ غزيرَةً مِنْ عَينَيها.

وطَفِقَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها قائِلَةً: «يا لَشَقْوتي! لَقد ذَهَبَ مِنّي، لَمْ أَعُدْ لَهُ أُمًّا، لَمْ أَعُدْ لَهُ أُمًّا. لَقدِ انْتَهى كُلُّ شَيءٍ، ورَجَعْتُ إلى عاري. إِنَّني الآنَ وَحيدةٌ، وَحيدةٌ كما كُنْتُ قَبْلًا».

وجاءَتْها المُرَبِّيَةُ بطِفْلَتِها، فأَخَذَتْها مِنْها. وجَعَلَتِ الطِّفْلَةُ تَعْبَثُ بيَدَيها الصَّغيرَتَينِ

المُكْتَنِزَتَينِ بثَوبِ امِّها، وهْيَ تَفْتَحُ فَمَها مُبْتَسِمةً، وتُومِضُ بعَينَيها ضاحِكةً.

وقَبَّلَتْ أَنّا ابْنَتَها بحَنانٍ، وضَغَطَتْ على جَسَدِها الصَّغيرِ، لٰكِنَّها أَيْقَنَتْ أَنَّ حُبَّها لسيرجَ يَفوقُ كَثيرًا حُبَّها لهٰذِهِ الطِّفلةِ.

إِنَّ الطِّفلةَ آيَةٌ في الجَمالِ، لٰكِنَّ حُبَّها لَها غَيرُ مُتَأَصِّلِ الجُذورِ كَحُبِّها لابْنِها. لَقَد كَرِهَتْ أَبا سيرج، بَيدَ أَنَّ حُبَّها لِسيرج تَضاعَفَ حتّى مَلأَ عَلَيها حَياتَها.

وفَوقَ ذٰلِكَ فالظُّروفُ والمُلابَساتُ الَّتي جاءَتْ فيها هٰذِهِ الطِّفْلَةُ إِلى الحَياةِ تَخْتَلِفُ كُلَّ الاخْتِلافِ. ولِهٰذا أُهْمِلَ أَمْرُها وتُنوسِيَ، وتُنوسِيَتْ هِيَ، وكأَنَّها لَمْ تُوجَدْ. إِنَّها بِضْعَةٌ مِنْ نَفْسِها، ولٰكِنْ بِضْعَةٌ لا كِيانَ لَها، خِلافًا لِسيرجَ.

وفَطِنَتْ، والفِكْرُ يَطوفُ بعَقْلِها في أُفُقٍ فَسيحٍ، إِلى مَحْفَظةِ الصُّوَرِ، فاسْتَخْرَجَتْها وجَعَلَتْ تُقَلِّبُ الصُّوَرَ المُثْبَتَةَ داخِلَها، وتَتَأَمَّلُ في وَجْهِ ابْنِها.

ووَقَعَ طَرْفُها على صورَةٍ لفرونسكي، فتَناوَلَتْها وحَدَّدَتْ عَينَيها فيها وفَكَّرَتْ: «أَلَيسَ هُوَ السَّبَبَ في ما حَصَلَ؟ في كُلِّ ما حَصَلَ؟»

لٰكِنَّها راحَتْ تَتَأَمَّلُ في تَقاطيعِهِ النَّبيلةِ، ونَظْرَتِهِ الَّتي تَنِمُّ عَن شَهامَةٍ وشَجاعَةٍ ورُجولَةٍ.

وشَعَرَتْ بالحَنينِ إِلَيهِ، وبحُبٍّ جارِفٍ لَمْ تَشْعُرْ بمِثْلِهِ مُنْذُ حينٍ.

وتَساءَلَتْ عَن مَكانِهِ، وتَساءَلَتْ عَمّا عَسى أَنْ يَفْعَلَ مَتى رَجَعَ، وعمّا هُوَ فاعِلٌ الآنَ.

وحَدَّثَتْ نَفْسَها وعَقارِبُ الشَّكِّ تَلْسَعُها في قَلْبِها، فقالَتْ: «تُرى أَينَ هُوَ؟ وكَيفَ يَرْضى أَنْ يَتْرُكَني وَحيدَةً؟»

ولٰكِنَّها نَسِيَتْ في غَمْرةِ تَفْكيرِها أَنَّ فرونسكي لَمْ يُبارِحْ حُجْرَتَهُ.

فلَمّا تَذَكَّرَتْ ذٰلِكَ أَرْسَلَت مَنْ يسْتَدْعيهِ إِلَيْها، فرَدَّ عَلَيها بأَنَّ لَدَيهِ ضَيفًا عَزيزًا هُوَ الأَميرُ ياشفينُ، وأَنَّهُ لَن يَلْبَثَ أَنْ يُلِمَّ بها في جَناحِها مَعَ الضَّيْفِ الكَريمِ إِنْ سَمَحَتْ وأَذِنَتْ.

فقَطَّبَتْ أَنّا، وخُيِّلَ إِلَيها أَنَّ فرونسكي يَتَحاشى الخَلْوةَ مَعَها حتّى لا تُحْرِجَهُ بأَسئِلَتِها؛ وداخَلَ روعَها أَنَّهُ كَفَّ عَن حُبِّها، وأَنَّهُ لا يُلازِمُها إِلّا مُجامَلَةً وإِشْفاقًا.

واسْتَعرَضَتْ في مُخَيِّلَتِها كُلَّ ما مَرَّ بها في الأَيّامِ القَليلةِ المُنْصَرِمةِ.

وتَراءى لَها أَنَّ كُلَّ الحَوادِثِ الَّتي وَقَعَتْ تُؤَيِّدُ شُكوكَها، وأَنَّ فرونسكي طَفِقَ في الأَيّامِ

الأخيرةِ يَجْنَحُ إِلى الكَذِبِ والمُراوَغَةِ، وأَنَّهُ جَعَلَ يَتَهَرَّبُ مِنْها، ويَنْتَحِلُ الأعذارَ، ويَتَعَلَّلُ بالحُجَجِ . . .

وكادَتْ تَفْقِدُ صَوابَها. لَقد غَزا رَأْسَها فِكْرٌ قاتِمٌ قَلَبَ الشَّكَّ يَقينًا، فصاحَتْ مُتَأَجِّجَةً[1] مُتَسْخِّطَةً: «وَيْلَهُ، وَيْلَهُ! أَجْدِرْ بِهِ أَنْ يُميطَ لي اللِّثامَ عن حُبِّهِ، حتَّى لا يُسْرِفَ في تَعْذيبي وإِيذائي. أَجْدِرْ بِهِ أَنْ يَرْفُقَ بي فلا يَتَناهى في إِيلامي!»

وتَساءَلَتْ عمّا يَخْلُقُ بها عَمَلُهُ إِنْ تَحقَّقَتِ الظُّنونُ وهَجَرَها فرونسكي. ولمّا اسْتَحْوَذَتْ عَلَيها الحَيرَةُ، طارَ صَوابُها، فقَرَعَتِ الجَرَسَ بشِدَّةٍ. ولَمْ تَنْتَظِرْ مَجيءَ المُرَبِّيةِ، بَل أَسْرَعَتْ إِلى المِرآةِ تَتَزَيَّنُ وتَضْفِرُ شَعْرَها. وما لَبِثَتْ أَنْ تَلَفَّعَتْ بأَبْهى حُلَلِها، وكأَنَّها تُزْمِعُ أَنْ تُوقِعَهُ في حَبائِلِها مِنْ جَديدٍ.

ورَجَعَتْ بَعْدَ قَليلٍ إِلى رَدْهةِ الاِسْتِقْبالِ الصَّغيرةِ، وجَلَسَتْ تُفَكِّرُ. وما هُوَ إِلَّا قَليلٌ حتَّى قُرِعَ الجَرَسُ، فهَبَّتْ واقِفةً وفَتَحَتِ البابَ وقَلْبُها يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ. ودَلَفَ إِلى القاعَةِ رَجُلانِ، كانَ أَوَّلُهُما الأَميرَ ياشفين، وكانَ الثَّاني فرونسكي.

فهَشَّتْ أَنّا في وَجْهِ الضَّيْفِ ورَحَّبَتْ بِهِ أَجْمَلَ تَرْحيبٍ. ولمّا جَلَسَتْ مَعَهُ اخْتَلَسَتِ النَّظَرَ إِلى فرونسكي، فأَلْفَتْهُ مُنْهَمِكًا في تَأَمُّلِ صُوَرِ سيرجَ الَّتي نَسِيَتْها مُبَعْثَرةً على المائِدَةِ.

ولَمْ يَلْبَثْ فرونسكي أَنِ اتَّخَذَ لَهُ مَجْلِسًا بجانِبِهِما، وخاضَ مَعَهُما في حَديثِ السِّباقِ، ثُمَّ في حَديثِ الحَلِّ والتَّرْحالِ. ثُمَّ جالوا وصالوا في كَلامٍ كَثيرٍ عَن أوروبا، وحَواضِرِها، ومُدُنِها، ومَلاهيها.

وكانَ فرونسكي طيلةَ ذٰلِكَ يَنْظُرُ إِلى ساعتِهِ. ولمّا تَأَهَّبَ الضَّيْفُ لِيَذْهَبَ، دَعَتْهُ أَنّا إِلى الرُّجوعِ في المساءِ لتَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ مَعَهُما.

وقَد لَبَّى الأَميرُ دَعْوَتَها مَسْرورًا، ومَضى في سَبيلِهِ، وهْوَ يَنْظُرُ إِلى فرونسكي مُتَسائِلًا.

وقالَ لهُ الشَّابُّ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ البابِ: «اِسْبِقْني، يا عَزيزي، وسأَلْحَقُ بكَ سَريعًا».

ولمّا غابَ شَبَحُ الأَميرِ عَن ناظِرَي أَنّا، تَقَدَّمَتْ مِن فرونسكي، وأَمْسَكَتْهُ مِن يَدِهِ، ونَظَرَتْ إِلى عَينَيهِ باحِثةً عَن شَيءٍ، وفَكَّرَتْ. . . فَكَّرَتْ كَثيرًا!

---

(١) مُتَأَجِّجَةٌ: عاضِبَةٌ غَضَبًا شَديدًا

وأخيرًا قالَتْ بإغْراءٍ وتَوَسُّلٍ: «اِبْقَ، اِبْقَ قليلًا يا حَبيبي. هَل أَسَأْتُ صُنْعًا في دَعْوتِهِ إلى العَشاءِ؟»

قالَ: «كلّا، بَل إنَّكِ أَحْسَنْتِ بلَفْتَتِكِ ولَباقَتِكِ».

ونَظَرَ إلَيها ووَجْهُهُ يَطْفَحُ بِشْرًا.

وضَغَطَتْ أَنّا على يَدِهِ، وقالَتْ وهْيَ تُدْني وَجْهَها مِنْ وَجْهِهِ: «أي حَبيبي فرونسكي! أَباقٍ أَنْتَ على عَهْدِكَ؟ إنّي بَرِمَةٌ[1] بحَياتي، ولا يُزيلُ سَأَمي إلّا ثِقَتي بحَنانِكَ وحُبِّكَ. فمَتى نُسافِرُ؟ مَتى؟»

فرَمَقَها بعَينٍ مُسْتَشِفَّةٍ وأَجابَ: «لَن نَمْكُثَ هُنا طَويلًا، فلا تُراعي يا أَنّا».

وابْتَعَدَ عَنها...

فارْتاعَتْ، إلّا أَنَّها كَتَمَتْ شُعورَها، وأَدارَتْ لَهُ ظَهْرَها وهْيَ تَقولُ بجَفاءٍ: «فاذْهَبْ إذًا... إنَّ صاحِبَكَ في انتِظارِكَ، اِذْهَبْ... لا تَتَأَخَّرْ!»

ودارَتْ على حينِ غِرَّةٍ، وحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ غَريبَةٍ، لم يَمْلِكْ فرونسكي مِنْ شِدَّتِها إلّا أَنِ ارْتَعَشَ وارْتَعَدَ.

ولٰكِنَّهُ أَحْنى هامَتَهُ قَليلًا، ومَضى لا يَلْوي.

---

(١) بَرِمَةٌ: ضَجِرَةٌ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - أَتَرى أَنَّ أَنّا كارنينا كانتْ مُحِقَّةً في تَصَوُّرِ نفسِها أُمًّا، وأَنَّ الوِلادةَ وَحْدَها تَكْفي لاكْتِساب حقوقِ الأُمومَةِ، أَمْ إِنَّك تَرى شيئًا آخرَ؟ أَوْضِحْ ما تَذْهَبُ إِليهِ.

٣ - عُلِّلَ غيابُ الأُمِّ بالموتِ. فهَل صدَّقَ الطِّفلُ ذلكَ؟ ولماذا؟

٤ - كيفَ كانَتْ لَحْظَةُ لقاءِ الأُمِّ والابنِ؟ وهَل أَثَّرَتْ فيكَ؟

٥ - جَرى ما جَرى، وانحرفَتْ أَنّا وخلعَتِ العِذارَ. فهَل تَرى أَنَّ مِن حَقِّها أَنْ تَرى ابنَها؟ ولماذا؟

٦ - أَتَرى أَنَّ مخالَفَةَ القَوانينِ والأَعرافِ تَستَحِقُّ أَنْ يَلْقى فاعلُها العَذابَ الَّذي لَقِيَتْهُ أَنّا؟ عَلِّلْ رَأْيكَ.

٧ - لِمَ بَدأَ الشَّكُّ يتسَرَّبُ إِلى روحِ أَنّا، ونارُ الغَيرَةِ تَتَأَجَّجُ في صَدْرِها؟ أَتَرى في سلوكِ فرونسكي ما يَدعو إِلى الشَّكِّ والغَيرةِ، أَمْ تَرى شَيئًا آخرَ؟ وما هوَ؟

٨ - أَترى أَنَّ عُقْدَةَ الرِّوايةِ اقْتَرَبَتْ مِنَ الحَلِّ في هذا الفَصْلِ، أَمْ تَراها ازدادَتْ تَعْقيدًا؟ أَوْضِحْ ما تَذْهَبُ إِليهِ.

٩ - أَوْجِزْ مضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الخامس

رَجَعَ فرونسكي بَعْدَ ساعاتٍ إلى الفُنْدُقِ فلَمْ يَجِدْ أنّا بَل قيلَ لَهُ لمّا سَألَ عنها إنَّها غادَرَتِ المَكانَ مَعَ سيِّدةٍ أَلَمَّتْ بها بَعْدَ ذَهابِهِ.

فدُهِشَ، وتَساءَلَ عن هٰذا الشُّذوذِ الَّذي لاحَظَهُ في حَرَكاتِ أنّا وتَصرُّفاتِها في الآونةِ الأَخيرَةِ، وعَجِبَ مِنْ خُروجِها وتَأَخُّرِها. ثُمَّ فَطِنَ إلى تِلكَ النَّظْرَةِ المُريبَةِ الَّتي حَدَجَتْهُ بها، والَّتي أَصابَهُ منها رَعْشَةٌ ووَجَلٌ.

وقَرَّ رَأْيُهُ، بَعْدَ إعْمالِ الفِكْرِ، على مُجابَهَتِها بظُنونِهِ، فلَزِمَ قاعةَ الِاسْتِقْبالِ الصَّغيرةَ وقَد آلى أَنْ يَنْتَظِرَها كَي يَفْصِلَ في المَسْأَلَةِ.

ورَجَعَتْ أنّا بَعْدَ ساعاتٍ طَويلةٍ، لٰكِنَّها لم تَكُنْ وَحيدةً، بَل كانَ بِرفْقَتِها عَمَّتُها العانِسُ الطَّاعِنَةُ في السِّنِّ الأَميرةُ أوبلنسكي. وكانَتْ هٰذِهِ المَرْأَةُ هِيَ الَّتي قَدِمَتِ الفُنْدُقَ بَعْدَ ذَهابِهِ.

وتَجاهَلَتْ أَنّا رَبْكَةَ فرونسكي واضْطِرابَهُ، وجَعَلَتْ تُثَرْثِرُ بحَديثٍ فَكِهٍ فَرِحٍ، وتَصِفُ لَهُ ما قامَتْ بِهِ مَعَ عَمَّتِها في ذٰلِكَ اليَومِ.

ولَم يَخْفَ عَن فرونسكي انْفِعالُ أَنّا وتَهَيُّجُها، فأَيْقَنَ أَنَّها تُبْطِنُ سِرًّا دَفينًا. فحاوَلَ أَنْ يَخْلُوَ إِلَيها، وحاوَلَ أَنْ يَسْتَدْعيَها إلى مَخْدَعِ نَوْمِها، لٰكِنَّها تَجَنَّبَتْهُ طاقَتَها ولم تَحْفِلْ إشارَتَهُ أَو إيماءَتَهُ.

وعيلَ صَبْرُهُ وضاقَ صَدْرُهُ، وتَفاقَمَ الخَطْبُ في نَظَرِهِ، وعَظُمَتْ ريبَتُهُ، وخُيِّلَ إِلَيهِ في تِلْكَ الدَّقيقةِ أَنَّهُ لا يَعْرِفُها إلّا في تِلْكَ الدَّقيقةِ، وأَنَّهُ لم يُحِبَّها مُنْذُ زَمانٍ بَل أَحَبَّها وفَنِيَ فيها في تِلْكَ الدَّقيقةِ أيضًا!

فيا لَلْغَيْرَةِ، يا لَلْغَيرةِ! كَيفَ تُحيلُ مَواتَ العاطَفَةِ حَياةً للعاطِفةِ!

يا لَلْغَيْرةِ! ويا لَلْمَرْأَةِ الدّاهيةِ! كَيفَ تُلْهِبُ النِّيرانَ في قَلْبِ الرَّجُلِ، وكَيفَ تُذْكي بذٰلِكَ

عاطفةَ حُبِّهِ متى خَمَدَتْ وهَمَدَتْ واسْتَكانَتْ.

لَقَد جُنَّ جُنونُ فرونسكي، وكادَ لولا بَقِيةٌ مِنْ عَقْلٍ أَنْ يَرْتَكِبَ الشَّطَطَ[1] بحُضورِ الأَميرةِ العَجوزِ، فهْوَ يَبْغي المَعْرِفةَ، وهْوَ يَوَدُّ أَنْ يُحيطَ عِلْمًا بحَقيقةِ ما فَعَلَتْهُ أَنّا في ذٰلِكَ اليَوم، وكأَنَّهُ لم يُصَدِّقْ، أَو كأَنَّ ريبَتَهُ الَّتي عَظَّمَها مَرَحُ أَنّا قد حَثَّتْهُ على وُجوبِ التَّحَقُّقِ أَنَّها لَم تَرْتَكِبْ أَمْرًا إِدًّا![2]

أَحَبَّها في الماضي وأَحَبَّتْهُ.

وقَلَّ حُبُّهُ في الحاضِرِ ونَما حُبُّها لَهُ.

فلمّا لَمَسَتْ رَجَحانَ كِفَّةٍ على كِفَّةٍ، وأَيْقَنَتْ أَنَّ الأَيّام القادِمةَ ستَكونُ فيها نِهايةُ حُبِّهِ بَل نِهايةُ حَياتِها، تَوَسَّلَتْ بالدَّهاءِ، الدَّهاءِ الغَريزيِّ، الدَّهاءِ الَّذي اسْتَعاضَتْ بِهِ المَرْأَةُ عَنِ الضَّعْفِ، ورَمَتْ أَنّا سَهْمَها فأَصابَ.

وها هُوَذا يَتَحَرَّقُ على نارٍ ويَوَدُّ أَنْ يَكْتَشِفَ الأَسْرارَ.

وجاءَ في تِلكَ اللَّحْظةِ رَسولٌ للأَميرةِ بتسي يَعْتَذِرُ بالنِّيابةِ عن سَيِّدتِهِ لاضْطِرارِها إِلى التَّخَلُّفِ وعَدَمِ الحُضورِ، ويَرْجو أَنّا أَنْ تُوافِيَها إِلى بَيتِها.

غَيْرَ أَنَّ أَنّا اعْتَذَرَتْ لِلرَّسولِ وبَيَّنَتْ لَهُ مِنَ الحُجَجِ ما أَقْنَعَهُ، فأَجابَها وهْوَ يَنْحَني باحْتِرام: «إِنْ شِئْتِ وشاءَ أَصْدِقاؤُكِ أَنْ تَشْهَدوا المُغَنِّيَةَ باتي في دارِ الأُوبِّرا فباسْتِطاعتي أَنْ اتَدَبَّرَ لَكم مَقْصورةً خاصَّةً».

فقالَتْ أَنّا وعَيناها تَلْمَعانِ: «إِنَّ مِن دَواعي سُروري أَنْ أَذْهَبَ، وإِنّي الآنَ اوَدُّ أَنْ أَسْتَبْقِيَكَ لتَتَناوَلَ الطَّعامَ مَعَنا».

فحَمْلَقَ فرونسكي بعَينَيه غيرَ مُصَدِّقٍ أُذُنَيهِ. ماذا أَلَمَّ بها فجَعَلَها تُلِحُّ على رَسولِ بتسي في البَقاءِ وتَناوُلِ العَشاءِ؟ ثُمَّ ماذا حَداها على قَبولِ الدَّعوةِ إِلى الأُوبِّرا، وهْيَ تَعْلَمُ عَن يَقينٍ أَنَّها ستَلْتَقي الطَّبقةَ العُلْيا الَّتي تَجاهَلَتْها وتَجَنَّبَتْها ولم تَحْفِلْ بمَقْدَمِها إِلى بطرسبرج؟

ورَأَتِ الحَيرَةَ مُرْتَسِمَةً في عَينَيهِ فزادَ بَريقُ عَينَيها، ونَظَرَتْ إِلَيهِ بتَحَدٍّ نَظْرةً تَجَمَّعَ فيها مَرَحٌ

---

(١) يَرتَكِبُ الشَّطَطَ: يَبْتَعِدُ عَنِ الحَقِّ والصَّوابِ واللَّياقة.

(٢) إِدًّا: فَظيعًا.

وقُنوطٌ، كما انْبَثَقَ مِنها شَرَرٌ عَجيبٌ أَخافَهُ وأَذْهَلَهُ في وَقْتٍ واحِدٍ.

وأَنْقَذَ المَوْقِفَ حُضورُ الأَميرِ ياشفينَ. ولم يُعَتِّمِ الجَميعُ أَنْ أَحاطوا بمائِدَةِ الطَّعامِ وأَقْبَلوا على الأَكْلِ يَلْتَهِمونَهُ وعلى الخَمْرِ يَرْشِفونَها.

وعَبَّتْ أَنّا مِقْدارًا كَبيرًا، وطَفِقَتْ تَرْنو إِلى الأَميرِ ياشفينَ بنَظَراتٍ مُدِلَّةٍ مُغْرِيَةٍ، ولم تَبْخُلْ على الرَّسولِ بمِثْلِ تِلكَ النَّظَراتِ.

وكَتَمَ فرونسكي ما في قَلْبِهِ مِنْ غِلٍّ، وما لَبِثَ بَعْدَ فَراغِهِمْ مِنْ تَناوُلِ الطَّعامِ أَنِ اصْطَحَبَ الأَميرَ إِلى حُجْرتِهِ حَيْثُ جَلَسا يُدَخِّنانِ ويَتَحادَثانِ.

وصَعِدَ بَعْدَ حينٍ، فأَلْفى أَنّا مُتَلَفِّعةً بثَوْبٍ قَشيبٍ صُنِعَ في باريسَ خِصِّيصًا لَها. كما أَنَّها زَيَّنَتْ رَأْسَها الجَميلَ بقِطْعَةٍ مِنَ الحَريرِ المُطَعَّمِ. فبُهِتَ، وأَثَّرَ فيهِ هٰذا الجَمالُ، وخُيِّلَ إِلَيهِ أَنَّهُ لَمْ يَرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ.

وسَأَلَها قائِلًا: «هَل تُزْمِعينَ الذَّهابَ إِلى دارِ الأُوبِّرا؟»

قالَتْ: «نَعَمْ إِنّي ذاهِبةٌ لا مَحالَةَ، فماذا يُخيفُكَ؟»

قالَ: «لَسْتُ بخائِفٍ وإِنَّما أَنا مُتَعَجِّبٌ».

فأَغْضَتْ عن تَهَكُّمِهِ وغَضَبِهِ وقالَتْ: «إِنَّني مُصَمِّمَةٌ على الذَّهابِ، فقد مَضى عَلَينا زَمَنٌ ونَحْنُ نَحْيا في عُزْلَةٍ ووَحْشةٍ».

فهَتَفَ، وصَوتُهُ يَكادُ يَكونُ أَقْرَبَ إِلى صَوتِ زَوجِها يَومَ أَهابَ بها أَنْ تَرْعَويَ، قالَ: «أَنّا! فَكِّري، فَكِّري. ماذا أَصابَكِ؟»

قالَتْ: «أَجْدَرُ بي أَنْ أَطْرَحَ عَلَيكَ أَنا هٰذا السُّؤالَ».

قالَ: «ولِمَ تَتَجاهَلينَ مُتَعَمِّدَةً الحَقيقةَ الجَلِيَّةَ؟ أَلا تُبْصِرينَ ما يَنْطَوي عليهِ ذَهابُكِ إِلى الأُوبِّرا مِن خُرْقٍ وأَفَنٍ؟»

قالَتْ: «إِنَّني ذاهِبَةٌ مَعَ الأَميرةِ».

فلَوَّحَ بيَدِهِ واسْتَتْلى، وكأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ كَلِماتِها: «تَعَقَّلي يا أَنّا، فأَنْتِ... أَنْتِ...».

فعارَضَتْهُ مُحتَدِمَةً، وصاحَتْ: «كَفى، كَفى... واعْلَمْ أَنّي لا أَتَرَدَّدُ عَن إِتْيانِ ما أَتَيْتُ

ولَو أَلْفَيْتُ نَفْسي مُنْجَرِفةً بذٰلِكَ التَّيَّارِ الكَريهِ الَّذي جَرَفَتْني بهِ الحَياةُ مَعَ زَوجي لسِنينَ وسِنينَ».

ونَظَرَتْ إِلَيه، ونَظَرَ إِلَيها وتابَعَتْ بصوتٍ عَميقٍ: «أَي أَلِكْسي فرونسكي! إِنَّ الأَمْرَ الَّذي يَعْنينا بالدَّرَجةِ الأُولى هُوَ هَل يَشِجُ بَينَنا حُبٌّ؟ هَل تَصِلُ بينَ قَلْبَينا عاطِفةٌ؟ هَل يَربِطُ روحَينا إِخْلاصٌ ونَزاهَةٌ وإِصْرارٌ على الِاسْتِمْرارِ في الإِخْلاصِ إِلى ما لا نِهايَةَ لَهُ؟ هٰذا هُوَ مِحْوَرُ حَياتِنا الآنَ، هٰذا هُوَ الهَواءُ الّذي نَتَنَفَّسُ، والضِّياءُ الَّذي نُبْصِرُ الدُّنْيا مِن خِلالِهِ. أَمّا النَّاسُ، أَمّا النَّاسُ الَّذينَ يَتْبَعونَ المادِّيَّةَ، مادِّيَّةَ السَّفْسَطَةِ والهَذْرِ وقِلَّةِ الحَذَرِ في ما يَقولونَ وفي ما يَفْعَلونَ، فلَسنا نُقيمُ لَهُمْ وَزْنًا! وسأَبْقى مَعَكَ لأَنّي أَهْواكَ، سأَبْقى أَعيشُ في كَنَفِكَ إِنْ كُنْتَ على حُبّي مُقيمًا ولِعَهْدِكَ لي أَمينًا».

وصَعَّدَ فيها طَرْفَهُ المَأْخوذَ. إِنَّها بارِعةُ الجَمالِ؛ إِنَّ كُلَّ جُزْءٍ أَو ثِنْيَةٍ في قَدِّها يُسَبِّحُ حَمْدًا لِمَنْ سَبَكَها في هٰذا القالَبِ؛ لٰكِنَّهُ كانَ مُتَأَثِّرًا مِن شُذوذِها، فقالَ وعَيناهُ تَشِيانِ بامْتِعاضةٍ: «وهَل بي حاجَةٌ إِلى إِثْباتِ صِدْقي ومَحَبَّتي؟ أَوَلَسْتُ الآنَ عاشِقًا يَضْرَعُ إِلى مَحْبوبتِهِ أَنْ تَعْدِلَ عمّا وَطَّنَتِ النَّفْسَ عليهِ فلا تَذْهَبَ إِلى الأُوبِّرا؟»

فقالَتْ: «أَنْتَ غامِضٌ اللَّيلةَ يا فرونسكي، ولَسْتَ ارى في ذَهابي مَأْخَذًا أَو سُبَّةً. فالأَميرُ ياشفينُ صَديقٌ أَمينٌ، والأَميرةُ العَجوزُ أَفضَلُ مِن سِواها، فماذا في ذَهابي مَعَهُما؟»

* * *

وذَهَبوا الى دارِ الأُوبِّرا، ذَهَبَتْ أَنّا بصُحبةِ الأَميرِ ياشفينَ والأَميرةِ أوبلنسكي ورسولِ بتسي، وتَبِعَهُمْ فرونسكي بَعْدَ ساعةٍ. فلمّا غَشِيَ المَكانَ كانَتِ الأَنْوارُ تَشِعُّ مُتَوَهِّجةً وكانَ الجَميعُ يُصَفِّقونَ بحَماسَةٍ مُنْقَطِعَةِ النَّظيرِ للمُمَثِّلَةِ المُغَنِّيَةِ.

وأَجالَ فرونسكي طَرْفَهُ في الحَشْدِ، فشاهَدَ وُجوهًا جَميلةً يَعْرِفُها، ورَأَى رِجالًا كَثيرينَ كانوا في ما مَضى يَخْطُبونَ وُدَّهُ. ولاحَظَ أَنَّ الكَثيرينَ والكَثيراتِ يَتَّجِهونَ بأَبْصارِهِم إِلى إِحْدى المَقْصوراتِ، فأَيْقَنَ أَنَّها مَقْصورَةُ أَنّا، فصَوَّبَ إِلَيها نَظْرَةً مِنْ وَراءِ المِنْظارِ المُكَبِّرِ، ورَآها. رَأَى رَأْسَها الصَّغيرَ الجَميلَ، وتَبَيَّنَ افتِرارَتَها[1] السَّاحِرَةَ العَذْبَةَ، واسْتَطاعَ أَنْ يَلْمَحَ

(١) الافْتِرارَة: الابْتِسامَة.

الشُّعْلَةَ الَّتي انْبَثَقَتْ مِن وَجْهِها، وكذٰلِكَ الهالَةَ السَّاطِعَةَ الَّتي أَحاطَتْ ذٰلِكَ الوَجْهَ الفاتِنَ بكُلِّ مَظاهِرِ الكِبْرياءِ والإِباءِ.

ومَعَ ذٰلِكَ، فقَد خُيِّلَ اليهِ أَنَّ جمالَها فَقَدَ كَثيرًا مِنْ رَوْنَقِهِ السَّابِقِ، وأَنَّهُ اخْتَلَطَ بالشَّرِّ وانْصَهَرَ مَعَ الأَذِيَّةِ.

وفَجْأَةً اسْتَرْعَتْ انْتِباهَهُ حَرَكَةٌ غَيرُ عادِيَّةٍ في المَقْصورَةِ المُجاوِرَةِ لمَقْصورَةِ أَنّا، فرَكَّزَ مِنظارَهُ عَليها، وعَرَفَ مَنْ فيها. كانَتْ فيها عائِلَةٌ مِنَ العائِلاتِ الوَثيقَةِ الصِّلَةِ بأَنّا، وكانَتْ رَبَّةُ تِلْكَ العائِلةِ قَد هَمَّتْ بمِعْطَفِها تَرْتَديهِ بعَصَبيَّةٍ ظاهِرةٍ، بَينَما وَقَفَ زَوجُها وهْوَ يُحاوِلُ أَنْ يُهدِّئَ مِن ثائِرَتِها. وخَرَجَتِ المَرْأَةُ، وتَلَكَّأَ الزَّوجُ وجَعَلَ يَخْتَلِسُ النَّظَراتِ إِلى وَجْهِ أَنّا في ضراعةٍ واسْتِجْداءٍ. غَيرَ أَنَّها تَجاهَلَتْهُ ولَبِثَتْ تُجاذِبُ أَصْحابَها أَطْرافَ الحَديثِ، وإِنْ بَدا جَلِيًّا أَنَّها ومَنْ مَعَها كانوا قَد أَصابَهُمْ قَلَقٌ واضْطِرابٌ لِما حَدَثَ في المَقْصورَةِ المُجاوِرَةِ.

وعَجِبَ فرونسكي ولم يَفْهَمْ ما حَدَثَ، بَيدَ أَنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ المَرْأَةَ الَّتي تَجْلِسُ في تِلْكَ المَقْصورةِ تَعَمَّدَتْ أَنْ تُلْحِقَ الإِهانَةَ بأَنّا.

وشاءَ أَنْ يَعْرِفَ الحَقيقَةَ، فسارَعَ إِلى مَقْصورَةِ شَقيقِهِ، فالْتَقى زَوجَتَهُ على بابِ المَقْصورَةِ، فصافَحَها ووَقَفَ يُحادِثُها.

وقالَتْ فاريا: «يا لَلْمَرْأَةِ الوَقِحَةِ لَقَدِ ارْتَكَبَتْ أَمْرًا دنيئًا!»

قالَ: «وماذا حَدَثَ؟»

قالَتْ: «أَما سَمِعْتَ؟»

قالَ: «لا، لم أَسْمَعْ، فماذا جَرى؟»

قالَتْ: «كانَتْ أَنّا كارنينا تَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ مَعَ السَّيِّد كارناسوف، عِنْدَما هَبَّتْ زَوجَةُ الأَخيرِ واقِفةً وتَفَوَّهَتْ بعِبارَةٍ نابِيةٍ، ووَصَمَتْ أَنّا بالنَّقيصةِ، ثُمَّ غادَرَتِ المَكانَ!»

ففَكَّرَ فرونسكي مَلِيًّا. وبَينا هُو يُنْصِتُ إِلى فاريا، دَنا مِنْهُ شَخْصٌ، وطَلَبَ إِلَيهِ أَنْ يُلِمَّ بأُمِّهِ فهْيَ تَرْغَبُ في رُؤْيتِهِ.

فمَشى مِن دونِ أَنْ يَنْطِقَ بكَلِمةٍ، ودَخَلَ على أُمِّهِ، فحَيّاها وسَأَلَها عَن حالِها، فقالَتْ وهْيَ تَنْظُرُ إِلَيهِ نَظَراتٍ ذاتِ مَعانٍ: «أَراكَ مُبْتَعِدًا عَنها، فلِمَ لا تَذْهَبُ إِلَيها؟ أَما تَرى جَمالَها

الفاتِنَ؟ أما تَراهُ يُزْري بجَمالِ المُغَنِّيَةِ الأُولى؟!»

فقالَ مُحْتَدًّا: «أَقْصِري، أَقْصِري. . . .».

قالَتْ: «هٰذا لِسانُ حالِ الجَميعِ، وأَنا أُرَدِّدُ كَلِماتِ النَّاسِ، لَيسَ إِلَّا».

فتَلَفَّتَ فرونسكي حَولَهُ، ثُمَّ غادَرَ أُمَّهُ وهْوَ يَكادُ يَنْفَجِرُ مِنَ الغَيْظِ. وقَد نَقَمَ على أَنّا مَجيئَها إِلى الأُوبِّرا، وغَضِبَ كَثيرًا بسَبَبِ رُعونَتِها. أَلَمْ يَنْصَحْها بالأَناةِ؟ أَلَمْ يَتَوَسَّلْ إِلَيها أَنْ تَعْدِلَ عَنِ المَجيءِ؟ لَقَد تَأَجَّمَ غَيْظًا، ولٰكِنَّهُ أَشْفَقَ عَلَيها، وكادَ يَبْكي تَوَجُّعًا لَها.

وسارَعَ مُتَّجِهًا إِلى مَقْصورَتِها، ووَقَفَ تِلْقاءَها. فلَمّا رَأَتْهُ قالَتْ ساخِرَةً: «ها أَنْتَ قَد جِئْتَ أَخيرًا، ولٰكِنْ. . . ولٰكِنْ. . .».

وأُطْفِئَتِ الأَنْوارُ، فعادَ مِنْ حَيثُ أَتى.

وحانَتْ مِنهُ التِفاتَةٌ بَعدَ حينٍ، فأَلْفى مَقصورَةَ أَنّا خالِيَةً، فنَهَضَ مِنْ مَكانِهِ وغادَرَ الدّارَ مُسْرِعًا، وانْطَلَقَ إِلى الفُنْدُقِ وقَلْبُهُ يَتَمَزَّعُ[1] أَلَمًا وحَسْرَةً.

ودَخَلَ قاعَةَ الِاسْتِقْبالِ المُلْحَقَةَ بجَناحِ أَنّا، فرَآها تَجْلِسُ على الأَريكَةِ بمَلابِسِ السَّهْرَةِ، وقَد شَخَصَتْ إِلى الأَمامِ بطَرْفٍ شارِدٍ بائِسٍ.

ورَأَتْهُ أَنّا فتَمَلْمَلَتْ.

وهَتَفَ هُوَ بصَوتٍ شَديدٍ: «أَنّا. . .».

ووَثَبَتْ مِن مَكانِها قائلةً: «فرونسكي! أَنْتَ السَّبَبُ. أَنْتَ السَّبَبُ. . .».

قالَ: «بَل أَنْتِ. أَنْتِ مَجنونَةٌ. أَلَمْ أَبْتَهِلْ إِلَيكِ أَنْ لا تَذْهَبي؟ أَلَمْ أَتَضَرَّعْ أَنْ تَمْكُثي مَعي هُنا؟»

قالَتْ: «أَوَّهْ! ما أَبْشَعَ كَلامَ هٰذِهِ المَرْأَةِ الوَقاحِ! لَقَد قالَتْ لِزَوجِها: اِبْتَعِدْ. . . اِبْتَعِدْ. . . لا تَجْلِسْ قَريبًا مِنْ هٰذِهِ المَخْلوقَةِ المُلَطَّخَةِ!»

قالَ: أَوَتُقيمينَ وَزْنًا لثَرْثَرةِ بَلْهاءَ؟»

قالَتْ: «إِنّي اكْرَهُكَ، أَكْرَهُ بُرودَكَ وجُمودَكَ!»

---

(١) يَتَمَزَّعُ: يَتَقَطَّعُ.

قالَ: «بُرودي وجُمودي؟»

قالَتْ: «أَجَلْ، أَجَلْ... لَو كُنْتَ تُحِبُّني لَما ذَهَبْتُ اللَّيلَةَ إِلى دارِ الأُوبِّرا».

ورَنَتْ إِلَيهِ بطَرْفٍ مُخْضَلٍّ، فكادَ دَمْعُهُ يَسيلُ مِنْ عَينَيهِ، وشَعَرَ بالتَّعاسةِ، ورَثى لَها، وجَعَلَ يُلْقي على مَسامِعِها كَلِماتِ الحُبِّ، ويُؤَكِّدُ لَها أَنَّهُ مَشْغوفٌ بها، وأَنَّ حُبَّها قَدِ اسْتَوْعَبَ فِكْرَهُ، ومَلَأَ قَلْبَهُ وحَياتَهُ.

وهَدَأَتْ أَنّا، فدَنَتْ مِنْهُ وقَبَّلَتْهُ؛ ونامَتْ تِلْكَ اللَّيلَةَ قَريرةَ العَينِ ناعِمةَ البالِ.

أَمّا هُوَ فقَد نَطَقَ بكَلِماتِ الحُبِّ مُكْرَهًا. وعَجِبَ لنَفْسِهِ، فتَوَلّاهُ مِنِ اشْمِئْزازِهِ مِنْ هٰذِهِ الكَلِماتِ ذُهولٌ ودَهْشَةٌ.

أسئلة تحليليّة

١ -ضَعْ لهذا الفَصْلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - أَتَرى أَنَّ المَسْلَكَ الَّذي سَلَكَتْهُ أَنّا في هذا الفَصْلِ مِنَ الرِّوايةِ يَحُلُّ مشاكِلَها، أَمْ يزيدُها تَعقيدًا؟ أَوْضِحْ ما تَذهبُ إِلَيه مِنْ رَأْيٍ.

٣ - تُرى، أَكانَتْ زَوْجَةُ السَّيِّدِ كارناسوف تَفْعَلُ ما فعلَتْ لَو أَنَّ زَوْجَها تبادَلَ الحديثَ معَ امْرَأَةٍ مُحْتَشِمةٍ؟ عَلِّلْ إِجابَتَكَ.

٤ - حاوَلَتْ أَنّا إِثارَةَ غَيرةِ عَشيقِها فرونسكي. فهَل تَرى ذلكَ يُؤَثِّرُ في الرَّجُلِ؟ وإِلى أَيِّ مدًى؟

٥ - أَرأَيْتَ فرونسكي صادِقًا في التَّعبيرِ عن حُبِّهِ في خِتامِ الفصلِ؟ ولماذا؟

٦ - أَترى أَنَّ الاضْطِرابَ الَّذي انْتَهَتْ إِلَيهِ أَنّا كانَ مُنتَظَرًا، أَمْ تَراهُ مُفاجِئًا للقارئِ؟ عَلِّلْ ما تَذهبُ إِلَيهِ.

٧ - بأَيِّ الأَساليبِ الرِّوائِيَّةِ عَرَضَ الكاتِبُ أَحداثَ هذا الفَصْلِ؟ أَبالسَّردِ المُباشَرِ، أَمْ بالنَّجوى الدَّاخليَّةِ، أَمْ بالحِوارِ؟ وهَل كانَ مُوَفَّقًا في أُسلوبِ عَرضِهِ هذا؟ أَوْضِحْ رَأْيَكَ.

الفصل السّادس

كانَتْ داريا وأَوْلادُها الصِّغارُ قَد تَوَجَّهوا إلى قَرْيَةِ ليفينَ زَوجِ كاترينَ لِيَقْضوا مَعَ الزَّوْجَينِ جانِبًا مِنْ فَصْلِ الصَّيفِ. وهُناكَ بَلَغَهُمْ نَبأُ رُجوعِ فرونسكي ومَعَهُ أَنّا إلى مَزْرعتِهِ.

فأَزْمَعَتْ داريا أَنْ تَزورَ أَنّا. ومَعَ أَنَّها كانَتْ تَعْلَمُ بقصَّةِ فرونسكي وشَقيقَتِها، وما تَبِعَ تَعَرُّفَ الشّابِّ بأَنّا مِن حَوادِثَ صَرَفَتْهُ صَرْفًا عَن شَقيقَتِها، إلّا أَنَّها لَمْ تَرَ في كُلِّ ذٰلِكَ ما يَعوقُها عَن زِيارتِها.

ووَصَلَتْ داريا بَعْدَ مَسيرةِ نَهارٍ كامِلٍ في العَرَبةِ، فاسْتَقْبَلَتْها أَنّا أَجْمَلَ اسْتِقْبالٍ، وعانَقَتْها، وقَبَّلَتْها وهْيَ تَقولُ: «رُبَّما عَجِبْتِ يا عَزيزتي لِما أُظْهِرُهُ مِنْ سَعادةٍ وهَناءٍ، على الرَّغْمِ مِمّا لَحِقَ بي مِنْ مَصاعِبَ ومَتاعِبَ. أَلا فاعْلَمي أَنَّ العَصا السِّحْريَّةَ قَد أَصابَتْ قَلْبي، فنَجَوْتُ مِنْ حياةٍ مُرْهِقةٍ مُمِضَّةٍ مَقيتَةٍ، لأَظْفَرَ بحَياةٍ هانِئَةٍ سَعيدَةٍ».

واخْتَلَسَتْ إلى ضَيْفَتِها نَظْرةً مُتَأَمِّلةً. وقالَتْ داريا: «وهٰذا يَمْلأُ قَلْبي سُرورًا يا أَنّا. بَيْدَ أَنّي طالَما تَساءَلْتُ عَن سَبَبِ امتِناعِكِ عَنِ الكِتابةِ إِلَيَّ، فلماذا يا تُرى لَمْ تَكْتُبي؟»

قالَتْ: «تَسْأَلينَني لماذا؟ اِعْلَمي أَنّي لَمْ أَجْرُؤْ على الكِتابةِ».

قالَتْ: «لَمْ تَجْرُئي! وهَل تَخافينَ مِنّي؟»

قالَتْ: «وكَيفَ تَنْظُرينَ إلى حالتي؟ وماذا تَظُنِّينَ أَنّي جَديرةٌ بفِعْلِهِ؟»

- «لا أُريدُ أَنْ أُبْدِيَ رَأْيًا، إنّي أُحِبُّكِ وقد أَحْبَبْتُكِ دائمًا... ومَتى كَلِفَ إِنْسانٌ بإِنْسانٍ آخَرَ فهْوَ لا يَرى فيهِ إلّا حَسَناتِهِ وخَيْرَهُ».

وتَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في مُقْلَتَي أَنّا، فنَكَسَتْ رَأْسَها وظَهَرَ عَلَيها التَّرَدُّدُ، وما لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ: «مَهْما رَأَيْتِ فيَّ فأَنا جِدُّ مُغْتَبِطةٍ لقُدومِكِ».

ورَأَتْ داريا دُموعَ صَديقَتِها، فتَأَثَّرَتْ كَثيرًا، ومَدَّتْ يَدَها فرَبَّتَتْ صَدْرَها وهْيَ تَقولُ:

«خَفِّفي عَنكِ يا أَنّا، اِصْبِري ولا تَسْتَسْلِمي لليَأْسِ».

فابْتَسَمَتْ انّا وقالَتْ: «ألا تَسْتَطيعينَ انْ تَمْكُثي مَعي بَعْضَ الوَقْتِ؟»

- «كَلّا يا عَزيزتي، فأَنا لا يُمْكِنُني تَركُ أَطْفالي وَحْدَهُمْ».

فامْسَكَتْها أَنّا مِن يَدِها، ومَشَتْ مَعَها إلى رَدْهَةِ الاِسْتِقْبالِ، ثُمَّ جَلَسَتْ بجانِبِها على أَريكَةٍ وَثيرَةٍ، وجَعَلَتْ تُحَدِّثُها وتَسْأَلُها عَن شُؤونِها. وما لَبِثَتْ داريا أَنْ حَدَّثَتْها عَن بَنيها وبَناتِها، وعَن تَوبَةِ زَوجِها، شَقيقِ أَنّا. وعَطَفَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ تَسْأَلُها عَن حَياتِها في الرِّيفِ وعَن مَدى شَوقِها إِلى ابْنِها سيرجَ.

وشاءَتْ أَنّا أَنْ تُحوِّلَ دَفَّةَ الحَديثِ، فقالَتْ: «لَكَمْ كُنْتُ أَتَمَنَّى لَو دَعَوْتُكُمْ إلى قَضاءِ بِضْعةِ أَيّامٍ مَعَنا في مَزْرَعَةِ فرونسكي...».

وتَصاعَدَ الدَّمُ بَغْتَةً إِلى وَجْهِها لَدى ذِكْرِها اسمَ عَشيقِها.

وأَجابَتْ داريا بِلِسانٍ مُتَلَعْثِمٍ دَلَّ على حَيرتِها: «هٰذا جَميلٌ ولٰكِنْ... ولٰكِنْ...».

وسارَعَتْ أَنّا تَقولُ: «إِنَّني أَهْذي، وأُرَدِّدُ أَقْوالًا لا تَتَحَقَّقُ، ولَعَلَّ زِيارتَكِ المُفاجِئَةَ جَعَلَتْني أَتَخلَّى عَن وَقاري. أَمّا ما أَوَدُّ أَنْ أُبيِّنَهُ لَكِ، فهْوَ أَنَّني امْرَأَةٌ اخْتارَتْ ما رَأَتْهُ مُناسِبًا لَها، حتَّى تَقْضِيَ أَيّامَها في عَيشٍ حُلْوٍ وبالٍ خِلْوٍ».

وجاءَ فرونسكي فاصْطَحَبَ المَرْأَتَينِ إلى الحَديقَةِ، ثُمَّ اسْتَقَلُّوا زَورَقًا صَغيرًا رادوا بهِ النَّهْرَ. وقَد سُرَّتْ داريا مِنَ المَناظِرِ الخَلّابَةِ الَّتي شاهَدَتْها، كَما أَنَّ فرونسكي وشَخْصِيَّتَهُ الجَذّابَةَ ساهَما كَثيرًا في مُضاعَفَةِ سُرورِها ومُتْعَتِها.

ولَمْ تَمْلِكْ، وهْيَ تَتَأَمَّلُ في الشَّابِّ، أَنْ ناجَتْ نَفْسَها بقَولِها: «إِنَّهُ نِعْمَ الشَّابُّ، جَميلٌ، كَيِّسٌ، حُلْوُ الشَّمائِلِ، ولا شَكَّ في أَنَّ أَنّا مَعْذورةٌ في تَعَلُّقِها بهِ».

ورَجَعوا مِنَ النَّهْرِ فجَلَسوا في الحَديقةِ ثُمَّ جاسوا خِلالَها. وانْتَهَزَ فرونسكي فُرصَةَ ابْتِعادِ أَنّا عَنْهُما فأَنْشَأَ يُحدِّثُ داريا ويَقولُ: «إِنَّكِ كَما أَثِقُ صَديقةٌ مُخْلِصةٌ لأَنّا، وتُقَدِّرينَ مَصاعِبَها، كَما تُقَدِّرينَ مَوْقِفَها الحَرِجَ بالنِّسبةِ إِلى المُجْتَمَعِ».

فقالَتْ داريا: «أَجَلْ، إِنّني صَديقةٌ ومُحِبَّةٌ، ولٰكِنْ...».

فقاطَعَها قائِلًا: «وأَشْعُرُ أَنّي المَسْؤولُ عَن كُلِّ ما لَحِقَ بأَنّا مِنْ مَكْروهٍ، وهٰذا يُضاعِفُ

هَمّي ويُضيفُ إلى حِمْلي أَثْقالًا كَثيرةً».

- «لا تَكُنْ مُسْرِفًا في التَّشاؤُمِ يا صَديقي؛ إِنَّكَ شَهْمٌ، بَيدَ أَنَّ غُلُوَّكَ في تَحَمُّلِ المَسْؤوليَّةِ خَطَأٌ لا يُسَوِّغُهُ شَيءٌ».

- «كلّا، بَل أَنا المَسْؤولُ، وأَنا المَلومُ. واعْلَمي أَنَّ أَنّا تَعيشُ في جَحيمٍ مِنَ الفِكْرِ؛ وإخالُكِ تَعْجَزينَ عَنْ إِدْراكِ ما تَتَرَمَّضُ فيهِ أَنّا مِنْ عَذابٍ، وخُصوصًا في الأَيّامِ القَليلةِ الَّتي قَضَيْناها في بطرسبرج».

- «بَيدَ أَنَّكُما غادَرْتُما بطرسبرج، وتَخَلَّصْتُما مِنْ تِلْكَ الهَمَساتِ المُجْرِمَةِ الَّتي فَتَحَتْ كُلومَ أَنّا ونَكَأَتْ جُروحَها. وإنْ أَنْتُما تَخَلَّيْتُما عَنِ المُجْتَمَعِ مِنْ دونِ أَنْ تَأْسَفا على ذٰلِكَ، حُزْتُما الرَّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ والهُدوءَ والاِسْتِقْرارَ».

- «أَصَبْتِ يا داريا، وأَصْدُقُكِ أَنَّ أَنّا قَد تَغَيَّرَتْ كَثيرًا مُنْذُ مَجيئِنا، وهْيَ تَبْدو الآنَ مُنْشَرِحةً مُغْتَبِطَةً. فهَل تَدومُ سَعادَتُها؟ وهَل يَتْرُكُنا النَّاسُ وشَأْنَنا؟ ثُمَّ، هَل نَسْتَطيعُ نَحْنُ أَنْ نَسْتَمِرَّ وأَنْ نُنْجِبَ الأَطْفالَ مِنْ دونِ أَنْ نُثيرَ ضَجَّةً حولَنا؟ وكَيفَ لَنا إِنْ فَعَلْنا أَنْ نَكْسُوَ أَطْفالَنا بالصِّفةِ الرَّسْمِيَّةِ، الصِّفَةِ الَّتي تُبْعِدُ عَنْهُمُ العارَ والشَّنارَ[1]؟ والقانونُ يا داريا، القانونُ عَقَبةٌ لا يَسَعُنا تَخَطِّيها. إنَّ لِيَ ابْنَةً مِن أَنّا لٰكِنَّها في نَظَرِ القانونِ ابْنَةُ أَلِكْسيس كارنين! وإِنْ انْجَبْنا غَدًا وَلَدًا آخَرَ، فهْوَ أَيْضًا ابنُ أَلِكْسيس كارنين، وهْوَ على ذٰلِكَ لا يَحْمِلُ اسْمي بَعْدَ مَوْتي ولا يَرِثُ مالي. «وإِنَّنا لَو أُوتينا مِنَ الهَناءِ اكْمَلَهُ، ومِنَ السَّعادَةِ أَتَمَّها، فسَيَنْقُصُنا دائِمًا أَمْرٌ، سنَفْتَقِرُ إلى الصِّلَةِ الرَّسْمِيَّةِ، الصِّلَةِ الَّتي أَوْجَبَتْها التَّقاليدُ، وجَعَلَتْ مِنْها حَقيقَةً مُعْتَرَفًا بها في كُلِّ مَكانٍ».

وتَأَوَّهَ فرونسكي، وصَمَتَ قَليلًا، ثُمَّ اسْتَتْلى: «أَنْتِ ولا شَكَّ تُقَدِّرينَ هٰذِهِ الوَضْعِيَّةَ. وإِنّي كُلَّما فاتَحْتُ أَنّا بهٰذِهِ المَسْأَلَةِ، تَتَأَجَّجُ نارُ غَضَبِها، فتَثورُ ثائِرَتُها. فأَنّا لا تَوَدُّ أَنْ تَرى الحَقيقةَ، وأَنا أُحِبُّها، لٰكِنَّ الحُبَّ لَيسَ كُلَّ شَيءٍ يَنْبَغي لرَجُلٍ مِثْلي أَنْ يُعْنى بِهِ في حَياتِهِ، بَل هُناكَ واجِباتٌ كَثيرةٌ يَليقُ بالرَّجُلِ أَنْ يَضْطَلِعَ بها. إِنّي وَجَدْتُ هٰذا العَمَلَ، وقَد وَجَدْتُهُ في هٰذا المَكانِ؛ ولٰكِنْ، أَلا تَرَيْنَ مَعي أَنَّ على الرَّجُلِ أَنْ يَضْمَنَ قَبْلَ مَوْتِهِ مَنْ يَرِثُهُ ويَحْمِلُ

(١) الشَّنارُ: العارُ، أَقْبَحُ العَيبِ.

اسمَهُ ولَقَبَهُ ؟ إنَّ هٰذا يَنْقُصُني يا سَيّدتي، وثِقي أَنَّهُ يُحْزِنُني كَثيرًا».

وصَمَتَ الشَّابُّ، وبانَ الحُزْنُ في تَقاطيعِهِ الوَسيمَةِ.

وأَجابَتْ داريا: «أَصَبْتَ، وإِنّي أُقِرُّكَ على كُلِّ ما أَبْدَيْتَ، لٰكِنّي لا أَجِدُ الوَسيلَةَ الكَفيلَةَ بوَضْعِ الأُمورِ في نِصابِها، فماذا برَبِّكَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْعَلَ؟ قُلْ، أَلَدَيْكَ رَأْيٌ وفِكْرةٌ؟»

قالَ: «أَجَلْ، على أَنّا أَنْ تَتَدَبَّرَ الأَمْرَ، عَلَيها أَنْ تَحْصُلَ على الطَّلاقِ، قَبْلَ أَنْ أَرْفَعَ إِلى القَيْصَرِ رَجائي بإِقْرارِ شَرْعِيَّةِ ابْنَتي وإِلْحاقِها بعائِلَتي بصفَةٍ رَسْمِيَّةٍ. ولا يَتَطَلَّبُ هٰذا الأَمْرُ جُهودًا كَثيرةً، فكارنينُ مُسْتَعِدٌّ لتَنْفيذِ الطَّلاقِ، ويَتَحَتَّمُ على أَنّا أَنْ تَطْلُبَ إِلَيهِ ذٰلِكَ في خِطابٍ تُرْسِلُهُ في القَريبِ العاجِلِ. قَد أَتَجَنّى عَلَيها إِنْ طالَبْتُها باتِّباعِ هٰذِهِ الخُطَّةِ، ولٰكِنْ لا بُدَّ مِمّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ، وأَرى أَنْ أُفَوِّضَ إِلَيكِ الأَمْرَ، فهَل تَتَحَدَّثينَ إِلَيها بهٰذا الشَّأْنِ؟ إِنَّ لَكِ دالَّةَ الصَّداقَةِ عَلَيها، فاخْتَلي بها وكَلِّميها».

قالَتْ: «سَأَفْعَلُ ذٰلِكَ، لَن أَتَأَخَّرَ».

قالَ: «أَشْكُرُ لَكِ عَطْفَكِ وإِخْلاصَكِ يا سيِّدتي».

* * *

في تِلْكَ اللَّيلَةِ، قَبْلَ أَنْ تَلوذَ داريا بفِراشِها، جاءَتْ أَنّا إِلى حُجْرتِها بمَلابِسِ النَّوْمِ، وجَلَسَتْ بجانِبِها. وكانَتْ قد أَعْرَبَتْ لَها قَبْلَ ذٰلِكَ عن رَغْبَتِها في التَّحَدُّثِ إِلَيها ساعَةَ تَخْلو إِحْداهُما بالأُخْرى.

فلَمَّا جاءَتْ في تِلْكَ الهَدْأَةِ مِنَ اللَّيلِ، احْتارَتْ في أَمْرِها ولم تَدْرِ مِنْ أَيْنَ تَبْدَأُ الحَديثَ. كانَ رَأْسُها مُفْعَمًا بالأَفْكارِ الَّتي أَزْمَعَتْ أَنْ تُفْضِيَ بها إِلى داريا، على أَنَّها ما كادَتْ تَخْلو إِلَيها حتَّى أُلْجِمَ لِسانُها واخْتَلَطَ تَفْكيرُها، فجَعَلَتْ تُحَدِّقُ أَمامَها، وتُحاوِلُ جاهِدَةً أَنْ تُرَكِّزَ تَفْكيرَها على نُقْطَةٍ واحِدَةٍ.

ورَأَتْ أَخيرًا أَنْ تَبْدَأَ بالسُّؤالِ عَن كاترينَ شَقيقةِ داريا، فتَساءَلَتْ هَل كاترينُ غاضِبَةٌ عَليها؟ وهَل هيَ تَكُنُّ لَها الكَراهِيَةَ والاِحْتِقارَ؟

وقَد أَجابَتْها داريا قائِلَةً: «إِنَّها تَكْرَهُكِ أَو تَحْتَقِرُكِ، غَيرَ أَنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الأُمورِ لا تُنْسى بسُرْعةٍ، ويَتَعَذَّرُ على الإِنْسانِ أَنْ يَغْتَفِرَها بسُهولَةٍ».

قالَتْ: «أَصَبْتِ، على أَنّي لا أُلامُ على ما حَصَلَ. ولا أَدْري مَنْ هُوَ المَلومُ؛ ولا أَدْري أَيْضًا إِنْ كانَ مِنَ الواجبِ أَنْ نَلومَ أَحَدًا. فانَّ ما حَدَثَ كانَ مُقَدَّرًا لَهُ أَنْ يَحْدُثَ كما كانَ مُقَدَّرًا لَكِ أَنْ تُصْبِحي زَوجةَ شَقيقي ستيفانَ».

قالَتْ: «قد تَكونينَ مُحِقَّةً في تَفْسيرِكِ، ولٰكِنَّ الإِنْسانَ ضَعيفٌ لا تَتَسَنَّى لَهُ مُعالَجةُ الأُمورِ بِمِثْلِ هٰذِهِ الطَّريقَةِ الفَلْسَفِيَّةِ».

– «وكيفَ تَعيشُ كاترينُ مَعَ زَوجِها؟ أَسعيدةٌ هِيَ مَعَهُ؟ أَمُوَفَّقَةٌ في زَواجِها بِهِ؟»

– «إِنَّها سَعيدَةٌ كُلَّ السَّعادةِ، وإِخالُ ليفينَ أَنْبَلَ رَجُلٍ عَرَفْتُهُ في حَياتي».

– «هٰذا مِن دَواعي سُروري يا عَزيزتي، فكاترينُ حَسْناءُ جَميلةٌ تَسْتَحِقُّ كُلَّ خَيرٍ».

– «دَعينا مِن حَديثٍ لا طائِلَ تَحتَهُ[1]، وأَخْبِريني عَن نَفْسِكِ، فقَد تَحَدَّثْتُ مَلِيًّا مَعَ فرونسكي اليَومَ، وطَرَقْنا مَوضوعًا حَسَّاسًا يَتَّصِلُ بكِ».

– «وما رَأْيُكِ فيَّ؟ ماذا تَرَينَ في حَياتي؟»

– «وهَل أَستَطيعُ أَنْ أَشْرَحَ مِثْلَ هٰذا المَوْضوعِ الشَّائِكِ بسُهولةٍ وارْتجالٍ؟»

– «لا تَهابي ولا تَفْزَعي، وقولي رَأْيَكِ الصَّريحَ بإِيجازٍ».

– «وَفِّري عَليَّ يا أَنّا ما لا أُحِبُّ أَنْ أَخوضَ فيهِ، وذَريني أُنْبِئْكِ بحَديثي مَعَ فرونسكي».

– «وماذا قالَ لكِ فرونسكي؟»

– «قالَ ما شَعَرْتُ بلُزومِهِ. قالَ ما هُوَ خَليقٌ بقَولِهِ. فهْوَ تَوَّاقٌ إِلى تَصْحيحِ الأَوْضاعِ، هُوَ تَوَّاقٌ إِلى بُلوغِ أَرَبِهِ في الزَّواجِ بكِ».

– «أَي يَطْلُبُ إِليَّ أَنْ أُحَقِّقَ الطَّلاقَ. وهَل تَظُنِّينَني لا أَطْمَحُ ببَصَري إِلى بُلوغِ هٰذهِ النَّتيجةِ؟ هَل يُخَيِّلُ إِلَيكِ أَنّي أُطيقُ مُواصَلَةَ هٰذِهِ الحَياةِ الشَّاذَّةِ بَعْدَ الَّذي امْتُحِنْتُ بهِ في بطرسبرج؟ لقد تَجَنَّبَني الجَميعُ هُناكَ ووَصَلَ الأَمْرُ ببتسي نَفْسِها، وهْيَ أَحَطُّ مَخْلوقةٍ على وَجْهِ الأَرْضِ، إِلى تَجَنُّبي والتَّهَرُّبِ مِنّي».

– «إِنَّ فرونسكي يا عَزيزتي مُتَوَجِّسٌ خائِفٌ، وهْوَ يَبْغي اسْتِكْمالَ سَعادَتِهِ في الزَّواجِ بكِ

---

(١) لا طائِلَ تَحْتَهُ: لا نَفْعَ فيهِ.

طَمَعًا في اسْتِردادِ اعْتِبارِكِ ورَغْبَةً في تَعْزيزِ وَضْعِيَّةِ ابْنَتِكِ».

– «على أَنّي أَكْثَرُ النِّساءِ خُضوعًا لهُ، فماذا يَبْغي أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ؟»

– «إِنَّ فرونسكي شَريفٌ مُخْلِصٌ وهْوَ يَرْبَأُ بنَفسِهِ عَنْ أَنْ تَرضى لَكِ بالِامْتِهانِ والشَّقاءِ، وفَوقَ ذٰلِكَ فهْوَ، شَأْنُهُ في ذٰلِكَ شَأْنُ كُلِّ أَبٍ، يَنْظُرُ إِلى المُسْتَقْبَلِ، ويَعْمَلُ لخَيرِ أَوْلادِهِ، أَلَيْسَتِ الفَتاةُ ابْنَتَهُ؟ ثُمَّ أَلا يَأْمُلُ في مَزيدٍ مِنَ الأَوْلادِ؟»

– «كَلّا، كَلّا... فهٰذا أَمْرٌ دونَهُ خَرْطُ القَتادِ! لَن أُنجِبَ أَطْفالًا آخَرينَ. لَقَد قالَ لِيَ الطَّبيبُ ذٰلِكَ وأَكَّدَهُ».

– «فما رَأْيُكِ في الطَّلاقِ إِذًا؟».

– «أَرْجو أَنْ تَكُفّي يا داريا عَنِ التَّلَفُّظِ بهٰذِهِ الكَلِمَةِ».

– «ولِمَ ذٰلِكَ؟ أَتُؤْلِمُكِ الصَّراحةُ؟»

– «كَلّا، ولٰكِنّي لا أَرى لمُشْكِلَتي مَخْرَجًا، إِنّي كالغَريقِ لا تَنْفَعُهُ قِطعةٌ مِنْ خَشَبٍ».

– «وَيْ! أَبِكِ وَعْكَةٌ أَمِ انْحَرَفَ تَفْكيرُكِ إِلى اتِّجاهٍ آخَرَ؟ أَلا تَطْلُبينَ الزَّواجَ مِن حَبيبِكِ؟ أَلا تَرْغَبينَ في ذٰلِكَ؟»

– «إِنَّها الأُمنِيَةُ الخالِدَةُ في نَفْسي، وإِنّي أُفَكِّرُ في هٰذا الأَمرِ آناءَ اللَّيلِ وأَطْرافَ النَّهارِ، ولا أَسْتَطيعُ إِلى النَّوْمِ سَبيلًا إِلّا مَتى تَعاطَيْتُ المُخَدِّرَ. غَيرَ أَنَّ كارنينَ عَدَلَ عن مَنْحى الطَّلاقَ، وذٰلِكَ بتَأْثيرِ تِلْكَ المَرْأَةِ الَّتي هَيْمَنَتْ عَلَيهِ وعلى مَنْزِلِهِ في الأَشْهُرِ الأَخيرَةِ».

ففَكَّرَتْ داريا قَليلًا وقالَتْ: «على أَنَّ هٰذا الِاحْتِمالَ لا يَمنَعُكِ مِنَ المُحاوَلَةِ».

– «إِنَّ كُلَّ مُحاوِلَةٍ مِنْ هٰذا النَّوعِ تَرجِعُ عَليَّ بالمَذَلَّةِ. فأَنا، حينَ أَكْتُبُ إِلَيهِ، أَكْتُبُ كارِهَةً مُرغَمَةً، وأَكونُ كالمَرْأَةِ الَّتي تَعْتَرِفُ بذَنْبِها. ولَو سَلَّمْنا جَدَلًا أَنَّهُ لم يَرْفُضْ، بَل لَبّى طَلَبي بداعٍ مِنَ الشَّهامةِ والشَّفَقَةِ، فأَيْنَ أَكونُ مِنَ ابْني؟ سأُحْرَمُ مِنْهُ، سَيُحالُ بَيني وبَينَهُ، وسَيُراضُ على احْتِقاري وذَمّي وثَلْبي ولَعْني. إِنّي أُحِبُّ سيرجَ وأُحِبُّ فرونسكي!»

وانْتَصَبَتْ واقِفةً، وراحَتْ تَذْرَعُ الغُرْفَةَ بخُطُواتٍ سَريعَةٍ تَدُلُّ على انْفِعالِها. ولَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَمَهَّلَتْ أَمامَ داريا، وقالَتْ وهْيَ تَحْدِجُها بنَظْرَةٍ بَرّاقةٍ: «إِنَّهُما الشَّخْصانِ اللَّذانِ أُحِبُّهُما وأُوثِرُهُما. إِنَّهُما الشَّخْصانِ اللَّذانِ أُفَكِّرُ فيهِما، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما يُحاوِلُ أَنْ يُقْصِيَ الآخَرَ

عن حَياتي. وأَنا أَعْلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أَنَّهُ يَتَعَذَّرُ عَلَيَّ نَيلُهُما مَعًا والحُصولُ عَلَيهِما في آنٍ واحِدٍ. وما دامَتْ هٰذِهِ الأُمْنِيَةُ بَعيدَةً كُلَّ البُعْدِ عَنّي، فلَمْ يَعُدْ لي في حَياتي هَدَفٌ أَو مَطْمَحٌ، ولْيَجْرِ ما يَجري، فلَسْتُ أُبالي».

- «أَنّا...».

- «إِنَّكِ طاهِرَةُ القَلْبِ يا داريا صافِيَةُ الإِحْساسِ، ومِنَ المُحالِ أَنْ تَفْهَمي ما أُقاسيهِ، مِنَ المُحالِ أَنْ تُدْرِكي ما أُعانيهِ. فاسْدُلي - ناشَدْتُكِ اللّٰهَ - سِتارًا على هٰذا الحَديثِ، ولا تَسْتَمِرّي، فقَد بَلَغَتْ روحي التَّراقِيَ».

وعادَتْ فجَلَسَتْ بجانِبِ داريا، وتَناوَلَتْ يَدَها بلُطْفٍ، وقَبَّلَتْ وَجْهَها، وأَنْشَأَتْ تَقولُ: «أَنْتِ مُسْتَغْرِقَةٌ في الفِكْرِ، وفِكْرُكِ عَميقُ الغَوْرِ؛ وأَخْشى أَنْ يَكونَ احْتِقارُكِ لي قَد تَضاعَفَ. فلا تَفْعَلي، لا تَحتَقِريني، فأَنا تاعِسةٌ عاثِرَةٌ، أَنا شَقِيَّةٌ لاغِبَةٌ[1]... أَنا امْرَأَةٌ وُجِدْتُ لأَشْقى، وما وُجِدْتُ إِلّا لأَموتَ شَقِيَّةً!»

وأَجْهَشَتْ أَنّا، ثُمَّ اسْتَخْرَطَتْ في البُكاءِ. وانْدَفَعَتْ خارِجةً، ووَلَجَتْ غُرْفَتَها، فجَرَعَتْ دَواءَها المُشْتَمِلَ على المورفينِ، وما لَبِثَتْ أَنِ اسْتَلْقَتْ على فِراشِها واسْتَسْلَمَتْ للرُّقادِ.

وقَفَلَتْ داريا في اليَومِ التّالي راجِعةً مِنْ حَيثُ أَتَتْ. رَجَعَتْ إِلى بَيتِ ليفينَ في قَرْيَتِهِ، وهْيَ تَحْمِلُ في ذِهْنِها مِنَ الذِّكْرياتِ ما لا يَزولُ أَو يُمْحى.

---

(١) لاغِبَةٌ: مُتْعَبَةٌ أَشَدَّ التَّعَب.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - في حديثِ فرونسكي مع داريا شَكوى وتأَلُّمٌ، وإِحساسٌ بقُبْحِ عاقبةِ ما فعَلَ. فهَل جاءَ إِحساسُهُ هذا مُتَأَخِّرًا؟ ولِمَ لم يُقَدِّرْ عاقِبةَ ما فَعَلَ قبلَ أَنْ يفعَلَ؟ حاوِلْ أَنْ تُعلِّلَ ما جَرى.

٣ - ما الدَّورُ الَّذي حاوَلَتْ داريا أَنْ تَلْعَبَهُ؟ وهَل نَجَحَتْ في ذلكَ؟ ولماذا؟

٤ - أَلا تَرى في محاولَةِ داريا هذهْ ردًّا لجميلٍ سابقٍ؟ وما هو؟

٥ - صرَّحَتْ أَنّا في هذا الفَصلِ بأَنَّ بتسي أَحَطُّ مَخْلوقةٍ على وَجْهِ الأَرْضِ، ومعَ ذلكَ كانتَ مَلْجَأَها ومَوْضِعَ سِرِّها. فما تَعْليلُ هذا وذاك؟

٦ - لم تَعُدْ أَنّا تنامُ جَيِّدًا. فإِلامَ لَجَأَتْ كَي تنامَ؟

٧ - ما الَّذي تَراه يُمَزِّقُ نفسَ أَنّا كارنينا في هذا الفَصْلِ من الرِّوايةِ؟ وهَل تَراها تَجِدُ السَّبيلَ إِلى الخلاصِ؟ وكيفَ؟

٨ - أَوْجِزْ مَضمونَ الفصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل السَّابع

تعاقَبَتِ الأَيَّامُ، ووَلَّى الصَّيفُ، وتَصَرَّمَ الخَريفُ، وانْقَضى جانِبٌ مِنَ الشِّتاءِ، وما بَرِحَ فرونسكي وأَنّا يُقيمانِ في الرِّيفِ، وما بَرِحا يَعيشانِ كما كانا يَعيشانِ مُنْذُ أَشْهُرٍ، ومِن دونِ أَنْ يَتَّخِذا الخُطْوَةَ الحاسِمَةَ الَّتي تُقَرِّرُ مَصيرَهُما.

وفي تِشْرينَ الثَّاني (نوفمبر) مِن ذٰلِكَ العامِ عُيِّنَ مَوْعِدُ الاِنْتِخاباتِ المَحَلِّيَّةِ في وِلايةِ كِزَنْسكي، حَيْثُ تَنْتَشِرُ أَمْلاكُ ليفينَ.وفرونسكي وأوبلنسكي وسِواهُمْ.

وقَدِ اهْتَمَّ الجَميعُ بهٰذا الحَدَثِ، وتَوافَدَ النَّاسُ إِلى الوِلايةِ مِنَ المُدُنِ الكُبْرى. وشاءَ فرونسكي أَنْ يَشْتَرِكَ في المَعْمَعَةِ مُؤَيِّدًا أَحَدَ المُرَشَّحينَ، وهْوَ صَديقٌ حَميمٌ لَهُ. وأَفْضى لأَنّا بما عَوَّلَ عَلَيهِ، غَيرَ أَنَّها عارَضَتْهُ بشِدَّةٍ ولم تَرْضَخْ لَهُ، وحَصَلَتْ بَينَ الِاثْنَينِ مُشادَّةٌ عَنيفَةٌ كانَ لَها أَسْوَأُ الأَثَرِ على فرونسكي.

وأَصَرَّ فرونسكي على الذَّهابِ، ولمّا سافَرَ وَدَّعَتْهُ أَنّا بهُدوءٍ لَمْ يَنْتَظِرْهُ، ولَمْ تَزِدْ على كَلِماتِ الوَداعِ إِلّا سُؤالًا لَبِقًا عَن مَوْعِدِ أَوْبَتِهِ، فتَجاهَلَ السُّؤالَ، وتَمَنَّى لَها أَنْ لا تَضْجَرَ مِنَ الوَحدةِ في أَثْناءِ غَيبتِهِ.

وذَهَبَ فرونسكي وهْوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ، ويقولُ: «لا، لا، كُلُّ شَيءٍ إِلّا هٰذا... إِنّي أُقَدِّمُ لها ما تُريدُ، وأُضَحّي مِن أَجْلِها بأَكْثَرَ ممّا تُريدُ ما خَلا حُرِّيَّتي واسْتِقْلالَ ذاتي».

غَيرَ أَنَّهُ كانَ يَعْلَمُ عَن يَقينٍ أَنَّ اشْتِراكَهُ في مَعْرَكَةِ الِانْتِخابِ كانَ في الحَقيقةِ بحافِزٍ مِنَ المَلَلِ الَّذي شابَ حياتَهُ في الرِّيفِ، وكذٰلِكَ بدافِعٍ مِن رَغبتِهِ في الظُّهورِ أَمامَ نَفسِهِ وأَمامَ أَنّا بمَظْهَرِ الرَّجُلِ الحَريصِ على حُرِّيَّتِهِ واسْتِقْلالِهِ.

وبَينا هُوَ في اليَومِ السَّادِسِ مُنْهَمِكٌ في الِاحْتِفالِ بفَوزِ صَديقِهِ، وقَدِ احْتَشَدَ قَومٌ كَثيرونَ في قاعةٍ كُبْرى، إِذْ برَسولٍ مِنْ قِبَلِ أَنّا يَأْتيهِ ويُعْطيهِ كِتابًا مِنْها.

وعَلِمَ فرونسكي قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ الكِتابَ أَنَّ أَنّا تُعَنِّفُهُ على امتِدادِ غَيبتِهِ، وتَطْلُبُ إِلَيهِ الرُّجوعَ مِنْ دونِ إِبْطاءٍ.

وكانَتِ الرِّسالةُ كما انْتَظَرَ أَنْ تكونَ، بَيدَ أَنَّهُ سَخِطَ على أَنّا وغَضِبَ. فقَد صيغَ الخِطابُ على نَحْوٍ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْتَمِلَهُ. فهْيَ تُخْبِرُهُ فيهِ أَنَّ طِفلَتَهُ مَريضَةٌ قَد يَتَخَرَّمُها المَوتُ... ولٰكِنَّها تَعْتِبُ عَلَيهِ بكَلامٍ صارِمٍ، وتَقولُ إِنَّها انْتَظَرَتْ مَقْدَمَهُ مِنْ دونِ جَدوى، وإِنَّها لا تَعْرِفُ أَيْنَ هُوَ! وقد راوَدَتْها نَفْسُها على البَحْثِ عَنهُ.

وقالَ يُخاطِبُ نَفْسَهُ: «طِفْلَتي في خَطَرِ المَوْتِ، وأَنّا مُهْتاجةٌ تَوَدُّ أَنْ تُقيمَ الدُّنْيا وتُقْعِدَها بَحْثًا عَنّي. وأَنا مُحتارٌ، أَجَلْ مُحْتارٌ... فإِلى أَيْنَ المَصيرُ؟ وما هِيَ النَّتيجةُ؟»

وناءَ كاهِلُهُ بهٰذا العِبْءِ، وبَرِمَ بَرَمًا شَديدًا، لٰكِنَّهُ رَأَى أَنَّهُ مُكْرَهٌ على العَودةِ مِن دونِ إِبْطاءٍ. وهٰكذا اسْتَقَلَّ القِطارَ في طَريقِ العَودةِ.

***

قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ فرونسكي في سبيلِهِ مُغْضَبًا، عَقِبَ المُخاصَمةِ الَّتي شَجَرَتْ بينَهُما، شَعَرَتْ أَنّا أَنَّها إِنِ اسْتَمَرَّتْ تَخْلُقُ لَهُ المَتاعِبَ كُلَّما أَعْرَبَ عن رَغْبتِهِ في السَّفَرِ، فسَيَأْتي ذٰلِكَ الوَقْتُ الَّذي تَفْقِدُهُ فيهِ إِلى الأَبَدِ؛ ولهٰذا عَزَمَتْ عَزْمًا أَكيدًا على ضَبْطِ مَشاعِرِها، وكَبْحِ جِماحِ غَيرتِها.

بَيدَ أَنَّهُ ما كادَ يُغادِرُها في ذٰلِكَ اليَومِ، ويُوَدِّعُها بتِلْكَ اللَّهجَةِ الجافَّةِ، ويَنْظُرُ إِلَيها تِلكَ النَّظْرَةَ القاسِيةَ حتَّى اسْتَعَرَتْ نارُ جُنونِها، فلَمْ تَقْوَ على كِتْمانِ ما بها، بَل ذَرَفَتْ دُموعًا غَزيرةَ التَّهْتانِ.

وأَيْقَنَتْ هِيَ أَنَّ نَظْرَتَهُ كانَتْ صَرْخةَ تَمَرُّدٍ، فهْوَ يَسْتَرِدُّ حُرِّيَّتَهُ، وهْوَ يُصِرُّ على استِعادَتِها. ولَهُ مِلْءُ الحَقِّ فيها، لَهُ كُلُّ الحَقِّ في الذَّهابِ والإِيابِ، ولَيسَ لَها أَنْ تَعْتَرِضَ وتَخْلُقَ لَهُ الشِّجارَ كُلَّما عَزَمَ على السَّفَرِ.

واسْتَعْرَضَتْ في مُخَيِّلَتِها ما جَرى بَينَهُما، وما وَقَعَ، ثُمَّ مَرَّتْ بتَفْكيرِها على كُلِّ صَغيرةٍ وكَبيرةٍ مِنْ تَصَرُّفاتِهِ مَعَها في الآوِنَةِ الأَخيرةِ، فأَيْقَنَتْ أَنَّ حُبَّهُ لَها قَد ذابَ، وأَنَّها تَفْقِدُهُ بِسُرْعَةٍ. وعلى الرَّغْمِ مِنْ ذٰلِكَ لَمْ تَدْرِ ما هِيَ صانِعَةٌ إِنْ خَلَتْ حَياتُها مِنْهُ. لَمْ تَدْرِ ما تَصْنَعُ!

وشَغَلَتْ نَفْسَها بأُمورٍ كَثيرةٍ حتَّى لا يُمِضَّها التَّفْكيرُ، وتَعاطَتْ كَمِّيَّاتٍ كَبيرَةً مِنَ المورفينِ المُخَدِّرِ في أَثْناءِ اللَّيلِ حتَّى يَخِفَّ أَلَمُها تَحْتَ تَأْثيرِ هٰذا العَقّارِ.

وقَرَّ رَأْيُها أخيرًا أَنْ تَفْعَلَ المُسْتَحيلَ لِلْحُصولِ على الطَّلاقِ مِنْ زَوجِها، فهٰذا أَسْلَمُ سَبيلٍ، وهْيَ متى استَعادَتْ حُرِّيَتَها اسْتَطاعَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ فرونسكي، واسْتَطاعَتْ بذٰلِكَ أَنْ تَحْتَفِظَ بهِ.

ومَضَتِ الأَيَّامُ ولَمْ يَرْجِعْ فرونسكي؛ وانْقَضَتْ سِتَّةُ أَيَّامٍ، فطارَتْ نَفْسُها شَعاعًا ولمّا أَصابَتْ طِفْلَتَها الحُمَّى انْهَمَكَتْ في العِنايةِ بها، بَيدَ أَنَّ ذٰلِكَ لم يَشْغَلْها عَن قَلَقِها وتَوَجُّسِها. وما عَتَّمَتْ أَنْ كَتَبَتْ لَهُ رِسالتَها المُقْتَضَبَةَ الجافَّةَ.

ولمّا جاءَها الرَّدُّ في اليَومِ التَّالي، وفيهِ اعْتِذارٌ رَقيقٌ، وأَسْبابٌ أَوْجَبَت تَأَخُّرَهُ، خالَجَها شُعورٌ بالنَّدَمِ شَديدٌ، وأَشْفَقَتْ أَنْ يَقْذِفَها لَدى أَوْبَتِهِ بتِلْكَ النَّظْرةِ المُخيفَةِ الَّتي رَمَقَها بها يَومَ سَفَرِهِ.

وأَحَسَّتْ أَنّا وحُزْنُها يَتَكاثَفُ أَنَّها أَمْسَتْ حِمْلًا ثَقيلًا على عاتِقِ فرونسكي، بَل كابوسًا شَديدًا يَضْغَطُ على صَدْرِهِ باسْتِمرارٍ.

بَيدَ أَنَّها لم تُقِمْ وَزْنًا كَبيرًا لهٰذا الأَمْرِ، بَل جَلَسَتْ في تِلْكَ اللَّيلَةِ المَوْعودَةِ، وقد تَزَيَّنَتْ بأَبْهى حُلَلِها، وأَقْبَلَتْ على كِتابٍ تَقْرَأُ فيهِ، وهْيَ تُصْغي لأَدْنى حِسٍّ[1]، فيُخَيَّلُ إِلَيها كُلَّما حَرَّكَتِ الرِّيحُ بابًا أَنَّ فرونسكي قد وَصَلَ، فتَهُبُّ واقِفَةً، ويَتَصاعَدُ الدَّمُ إلى وَجْهِها.

وجاءَ أَخيرًا، فارْتَعَدَ بَدَنُها، وانْبَهَرَ نَفَسُها، وخافَتْ مِنْ لِقائِهِ، كما خافَتْ مِنْ فِراقِهِ... ونَقَمَتْ في قَرارتِها على الطِّفلةِ، فقَدِ اسْتَرْجَعَتْ صِحَّتَها بسُرعَةٍ، ورُبَّما أَدْخَلَ إِبْلالُها[2] الرِّيبةَ في قَلْبِهِ، فنَسَبَ إِلَيها انْتِحالَ الأَكاذيبِ لحَثِّهِ على العَودَةِ.

فلَمّا سَمِعَتْ صَوتَهُ يُحَدِّثُ الخادِمَ، زَايَلَها كُلُّ شُعورٍ آخَرَ إِلَّا شُعورَ الحُبِّ والشَّوقِ، فهَرْوَلَتْ إِلَيهِ، وهَتَفَتْ باسْمِهِ مُحْتَفِيةً.

وسَأَلَها قَبْلَ أَن تَدْنُوَ منهُ عَنِ الطِّفْلةِ، فصَدَمَها السُّؤالُ، فقد كانَتْ تَوَدُّ مِن صَميمِ فُؤادِها

---

(١) الحِسُّ: الحَرَكَةُ والصَّوتُ الخَفِيُّ.

(٢) الإِبْلالُ: الشِّفاءُ مِنَ المَرَضِ.

أَنْ يَسْأَلَها قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ عَن نَفْسِها، وعَن حُبِّها.

ولَحَظَ هُوَ خَيبةَ الأَمَلِ الَّتي ارْتَسَمَتْ على أَماراتها، فتَدارَكَ الأَمْرَ وسَأَلَها عَن حالِها.

فانْبَسَطَتْ أَساريرُها، وتَناوَلَتْ يَدَهُ ووَضَعَتْها على قَلْبِها. فأَدْرَكَ ما تَعْنيهِ، وابْتَسَمَ وقالَ: «هٰذا مِن دَواعي جَذَلي يا أَنّا، إنَّ قَلْبَكِ يَخْفُقُ لي».

ورَمَقَها بنَظْرَةٍ مُتَأَمِّلةٍ مُتَفَحِّصةٍ، فخُيِّلَ إِلَيها أَنَّ في عَينَيهِ ثَلْجًا. واقْشَعَرَّ جِلْدُها، وارْتَعَدَتْ فَريصَتُها.

ولَمْ يرَ هُوَ ما أَصابَها، بَلْ مَضى يَنْظُرُ إِلى ضَفيرتِها، ووَجْهِها، وهِنْدامِها، فلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا الِاعْتِرافُ بأَنَّها أَجْمَلُ النِّساءِ وأَكثَرُهُنَّ فِتْنةً. ولٰكِنْ، أَلَمْ يَمَلَّها؟ أَلَمْ يَبْرَمْ بالحَياةِ مَعَها؟!

على أَنَّهُ اعْتَرَفَ في ما بَينَهُ وبَينَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لا يَزالُ كَلِفًا بِها مُولَعًا بشَخْصِها. ولِهٰذا اسْتَجابَ لِداعي المُتْعةِ، فقَضى مَعَها هَزيعًا مِنَ اللَّيلِ، وهُما يَلْهُوانِ ويَعْبَثانِ ويَتَناغَيانِ. وقَد حَرَصَتْ أَنّا في تِلْكَ السّاعاتِ على إِشْباعِ غُرورِ الرَّجُلِ في نَفْسِهِ، فطَفِقَتْ تَسْأَلُهُ عَن عَمَلِهِ، وعَن فَوْزِهِ في الِانْتِخاباتِ. كما أَنَّها حَرَصَتْ على مُعالجةِ المَواضيعِ الَّتي يَعْنيهِ أَمْرُها.

وسُرَّ فرونسكي، ورَجَعَ إِلَيهِ كَثيرٌ مِن حُبِّهِ لأَنّا. بَيدَ أَنَّها حَطَّمَتْ في لَحْظَةٍ ما بَنَتْهُ في ساعاتٍ، فقَد سَأَلَتْهُ عن وَقْعِ كِتابِها في نَفْسِهِ، وهَل أَغْضَبَتْهُ فيهِ لَهْجَةٌ صارِمَةٌ أَو كَلِمةٌ نابِيَةٌ؟

وقَطَّبَ فرونسكي ساعَةَ حَدَّثَتْهُ أَنّا بمِثْلِ هٰذا الكَلامِ، واعْتَرَفَ بأَنَّهُ اشْمَأَزَّ مِنَ الكِتابِ، وأَنَّهُ عَجِبَ للتَّناقُضِ الوارِدِ فيهِ. فهْي تُهيبُ بِهِ في أَوَّلِهِ أَنْ يَرجِعَ لأَنَّ ابنَتَهُ مَريضَةٌ، ثُمَّ تُخْطِرُهُ في نِهايَتِهِ بأَنَّها قادِمَةٌ للبَحْثِ عنهُ إِن تَخَلَّفَ...!

وشَعَرَتْ أَنّا بالكآبةِ. إِنَّهُ لَمْ يَصْفَحْ عَنها، فعَجَّلَتْ تَقولُ: «لٰكِنَّ الطِّفلةَ كانَتْ مَريضةً».

قالَ: «لا أَشُكُّ في هٰذا أَبَدًا».

قالَتْ: «بَلْ إِنَّكَ تَرتابُ وتَظُنُّ بِيَ الظُّنونَ».

قالَ: «كَلّا... كَلّا... إِنَّما أَنا أَحْيانًا آخُذُ عليكِ تَشَبُّثَكِ بأُمورٍ صَعْبةِ التَّحقيقِ؛ فثَمَّةَ واجباتٌ تَقْتَضيني التَّفَرُّغَ لَها، ولٰكِنَّكِ لا تَرْغَبينَ في أَنْ أَقومَ بواجِباتي! غَيرَ أَنّي أَرى أَنْ نَقْصِرَ الآنَ، ونَكُفَّ عَن هٰذا الكَلامِ».

- «ولماذا نَفْعَلُ هٰذا؟ لماذا لا نَتَحَدَّثُ فنَفْهَمَ ما اسْتَعْصى على الفَهْمِ؟»

- «قَد أضطَرُّ إلى السَّفَر إلى موسكو، فإذا حَصَلَ ذٰلِكَ ثارَتْ ثائِرَتُكِ. فلِمَ ذٰلِكَ؟ لماذا لا تَكْبَحينَ جِماحَ انْفِعالِكِ؟ ألا أَسْتَطيعُ أَنْ أَتمتَّعَ بحُرِّيَّتي؟»

- «أَراكَ سئِمْتَ الحَياةَ مَعي، وها أَنتَذا تَنْسِجُ على مِنْوالِ غيرِكَ، فتَنْتَحِلُ الأَعْذارَ لتُسافِرَ».

- «أَشَرَعْتِ مِن جَديدٍ تُلْصِقينَ التُّهَمَ يا أَنّا؟!»

- «واعْلَمْ أَنّي مُرافِقَتُكَ إلى موسكو إنْ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بالسَّفَرِ».

- «في هٰذا سُروري كُلُّهُ. بَيدَ أَنَّ عَلَينا قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ أَنْ نُسَوِّيَ الأَمْرَ، نُسَوِّيَهُ بحيثُ...».

فقاطَعَتْهُ: «بحيثُ تَسْتَقيمُ الحياةُ، أَلَيْسَ كذٰلِكَ؟ سأَسْعى إلى تَحقيقِ الأَرَبِ الأَكْبَرِ؛ سأَكْتُبُ إلى كارنين في أَمْرِ الطَّلاقِ. أَمّا الآنَ فثِقْ أَنّي ذاهبةٌ مَعَكَ إلى موسكو».

- «ولِمَ التَّهْديدُ، أَلا تَعْلَمينَ أَنّي أَكْثَرُ مِنكِ رَغْبَةً في ذٰلِكَ؟»

وابْتَسَمَ، والْتَمَعَتْ عَيناهُ؛ ولَمْ تَكُنْ نَظْرَتُهُ جامِدةً في هٰذِهِ المَرَّةِ، بَلِ انْطَوَتْ على شَيءٍ يَفوقُ الجُمودَ والبُرودَ، شَيءٍ يَتَعَدّاهُما ويَبُذُّهُما. انْطَوَتْ على كَراهِيةِ إنْسانٍ لآخَرَ، كَراهِيةٍ مَنْشَؤُها الاضْطِهادُ والإسْرافُ في الاضْطِهادِ... بَل مَنْشَؤُها التَّنْكيلُ بالمَشاعِرِ والأَحاسيسِ.

ورَأَتْ عَينَيهِ، رَأَتْ ما انْبَثَقَ مِنْهُما، فالْتاعَتْ وارْتاعَتْ؛ وفَهِمَتْ أَنَّ الحَظَّ وَلّى إلى غَيرِ رَجْعةٍ، وأَنَّ الحُبَّ ماتَ، ولَن يُبْعَثَ في قَلْبِهِ مَرَّةً أُخْرى.

لٰكِنَّها كَتَبَتْ إلى زَوجِها تَطْلُبُ الطَّلاقَ.

وفي آخِرِ تِشْرينَ الثّاني (نوفمبر) سافَرَتْ مَعَ فرونسكي إلى موسكو، وعَلِقَتْ تَنْتَظِرُ رَدَّ زَوجِها بفارِغِ الصَّبْرِ.

وعاشا في مَنْزِلٍ صَغيرٍ في موسكو، ولَبِثَتْ أَنّا تُمَنّي النَّفْسَ وتُعَلِّلُها بالفَرَجِ القَريبِ.

عَلِقَتْ تُحصي السّاعاتِ والأَيّامَ.

عَلِقَتْ تَحْلُمُ في اليَقَظَةِ والمَنامِ.

ورَأَتْ نَفْسَها زَوجَةً لفرونسكي.

ورَأَتْ نَفْسَها كما كانَتْ مِن قَبْلُ،

مُعَزَّزَةً مُكَرَّمةً مُبَجَّلَةً!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - أَتَرى أَنّا كارنينا على حَقٍّ في هَواجِسها وتَخَوُّفِها؟ عَلِّلْ ما تَذْهَبُ إِلَيهِ.

٣ - أَيَكونُ لعَدَمِ ارْتِباطها بفرونسكي بعَقْدٍ اجْتِماعيٍّ مَشروعٍ سَببٌ في ذلكَ، أَمْ تَرى غيرَ هذا؟ عَلِّلْ رأْيكَ.

٤ - نَرى أَنّا في هذا الفصلِ وفي غيرهِ غَيورًا مضْطَرِبَةً في غيابِ فرونسكي، حتَّى إذا حَضَرَ هَدَأَ اضْطِرابُها وهدَأَتْ غَيرَتُها. كَيفَ تُعَلِّلُ ذلك؟

٥ - أَلا تَرى في أَنّا امرَأَةً أَنانيَّةً كما بَدَتْ لكَ حتَّى الآنَ؟ عَلِّلْ رأْيكَ.

٦ - تُرى، أَأَفَلَ حبُّ فرونسكي أَمْ تَراهُ بَدَأَ بالأُفول؟

٧ - أَلا تَرى في ما تَرى نِهايةً طَبيعيَّةً لكُلِّ حُبٍّ عابرٍ وغيرِ مَشروعٍ؟ عَلِّلْ رأْيكَ.

٨ - سَبَقَ لأَنّا أَنَّها لم تأْبَهْ للطَّلاقِ، وأَنَّها حينَ أَوْشَكَتْ أَنْ تنالَهُ هَرَبَتْ مَعَ عَشيقِها، وها هِيَ الآنَ تَطْلُبُهُ بإِلْحاحٍ وتَرَقُّبٍ كبيرَينِ. كَيفَ تُعَلِّلُ هذا وذاكَ؟ حاوِلْ أَنْ تَرْبِطَ المَشاعرَ بأَسبابِها.

٩ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثَّامن

شاءَ القَدَرُ كما عَلِمْنا أَنْ يَقْتَرِنَ ليفينُ بكاترينَ. ومَعَ أَنَّ الفَتاةَ أُغْرِمَتْ بفرونسكي، أَبى هٰذا القَدَرُ العَجيبُ في آخِرِ لَحظَةٍ إِلَّا أَنْ يَجْمَعَ بينَ فرونسكي وأَنّا، فمَهَّدَ بذٰلِكَ لليفينَ طَريقَ السَّعادةِ والتَّوفيقِ.

وأَقْرَبَتْ[1] كاترينُ، وحانَ وَقْتُ الوَضْعِ، فغادَرَتِ المَزْرَعَةَ مَعَ زَوجِها إلى موسكو، لتَكونَ قَريبةً مِنْ أُمِّها، وليُشْرِفَ عَليها طَبيبُها الخاصُّ.

والْتَقَتْ ذاتَ لَيلةٍ فَتى أَحْلامِها الأَوَّلَ - فرونسكي - في بَيتِ صَديقَةٍ لَها. فلَمْ يَبْدُرْ مِنها ما يَنِمُّ عنِ انْفِعالِها، بَل حَيَّتْهُ وصافَحَتْهُ بهُدوءٍ وثِقَةٍ، كما لَو أَنَّها الْتَقَتْهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِها.

وشاءَتِ الأَقْدارُ أَنْ تَجْمَعَ في لَيلةٍ أُخْرى بينَ فرونسكي وليفين وستيفان أوبلنسكي شقيقِ أَنّا. وكانَ ليفينُ في تِلْكَ اللَّيلةِ كَريمًا سَمْحًا، وكانَ لَطيفًا إِلى أَقْصى حَدٍّ في حَديثِهِ مَعَ مُزاحِمِهِ في وَقْتٍ مَضى.

وقَد أَقْبَلَ ستيفانُ يُحَدِّثُ فرونسكي ويَسْأَلُهُ عَن شَقيقَتِهِ، ثُمَّ عَطَفَ على ليفينَ يقولُ مُتَسائِلًا: «أَوَلَمْ تَجْتَمِعْ بَعْدُ إِلى شَقيقَتي أَنّا؟ أَلَمْ تُحَدِّثْها في حَياتِكَ؟»

فأَجابَ ليفينُ: «كَلّا، وهٰذا لِسوءِ حَظِّي».

ونَهَضَ فرونسكي وهُوَ يقولُ: «فلْنَذْهَبْ إِلَيها إِذًا، سَتُسَرُّ بمَقْدَمِنا».

غَيرَ أَنَّ ليفينَ أَحَسَّ ببَعْضِ النَّدَمِ عِنْدَما اسْتَقَلَّ العَرَبَةَ مَعَ صاحِبَيهِ، وتَساءَلَ عَن وَقْعِ هٰذِهِ الزِّيارَةِ على زَوجَتِهِ، وهَل سَتُقِرُّهُ على عَمَلِهِ مَتى أَخْبَرَها بذٰلِكَ؟

وكَأَنَّ أَوبلنسكي فَطِنَ إِلى ما اعْتَمَلَ في قَلْبِ ليفينَ فسارَعَ يَقولُ كَيما يَصْرِفَهُ عَن

(١) أَقْرَبَتِ الحامِلُ: قَرُبَ وَقْتُ وِلادَتِها.

هَواجِسِهِ: «إنَّ مِنْ دَواعي فَخْري أَنْ تَجْتَمِعَ إلى شَقيقَتي أَنّا، وما أَكْثَرَ ما طَلَبَتْ داريا مِنّي أَنْ أَجْمَعَكَ بها! إنَّها امرَأَةٌ مُدْهِشَةٌ، ذَكِيَّةٌ، جَميلَةٌ، ولا أَشُكُّ في أَنَّكَ ستُعْجَبُ بها، على الرَّغْمِ مِن آلامِها وأَسْقامِها، وبنَوْعٍ خاصٍّ في هٰذِهِ الأَيّامِ».

- «ماذا تَعني بقَوْلِكَ؟»

- «أَعني أَنَّها تُكابِدُ الأَمَرَّينِ في السَّعْيِ وَراءَ غايَتِها، وبُلوغِ وَطَرِها، وإِقْناعِ زَوجِها بمَنْحِها حُرِّيَّتَها. لَقَد وافَقَ كارنينُ، إلّا أَنَّ العَقَبَةَ الكَأْداءَ القائِمةَ الآنَ هِيَ ابنُهُما سيرجُ. وما مِن سَبيلٍ كما أَرى إلى تَمهيدِ الطَّريقِ، وحَلِّ العُقْدَةِ العَسيرَةِ. إنَّ أَنّا لَن تَلْبَثَ أَنْ تتزَوَّجَ بفرونسكي مَتى صُودِقَ على طَلاقِها، لٰكِنَّ هٰذا أَمْرٌ يَطولُ، فالإجْراءاتُ مُضْنِيةٌ هُنا، تَمْتَدُّ وتَتَمَطَّطُ. بَل أَكادُ أَقولُ أَنَّها تَتَثاءَبُ مَعَ الزَّمَنِ. على أَنَّ الأُمورَ سَتَسْتَقيمُ عَقِبَ انتِهائِنا مِن هٰذِهِ الإجْراءاتِ».

- «إنَّها تَنْتَظِرُ الطَّلاقَ وتَعْمَلُ مِن أَجْلِهِ كما قُلْتَ، فماذا يُرْمِضُها إذًا؟ وماذا يُثْقِلُ عَلَيها ويَكُظُّها[1]؟»

- «النَّاسُ يا صَديقي. فالإِنْسانُ مُداهِنٌ مُنافِقٌ، وثِقْ أَنَّ أَعَزَّ صَديقةٍ لها قَد تَخَلَّتْ عَنها في مِحْنَتِها. ولِهٰذا آثَرَتْ أَنّا الِاحْتِجابَ والِانْزواءَ. فَهْيَ لا تُقابِلُ أَحَدًا، ولا تَجْتَمِعُ إلى أَحَدٍ، وأَكادُ أَجْزِمُ أَنَّها لا تُكَلِّمُ إلّا داريا زَوجَتي. والأَدْهى مِن ذٰلِكَ أَنَّها تَظُنُّ - وَهْيَ على حَقٍّ - أَنَّ كُلَّ امرَأَةٍ تَسْعى إلَيها، تَعُدُّ زِيارتَها مِن قَبيلِ العَمَلِ الإنْسانِيِّ. ومَعَ ذٰلِكَ فأَنّا صامِدَةٌ صابرَةٌ، تَنْتَظِرُ الفَرَجَ بقَلْبٍ عامِرٍ بالإيمانِ والحُبِّ».

«وما قَولُكَ بطِفْلَتِها، أَهيَ مُتَفَرِّغةٌ لَها؟»

-«كُلَّ التَّفَرُّغِ، تَرعاها رِعايَةً حَسَنَةً، وتُنْشِئُها أَفضَلَ تَنْشِئةٍ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّها أَديبةٌ وفنَّانَةٌ، وهْيَ مُكِبَّةٌ في هٰذِهِ الأَيَّامِ على تَأْليفِ بَحْثٍ ضافٍ عَنِ الطِّفْلِ والعِنايَةِ بهِ».

ونَظَرَ أوبلنسكي مَلِيًّا إلى ليفينَ، واسْتَأْنَفَ: «لا تَسْخَرْ مِن قَوْلي. لَقَد قَدَّمَتْ نُسْخَةً ممّا كَتَبَتْهُ إلى أَشْهَرِ أَديبٍ في موسكو، إلى «فوركيف» فأَبْدى إعْجابَهُ، وحَثَّ أَنّا على إتمامِ الكِتابِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ مُسْتَطاعٍ. لَقَد أَخْبَرَني هٰذا الأَديبُ أَنَّ أَنّا امْرَأَةٌ ذاتُ قَلْبٍ كَبيرٍ،

---

(١) يَكُظُّها: يَبْهَظُها، يَكْرُبُها، يُضَيِّقُ عَلَيها.

وعَقَّبَ يَقولُ: إنَّ القَلْبَ الكَبيرَ عِمادُ الأَدَبِ والفَنِّ».

- «وهَل تَبغي أَنّا المُضِيَّ في طَريقِ الكِتابَةِ والتَّأْليفِ؟»

- أَراكَ مُسْرِفًا في عَدَمِ التَّصْديقِ، أَلا فاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ كَلِمةٍ قُلْتُها لَكَ هِيَ الحَقيقةُ، واعْلَمْ كذٰلِكَ أَنَّ أَنّا تُحِبُّ الخيرَ، وتَعْمَلُ الخيرَ. ورُبَّ عائِلةٍ تَعيشُ في ضَنْكٍ[1]»، مَدَّتْ إِلَيها يَدَ المُساعَدَةِ؛ رُبَّ امْرِئٍ مُتْرِبٍ[2] مِسْكينٍ، أَقالَتْ عَثْرَتَهُ، وأَرْجَعَتْه إِلى سابِقِ مَكانتِهِ».

وبَلَغَتِ العَرَبَةُ الدَّارَ، فتَرَجَّلوا ودَخَلوا. وسَأَلَ ليفينُ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخرى وهْوَ يَعْبُرُ الدِّهْليزَ إِنْ كانَ مَجيئُهُ عَمَلًا لا غُبارَ عليهِ، وإِنْ كانَ يَليقُ بِهِ أَنْ يَؤُمَّ دارَ أَنّا كارنينا بَعْدَ كُلِّ ما فَعَلَتْهُ، وبَعْدَ أَنْ لاكَتِ الأَلْسُنُ اسمَها بكُلِّ ذَميمٍ مِنَ القَولِ.

ونَظَرَ في مِرْآةٍ كَبيرةٍ إِلى وَجْهِهِ، فبُهِتَ ممَّا رآهُ مِنِ احْمِرارِهِ. وتَقَدَّمَ في الدِّهْليزِ، ثُمَّ انْثنى وَراءَ أوبلنسكي وفرونسكي، فصَعِدَ في «دَرَجٍ» عَريضٍ فُرِشَ بالبُسُطِ. ولمّا دَخَلوا قاعَةَ اسْتِقْبالٍ مُتَوَسِّطَةَ الحَجْمِ، سَأَلَ فرونسكي عَن أَنّا، فأَخْبَرَهُ الخادِمُ أَنَّها مُنْهَمِكَةٌ في الحَديثِ مع «فوركيف» ناشِرِ كِتابِها.

وتَوَجَّهَ الثَّلاثَةُ إِلى المَكْتَبَةِ، لٰكِنَّ ليفينَ لم يَدْخُلْ وراءَ فرونسكي وستيفان أوبلنسكي، بَل جَمَدَ في مَكانِهِ وكأَنَّهُ سُمِّرَ إِلى الأَرْضِ ساعةَ لَمَحَ رَسْمًا كبيرًا مُعَلَّقًا على الحائِطِ.

ونَظَرَ ليفينُ مَشْدوهًا إِلى الصُّورَةِ الزَّيْتِيَّةِ الرَّائِعَةِ، وأَدْرَكَ للتَّوِّ أَنَّها لأَنّا. وكانَ أَحَدُ فَنَّاني إيطاليا قَد رَسَمَها لها في أَثْناءِ إِقامَتِها هُناكَ.

وسَرَّحَ ليفينُ طَرْفَهُ في الصُّورةِ ولَبِثَ يُحَدِّقُ إِلَيها، وكأَنَّ جاذِبًا مُمَغْنِطًا قَيَّدَ لَحْظَهُ.

كانَتِ الصُّورَةُ تَنْطِقُ كأَنَّها شَخْصٌ مِن لَحْمٍ ودَمٍ. كانَتِ الصُّورةُ لِسانًا يَتَكَلَّمُ ويَشْرَحُ؛ وكانَتْ كأَنَّ الحَياةَ تَنْبَعِثُ مِنها. ونَقَّلَ ليفينُ طَرْفَهُ مِنَ الوَجْهِ إِلى العُنُقِ إِلى الذِّراعَينِ، وآمَنَ ساعَتَئِذٍ أَنَّها أَجْمَلُ مَن وُجِدَ مِنَ النِّساءِ إِنْ كانَتْ نُسْخَةً صادِقَةً عَن صاحِبَتِها. فهَل هِيَ كذٰلِكَ؟ هَل لأَنّا مِثْلُ هٰذا الجَمالِ السَّاحِقِ؟!

وسَمِعَ صَوتًا ناعِمًا، ولٰكِنَّهُ لم يُعْنَ بالرَّدِّ. وأَعادَ الصَّوتُ الرَّخيمُ مُحاولتَهُ، فلم يَلْتَفِتْ

(١) في ضَنْكٍ: في ضيقٍ وشِدَّةٍ.
(٢) مُتْرِبٌ: شَديدُ الفَقْرِ.

ليفينُ.

وطَرَقَتْ سَمْعَهُ ضِحْكَةٌ خافِتَةٌ، فَأَجْفَلَ وانْثَنى يَنْظُرُ. ورَأى في تِلْكَ الوَهْلَةِ صاحِبَةَ الصُّورَةِ، رَأى الحَقيقةَ مُتَجَسِّمةً في جَسَدٍ حَيٍّ. فيا لَلْفِتنةِ! إِنَّها فاتِنةٌ حَقًّا. وأَحْنى لَها هامَتَهُ باحْتِرامٍ وتَبْجيلٍ، وآمَنَ أَنَّهُ لَمْ يَرْتَكِبْ خَطأً بقُدومِهِ!

ومَدَّتْ أَنّا لهُ يَدًا ناعِمةً رَخْصَةً، وصافَحَتْهُ بلَباقَةٍ، ثُمَّ تكَلَّمَتْ مَعَهُ بِضْعَ كَلِماتٍ. وما لَبِثَتْ أَنْ قَدَّمَتْهُ إِلى صَديقِها الكاتِبِ.

وأَيْقَنَ ليفينُ مِمّا لاحَظَهُ مِنْ حَرَكَتِها وإِشارَتِها، أَنَّها خَيرُ امْرَأَةٍ تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَصَرَّفَ وتَتَكَلَّمَ، وأَنَّها مِثالٌ رَفيعٌ لطِرازٍ أَرْفَعَ مِنَ النِّساءِ!

وسَمِعَها تَقولُ بصَوْتِها الحُلْوِ المُوسيقيِّ الجَرْسِ: «هٰذا شَرَفٌ عَظيمٌ.. قُدومُكَ أَفْرَحَني، فأَهْلًا بكَ وسَهْلًا. لَشَدَّ ما أَنا مُغْتَبِطَةٌ! وأَصْدُقُكَ أَنّي سَمِعْتُ بكَ وعَرَفْتُ شَخْصِيَّتَكَ مُنذُ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وإِنّي لأُعْجَبُ بكَ أَيَّما إِعْجابٍ. وما مَعْرِفَتي زَوجَتَكَ لِتَقِلَّ عَن مَعْرِفَتي إِيّاكَ، فهْيَ مِثالُ المَرْأَةِ الفاضِلَةِ، وإِنّي لأَكادُ أُكَذِّبُ سَمْعي، فهَل أُصَدِّقُ أَنَّ زَهْرَةً ككاترينَ تَغْدو أُمًّا في مِثْلِ هٰذِهِ العُجالةِ!»

* * *

وكانَتْ أَنّا في أَثْناءِ ذٰلِكَ تَنْظُرُ إِلى ليفينَ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ بناظِرَيها إِلى أوبلنسكي وفرونسكي. وأَصْغى ليفينُ، وزالَتْ رَهْبَتُهُ، فشَعَرَ كَأَنَّهُ يَعْرِفُ المَرْأَةَ الفاتِنَةَ مُنذُ سِنينَ وسِنينَ. وانْبَسَطَتْ أَساريرُهُ، فأَصاخَ لَها مُعْجَبًا مُنْشَرِحًا.

وقالَ أوبلنسكي مُوَجِّهًا الحَديثَ إِلى ليفينَ: «وما رَأْيُكَ في هٰذا الرَّسمِ الزَّيتِيِّ يا صَديقي؟»

فالْتَفَتَ ليفينُ إِلَيهِ، ثُمَّ أَحَدَّ بَصَرَهُ ثانيةً إِلى الصُّورةِ، وما أَبْطَأَ أَنْ قالَ: «الحقُّ يُقالُ إِنَّها لَوحَةٌ قَلَّما وُجِدَ مِثْلُها في إِتْقانِها ورَوْعَتِها وطولِ باعِ راسِمِها، ولاسِيَّما أَنَّ الشَّبَهَ عَظيمٌ إِلى دَرَجَةٍ مُذْهِلةٍ بَينَها وبَينَ الاصْلِ!»

واسْتَدارَ نَحْوَ أَنّا وجَعَلَ يُحَدِّقُ إِلى مُحَيّاها، وكأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَلْتَهِمَ هٰذا المُحَيّا بعَينَيهِ!

وتَشَعَّبَ الحَديثُ، وصالَ ليفينُ وجالَ في مَيادينِ الفَنِّ مِنْ رَسْمٍ وشِعْرٍ ونَثْرٍ.. ودُهِشَتْ

أَنّا، وأُعْجِبَتْ بالرَّجُلِ، وبانَ مَيْلُها إِلَيهِ بوُضُوحٍ في أَساريرِها.

وغابَ عَن ليفينَ ما كانَ يَخْشاهُ، ولم يَعُدْ يَذْكُرُ إِلَّا شَيئًا واحِدًا، لم يَعُدْ يَذْكُرُ إِلَّا وُجودَهُ مَعَ هٰذِهِ الإِلٰهَةِ.

واسْتَأْذَنَتْهُمْ أَنّا في الخَلْوَةِ بَعْضَ الوَقْتِ بشَقيقِها، فدَلَفَ ليفين وفرونسكي إِلى القاعةِ، وذَهَبَتْ هِيَ مَعَ ستيفانَ إِلى مَكانٍ آخَرَ.

وتَساءَلَ ليفينُ عَمّا يَتَحَدَّثُ الشَّقيقُ مَعَ شَقيقَتِهِ. تُرى، أَتُحَدِّثُهُ عنهُ، أَمْ عَن فرونسكي حَبيبِها؟

ثُمَّ اجْتَمَعَ شَمْلُهُم ثانيَةً، وتَناوَلوا مَعًا شَرابَ الشّايِ السّاخِنَ. وكانَ ليفينُ طيلةَ الوَقْتِ يَتَأَمَّلُ أَنّا، ولا يَوَدُّ أَنْ يَرْفَعَ عَينَيهِ عَن وَجْهِها.

وقَد لامَ نَفْسَهُ على ما تَهَوَّرَ فيهِ قَبْلَ اليَومِ مِن إِصْدارِ الحُكْمِ القاسي على هٰذِهِ المَرْأَةِ الرّاجِحَةِ العَقْلِ. وراحَ يُسَوِّغُ عَمَلَها في باطِنِهِ ويَخْلُقُ لها المَعاذيرَ، بَل إِنَّهُ أَحَسَّ بالشَّفَقَةِ عَليها، ووَدَّ مِن صَميمِ قَلْبِهِ لَوِ اسْتَطاعَ أَنْ يَمُدَّ لها يَدَ المُساعَدَةِ. وقَد حَدَّثَ نَفْسَهُ قائِلًا: «أَوَيَفْهَمُها فرونسكي على حَقيقَتِها؟ أَوَيُقَدِّرُ ذَكاءَها، ورِقَّتَها، وشُعورَها المُرْهَفَ، وإِحْساسَها المَصْقولَ؟»

وذَهَبَ الأَصْدِقاءُ بَعْدَ ساعَةٍ، وصافَحَ ليفينُ أَنّا فاسْتَبْقَتْ راحَتَهُ في يَدِها، وضَغَطَتْ عَليها قَليلًا، ثُمَّ أَطْلَقَتْها، وقالَتْ وعَيناها تَنْطِقان بما يُخالِجُ صَدْرَها: «لَقَد أَدْخَلْتَ على قَلْبي المَسَرَّةَ والأَمَلَ يا سَيِّدي، وأَصْدُقُكَ أَنَّ قُدومَكَ كانَ كقَطْرِ النَّدى! وأَرْجو مِنكَ أَنْ تَصِفَ لِزَوجَتِكَ العَزيزةِ حُبّي وتَقْديري وإِعْجابي. بَلِّغْها رَأْيي فيها، وأَخْبِرْها بأَنَّها إِنْ لَمْ تَجِدْ في نَفْسِها المَقْدِرةَ على نِسيانِ ذَنْبي وزَلَّتي، فلَن أُلِحَّ عَلَيها في ذٰلِكَ، لأَنَّ الإِنْسانَ ما لَمْ يَمُرَّ بظُروفٍ قاسيةٍ كالَّتي عَرَضَتْ لي في حَياتي، فلَن يُقَدِّرَ قيمةَ المَغْفِرَةِ، ولَن يَعْلَمَ أَنَّهُ يَتَحَتَّمُ عَلَيهِ أَنْ يَغْفِرَ».

فطَأْطَأَ ليفينُ رَأْسَهُ، وأَجابَ بصَوتٍ رَقيقٍ: «لَن أَنْسى قَولَكِ، وسأَنْقُلُ كَلِماتِكِ إِلَيها يا سَيِّدتي».

واسْتَمَعَ فرونسكي، ولاذَ بالصَّمْتِ. اسْتَمَعَ ورَأَى، لٰكِنَّهُ لَمْ يَنْبِسْ ببِنْتِ شَفَةٍ، وكانَ

يُفَكِّرُ، وكانَ يُمْعِنُ في التَّفْكيرِ وكانَ يُحَدِّقُ، وكانَ يُطيلَ التَّحْديقَ. ولَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ ما كانَ يَجولُ في ذِهْنِهِ، وما كانَ يَراهُ بعَينِهِ.

ولمّا خَرَجَ ليفينُ وأوبلنسكي، صَحِبَهُما فرونسكي مِن دونِ أن يَعْبَأَ بنَظْرةِ أَنّا الغَضْبى المُتَسائِلةِ!

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - فيمَ كانَ هذا الفَصْلُ مِنَ الرِّوايةِ؟ ما الحَدَثُ الجَديدُ فيهِ؟ وهَل دَعَّمَ هذا الحَدَثُ الجَديدُ حَبْكَةَ الرِّوايةِ؟ وكَيفَ؟

٣ - ما زالَتْ أَنّا تَلْهَثُ وَراءَ الطَّلاقِ. فهَل تَراهُ قَريبَ المَنالِ؟ ولماذا؟

٤ - ما الأَثَرُ الَّذي تركَتْهُ رُؤيَةُ أَنّا في نَفْسِ ليفين؟

٥ - أَنّا في هذا الفَصْلِ مُؤَلِّفَةٌ تُفاوِضُ ناشِرًا. فهَل تَراها جِدِّيَّةً في ذلكَ؟ وهَل تَتَوَقَّعُ لها أَنْ تُصبحَ في مَصافِّ المُؤَلِّفينَ الكبارِ؟ ولماذا؟

٦ - تُرى، أَفي هٰذا الفَصْلِ تَبْريرٌ لما فَعَلَهُ فرونسكي يَومَ الْتَقى أَنّا كارنينا في الحَفْلَةِ الَّتي أُقيمَتْ في دار آل شرباتسكي، أَمْ إِنَّ لكَ رأْيًا آخرَ في هذا الإِطنابِ الكبيرِ في وَصْفِ مَحاسنِ أَنّا ومفاتنِها وذَكائِها؟ أَوْضِحْ ما تذهَبُ إِليهِ.

٧ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصْلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل التَّاسع

إسْتَقَلَّ ليفينُ عَرَبَةً بمُفْرَدِهِ، وتَوَجَّهَ إلى بَيتِهِ. وشَخَصَ إلى الأَمامِ، وكأَنَّهُ يَرى في ظَهْرِ الحُوذِيِّ أُمورًا كَثيرةً!

وطَفِقَ يُرَدِّدُ وهْوَ يُفَكِّرُ: «سَقْيًا لَها... إنَّها امْرَأَةٌ رائِعةٌ، بَل إنَّها ضَوءٌ ساطِعٌ باهِرٌ! إنَّها نادرةُ المِثالِ، جَوهَرَةٌ فَريدَةٌ يَتيمَةٌ!»

واسْتعادَ ما قالَتْهُ، وأَغْمَضَ عينَيهِ، وجَعَلَ يَتَذَكَّرُ صَوتَها العَذْبَ، ويُقارِنُ بَينَهُ وبَينَ لَحْنٍ موسيقيٍّ يَضْرِبُهُ فَنَّانٌ على الوَتَرِ. وأَشْفَقَ عَلَيها. لَقَد لامَها في ما سَبَقَ، أَمّا اليَومَ فهْوَ يَحْنو عَلَيها ويَرْثي لحالِها.

وتَرَجَّلَ مِنَ العَرَبةِ أَمامَ بَيتِهِ. ولَمّا دَخَلَ أَجْفَلَ ممّا رآهُ مِن اضْطِرابِ زَوجتِهِ وقَلَقِها. وقَد أَخْبَرَتْهُ، وهْيَ مُقَطِّبَةٌ مُنْفَعِلةٌ، أَنَّها انْتَظَرَتْ حُضورَهُ طَويلًا مِن دونِ جَدْوى. وتَفَرَّسَتْ في أَماراتِهِ، فرابَها فيها انْبِساطٌ عَجيبٌ، كما رابَها مِنْ نَظْرتِهِ وَمْضةٌ خاطِفةٌ تَأْتي وتَذْهَبُ، وكأَنَّها الفِكْرُ الطارِئُ يُلِمُّ بالعَقْلِ على دُفُعاتٍ! وما عَتَّمَتْ أَنْ قالَتْ: «وأَيْنَ كُنْتَ؟ أَيْنَ قَضَيتَ هٰذا الوَقْتَ؟»

وصَمَتَتْ كي لا تُخيفَهُ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ مُشَجِّعَةً، وكأَنَّها تُطَمْئِنُهُ وتَحُثُّهُ على الِاعْتِرافِ.

فلَمْ يَكُنْ مِنهُ إلَّا أَنْ أَطْلَعَها على اجْتِماعِهِ بفرونسكي، وما تَبادَلاهُ مِنْ حَديثٍ، ثُمَّ على اجْتِماعِهِ بأوبلنسكي، وإلْحاحِ الأَخيرِ عَليهِ في الذَّهابِ مَعَهُ إلى مَنْزِلِ أَنّا.

وتَصاعَدَ الدَّمُ إلى وَجْهِهِ عِندَما ذَكَرَ الاسْمَ، وأَيْقَنَ في تِلْكَ اللَّحْظةِ أَنَّهُ ارْتَكَبَ خَطَأً فاحِشًا بذَهابِهِ إلى ذٰلِكَ المَنْزِلِ.

وجَحَظَتْ عَينا كاترينَ، وحَدَجَتْهُ بنَظْرَةٍ نارِيَّةٍ. لَقَد ذَهَبَ إذًا إلى مَنْزِلِ أَنّا كارنينا.

واسْتَعادَتِ المَرْأَةُ الأَريبةُ[1] رَباطَةَ جَأْشِها، وكَتَمَتْ ما جاشَ في صَدْرِها، ورَمَقَتْهُ بنَظْرَةٍ هادِئَةٍ، وكأَنَّها تَقولُ: «اسْتَمِرَّ... اسْتَمِرَّ... قُلْ كُلَّ شَيءٍ».

واسْتَتْلى ليفينُ: «وأَنا إِذْ لَبَّيْتُ رَجاءَ ستيفان أُوبلنسكي، كُنْتُ على يَقينٍ مِنْ أَنَّكِ لَن تَغْضَبي، لوُثوقي مِنْ رَجاحَةِ تَفْكيرِكِ، واعْتِزازي برُكونِكِ إِليَّ وإِلى حِرْصي وشَرَفي وحُبِّي...».

قالَتْ: «وكَيفَ أَلْفَيْتَها؟»

قالَ: «إِنَّها على جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ الحُسْنِ والدَّماثةِ... إِنَّها شَقِيَّةٌ وأَرْثي لَها مِنْ كُلِّ قَلبي».

وأَفاضَ في شَرْحِ المُقابَلةِ، ثُمَّ حَدَّثَها عَنِ الصُّورةِ الرَّائِعَةِ وعَنِ الشَّبَهِ العَظيمِ بينَ الأَصْلِ والتَّقْليدِ. وما لَبِثَ أَنْ نَقَلَ إِلَيها كَلِماتِ أَنّا لَها.

وقالَتْ كاترينُ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِن حَديثِهِ: «أَجَلْ، إِنَّها امْرَأَةٌ طَيِّبَةٌ، ولٰكِنَّها كما قُلْتَ، تَسْتَحِقُّ الرِّثاءَ والشَّفَقَةَ».

ولمّا رَكَنَ ليفينُ إِلى عَودةِ المِياهِ إِلى مَجاريها ورَأَى مِنْ زَوجتِهِ اتِّزانًا وتَفَهُّمًا، قَبَّلَها في جَبينِها ودَخَلَ إِلى مَخْدَعِهِ، فخَلَعَ ثِيابَهُ، واسْتَبْدَلَ بها مَلابِسَ النَّومِ.

وعادَ أَدْراجَهُ فدَنا مِنْها، ولٰكِنَّهُ أَجْفَلَ ممّا رآهُ في عَينَيها. فتَرَيَّثَ، وحاوَل أَنْ يَتَكَلَّمَ، غَيْرَ أَنَّها تَمَلْمَلَتْ في مَكانِها، وبَكَتْ.

ولَهَفَتْ نَفْسُ ليفينَ، فأَقْبَلَ عَلَيها يَقولُ: «على رِسْلِكِ يا كاترينُ... ماذا أَلَمَّ بكِ؟ لِمَ تَبكينَ؟»

فأَجابَتْهُ وهْيَ لا تَزالُ تَشْرِقُ بالدَّمْعِ: «لَقَد وَقَعْتَ في حَبائِلِها، في حَبائِلِ أَنّا، تِلْكَ المَرْأَةِ الشَّيْطانِ، تِلْكَ الأُنْثى الَّتي خَلَعَتِ العِذارَ وارْتَكَبَتِ المَعاصِيَ!»

فصاحَ ليفينُ بصَوتٍ مُتَهَدِّجٍ: «أَقْلِعي... أَقلِعي... باللّٰهِ عَلَيكِ أَنْ تَكُفِّي عن كَلامٍ لا طائِلَ تَحْتَهُ».

---

(١) الأَريبَةُ: الماهِرَةُ البَصيرَةُ.

قالَتْ: «أَجَلْ، لَقَد كَلِفْتَ بها وشُغِفْتَ، وإِنّي أَقْرَأُ ذٰلِكَ في عَينَيكَ؛ إِنّي أَرى كُلَّ شَيءٍ، ولا أَجِدُ مَفَرًّا مِنَ السَّفَرِ. سأُسافِرُ غدًا، سأُسافِرُ غدًا، سأَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ».

وبَذَلَ ليفينُ جُهْدَهُ ليُخَفِّفَ عَنْها، وأَفْرَغَ وُسْعَهُ في إِقْناعِها بأَنَّهُ لا يُحِبُّ سِواها، وأَنَّ شُعورَهُ نَحْوَ أَنّا كانَ بحافِزٍ مِنَ الشَّفَقَةِ، فقَطْ! ولمّا هَدَأَتْ ثائِرَتُها، ولانَتْ بَعْدَ غَيظٍ، وَعَدَها بأَلّا يَزورَ أَنّا مَرَّةً أُخْرى، زاعِمًا أَنَّ مَيْلَهُ الَّذي شَعَرَ بِهِ أَخيرًا إِلى حَياةِ اللَّهْوِ والشُّرْبِ كانَ نَتيجةَ تَفَرُّغِهِ وتَبَطُّلِهِ وبُعْدِهِ عن قَرْيتِهِ.

ومَضَتِ السَّاعاتُ، وعادَتِ المِياهُ إِلى مَجاريها بَينَ الزَّوجَينِ، ونامَتْ كاترينُ قريرةَ العَينِ مُطمَئِنَّةً إِلى زَوجِها وإِخْلاصِهِ. ونامَ هُوَ مِن دونِ أَنْ يُفَكِّرَ في شَيءٍ.

وفي الصَّباحِ، اسْتَفاقَتْ كاترينُ وقَد جاءَها المَخاضُ، ووَضَعَتْ مَوْلودًا ذَكَرًا. فطارَتْ نَفْسُ ليفينَ فَرَحًا، ونَسِيَ أَنّا، ونَسِيَ كُلَّ شَيءٍ يَتَعَلَّقُ بها، وما عادَ يُفَكِّرُ إِلَّا في وَليدِهِ، في ابْنِهِ.

* * *

إِبْتَسَمَتْ أَنّا ساعَةَ انْفَرَدَتْ بنَفْسِها، فقَد فَهِمَتْ مِن نَظَراتِ ليفينَ وكَلِماتِهِ أَنَّهُ وَقَعَ في حَبائِلِها، فسُرَّتْ واغْتَبَطَتْ. فهْيَ إِذًا ساحِرةٌ كما كانَتْ في كُلِّ حينٍ، وإِلَّا لَما تَسَنَّى لَها التَّأْثيرُ في ليفينَ والسَّيطَرةُ على حَواسِّهِ ومَشاعِرِهِ.

وأَنّا، والحَقُّ يُقالُ، لم تُعْجَبْ برَجُلٍ بَعْدَ تَعَلُّقِ قَلْبِها بفرونسكي؛ لٰكِنَّ ليفينَ وَقَعَ في نَفْسِها مَوْقِعًا حَسَنًا. ومَعَ أَنَّهُ لا يُشْبِهُ فرونسكي في شَيءٍ، فهْوَ يَفْتَرِقُ عنهُ في ناحيةٍ غامِضةٍ مِن نَفْسِهِ. وهٰذا ما جَعَلَها تَميلُ إِلَيهِ كما مالَتْ إِلى فرونسكي مِن قَبْلُ.

فلمّا ذَهَبَ نَسِيَتْ أَمْرَهُ، وأَنْشَأَتْ تُناجي نَفْسَها وتَقولُ: «ما دمْتُ مالِكةً فِتْنتي وسِحْري، وما دمْتُ مُتَمَكِّنةً مِن قُوَّةِ تَأْثيري في الرِّجالِ، سَواءٌ مِنْهُمُ العُزَّابُ والـمُتَزَوِّجونَ، لماذا أَشْعُرُ بفرونسكي يَتَحَرَّرُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا مِن قَبْضَتي؟ إِنَّهُ يُحِبُّني، ولا أَشُكُّ في حُبِّهِ أَبَدًا؛ بَيدَ أَنَّ هُناكَ سِرًّا أَشْعُرُ مَعَهُ بأَنَّ حُبَّهُ أَخَذَ يَفْتُرُ، وأَنَّ النُّفورَ يَنْمو بَينَنا ويَكْبُرُ».

ودَمَعَتْ عَيناها، لٰكِنَّ قَرْعَ البابِ أَرْجَعَ إِلَيها نَفْسَها الشَّارِدةَ.

لَقَد قَفَلَ فرونسكي راجِعًا، وجَفَّفَتْ دَمْعَها على عَجَلٍ، وتَصَنَّعَتِ الإِكْبابَ على القِراءةِ،

حتّى لا يَلْحَظَ شَيئًا مِنْ حَيرَتِها وحُزْنِها، وحتّى لا يَفْطَنَ إلى حَقيقةِ مَشاعِرِها.

وبَعْدَ أَنْ حَيَّاها ابْتَدَرَها بالسُّؤالِ عَن رَأْيِها في ليفينَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيها يُحَدِّثُها عَن مُغامَرَةِ الأَميرِ ياشفينَ في النّادي، وتَكَبُّدِهِ الخَسارةَ الفادِحةَ في المَيْسِرِ بَعْدَ أَنْ رَبِحَ مَبْلَغًا طائِلًا.

فهَتَفَتْ في صَوتٍ مُفْعَمٍ بالتَّأْنيبِ: «ومَنْ طَلَبَ إلَيكَ أَنْ تَبْقى؟ لِمَ تَجَشَّمْتَ المَكْثَ مَعَهُ؟ أَلِكَي تَتَأَخَّرَ عَنِ الأَوْبَةِ؟ أَلِكَي تَتْرُكَني وَحيدةً لا يُؤْنِسُ وَحْدتي إنْسانٌ؟»

فانْقَبَضَتْ أَساريرُهُ وأَجابَ: «أَنا حُرٌّ في ما أَفْعَلُ يا أَنّا، فلا تُحاوِلي أَنْ تُقَيِّدي حُرِّيَّتي!»

وراجَعَ نَفْسَهُ وابْتَسَمَ، وكأَنَّهُ يَبْغي وَضْعَ حَدٍّ للمُشاجَرَةِ الّتي بَدَتْ طَلائِعُها، فمَدَّ لها يَدَهُ، ودَنا مِنها. فسَرَّتْها حَرَكَتُهُ، لٰكِنَّها انْكَمَشَتْ على نَفْسِها مُتَجَهِّمةً، وكأَنَّ نَفْسَها ظَمِئَتْ إلى الشِّجارِ، أَو كأَنَّها ارْتاضَتْ على تَبادُلِ التُّهَمِ، وتَأْريثِ[1] نيرانِ الخِصامِ.

ولمّا رَأى ازْوِرارَها انْثَنى إلى ناحِيةٍ ثانيةٍ بنَظَرِهِ وجَسَدِهِ، كَيْلا تَرى ما كَسا وَجْهَهُ.

وعادَتْ أَنّا تَقولُ باللَّهْجةِ العاتِبَةِ العاذِلَةِ نَفْسِها: «أَنْتَ حُرٌّ، لا شُبْهةَ في ذٰلِكَ، لٰكِنَّكَ أَخَذْتَ في المُدَّةِ الأَخيرَةِ تَنْتَهِزُ كُلَّ فُرْصَةٍ لتَذْكيري بحَقِّكَ في حُرِّيَّتِكَ».

وصَمَتَتْ وكأَنَّها تَسْتَعيدُ دَرْسًا، واسْتَأْنَفَتْ بَعْدَ قَليلٍ: «أَنتَ عَنيدٌ، وهٰذا ما يُعَكِّرُ صَفْوَ الجَوِّ بَينَنا. أَنتَ أَنانيٌّ تَرْغَبُ في كُلِّ حينٍ أَنْ تُنَفِّذَ إرادتَكَ... فأَنْتَ إذًا قاسي الفُؤادِ لأَنَّكَ لا تَشْعُرُ مَعي، ولا تُقَدِّرُ مَوْقِفي. إنَّني أَقِفُ على جَرْفٍ هارٍ، وأُوشِكُ أَنْ أَسْقُطَ، ومَعَ ذٰلِكَ.. ومَعَ ذٰلِكَ..».

وأَخْفَتْ وَجْهَها في راحتَيها وهْيَ تَنْتَحِبُ.

وثارَ شَجَنُهُ وتَلَعَّجَ حُزْنُهُ، فهَمَّ بها يَتَوَدَّدُ إلَيها ويُرَبِّتُ ظَهْرَها، ويُقَبِّلُها. وما لَبِثَ أَنْ قالَ: «إنَّني لَكِ مُحِبٌّ صادِقٌ، ولا أَرْغَبُ في مُغادَرَةِ المَنْزِلِ، ثِقي بما أَقولُ يا أَنّا، واطْمَئِنّي إلى حُبّي».

قالَتْ: «لَسْتُ في شَكٍّ مِن إخْلاصِكَ، غيرَ أَنَّ هُناكَ أَشْياءَ أُخْرى...».

فهَتَفَ مُتَبَرِّمًا قَليلًا: «أَسْتَحْلِفُكِ باللّهِ أَنْ تُطْلِعيني على كُلِّ شَيءٍ. أَطْلِعيني على ما يَخْلُقُ

---

(١) تَأْريثُ النّارِ: إثارَتُها.

بي عَمَلُهُ. أَطْلِعيني على ما تَسْكُنُ إِلَيهِ نَفْسُكِ وتَقَرُّ روحُكِ. إنّي على تَمامِ الأُهْبَةِ للقِيامِ بأَيِّ عَمَلٍ تَكْمُنُ فيهِ سَعادَتُكِ وهَناؤُكِ. ويَكونُ فيهِ خَلاصٌ لَكِ مِنْ بَلْبَلَتِكِ وَقَلَقِكِ».

قالَتْ: «أَرْجو أَنْ لا تَضْطَرِبَ، فأَنا مُخطِئَةٌ بتَسَرُّعي، وقَد أَثَّرَتْ فيَّ حَياةُ الوَحْدَةِ والانْفِرادِ».

وتَناولا طَعامَ العَشاءِ بَعْدَ قَليلٍ، وتَجاذَبا أَطْرافَ الحَديثِ؛ تَبادَلا الكَلامَ، والابْتِسامَ، والضِّحْكَ. ولٰكِنْ، كُلُّ ذٰلِكَ كانَ أَشْبَهَ بالمُحاوَلَةِ العَقيمَةِ. فقَدِ اتَّسَعَتِ الشِّقَّةُ بينَهُما إلى دَرَجةٍ عَظيمةٍ، ولم يَعُدْ هُناكَ مِن فائِدَةٍ. لَن تَعودَ المِياهُ إِلى مَجاريها... فقَد سَبَقَ السَّيفُ العَذْلَ[1]!

وتَناهى شُعورُ أَنّا بالحُزْنِ. إِنَّهُ أَضْحى أَكْثَرَ بُرودًا وجُمودًا مِن ذي قَبْلُ، إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَها ويُفَكِّرُ في أَمْرٍ آخَرَ. لَقَد أَفْلَتَ مِن قَبْضَتِها، وتَلاشى حُبُّهُ، وخَسِرَتْهُ... خَسِرَتْهُ...

وأَيْقَنَتْ والأَسى يَحُزُّ في صَدْرِها أَنَّ النِّهايَةَ بَدَأَتْ مُنْذُ اللَّيلةِ، لَقَد بَدَأَتْ نِهايةُ حُبِّها، ولَعَلَّ نِهايةَ حَياتِها قد أَزِفَتْ أَيضًا!

* * *

الشَّقِيَّةُ المُعَذَّبَةُ

بَدَأَتْ تَتَذَوَّقُ ثَمَراتِ خِيانَتِها لزَوجِها.

التَّاعِسَةُ العاثِرةُ الحَظِّ

طَفِقَتْ تَتَرَمَّضُ على أُوارٍ[2].

أَنّا كارنينا المَرْأَةُ الفاتِنَةُ

رَأَتِ الآنَ أَنَّها تَنْحَدِرُ وتَنْحَدِرُ،

وأَنَّها لا تَفْتَأُ تَنْحَدِرُ إِلى ما لا نِهايَةَ لَهُ،

وأَيْقَنَتْ أَنَّها ستَصْطَدِمُ بالحَقيقةِ،

---

(١) سَبَقَ السَّيفُ العَذْلَ: مَثَلٌ يُضْرَبُ إذا فاتَ إِصْلاحُ ما فَسَدَ.
(٢) تَتَرَمَّضُ على أُوارٍ: تَتَحَرَّقُ على حَرٍّ شَديدٍ.

وستَتَحَطَّمُ... تَتَحَطَّمُ... تَتَحَطَّمُ...

أَدْرَكَتْ أَنّا كارنينا كُلَّ ذٰلِكَ

وبَكى قَلْبُها... بَكى بُكاءً مَريرًا.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - أَتَرى أَنَّ مخاوفَ كاترين مِنْ أَنّا على زَوجِها كانَتْ مُسَوَّغَةً؟ ولماذا؟

٣ - فَهِمَتْ (أَنّا) مِنْ نَظراتِ ليفينَ وكَلِماتِهِ أَنَّهُ وَقَعَ في حبائِلِها، فسُرَّتْ واغتَبَطَتْ. أَتَرى في هٰذا ما يدُلُّ على صِدْقِ حُبِّها وسُموِّ نَفْسِها ونُبلِ أَخْلاقِها، أَمْ تَرى غيرَ ذلكَ؟ عَلِّلْ رأْيكَ.

٤ - أَأَخَذَتْ أَزمَةُ أَنّا كارنينا تَنْفرِجُ، أَمْ تَراها ازدادَتْ تَعْقيدًا؟ وأَيْنَ تَرى السَّبَبَ في ذلك؟

٥ - تُرى أَيْنَ ستَنْتَهي عُقدَةُ الرِّوايةِ؟ وما الحَلُّ في رأْيكَ بعدَ كُلِّ هٰذا التَّأَزُّمِ؟ اِطرَحْ ما تَراهُ مِنْ حُلولٍ، وناقِشْهُ.

٦ - أَوْجِزْ مَضْمونَ الفَصْلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل العاشر

تَدَهْوَرَتْ حالةُ ستيفانَ شَقيقِ أَنّا، وأَصْبَحَ على شَفا الإِفْلاسِ. إنَّ مُرَتَّبَهُ كَبيرٌ يَسيلُ لَهُ اللُّعابُ، لٰكِنَّهُ لا يَكْفيهِ ويَكْفي عائِلَتَهُ. والغابَةُ الّتي يَمْلِكُها لم تَعُدْ تَدُرُّ عَلَيهِ المالَ الكافيَ أَيْضًا، فقَد أَصَرَّتْ داريا زَوجَتُهُ على أَخْذِ حِصَّتِها مِنَ الرَّيْعِ. لِهٰذا لم يَبْقَ لَهُ مَخْرَجٌ مِن مَأْزِقِهِ إلا التَّوَجُّهُ إِلى بطرسبرج، والسَّعْيُ لَدى أُولي الأَمْرِ، عَلَّهُ يَظْفَرُ بزِيادَةٍ في مُرَتَّبِهِ تَسُدُّ تِلْكَ الثَّغْرَةَ الَّتي ما فَتِئَتْ تَتَّسِعُ على مَرِّ الأَيَّامِ.

واسْتَدانَ مِن زَوجَتِهِ خَمسينَ روبلًا، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلى بطرسبرج، وذَهَبَ مُباشَرَةً إِلى بَيتِ أَلِكْسيس كارنين زَوجِ شَقيقَتِهِ، واجْتَمَعَ إِلَيهِ طَويلًا وسَأَلَهُ أَنْ يَتَوَسَّطَ لَدى زَميلٍ لَهُ مِنَ الوُزَراءِ في أَمْرِ الزِّيادةِ الَّتي جاءَ مِنْ أَجْلِها.

وأَصْغى بَعْدَ ذٰلِكَ بصَبْرٍ وجَلَدٍ إِلى تَقْريرٍ مُطَوَّلٍ تَلاهُ كارنينُ على مَسْمَعٍ مِنهُ عَنِ الأَزْمةِ الخانِقةِ الَّتي اسْتَفْحَلَ أَمْرُها في البِلادِ، واسْتَشْرى شَرُّها.

وما لَبِثَ أَنِ انْتَهَزَ فُرْصَةَ انْقِطاعِ كارنينَ عَنِ الكَلامِ حتَّى بادَرَهُ قائِلًا: «ثَمَّةَ مَسْأَلةٌ أَوَدُّ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِها، وأَنْتَ تَعْرِفُها، إِنَّها بخُصوصِ أَنّا أُخْتي».

وصَمَتَ ستيفانُ وتَأَمَّلَ في كارنينَ، فشاهَدَ ما شابَهُ مِنَ التَّبَدُّلِ العَجيبِ ساعةَ طَرَقَ سَمْعَهُ اسْمُ زَوجتِهِ. شاهَدَ الحياةَ تَفِرُّ مِنْ وَجْهِهِ، شاهَدَ أَماراتِهِ تَخْتَلِجُ ثُمَّ تَجْمُدُ، وكأَنَّها تَموتُ.

وقالَ الزَّوْجُ المَلْهوفُ بصَوتٍ عَميقٍ حَزينٍ: «وماذا تُريدُ مِنّي؟ قُلْ ماذا تُريدُ؟»

– «أُريدُ تَسْوِيَةً فاصِلةً باتَّةً، تَسْوِيَةً تَضَعُ الأُمورَ في مَوْضِعِها، وإِنّي أَضْرَعُ إِلَيكَ، لا بصِفَتِكَ سِياسِيًّا ووَزيرًا خَطيرًا، بَل كرَجُلٍ طَيِّبِ القَلْبِ، وكمَسيحِيٍّ لا يَخْلو قَلْبُهُ مِن كَلِمةِ المَغْفِرَةِ والصَّفْحِ، كرَجُلٍ يُشْفِقُ على امْرَأَةٍ خاطِئَةٍ، ويُساعِدُها».

– «وبأَيِّ طَريقةٍ يَمُدُّ لَها يَدَهُ مُساعِدًا؟»

- «لَو شاهَدْتَها، لرَثَيتَ لَها، ولبَكَيتَ حُزْنًا عَلَيها. إنَّها مُعَذَّبةٌ، مُعَذَّبةٌ يا صَديقي».

- «خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّها تَنْعَمُ في أَحْسَنِ حالٍ مِنَ العَيشِ. أَفَلَمْ تَنَلْ ما صَبَتْ إِلَيهِ نَفْسُها؟ أَفلَمْ تَظْفَرْ بمُبْتَغاها؟»

- «أَقْصِرْ يا كارنينُ، وجَنِّبْنا كَلامًا لا طائِلَ تَحْتَهُ، جَنِّبْنا التَّقاذُفَ بالتُّهَم، فما مَضى قدِ انْقَضى، وأَنْتَ أَدْرى مِن سِواكَ بما تَنْشُدُهُ أَنّا وتَبْغيهِ. أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّها تُريدُ الطَّلاقَ، فامْنَحْها وَطَرَها، أَنِلْها ما تَصْبو إِلَيهِ نَفْسُها، لا تَقِفْ حَجَرَ عَثْرةٍ في طَريقِ سَعادتِها».

- «لٰكِنَّ أَنّا كما أَعْتَقِدُ أَبَتِ الطَّلاقَ ورَفَضَتْهُ، ورَفْضُها مُسَبَّبٌ عن إِصْراري على الاِحْتِفاظِ بابْني، وهٰذا يُنْهي الـمَسْأَلَةَ».

وتَحَرَّكَ في مَكانِهِ حانِقًا مَغيظًا.

وسارَعَ ستيفانُ يَقولُ: «لا... لا... أَرْجو أَنْ تَتَذَرَّعَ بالحِلْمِ يا صاحِ، فالـمَسْأَلَةُ لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ، وإذا أَصَخْتَ إِلَيَّ أَطْلَعْتُكَ على الحَقيقةِ وعلى رَأْيي. لَقَدِ انْفَصَلْتُما، وأَظْهَرْتَ أَنْتَ رَغْبَتَكَ في الطَّلاقِ، واحْتَفَظَتْ هِيَ لَكَ في قَلْبِها بالشُّكْرِ والثَّناءِ، بَل إِنَّ عُلُوَّ نَفْسِكَ آذاها في شُعورِها بانْخِفاضِ نَفْسِها، فانْكَفَأَتْ ذاهِبةً، ووَلَّتْ هارِبةً، وابْتَعَدَتْ وعاشَتْ في مَعْزِلٍ عَنِ الخَلْقِ. بَيدَ أَنَّ الأَيّامَ، والخِبْرَةَ أَظْهَرا جَلِيًّا أَنَّ حالتَها لا تُطاقُ، وأَنَّها في مِحْنةٍ، وأَنَّ الجُنونَ هُوَ نِهايتُها الـمَحْتومَةُ».

فَرَدَّ عَلَيهِ كارنينُ بجَفاءٍ واقْتِضابٍ: «لا آبَهُ لَها. لا أَحْفِلُها. فحَياتُها، حَياةُ أَنّا شَقيقَتِكَ لا تَعْنيني في قَليلٍ أَو كَثيرٍ، حَياةُ أَنّا لا قيمَةَ لَها في نَظَري».

قالَ: «ذَرْني أُصارِحْكَ بعَدَم تَصْديقِكَ. إِنّي لا أُصَدِّقُ قَوْلَكَ. إنَّ حالَتَها لا تُطاقُ، إِنَّها تَتَلَمَّظُ بالعَلْقَمِ، وشَقاؤُها لا يَفيدُ أَحَدًا. هِيَ تَسْتَحِقُّ كُلَّ ذٰلِك، وتَعْلَمُ أَنَّها تُعاقَبُ بحَقٍّ على ما جَنَحَتْ إِلَيهِ، ولذٰلِكَ لا تُطالِبُكَ بشَيءٍ، وتَجْهَرُ بأَنَّها لا تَجْسُرُ على مُطالَبَتِكَ بأَيِّ أَمْرٍ مِنَ الأُمورِ... ولٰكِنْ، أَنّا... كُلُّنا... ذَوو قُرْباها جَميعًا... مُحِبُّوها. نَتَضَرَّعُ إِلَيكَ... فلا تَتْرُكْها وَحْدَها، وافْعَلْ ما مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخَفِّفَ عَنها عِبْءَ خَطيئَتِها».

فقاطَعَهُ كارنينُ قائِلًا: «يَتَراءى لي أَنَّكَ تَعْمَلُ بموجِبِ خُطَّةٍ كَيْما تُشْعِرَني بأَنّي الـمُخْطِئُ الـمُذْنِبُ».

فهتَفَ الآخَرُ: «أوَّهْ! كَلّا . . . كَلّا . . . إنّي لا أفْعَلُ ذٰلِكَ، وحاشا أنْ أفْعَلَ، فافْهَمْني، أرْجو أنْ تَسْتَوعِبَ كَلامي. إنَّ ما أبْغي إيضاحَهُ لَكَ هُوَ أنَّ حالتَها امْسَتْ مَيْئوسًا مِنْها، وأنَّكَ الإنْسانُ الوَحيدُ الَّذي يَسَعُهُ إبْعادُ المَوتِ عَنها، ولَن تَفْقِدَ شَيئًا إنْ فَعَلْتَ، لَن تُضارَ إنْ عَمَدْتَ إلى إنقاذِها مِن بَراثِنِ الأسى واليَأْسِ، وأسْتَطيعُ إنْ رُمْتَ ذٰلِكَ، أنْ أُرَتِّبَ الأُمورَ بطَريقةٍ مُريحةٍ لا يَلْحَقُكَ مِنْها أيُّ ضَيْمٍ أو ألَمٍ. ألَمْ تَعِدْها؟ ألَمْ تَعرِضْ عَلَيها الطَّلاقَ؟»

فقالَ كارنينُ: «لا أُنْكِرُ ما أبْرَمْتُ على نَفْسي، بَيدَ أنَّ ذٰلِكَ جَرى مُنْذُ أمَدٍ طَويلٍ، وكُنْتُ أظُنُّ أنَّ مَسْأَلَةَ ابْني قَد قَرَّرَتِ الأمْرَ وبَتَّتْهُ. وفَضْلًا عَن ذٰلِكَ، كُنْتُ أظُنُّ أيضًا أنَّ أنّا سَمْحةٌ كريمةٌ . . .».

وصَمَتَ كارنينُ بَغْتَةً، وتَقَلَّصَتْ عَضَلاتُ وَجْهِهِ، وعَضَّ على شَفَتَيهِ.

وقالَ ستيفانُ: «إنَّها تَتْرُكُ الأمْرَ لكَرَمِكَ أنْتَ، إنَّها تُفَوِّضُ مُسْتَقْبَلَها إلَيكَ، لأنَّكَ رَجُلٌ، ولأنَّها تَثِقُ برُجولَتِكَ. وهْيَ تَرْجوكَ، تَبْتَهِلُ إلَيكَ، تَتَوَسَّلُ أنْ تَنْشُلَها مِنْ وَهْدَتِها، أنْ تُبْقيَ عَلَيها، أنْ تَنْتَزِعَها انْتِزاعًا مِن وَضْعِيَّتِها العَسيرَةِ الَّتي لا يُمْكِنُها أنْ تَصْبرَ عَلَيها طَويلًا. وهْيَ لا تُطالِبُ بابْنِها، أي ألِكْسيس كارنين. أنْتَ نَبيلٌ كَريمٌ، أنْتَ إنْسانٌ تَحْتَفِظُ بقَلْبِكَ، فضَعْ نَفْسَكَ في مَكانِها لَحْظةً واحِدةً. إنَّ مَسألَةَ الطَّلاقِ بالنِّسْبَةِ إلَيها، هِيَ مَسْأَلَةُ حَياةٍ أو مَوتٍ. ولَو أنَّكَ لَمْ تُبْدِ اسْتِعْدادَكَ لحَلِّها مِن رِباطِ الزَّوجيَّةِ، لَما قَفَلَتْ راجِعَةً إلى المَدينَةِ، ولَظَلَّتْ في الرِّيفِ. ولٰكِنَّكَ وعَدْتَها، وقد بَعَثَتْ إلَيكَ برسالةٍ، ثُمَّ جاءَتْ إلى موسكو. وها هِيَ الآنَ تَعيشُ هُناكَ، وتَنْتَظِرُ على أحَرَّ مِنَ الجَمْرِ كِتابًا مِنْكَ يَضَعُ حَدًّا لأسْقامِها، والإنْتِظارُ صَعْبٌ يا صَديقي. وما أصْعَبَ حَياتَها في موسكو! فهْيَ تَشْعُرُ بالسَّكاكينِ تُمَزِّقُ أحْشاءَها كُلَّما الْتَقَتْ إنْسانًا تَعرِفُهُ، وهْيَ تَظُنُّ أنَّ كُلَّ إنْسانٍ يَنْظُرُ إلَيها مُتَهَكِّمًا ساخِرًا. فأنْقِذْها، أنْقِذْها».

وتَنَفَّسَ الرَّجُلُ الصُّعَداءَ مِنَ الضِّيقِ، وتابَعَ يَقولُ: «ومَثَلُ أنّا في حَياتِها، كمَثَلِ مَحْكومٍ بالمَوتِ، وُضِعَ الحَبْلُ في عُنُقِهِ مُنذُ سِتَّةِ أشْهُرٍ، ولا يَزالُ مَوْضوعًا. وهْوَ لا يَعْلَمُ مَصيرَهُ، يَقولونَ لَهُ: لقد عَفَوْنا. ثُمَّ يَقولونَ: لا. سوفَ تَموتُ مَوتًا أبَدِيًّا! فكُنْ رَحيمًا يا ألِكْسيس، أشْفِقْ على هٰذِهِ المَحْكومةِ، وثِقْ بمَقْدِرَتي على وَضْعِ الأُمورِ في مَواضِعِها».

وقالَ ألِكْسيس كارنين باشْمِئْزازٍ: «دَعْكَ مِنْ هٰذا الكَلامِ. لَعَلّي وَعَدْتُ بما لا يَحِقُّ لي أنْ أعِدَ بِهِ».

قالَ: «فأَنْتَ تَنْكُثُ الوَعْدَ إِذًا. أَنْتَ تَتراجَعُ ناكِصًا».

قالَ: «لَمْ أَرْفُضْ مُطْلَقًا أَنْ أَفْعَلَ كُلَّ ما هُوَ جائِزٌ مُمْكِنٌ، بَيدَ أَنّي أَوَدُّ أَنْ أُفَكِّرَ وأُقَلِّبَ الرَّأْيَ».

فوَثَبَ ستيفانُ مِنْ مَكانِهِ، وهَتَفَ: «كَلّا. لا أُصَدِّقُ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذي تَتَكَلَّمُ. إِنَّها شَقِيَّةٌ، كأَشْقى ما تَكونُ عَليهِ امْرَأَةٌ تاعِسةٌ، ولا يَسَعُكَ الرَّفْضُ، لا...».

قالَ: «لَن أَرْفُضَ بِقَدْرِ طاقَتي، ولٰكِنّي، كأَيِّ مُؤْمِنٍ يَخافُ اللّٰهَ، ويَهْتَدي في حَياتِهِ بتَعاليمِ الدِّينِ، لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْهَجَ نَهْجًا مُناوِئًا للدِّينِ مُعارِضًا لتَعاليمِ الإِنْجيلِ، مُنافِيًا لحِكْمَةِ السَّماءِ».

– «بَيدَ أَنَّ مُجْتَمَعَنا يُوافِقُ على الطَّلاقِ، كما أَنَّ الكَنيسةَ تَرى أَحْيانًا أَنَّ المُوافَقَةَ خيرٌ مِنَ المُعارضةِ».

– «إِنَّ الطَّلاقَ مُقَرَّرٌ، ولٰكِنْ لَيسَ بالمَعنى... لَيسَ بالمَدى...».

– «أُفٍّ! أَنْتَ اليَومَ غَيرُكَ في الأَمْسِ. أَلَمْ تَكُنْ أَنْتَ الَّذي عَفَوتَ وغَفَرْتَ؟ أَلَمْ نَحْمَدْ فيكَ هٰذِهِ الخِلَّةَ، ونُكْبِرْ عُلُوَّ نَفْسِكَ وشَهامتَها؟ أَلَمْ تُعْرِبْ عَنِ اسْتِعْدادِكَ للتَّضْحِيةِ بكُلِّ شَيءٍ في سَبيلِها؟ أَلَمْ تَقُلْ وأَنْتَ تَخْفِضُ رَأْسَكَ احْتِرامًا ومَهابةً: إذا أَخَذَ إِنْسانٌ سُتْرَتَكَ فأَعْطِهِ عَباءَتَكَ؟ والآنَ...».

فعارَضَهُ كارنينُ بسُرْعةٍ وقالَ: «أَرْجو ... أَرْجو أَنْ تَكُفَّ عَنْ هٰذا القَولِ».

وانْتَصَبَ واقِفًا ووَجْهُهُ يَنْضَحُ بالأَلَمِ، وأَتَمَّ: «أَرْجو أَنْ تُنْهِيَ هٰذا الكَلامَ، فأَنا لا أَتَحَمَّلُ المَزيدَ. لا...».

وهَتَفَ الآخَرُ، وقَد أَخافَتْهُ حالةُ كارنينَ: «أَوَّهْ! اصْفَحْ عَنّي، اصْفَحْ عَنّي إِنْ نَكَأْتُ جِراحاتِ قَلْبِكَ».

ومَدَّ يَدَهُ إِلَيهِ مُتَوَسِّلًا واسْتَتْلى: «إِنّي رَسولٌ، مُجَرَّدُ رَسولٍ. وما على الرَّسولِ إِلَّا التَّبْليغُ، ولا مَنْدوحةَ لي عَن إِطْلاعِكَ على كُلِّ شَيءٍ، حَتّى تكونَ على بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ، وحتّى تَفْعَلَ الواجِبَ».

وصافَحَهُ أَلِكْسيس كارنين، وتَرَدَّدَ هُنَيهةً وقالَ: «سأُفَكِّرُ في الأَمْرِ، وسأُحاوِلُ أَنْ أَجِدَ

الهُدى والرَّشادَ. وبَعْدَ غَدٍ أُعْطيكَ قَراري الأَخيرَ».

* * *

لَمْ يَنْسَ ستيفانُ أوبلنسكي واجِباتِ نَفْسِهِ حينَ انْهَمَكَ في بطرسبرج في مَشاغِلِهِ الخاصَّةِ، وفي مَسأَلةِ طَلاقِ شَقيقَتِهِ مِنْ زَوجِها.

لَمْ يَنْسَ أَنَّ لجِسْمِهِ حَقًّا عَلَيهِ، ولهٰذا أَسْلَمَ نَفْسَهُ، بَعدَ أَنِ انْتَهى مِنْ مُقابَلَةِ كارنينَ، للخَمْرِ، فعاقَرَها، ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ بَعْضِ الأَصْدِقاءِ إلى حانةٍ يَجْتَمِعُ فيها رَهْطٌ مِنَ العُشّاقِ، فجَلَسوا واسْتَمَرُّوا يَشْرَبونَ ويَقْصِفونَ إلى ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ مِنَ اللّيلِ. بَل إنَّ ستيفانَ لَمْ يَتَوَرَّعْ عَن مُغازَلةِ امْرَأَةٍ حَسْناءَ سَنَحَتْ لهُ فُرصةُ مُغازَلتِها ومُطارَحَتِها الغَرامَ في غَفْلَةٍ عَن زَوجِها الثَّمِلِ.

وقَضى سَحابةَ النَّهارِ التَّالي وهْوَ يَتَنَقَّلُ بينَ مَنازِلِ مَعارِفِهِ، فيَتَحَدَّثُ إِلَيهِمْ تارةً عَن أَنّا ومُشْكِلتِها، وتارةً أُخْرى عَن مَشاكِلِهِ ومَطالِبِهِ إنْ تَوَسَّمَ في أَهْلِ المَنْزِلِ الَّذي يَزورُ المَقْدِرةَ على إسْداءِ العَونِ.

ولَمْ يَسْأَمْ حَديثَهُ أَحَدٌ، فهْوَ لَطيفٌ دَمِثٌ، وهْوَ مُحَدِّثٌ ذَلِقُ اللِّسانِ، وهْوَ يَعْرِفُ مِن أَيْنَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ. وفَضْلًا عَن ذٰلِكَ، فالجَميعُ يَعْرِفونَهُ، ومَعْظَمُهُمْ يَنْتَمي إِلَيهِ بواشِجةٍ مِنَ القَرابةِ. ومَعَ ذٰلِكَ، ظَلَّ الرَّجُلُ الطَّيِّبُ يُفَكِّرُ في شَقيقَتِهِ، ويَتَمَنّى على اللّٰهِ أَنْ يُرَقِّقَ قَلْبَ زَوجِها فيَمْنَحَها الطَّلاقَ، ويُنْقِذَها بذٰلِكَ مِن كارثةٍ مُحَقَّقَةٍ تَتَهَدَّدُها وتُوشِكُ أَنْ تَحُطَّ على حَياتِها.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - دارَ حِوارٌ مُطَوَّل بينَ ستيفان أوبلنسكي وأَلِكْسيس كارنين. هَل تَرى أَنَّ هذا الحوارَ حَقَّقَ الغايَةَ الَّتي قصَدَ إِلَيها أوبلنسكي؟ وهَل تَرى أَنَّهُ لاءَمَ كِلا المُتَحاوِرَيْنِ؟ عَلِّلْ ما تَذْهَبُ إليهِ.

٣ - ستيفان أوبلنسكي وأَلِكْسيس كارنين شَخصِيَّتانِ مُتناقِضَتانِ تَمامًا. فهَل لكَ أَنْ تُحدِّدَ أَوْجُهَ التَّناقضِ بينَهما؟

٤ - بِمَ عَلَّلَ كارنين رَفْضَهُ الطَّلاقَ؟ وهَل تَراهُ على حقٍّ في ذلك؟ ولماذا؟

٥ - أَلا تَرى أَنَّ لرَفْضِ الطَّلاقِ سَببًا آخَرَ يتَعلَّقُ بالصَّغير سيرج؟ وما هو؟

٦ - ما الدَّورُ الَّذي أَدَّاهُ هذا الفَصْلُ في حَبْكَةِ الرِّوايةِ؟ هَل طَوَّرَ الأَحْداثَ؟ هَل أَوْضَحَ بعضَها؟ وهَل أَضافَ جَديدًا إِلى صُوَرِ بعضِ الشَّخصيَّاتِ؟ أَوْضِحْ، وعَلِّلْ ما تَذْهَبُ إِلَيهِ.

٧ - أَوْجِزْ مَضْمونَ الفَصْلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الحادي عشر

لِكَي تَسيرَ حَياةُ زَوجَينِ نَحْوَ الاِتِّفاقِ التّامِّ أَوِ الفُرْقَةِ الدّائِمةِ، يَجِبُ أَنْ يَكونَ هُناكَ إِمّا انْسِجامٌ واتِّفاقٌ ووِئامٌ بَينَهُما، وإِمّا انْقِسامٌ كُلِّيٌّ.

وكَثيرةٌ هيَ العائِلاتُ الَّتي تَبْقى لِسِنينَ عديدةٍ مُلازِمةً وَضْعِيَّةً واحِدةً، مَعَ أَنَّ الرَّجُلَ وزَوجَتَهُ يَشْعُرانِ بأَنَّ العَلاقةَ بَيْنَهُما يَجِبُ أَنْ تَنْحَلَّ.

ولَقد أَحَسَّ فرونسكي وأَنّا بأَنَّ الحياةَ في موسكو شَرٌّ لا يُطاقُ في فَصْلِ الصَّيفِ، لأَنَّ الحَرَّ خانِقٌ، والغُبارَ يَمْلأُ الدُّنْيا، والهَواءَ فاسِدٌ نَتِنٌ. لٰكِنَّهُما، على الرَّغْمِ مِن شُعورِهِما بجَحيمِ موسكو، لَمْ يَرْتَحِلا عَنْها، بَل لازَماها، ومَكَثا فيها؛ وما مَكْثُهُما وبَقاؤُهُما إِلّا لاتِّساعِ شِقَّةِ الخِلافِ بَينَهُما، وتَصَدُّعِ بِناءِ الأُلفةِ، وانْهِيارِ أُسُسِ المَوَدَّةِ والمَحَبَّةِ.

أَمّا المَرارةُ المُتَبادَلةُ بينَ إِحساسَيهِما، والَّتي مَزَّقَتْ شَمْلَ حُبِّهِما، فلَمْ يَكُنْ لَها أَيُّ سَبَبٍ ظاهِرٍ، وكُلُّ سَعْيٍ بَذَلَهُ أَحَدُهُما لإِحْلالِ التَّفاهُمِ مَحَلَّ التَّنازُعِ باءَ بالإِخْفاقِ، وأَرَّثَ نارَ الخِصامِ، وضَيَّقَ الخِناقَ على روحَيهِما ونَفْسَيهِما. كانَ السَّبَبُ الحَقيقِيُّ هُوَ الفِكْرةَ الباطِنيَّةَ الَّتي رَسَخَتْ في ذِهْنِ أَنّا، وهْيَ أَنَّ حُبَّ فرونسكي قَد أَخَذَ يَتَضاءَلُ، والفِكْرَةَ الَّتي حُفِرَتْ في ذِهْنِهِ هُوَ، وهْيَ أَنَّهُ وَضَعَ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِها في مَوْقِفٍ عَسيرٍ زادَتْهُ هِيَ صُعوبةً بتَصَرُّفاتِها.

وهٰكذا غَدا كُلٌّ مِنْهُما يَنْتَهِزُ الفُرَصَ لِيُثْبِتَ للآخَرِ أَنَّ نَظَرِيَّتَهُ حَقَّةٌ، وأَنَّ رَأْيَهُ هُوَ الصَّوابُ.

كانَتْ أَنّا تَرى أَنَّ فرونسكي كُلَّهُ، بعاداتِهِ، وآرائِهِ، وأَفْكارِهِ، ورَغَباتِهِ، ومِزاجِهِ الرُّوحيِّ والنَّفْسِيِّ والجَسَديِّ، يُمَثِّلُ شَيئًا واحِدًا فحَسْبُ، هُوَ حُبُّهُ للنِّساءِ، وأَنَّ هٰذا الحُبَّ يَجِبُ أَنْ يَتَرَكَّزَ فيها هِيَ وَحْدَها. أَمّا وحُبُّهُ يَضْعُفُ ويَتَضاءَلُ، أَمّا وغَرامُهُ تَخْمُدُ جَذْوتُهُ، وتَنْطَفِئُ وَقْدَتُهُ، فهٰذا ولا جَرَمَ عائِدٌ إِلى تَقْسيمِ قَلْبِهِ، ومَنْحِ جُزْءٍ مِنْ حُبِّهِ غَيرَها مِنَ النِّساءِ.

واسْتَعَرَ أُوارُ الغَيرَةِ في قَلْبِها، ولَمْ تَنْشَأْ غَيرَتُها مِنِ امْرَأَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بَل كانَتْ غَيرتُها مِنْ

تَناقُصِ حُبِّهِ لَها. ولأَنَّها لَمْ تُرَكِّزْ غَيرَتَها على شَيءٍ مُعَيَّنٍ، فقَد كانَتْ تَتَمَسَّكُ بكُلِّ شَيءٍ لِتَنْتَقِلَ بغَيرَتِها إِلَيهِ. فكانَتْ كَلِمةٌ واحِدةٌ تَكْفي لِتَحويلِ اتِّجاهِ غَيرَتِها مِنَ اليَمينِ إِلى الشِّمالِ.

فمَرَّةً نَقَمَتْ على النِّساءِ الوَضيعاتِ اللّاتي كانَ يَقْضي مَعَهُنَّ بَعْضَ أَوْقاتِ الفَراغِ قَبْلَ تَعَلُّقِهِ بها، ومَرَّةً نَقَمَتْ على نِساءِ المُجْتَمَعِ اللاتي قَد يَلْتَقيهنَّ، ومَرَّةً نَقَمَتْ على تِلْكَ الفَتاةِ الوَهْميَّةِ الَّتي قد تَغْدو زَوجَةً لَهُ، والَّتي قد يَتْرُكُها، أَي يَتْرُكُ أَنّا، ساعةَ يَتَعَرَّفُ بها. وهٰذِهِ الغَيرَةُ الأَخيرةُ كانَتْ أَسْوَأَ ما شَعَرَتْ بِهِ، ولا سِيَّما أَنَّهُ جابَهَها يَومًا، في ساعةِ غَضَبٍ، بأَنَّ أُمَّهُ تُلِحُّ عَلَيهِ بوُجوبِ الزَّواجِ، وأَنَّها تُوصيهِ دائِمًا بالتَّوَجُّهِ بفُؤادِهِ ناحِيَةَ الأَميرَةِ الحْسناءِ «سوروكين».

ونَعَقَ البُومُ في أَعْماقِها إِيذانًا بحُلولِ النَّكْبَةِ، وأَوْحَتْ إِلَيها الأَرْواحُ الشِّرِّيرَةُ نِيَّاتِ الاِسْتِسْلامِ إِلى الأَلَمِ واليَأْسِ. وجَرَّدَتْها غَيرَتُها مِنْ كُلِّ صَبْرٍ وإِيمانٍ، وأَفْعَمَتْها بالشَّراسَةِ والغَيظِ. فجَعَلَتْ تَتَهَجَّمُ عليهِ في كُلِّ مُناسبةٍ، وتَصِفُهُ بالأَثَرةِ والغَدْرِ، وتَزْعُمُ أَنَّهُ كَفَّ يَدَهُ بَعْدَ أَنِ اسْتَدْرَجَها إِلى الهُوَّةِ، وأَنَّهُ كالحَيَّةِ الَّتي تَسْتَطيعُ أَنْ تُحَوِّلَ لَبَنَ المُرْضِعِ إِلى سُمٍّ ناقِعٍ.

وأَخَذَتْ تَضَعُ على عاتِقِهِ المَسْؤوليَّةَ كُلَّها، فهْوَ المَسْؤولُ عَنْ قَلَقِها واضْطِرابِها، وهْوَ المَسْؤولُ عَن تَأَخُّرِ إِجراءاتِ الطَّلاقِ. هُوَ، هُوَ... إِنَّهُ المَسْؤولُ عَن كُلِّ شَيءٍ، عَن عُزْلَتِها وبَرَمِها، عَن تَمَنُّعِ زَوجِها وتَرَدُّدِهِ، عَن ضيقِها بموسكو. فلَو أَحَبَّها كما أَحَبَّها قَبْلًا، لَشَعَرَ مَعَها وحَنا عَلَيها، وساعَدَها وأَنْقَذَها.

ثُمَّ، إِنَّهُ مَسْؤولٌ عَن بُعْدِها عن ابْنِها سيرجَ، ابْنِها الَّذي أَخَذَتْ كِفَّةُ حُبِّها لَهُ تَرْجَحُ على كِفَّةِ حُبِّها لفرونسكي.

ووَصَلَ بها الأَمْرُ إِلى حَدٍّ جَعَلَها تَرى في لَمَحاتِ حَنانِهِ القِصارِ نَوعًا مِنَ الغِشِّ والرِّياءِ. ولَمْ تُقَلِّلْ هٰذِهِ اللَّحَظاتُ الَّتي كانَ حُبُّهُما فيها يَنْتَعِشُ بَعْدَ مَواتٍ مِنِ انْفِعالِها وعَصَبيَّتِها، فهْيَ تَرى، مِنْ خِلالِ عَطْفِهِ ومَحَبَّتِهِ، ظِلًّا مِنِ اعْتِدادِهِ ومَرَحِهِ وثِقَتِهِ بنَفْسِهِ، لم تَعْهَدْها فيهِ مِنْ قَبْلُ، وأَخَذَتِ الآنَ تَحِزُّ في صَدْرِها وتَمْغَثُ في قَلْبِها.

* * *

إِنْتَظَرَتْ أَنّا عَودَتَهُ مِن حَفْلةٍ أَقامَها لَهُ زُمَلاءُ وأَصْدِقاءُ. وكانَ الغَسَقُ يُضَرِّجُ الأُفُقَ بنورِهِ

الأُرْجُوانيِّ، والرِّيحُ راكِدةٌ دافِئةٌ، وأَرَجُ الوُرودِ يَعْبَقُ في الحَديقةِ ويَفْغَمُ[١] برائِحتِهِ الصُّدورَ.

اِنْتَظَرَتْ أَوْبَتَهُ في حُجْرَةِ مَكْتَبِهِ، وكانَتْ تَذْرَعُ أَرْضَ الغُرْفَةِ جيئَةً وذَهابًا، وتُفَكِّرُ في مُشاجَرتِهِما الأَخيرةِ الَّتي وَقَعَتْ بَينَهُما في اليَومِ الماضي، وتَسْتَعيدُ إِلى مُخَيِّلَتِها دَقائِقَها وأَسْبابَها. وأَيْقَنَتْ لَدى اسْتِعْراضِها للأَسْبابِ، أَنَّ الموجِباتِ تافِهةٌ لا تَسْتَحِقُّ الاِلْتِفاتَ. لٰكِنَّهُما ثارا بلا سَبَبٍ، وارْتَفَعَ صَوتُهُما، وعلا زَعيقُهُما، واتَّهَمَها، وكالَتْ لَهُ هِيَ التُّهَمَ، وغادَرَها بَعْدَ ذٰلِكَ مُغْضَبًا، ولَزِمَتِ الدَّارَ وهْيَ تَتَحَرَّقُ مِنَ الأَلَمِ، وتَتَرَمَّضُ على نارِ التَّحَسُّرِ والنَّدَمِ.

ولمّا عادَ بَعْدَ ساعاتٍ كَثيرَةٍ، تَجَنَّبَ إِثارَةَ المَوضوعِ مِنْ جَديدٍ. بَل إِنَّ أَحَدًا مِنْهُما لم يَذْكُرِ المُشادَّةَ بحَرْفٍ، وأَصْبَحَتْ كغَيرِها مِن حَوادِثِ سوءِ التَّفاهمِ مِعْوَلًا يُزَعْزِعُ أَرْكانَ حُبِّهِما.

وها هِيَ اليَومَ تَشْعُرُ بوَحْشةٍ قاتِلةٍ، لَقد غادَرَها ومَضى. ورَجَعَ في ساعةِ الظَّهيرَةِ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنِ انْصَرَفَ ثانيةً، بَعْدَ أَنْ حَيّاها مُوَدِّعًا تَحيَّةً جافَّةً لا تَخْلو مِن لَهجَةٍ سُخْرِيَةٍ.

وشَعَرَتْ بأَنَّها المَلومةُ على ما حَصَلَ، وآلَتْ على نَفْسِها أَنْ تَفْعَلَ المُسْتَحيلَ حتّى تَعودَ المِياهُ بَينَهُما إِلى مَجاريها الطَّبيعِيَّةِ.

وأَنْشَأَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها قائِلَةً: «أَنا وَحْدي المَلومةُ. فأَنا مُنْفَعِلةٌ، عَصَبِيَّةٌ، حادَّةُ الطَّبْعِ. أَنا ذاتُ مِزاجٍ نارِيٍّ. أَنا غَيورَةٌ، ولٰكِنّي سأَتَلافى الأَمْرَ، وسنَرْحَلُ مَعًا إِلى الرِّيفِ، فهُناكَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَحْيا بسَلامٍ وسَكينةٍ».

واسْتَعادَتْ بَغْتةً كَلِماتِهِ لَها، واتِّهامَهُ إِيّاها بالشُّذوذِ وغَرابَةِ الأَطْوارِ، فأَنْشَأَتْ تُغَمْغِمُ وهْيَ تَحْرُقُ عَلَيهِ الأُرَّمَ: «إِنَّني أَعْرِفُ ما يَعْني؛ هُوَ يَعْني أَنّي أُوثِرُ طِفْلَ غيرِهِ على طِفْلَتِهِ. فماذا يَعْلَمُ هٰذا الرَّجُلُ مِنْ حُبِّ الأُمِّ للطِّفْلِ؟ ماذا يَعْلَمُ عن حُبّي لِسيرجَ الَّذي ضَحَّيْتُ بِهِ على مَذْبَحِ حُبّي لَهُ، لهٰذا الرَّجُلِ؟ إِنَّهُ لا يَرْغَبُ إِلّا في قَهْري وطَعْنِ قَلْبي، وهْوَ يَهْوى امْرَأَةً أُخْرى، هٰذا أَمْرٌ مَفْروغٌ مِنهُ».

واكْتَشَفَتْ بَغْتةً أَنَّها تَدورُ في الدَّائِرَةِ المُفْرَغةِ نَفْسِها، فأَصابَها هَلَعٌ شَديدٌ، وشَتَمَتْ

(١) يَفْغَمُ برائِحَتِهِ الصُّدورَ: يَمْلَأُها.

نَفْسَها، وكادَتْ تَبْكي. لٰكِنَّها اسْتَأْنَفَتْ ما قَطَعَتْ مِنَ الفِكْرِ: «أَمُسْتَحيلٌ عَلَيَّ الرُّكونُ إِلى الهُدوءِ؟ أَأُفْلِتَ زِمامُ إِرادتي مِنْ يَدي؟»

وأَغْمَضَتْ عَينَيها: «إِنَّهُ صادِقٌ، إِنَّهُ شَريفٌ، إِنَّهُ يُحِبُّني، وأَنا أُحِبُّهُ، وقَريبًا يَتِمُّ الطَّلاقُ. فماذا أَرومُ غيرَ ذٰلِكَ؟ بَيدَ أَنّي لا أَبْغي إِلَّا هُدوءَ الفِكْرِ، والوُثوقَ بِإِخْلاصِهِ. هٰذا كُلُّ ما أَطْلُبُهُ، وبَعْدَ ذٰلِكَ لَن أَلومَ إِلَّا نَفْسي على كُلِّ حادِثٍ وكُلِّ شِجارٍ وخِصامٍ. أَجَلْ، يَخْلُقُ بي لَدى عَوْدَتِهِ أَنْ أَعْتَرِفَ لَهُ بذَنْبي، ولَو كُنْتُ غيرَ مُذْنِبةٍ، ثُمَّ أُقْنِعَهُ بالسَّفَرِ غَدًا، بالرَّحيلِ مِنْ هٰذِهِ المَدينةِ».

ولِكَي تَهْرُبَ مِن أَفْكارِها، أَمَرَتْ بإِعْدادِ الحَقائِبِ تَأَهُّبًا للسَّفَرِ إِلى الرِّيفِ.

ورَجَعَ فرونسكي في السَّاعةِ العاشِرةِ.

* * *

واسْتَقْبَلَتْهُ أَنّا بوَجْهٍ طَلْقٍ وأَساريرَ مُنْبَسِطةٍ. فتَأَلَّقَتْ عَيناهُ بِشْرًا، فهْوَ يُحِبُّ أَنْ يَراها مُنْشَرِحةً، وهْوَ يَخافُ مِنَ الشِّجارِ، ويَمْقُتُ سوءَ التَّفاهُمِ. ولمّا لَمَحَ الحَقائِبَ هَتَفَ مَحْبورًا: «ماذا أَرى؟ هَيّا، هَيّا، هٰذا جَميلٌ!»

قالَتْ: «نَعَمْ، يَجِبُ أَنْ نَذْهَبَ، أَهُناكَ ما يَعوقُكَ عَنِ السَّفَرِ؟»

قالَ: «إِنَّها أُمْنِيَتي الوَحيدَةُ، اِنْتَظِريني رَيثَما أَسْتَبْدِلُ ثِيابي، وسنَبُتُّ الأَمْرَ. مُري الخادِمَ أَنْ يَجْلِبَ لنا الشَّايَ».

وغادَرَها إِلى حُجْرتِهِ.

كانَ في لَهْجَتِهِ عِنْدَما قالَ «هَيّا.. هَيّا» نَوْعٌ مِنَ الإِذْلالِ. كانَ كأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إِلى طِفْلٍ عَنيدٍ لانَتْ عَريكَتُهُ! كما أَنَّ ما زادَ في شُعورِها بالمَذَلَّةِ ما شابَ نَغْمَةَ صَوتِهِ مِن ثِقَةٍ واعْتِدادٍ، وما كانَتْ تُفَكِّرُ فيهِ قُبَيلَ مَجيئِهِ مِنَ البَوحِ لَهُ بنَدامتِها. فشَعَرَتْ بالتَّمَرُّدِ، ووَدَّتْ لَو صاحَتْ في وَجْهِهِ. لٰكِنَّها كَبَحَتْ جِماحَ سُخْطِها وغَضَبِها، ونَظَرَتْ إِلَيهِ مُبْتَسِمةً حينَ رَجَعَ.

وعِنْدَما اسْتَتَبَّ بِهِما المُقامُ في القاعَةِ الصَّغيرَةِ، طَفِقَتْ تَقُصُّ عَلَيهِ حَوادِثَ يَومِها، وتُخْبِرُهُ كَيفَ هَبَطَ عَلَيها وَحْيُ السَّفَرِ، فابْتاعَتِ الحقائِبَ، وأَعَدَّتِ العُدَّةَ واتَّخَذَتِ الأُهْبَةَ.

واسْتَأْنَفَتْ جادَّةً: «ولِمَ الاِنْتِظارُ هُنا؟ لِمَ الاِنْتِظارُ؟ أَلا يَتَحَقَّقُ الطَّلاقُ ونَحْنُ في القَريةِ؟

إنّي لا أَرْغَبُ في أَنْ أَسْمَعَ المَزيدَ عَنْهُ، ولْيَجْرِ ما يَجْري. فإنْ تَحَقَّقَ الطَّلاقُ، فنِعِمَّا الخاتِمةُ، وإنْ تَعَرْقَلَ لا يَخْلُقُ بنا أَنْ نَحْنيَ هامَتَينا اسْتِسْلامًا ويَأْسًا. أَلا تُوافِقُني؟»

قالَ: «أَجَلْ...».

وتَفَرَّسَ في وَجْهِها مُضْطَرِبًا قَلِقًا، وما لَبِثَ أَنْ سَأَلَها عَن مَوعِدِ السَّفَرِ.

فأَجابَتْ بسُرْعَةٍ: «مَتى... مَتى... غدًا.. كَلّا، بَل بَعْدَ يومَين، فبَعْدَ غَدٍ نكونُ قَد أَكْمَلْنا الأُهْبَةَ».

قالَ: «لا بَأْسَ. ولٰكِنْ، لا... عَلَيَّ أَنْ أَزورَ أُمّي بَعْدَ غَدٍ، فقَد وَعَدْتُها بأَنْ أُعَرِّجَ عَلَيها يَومَ الأَحَدِ».

واصْفَرَّ وَجْهُهُ قَليلًا، فقَد أَدْرَكَ أَنَّ أَنّا ستَثورُ الآنَ وتُعَكِّرُ صَفْوَهُ. وكانَ قَلَقُهُ الشُّعْلَةَ الَّتي أَلْهَبَتْ شَكَّها، فتَضَرَّجَ وَجْهُها، وابْتَعَدَتْ عنهُ. وفَكَّرَتْ في الأَميرَةِ سوروكينَ، فَكَّرَتْ فيها وفي أُمِّهِ، فهْيَ تَعْلَمُ أَنَّهُما تُقيمانِ مَعًا في ضاحِيَةٍ مِنْ ضَواحي موسكو المُتَطَرِّفَةِ.

غَيرَ أَنَّها كَتَمَتْ ما خالَجَها وقالَتْ مُتَسائِلةً: «أَلا يُمْكِنُكَ التَّعْجيلُ بزِيارةِ أُمِّكَ؟ أَلا يُمْكِنُكَ الذَّهابُ إِلَيها غَدًا؟»

قالَ: «كَلّا! فالأَعْمالُ الَّتي كَلَّفَتْني بها أُمّي لا تَنْتَهي اليَومَ».

قالَتْ: «فلَنْ نَرْحَلَ إِلى الرِّيفِ إِذًا».

قالَ: «ولماذا؟»

- «لَن أَرْحَلَ. فإنْ أَرَدْتَ، فلْيَكُنْ ذٰلِكَ يَومَ الإِثْنَينِ، وإِلَّا...».

- «ماذا دَهاكِ؟ وما مَعْنى هٰذا الكَلامِ؟»

- «لا مَعْنى لَهُ في نَظَرِكَ لأَنَّكَ لا تَأْبَهُ لي، ولا تَحْفِلُ مَشاعِري، لأَنَّكَ لا تَكْتَرِثُ لحَياتي، ولا تَوَدُّ أَنْ تَفْهَمَني».

وأَحَسَّتْ بغَلْطَتِها الشَّنيعَةِ، أَحَسَّتْ بتَسَرُّعِها وتَهَوُّرِها، وارْتاعَتْ لضَعْفِها وعَجْزِها عَنِ التَّحَكُّمِ بأَعْصابِها. ومَعَ أَنَّها عَلِمَتْ أَنَّ في عَمَلِها هٰذا خَرابَها ودَمارَها، اسْتَمَرَّتْ في غَضْبَتِها، وهْيَ تُحاوِلُ أَنْ تُقْنِعَهُ بأَنَّهُ مُخطِئٌ مُذْنِبٌ في حَقِّها.

وضاقَ صَدْرُ فرونسكي، فقاطَعَها بصَوتٍ أَجَشَّ: «هٰذا لا يُطاقُ...».

وانْتَصَبَ واقِفًا ودَنا مِنْها، فحَدَجَها بنَظْرَةٍ صارِمَةٍ صاعِقَةٍ، وأَرْدَفَ يَقولُ: «عَلامَ تَفْعَلينَ كُلَّ هٰذا؟ لماذا تُثْقِلينَ على قُوَّةِ الصَّبْرِ والإِيمانِ في قَلْبي؟ إِنَّ لكُلِّ شَيءٍ حُدودًا، ولِلصَّبْرِ والإِيمانِ أَيْضًا حُدودٌ وسُدودٌ!»

فهَتَفَتْ مُزَمْجِرَةً: «وماذا تَعْني بكَلامِكَ؟»

ونَظَرَتْ إِلى الكَراهِيَةِ السَّاخِرَةِ الَّتي تَبَدَّتْ في عَينَيهِ نِظْرَةَ رُعْبٍ وهَلَعٍ.

قالَ: «أَعْني، أَوَدُّ أَنْ أَقولَ...».

وتَوَقَّفَ، وكَأَنَّهُ عَدَلَ عن فِكْرةٍ، وما لَبِثَ أَنْ قالَ: «يَنْبَغي سُؤالُكِ عَن شَيءٍ. ماذا تُريدينَ مِنّي؟ أَفْصِحي، أَبيني».

فقالَتْ: «ماذا أُريدُ؟ أَو ماذا أَسْتَطيعُ أَنْ أُريدَ؟ لا أُريدُ إِلّا شَيئًا واحِدًا، هوَ أَلّا تَهْجُرَني كما تُراوِدُكَ نَفْسُكَ، أَمّا ما لا أُريدُ فهُوَ أَمْرٌ ثانَويٌّ. أُريدُ الحُبَّ وهٰذا قَد غاضَ. فإِذًا لَمْ يَبْقَ ما يَسْتَحِقُّ الِالْتِفاتَ».

واسْتَدارَتْ نَحْوَ البابِ.

وصاحَ فرونسكي: «قِفي... قِفي».

وأَمْسَكَ بِها مِنْ يَدِها، واسْتَتْلى: «لِمَ كُلُّ هٰذا الغَضَبِ والتَّشاجُرِ والتَّناحُرِ؟ أَلِأَنّي أُزْمِعُ أَنْ أُؤَخِّرَ السَّفَرَ لِيَومٍ أَو يَومَينِ آخَرينِ؟ أَقُلْتُ كَذِبًا؟ أَأَخْلَلْتُ بشَرَفي؟»

قالَتْ: «أَجَلْ، لَقَد فَعَلْتَ. والرَّجُلُ الَّذي يُعَيِّرُني بأَنَّهُ ضَحَّى بِكُلِّ شَيءٍ في سَبيلي، هُوَ ولا غَرْوَ أَحَطُّ مِنْ رَجُلٍ فَقَدَ شَرَفَهُ».

فأَجابَ وهُوَ يَنْدَفِعُ خارِجًا: «لَقَد نَفِدَ الصَّبْرُ، ولَمْ يَعُدْ في قَوْسِ الحِلْمِ مَنْزِعٌ... أَوَّهْ!»

وخَرَجَتْ أَنّا في أَثَرِهِ وهْيَ تُتَمْتِمُ والِهَةً: «إِنَّهُ يَكْرَهُني، ويُحِبُّ امْرَأَةً أُخْرى. إِنّي أَنْشُدُ الحُبَّ ولٰكِنَ لا أَجِدُهُ. لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيءٍ إِذًا. انْتَهى كُلُّ شَيءٍ».

وعَرَّجَتْ على حُجْرَتِها، ونَظَرَتْ في المِرْآةِ، وتَساءَلَتْ: «يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِيَ كُلُّ شَيءٍ. فكيفَ؟ كيفَ يَنْتَهي؟»

وتَزاحَمَتِ الخَواطِرُ في ذِهْنِها. أَيْنَ تَذْهَبُ؟ وإِلى مَنْ تَلْجَأُ؟ ولِمَ لا تَموتُ؟ لِمَ لَمْ تَمُتْ يَومَ أَشْرَفَتْ على الهَلاكِ؟ أَلا يُوَفِّرُ مَوتُها على ابْنِها العارَ والشَّنارَ؟ أَلا يَشْعُرُ فرونسكي بالنَّدَمِ يَومَ تَقْضي نَحْبَها؟

وسُرِّيَ عَنْها فابْتَسَمَتْ.

ودَخَلَ فرونسكي، فتَقَدَّمَ مِنْها، وأَمْسَكَ يَدَها بلُطْفٍ، وقالَ: «أَنَّا، لِنَذْهَبْ بَعْدَ غَدٍ، لَقَد وافَقْتُ».

فلَمْ تَرُدَّ عَلَيهِ.

وسَأَلَها: «فما رَأْيُكِ الآنَ؟»

فرَفَعَتْ إِلَيهِ وَجْهًا خَضيبًا بالدُّموعِ، وما لَبِثَتْ أَنْ زَفَرَتْ زَفْرةً مُحْرِقةً، وقالَتْ وهْيَ تَكادُ تَغَصُّ بريقِها: «اهْجُرْني. اتْرُكْني. فأَنا امْرَأَةٌ ساقِطَةٌ. سأَرْحَلُ غَدًا، وسأَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنَ الرَّحيلِ، ولَن أَجُرَّكَ مَعي إِلى الهُوَّةِ، بَل أُزْمِعُ أَنْ أُحَرِّرَكَ، فاذْهَبْ في سَبيلِكَ. أَنْتَ لا تُحِبُّني، اذْهَبْ. أَنْتَ تُحِبُّ سِوايَ».

وتَضَرَّعَ إِلَيها فرونسكي أَنْ تَهْدَأَ، وأَكَّدَ لَها أَنَّ غَيرتَها لا أَساسَ لَها مِنَ الواقِعِ، وأَنَّهُ يُحبُّها، ولَن يَبْرَحَ يُحِبُّها، وأَنَّ حُبَّهُ لَها تَضاعَفَ في الآوِنةِ الأَخيرةِ.

وقَبَّلَ يَدَها، واسْتَطْرَدَ وهْوَ يَضُمُّها إِلَيهِ: «أَنَّا، لماذا تُثيرينَ ما يُرْمِضُ نَفْسَينا؟»

واتَّجَهَتْ إِلَيهِ ببَصَرِها الطَّامِحِ، فرَأَتِ الرِّقَّةَ تَنْبَثِقُ مِنْ عَينَيهِ، وخُيِّلَ إِلَيها أَنَّهُ يَبْكي، وشَعَرَتْ بيَدِها تُبَلِّلُها دُموعُهُ، فتَبَدَّلَتْ في مِثْلِ لَمْحِ الطَّرْفِ مِنَ الغَيرَةِ الهَوْجاءِ إِلى الرِّقَّةِ والحُبِّ.

وأَحاطَتْ عُنُقَهُ بذِراعِها، وغَمَرَتْ وَجْهَهُ الجَميلَ بقُبُلاتِها. قَبَّلَتْهُ في وَجْهِهِ، ثُمَّ نَقَلَتْ شَفَتَيها إِلى عُنُقِهِ ورَأْسِهِ، وقالَتْ هامِسةً: «حَبيبي... حَبيبي... أَوَّهْ!»

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهذا الفصلِ عُنوانًا مُناسبًا.

٢ - تُرى، لِمَ يُحافِظُ بعضُ الأزواجِ على وَضعيَّةِ الزَّواج على الرَّغْمِ مِنِ اقْتناعِ الزَّوجَينِ بأَنَّ علاقَتَهُما الزَّوجيَّةَ يَجِبُ أَنْ تَنْحَلَّ؟

٣ - مِزاجُ أَنّا في هٰذا الفَصْلِ مِزاجٌ ناريٌّ سَريعُ التَّقَلُّبِ. لِمَ هوَ كذلكَ؟ وما مَخاطِرُ هذا المِزاجِ على الحُبِّ أَو على العَلاقَةِ بينَ الشَّريكَينِ؟

٤ - رَكَّزَ تولستوي على دَورِ الغَيرَةِ في فَصمِ العَلاقةِ بينَ أَنّا وفرونسكي. هَل تَرى معهُ أَنَّ الغَيرةَ سببٌ في انْفِصامِ عُرى عَلاقةٍ كهذه؟ عَلِّلْ رَأْيَكَ.

٥ - «وسُرِّيَ عنها فابتَسَمَتْ». هٰذهْ عِبارَةٌ قالَها الكاتبُ بعدَ مُناجاةٍ داخليَّةٍ خاطبَتْ بها أَنّا نَفْسَها. فهَل عَرَفْتَ لِمَ ابتَسَمَتْ فَجْأَةً، ولِمَ سُرِّيَ عنها؟ تَأَمَّلْ قليلًا في المناجاةِ تلكَ، ثُمَّ أَوْضِحِ السَّبَبَ.

٦ - هَل تَرى أَنَّ الغَيرَةَ قد وَصَلَتْ بأَنّا إِلى حدِّ التَّفكيرِ في الانْتحارِ؟ بَرْهِنْ ذلكَ - إِنِ استطَعْتَ - مِمّا تَراهُ في الفصلِ هٰذا.

٧ - في هٰذا الفَصلِ بيانٌ مُسْهَبٌ عن مَشاعِرِ الغَيرَةِ الَّتي تُعانيها المَرْأَةُ الغَيرى على مَنْ تُحِبُّ. أَترى أَنَّ غَيرَةً كهذِهْ تَصْدُرُ عن إِنسانٍ سَوِيِّ النَّفسِ، أَمْ إِنَّ لكَ رأْيًا آخَرَ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِلَيهِ.

٨ - أَوْجِزْ مضمونَ الفَصْلِ في أَسطُرٍ قَليلَةٍ.

الفصل الثّاني عشر

شَعَرَتْ أَنّا بتَجَدُّدٍ في نَشاطِها، وانْبِعاثٍ جَديدٍ في حَياتِها، فبَكَّرَتْ في النُّهوضِ صَباحَ اليَومِ التّالي، وأَقْبَلَتْ على امْتِعتِها ومَلابِسِها تُنَضِّدُها في الحقائِبِ. ودَخَلَ عَلَيها فرونسكي، وقالَ بَعْدَ أَنْ حَيّاها: «سأَذْهَبُ للتَّوِّ كَيْ أَرى أُمِّي، وأُنْهيَ كُلَّ الأُمورِ المُعَلَّقةِ مَعَها».

ومَعَ أَنَّها كانَتْ وادِعةً ناعِمةَ البالِ، فإِنَّ مُجَرَّدَ تَفْكيرِ فرونسكي في زيارَةِ أُمِّهِ كَدَّرَ نَفْسَها، فشَعَرَتْ بالكآبةِ والضِّيقِ.

غَيرَ أَنَّها كَتَمَتْ ما خالَجَها، ودَلَفَتْ مَعَهُ إلى غُرفَةِ الطَّعامِ. ولمّا جَلَسا إِلى المائِدَةِ ليَتَناولا طَعامَ الإِفْطارِ قالَتْ أَنّا وهْيَ تَزْوي ما بَينَ حاجِبَيها[1]: «لَكَمْ أَصْبَحَتْ هٰذِهِ الغُرَفُ مَقيتةً لَدَيَّ! ولِهٰذا تَراني أَتَشَوَّفُ إلى مُغادَرتِها غَدًا».

وتَغَيَّرَتْ نَظْرَتُها بَغْتةً، فقَطَّبَتْ؛ وكانَ ذٰلِكَ لأَنَّ الخادِمَ دَخَلَ في تِلْكَ الدَّقيقَةِ يَطْلُبُ إلى فرونسكي أَنْ يُوَقِّعَ «إِيصالَ» بَرقِيَّةٍ تَلَقَّاها مِن بطرسبرج.

ولمّا ذَهَبَ الخادِمُ سَأَلَتْهُ مُشَكِّكَةً: «ومِمَّنِ البَرْقيَّةُ؟»

- «مِنْ أَخيكِ».

- «وماذا مَنَعَكَ مِن إِطْلاعي عَلَيها؟»

فدَعا فرونسكي الخادِمَ، وأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ بالبَرقِيَّةِ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى أَنّا وقالَ: «رَغِبْتُ في كَتْمِ خَبَرِها، حتَّى لا أَخْدِشَ مَشاعِرَكِ».

- «أَهِيَ بصَدَدِ الطَّلاقِ؟»

- «نَعَمْ».

---

(١) تَزْوي ما بَينَ حاجِبَيها: تُقَطِّبُ وتَعْبِسُ.

وتَناوَلَتْ أَنّا البَرْقِيَّةَ بَيدٍ مُرْتَعِشةٍ، وقَرَأَتِ الكَلماتِ المُخَيِّبةَ لأَمَلها. وما أَبْطَاتْ أَنْ قالَتْ بصَوتٍ عَميقٍ ثابِتٍ: «أَنْهَيْتُ إِلَيكَ البارِحةَ أَنَّ الطَّلاقَ لا يَعْنيني في قَليلٍ أَو كَثيرٍ».

- «ولٰكِنَّهُ أَمْرٌ لا بُدَّ لَنا مِنهُ يا أَنّا، فما بالُكِ لا تَكْتَرِثينَ لَهُ؟ أَلا يُصيبُ أَوْلادَنا العارُ الأَبَديُّ إِنْ لَمْ نَقْتَرِنْ، وإِنْ لَمْ نَعِشْ مَعًا حَياةَ زَوْجَينِ صالِحَينِ كسائِرِ الأَزْواجِ؟»

فقالَتْ مُحْتَدَّةً: «لَن أُنْجِبَ المَزيدَ مِنَ الأَطْفالِ».

- «وهٰذا أَمْرٌ يُؤْسَفُ لَهُ».

- «أَنْتَ تَريدُ الطَّلاقَ مِنْ أَجْلِ الأَطْفالِ، ولا تَبْغيهِ مِنْ أَجْلي أَنا».

- «مِنْ أَجْلِنا جَميعًا. ثِقي بقَوْلي... آمِني بي... ماذا أَصابَكِ؟»

ونَظَرَ إِلى أَصابِعِها المُتَقَبِّضَةِ على فِنْجانِ القَهْوةِ، ورَأَتْ في عَينَيهِ اشْمِئْزازًا ونُفورًا، فسارَعَتْ تَقولُ: «لا أُبالي رَأْيَ أُمِّكَ، ولا الفَتاةَ الَّتي تُعِدُّ العُدَّةَ لزَفِّها إِلَيكَ».

فقالَ مَشْدوهًا: «لٰكِنَّنا لم نَطْرُقْ هٰذا المَوضوعَ».

- «بَل إِنَّنا كُنَّا نَتَحَدَّثُ في هٰذا الصَّدَدِ، واعْلَمْ أَنّي لا أَحْفِلُ أُمَّكَ ولا أَحْتَرِمُها».

- «أَنّا! اِحْذَري. أَرْجوكِ، لا تَسْتَهيني بأُمِّي أَمامي».

- «المَرْأَةُ الَّتي لا يَقولُ لَها قَلْبُها أَيْنَ سَعادةُ وَلَدِها، لا قَلْبَ لَها».

وحَدَجَها بنَظْرَةٍ ناريَّةٍ ارْتَجَفَتْ لَها أَوصالُها.

وافْتَرَقَ الاِثْنانِ.

غادَرَ هُوَ المَنْزِلَ، ولم يَرْجِعْ.

ولمّا قَفَلَ عائِدًا في هَزيعٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيلِ، قالَتْ لَهُ الخادمةُ أَنَّ سَيِّدَتَها تَشْكو الصُّداعَ، وتَرْغَبُ في أَلَّا يُزْعِجَها أَحَدٌ.

* * *

ما كانَ مِنْ قَبْلُ أَنْ مَرَّ يَومٌ مِنْ دونِ شِجارٍ، أَمّا اليَومُ هٰذا فكانَ أَوَّلَ تِلكَ الأَيّامِ الَّتي مَرَّتْ بسَلامٍ. لٰكِنَّهُ سَلامٌ مَقْرورٌ، سَلامٌ مَثْلوجٌ، سَلامٌ أَقْرَبُ إِلى المَوتِ، بَل نَذيرٌ بحُلولِ العَداوَةِ والكَراهِيَةِ والبَغْضاءِ مَحَلَّ التَّفاهُمِ والتَّقارُبِ والمَحَبَّةِ.

وقَد أَمْضَتْ أَنّا النَّهارَ بطُولِهِ في حَيرَةٍ وبَلْبَلةِ فِكْرٍ. فهَل - يا تُرى - ذَهَبَ الأَمَلُ، أَمْ إِنَّ هٰذِهِ السَّحابةَ القاتِمةَ لَن تَلْبَثَ أَنْ تَنْجابَ وتَنْحَسِرَ؟

وفي المَساءِ، وقَبْلَ أَنْ تَلوذَ بحُجْرتِها، طَلَبَتْ إِلى الخادِمةِ أَنْ تَقولَ لسَيِّدِها، مَتى عادَ إِلى البَيْتِ، إِنَّها تَأَلَّمتْ مِنْ وَجَعِ الرَّأْسِ وتَرْغَبُ في أَلَّا يُوقِظَها أَحَدٌ مِنْ نَوْمِها.

وقالَتْ لنَفْسِها ساعةَ اسْتَلْقَتْ على فِراشِها: «إِنْ هُوَ ضَرَبَ عُرْضَ الحائِطِ بكَلامِ الخادِمةِ، واقْتَحَمَ عَليَّ المَخْدَعَ، كانَ في قَلْبِهِ حُبٌّ أَكيدٌ لي. أَمّا إِذا لَم يَفْعَلْ، فمَعْنى ذٰلِكَ أَنَّه فَقَدَ كُلَّ حُبٍّ لي، ومَعْناهُ أَيْضًا أَنّهُ يَتَحَتَّمُ عَليَّ أَنْ أَتَدبَّرَ الأَمْرَ في ضَوْءِ الحَقيقَةِ المُمِضَّةِ المُرْمِضَةِ».

وأَصْغَتْ إِلى صَوتِ عَرَبَتِهِ وهْيَ تَقِفُ لَدى البابِ، فخَفَقَ قَلْبُها خِفْقةَ التَّرَقُّبِ. وأَصاخَتْ إِلى خُطاهُ وهْوَ يَصْعَدُ في السَّلالِمِ، ثُمَّ أَرْهَفَتِ السَّمْعَ إِلى ما دارَ بَينَهُ وبَينَ الخادِمِ والخادِمةِ. وعَلِمَتْ، ونَفْسُها تَطيرُ شَعاعًا، أَنَّهُ حَمَلَ كَلامَ الخادِمةِ مَحْمَلَ الجِدِّ والصِّدْقِ، ولَمْ يَحْفِلِ الأَمْرَ، بَل مَضى إِلى حُجْرتِهِ بهُدوءٍ.

فكُلُّ شَيءٍ إِذًا أَضْحى حُلْمَ لَيلةٍ. كُلُّ شَيءٍ غَدا أَضْغاثًا تَعْقُبُها صَحْوةٌ مُحْزِنةٌ.

وتَجَسَّمَ المَوتُ في ناظِرَيها وَسيلَةً لاسْتِردادِ مَحَبَّتِهِ، ولمُعاقَبتِهِ على قَسْوتِهِ وغَدْرِهِ، ولَمْ تَعُدْ تَكْتَرِثُ لِشَيءٍ آخَرَ. فالسَّفَرُ إِلى القَرْيَةِ وعَدَمُهُ سِيّانِ. والظَّلامُ وعَدَمُهُ لا يُؤَثِّرانِ. أَمّا العِقابُ فأَمْرٌ لازِمٌ، يَجِبُ أَنْ تُعاقِبَهُ، يَجِبُ أَنْ تَموتَ حتَّى تَحِلَّ عَليهِ اللَّعْنةُ.

ولمّا جَرَعَتْ قَطَراتِ الأَفْيونِ لتَهْجَعَ، فَكَّرَتْ في سُهولةِ المَوْتِ. فهَل تَشْرَبُ ما في القارورَةِ؟ إِنْ فَعَلَتْ فلَن يَأْتِيَ عَلَيها صَباحٌ آخَرُ تَرى شَمْسَهُ.

واسْتَلْقَتْ مُفَتَّحةَ العَينَينِ، تَشْخَصُ إِلى السَّقْفِ وتُحدِّقُ، وتُفَكِّرُ أَفْكارَها المَجْنونةَ.

وعَلِمَتْ في الصَّباحِ أَنَّ الأَميرةَ سوروكينَ وأُمَّها عَرَّجَتا على الدَّارِ واجْتَمَعتا إِلى فرونسكي.

وتَوَجَّهَتْ إِلى حُجْرتِهِ ودَخَلَتْ، فأَخْبَرَها مُسْرِعًا بقُدومِ الفَتاةِ وأُمِّها، ثُمَّ قالَ وهْوَ يَتَفادى نَظَراتِ اليَأْسِ الَّتي رَمَتْهُ بها: «وسنُسافِرُ غَدًا، غَدًا...».

قالَتْ: «أَنْتَ، أَنْتَ فَقَطْ!»

قالَ: «دَعينا مِنْ هٰذا يا أَنّا».

- «أَنْتَ... أَنْتَ تُسافِرُ، أَمّا أَنا، فلا...».

- «أَنّا...».

- «وستَنْدَمُ، ستَنْدَمُ... ولاتَ ساعةَ نَدامَةٍ».

وانْدَفَعَتْ خارِجةً.

وصاحَ: «أَنّا...».

وهُرِعَ وَراءَها، لٰكِنَّهُ تَوَقَّفَ ونكَصَ، وصَرَفَ بأَسْنانِهِ. وأَنْشَأَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «إنَّها تُهَدِّدُني... ما هٰذا؟ ما هٰذا إلّا الجَحيمُ بعَينِهِ! لَقَد بَذَلْتُ ما في وُسْعي، ولٰكِنَّها لا تَوَدُّ أَنْ تَفْهَمَ، والشَّيءُ الوَحيدُ الباقي هو الإغْضاءُ».

وغادَرَ البَيتَ، وسَمِعَتْ أَنّا صَوتَ البابِ يُصْفَقُ وَراءَهُ، وهَديرَ العَرَبةِ وهْيَ تَبْتَعِدُ بهِ. ونَظَرَتْ مِنَ النَّافِذَةِ، فرَأَتْ رَأْسَهُ الجميلَ المُتَعالِيَ، وطَوَّحَتْ بنَفْسِها إلى الأَرْضِ مُعْوِلَةً، وصاحَتْ بصَوتٍ يُذيبُ الجُلْمودَ: «يا إلٰهي! لَقَد ذَهَبَ! يا إلٰهي! لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيءٍ».

* * *

ونَهَضَتْ إلى النَّافِذَةِ ثانِيَةً، ثُمَّ انْدَفَعَتْ خارِجَةً وصاحَتْ بمِلءِ فيها تَسْتَدْعي الخادِمَ.

فلمّا هَرْوَلَ إلَيها، جَلَسَتْ إلى مائِدَةٍ صَغيرَةٍ، وكَتَبَتْ: «أَخْطَأْتُ في حَقِّكَ، فارْجِعْ، ارْجِعْ، فلَدَيَّ ما أَبُثُّكَ إيّاهُ. اِرْجِعْ بحَقِّ السَّماءِ، فأَنا خائِفَةٌ!»

ثُمَّ ناوَلَتْها الرَّجُلَ، وأَمَرَتْهُ بأَنْ يَتَعَقَّبَ عَرَبَةَ فرونسكي ويُعْطيَهُ الرُّقْعةَ.

ورَجَعَ الرَّجُلُ بَعْدَ ساعةٍ مُطأْطِئَ الرَّأْسِ، وأَعادَ الوَرَقَةَ وهْوَ يَعْتَذِرُ، فقَد أَخْفَقَ في مُهِمَّتِهِ، ولم يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتَشِفَ المَكانَ الَّذي قَصَدَ إلَيهِ سَيِّدُهُ.

* * *

كانَتِ الشَّمْسُ مُشرِقةً تُرسِلُ خُيوطَها المُذَهَّبَةَ إلى الحُجُراتِ والغُرَفِ؛ لٰكِنَّ أَنّا شَعَرَتْ بالبُرودةِ، شَعَرَتْ بجَسَدِها يَتَجَمَّدُ ويُصْبحُ مَقْرورًا مَثْلوجًا. شَعَرَتْ بالنِّهايةِ.

لقد ذَهَبَ... ذَهَبَ إلى غيرِ رَجْعةٍ... أَوَّهْ!

وخَرَجَتْ، فاسْتَقَلَّتِ العَرَبَةَ، وأَمَرَتِ الحُوذِيَّ أَنْ يسيرَ مِنْ دونِ أَنْ تَذْكُرَ لَهُ مَكانًا مُعَيَّنًا.

وراوَدَتْها فِكْرةُ المَوْتِ ثانِيةً، ونَقَمَتْ على نَفْسِها لِضَعتِها وخُنوعِها، وقالَتْ: «انا المَلومَةُ، لَقَد تَطامَنْتُ[1] كَثيرًا واسْتَخْذَيْتُ».

وفَكَّرَتْ بَغْتَةً في فرونسكي. إِنَّهُ مَقيتٌ، إِنَّهُ كَريهٌ. وعَجِبَتْ كَيفَ هَوِيَهُ قَلْبُها؛ لٰكِنَّها فَكَّرَتْ أَيْضًا في الانْتِقامِ مِنْهُ.

وصاحَتْ بالحُوذِيِّ أَنْ يَنْثَنِيَ إِلى طَريقِ مَحطَّةِ القِطاراتِ الحَديديَّةِ. فهْيَ تَكادُ تُوقِنُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِزيارةِ أُمِّهِ في الضَّواحي؛ وستَذْهَبُ وَراءَهُ، ستَجْتَمِعُ إِلَيهِ لآخِرِ مَرَّةٍ لتُطْلِعَهُ على كُلِّ شَيءٍ، ولِتُطْلِعَهُ أَيْضًا على قَرارِها.

وعادَتْ بَعْدَ قَليلٍ فأَمَرَتِ الحُوذِيَّ أَنْ يُعَرِّجَ على البَيتِ، فقَد يَأْتي قَبلَ حُلولِ الظَّلامِ.

وعَزَمَتْ على أَنْ تُنَفِّذَ خُطَّتَها في اللَّيلِ إِنْ لَمْ يَعُدْ. عَزَمَتْ أَنْ تَأْخُذَ قِطارَ الثّامِنةِ العائِدَ إِلى القَرْيَةِ الَّتي تَقْطُنُ فيها أُمُّهُ.

وكانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذا القِطارَ يَصِلُ إِلى موسكو ثُمَّ يَعودُ مِنْ حَيثُ أَتى، ولَعَلَّ فرونسكي يَأْتي فيهِ.

ووَضَعَتْ بَعْضَ المَلابِسِ في حَقيبَةٍ صَغيرَةٍ، ودَلَفَتْ إِلى غُرفَةِ المائِدَةِ؛ لٰكِنَّ رائِحةَ الطَّعامِ كانَتْ كافِيَةً لجَعْلِها تَشْمَئِزُّ مِنَ المَأْكولاتِ كُلِّها. وانْطَلَقَتْ خارِجةً وكأَنَّها تَفِرُّ مِن خَطَرٍ أَو كَريهةٍ.

وطَفِقَتْ تَتَنَقَّلُ في الغُرَفِ الأُخْرى، وهَبَطَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلى الحَديقةِ فجاسَتْ[2] خِلالَها، وهْيَ مُسْتَغْرِقةٌ في الفِكْرِ. لٰكِنَّ فِكْرَها كانَ بِلا مَعْنًى، كانَ فِكْرًا قانِطًا، مُوَزَّعًا مُشَتَّتًا، لا يَسْتَقِرُّ على حالٍ، ولا يَطْمَئِنُّ إِلى وَسيلةٍ أَو طَريقةٍ أَو نَهْجٍ قَويمٍ.

وشَرَدَ طَرْفُها، وانْفَرَجَتْ شَفَتاها عَنِ ابْتِسامةٍ مُسْتَسْلِمةٍ راضِخةٍ. لَقَد قَنِعَتْ. قَنِعَتْ...

لَقَد اضْحَتْ كالفَيلَسوفِ القانِعِ.

وكانَتْ تَنْتَظِرُ، تَنْتَظِرُ شَيئًا...

---

(١) تَطامَنَ: انْخَفَضَ.

(٢) جاسَتْ خِلالَ الحَديقةِ: دارَتْ فيها، طافَتْ فيها.

وكانَتْ لا تَعْلَمُ ما هِيَ في انْتِظارِهِ...

وكانَتْ لا تَوَدُّ أَنْ تَعْلَمَ.

لَقَد أَسْلَمَتْ أَمْرَها إِلى القَدَرِ،

ولم يَعُدْ لَها في الوُجودِ وُجودٌ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ لهٰذا الفَصلِ عُنوانًا مناسبًا.

٢ - هَل تَرى أَنَّ عُقدَةَ الرِّوايَةِ بَدَأَتْ تَتَلَمَّسُ طَريقَها إِلى الحَلِّ؟ هَل توقَّعْتَ هٰذا الحَلَّ؟ وما هوَ؟

٣ - ما الَّذي غَيَّرَ مَجْرى الأَحْداثِ في هذا الفَصلِ؟

٤ - مِنْ أَيْنَ هَبَّتْ رِياحُ الخَطَرِ على أَنّا كارنينا؟ ومَنْ هي المُنافِسَةُ المُحْتَمَلَةُ؟

٥ - أَما زالَتْ غيرَةُ أَنّا في هذا الفَصلِ غَيرةً طَبيعيَّةً، أَمْ تَراها غَدَتْ حالةً مَرَضِيَّةً؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِليهِ.

٦ - إِلى أَيْنَ قادتِ الغَيرَةُ أَنّا كارنينا؟

٧ - ارْبِطْ، في أَسطرٍ قليلةٍ، بَينَ أَحداثِ القِسمِ الرَّابعِ مِنَ الرِّوايةِ.

الخاتمة

خَبَّتِ الخَيلُ المُطَهَّمةُ[1]، وانسابَتِ العَرَبةُ وَراءَها بتَمايُلٍ ورَجَحانٍ. ولَو كانَ للقُنوطِ وَزْنٌ، لعَجَزَتِ الخَيلُ عَنِ السَّيرِ، ولَحُطِّمَتِ العَرَبةُ شَرَّ تَحْطيمٍ مِنْ كَثْرةِ ما جَلَبْتُهُ أَنّا مِنْ يَأْسٍ ومِنْ قُنوطٍ!

اِنْسابَتِ العَرَبةُ المُحَمَّلةُ يَأْسًا، وطَفِقَتِ الوالِهةُ المُضْناةُ تَهْجِسُ وتَقولُ: «فيمَ فَكَّرْتُ مُنْذُ ساعةٍ؟ في المُزَيِّنِ؟ في شَعْري؟ في الخادِمِ؟ في فرونسكي؟ فيمَ فَكَّرْتُ؟»

ولَمَحَتْ شُرْطِيًّا يَجُرُّ رَجُلًا ثَمِلًا مُضَيَّعَ الحَواسِّ، فقالَتْ: «إِنَّهُ أَبْرَعُ مِنّا! لَقَدِ اكْتَشَفَ العِلاجَ، أَمّا أَنا والكونتُ فرونسكي فلَمْ نَهْتَدِ إِلى السَّعادةِ الَّتي اهْتَدى إِلَيها الرَّجُلُ».

وتَأَمَّلَتْ في عَلاقَتِها بِهِ مُنْذُ البَدْءِ. ماذا طَلَبَ؟ وإِلى أَيِّ شَيءٍ سَعى؟

وتَساءَلَتْ: «أَجَلْ، ماذا أَرادَ مِنّي؟ لم يُرِدِ الحُبَّ بقَدْرِ ما أَرادَ إِشْباعَ الغُرورِ. أَجَلْ إِنَّ نَظْرَتَهُ كانَتْ تَشي بِهِ، كانَ يَنْظُرُ نِظْرَةَ الرَّجُلِ المُنْتَصِرِ الَّذي ظَفِرَ بأُمْنِيَتِهِ. لَقَد أَحَبَّني، لٰكِنَّ غُرورَهُ كانَ أَعْظَمَ مِن غَرامِهِ. وقَد طالَما فَخَرَ بعَلاقَتِهِ بي. ولمّا انْطَفَأَتْ جَذْوَةُ حَماسَتِهِ لَمْ يَعُدْ هُناكَ ما يَفْخَرُ بِهِ، بَل ما يَنْدى لَهُ جَبينُهُ خَجَلًا. لَقَد أَخَذَ مِنّي أَقْصى ما يَسْتَطيعُ أَخْذَهُ، حتَّى أَصْبَحْتُ الآنَ عَديمةَ النَّفْعِ لَهُ! لَقَد سَئِمَني، لٰكِنَّهُ يَبْذُلُ وُسْعَهُ حتَّى لا يَفْضَحَ مَلَلَهُ أَمامي، فيُكَدِّرَني ويُشْقيَني. ومَتى ذَهَبْتُ مِن حَياتِهِ اسْتَعادَ سَعادتَهُ. إِنَّني أَرى ذٰلِكَ واضِحًا في نَظْرتِهِ، إِنَّهُ شَقِيٌّ مَعي، لٰكِنَّهُ لا يَعْتَرِفُ بشَقائِهِ».

وزَفَرَتْ زَفْرَةً مُحْرِقةً، ومَضَتْ في مُناجاتِها البائِسَةِ: «وحُبِّي... حُبِّي يَزْدادُ مَعَ الأَيّامِ لَهيبًا؛ أَمّا حُبُّهُ فيَتَعَثَّرُ ويَتَرَنَّحُ ويَلْفِظُ أَنْفاسَهُ! إِنَّني أُريدُهُ، أُريدُهُ لي وَحْدي، وهُوَ يَذْهَبُ ويَبْتَعِدُ ويَزولُ، أَوَّهْ! أَوَّهْ! ولَو سَلَّمْنا بأَنَّ زَوْجي أَطْلَقَ لي حُرِّيَّتي فتَزَوَّجْتُ فرونسكي، لَو

(١) الخَيلُ المُطَهَّمَةُ: التَّامَّةُ الحُسْنِ.

سَلَّمْنا جَدَلًا بأَنّي تَزَوَّجْتُهُ فهَل تَتَغَيَّرُ نِظْرَةُ النَّاسِ إِلَيَّ؟ هَل يَتَبَدَّلُ احْتِقارُهُمْ إِلى احْتِرام، وزِرايَتُهُمْ إِلى إِجلالٍ! كَلّا... كَلّا... كُلُّ شَيءٍ سَيَظَلُّ على ما هُوَ، كُلُّ شَيءٍ، حتَّى شِجاري مَعَ فرونسكي، وحتَّى غَيرَتي مِن كُلِّ امْرَأَةٍ تَعْتَرِضُ طَريقي».

وتَنَبَّهَتْ إِلى صَوتِ الحُوذِيِّ يُنْبِئُها بالوُصولِ إِلى المَحَطَّةِ، فتَرَجَّلَتْ مُسْرِعَةً، وتَلَفَّتَتْ حَولَها، ثُمَّ ابْتاعَتْ بِطاقةً ودَلَفَتْ إِلى القِطارِ.

وزَعَقَ القِطارُ بصَفيرٍ ثاقِبٍ، وفَحَّ البُخارُ فَحيحًا شَديدًا، واحْتَكَّ الحَديدُ ببَعْضِهِ، وصَلْصَلَتِ السَّلاسِلُ، ورَسَمَ مُسافِرٌ يَجْلِسُ في الكُرْسِيِّ المُقابِلِ لكُرْسِيِّها عَلامةَ الصَّليبِ على وَجْهِهِ، فحَدَجَتْهُ بنَظْرةٍ غاضِبةٍ، ووَدَّتْ لَو اسْتَطاعَتْ أَنْ تَسْأَلَهُ عَن مَعْنى هٰذِهِ الحَرَكَةِ في هٰذا الوَقْتِ. ولٰكِنَّها تَمالَكَتْ نَفْسَها، وضَبَطَتْ مَشاعِرَها، وأَشاحَتْ عَنِ الرَّجُلِ وجْهًا مُقَطِّبًا مَكْدودًا، رَسَمَ عَلَيهِ الهَمُّ أَخاديدَهُ وخُطوطَهُ، حتَّى بَدَتْ في تِلْكَ السَّاعةِ كأَنَّها امْرَأَةٌ أَهْرَمَتْها السِّنونَ الكَثيرةُ، وفَتَّتْ في عَضُدِها، ولم تُبْقِ مِنْها إِلَّا شَبَحَ إِنْسانٍ.

وسُرْعانَ ما نَسِيَتْ أَنَّها تَجْلِسُ مَعَ آخَرينَ، ولم تَعُدْ تَشْعُرُ بوُجودِ أَحَدٍ، وحَلَّقَتْ ثانيةً في فَضاءِ الفِكْرِ: «فيمَ كُنْتُ أُفَكِّرُ؟ آهٍ، وَصَلْتُ إِلى نُقْطةٍ اكْتَشَفْتُ مَعَها انّي تَعيسةٌ شَقيَّةٌ، إِلَّا أَنَّنا جَميعًا خُلِقْنا لنكونَ تُعَساءَ أَشْقياءَ، وإِنَّنا نَعْلَمُ ذٰلِكَ جَيِّدًا، لٰكِنَّنا نَخْتَرِعُ الوَسائِلَ ونَسْتَنْبِطُ الحِيَلَ لنَخْدَعَ أَنْفُسَنا ونَخْدَعَ سِوانا مِنَ الخَلْقِ، على أَنَّ المَرْءَ مَتى رَأَى الحَقيقةَ، ومَتى عَلِمَ كُلَّ شَيءٍ، كانَ عَلَيهِ أَنْ... عَلَيهِ أَنْ...».

وقالَتِ امْرَأَةٌ لرَفيقِها: «ولهٰذا السَّبَبِ أُعْطِيَ الإِنْسانُ عَقْلًا، أُعْطِيَ العَقْلَ لِيَتَدَبَّرَ بهِ أَمْرَهُ، ولِيُعالِجَ شُؤونَهُ، ولِيَحُلَّ عُقَدَهُ».

وشُدِهَتْ أَنّا، هَلِ اسْتَبْطَنَتِ المَرْأَةُ دَخيلَتَها، فأَحَبَّتْ أَنْ تَرُدَّ على فِكْرِها؟

وهَزَّتْ رَأْسَها، وغَمْغَمَتْ: «لا مَنْدوحَةَ لي عَنِ الفِرارِ... الفِرارِ... الفِرارِ مِن شَيءٍ مَقيتٍ، رَهيبٍ، مُريعٍ!»

* * *

ووَصَلَ القِطارُ إِلى القَرْيةِ، وخَفَّتْ سُرْعَتُهُ، فنَهَضَتْ أَنّا ومَشَتْ مُسْرِعةً ثُمَّ تَرَجَّلَتْ، وابْتَعَدَتْ عَنِ الزَّحْمَةِ، وكأَنَّها تَبْتَعِدُ عَن قَوْمٍ حَلَّ بِهِمُ الوَباءُ.

وتَساءَلَتْ مَبْهوتَةً عَن سَبَبِ مَجيئِها، ونَظَرَتْ مُتَذَمِّرَةً إلى النَّاسِ المُهَرْوِلينَ هُنا وهُناكَ، وغَضِبَتْ. ما بالُهُمْ لا يَتْرُكونَها وشَأْنَها؟ لِمَ لا يَبْتَعِدونَ؟ لا يَذْهَبونَ؟ ألا يحِقُّ لَها أَنْ تَنْعَمَ قَليلًا بالوَحْدَةِ؟

وتَذَكَّرَتْ بَغْتَةً أَنَّها ذاهِبَةٌ لتَرى فرونسكي في مَنْزِلِ أُمِّهِ، فاسْتَوْقَفَتْ حَمَّالًا، وقالَتْ تَسْأَلُهُ: «أَلَم يَأْتِ أَحَدٌ مِنْ لَدُنِ الكونتِ فرونسكي، رَسولٌ، خادِمٌ، يَحْمِلُ رُقعةً لي؟»

فأَجابَها الرَّجُلُ وهْوَ يُصَعِّدُ فيها طَرْفَهُ: «الكونتُ فرونسكي؟ لَقَد أَرْسَلَ مُنْذُ لَحظاتٍ عَرَبَتَهُ لمُلاقاةِ الأَميرةِ سوروكينَ وكَريمتِها».

فقالَتْ: ومَنْ جاءَ بالعَرَبَةِ؟ مَنِ الحوذيُّ؟ أَتَعْرِفُهُ؟»

وبَدا لَها في تِلْكَ اللَّحْظةِ وَجْهُ رَجُلٍ تَعْرِفُهُ جَيِّدًا. إِنَّهُ ميهائيل الحوذِيُّ، إِنَّهُ الحوذيُّ الَّذي أَقَلَّها مِرارًا في عَرَبَتِهِ.

واسْوَدَّتِ الدُّنْيا في عَينَيها، وغامَ نَظَرُها، واقْشَعَرَّ جَسَدُها، وقالَتْ: «لَن أَدَعَكَ تَسْتَمِرُّ في تَعْذيبي، لَن أَسْمَحَ لَكَ بأَنْ تُواصِلَ التَّنْكيلَ بي».

ولَمْ يَكُنْ كَلامُها مُوَجَّهًا إلى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، لَمْ يَكُنْ مُوَجَّهًا إلى إِنْسانٍ، بَل إلى القُوَّةِ الغاشِمَةِ الَّتي كالَتْ لَها الأَلَمَ والعَذابَ. ومَشَتْ على الرَّصيفِ.

ورَأَتْها خادِمَتانِ، فتَلَفَّتَتا وحَدَّقَتا إلى مَلابِسِها، وقالَتْ واحِدَةٌ للأُخْرى: «بارِعَةُ الجَمالِ! إِنَّها حَسْناءُ أَنيقَةٌ، ولَنْ يَتْرُكَها الرِّجالُ بسَلامٍ».

ودَنا مِنها ناظِرُ المَحَطَّةِ، وسَأَلَها مُسْتَفْسِرًا عَن وُجْهَتِها.

ورَكَضَ نَحْوَها صَبِيٌّ فباعَها شَيئًا.

وَهَتَفَتْ بمَرارةٍ: «يا إِلٰهي! إلى أَيْنَ؟ إلى أَيْنَ أَذْهَبُ؟»

واسْتَمَرَّتْ تَمْشي إلى الأَمامِ، واسْتَمَرَّتْ تَتَقَدَّمُ. وتَوَقَّفَتْ في نِهايةِ الرَّصيفِ.

وحَدَّقَ إِلَيها قَومٌ مِنَ المُسافرينَ، وتَهامَسوا، فسارَعَتْ مُبْتَعِدَةً ولَمْ تَلْتَفِتْ. وسَمِعَتْ صَوتَ قِطارٍ آتٍ مِنْ بَعيدٍ، وعَلِمَتْ مِنْ هَديرِ آلَتِهِ أَنَّهُ قِطارُ البَضائِعِ المُتَّجِهُ إلى موسكو.

وتَراءى لَها بَغْتَةً ذٰلِكَ الرَّجُلُ الَّذي سَحَقَتْهُ عَجَلاتُ القِطارِ في أَوَّلِ لِقاءٍ لَها مَعَ فرونسكي، وعَلِمَتْ في مِثْلِ غَمْضَةِ عَينٍ وفَتْحَتِها ما يَجْدُرُ بها أَنْ تَفْعَلَ.

وبخُطًى مُسْرِعَةٍ هَبَطَتْ مِنَ الرَّصيفِ إلى الخَطِّ الحَديديِّ، وواجَهَتِ القِطارَ القادِمَ.

وطَفِقَتْ تَنْظُرُ إلى الجُزْءِ المُنْخَفِضِ مِنَ العَرَباتِ، وتَتَأَمَّلُ في المَساميرِ والسَّلاسِلِ، وتُحَدِّقُ إلى العَجَلاتِ الحَديديَّةِ المُقْتَرِبَةِ ببُطْءٍ، وكأَنَّها تُحاوِلُ أَنْ تَقيسَ بنَظَرِها المَسافةَ بَينَ العَجَلَةِ والعَجَلَةِ.

وهَتَفَتْ: «هُناكَ... هُناكَ... في الوَسَطِ... النِّهايةُ في الوَسَطِ! سأُعاقِبُهُ، سأَطْعَنُهُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ الَّتي لم يَحْدُسْها... سأَفِرُّ مِنَ الجَميعِ... سأَفِرُّ مِنْ نَفْسي».

وتَطَلَّعَتْ إلى السَّماءِ، ثُمَّ إلى الأَرْضِ، وأَنَّتْ.

* * *

وحاوَلَتْ أَنْ تُلْقِيَ بنَفْسِها تَحْتَ عَجَلاتِ العَرَبةِ الأُولى، لٰكِنَّ حَقيبتَها عاقَتْها، فطَوَّحَتْ بها غاضِبَةً، وانْتَظَرَتْ مُرورَ العَرَبةِ الثَّانيةِ.

وانْتابَها شُعورٌ عَجيبٌ، شَعَرَتْ بِمِثْلِ ما شَعَرَتْ بِهِ يَومَ أَقْدَمَتْ على القَفْزِ مِنْ شاهِقٍ إلى اليَمِّ في يَومٍ مَضى، ورَفَعَتْ يَدَها فرَسَمَتْ على وَجْهِها عَلامةَ الصَّليبِ.

وأَرْجَعَتْها هٰذِهِ الحَرَكةُ سِنينَ إلى الوَراءِ، فرَأَتْ نَفْسَها طِفْلَةً لَعوبًا. وتَمَزَّقَ فَجْأَةً سِتارُ الظَّلامِ الكَثيفِ الَّذي حَجَبَ عَنها كُلَّ شَيءٍ، وسَطَعَتْ لَها الحياةُ بَغْتَةً بكُلِّ مَباهِجِها ومُتَعِها.

بَيدَ أَنَّها ظَلَّتْ تُحَدِّقُ إلى العَجَلاتِ المُقْتَرِبةِ. وما كادَتِ العَجَلاتُ تَصِلُ إلى مُحاذاتِها، وما كادَتْ تُبْصِرُ بالفَراغِ الَّذي يَفْصِلُ بَينَ العَجَلَةِ الأُولى وما يَليها، حتَّى غَيَّبَتْ عُنُقَها في كَتِفَيْها وارْتَمَتْ على يَدِها تَحْتَ العَرَبَة.

* * *

وفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الخاطِفةِ نَفْسِها أَصابَها رُعْبٌ رَهيبٌ مِمّا أَقْدَمَتْ عَلَيهِ...

«أَيْنَ أَنا؟

وماذا أَفْعَلُ؟

ولماذا أَفْعَلُ هٰذا؟»

وحاوَلَتْ أَنْ تَتَراجَعَ. حاوَلَتْ أَنْ تَتَفادى أَمْرًا، إلَّا أَنَّ شَيئًا ضَخْمًا لا يَرْحَمُ صَدَمَها في

رَأْسِها، وأَلْقاها على ظَهْرِها.

وشَعَرَتْ بعُقْمِ المُحاوَلَةِ، شَعَرَتْ بالنِّهايَةِ، فصاحَتْ: «رَبِّي اغْفِرْ لي! اغْفِرْ لي!»

وتَوَهَّجَ النُّورُ الَّذي قَرَأَتْ مِن خِلالِهِ أَسْطُرَ الحَياةِ، ساطِعًا باهِرًا. تَوَهَّجَ النُّورُ المُفْعَمُ بالمَتاعِبِ، والزَّيْفِ، والأَحْزانِ، والشُّرورِ. تَوَهَّجَ هٰذا النُّورُ كما لَمْ يَتَوَهَّجْ مِنْ قَبْلُ، وأَضاءَ لَها كُلَّ ما اكْتَنَفَهُ الظَّلامُ. وما لَبِثَ أَنِ اخْتَلَجَ اخْتِلاجَةَ المَوتِ، وتَضاءَلَ، وتَضاءَلَ حتَّى تَخْمَدَ إِلى الأَبَدِ.

أسئلة تحليليّة

١ - ضَعْ للخاتِمةِ عُنوانًا مُناسِبًا.

٢ - نَخالُ أنّكَ خَمَّنْتَ النِّهايةَ حينَ سُئِلتَ عنها في الفَصلِ الأخيرِ، والآنَ وقد رَأَيْتَها وعَرفْتَها: هَل أَعجَبَتْكَ؟ أكانَتْ أَنّا تَستَحِقُّ هٰذِهِ النِّهايةَ؟ أكانَ النَّاسُ وَراءَ مَصيرِ أنّا؟ أَكانَتْ هذهِ النِّهايةُ عِقابَ السَّماءِ؟ أَتَرى أَنَّ أَنّا كانتْ تُعاقِبُ فرونسكي أَم تُعاقِبُ نَفسَها؟ وهَل تَرى أَنَّها تَحَدَّتِ المُجْتَمَعَ والأَعرافَ والقَوانينَ بمَوْتِها؟ عَلِّلْ إجاباتِكَ.

٣ - أمّا وقَدِ انْتَهَتِ الرِّوايةُ ولَقِيَتْ أَنّا كارنينا مَصيرَها المَحتومَ فيما كانَ فرونسكي يُعِدُّ لمَشْروعِ زَواجِهِ، فهَل تَرى أَنَّ حُبَّ فرونسكي لأَنَّا كانَ منذُ البِدايَةِ حُبًّا حَقيقيًّا أَو كانَ نَزْوةً عابِرَةً؟ عَلِّلْ ما تَذهبُ إِليهِ.

٤ - أَكانَ يُمكِنُ لمَسارِ الرِّوايةِ أَن يَذْهَبَ في غَيرِ هٰذا الاتِّجاهِ لَو لَم تَظْهَرِ الأَميرةُ سوروكين؟ وكيفَ؟

٥ - أَتَرى أَنَّه كانَ بمَقدورِ أَنّا تَلافي هذهِ النِّهايةِ والاحتِفاظُ بفرونسكي عَشيقًا في آنٍ معًا؟ وكيفَ ذلكَ؟

٦ - لَخِّصْ نِهايةَ الرِّوايةِ بحِكْمةٍ أَو قَوْلٍ مَأْثورٍ.

أَسْئِلَةٌ تَحْليليَّةٌ عامَّة

أوَّلًا - الحَدَث

١ - أَيُّ نوعٍ مِنَ الأَحداثِ (اجتماعيَّة، سياسيَّة، اقتصاديَّة، تاريخيَّة. . .) حَرَّكَ الكاتبَ في هذِهِ الرِّوايةِ؟

٢ - ما المِحورُ الأَساسُ الَّذي كانَ قُطبَ الأَحداثِ في هذِهِ الرِّوايَةِ؟

٣ - هَل تَرى أَنَّ حَدَثًا كهذا (الحَدَث المِحْوَر) يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ في المُجتَمَعِ؟ ولماذا؟

٤ - ما الأَحْداثُ الثَّانَويَّةُ الَّتي رافَقتِ الحَدَثَ المِحوَرَ في هذهِ الرِّوايَةِ؟

٥ - ما دَورُ هذهِ الأَحداثِ الثَّانَويَّةِ في سَيرورَةِ الرِّوايَةِ؟ وهَل وجَدْتَ أَنَّ بعضَها لا يَلْزَمُ لهذهِ السَّيرورَةِ؟ ما هوَ؟ وكَيفَ؟

٦ - هَل تَرى أَنَّ أَحداثًا ثانَويَّةً كهذهِ مُمكِنَةُ الوقوعِ في المُجتَمَعِ؟ ولماذا؟

٧ - هَل بدا لكَ الكاتبُ موفَّقًا في الإِمْساكِ بدَفَّةِ هذهِ الأَحداثِ جميعًا؟ وهَل اسْتَطاعَ مِنْ خلالِها أَنْ يَعْقِدَ حَبكَةَ الرِّوايةِ لِيَصِلَ إِلى أَهدافِهِ؟ أَوْضِحْ ما تَذهَبُ إِليهِ.

٨ - هَل أَقنَعَتْكَ سَيرورَةُ هذهِ الأَحداثِ؟ عَلِّلْ رَأْيكَ.

٩ - هَل رَأَيْتَ نِهايَةَ الأَحداثِ مُقْنِعَةً؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِلَيهِ.

ثانيًا - الهَدَف

١ - لِكُلِّ عملٍ روائيٍّ هَدَفٌ. فما الهَدَفُ الَّذي رَمى إِليهِ الكاتبُ مِنْ وراءِ هذهِ الرِّوايةِ؟

٢ - ما دَوافِعُهُ إِليه؟ أَتَراها في الطَّبَقيَّةِ وتَفَكُّكِ أَواصِرِ الأُسْرَةِ في مُجْتَمَعِ النُّبلاءِ الرُّوسِ يَوْمَئذٍ، أَمْ تَراها في غيرِ ذلكَ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِليهِ.

٣ - أَتَراهُ هَدَفًا إِصْلاحيًّا بَنَّاءً أَمْ هَدَفًا ثَوْريًّا هَدَّامًا؟

٤ - أَتَرى أَنَّ هَدَفَ الكاتِبِ يَسْتَحِقُّ هذا العملَ الرِّوائِيَّ المُطَوَّلَ؟ ولماذا؟

٥ - أَتَرى هنالِكَ أَهدافًا أُخرى قد أَلْمَحَ إِلَيها الكاتِبُ؟ وما هيَ؟

ثالثًا - الشَّخْصِيَّات

١ - في الرِّوايةِ عَدَدٌ مِنَ الشَّخصِيَّاتِ. أَيٌّ مِنها هي الشَّخْصِيَّةُ المِحْوَرِيَّةُ؟

٢ - الشَّخْصِيَّاتُ الأُخْرى شَخْصِيَّاتٌ مُساعِدَةٌ. رَتِّبْها بحَسَبِ أَهَمِّيَّتِها في حَبْكَةِ الرِّوايةِ.

٣ - رَسَمَ الكاتبُ شَخْصِيَّاتِ رِوايَتِهِ مِنَ الدَّاخِلِ وحَلَّلَ نَفْسِيَّاتِ بعضِها، فاعْتَمَدَ حينًا على الوصفِ المُباشَرِ، وحينًا على التَّمثيلِ (نَقصِدُ بالتَّمثيلِ أَنْ تَتَحدَّثَ الشَّخصيَّةُ عن نَفْسِها في مُناجاةٍ داخِلِيَّةٍ أَو يَتَحَدَّثَ غَيرُها عنها في حِوارٍ). هاتِ مِنَ الرِّوايةِ مِثالًا لِكُلٍّ مِن هاتَينِ الطَّريقَتَينِ.

٤ - لَخِّصْ، في قليلٍ مِنَ الأَسطرِ، المُمَيِّزاتِ النَّفسيَّةَ لِكُلٍّ مِنَ الشَّخصيَّاتِ التَّاليةِ: أَنّا كارنينا، أَلِكْسي فرونسكي، أَلِكْسيس كارنين، ستيفان أوبلنسكي، كاترين، داريا، ليفين، بتسي.

٥ - لِمَ جَعَلَ الكاتبُ أَنّا كارنينا بارعَةَ الجَمالِ وشَخْصِيَّةً فَذَّةً في ذَكائِها وأَناقَتِها؟ ولِمَ جَعَلَ فرونسكي كذلكَ؟

٦ - لِمَ تَعَمَّدَ الكاتبُ أَنْ يَجعَلَ كارنين قَبيحَ الهَيئَةِ مُنَفِّرًا؟

٧ - أَتَرى أَنَّ شَخصيَّةَ أَنّا كارنينا تَسْتَدِرُّ عَطفكَ، أَمْ تُوَلِّدُ لَديكَ شُعورًا بوُجوبِ إِدانَتِها؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِليهِ.

٨ - كَيفَ اسْتَطاعَ فرونسكي أَنْ يوقِظَ في أَنّا مشاعرَ الحُبِّ الجارفِ؟ تُرى أَكانَ هذا شُعورًا مَكْبوتًا في نفسِها رَفَعَ عنهُ فرونسكي القِشْرَةَ الَّتي تُغَلِّفُهُ، أَمْ إِنَّ لكَ رَأْيًا آخَرَ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إِليهِ.

٩ - غالبًا ما يقومُ الصِّراعُ في العَمَلِ الرِّوائِي بينَ شَخْصِيَّتَينِ؟ فمَن هُما هاتان الشَّخْصيَّتانِ في الرِّوايةِ هذِهْ؟ وماذا تُمَثِّلُ كُلٌّ منهُما؟

١٠ - أَكانَتِ الشَّخصِيَّاتُ الَّتي درسْتَ مُقْنِعَةً في أَقْوالِها وأَفْعالِها، أَمْ كانَ لكَ عَلَيها مآخِذُ؟ وما هِيَ؟ أَوْضِحْ ما تَذهَبُ إِليهِ بالحُجَّةِ والدَّليلِ.

١١ - ما الَّذي يُعجِبُ المَرْءَ في شَخصِيَّةِ أَلِكْسيس كارنين؟ وما الَّذي لا يُعجِبُهُ؟ وهَل تَرى في الرَّجُلِ صِفاتِ الزَّوجِ المثالِيِّ؟

١٢ - هَل وَقَعْتَ في شَخْصِيَّةِ كارنين على قِيَمٍ روحِيَّةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الكِتابِ المُقَدَّسِ؟ ما هِيَ؟

١٣ - هَل وَقَعْتَ في شَخْصِيَّةِ أَنّا كارنينا على تَناقُضٍ ما؟ وما هوَ؟

١٤ - ما المَشْهَدُ الفاجِعُ الَّذي ظَلَّ يَحفِرُ في ذاكِرَةِ أَنّا مُنْذُ بَدْءِ الحَبْكَةِ في مَطلعِ الرِّوايةِ حتَّى

لَحْظَةِ الحَلِّ الصَّاعِقِ (الانْتِحارِ)؟

رابعًا - بيئةُ الرِّواية

١ - في أيِّ بيئةٍ اجتماعيَّةٍ أَجْرى الكاتِبُ أَحداثَ روايَتِهِ؟
٢ - هَل تَراهُ كانَ راضيًا عن هذا المُجْتَمَعِ؟ عَلِّلْ إجابَتَكَ بأَدِلَّةٍ مِنَ الرِّوايَةِ.
٣ - لَمْ يُذكَرْ مِنْ أَبناءِ الشَّعبِ في سِياقِ الرِّوايَةِ غيرُ الخادمِ والحوذِيِّ والبُستانِيِّ والمُربِّيَةِ. فلماذا؟ وهَل تَرى في هذا عَيبًا مِن عُيوب الرِّوايَةِ؟
٤ - لِمَ غَيَّبَ الكاتبُ الطَّبقاتِ الاجْتماعِيَّةَ الأُخرى؟ أَلَيْسَ هذا نَقْصًا في رِوايةٍ كهذِهْ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.
٥ - في مُجتَمَعِ «أَنّا كارنينا» ذِكْرٌ لأَلْقابٍ شاعَ استِعْمالُها بينَ عَليَّةِ القَومِ في الغَرْبِ. عَدِّدْها وصَنِّفْها.
٦ - هَل رَأَيْتَ للبيئةِ الطبيعيَّةِ دَورًا في مَجْرى أَحداثِ هذهِ الرِّوايةِ؟ ولماذا؟

خامسًا - اللُّغَةُ والأُسْلوب

١ - عَلامَ اعتَمَدَ الكاتبُ في عرضِ أَحداثِ الرِّوايةِ؟
٢ - أَيَّ الطَّريقتَينِ اعتَمَدَ الكاتبُ في عرضِ أحداثِ الرِّوايةِ؟ أَطريقَةَ السَّردِ التَّاريخيِّ أَمْ طَريقَةَ السِّيرةِ الذَّاتيَّةِ؟ وأَيَّ الطَّريقتَينِ تُفَضِّلُ؟ هَل قَرَأْتَ قِصَّةً بُنِيَتْ على طريقةِ السِّيرةِ الذَّاتِيَّةِ (اعتِماد ضَميرِ المُتَكلِّم)؟ ما هيَ؟
٣ - أَكانَ السَّردُ بلُغةٍ سهلةٍ مأنوسةٍ، أَمْ كانَ فيهِ صعوبةٌ ومُعاظَلَةٌ؟ اذْكُرْ مِثالًا لِما تَذهَبُ إليهِ.
٤ - هَل أَدّى الحوارُ غَرَضَهُ؟ هَل طَوَّرَ الأَحْداثَ؟ هَل رَسَمَ الشَّخصيَّاتِ؟ هَل كانَ مُطابقًا لشَخْصيَّةِ المُتكَلِّمِ؟ هَل أَقْحَمَ فيهِ الكاتبُ نفسَهُ فجاءَ مُخالفًا لواقِعِ الحالِ؟ هاتِ أَمْثلةً لِما تَذهَبُ إليهِ.
٥ - هَل كانَتِ المُناجاةُ مُوَفَّقَةً في الكَشْفِ عَنِ الواقِعِ النَّفْسيِّ لبعضِ الشَّخصيَّاتِ؟ وهَل استطاعَتِ المُناجاةُ أَنْ تُؤَثِّرَ في تَوْجيهِ الحَدَثِ؟ عَلِّلْ ما تَذهَبُ إليهِ.
٦ - هَل أَنطقَ الكاتبُ كلَّ شخصيَّةٍ لُغتَها؟ وكَيفَ؟
٧ - هَل أَقحمَ تولستوي نفسَهُ واعِظًا القارئَ أَو مُعلِّقًا على الأَحداثِ في الرِّوايَةِ؟ وما تَفسيرُ ذلكَ؟

الفهرس

سلسلة المفيد

المفيد في الأدب العربي	الجزء الأول
المفيد في الأدب العربي	الجزء الثاني
المفيد في الأدب العربي	الجزء الثالث (يصدر قريباً)
المفيد في القواعد و البلاغة و العروض	الجزء الأول
المفيد في القواعد و البلاغة و العروض	الجزء الثاني (يصدر قريباً)
المفيد في القواعد و البلاغة و العروض	الجزء الثالث (يصدر قريباً)

الثقافة الأدبيّة العالميّة

تولستوي	أنّا كارنينا (لها دراسة تحليلية نقديّة صدرت في كتيّب مستقلّ)
غوته	آلام فرتر (يصدر قريباً)
سرفنتس	دون كيخوت (يصدر قريباً)
طاغور	سلّة الفاكهة (يصدر قريباً)

